الدكتور عدنان علي رضا النحـوي



الطبعة الرابعة
١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٤م

دار النحوي
للنشر والتوزيع

إلى
لقاء المؤمنين
وبناء الجيل المؤمن



الشورى

وممارستها الإيمانيـة

الدكتور

عدنان بن علي رضا بن محمد النحوي

الطبعة الرابعة

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

دار النحوي
للنشر والتوزيع

ح دار النحوي للنشر والتوزيع ، ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

النحوي ، عدنان بن علي رضا

الشورى وممارستها الإيمانية

٧٢٤ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ٠-٧٤-٦٨٧-٩٩٦٠

١- الشورى ٢ الأحكام

أ- العنوان

ديوي ٢٥٧.١ ١٤٢٣/٥١٠٢

رقم الإيداع ١٤٢٣٥١٠٢

ردمك : ٩٩٦٠٦٨٠٧٤٠٠


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م

الطبعة الثانية

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م

الطبعة الثالثة

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨م

الطبعة الرابعة

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م



دار النحوي للنشر والتوزيع

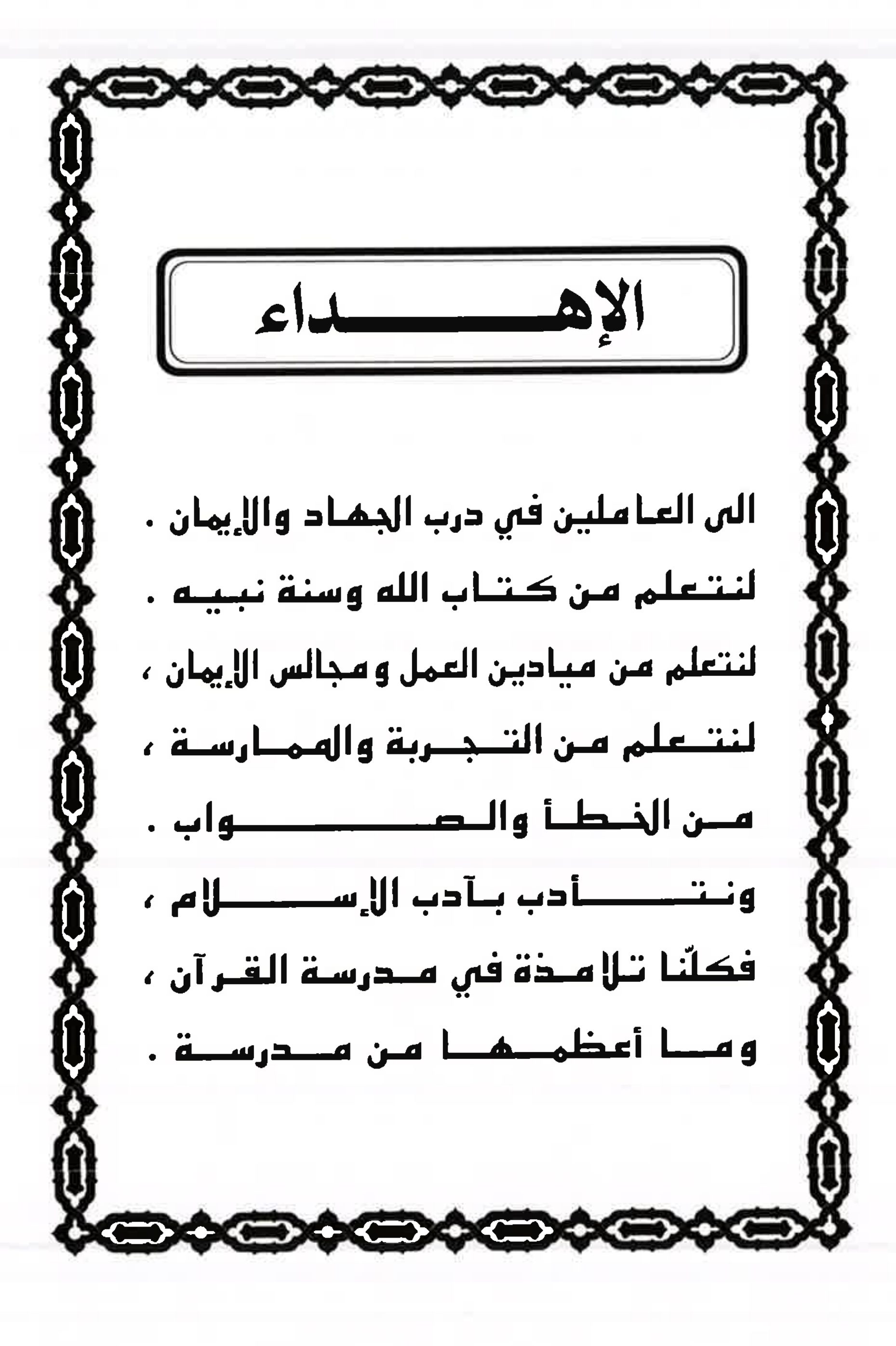
هاتف : ٤٩٢٤٣٣٩ - فاكس : ٤٩٣٤٨٤٢

موقع الانترنت : www.alnahwi.com

البريد الإلكتروني : info@alnahwi.com

ص . ب : ١٨٩١ الرياض : ١١٤٤١

المملكة العربية السعودية



الإهداء

الى العاملين في درب الجهاد والإيمان .

لنتعلم من كتاب الله وسنة نبيه .

لنتعلم من ميادين العمل ومجالس الإيمان ،

لنتعلم من التجربة والممارسة ،

من الخطأ والصواب .

ونتأدب بآدب الإسلام ،

فكلّنا تلامذة في مدرسة القرآن ،

وما أعظمها من مدرسة .



الافتـــاح

﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى: ٣٦ - ٣٨]

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

عن أبي رقيـة تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قـال : «**الدين النصيـحة**» قـالوا : لمن يارسـول الله ، قـال : «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**» . (رواه الخمسة)

موعظـة وذكرى
كلمـات نقـف عنـدها

من أجل أنّ يعرف الدعاة أهمية مسؤولياتهم وخطورتها ، فإنا نقول :

● إن بناء عمارة مهما عظمت يسهل إذا قيس ببناء الإنسان على قواعد الإيمان والتوحيد وعلى قواعد المنهاج الرباني . فتلك مهمة يقوم بها المهندسون والفنيون ، أما بناء الإنسان وإعداده وتدريبه فهي مهمة بعث الله من أجلها الرسل والأنبياء الذين ختموا بمحمد ﷺ ، ثم جعلها مهمة الأمة المسلمة الواحدة الممتدة مع الزمن .

*****

ومن أجل لقاء المؤمنين الصادقين العاملين وبناء الأمة المسلمة الواحدة ، ومن أجل العهد مع الله والعبادة والأمانة والخلافة والعمارة التي خُلِقَ الإنسان للوفاء بها في الحياة الدنيا ، فإننا نذكّر بأنه :

● « يجب أن نتعاون فيما أمَرَنَا الله أن نتعاون فيه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما أذن الله لنا أن نختلف فيه » .

*****

ومن أجل ألاّ ندّعي الخوف على الإسلام من خلال الضعف والتقصير والإقبال على الدنيا ، والاحتماء خلف الشعارات وحدها ، فإننا نذكّر أنفسنا والدعاة والمسلمين والناس فنقول :

● أيها الناس ! أيها المسلمون ! أيها الدعاة ! كما تظهرون الخوف على الإسلام ، مع أنّ للإسلام ربّاً سينصره بجنود ينصرون الله ربهم ويوفون بعهدهم معه ،

فخافوا على أنفسكم حين تقفون بين يدي الله ، يسألكم عما فعلتم في الحياة الدنيا ، وهل نصرتم الله كما أمركم وتجنبتُم الفتن التي نهاكم عنها ، والصراع والشقاق وتنافس الدنيا ؟! خافوا على أنفسكم كما تخافون على الإسلام .

*****

ومن أجل الاستقامة على الصراط المستقيم ، ومعرفة الدرب الذي يقود إلى الأهداف ، نذكر ونقول :

● إذا غاب النهج والتخطيط على أساس الإيمان والتوحيد والمنهاج الربّاني في واقع أي أمّة ، فلا يبقى لديها إلا الشعارات تضجّ بها ولا تجد لها رصيداً في الواقع إلا مرارة الهزائم وتناقض الجهود واضطراب الخُطا ، ثم الشقاق والصراع وتنافس الدنيا في الميدان ، ثمّ الخدر يسري في العروق ، ثم الشلل ، ثم الاستسلام !

*****

ومن أجل تأكيد أهمية النهج والتخطيط في الواقع نذكّر كذلك ونقول :

● إذا التقى فريقان : فريق له نهجه وخطته ، فعرف بذلك دربه ومراحله وأهدافه ، فنهض وصدق عزمه لها ، وفريق لانهج له ولاخطة إلا الشعارات يُدوّي بها ، فإن الفريق الأول بنهجه وتخطيطه يستطيع أن يحوّل جهود الفريق الثاني لصالحه ، فيجني النصر ، ويجني الآخر الهزيمة والخسران والحسرة .



ومن أجل الاطمئنان إلى السبيل لتحقيق أهداف الدعوة الإسلامية فإننا نقول :

● **إن الأهداف الربانيّة لايمكن تحقيقها إلا بجنود ربّانيين ووسائل وأساليب ربانية . وهذه وتلك تحتاج إلى بناء وإعداد ربّاني .**

*****

ونقول كذلك :

● **من عَجَزَ عن إصلاح نفسه فهو أعجز عن إصلاح غيره أو إصلاح المجتمع .**

*****

● **كم من الذين ينادون بالإصلاح والتغيير هم أحوج الناس إلى الإصلاح .**

*****

● **من سدَّ أذنيه عن النصيحة فَقَد فرصة عظيمة لمعرفة أخطائه ، وفرصة أعظم لمعرفة سبيل الإصلاح والعلاج ، وتعرَّض أكثر للمتاهة والضلال .**

*****

● **إن الهوى لايُصْلِحُ بل يفسد ويُدَمِّر ، وإن اتِّباع الحقَّ هو سبيل الإصلاح للفرد والأسَرة والجماعة والأمة ، وكذلك للبشريَّة كلها .**

*****

● **بين الحق والهوى باب ابتلاء وتمحيص . من صدق الله نجا ودخل إلى الحق ، ومن ضلَّ هلك ودخل إلى الهوى .**



● ليس من الحكمة أن نكتفي بإعلان مبادىء الرحمة والعفو والتسامح والسلام في الإسلام ، حين يكون مثل هذا الإعلان مظهراً من مظاهر الضعف والهوان والاستسلام أو يوحي به . ولكن الحكمة والواجب أن نُظهر تكامل الإسلام من عفو وتسامح ، ومن عقوبة وحزم ، ومن سلام وحرب ، ومن حكمة وتشريع ، ومن إيمان وتوحيد .

*****

● إنّ المعركة مع أعداء الله تبتدئ أولاً في نفسك أيها الداعية المسلم ، فإن انتصرت فيها ، فيمكن الانتقال إلى جولة أخرى ! وإن هُزِمْتَ بها فستُهزَم في سائر المعارك!

*****

● إنّ الله سبحانه وتعالى جعل صراطه الحقّ مستقيماً ، حتى لايضلّ عنه أحد . وجعله واحداً حتى لايُختَلَف عليه . وجعله صراطاً مستقيماً واحداً ليجمع المؤمنين أمّة واحدة وصفاً كالبنيان المرصوص . فلماذا تاه المسلمون عنه فتفرقّوا، ثم ضَعُفوا وهانوا .

*****

● كلمة المؤمن طيّبة ، قويّة واعية ، لاتنحرف عن الصراط المستقيم . إنها بَرَكَةٌ للناس ، ونورٌ في الحياة ، وسلاح في الميدان ، وهي أساس حريّة الرأي وأساس النصيحة ، وقاعدة الشورى .

*****

● لافقه دون مسؤوليّة ، ولا مسؤوليّة دون فقه .

*****

مقدمة الطبعة الرابعة

مع هذه الطبعة الرابعة لهذا الكتاب ، لا أجد ما أضيفه إلا أن أؤكد أنني أطرح نظريَّة كاملة للشورى في الإسلام ، نظرية تنبع من الكتاب والسّنة ، ومن دراسة الواقع البشري من خلال الكتاب والسنّة ورده إليهما ، ومن تجارب ميدانية في الساحة الإسلامية لفترة زمنية غير قليلة .

إننا نقَدِّم هذا الكتاب جزءاً مترابطاً ومتناسقاً مع «**النظرية العامة للدعوة الإسلامية**» ، ومع النهج العام الذي ندعو إليه ، في دراسات متماسكة في : الفكر ونهجه، الواقع وأحداثه، والفقه والتوحيد ، والأدب الملتزم بالإسلام ونقده، والشعر والملاحم، والردّ على المذاهب الغربية : الفكرية والأدبيّة ، ليكون هذا كله مساهمة في لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن والأمة المسلمة الواحدة، على نهج جليٍّ وقاعدة صلبة.

إننا نطرح هذه النظريّة العامة مبنية على تلك الأسس ، ممّا يفتح مجال الاستفادة منها في مختلف ميادين الحياة ابتداء من حياة الفرد ، إلى حياة الأسرة والبيت ، إلى مختلف المؤسسات والمراكز والمستويات في الأمّة .

إن من أبرز الخلافات بين المسلمين اليوم قضية الشورى ، سواء أكان ذلك في الميدان النظري أم التصور التطبيقي . ومن أبرز الخلافات مايراه بعضهم من أن الشورى ملزمة ، ومايراه آخرون من أنَّ الشورى معلمة . والأمر الغريب أن الفريقين اعتمدوا على نفس الجزء من آية كريمة في سورة آل عمران ، الآية الكريمة : ١٥٩ :

﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** (١٥٩) ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

كلا الفريقين اجتزأ من هذه الآية الكريمة : «**وشاورهم في الأمر**» ، ثم بنى حكمه على هذا الجزء من الآية. فقال فريق إن الشورى معلمة ، وقال الفريق الاخر إن الشورى ملزمة . ودار الخلاف . ونرى أنه لو أخذ كل فريق بالآية كلها ، وضم إليها سائر الآيات والأحاديث المتعلقة بالموضوع ، لكانت الصورة أعدل وأحكم وأقرب للتقوى .

هذا من ناحية ! ومن ناحية أخرى ، فلا هؤلاء ولا هؤلاء مارسوا الشورى عمليّاً على ضوء تصورهم . ولكن الذي طبّق هي مداولات الديمقراطيّة التي فرضت نفسها أو تسللت إلى صفوف المسلمين ، واعتماد مبدأ الأكثرية حيث يجوز وحيث لايجوز .

والنقطة الأخرى التي نود الإشارة إليها هي أن الشورى الإيمانية لايمكن تطبيقها إلا عندما يطبق الإسلام كله في الأمة . فالإسلام يؤخذ كله ولايصلح حال الأمة حين تؤخذ أجزاء وتترك أجزاء .

إن الشورى كمبدأ عام ونظرية متكاملة تحتاج إلى المجتمع المسلم الذي يطبق الإسلام ، حتى تسود الشورى الأمة كلها من البيت إلى الدولة . وهذا المبدأ يتطلب أن تكون الشورى موضع دراسة وتدريب في البيت والمعهد والمؤسسات والدعوة الإسلامية . التدريب والإعداد حاجة أساسية للشورى كما هي حاجة أساسية في قضايا أخرى كثيرة في الإسلام . وواقع المسلمين اليوم بحاجة إلى الشورى الإيمانية كما هو بحاجة إلى سائر حقائق الإسلام ، تتمثّل كلها في منهاج رباني متكامل .

إلى هذه الحقائق ندعو المسلمين عامة إلى النهوض لما يأمرهم به الله سبحانه وتعالى . فإذا صدق الإيمان والتوحيد في القلوب ، فإن أول الأمر بعد ذلك في عملية البناء والإعداد هو دراسة منهاج الله- قرآناً وسنّة ولغة عربيّة - دراسة منهجيّة صحبة عمر وحياة في جميع مراحل البناء والإعداد ، ليكون ذلك منهجاً عاماً في الأمة كلها ، حتى تبرز من خلال ذلك المواهب والطاقات يصوغها الإيمان والتقوى في أمة واحدة صفاً واحداً كالبنيان المرصوص ، كما أمر الله .

أسأل الله العلي القدير أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، غنياً بفضله ، ندياً برحمته .

عدنان بن علي رضا بن محمد النحوي

الرياض : ٦/ ٨/ ١٤٢٣هـ

١٢/ ١٠/ ٢٠٠٢م

مقدمة الطبعة الثالثة

أحمد الله حمداً طيباً مباركاً فيه ، وأسأله القوة والعفو والعافية ، وأسأله الثبات والعزيمة ، والرشاد والهدى ، والسداد والتقوى . هو الوليّ الحفيظ .

في الطبعة الثالثة هذه رأيت أن أغير ترتيب الفصول والأبواب على نحو أعتقد أنه أقرب لوضوح نهج الكتاب وخطته . فمن حيث النهج أعتبر الكتاب كله يتألف من أربع وحدات كبرى وهي :

١ - **الافتتاح والمقدمات والتمهيد** . وتهدف هذه الوحدة إلى عرض الملامح العامة.

٢ - **عرض القواعد الربانية الأساسية التي تقوم عليها نظرية الشورى في الإسلام ونظامها المتكامل المتناسق** . وجاء عرض هذه القواعد من خلال أبواب وفصول تدور حول : الشورى في القرآن والسنّة ، قواعد وأسس عامة : (النصيحة ، الرأي ، السمع والطاعة ، البيعة) ، الاختلاف ، الموازنة في الممارسة والتطبيق ، الإنسان بين الخطأ والصواب ، سورة الشورى . وقد ورد أثناء الدراسة قواعد لم تأخذ فصلاً مستقلاً ، كالاختصاص والمسئولية ، وحدود الفرد المؤمن ، وطبيعة الممارسة الإيمانية وخصائصها ، وغير ذلك من القواعد التي جاء عرضها في ثنايا الدراسة والبحث . وهذه الوحدة تهدف إلى بيان القواعد التي نحتاج إلى إحيائها في ممارستنا الإيمانية ، بعد أن ضعفت وذبلت في قطاع واسع جداً من حياة المسلمين والدعاة ، وتهدف هذه الوحدة إلى أن تبين نظرية الشورى وقواعدها ، وأن الشورى لايمكن أن تقوم في مجتمع إلا إذا توافرت هذه القواعد والأسس فيه ، وتربّت الأمة عليها في مناهجها وبنائها ، ومعاهدها ومؤسساتها ، وأنها تمثل الفرق الرئيسي بين الشورى وغيرها من المداولات.

٣ - **ممارسة النظام الشوري والنظرية الشورية في واقع الحياة البشرية ممارسة تمثّل النموذج والقدوة في حياة المسلمين وفي حياة البشرية كلها** . فإذا كانت الوحدة الثانية تعرض النظرية فهذه الوحدة تعرض التطبيق . ولذلك عرضنا

الممارسة مبوبة إلى ميادين مختلفة : الميدان العسكري والإداري والمالي والقضاء والسياسة ، أو إلى أحداث هامة رئيسة . وقد عمدنا إلى هذا الأسلوب لنقترب من أسلوب الإحصاء العلمي الذي يساعد على الوصول إلى نتيجة أعدل وتصور أدق وحكم أقرب للتقوى .

٤ - **ربط الشورى بواقعنا المعاصر وبالدعوة الإسلامية** ، لتخرج بالتصور العام الذي نحتاج إلى ممارسته في واقعنا اليوم . ولذلك نعرض في فصل منه مقارنة عامة بين النظام الشوري في الإسلام وبين مايجرى في واقعنا . ثم نعرض ملامح الواقع في فصل آخر . وندرس بعد ذلك أهل الرأي والصياغة الشورية ، ونختم البحث بما يجب أن يختم به ألا وهو القرار . فالقرار يمثل الخطوة الأخيرة في رحلة الشورى ومسارها .

لذلك أعدت ترتيب الأبواب والفصول على النحو الموضح في فهرس الكتاب ، ليبين هذا النهج فيه . ولقد جاء الفهرس مفصلاً في هذه الطبعة ليقدم مع معظم الفصول عناوين جانبية وضعت في الفصول لم تكن في الطبعات السابقة .

كما أدخلت فقرات وإيضاحات جديدة لبعض الموضوعات منها : تفسير الآيتين في سورة آل عمران وسورة الشورى ، الشورى في الأحاديث النبوية ، الرأي ، الواقع ، وموضوعات أخرى متعددة .

كما تمّ تخريج جميع الأحاديث الشريفة ، وأضيف فهرس خاص بالأحاديث في آخر الكتاب .

وعلى ضوء هذه التعديلات رأيت ضرورة تغيير الاسم إلى اسم جديد يشير إلى المنحى والمنهج . واخترت لذلك :

الشورى وممارستها الإيمانية .

عدنان بن علي رضا بن محمد النحوي

الرياض : ١٢/ ٥/ ١٤٠٨هـ
١/ ١/ ١٩٨٨م

مقدمة الطبعة الثانية

لقد تأخر صدور الطبعة الأولى لهذا الكتاب أكثر من سنتين ، لأسباب متعددة ، كان من أهمها المرض الذي ألمّ بي . ثم صدرت الطبعة الأولى في عام ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) ، وإني أحمد الله سبحانه وتعالى أن منّ عليّ بتيسير صدورها ، راجياً منه ، بخشوع وإنابة ، أن يجعله كلمة خالصة لوجهه الكريم ، مقبولة منه ، مباركة برحمته .

لم يكن الكتاب ، في حقيقة الأمر ، ثمرة جهد سنة أو سنتين . ولكنها سنوات ، نشط فيها الجهد على هذا البحث ، دراسة وتنقيباً . ولم يكن كذلك ثمرة الدراسة وحدها ، ولكنها تجارب مرّت ، أعطت فائدتها عندما ردت إلى منهاج الله . والمصدر الثالث هو الواقع الذي نعيشه ، والمعاناة التي نقاسيها ، ندرسها من خلال منهاج الله . وكانت عصارة ذلك في هذا الكتاب .

ومع صدور الطبعة الأولى ، تلقيت بعض الأسئلة والملاحظات ، وقدراً من الاستيضاح ، من عدد من الإخوة الأساتذة ، رجال الفقه والدعوة والقانون . ودارت مناقشات إيمانيّة ، وشورى مباركة ، إن شاء الله . ولقد حرصت على تسجيل كل ماتوافر لديّ من الملاحظات والأسئلة والاستيضاح ، وعكفت على دراسته ، ثمّ رده إلى منهاج الله قرآنا وسنّة ، آخذاً بعين الاعتبار الواقع الذي ندرسه من خلال منهاج الله ، حتى تستقيم الدراسة ، وتصدق النظرة ، ويصحّ الردّ ، بإذن الله تعالى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وإني أقدّم صادق شكري إلى هؤلاء الإخوة جميعاً على ماأسدوه من نصح كريم ، وكلمة طيبة ، داعياً الله سبحانه وتعالى أن يجزيهم عني أفضل الجزاء .

ولقد منّ الله عليّ بفضله ، فاستفدت من الأسئلة والملاحظات ، والمناقشات والاستيضاح ، فوائد جمة ، أرى أهمّها اثنتين :

الأولى : لقد زادتني الأسئلة والملاحظات يقيناً بصحة النهج الذي اتبعته ،

وسلامة الصورة التي عرضتها . ولقد كان مصدر هذا اليقين هو أني رددت ذلك كله إلى منهاج الله كما أسلفت . وبذلك زادت نظريّة الشورى التي أقدمها وضوحاً وإشراقاً في صدري ، وازددت اطمئناناً إلى تكاملها وتناسقها .

والثانية : هي أني شعرت بضرورة إيضاح بعض القضايا على نحو أوسع . فكانت الإضافات التي شملتها هذه الطبعة الثانية .

إلا أن هنالك موضوعين هامين ، يحتاجان إلى تفصيل أوسع مما ورد في الكتاب ، لاستكمال الصورة والنهج ، وهما :

- المقارنة بين الشورى والديمقراطية .
- ومبدأ الأكثرية والأقلية .

وقد صدر هذان الموضوعان في كتاب مستقل بعنوان :

«الشورى لا الديمقراطية»

وإني أحمد الله سبحانه وتعالى ملء السموات والأرض ، وملء مابينهما ، وملء ما شاء من شيء بعد . أحمده واستغفره وأتوب إليه مبتهلاً إليه أن يقبل التوبة ، ويمدنا بالعون من لدنه ، وينشر علينا من واسع رحمته .

عدنان بن علي رضا بن محمد النحوي

الرياض : ٣/ ١٠/ ١٤٠٤هـ

١/ ٧/ ١٩٨٤م

مقدمة الطبعة الأولى

خلال سنوات طويلة ماضية ، والشابّ المسلم يعيش في أجواء فكرية حملتها كتب متعددة ، وطرحتها في ساحة العمل الإسلامي ، على طيب لقاء واتفاق ، أو حمى فرقة واختلاف .

وكما كان اللقاء والاتفاق يشغل مجالس وندوات وصفحات ، فكذلك كانت الفرقة ، وكذلك كان الاختلاف . وقد يمتد الاختلاف ويتسع ، وقد يضيق وينحصر ، على تفاوت في الحدة والعنف ، وقد تأخذ هذه القضايا موضوعات شتى ، وتتناول جوانب متعددة . فمن حديث حول نظام الحكم في الإسلام ، إلى حديث حول النظام الاقتصادي ، إلى الدعوة والعمل ، إلى الجاهلية والتكفير ، إلى غير ذلك من الموضوعات المتعددة ، والشورى من بينها . وقد تحدد في جزئيات أو تنمو إلى كبريات .

وقد لانستطيع الآن أن نجزم كم كانت هذه القضايا تمس واقع المسلمين أو حاجتهم الملحة . ولكننا لاننكر أن من بينها قضايا هامة ، وموضوعات أساسية عالجت واقعاً في حينه ، أو جانباً من الواقع .

وربما تجاوزت بعض القضايا واقعاً مؤلماً ، أو أخذت حجماً أكبر من حقيقتها ، أو اضطربت بين أمواج الجدل والخلاف .

وقد يجد القارىء اتجاهاً تطبيقياً عملياً يعينه على المضيّ الصادق في دينه وطاعته ، وقد لايجد . وقد يشعر أن هذا الإنتاج أو ذاك يمثل جهد دعوة ، أو يشعر أنه جهد فرد . وقد يكون أحياناً كثيرة استجابة لردود فعل آنية أو رغبة ذاتية!

وحين نستعرض هذا الزاد الكبير من الفكر الإسلامي ، الذي حملته المكتبة الإسلامية ، وحين يقف الشاب المؤمن أمام ذلك كله ، فقد يجد حيرة .

فقد يجد جهوداً تتضارب ، وطاقات تتبدد ، حين لايجد أن هذا الزاد كله يجمعه نهج واقعي وتخطيط مرحلي ، يستوعب الساحة الإسلامية ، ويتجاوب مع حاجاتها المتجددة النامية .

وربما تزداد حيرته ويعظم اضطرابه إذا وجد أن هذا كله لايخرج من مشكاة واحدة ، ولاينبع من مصدر واحد ، ولا يتدفق من معين واحد . فالمصادر شتى ، والمنابع متعددة ، والأهواء متضاربة.

مع هذه الحيرة ، فإن في نفسه آلاماً تضطرب ، وأنيناً يكاد يختنق ، وحسرة تكاد تتفجر ، ودمعة تكاد تسقط . إنه يرى العالم الإسلامي في ميادينه المتعددة يتهاوى تحت معاول من الفتنة والضياع والتمزق .

إنه يرى التمزق قد أصاب الدار والأرض ، ولكنه لم يتوقف عند ذلك . فقد امتد إلى الأمة ذاتها ولم يتوقف. إنه ماض يكاد يتناول الفكر الإسلامي فيمعن به فرقة وتمزيقاً . فمن يهدىء الآلام ؟ ومن يواسي الأنين ومن يمسح الدمعة ؟ بل من يعالج الجراح المتدفقة بالدماء ؟

إننا لانعترض على قضايا طرحت ، أو مواضيع أثيرت ، بقدر مانعترض على غياب النهج والتخطيط ، وعلى تضارب الجهود وتبدد الطاقات ، وتشعب المصادر. إننا نعترض على غياب أو على غيبوبة وعلى جمود !

إننا لاننكر أبداً أن قضايا جادة قد طرحت ، وأن أموراً حيوية قد عولجت ، ولكننا ، حتى في بعض هذه القضايا ، نشعر بغياب النهج الممتد ، والنمو المستمر ، والتطور المطلوب .

وإذا حاولنا أن نعزو هذا الغياب إلى شيء ، فقد نجد أسباباً هنا وهناك . ولكننا نعتقد أنه دائماً سيكون هناك قاعدتان أساسيتان تجمعان كل العوامل والأسباب :

● **فالقاعدة الأولى** : هي أنه يجب أن يكون للفكر الإسلامي دائماً وأبداً مصدر واحد ونبع واحد على مختلف العصور والأجيال ، وتغير الشعوب والأقوام ، ألا إنه المنهاج الرباني الذي أنزل من السماء على محمد بن عبدالله ﷺ. ذلك أنه هو المنهاج الوحيد المتميز من كل مايمكن أن يأتي به البشر حتى تقوم الساعة . إنه المنهاج الوحيد لدى الإنسان ، المنهاج الوحيد الذي يحمل الحق كل الحق ، ولايحمل معه باطلاً أبداً . إنه المنهاج الوحيد المتكامل المتناسق . إنه المنهاج الوحيد الذي يفي بحاجة الإنسان حتى يرث الله الأرض ومن عليها . إنه من عند ربّ العالمين !

● **والقاعدة الثانية**: هي ضرورة فهم الواقع البشري فهماً نابعاً من خلال المنهاج الرباني ، حقاً كما هو منهاج الله . كاملاً ، واعياً صافياً . كذلك يرى المؤمنون العالمون ، وكذلك يبصرون .

إن فهم هذا الواقع ضرورة لاغنى عنها حتى يتيسر لنا أن نحسن تطبيق منهاج الله في هذا الواقع ، وحتى نحسن ممارسته بأمانة وصدق .

ووعي المنهاج الربّاني ووعي الواقع الذي نعيشه وعياً من خلال المنهاج الربّاني - إن هذا الوعي وذاك - يكوِّنان معاً الأساس القوي لكل نهج وتخطيط ، ولكل عمل متناسق مدروس .

وهذان الخطان المتلازمان ضروريان لحسن ممارسة العبودية لله رب العالمين ، في واقع لا في خيال ، وفي تطبيق لا في أوهام . وهما ضروريان حتى لايتحول الفكر الإسلامي إلى شتات أو إلى مراء ، وحتى يظل الفكر الإسلامي متميزاً عن كل فكر بشري ، بتصوراته الإيمانية الصادقة ، وبتطبيقه الواقعي الصادق . وهما ضروريان حتى يظل الفكر الإسلامي والعمل الإسلامي ناميين متطورين يعالجان أحداثاً متطورة ، ووقائع متجددة متسارعة .

وموضوع هذه الدراسة هو «**الشورى وممارستها الإيمانية**» : الشورى الإيمانية ، الشورى الإسلامية ! وهو موضوع نعتقد أنه جليل وهام ، ونؤمن أنه يمسّ واقعنا اليوم مسّاً قوياً .

وهو من الموضوعات التي دار حولها خلاف واشتدت حولها الفرقة . ولعلّ أهم موضوعات الخلاف كان إلزام الشورى بنتيجتها أو عدم إلزامها .

ولو كان هذا الأمر من إلزام أو عدمه ، هو الذي يفي بحاجة المسلمين في كل عصر وجيل ومع كل شعب وقوم ، ولو كانت هذه هي حاجة المسلمين على مر العصور ، ولو كان الإلزام أو عدم الإلزام يمثل قاعدة مطلقة وقانوناً حقاً ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لو كان هذا كله هو التصور السليم والأمر الحق ، لنزل به القرآن ، أو جاءت به سنّة صريحة مبينة . ذلك أنَّ منهاج الله جُمع الحق المطلق كله بما يفي بحاجة الإنسان ، وأكمل الله لعباده المؤمنين دينهم إكمالاً .

﴿ ... الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ... ﴾ [المائدة: ٣]

والشورى جزء من منهاج الله الذي نزل من السماء حقاً كاملاً . لايختلف في ذلك اثنان أبداً إن شاء الله. والشورى في منهاج الله ليست جزءاً من آية ، أو جزءاً من حديث فقط . لكنها نصوص يَرِدُ بعضُها بلفظة الشورى أو مشتقاتها ، ونصوص قد لاتحمل اللفظة هذه بعينها ولا مشتقاتها . وهذه النصوص أو تلك لاتؤخذ جزءاً منفصلاً عن منهاج الله ، مستقلاً عنه معزولاً عنه ، ثم يبنى على هذا الجزء المعزول حكماً ، أو تنشأ قضية. ولكن هذه النصوص تؤخذ مع تكاملها وترابطها وتناسقها مع سائر الآيات والسور والنصوص . وبمثل هذا الأخذ المتكامل المترابط يظل التصور أوسع وأقرب إلى العدالة .

وهذا الأخذ المترابط المتماسك ضروري ، وضروري جداً ، لا لبلوغ تصور أتم أو أعدل فحسب ، ولكن لبلوغ ممارسة عملية واقعية ، فذلك أسلم وأقرب إلى النجاة . ولا يختلف اثنان من المسلمين أبداً في وجوب ردّ قضايانا كلها ، وقضايانا التي نختلف فيها ، إلى منهاج الله قرآناً وسنّة ، سواء أكانت القضية صغيرة أم كبيرة ، فذلك حكم الله وأمر الله ، ولايحق لأحد أن يخرج عنه .

لايختلف اثنان في ذلك أبداً ، ولكننا نخشى أن تصبح القاعدة أحياناً شعاراً مجرد شعار ، شعاراً يغيب في عالم الممارسة والتطبيق . ذلك أن النصوص تبرز في تكاملها وتناسقها من خلال الممارسة الحية في الواقع البشري ، الممارسة التي يرعاها الإيمان ويدفعها العلم وتنميها الموهبة .

ومنهاج الله كما قلنا حق كامل يفي بحاجة الإنسان على مختلف العصور والأجيال ، ويحتاج المؤمن إلى أن يعيه ويتدبره كما أمره الله سبحانه وتعالى ، وقد جعله الله ميسراً للذكر . ويحتاج المؤمن أن يعي الواقع ويتدبره من خلال منهاج الله ، وعياً إيمانياً ، وعندئذ تمضي الممارسة الصادقة تنميها المواهب والكفاءات المؤمنة .

وهذه الممارسة المؤمنة هي الجهد البشري الذي ينطلق عبادة وطاعة لله ، ليحقق الأمانة التي حملها الإنسان ، ويصدق الاستخلاف الذي استخلف فيه .

وفي هذه الممارسة تبرز أحداث الحياة وقضايا الإنسان ، لترد إلى منهاج الله ، فيرد المؤمن من خلال ممارسته قضاياه كلها إلى منهاج الله ، عن إيمان وعلم وفي حدود دائرته وأمانته ومسئوليته . وترد الجماعة المؤمنة كذلك قضاياها هذا الرد ذاته على نفس الأسس والقواعد . وترد الأمة كلها قضاياها كلها هذا الرد الإيماني الكريم .

وأحداث الحياة ، سواء أكانت في حياة الفرد أم الجماعة أم الأمة ، هي أحداث متجددة ، جعلها الله مصدر الابتلاء والاختبار ، وفق حكمته سبحانه وتعالى .فهي إذن مسئولية الإنسان نفسه أن يواجه هذه الأحداث والقضايا ، وأن يردها إلى منهاج الله ، وأن يجد لها الحلول ، وأن يحدد المواقف ...

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [الملك: ١، ٢]

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف: ٧]

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]

وتتكرر الآيات والأحاديث لتؤكّد هذا المعنى وتثبته في قلوب المؤمنين ، كقاعدة من قواعد الإيمان ، وأساس من أسس الممارسة ، ممارسة الإيمان في كل ميدان وفي كل حالة ، وهذا الجهد البشري في هذه الممارسة المؤمنة يتمثل حيناً في موقف عملي ، أو فتوى وكلمة ، أو كتاب ورسالة ، أو بحث وتدبر ، أو رأي ونصح ، أو مشورة وتعاون ، أو سمع وطاعة . ولاتنحصر هذه الممارسة في باب من أبواب الحياة محدودة ، ولكنها ممتدة مع امتداد الحياة ، نامية مع نموها ، متطورة مع تطورها ، يحكمها منهاج الله في كل خلجة ونبضة ، وفي كل خطوة أو كلمة .

والشورى باب من هذه الأبواب ، وميدان من هذه الميادين ، جاءت في منهاج الله كما ذكرنا نصوصاً متكاملة مترابطة مع سائر قواعد ونصوص منهاج الله ، لاتنفك ولاتنفصل عنها . وجاءت هذه النصوص ، سواء أحملت لفظة الشورى ومشتقاتها أم لم تحملها ، لتمثل القانون الحق المطلق الكامل ، لتمثل حاجة الإنسان كل إنسان ، في كل العصور . وكان من رحمة الله على عباده أن

بعث محمداً بن عبدالله ﷺ ليبلغ الناس ، كافة الناس ، منهاج الله . فأتم التبليغ ، وأدى الرسالة . وكان من تبليغه وأدائه ﷺ أن مارس هذا المنهاج الربّاني في واقع بشري في رعاية الوحي وحماية الله ، حتى تكون هذه الممارسة المثلى نموذجاً يعين على فهم أوسع ، ويدفع إلى ممارسة أدق وأكمل ، تمضي مع حياة الإنسان أبد الدهر .

ومارس الرسول ﷺ الشورى في واقع المسلمين ممارسة مرتبطة بمنهاج الله، ليرى المسلمون الشورى نظرية وقانوناً وتطبيقاً .

ومنَّ الله على عباده كذلك أن جعل لهم ، بعد وفاة الرسول ﷺ ، أئمة من تلامذة مدرسة النبوة ، وأعلاماً من أصحاب رسول الله ﷺ ، وخلفاء راشدين مهديين ،صقلتهم المدرسة ، وشحذت همتهم الممارسة ، ومحصهم الابتلاء . حتى إذا فارقهم رسول الله ﷺ ، فارقهم وقد كان معلمهم ونبيهم ورسولهم ، فارقهم وقد كانوا يرجعون إليه فيطمئنون في ظلال النبوة ، وأنداء الوحي وبركة السماء ، فارقهم فوجدوا منهاج الله نوراً يهدي ماتمسكوا به ، وقوة تدفع ماأخذوا به ، فمارسوا الشورى بكل وسعهم وطاقاتهم البشرية ، على إيمان وعلم . فبرزت المواهب ، وارتفعت القدرات ، وتعاونت القلوب . فأعطت لنا مثلاً عظيماً ، ونموذجاً حياً ، مرتبطاً بمنهاج الله ، نابعاً منه ، صادراً عنه ، ممتداً امتداد الإيمان والعلم ، والقوة والممارسة . فأصبح لدينا بذلك : المنهاج الرباني يعرض القانون الحق والنص الوافي ، وسيرة الرسول ﷺ تعرض لنا النموذج الأمثل للممارسة والتطبيق ، والوقائع والأحداث تتجدد مع الحياة . ومع كل واقعة أو حدث لا يعجز الصحابة عن ممارسة منهاج الله ، عن ممارسة الشورى في الواقع الجديد .

وفي هذا العرض وهذه الممارسة لانجد نصاً يلزم الإمام بنتيجة الشورى أو نصاً يمنع إلزامه ، ولانجد هذا الموضوع مدار بحث أو خلاف . ولكننا نجد الإيمان، ونجد العلم ونرى القدرات . نرى هذا كله يجعل الشورى ميسرة التطبيق ، غنية

العطاء ، تجمع الكفاءات جمعاً إيمانياً ، فتعمل عملها المتناسق المؤمن ، ليدفع الأمة كلها في طريق الخير والنصر ،والفتوح والعزة .

ونجد أن الشورى كانت ممارسة وعملاً ، وجهداً وعطاء ، وقوة وجمعاً . ولكنها لم تكن فلسفة وجدالاً ، أو خلافاً وشقاقاً . وسنحاول في الأبواب والفصول المقبلة أن نتلمس ذلك العرض في المنهاج الرّباني ، وأن نتلمس ملامح تلك الممارسة الإيمانية للشورى ، علّنا نجد ، إن شاء الله، الملامح الصادقة والخطوط المضيئة .

وفي واقعنا اليوم ، مع كل مافيه من تغيرات وأحداث وفي كل واقع مع المستقبل سيظل عرض المنهاج الرباني للشورى ، وممارسة النبوة لها في واقع الحياة ، وممارسة الخلفاء الراشدين ، ستظل هي الأساس لنا ، لصياغة الممارسة الجديدة في كل واقع جديد . وإذا كان النص وحياً من عند الله ، وإذا كان التبليغ يمضي في رعاية السماء ، فإن ممارسة الصحابة تمثل الممارسة البشرية وقد انقطع الوحي وختمت النبوة . إنها تمثل ممارسة بشرية لرجال أفذاذ ، نشأوا في مدرسة النبوة فأخذوا فيها الإيمان والعلم والتدريب ، حتى لم يعد بين أيديهم إلا منهاج الله ينير لهم الطريق ، وإيمانهم الثابت يشق لهم الصعاب ، وثقتهم القوية بالله تدفع عنهم اليأس .

وهذه الممارسة البشرية ، حيث لانبوةّ معها ، ولا وحي ينزل بها ، هذه الممارسة تعطينا المثل الحي والبرهان القاطع على عظمة منهاج الله ، عظمة لاتدانيها منزلة أي منهاج آخر ، وعلى قوة هذا المنهاج ، قوة لاتدانيها قوة منهاج سواه . فتزداد القلوب ثقة وطمأنينة .

إن منهاج الله سيعالج واقعنا اليوم وكل واقع في مقبل الأيام ، وهو يغذّي فينا الإيمان والعزيمة والقوة والعلم ، والمضي والصبر .

ونجد كذلك في هذه الممارسة أن الشورى لم تكن تمارس كجزء مُتَفَلِّت منعزل . إنه جزء متصل بمنهاج الله أتم الاتصال ، متناسق معه كل التناسق . والممارسة كانت إيمانية لمنهاج الله كله في تكامله واتساقه ، والشورى من خلال ذلك جزء منه .

إننا نحاول أن نعرض نصوصاً ونعرض ممارسة . ونسأل الله العون والهداية. إنا نسأله الصدق في النية والفكر والقول ، والعمل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إنا نسأل الله العفو والعافية والرحمة ، ونتوب إليه ونستغفره من كل ذنب ، جلَّه ودقَّه ، ونعوذ به ونلتجىء إليه .

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه . فإن أصبنا خيراً فذلك من فضل الله ، وإن أخطأنا فذلك مما كسبت أيدينا .

فإلى الشورى نتلمسها كما ذكرنا . في القرآن والسنة ، وفي السيرة وفي حياة الصحابة .

والحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين .

عدنان بن علي رضا بن محمد النحوي

١ محرم ١٤٠٠هـ - الرياض

موجز وملامح

● الشورى نظام ربّاني له قواعده الربّانية يعرضها منهاج الله كلها كاملة متناسقة .

● لاتقوم الشورى في الأمة إلاّ إذا استقرّت هذه القواعد فيها نهجاً وسلوكا ، وتربية وبناء ، وتدريباً وإعداداً ، في مختلف الميادين : في الأسرة والمعهد ، والإدارة والمؤسسات ، والحكم والدولة ، في حياة الفرد والجماعة والأمة .

● لاتقوم الشورى في حياة الأمة بقرار تصدره لجنة أو هيئة أو سلطان . ولكن تقوم بالجهد البشريّ المؤمن الذي يبذل عن إيمان وعلم ، بذل حياة ممتدّة وأجيال عاملة .

● يضع الجهد البشري المؤمن تفاصيل النظام الشوريّ على أساس من منهاج الله بقواعده المطلقة والواقع الذي يعمل فيه . وتظل هذه التفاصيل والجزئيات تنمو وتتطور من خلال الممارسة الإيمانية في أمة مؤمنة مجاهدة عاملة .

● لاتعمل القواعد الربّانية للنظام الشوري وحدها ، ولكنها تعمل مرتبطة متناسقة مع كامل المنهاج الربانّي بجميع قواعده الإيمانية والتشريعية والنهج والخلق . فالشورى عنصر من عناصر الممارسة الإيمانيّة الشاملة وقاعدة من قواعدها .

● يرى الإسلام أن كل عضو في الأمة يحمل قسطا من الأمانة والمسئولية ، وكل عضو له حقوق وعليه واجبات ، وله حدود يقف عندها . وما أحبّ الإسلام لأحد أن يكون إمّعة . وتتحدد هذه الأمور في الإسلام على ميزان عادل أمين .

● إنّ النظام الشوري يقتضي وجود إدارة إيمانية ونظام إداري إيماني يوازن بين الحقوق والواجبات ، وبين الأمانة والمسئوليات . وكلّما نما المجتمع نمت

مؤسساته ونما نظامه الإداريّ ليظلّ محافظاً على أمانة الموازنة وسلامتها . ويشمل النظام الإداري الذي نعنيه جميع قطاعات الأمة ومستوياتها ، ويوزع المسؤوليات والصلاحيات .

- يحدّد النظام الإداري الجهة المسؤولة المحاسبة عن هذا الأمر أو ذاك ، ويحدد الشخص المسئول المحاسب . ويتمّ هذا التحديد على أساس من قواعد منهاج الله والواقع الذي تعيشه الأمة المؤمنة . فإذا تم هذا التحديد يصبح القرار من اختصاص الجهة المسئولة المحاسبة ، يصبح القرار من اختصاصها ، ويكون القرار حينئذ يمثل المرحلة النهائية في مراحل عملية الشورى .
- يتخذ الرجل المسئول في هذا القطاع أو ذاك القرار بعد أن تكون الشورى قد جمعت طاقات الاختصاص ومواهبها في هذا الميدان أو ذاك لتقدم كل مؤسسة إيمانية وكل مختص مؤمن عصارة إيمانه وعلمه وخبرته . ويبتلى كل إنسان في ميدان مسئوليته وأمانته التي يحاسب عليها في الدنيا والآخرة في ممارسة الشورى ، حين لاتضيع المسئولية ولايفلت من يضيعها .
- حين لاينجح النظام الإداري في تحديد الجهة المسئولة هنا أو هناك ، أو حين تمر الأمة بلحظات خاصة طارئة تختفي فيها المسئولية أو المسئول المحدد في هذا الميدان ، أو ذاك ، عندما لايتوافر رَجُلُ المسئولية في ميدان محدد معلوم ولا رجل القرار فيه ، فيمكن للأمة أن تجتهد لتضع أقرب الوسائل للتقوى لبلوغ القرار .
- اتخاذ القرار موهبة وكفاءة وقدرة خاصّة لايقدر عليها كل إنسان . ولكن الذي يساعد على ذلك ويشارك فيه هو ممارسة الشورى ممارسة إيمانية تجمع مواهب الأمة وطاقاتها دون أن تبددها ، تجمعها في مجرى واحد منسّق ، يضمّ جهداً مؤمناً إلى جهد مؤمن ، فيكون بلوغ القرار أيسر على الجهة المسئولة المختصة ، وأوسع بركة على الأمة ، وأقرب إلى التقوى وإلى طاعة الله.

تمهيـــد

الطبعـة الثـانيـة

مع الطبعة الثانية لكتاب «ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية» كان لابد من إيضاح بعض القضايا، لاستكمال الصورة على ماهو أقرب لطاعة الله ورسوله، وما هو أدنى من سلامة الردّ إلى منهاج الله قرآناً وسنّة، مبتهلين إلى الله سبحانه وتعالى أن يهبنا برحمته وفضله، صدق النيّة، وقوّة العزيمة، وطهارة العمل.

ولقد شعرت أننا نحتاج إلى مفهوم واضح لكلمة الشورى، واستعمال دقيق لها. وأهم مايقرّبنا إلى ذلك هو أن نعود أولاً إلى أصلها في اللغة، مع مختلف معانيه وظلاله، وامتداد مشتقاته. فالأصل الثلاثي هو «شار»:

شارَ العَسَل شوْراً وشيارَة وشياراً ومَشاراً ومَشارَة، استخرجه من الوقبْة، واجتناه من مواضعه. والمَشارُ: الخَليّة، والشَّوْر: العَسَلُ المشور. وكذلك الفعل أشارَهُ واشْتارَه.

الشُّوْرَة: في «اللسان» هي الحسن والهيئة واللباس. وكذلك الشَّوْرَة والشَّارَة والشَّور والشِّيار والشِّيار: الحسن والجمال والهيئة واللباس والزينة والسِّمَنُ.

شارَها، يشورُها، شَوْراً وشوَاراً، وشوَّرَها تشويرا، وأشارها: راضها، راكبها عند العرض على مشتريها، بَلاها، واختبرها، قلبها.

شرتُ الدابة: عرضتها على البيع. أقبلت وأدبرت بها، أجريتها لأعرف قوّتها. استشار الفحل الناقة: إذا كرفها فنظر إليها ألاقح هي أم لا.

استشار فلان: لبس شارة.

استـشـار أمره : إذا بيّن واستنار .

شوّر إليه بيده ، أو أشار : أومأ «بالكف والعين والحاجب » .

أشار عليه بكذا : أَمره .

الْمَشُوْرَة ، والمشْوَرَة : لغتان .

استشاره : طلب منه الْمَشُوْرَة . وكذلك شاوره مشاورة وشِواراً وكذلك يقال : تشاورا ، واشتوروا (١) .

وكلمة الشورى ، وأصولها ، ومشتقاتها ، كانت معروفة ومتداولة بين العرب قبل البعثة . فدار الندوة بناها قصيّ في الجاهلية ، يجتمعون فها للمشورة ، ولا يتشاورون في أمر إلاّ في داره . لذلك نجد هذه الكلمة وأصولها ومشتقاتها قديمة في اللغة ، واسعة الظلال ، ممتدة إلى نواح عديدة . فهي تبتدىء من جني العسل من مواضعه ، إلى الحسن والهيئة والجمال والزينة ، إلى الاختبار والبلاء والتقليب ، إلى النظر ، إلى التبيّن والاستنارة ، إلى الإيماء ، والأمر ، وطلب الرأي ... إلخ . ولكن الشورى لم تكن عند العرب آنذاك نظاماً له قواعده المتكاملة . وإنما مضت على صورة من الأعراف والتقاليد ، ولما جاء الإسلام أخذ يبني للشورى نظاماً مرتبطاً به ، متماسكاً معه ، له قواعده وأسسه الربانية .

ومن ظلال الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة ، ومواضع استخدام كلمة الشورى أو مشتقاتها ، أو مايدل عليها من ألفاظ أخرى مثل : وائتمروا بينكم بمعروف ، أفتوني في أمري ... ، نحاول أن نضع تعريفاً للشورى الإيمانيّة ، يقرّب الدلالة ، ويسهّل الاستخدام .

فالشورى الإيمانية : هي التعاون في تبادل الرأي ومداولته ، في أمر من أمور

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي .
ترتيب القاموس المحيط للأستاذ الطاهر أحمد الزاوي .
معجم مقاييس اللغة لابن فارس .

المؤمن، أو الجماعة المؤمنة، أو الأمة المؤمنة على نهج وأسلوب، وأسس وقواعد، تحقق أهدافاً وغايات تجتمع كلها لتبحث عن الحق أو ماهو أقرب إليه طاعة وعبادة. ويكون النهج والأسلوب، والأسس والقواعد، والأهدا ف والغايات، كلها ربّانية يحددها منهاج الله، فتصبح الشورى بذلك نظاماً متكاملاً، ونهجاً متناسقاً، يرتبط بمنهاج الله ارتباطاً متيناً، ليكون جزءاً منه لاينفصل عنه. وهذا النظام المتكامل المتناسب المرتبط بمنهاج الله ارتباط عقيدة وإيمان، يمثل القانون الثابت الدائم الذي لايتغير، والحق المطلق الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ومهمة الإنسان المؤمن أن يمارس هذا النظام، بنهجه وقواعده وأهدافه الربّانية، ممارسة إيمانيّة، في واقعه البشري، لتمثّل هذه الممارسة الإيمانية عملاً صالحاً، ينمو مع متابعة الممارسة، ويستكمل القواعد الآنية المتطورة والنامية، من خلال الجهد البشري المؤمن، الذي يعمل على أساس من الإيمان، والعلم، والموهبة، والخبرة.

من هذا التعريف، نرى أن هنالك نقاطاً رئيسية يدور البحث حولها بصورة أو أخرى. ويمكن إيجاز هذه النقاط بما يلي:

١ - الأمر الذي يمكن أن تدور حوله الشورى.

٢ - النهج والأسلوب، والقواعد والأسس.

٣ - الأهداف والغايات.

أما الأمر الذي يمكن أن تدور حوله الشورى، أو أن تتناوله، فهو أي أمر مباح أو مشروع يتعلق بالمؤمن أو الجماعة أو الأمة، مما يرغب صاحب الأمر في عرضه للشورى، أو يوجب النهج والأسلوب للجماعة والأمة كذلك، أو يفرضه القانون والنظام الذي تضعه الأمة من خلال ممارستها الإيمانية في واقعها البشري الإيماني. فالأمر إذن لانستطيع تحديده نحن الآن، في كتاب أو بحث، قبل أن يتحدد الواقع الإيماني، ولكننا نقول إنّ «الأمر» يتحدد على ضوء الواقع

البشري والواقع الإيماني ، الذي نفهمه من خلال منهاج الله . ويتحدد الأمر ، كذلك ، على أساس من منهاج الله ، بخطوطه العريضة الواسعة . وتمثّل لنا سيرة الرسول ﷺ، وسيرة الخلفاء الراشدين ، وحياة الصحابة ، رضي الله عنهم أجمعين ، نماذج نستعين بها في واقعنا المتجدد ، لتحديد هذا الأمر أو ذاك . وتبقى سيرة الرسول ﷺ هي النموذج الأمثل ، الذي يرعاه الوحي ، فيسدِّد ويقوم .

وسنرى من خلال الدراسة والبحث ، أن الأمر يبتدىء من حياة المؤمن الفرد، من حياته الخاصة ، إلى شئون الأسرة ، إلى قضايا الجماعة ، إلى حياة الأمة كلها ، والدولة كلها . إن هذا الامتداد هو أحد الميِّزات لنظام الشورى الإيمانية ، حيث نجد الشمول والتناسق والتكامل . وإذا حصرنا نظام الشورى بشئون الدولة وحدها ، بشئون الإمارة والحكم ، فقد أفقدنا النظام خاصة من خصائصه ، وسمة من سماته ، وميزة ظاهرة من ميزاته ، وسنرى هذا الشمول والامتداد ، من خلال الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة ، وارتباط الاستخارة بالشورى ، والنماذج التي نسوقها من حياة الرسول ﷺ ، وحياة الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . ولذلك جاء التعبير القرآني جامعاً ، يستخدم لفظة «الأمر» ، «**وأمرهم شورى بينهم** » إنها ألفاظ جامعة .

وإن هذا الشمول هو الذي يكفل للممارسة الإيمانية ، قدرتها على النموّ والتطور ، في إطار نهج وقواعد ثابتة . إلاّ أننا نستثنى النصّ الثابت في منهاج الله قرآنا وسنّة ،حين لايكون موضع خلاف في الفهم أو التطبيق ، وكذلك أصول العقيدة ، فهذه ليست أمراً من أمور الشورى .

أما النهج والأسلوب ، والأسس والقواعد ، فهي مدار البحث ، وعموده الفقري . إننا نحاول قدر جهدنا ، أن نعرض نظاماً متكاملاً ، متناسقاً .

إننا نعرض أولاً نماذج ومواقف من القرآن الكريم ، مواقف تدور فيها الشورى على قواعد الإيمان ، ومواقف تقع فيها المداولة بين قوم غير مؤمنين . ثم

نماذج من أحاديث الرسول ﷺ ، حيث ترد لفظة الشورى أو مشتقاتها في تلك الأحاديث . أما سائر الأحاديث التي تتعلق في الشورى ، ولاتحمل لفظتها ، فهي كثيرة جداً ، تأتي في مواضعها في الكتاب .

ثم ندرس بعد ذلك القواعد والأسس الرئيسة ، والتي حددناها على النحو التالي : النصيحة ، والرأي ، والسمع والطاعة ، والبيعة . فهذه القواعد كلها ، واحدة ، واحدة ، ترتبط أشد الارتباط بموضوع الشورى ، وتنهض كلها ، مع غيرها ، لتقيم دعائم نظام الشورى في الإسلام ، فالشورى هي في أساسها مداولة رأي ، والرأي يحتاج إلى صدق ونصيحة ، وذلك كله يرتبط بعهد وبيعة ، تقوم على السمع والطاعة ، وتقوم على التعاون في البذل والعطاء في ذلك كله .

وحتى تطمئن النفس إلى أهمية هذه الموضوعات ، وإلى شدّة ارتباطها بنظام الشورى ، بادرنا إلى عرض نماذج من مواقف الشورى في السيرة النبوية ، وحياة الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . واكتفينا بذلك ، لطول البحث الذي نعرضه . مع يقيننا أننا سنجد الكثير من الخير والبركة في حياة الخليفتين عثمان وعلي ، وسائر الصحابة الأئمة رضي الله عنهم . فمن هذه النماذج التي نعرضها ، نجد إشراقة هذه القواعد ، ونور ذلك النهج ، وعظمة الممارسة الإيمانية . ثم إننا لنلمس نمو الممارسة الإيمانية ، وتطورها ، مع نمو الواقع البشري ، وازدياد حاجاته وقضاياه . ولم يقف تلامذة رسول الله ﷺ ، عاجزين أمام الأحداث المفاجئة المتجددة . ولكنهم مضوا على قوة وعزيمة يمارسون إيمانهم وعلمهم ، عن موهبة وخبرة ، دون أن يقتلوا جهودهم في «فلسفة تائهة» ، أو «جدل ضائع» ، أو «شعارات حائرة» .

بعد عرض هذه النماذج والمواقف ، نعود إلى استكمال النظرية ، واستكمال القواعد والأسس ، واستكمال النهج والأسلوب ، حتى تتكامل النظرية ، وينهض النظام .

فالاختلاف سنّة من سنن الله في الحياة . وأوضح مايظهر الاختلاف بين الناس هو في ميدان الشورى ، حيث تعرض الآراء المختلفة . فالشورى هي مداولة القضية بين آراء مختلفة في أكثر المواضع . فالاختلاف في الرأي جزء رئيس من دراسة الشورى في الإسلام . والاختلاف سنّة قضى بها الله في هذه الحياة الدنيا ، ليمحص الله الناس ، وليبتليهم . فلا بد من عرض رأي الإسلام في الاختلاف ، عرضاً يقوم على الآيات والأحاديث .

والاختلاف في الرأي بين الناس ، ينتج عن اختلاف في طبائع الناس وقدراتهم ، وبعض خصائصهم ، وعن اختلاف في ظروفهم . فكان لابد من دراسة أهم خصائص الإنسان ، كما خلقه الله سبحانه وتعالى . فإن الإنسان سيمارس الشورى من خلال خصائصه هذه . وهذه الخصائص ، منها ماهو متماثل متشابه بين جميع الناس ، ومنها ماهو متباين مختلف . وتعمل هذه الخصائص كلها ، ماتشابه منها ، وما تباين ، عملها في حياة الإنسان ، وتنمو أو تضمر ، وتتأثر بواقع الإنسان ، ثم تجتمع هذه الخصائص كلها لتدفع الرأي ، وتكوّن وجهة النظر، وتسوق الحجة . ومن هذه الخصائص تبرز الموهبة أو تهبط ، وينمو العلم أو يذوي ، ويستقيم الخلق أو يعوج . وعلى أساس من هذه الخصائص كلها تقوم النصيحة ، والرأي ، والبيعة والسمع والطاعة ، تقوم قواعد الشورى وأسسها .

والخلاف سنّة الله في حياة النّاس ، المؤمنين منهم والكافرين . ولكن الله سبحانه وتعالى ، جعل للمؤمنين قواعدَ ونهجاً ، ليسوُّوا على أساسها خلافهم ، ويقضوا بها في مشورتهم ، ويستنيروا بها في دعَواهم ، ويقيموا عليها حجتهم . فكان لابد إذن من دراسة سبيل المؤمنين في حالة الخلاف ، حتى تكون هذه السبيل هي سبيل الشورى ، وهذا النهج هو نهج الشورى . ولقد جعل الله سبحانه وتعالى منطلقاً رئيساً لهذه السبيل ، ذلك هو رد الأمر كله إلى منهاج الله :

﴿ . . . . فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ . . . . ﴾ [النساء: ٥٩]

﴿ . . . وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ . . . ﴾ [الشورى: ١٠]

وحين يمارس المؤمن هذه القواعد كلها ، يحتاج إلى قدرة على الموازنة بينها. فهنالك بيعة وسمع وطاعة ، وهنالك نصح ورأي ومشورة . كيف يوازن المؤمن بين نصحه ورأيه ، وبين عهده وبيعته ، وسمعه وطاعته ، حتى لايكون رأيه تفلتاً من عهد ، أو إشاعة لفتنة ؟ كيف يوازن المؤمن بين ذلك كله ، حتى لايكون نصحه تتبّعاً لعورات ؟ كيف ينصح ويشير على موازنة أمينة حتى لايبالغ فيملّ منه الناس ، ولا يقصر فلا يبلغ مقصده ؟ كيف يوازن بين الحب والبغض حتى تستقيم مشورته ولايضطرب رأيه ؟ من هذا كله كانت دراسة «الموازنة» أمراً ضرورياً ، لاستكمال صورة نظام الشورى ، وتيسير الأمر على المؤمن في اختيار هذه القاعدة الإيمانية أو تلك ، حين يشير برأي ، أو يدلي بنصيحة .

وكم يندفع بعض الناس ، حين يشيرون برأي ، فيحسبون أن رأيهم هو الأصوب ؟ كم من الناس يعجبون برأيهم إعجاباً يدفعهم إلى ضلالة أو فتنة ؟ إن كثيراً من الناس ينسى أن كل بني آدم خطاء ، وخير الخطّائين التوابون ، ينسى الناس ذلك ، ويتملكهم الإعجاب والعجب ، والزهو والكبر ، حتى يفسد الرأي ، وتموت الشورى ، وتبطل النصيحة ، إن الإنسان يظل في عمله ورأيه بين خطأ وصواب . والإسلام يعالج الخطأ حتى يجعل منه مدرسة ، ويجعل بذلك من الشورى مدرسة كذلك .

إن الشورى تصبح مدرسة وهي تعالج الخطأ بالأسلوب الربّاني . فحتى نستكمل ، إذن ، صورة نظام الشورى ، ونرى تكامله ، وجمال تناسقه ، كان علينا أن ندرس قواعد الإسلام في ميدان الخطأ والصواب ، كان علينا أن ندرس الإنسان بين الخطأ والصواب ، حتى يستهدي المؤمن بنور الإسلام وهو يشير أو يستشير ، ينصح أو يسأل النصيحة .

فكانت هذه الموضوعات الثلاثة ، مستكملة لصورة نظام الشورى في الإسلام ، مستكملة لنهجه وأسلوبه ، وأسسه ، لغاياته وأهدافه . ونرى أننا بذلك قد استكملنا عرض نظام متكامل متناسق ، مترابط مع المنهاج الربّاني . وحتى نزيد من إشراقة هذه الصورة الفذّة ، كان لابد من عرض سريع للواقع الذي يعيشه الإنسان اليوم ، في ظلام دامس من الكفر الصريح ، والضلال البعيد ، والظلم والعدوان ، تحت رايات نظم مختلفة من شرقية وغربية ، تدَّعي الحضارة ، تدَّعي حقوق الإنسان .

إن عرض هذا الواقع يزيد من إشراقة نظام الشورى في الإسلام ، يزيد إدراكنا لعظمته وأهميته ، يزيد فهمنا لضرورته وخطورته ، ضرورته وخطورته للبشريّة كلها ، للأجناس كلها ، للإنسان عامة .

من خلال هذا العرض للقواعد والأسس ، والنهج والأسلوب ، والغايات والأهداف ، يسهل علينا أن نتلمّس خصائص أهل الرأي والمشورة . ويسهل علينا أن نبحث عن أسس الصياغة الشورية ، لكل واقع بشري متجدد ، يلتزم دائماً ، بقواعد ربانية ومنهاج ربّاني . إننا نحتاج إلى صياغة نامية لممارسة الشورى الإيمانية ، صياغة متصلة بالصياغة الأولى ، نامية معها ، لتلبي الواقع الجديد بكل امتداده واتساعه ، ونموّه وتطوره . لذلك كان الباب الخاص بأهل الرأي والصياغة الشورية .

إن هذا النظام المتكامل للشورى ، وإن الصياغة النامية للشورى ، لايمكن أن تضعها قاعدة إلزام وليّ الأمر برأي الأغلبية ، أو عدم إلزامه .

إن الأمر أكبر من ذلك بكثير ، وأخطر من ذلك بكثير . إن الأمر هو قضية عقيدة وإيمان ، نريد أن تتحقق في الواقع البشريّ المؤمن ، بممارسة قواعد الشورى الربّانية وأسسها . إننا نريد أن نرى معاناة الممارسة الإيمانية ، وهي تفتّح المواهب ، وتطلق القدرات ، دون أن تموت في حمى جدل قاتل ، وحميّا خدر

مميت . وعند ذلك تستطيع هذه المواهب أن تضع تفاصيل نظامها الشوري في مسيرة الممارسة الإيمانية . لذلك قلنا إن الأمة الإسلامية لاتحتاج اليوم إلى قاعدة الإلزام أو عدمه ، لأنها لاتدفع بلاء ، ولاتجلب هناء . إننا بحاجة إلى ممارسة القواعد الربانيّة ، كما مارسها رسول الله ﷺ ، وكما مارسها الخلفاء الراشدون . ثم تضع الأمة في مسيرتها التفاصيل .

وإذا عدنا إلى سورة الشورى ، وتدبرنا آياتها ، لوجدناها تعرض نظام الشورى على تكامله وتناسقه ، وترسّخ قواعده وأسسه ، على قدر ماكانت تستوعب المرحلة التي نزلت فيها سورة الشورى . ثم أخذت هذه القواعد كلها ، تنمو وتتكامل مع منهاج الله ، والوحي يتنزل ، حتى استكمل النظام كل خصائصه الربانيّة ، حين أكمل الله هذا الدين ، وأتمّ هذه الرسالة . وتربط سورة الشورى جميع هذه القواعد ، وجميع الأسس ، والنهج والأسلوب ، والأهداف والغايات ، تربطها كلها بالعقيدة والتوحيد ، بالإيمان واليقين ، بالمنهاج الرباني . فهي تبحث في أسس النصيحة والرأي : «**فلذلك فادع واستقم كما أمرت ...** » ، والسمع والطاعة والعهد : «**استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لامردّ له ...** » ، والنهج والتخطيط : « **من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ...** » . وتبحث الاختلاف وأسسه وأسبابه ، ودوافعه وحوافزه ، وتبحث الخطأ والزلل ، وسبيل معالجته ، وتبحث الموازنة ، وتبحث في خصائص الممارسة الإيمانية . وتبحث سورة الشورى في جميع قواعد الشورى وأسسها ، ونهجها وأسلوبها ، وغاياتها وأهدافها ، واحدة واحدة ، حتى لاتترك شيئاً .

وحين ترتبط الشورى بالعقيدة والإيمان ، تصبح جميع قواعدها ، ونهجها ، وأهدافها ، ربّانيّة ، نابعة من العقيدة والإيمان . لذلك حقّ لنا أن نعجب كل العجب ، من تساؤل سائل : إذا كانت الشورى غير ملزمة ، فما فائدتها إذن ..؟ إن هذا السؤال ، وهذا التساؤل ، يقتل في حقيقة الأمر الأهداف الحقيقية

للشورى ، ويكاد يقطع ارتباطها بالإيمان والعقيدة . إن إلزام الشورى أو عدمه ، ليس بقاعدة ربانيّة ، فهي لاتصلح لأن تكون قاعدة أساسية للشورى ، أو هدفاً لها أو نهجاً . إن ممارسة الشورى ، مثل ممارسة سائر قواعد الإسلام ، عبادة وطاعة لله ولرسوله . وسائر الأهداف والغايات ، وسائر الفوائد والمنافع ، تنبع من هذه العبادة والطاعة .وبدون هذا المفهوم تتلاشى الصورة الإيمانية للشورى ، في الممارسة وفي النظرية ويُطمس النهج ، والقواعد والغايات .

فللشورى إذن أهدافها الربّانية ، تنبع من منهاج الله ، وتصدر عن مفهوم العبادة والطاعة لله ولرسوله ، ونحاول أن نوجز أهداف الشورى بنقاط محددة :

١ - **إن الهدف الأول والرئيس** هو العبادة والطاعة . إن الشورى أمر من عند الله ، جاء بها القرآن الكريم في آيات ممتدة فيه ، وفي سور عدة . وسميت سورة منها بالشورى . وجاءت الأحاديث الشريفة تفصل وتوضح ، وتنير نهجاً ، وقواعد ، وأهدافاً . فهي ليست إنتاج جهد بشري ، أو فلتة موهبة عبقرية . إنها من عند الله . فممارستها هي ، أولاً وقبل كل شيء ، استجابة لله ولرسوله . فهي عبادة وطاعة . ومن الخير أن نعرف سائر الأهداف ، ولكننا إذا جهلنا الأهداف الأخرى ، أو اختلفنا حولها ، فإن هذا الهدف وحده سبب كاف لوجوب ممارستها ، دون التساؤل عن فائدتها إذا لم تكن ملزمة ، أو غير ملزمة، أو غير ذلك مما لم ينزل به قرآن ، أو توضحه سنّة .

٢ - **والهدف الثاني** : هو البحث عن الحق ، أو ماهو أقرب إليه . ولا يتمّ هذا الهدف إلاّ بميزان واحد فقط ، لاميزان سواه . إنه منهاج الله ، قرآناً وسنّة ، وردّ الأمر إليه ، إلى الله ورسوله ، إلى القرآن والسنّة . فإن عجزنا عن ذلك ، فإن العجز لايكون إلاّ لضعف فينا نحن ، في جهدنا ، أو إيماننا ، أو علمنا ، أو ضيق في قدرتنا ، ولايكون لشيء في منهاج الله . وقد يندفع بعضهم ، تحت وطأة هذا الضعف ، إلى البحث عن ميزان آخر ، فَيتَلقَّف هذا الميزان تحت إغراء الراية المضللة ، والضعف والعجز . **وهذا الهدف** ، مثله كمثل سائر الأهداف ، مرتبط بالهدف الأول ، نابع منه .

٣ - **والهدف الثالث** : هو معرفة المواهب والقدرات ، ودراسة الوسع والطاقات ، واختبار المعادن والرجال . فمن خلال مداولة الرأي ، وبيان الحجة ، يبرز مستوى الإيمان والعلم ، وتتمايز المواهب والقدرات وتعرف المعادن والرجال. فالشورى محك ، يكاد يكشف أطراف النيّة ، ومنثور الموهبة ، وحدود الطاقة. وبذلك يتعارف الناس . والتعارف أول باب الفهم والتعاون والنصح . والتعارف هو أول أبواب الود والتآلف .

٤ - **والهدف الرابع** : هو جمع القلوب وتآلفها ، وتطييب القلوب وتأليفها ، على إيمان وعلم ، وخير وبركة ، ونهج وصراط مستقيم . والهدف الثالث والرابع ، يجتمعان ليربطا المؤمنين ، ويجتمعان كذلك ليكشفا ما يوضعه المنافقون ، وما قد يرجونه من فتنة وخبال . فمن خلال الشورى ، ومع المداومة والمتابعة ، يتمايز الناس ، ويعرف أولو الألباب ، ويعرف المنافقون . فالشورى ميدان ، يكشف النماذج كلها ، والنفوس ، والعقول .

٥ - **الهدف الخامس** : التدريب والإعداد ، والتربية والبناء . فمن خلال الممارسة الإيمانية ، في ظلال منهاج الله وأفياء الإيمان ، تتدرب المواهب على سلامة ردّ الأمور إلى منهاج الله ، وتتدرب على دراسة الناس والمعادن ، وتتدرب على معرفة الخطأ وتجنبه ، ومعرفة الصواب والتزامه ، على ميزان واحد دقيق . ولقد تدرّب صحابة رسول الله ﷺ تدريباً واسعاً ، من خلال الممارسة والصحبة على هذه الأمور ، في مجالس الشورى . فلما أصبح الأمر في أيديهم ، سهّل عليهم الأمر ، وتابعوا بركة مدرسة الشورى ، وخيرها ونورها. ومدرسة الشورى يجب أن تظل مستمرّة ، حتى يستمر هذا العطاء الغنّي . ومدرسة الشورى من أعظم مدارس الإسلام عطاء ، في التدريب والإعداد ، والتربية والبناء .

٦ - **والهدف السادس** : تنسيق الجهود وجمعها ، والاستفادة من بركتها وخيرها. فالشورى المؤمنة ، إذا اتسمت بكل خصائصها ، وقامت على أسسها

وقواعدها ، ونهجت نهجها ، وتطلعت إلى أهدافها ، إذا فعلت ذلك كله ، فإنّها تجمع الجهود ولاتبعثرها ، وتستفيد من الخير ولاتضيعه . وبذلك تقوى الأمة ، ويزداد خيرها ، وتتابع مسيرتها ، على نماء وقوة . إن الشورى المؤمنة تجمع ولاتفرق ، وتستفيد ولاتضيع ، وتبني ولاتهدم ، وتتألف ولاتنفر ، ذلك كله للمؤمنين وبين المؤمنين . فإذا لم تفعل ذلك ، فهي مداولة متفلتة كسائر مداولات الناس من منافقين وكافرين وتائهين .

٧ - **الهدف السابع** : إغلاق باب من أبواب الإشاعة المؤذية ، وسد فرجة من فرج الفتنة القاتلة . فحين تدور الشورى على قواعدها الإيمانية ، وفي شمولها الإيماني ، في مختلف مستويات المسئولية ، وميادين حياة الأمة ، إذا تمّ هذا فإن الكلمة المريضة تنهزم ، والوشوشة المفسدة تنطوي ، والنجوى الآثمة تموت . ذلك لأن الشورى بخصائصها الإيمانية ، وقواعدها الربانيّة ، نور ووضوح ، وليست عمل «كواليس وما وراء الكواليس » ، ولا هي عمل ظلام الزوايا .

٨ - **الهدف الثامن** : إنها تربط جميع مستويات الأمة برباط من نور ، وفي جلاء ووضوح . فيرتبط الرأي العام بالدولة ، وترتبط الدولة بالرأي العام ، وتظل الأمة صفاً متراصاً واحداً ، لايجد العدو له ثغرة للنفاذ إلى فتنة ، أو الوصول إلى« السمّاعين » . فالشورى حماية للرأي العام ، وهي حماية لكل مستوى تدور فيه ، وهي حماية للدولة وحماية للأسرة ، وهي بذلك حماية للأمة كلها، خلاف مايجرى في الديمقراطية حيث تكون الحكومة صفاً له حزبه ، والأمة حزباً أو أحزاباً معارضة أو مؤيدة ، يستنفذ الصراع بينها الطاقة والقوة.

هذه هي الأهداف الرئيسية ، ولكننا لانجزم بأنها محصورة فيها ، مخنوقة في مداها . إن أهداف الشورى الإيمانية تنمو وتتجدد ، مع نمو الممارسة ، ومتابعة الجهد ، وثبات الخصائص . إنها عنصر حي يتجدد بالعطاء ، وينمو بالوفاء .

وحين ترتبط الشورى بالعقيدة ، ارتباط إيمان ونهج وغاية ، لا تكون مجرد نظام له قواعد كأي نظام آخر ، في فكر آخر ، أو عقيدة أخرى . ولكنه يصبح نظاماً يحمل معه سائر خصائص العقيدة الإسلامية إيماناً ونهجاً وغاية . فالشورى نهج خلقي ، يحمل الأسس الأخلاقية في الإسلام كلها ، فلا يفاجأ القارىء إذن حين نصف الشورى بأنها خلق للفرد والجماعة والأمة . ولا يفاجأ حين نصفها بأنها مبدأ يطرق كل ميادين الحياة . ذلك لأن الشورى تحمل صفة الشمول من العقيدة الإسلامية ذاتها . إن مثل هذه التعابير التي ترد أثناء البحث ، تصدر في الحقيقة عن طبيعة هذا الدين بسائر قواعده وأسسه وترابطها . فالشورى ، كذلك ، لاتنحصر في أمور الدولة والحكم ، والسياسة والحرب ، إنها تمتد في حياة الفرد والأسرة ، والجماعة والأمة .

لقد أصبح التأثير قوياً على أذهان الناس ، مما كتب الناس ، وليس مما جاء به القرآن والسنّة ، نقول لقد أصبح التأثير قوياً في حصر كلمة الشورى في قضايا الحكم . وأما نصوص الإسلام فظلت تلح على قاعدة الشمول . ففي الحديث عن النصيحة مثلا نجد النصّ يمتد ليشمل : « **لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** » . وحديث : «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته** » . وكما سنرى في توجيه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ، فإن الشمول يظل قائماً حتى يشمل الأمة كلها ، وميادين الحياة كلها . فحتى نستكمل صورة «النظام الشورى في الإسلام » ، لابد أن نلغي القيود التي تحصرنا في زاوية مخنوقة واحدة ، لنرى النظام بشموله ، ينظم حياة الأمة : أفراداً وأسرة ، وأمة ودولة ، ومؤسسة وشركات ، وإدارة وهيئات ، ومصانع ، وأموراً عامة .

ومع أن لفظة الشورى ، كانت معروفة قبل البعثة ، فقد استخدمها القرآن الكريم ، وبنى لها النظام الذي أشرنا إليه ، والذي نحاول أن نعرضه في هذا الكتاب إن شاء الله . لذلك سنحاول أن نحصر استخدام لفظة «الشورى » لتدل

على الشورى الإيمانية ويمكن أن نستخدم أحياناً «الشورى الإيمانية » للتأكيد . وكذلك ، فإننا سنستخدم لفظة «المداولة» لتدل على الشورى التي لاتلتزم بخصائصها الإيمانية ، نهجاً وأسلوباً ، وقواعد وأسساً ، وأهدافاً وغايات .

حين نعرض ملامح نظام للشورى ، من خلال تدبر آيات الله في كتابه الكريم ، ودراسة أحاديث الرسول ﷺ ، ودراسة سيرته وسيرة خلفائه ، فإن هذا النظام لايدرس من خلال جزء من آية أو حديث ، أو من خلال قصة أو قصتين ، أو حادثة أو حادثتين . لقد اعتمد من قال بأن الشورى ملزمة بنتيجتها على عدد محدود من الأحداث ، تاركاً عدداً كبيراً آخر ، ومن رأى خلاف ذلك ، فقد اعتمد أيضاً على جزء محدود من الوقائع ، تاركاً الكثير الكثير . وإن قصة واحدة ، أو اثنتين وثلاثاً وأربعاً لاتنهض لتثبت قانوناً عاماً . ولذلك عمدنا إلى ماهو أقرب للإحصاء فأوردنا أكبر قدر من الأحداث التي دارت فيها الشورى ، في حياة الرسول ﷺ ، وكذلك في حياة الخليفتين الراشدين ، وقسمنا ذلك إلى نماذج وفئات . ومن هذا القدر الممتد نرى تنوع الأحداث ، وتنوع أسلوب الشورى ، وأهل المشورة والرأي ، والقرار الذي يتخذ ، وقوة ارتباط ذلك كله بالواقع ، وسلامة رد الأمور إلى منهاج الله .

إننا لانرى قاعدة واحدة تطّبق في الشورى ، ولكننا نرى نظاماً تنمو قواعده ، مع نمو الدعوة ، وتنمو ممارسته كذلك . ونرجو أن يكون شعورنا ، ونحن نطالع ملامح النظام ، هو شدة حاجتنا إلى ترسيخ القواعد الربّانية للشورى ، في حياتنا اليوم ، أكثر من حاجتنا إلى أي قاعدة بشرية ، خاصة إذا كانت القاعدة البشريّة ، تغذي حمّى جدال ، وفلسفة نقاش ، يكون من أخطر نتائجها أن تطوى القواعد الربانية ، وتنسى أحكام ، دون أن نشعر بخطورة ما يحدث ، وأهمية مايجرى حين تغلبُ العاطفة ، وتثور الحماسة .

وكثير ممن يدعون إلى هذا الرأي أو ذاك ، لايكادون يفتحون مجالاً لأي

رأي آخر . فقد يمتلك العجب بالرأي أمر صاحبه ، فيدفعه في خضمّ العاطفة والحماسة ، إلى قتل الشورى ، وخنق ممارستها ، وهو يدعو إلى الشورى ، فيرى أن له الحق في إبداء رأيه ، ويغضب ويثور لرأي غيره .

ومن الظواهر الغريبة أن يتخذ الحجّة الواحدة ، والبيّنة الواحدة ، أصحاب هذا الرأي ، وأصحاب الرأي المعارض . فمن يدعو إلى الإلزام ، ومن يدعو إلى خلافه ، يتخذ جزءاً من آية - وليست الآية كلها - حجة له . وكمثل على ذلك قوله تعالى «**فإذا عزمت فتوكل على الله**» . ولا يمكن أن يتمّ هذا إلا باللجوء إلى التأويل ، وتحميل الألفاظ أثقالاً تنوء تحتها . وقد يتخذ أصحاب الرأيين المتعارضين القصّة ذاتها حجّة له . ولا يتمّ هذا إلا بالإغراق بالاستنتاج والتأويل . ولا يتم هذا إلا ونحن نورد جزءاً من آية ، أو طرفاً من واقعة ، ونترك النصّ الكامل ، وما يحمل من ظلال تعين وتوضح . وغزوة أحد هي أحد الأمثلة على ذلك .

والناحية الأخرى التي نحب أن نشير إليها هنا ، هي الفرق الكبير بين من يتخذ رأياً ويعزم على قرار بينه وبين نفسه ، نتيجة ثقافة أو ضغوط فكرية أو تأثر ، سواءً أَشَعَرَ بها أم لم يشعر ، ثم يجهد نفسه ليبحث عن دليل من قرآن أو سنة أو حادثة ، وبين من ينطلق في دراسة القرآن والسنة والأحداث ، يبحث عن الحق ، مهما كان ذلك الحق ، لايبحث إلا عما تقرره الآيات والأحاديث والوقائع . فالنوع الأول قد يضطر إلى أن يضغط الآيات ، ويجهد الأحاديث ، ويغرق في التأويل ، حتى يستخرج بيّنة توافق قراراً مسبقا ، ورأياً مبكراً . والنوع الثاني يظل يبحث في راحة أعصاب ، واطمئنان فؤاد ، مع شدة عزيمة ، وموالاة جهد . وعسى أن يبلغ القصد إذا صدقت النيّة وصدق الجهد .

نشعر أن دراسة الشورى ، بهذا الأسلوب ، تستكمل معظم ملامحها . ولكننا نشعر أن هنالك بعض الموضوعات الأخرى ، تحتاج إلى عرض موجز .

فكلمة موجزة عن الديمقراطية، وعن الأكثرية والأقلية، يضفي على الموضوع استكمالاً أوسع . ولكن هذه الموضوعات نتركها لبحث آخر صدر في كتاب مستقل **«الشورى لا الديمقراطية»** .








الباب الأول

الشورى في القرآن والسنّة

الفصل الأول

الشورى في القرآن الكريم
في أجواء الإيمان

لقد وردت لفظة الشورى أو مشتقاتها في القرآن الكريم في ثلاث آيات كريمة .وقد يظن البعض أن مبدأ الشورى العظيم محصور في منهاج الله بهذه الآيات الكريمة وحدها ، أو في بعضها . لذلك وجب أن نشير منذ البداية إلى أننا لانعرض هذه الآيات البينات لأنها هي وحدها التي تحدد جميع أسس الشورى وقواعدها في الإسلام ، ولكننا نعرضها لأنها تصف جانباً وتعرض صوراً . وهنالك آيات أخريات وأحاديث كثيرة قد لاتحمل اللفظة ذاتها أو مشتقاتها ، ولكنها تضيف إلى ملامح الشورى ملامح ، وتزيد من قواعدها وضوحاً ، وتضم من أسسها ، وتجمع آدابها ، حتى تتكامل الصورة ويتناسق المبدأ من جميع نواحيه ، مع سائر المنهاج وأحكامه وآياته وأحاديثه ، بحيث لايستغني جزء عن جزء ، ولاقاعدة عن قاعدة .

١ - ارتباط الشورى بالعقيدة والإيمان :

﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾
[الشورى: ٣٦ - ٣٨]

فإذا أخذنا الكلمات الثلاث وحدها من هذه الآيات الكريمة : « **وأمرهم شورى بينهم** » لنستدل على أهمية الشورى في الإسلام فإننا نكون قد فوتنا على أنفسنا بذلك معاني كثيرة ، وملامح أساسية ، جمعتها الآيات التي سبقتها . وهذه الملامح والمعاني تتناسق فيما بينها وتتكامل مع بعضها ، حتى تبرز لنا

صورة أقرب إلى الوضوح وأعمق في الدلالة ، وتضع الشورى في الموضع الذي أراده الله لها في منهاجه من خلال هذه الآيات .

فالشورى هنا معنى ولفظاً ، لم ترد في مجال حكم محدود أو ميدان ضيق . ولكنها وردت في مجال التربية والبناء ، وكذلك في مجال إعداد المجتمع المؤمن والجماعة المؤمنة . فتعرض الآيات الكريمة خصائص الجماعة المؤمنة في مجال العقيدة والإيمان ، والعمل والسعي ، والخلق والسلوك ، والطاعة والعبادة . فإذا صحت هذه الصفات ، وصدقت هذه السمات ، فإن هذه الجماعة تدور بينها الشورى بصورة طبيعية لاتكلف فيها ، وبصورة إيجابية مثمرة . فتصبح هذه النفوس كريمة باذلة ، معطية منفقة في سبيل الله .

ولابد أن نشير هنا إلى أنّ هذه الآيات الكريمة لم تعط نمطاً على إلزامية الشورى أو عدم إلزاميتها بنتيجتها . ولكنها عرضت الشورى خلقاً للمؤمن ، وخلقاً للجماعة المؤمنة التي اتصفت بصفات أساسية ، بدونها لاتقوم الشورى على ماأرادها الله لعباده المؤمنين .

والصفة الأولى : أن لاتكون الدنيا ومتاعها همّ هذه الجماعة ، بل ترى أن ماعند الله خير وأبقى . وهذه سمة ضرورية لصدق الشورى وسلامتها . فالمؤمن الذي ينصح ويشير وهو يرجو ماعند الله من أجر وثواب ، وهو مؤمن متوكل على الله ، هذا المؤمن ستختلف مشورته عمن شغلته الدنيا فأقبل عليها ، وأهمته وأقلقته ، فزعزعت ثقته وتوكله على الله رب العالمين . شتّان مابين النفسيتين والعقليتين ، شتّان مابين القلبين ، وشتّان مابين المشورتين .

والصفة الثانية : «**والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش**» سمة ضرورية حتى يقبل المؤمن وهو طاهر القلب والجوارح ، نقي القلب عف الضمير ، سليماً معافى من الآثام والفواحش . والرجل الذي يقبل وهو يشعر بطهره وصفائه – رجل يحسن المشورة ، فإذا هي مشورة طاهرة كطهره نقية كنقائه . وشتّان كذلك بين رجل لوّثته الفواحش والآثام ، ورجل طهّره الإيمان ونقّته العفة .

وشتّان كذلك بين مجتمع تدور فيه الفواحش والآثام ، ومجتمع طاهر نقي . فهذا له شورى وذاك له مداولة ، وشتان بين الأمرين .

والصفة الثالثة : «**وإذا ماغضبوا هم يغفرون ...**» سماحة المؤمن الزاهد في الدنيا ، المؤمن المتوكل على الله حق التوكل ، المؤمن النقي الطاهر . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ ماانتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله . سماحة ضرورية لحياة الجماعة المؤمنة كلها ، وضرورية لأجواء الشورى .

والصفة الرابعة : «**والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ...**» استجابة لله . استجابة لنداءاته ، استجابة لأحكامه وتشريعه ، استجابة لأوامره ونواهيه ، استجابة لقرآنه وسنة رسوله ، استجابة عامة شاملة لمنهاج الله الذي أنزله على عبده محمد ﷺ .

وهذه الاستجابة لاتتحقق إلا بشرطين : صدق الإيمان والنية ، ومطابقة الاستجابة لمنهاج الله .

عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**إنما الأعمال بالنيّة . وإنما لامرىء مانوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه**» . (متفق عليه)[1] .

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**» (رواه مسلم)[2] .

وفي رواية «**من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد**» (متفق عليه)[3] .

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الإمارة (٣٣) . باب إنما الأعمال بالنية .. (٤٥) حديث رقم ١٩٠٧.
صحيح البخاري : كتاب الإيمان (١) . باب ماجاء أن الأعمال بالنية ... (٤١) مع اختلاف في اللفظ . واللفظ المثبت لمسلم .

(٢) صحيح مسلم : كتاب الأقضية (٣٠) باب نقض الأحكام ... (٨) حديث رقم ١٨/١٧١٨ .

(٣) صحيح البخاري : كتاب الصلح (٥٣) . باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٥) .
وصحيح مسلم : كتاب الأقضية (٣٠) . باب نقض الأحكام الباطلة .. (٨) حديث رقم ١٧/١٧١٨ . واللفظ واحدة.

وليس أمام المتصف بالصفات السابقة ، إلا أن يتدبر منهاج الله قرآنا وسنة ، قدر جهده واستطاعته التي وهبها الله له . حتى تصحّ استجابته ويصدق عمله .

فالاستجابة لله إذن هي استجابة إيمان ويقين واستجابة علم ومعرفة . فإذا صحت الاستجابة كان من أهمها العبادة وعلى رأسها الصلاة . فلم ترد الصلاة هنا على سبيل الحصر ، ولكن لإبراز منزلة الصلاة ، ولتوحي بضرورة الاستجابة لسائر العبادات . والأوامر والنواهي ، كما أرادها الله سبحانه وتعالى في منهاجه .

هذه السمات والصفات هي مميزات رئيسة للجماعة المؤمنة ، العاملة الناهضة إلى أمانتها ومسئوليتها .

تقويم سليم لمتاع الحياة الدنيا ورغبة فيما عند الله .

إيمان وحسن توكل على الله .

اجتناب لكبائر الإثم والفواحش وطهر ونقاء .

عفو وسماحة عند الغضب .

استجابة لله إيماناً ويقيناً ، وعلماً ومعرفة .

وإقامة للعبادات كلها وأداء لسائر التكاليف .

فإذا صدقت هذه السمات في جماعة مؤمنة ، فاتركها عندئذ تمارس الشورى بإيمانها وعلمها ، ونقائها وطهرها ، وسماحتها وعفوها ، فلن تلهيها مناقشة هذه القاعدة أو تلك ، وإلزام نتيجة الشورى أو عدم إلزامها ، في أجواء فلسفية . ولذلك جاءت الكلمات الربانية « **وأمرهم شورى بينهم** » بعد هذا التعداد للصفات ، ومع هذا التعريف للجماعة المؤمنة الطاهرة النقية .

هذه الجماعة المؤمنة عندما تربى مثل هذه التربية ، وعندما تبنى مثل هذا البناء ، هذه الجماعة ستدير الشورى بينها بسهولة ويسر ، مستغنية عن كثير من الجدل والمراء ، منطلقة إلى العمل والإنتاج .

ولقد ظل القرآن الكريم والسنة النبوية يرعيان هذه الصفات في الجماعة المؤمنة سنين طويلة بإلحاح وبأساليب شتى . ظل المنهاج الرباني يبني الجماعة

على هذه الصفات الرئيسة وعلى مقومات الإيمان بشدة وقوة ، وفي مختلف السور والآيات وفي مختلف الميادين والساحات . في المساجد ، وفي ساحات القتال ، وفي المنازل ، وفي كل لقاء ومع كل خلوة .

وعندئذ استغنت هذه الجماعة عن الجدل واللجاج ، والقيل والقال ، والمراء وكثرة السؤال .

«**وأمرهم شورى بينهم ..**» هي جزء من آية فلا يستحب أن تؤخذ من دون الآية بتمامها . فستفقد بريقاً وروحاً ومعاني .

والآية جزء من مجموعة من الآيات قد لاتبدو علاقتها مع الشورى للنظرة الأولى ، ولكنها تربط صفات المؤمنين ربط تكامل وتناسق . فإذا أخذت الآية وحدها اختفت ظلال وقواعد .

وهذه المجموعة من الآيات جزء من سورة سميت «الشورى» وقد لاتبدو علاقتها بالشورى لأول وهلة . ولكن التدبر والتمحيص ، وفهم أسلوب القرآن الكريم في البناء والتربية ، يكشف لنا عظمة ترابط الكلمات مع الآية ، والآية مع مجموعة الآيات ، والمجموعة مع السورة كلها ، والسورة كلها مع منهاج الله .

ومن هنا نرى البون الشاسع بين أن نأخذ الكلمات الثلاث وحدها ، وبين أن نأخذها في أجواء منهاج الله على إيمان وعلم وتدبر .

وأما الشورى التي تدور في غياب هذه الآيات ، هي شورى لاتديرها الجماعة المؤمنة ، ولايديرها منهاج الله . إنها ستكون حينئذ مداولة يديرها الشيطان في أجواء الجدل والغضب والأهواء . فلن تنفع عندئذ قاعدة الإلزام أو عدم الإلزام .

ولا نعني بهذا أن الجماعة المؤمنة لاتفكر لتضع تفاصيل أو صوراً تطبيقية للشورى ، ضمن قواعد المنهاج الرباني ، ولكننا نعني أمرين :

أولاً : إن حصر الشورى بقاعدة اجتهادية يدور حولها الخلاف لايفي بحاجة المسلمين ولابحاجة تربية جنود الله ، ولا بحاجة توضيح التصور الإيماني .

والشباب المؤمن يحتاج إلى إعداد وتربية على أسس منهاج الله ، كما أسلفنا ، حتى ينجح في إدارة شورى ، أو إبرام أمر ، على صدق نية ، وسلامة عمل ، وصحة علم .

وثانياً : إن الجماعة المؤمنة التي تعي منهاج الله تدبراً وعلماً وتطبيقاً ، وتعي واقعها وعي إيمان وتثبيت وممارسة ، ستعرف كيف تضع تفاصيل حاجاتها من شورى وغيرها ، في صورة متكاملة متناسقة ، وعلى نحو عملي تطبيقي .

ولعل هذا البحث يكشف في الصفحات المقبلة صورة أوسع لهذا التصور ، وتحديداً أدق .

وكثير من الجهود ، وكثير من الأبحاث ، وكثير من الجدل سيضيع هباء إن لم تستقر قواعد منهاج الله في القلوب والصدور ، ولم يع المؤمنون واقعهم وعي إيمان وتدبر وتثبت وممارسة .

فالشورى في الإسلام إذن ليست كلمات مجزوءة اقتطعت من هذه الآية أو تلك ، ولكنها قاعدة عظيمة في الإسلام ، تتكامل صورتها بتكامل وعي منهاج الله تدبراً وتطبيقاً وبوعي واقع الجماعة المؤمنة تدبر إيمان وتثبت .

ولقد كان لعلماء المسلمين أقوال في تفسير كلمات الشورى في الآيات السابقة ، وهي إما تبين أسباب نزول هذه الآية أو تعطي رأياً فهموه من خلال علمهم . ولنستمع لبعض من هذه الأقوال :

فالطبري يورد : «**إذا حزبهم أمر تشاوروا بينهم**» (١) .

فلا نجد له إضافة أو زيادة عن المعنى الظاهر لهذه الكلمات الثلاث من الآية الكريمة . ولم يشر إلى قاعدة الإلزام أو عدمها .

والقرطبي : «كان الأنصار قبل مقدم النبي ﷺ إذا أرادوا أمراً تشاوروا فيه ثم عملوا عليه فمدحهم الله تعالى به» . وقال الضحاك : «وهو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسول الله ﷺ وورد النقباء إليهم ، حتى اجتمع رأيهم في دار أبي أيوب الأنصاري ، على الإيمان به والنصرة له» .

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري – ج (٢٥) ص (٣٧) .

«تشاورهم فيما يعرض لهم فلا يستأثر بعضهم بخير دون بعض . وقد كان النبي ﷺ يشاور أصحابه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب ولم يكن يشاورهم في الأحكام لأنها منزلة من عند الله» (١).

ويورد الزمخشري أنهم كانوا قبل الإسلام وقبل مقدم الرسول ﷺ إلى المدينة ، إذا كان بهم أمر اجتمعوا وتشاوروا . فأثنى الله عليهم بأنهم لاينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه(٢).

وعند ابن كثير أنهم لايبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها (٣).

هذه مقتطفات ولمحات مما أورد هؤلاء العلماء والمفسرون . فقد رأى بعضهم أنها نزلت لتحمد الأنصار ، وتثني عليهم على ماكان بينهم من شورى . ويتجه بعضهم إلى حصرها في أمور الحرب وما جرى مجراها .

ولكننا لانرى حقوق الإمام أو ولي الأمر ، واتساع أو ضيق صلاحياتها ، والتزامه بنتيجة الشورى أو عدم التزامه ، لانراها أنها هي القضية المطروحة لا في نص الآيات ولا عند المفسرين ، ولا نراها أنها كذلك كانت قضية مطروحة في سيرة الرسول ﷺ ، ولا في حياة الخلفاء الراشدين .

ومهما تكن وجهات النظر هذه وتلك ، فهي رأي ننزله منزلته الكريمة ، ولكنه لايبلغ درجة الرأي المدعوم بالنص من آية أو حديث . وهو جهد بشري لايبلغ درجة الوحي والنبوة ، وتظل الآيات السابقة من سورة الشورى تعطي دلالاتها الواسعة ، وتمد آفاقها الكريمة وهي تصف الجماعة المؤمنة التي تمارس الشورى من خلال هذه السمات والمميزات وتظل كذلك نهجاً للتربية والإعداد ، متناسقة مع سائر آيات سورة الشورى ، ومع المنهاج الرباني ، لتقوم على هذه الأسس في كل جيل ومع كل عصر .

(١) تفسير القرطبي مجلد (٨) ص (٥٨٥٧) .
(٢) الكشاف للزمخشري المجلد (٣) ص (٤٧٢) .
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤ ص ١١٨ .

٢ - نموذج من الممارسة والتوجيه :

وتأتي آية أخرى تعرض صورة في ميدان الحركة والعمل ، مع إيحاءات وظلال جديدة ، لقد كانت معركة أحد في السنة الثالثة للهجرة في السابع من شوال ، وكانت الشورى قبلها . فجاءت الآية في سورة آل عمران ، تحمل ظلالها ومعانيها ، كما تحمل معها ظلال الآيات الأخريات في سورة آل عمران وكانت تحمل التوجيه الرّبانيّ الجديد للرسولﷺ وللجماعة المؤمنة .وفي هذه الآيات ورد : «**وشاورهم في الأمر** » وسنرى ونحن نتدبر الآيات أننا نفقد الشيء الكثير حين ننزع هذه الكلمات الثلاث «**وشاورهم في الأمر**» من الآية الكريمة ومن الآيات المتعلقة بها وبقضيتها . سنرى أننا نفقد الكثير حين نريد أن نأخذ تصورنا عن الشورى من هذه الكلمات الثلاث وحدها دون أن نربطها ، كما هي مرتبطة فعلاً ، بالآية والآيات والسورة والمنهاج الرباني .

وسنرى سواء أكان في هذه الحالة أم في غيرها ، أننا نفقد الكثير من المعاني والظلال ، ومن الخير وعظمة التوجيه ، ومن التربية وقوة البناء ، حين نترك التنسيق والتكامل في منهاج الله ، لنأخذ لفظة أو لفظات ، ننتزعها متخلين عن سائر مايحيط بها من بركة وعلم وإيمان .

والآيات التي نعنيها من سورة آل عمران نزلت بمناسبة غزوة أحد ، حين اجتمعت قريش بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة . وقبل أن نورد الآيات نورد القصة كما وردت في سيرة ابن هشام[1] :

فلما سمع رسول الله ﷺ والمسلمون قد نزلوا حيث نزلوا ، قال رسول الله ﷺ للمسلمين : **إني قد رأيت والله خيراً . رأيت بقراً لي تذبح وفي ذباب سيفي ثلماً ، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة . فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا ، أقاموا بشر مقام . وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها** ، وكان رأي عبدالله بن أبي بن سلول مع رأي رسول الله ﷺ يرى

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٦٢ .

رأيه في ذلك وألا يخرج إليهم . وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج . فقال رجال من المسلمين ممن أكرمهم الله بالشهادة يوم أحد وغيرهم ممن كان فاته بدر : يارسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لايرون أنا جبنّا عنهم وضعفنا . فقال عبدالله بن أبي بن سلول : يارسول الله ، أقم بالمدينة لاتخرج إليهم ، فوالله ماخرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا . ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يارسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعو رجعوا خائبين كما أتوا . فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم ، حتى دخل رسول الله ﷺ بيته فلبس لأمته . وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة . وقد مات في ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له مالك بن عمرو ، فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم خرج عليهم ، وقد ندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك . فلما خرج عليهم رسول الله ﷺ قالوا يارسول الله ﷺ ، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك . فقال رسول الله ﷺ : «**ماينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل**» . فخرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه ، حتى إذا كانوا بالشوط ، بين المدينة وأحد ، انخذل عنه عبدالله بن أبي بن سلول بثلث الناس . وقال : «أطاعهم وعصاني . ماندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس» .

وتدور سورة آل عمران بمائتين من الآيات الكريمة ، تستعرض حياة الجماعة المؤمنة في المدينة في الفترة بعد غزو بدر إلى مابعد غزوة أحد ، إلى سنوات طويلة . إنها وقفة طويلة مع الأمة المؤمنة ، تستعرض العقيدة في ساحة العمل ، تحدد معنى الدين ومعنى الإسلام ومعنى التوحيد . وتستعرض مكائد اليهود والنصارى ودسائسهم وكذلك مكائد الكافرين ودسائسهم . وتنبه المؤمنين إلى ذلك كله وتضع قواعد الأمة المؤمنة العاملة ، وقواعد وحدتها وعدم تفرقها وعدم ولايتها للكافرين والمنافقين وأهل الكتاب . وتدفع المؤمنين بالثقة واليقين ،

وتهوّن من شأن الكافرين والمنافقين وأهل الكتاب . وتدور هذه المعاني من خلال أحداث ووقائع ودروس . ومن خلال عتاب وتوجيه وبناء . ومن هذه الأحداث غزوة أحد حيث تعرضها سورة آل عمران ، لتقدم دروساً ربانية في البناء والتوجيه ، وفي المنهج والتخطيط . ومن هذه الدروس: «الشورى » .

فالشورى أتت من خلال أحداث وأجواء لها دلالتها ولها إنجازاتها .

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [آل عمران: ١٢١]

وتمضي الآيات تستعرض غزوة «أحد» ودروسها العظيمة في أجواء العقيدة المتماسكة والإيمان المشرق ، والعقاب الربّاني في أجواء المغفرة والرحمة .

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: ١٥٢]

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران: ١٥٥]

ثم خطاب إلى المؤمنين :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [آل عمران: ١٥٦ – ١٥٨]

ثم خطاب إلى رسول الله ﷺ :

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩]

وتستمر الآيات الكريمة بعد ذلك تتابع الدروس والبناء والتوجيه . ومن أجل ذلك ، فإننا نعتقد أن هنالك فرقاً كبيراً بين أن نأخذ الألفاظ الثلاثة وحدها : «**وشاورهم في الأمر** » ننتزعها من كل هذه الأجواء ، لنخرج بأحكام وقواعد ، وبين أن نعيش أجواء الآية كلها ، أجواء آيات غزوة أحد كلها ، أجواء سورة آل عمران كلها لنتعلم منها ، ويتعلم المؤمنون على مر السنين والأجيال ، دروساً ربانية وممارسات عَقَديّة ، ومواقف إيمانية ، تتفاعل في حياة الجماعة المؤمنة ، لتعطي للشورى ظلالها ومعانيها ، وتطبيقاتها ، وروحها ! شتان بين الحالتين .

ففي الحالة الأولى شيء أقرب إلى الجدل والمراء ، وفي الحالة الثانية علم وإيمان وتطبيق ، من خلال دين وعقيدة .

فواضح أن الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام لم ينحصر في «**وشاورهم في الأمر** » لقد جاء الأمر الرباني بأربع نقاط في آخر الآية الكريمة :

﴿ ... **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...** ﴾

[آل عمران: ١٥٩]

ومن الآيات السابقة في أجواء التوجيه والعتاب للمؤمنين :

﴿ ... **إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ....** ﴾ [آل عمران: ١٥٥]

وهذا التوجيه من الله رب العالمين : « **فبما رحمة من الله لنت لهم ..** » وكيف كان اللين حين خالفوه في الرأي ، ثم عرفوا هم أنفسهم ذلك ، فعادوا وقالوا : «يارسول الله استكرهناك ولم يكن ذلك لنا» . فقد استزلهم الشيطان ، وقد أخطأوا ، وقد عرفوا ذلك واعترفوا به . فبماذا أجابهم الرسول ﷺ ، لم يقل لهم إن هذا حقكم وإنكم لم تخطئوا، لم يقل لهم أنا ملزم برأيكم، لم يجادل ولم يمار، وإنما قال : «**ماينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل** » . وكأن هذه الكلمات عتاب مع رحمة ولين . فهذا هو لين الرسول ﷺ : « **فبما رحمة من الله لنت لهم** » . ومن هنا بدأت تتَّضح لنا معاني الآيات وظلالها وروحها : «**فاعف عنهم واستغفر لهم** » . ثم تلا ذلك «**وشاورهم في الأمر** » لا لأن الشورى

ونتيجتها ملزمة له ، ولكن لأن الشورى ضرورة في تربية الجماعة المؤمنة ، في بناء نفوسها وإيمانها وسلوكها وأخلاقها . ولأن الموقفَ هذا موقفُ توجيه وإعداد وتربية وبناء .

ثم يلي ذلك : «**فإذا عزمت فتوكل على الله**» ، وجاء هذا التوجيه بعد : «**فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر**» . فالعزيمة عند النبوة إذن هي : أنها إذا اطمأنت إلى رأي ، رأت فيه الحق والخير ، ورأت فيه رضاء الله وتنفيذ شريعته مضت فيه . ولا يعقل أن يكون توجيه الله سبحانه وتعالى إلى نبيه هنا ، أن يعطل رأيه ويلتزم برأي جماعته من المؤمنين ، سواء اطمأنّتْ نفسه إلى الرأي أم لم تطمئن ، لايعقل أن يكون التوجيه على هذا النحو . ولكن التوجيه الواضح البين ، هو أنه إذا اطمأنت نفسك إلى رأي أنه الحق والصواب سواء أحصل هذا الاطمئنان باستماع مختلف الآراء ، أم بالبينة والدليل ، عندئذ تتولد العزيمة للمضي ، والعزيمة هذه يصاحبها التوكل على الله .

وهكذا نرى أن هذه النصوص القرآنية لم تأمر بإلزام الشورى بنتيجتها . ولم تضع النص على هذا النحو بإلزام أو عدم إلزام ، ولكن النص ورد ليربي ويعلم، ليربي نفوساً ويبني إيماناً في صورة متوازية مع سائر قواعد الإسلام ، ومع منزلة النبوة التي أتت لتبلغ وتبين ، وتعلم وتربي .

وعلى هذا الأسلوب من التربية وعلى هذا المستوى من الإيمان ، كانت تدور الشورى بين الجماعة المؤمنة ورسولها وقائدها ونبيها . على هذا النحو ، بعيداً عن اللغو والترف الفكري ، في جو تطبيقي عملي ، يحمل كل أخلاق الإسلام ، وكل نبضات الإيمان ، وكل آداب التطبيق ، ويحمل معه كل القوة المتحركة ، والشخصية المؤمنة العاملة والمتفاعلة .

إن قواعد الإسلام لم تتنزل من السماء لآلات تتحرك ، أو حجارة تدار ولكنها نزلت إلى بشر ليتفاعل معها ويتمثلها في واقعه وحياته . ليكون تطبيقه لها تطبيق وعي وإدراك ومشاركة وتعاون ، وتفاعل وإيمان ، وليمارس بها قدراته

ومواهبه ، وطاقاته وسعته ، وسمعه وبصره وفؤاده . ليتحرك بها كيانه فلا يلتزم بأمر بشري دون مطابقته لشرع الله ، واطمئنانه لعدالته وحقه ، ودون ممارسته لطاقاته وقدراته . وشتان بين إعداد أجيال مؤمنة عاملة ، وتحريك آلات وأحجار ميتة ، فلهؤلاء قواعد وأساليب ، ولهؤلاء قواعد وأساليب .

وكما عرضنا أقوال بعض العلماء والمفسرين للآية الأولى نعرض هنا كذلك بعض أقوالهم في الآية الثانية التي وردت في سورة آل عمران :

ذكر ابن جرير الطبري في تفسيره أقوال كثيرين ثم قال : وأولى الأقوال بالصواب في ذلك أن يقال إن الله أمر نبيه بمشاورة أصحابه فيما حزبه من أمر عدوه ومكائد حربه تألفاً بذلك لمن لم تكن له بصيرته بالإسلام ، وتعريفاً منه لأمته مافي الأمور التي تحزبهم من بعده ، وليقتدوا به في ذلك عند النوازل . أما النبي فكان مستغنيا عن الشورى بتسديد الله ، فإذا صح عزمك بتثبيتنا إياك وتسديدنا إياك ، فيما نابك وحزبك من أمر دينك ودنياك ، فامض لما أمرناك به على ماأمرناك به ، وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفها ، وتوكل على الله وثق به » [1].

أما القرطبي في تفسيره لهذه الآية فقال : فيه ثمان مسائل . وجعل الأولى العفو والاستغفار حتى يصيروا أهلاً للاستشارة . وشرح معنى الاستشارة لغة . والثانية أورد فيها قول ابن عطية وسيرد معنا ، وخلاصته وجوب الاستشارة . والثالثة جواز الاجتهاد . وقال : اختلف أهل التأويل في معنى «**وشاورهم في الأمر** » . وأورد طائفة من الأقوال : الشورى في مكائد الحروب ، وعند لقاء العدو، تطييباً لنفوسهم ورفعاً للأقدار وإن كان الله تعالى قد أغناه عن رأيهم بوحيه . وقال آخرون : ذلك فيما لم يأته فيه وحي . وقال الضحاك : ماأمر الله تعالى نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم ، وإنما أراد أن يعلمهم مافي المشاورة من الفضل ولتقتدي به أمته من بعده . وفي الرابعة أورد بعض

---

(١) جامع البيان – الطبري . المجلد الثالث ج٤ ص ١٥٢ , ١٥٣ .

الأحاديث منها: «المستشار مؤتمن» . ثم ذكر صفة المستشار في الأحكام . وذكر في الخامسة صفة المستشار في أمور الدنيا . وذكر بعض الأحاديث منها : «**ماندم من استشار ولاخاب من استخار**» . وروى عن البخاري وسفيان الثوري والحسن ، وقال في السادسة : والشورى مبنية على اختلاف الآراء ، والمستشير ينظر في ذلك الخلاف وينظر أقربها قولاً للكتاب والسنة إن أمكنه ، فإذا أرشده الله تعالى إلى ماشاء منه عزم عليه وأنفذه متوكلاً على الله ، إذ هذه غاية الاجتهاد المطلوب وبهذا أمر الله نبيه في هذه الآية . وفي السابعة أتى بقول قتادة : أمر الله تعالى نبيه عليه السلام إذا عزم أن يمضي ويتوكل عليه لا على مشاورتهم . ثم شرح الحزم والعزم . وفي الثامنة شرح معنى التوكل[1] .

الفخر الرازي : «لايبعد أن يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح مالا يخطر ببال الرسول ﷺ ، لاسيما في أمور الدنيا «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**» . لتقتدي به الأمة ، لتطييب القلوب ، لاختبار عقولهم وأخلاقهم ، ولاتجوز بما نزل به وحي . وإذا حصل الرأي المتأكد بالمشورة فلا يجب الاعتماد عليه بل يجب أن يكون الاعتماد على إعانة الله وتسديده وعصمته »[2] .

الزمخشري : « في أمور الحرب ونحوها مما لم ينزل به وحي ليستظهر رأيهم، تطييب النفوس ورفع قدرهم ، أن يستن به من بعده ، إذا قطعت الرأي على شيء بعد الشورى فتوكل على الله في إمضاء أمرك على الأرشد الأصلح ، فإن ماهو أصلح لك لايعلمه إلا الله ، لا أنت ولا من تشاور »[3] .

ابن كثير : «تطييباً للقلوب . إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله » . ويعرض ابن كثير نماذج من مشاورة الرسول ﷺ لأصحابه ، مثل يوم بدر وأين يكون المنزل ، ويوم أحد ، ويوم الخندق ، ويوم الحديبية ، وقصة الإفك ،

---

(١) تفسير القرطبي . مجلد (٣) ص ١٤٩٥ .
(٢) الفخر الرازي :
(٣) الكشاف – الزمخشري . المجلد الأول ص ٤٧٤ , ٤٧٥ .

وكان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها . ثم قال ابن كثير : وقد اختلف الفقهاء هل كان واجباً عليه أو من باب الندب تطييباً لقلوبهم . ثم ذكر بعض الأقوال في ذلك وذكر بعض الأحاديث الشريفة في الشورى »[1].

أما ابن عطية في تفسيره فيقول :

« أمر الله تعالى رسوله ﷺ بهذه الأوامر التي هي بتدريج بليغ ، وذلك أنه أمره بأن يعفو عليه السلام عنهم ما له في خاصته عليهم من تبعة وحق ، فإذا صاروا في هذه الدرجة أمره أن يستغفر لهم فيما لله عليهم من تبعة ، فإذا صاروا في هذه الدرجة كانوا أهلاً للاستشارة ، والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ، ومن لايستشير أهل العلم والدين فعزله واجب ، هذا ما لاخلاف فيه». ثم أورد الآية من سورة الشورى وبعض الأحاديث . ثم قال : وصفة المستشار في الأحكام أن يكون عالما ديّناً ، وفي أمور الدنيا أن يكون عاقلاً مجرباً وادّاً في المستشير ، والشورى بركة . ثم يقول : « والشورى مبنية على اختلاف الآراء ، والمستشير ينظر في ذلك الخلاف ويتحيز ، فإذا أرشده الله تعالى إلى ماشاء منه عزم عليه وأنفذه متوكلاً على الله ، إذ هي غاية الاجتهاد المطلوب منه »[2].

وفي تفسير تيسير الكريم الرحمن يقول ابن سعدي :

«.. أي الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر ، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية مالا يمكن حصره . ثم هو يعدد بعض هذه الفوائد : التقرّب إلى الله ، تسميح لخواطرهم ، اطمأنت نفوسهم وأحبوه وعلموا أنه ليس يستبد بهم ، فبذلوا جهدهم في طاعته ، وفيها تنور الأفكار ، ومنها ما تنتجه الاستشارة من الرأي المصيب فإن المشاور لايكاد يخطىء في فعله » ، ثم قال : «فإذا عزمت .. » أي على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه فاعتمد على حول الله وقوته متبرئا من حولك وقوتك »[3] .

---

(١) ابن كثير : ج١ ص ٤٢٠ .
(٢) تفسير ابن عطية ج ٣ ص ٣٩٧ .
(٣) تيسير الكريم الرحمن : ج١ ص٤٤٥/ ٤٤٦ .

ولقد أوردنا أقوال المفسرين بإيجاز ولم نورد أقوالهم مفصلة بكامل نصوصها . فمن أراد فليرجع إليها كاملة . ولكننا اخترنا مانظنّ أنه يعرض رأيهم . فإن لم تكن النصوص هذه كافية ، فنعتذر عن ذلك ونعتذر عن صعوبة إدراج التفاسير بكاملها .

٣ - مشورة في الأسرة وأجوائها :

وآية ثالثة في القرآن الكريم تنقلنا إلى جوّ يختلف عن الحروب ومكائدها ، ويختلف عن الميادين العامة الواسعة ، وساحات الحكم والسلطة وأمثالها . إنها آية تنقلنا إلى جوّ الأسرة المسلمة ، إلى الحياة الزوجية النظيفة ، إلى زاوية من زواياها .

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) ﴾

[البقرة: ٢٣٣]

هذه الآية الكريمة في سورة البقرة ، تأتي في أجواء الحياة الزوجية وبعض جوانبها ، وبمناسبة الطلاق وأحكامه ، ومن الضروري أن نشير إلى أن الطلاق وأحكامه ، لم يرد في كتاب الله كقضية منفصلة مستقلة ، ولكنه ورد في سورة البقرة من خلال العقيدة والتوحيد وقواعد الإيمان ، شأنه في ذلك شأن سائر قواعد الإسلام ، حين يعرضها القرآن الكريم بالأسلوب الربّانيّ المتميز بالتكامل والتناسق .

نجد ملامح من أجواء الشورى بكل صفائها ووضوحها في الحياة الزوجية . وفي ناحية خاصة قد يراها الناس قضية ثانوية لاتستحق وحياً يتنزل بها ، ولاتستحق شورى تدور حولها . إنها قضية الرضاعة والفطام . فبعد أن تحدد

الآية الكريمة جوانب من مسئوليات الزوجة والزوج والوارث ، من خلال ألفاظ قرآنية حانية ، تشعر اللفظة نفسها بالمسئولية ، وتشعر الألفاظ نفسها بالعلائق والوشائج : «**والوالدات يرضعن ...**» «**وعلى المولود له ...** » فإذا أتى أمر الفطام للطفل المولود قبل الحولين ، عرضه القرآن الكريم من خلال التراضي والتشاور بين الوالدة والمولود له ، حيث يقف كل منهما أمام مسئوليته ، ويقفان معاً أمام مسئولية مشتركة ، مسئولية يراها الإسلام هامة وهو يرعى الطفل الضعيف ، فيضع له أسباب الحماية والرعاية .

فمن هنا نرى جواً جديداً للشورى يختلف عن الأجواء السابق عرضها . ونراها تعرض هنا كذلك بأسلوب خاص يناسب القضية . فهذه قضية تختلف عن القضايا السابقة في أجوائها ودورها في الحياة . فعرضها القرآن الكريم عرضها المناسب ، بين أجواء المسئوليات المتناسقة ، والرحمة والحنان ، والتربية والبناء .

وفي سورة الطلاق :

﴿ **أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)** ﴾ [الطلاق: ٦، ٧]

فإن كانت الآية الكريمة في سورة البقرة تعرض التشاور في أمر الفطام للطفل ، فإن سورة الطلاق تعرض شكلا من أشكال الشورى ، في جو الحياة الزوجية ، يتعلق بالإرضاع أيضاً ، في جو الأسرة المضطربة ، في جو الطلاق وقد انقطع حبل الأسرة . في هذا الجو ، حيث تتحرك مشاعر الغضب ، وتثور روح الأذى عند غير المؤمنين المخبتين . في هذا الجو يدعو القرآن الكريم الزوجين إلى واجبات ومسئوليات ، بأسلوب واقعي رحيم ، بأسلوب ربانيّ ، حتى إذا

وضعت الزوجة بعد الطلاق ، فقد بانت بانقضاء عدتها ، وانقطع حبل الحياة الزوجية . حتى في هذه اللحظات ، تظل الحقوق والواجبات موضع الرعاية والاحترام ، في دين الله . ويأتي التوجيه يحمل أدق التعابير وأجملها وأشملها :

«وأتمروا بينكم بمعروف » .

واجعلوا أمركم بينكم بمعروف من غير إضرار . فالرجل قد يطلب من الزوجة إرضاع المولود ، وللزوجة على ذلك أجر مثلها ، ولها أن تمتنع : **«وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى »** . وظلال هذه الكلمات ، من خلال الآية الكريمة ، توحي بضرورة التشاور بين الزوجين رعاية لحق المولود ، حتى يتم الأمر بينهما على أساس من الحقوق المحددة الواضحة في هذه الآية الكريمة. فبعد أن حدد القرآن الكريم الحقوق والواجبات ، وربط الأمر كله بالعقيدة ربطاً كاملاً متناسقاً ، وبين فضل الله على عباده في الرزق وقدره في ذلك ، وبعد أن بيّن أنّ تلك الأحكام في سورة الطلاق هي أمر الله أنزله لعباده ، وبيّن الأجر والثواب على الطاعة والتقوى ، فأعظم الأجر والثواب ، بعد هذا كله دعا القلوب إلى أن تأتمر بينها بمعروف .

ومن هنا نلمح عمق الشورى في الحياة الإيمانية ، وأصالتها في النهج الإسلامي وامتدادها في نواحي الحياة . نراها وهي بعيدة عن أجواء «القوالب» المحددة الجامدة ، فهي ندية كريمة ، تدخل النفوس لتلين من شدتها وتخفف من قسوتها . نراها مطالبة بالعقيدة والإيمان . ونراها ترد بعد تحديد الحقوق والواجبات ، ووضوح المسئوليات ، ومعرفة الحدود ، حيث لاتكون شورى متفلتة تائهة هوجاء .

الفصـل الثانـي
في القرآن الكـريـم
المداولـة في أجـواء غير إيمانيـة

لقد رأينا في النماذج السابقة أمثلة على الشورى التي تدور بين قوم مؤمنين وفي أجواء الإيمان ، وبواعث الخير والحق . ولكن القرآن الكريم يعرض لنا نماذج أخرى، نماذج من المداولة بين قوم غير مؤمنين ، نماذج من مداولة المكر السيّىء ، والغيرة والحقد ، والنجوى . وبين تلك النماذج التي سبق عرضها وهذه التي نعرضها ، نجد الفرق والبون الشاسع ، وتتضح الشورى بين المؤمنين على صورة أعمق . ولفظة الشورى أحق أن تلتصق بالصورة المشرقة المؤمنة ، الصورة الأولى، وقد نستعملها أحياناً هنا ، معتذرين عن ذلك حين لانجد لفظة أكثر جمعاً ودلالة لحالات متعددة .

١ - ملكة ورجالها :

ينقلنا القرآن الكريم إلى هذا الجو في سورة النمل ، مداولة بين قوم أشداء ورجال أولي بأس ، وبين ملكة تحكمهم وهي ذات رأي وتدبير . إنها ملكة سبأ . نقل الهدهد إلى سليمان عليه السلام نبأها وأحوال قومها . إنهم قوم كافرون لايعبدون الله ، إنهم يعبدون الشمس . فقال سليمان عليه السلام للهدهد :

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النمل: ٢٨ - ٣٥]

فحين عرضت الملكة على رجالها ذلك الكتاب وعرضت الأمر ، وهو أمر شديد يهدد ملكها ودولتهم كلها بالزوال ، حين عرضت ذلك على أهل الرأي ممن حولها ، عرضوا هم قوتهم وبأسهم في الحرب ، ولم يعرضوا رأياً وتدبيراً . عرضوا استسلام رجولتهم وبأسهم إلى امرأة تملكهم ، تملك قوتهم وبأسهم ، تملك سلاحهم وعقولهم فأسلموا أمرهم إليها ، ولم تتحرك لهم قلوب واعية ، ولم تتفاعل مسئوليات وأمانة ، ولم تهتز لهم مشاعر وعقيدة . وسلاحهم وقوتهم لاتتحرَّك إلا بأمرها وإشارتها ، فماتت فيهم المواهب والقدرات ، إن كان لهم مواهب وقدرات . إنه اعتداد بالقوة والبأس ، وشدة في الحرب والدمار ، وعاصفة في الفساد والتدمير . إننا نلمح من خلال هذا الاعتداد تخاذل الرجولة وهوان الرأي وضياع التدبير ، فأي مداولة يمكن أن تدور بعد ذلك ؟!

والملكة الحاكمة امرأة فيها كل خصائص المرأة ، على قوة في الرأي وحنكة في التدبير ، في جو من النعيم والسلطان ، والرفاهية والنفوذ . فأي مداولة تحتاجها منهم ، وهي أعلم بشأنهم وأخبر بهوانهم فلم تكن المداولة التي طلبتها بحثاً عن مخرج أو تحرياً لحق . إنها لم تكن أكثر من أسلوب في الإدارة ونمط من أنماط الحكم ، إدارة الآلات وحكم الأموات . وشتان بين تلك الصورة وتلك الأجواء وبين صورة الإسلام وأجوائه . فحين تموت الرجولة والمواهب هناك ، فإنها تنمو وتقوى في مدرسة الإيمان ودار الإسلام . وحين تكون البواعث أسلوباً ودهاء هناك ، فإنها تكون في الإسلام بحثاً عن الحق وتحرياً لكل أسباب الخير .

٢ - مع عاصفة الهوى والغيرة :

وصورة أخرى نجدها في القرآن الكريم ، صورة أخرى للمداولة تكشف لنا عن بواعث مريضة ونوازع شريرة . ذلك في سورة يوسف . فحين تحركت الغيرة وثار الحسد في قلوب أبناء يعقوب ، اجتمعوا بدافع واضح وحافز مريض :

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ [يوسف: ٨]

فإذا كان هو هذا الدافع، فكيف ستدور المداولة، وعلى أي نسق تمضي، وأي قرار ستتخذ. إنها ستحمل معها نفس الروح الحاقدة والغيرة القاتلة.

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [يوسف: ٩]

وحين تتحرك الرحمة في قلب أحدهم فإنها لاتفعل أكثر من أن تخفف من أسلوب الخلاص من يوسف، ويظل الباعث المقيت يعمل ويطغي في مداولة الآراء وحمى المداولة والمكيدة:

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يوسف: ١٠]

وانطلقوا بعد هذه المداولة والمكيدة على رأي واحد وإجماع واحد، ولكنه إجماع على مؤامرة ورأي على قتل. ولاننسى هنا أن هؤلاء أبناء نبي الله، وماكانوا كافرين. هذا الهوى هو منطلق المداولة فستمضي على النحو الذي رأيناه.

٣ - ونجوى التنازع والكيد، نجوى السحرة:

وجماعة أخرى ... السحرة الذين دعاهم فرعون يتحدى بهم آيات الله ... لقد كفر فرعون بآيات الله حين أتى بها نبي الله موسى عليه السلام، وحسبها باباً من أبواب السحر، فدعاهم:

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه: ٦٠]

فوعظهم موسى وعظاً بليغاً، وأنذرهم بعذاب الله.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طه: ٦١]

ولقد أثرت كلمات موسى عليه السلام فيهم، واختلفت آراؤهم حول ذلك فتناجوا بينهم سراً.

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾ [طه: ٦٢]

إذن لقد تنازع السحرة واختلفوا في الرأي، ولكن هذه الآيات الكريمة لاتعرض لنا مختلف الآراء التي طرحت، ولكنها عرضت ناحيتين:

الأولى: أنهم اختلفوا وتنازعوا.

والثانية: أنهم انصرفوا فيما بينهم يتناجون سراً: فقد جابههم نبي الله بالحق الثابت، والقول الفصل، وفاجأهم بالنذير والوعيد. فاجتمعوا ليتداولوا أمرهم ويبحثوا مايفعلون. ودارت بينهم المداولة، وقدم لنا القرآن الكريم سمتين من سمات هذه المداولة والمداولة بين قوم كافرين: التنازع والتناجي.

ولكن الهوى غلب عليهم فالتقوا على رأي واحد:

﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه: ٦٣، ٦٤]

وهكذا انتهت المداولة والنجوى على هذا الرأي.

وإن كانت سورة طه لاتكشف لنا عن الدوافع الكامنة في نفوس السحرة بصورة مباشرة، فإن سورة الأعراف تكشف عن كل هذه الدوافع:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤]

فلقد كان السحرة في موضع إعزاز وتكريم في ذلك المجتمع الكافر. وكانت لهم أرزاقهم وأموالهم من هذا السحر وذلك الملك. ولكنهم رغبوا بأكثر من ذلك، فأتوا مجتمعين ليحققوا إعزازاً أكبر وأموالاً أكثر. واستمر هذا الدافع

محور المداولة وتبادل الآراء حتى قالوا : « **إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى** » ، فيذهب بذلك الإعزاز والتكريم ويذهب الرزق والمال .

فهذه مداولة بين قوم كافرين . كان لها دوافعها الخاصة ، وكان لها سماتها الخاصة ، وهي تدور بينهم في جو من التنازع والنجوى وكان لها أهدافها الخاصة .

والشورى بين المؤمنين لها أيضاً دوافعها الخاصة ، ولكنها دوافع إيمانية تحرك قلوباً مؤمنة مرتبطة بالله رب العالمين . ولها أسلوبها الخاص وأهدافها الخاصة . ويظل هدف الشورى المؤمنة واضحاً دائماً ، ألا وهو البحث عن الحق وتحريه ، البحث عن الحق الذي يرضى الله سبحانه وتعالى .

٤ - والتآمر على رسول الله ﷺ :

وصورة أخرى يعرضها لنا القرآن الكريم حين يجتمع النفر الكافر ليمكر برسول ﷺ ويمكر بدين الله :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال: ٣٠]

روى محمد بن إسحاق صاحب المغازي عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنه : أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة ، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة . فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل من نجد . فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال : شيخ ، سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم نصحي ورأيي قالوا : أجل ادخل . فدخل معهم فقال :

انظروا في شأن هذا الرجل والله ليوشكن أن يواثبكم في أمركم بأمره . فقال قائل منهم : احبسوه في وثائق ثم تربصوا به ريب المنون ، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء ، زهير والنابغة . قال : فصرخ عدو الله فقال : والله ماهذا

برأي ، وا لله ليخرجنّه ربه من محبسه إلى أصحابه . فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم قالوا : صدق الشيخ فانظروا في غير هذا ، قال قائل منهم : أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه ، فإنه إذا خرج لن يضركم ماصنع إذا غاب عنكم أذاه . فقال الشيخ : والله ماهذا لكم برأي . ألم تروا حلاوة قوله ، وطلاقة لسانه ، وأخذ القلوب ماتسمع من حديثه . والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم . قالوا : صدق والله . فانظروا رأياً غير هذا . قال : فقال أبو جهل لعنه الله : والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد ، لا أرى غيره . قالوا وما هو . قال : تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهداً ، ثم نعطي كل غلام منهم سيفاً صارماً ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد . فإذا قتلوه تفرّق دمه في القبائل كلها . فما أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها . فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل (الدية) واسترحنا وقطعنا عنا أذاه . قال : فقال الشيخ : هذا والله الرأي . القول ما قال الفتى ، لا أرى غيره ، قال : فتفرّقوا على ذلك وهم مجتمعون عليه ... »[1] .

هذه صورة أخرى ونموذج من نماذج المداولة الكافرة ، مداولة المكر والتآمر على دين الله بأقبح صورها وأشكالها . فالنية والأسلوب والهدف ، هذا كله ، ينطلق من الكفر وينتهي إليه .

ومن خلال ماروى لنا محمد بن إسحق ، نرى كيف أن الآراء التي طرحها الماكرون المتآمرون هي آراء الضياع والحيرة والمتاهة . والآراء وما معها من حجج لاتقوم على مبدأ أو نهج ، إلا على أساس الغدر والخسة والجبن والضعة .

والرأي الأصوب في مثل هذه الحالة هو الرأي الذي يمعن في الجريمة ، ويوغل في الشر ، ويبعد في مدى الأذى والمكر .

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير . الجزء الثاني . تفسير الأنفال ص (٣٠٢) . السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٤٨٠ - ٤٨٢ .

ولاعجب أن يحضر إبليس مثل هذا اللقاء . فهي مداولة فيها شياطين الإنس والجن . وما استقر القوم على رأي حتى وافق عليه إبليس .وكلما رفض إبليس رأياً قالوا صدق الشيخ . صدق والله ، فهم مع الشيطان في كل حال .

ولكن الله لهم بالمرصاد : «**ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**» . وإذا تابعت مثل هذه المجالس ، وتلك النفوس ، وراقبتها وأنت تقرأ عنها في كتاب الله ، أو في السيرة ، رأيت النفوس القلقة المضطربة ، والقلوب الحائرة التائهة ، لاتكاد تستقر على رأي حتى تتركه . إنها مداولة الضلال والفتنة ... إنها مجالس الشيطان .

ومن هذا المثال وغيره ، نستطيع أن نتلمس بيسر معالم وحدوداً لشورى الإيمان ، ومعالم وحدوداً لمداولة الكفر والفتنة . والمقارنة تزيد الحق وضوحاً وتبرز المعالم والحدود .

٥ - والنجوى :

والنجوى هي المشاورة والمسارّة . وقد وصفها القرآن الكريم في مواقف عدة ، فأولاد يعقوب حين يئسوا من العزيز :

﴿ **فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ...** ﴾ [يوسف: ٨٠]

أي يتناجون ويتشاورون سراً

ويصف القرآن الكريم نجوى الكافرين :

﴿ **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا** (٤٧) ﴾ [الإسراء: ٤٧]

﴿ **لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ** (٣) ﴾ [الأنبياء: ٣]

ومثل هذه النجوى والمداولة الخفية، ومهما بلغت سريّتها فإن الله عليم مطلع عليها:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المجادلة: ٧]

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٨﴾ [المجادلة: ٨]

ونجوى المنافقين وسرهم يعلمه الله:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ۝٧٨﴾ [التوبة: ٧٨]

هذه هي نجوى الكافرين ... مداولة تتم في خفية وتتحرك في ظلام، وتدور في همس، وتحبس في الزوايا، على قلق وخوف، وبأس وظلم.

إنها الفتنة التي تخشى الفضيحة، والجريمة التي تخشى أن تُسمَع. إنها تخرج من نفوس مظلمة، وتدور في زوايا مظلمة. وتتحرك في دور مظلمة ... إنها من الشيطان.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [المجادلة: ١٠]

ونحن نستعرض آيات الله الكريمة، نجد أن هذه المداولة التي تتم من خلال النجوى بكل ظلامها وهمسها وقلقها ... نجد أنها:

- إما أن تكون من مجرمين مفسدين، يخشون الفضيحة، فيتناجون سراً.
- وإما من الكافرين الظالمين، الذين يستمعون إلى الحق فلا يدخل منه إلى نفوسهم شيء، فينقلبون ليتناجوا سراً بالظلم والافتراء.

● وإما من المنافقين الذين لايقوون على كشف سريرتهم ، وإعلان مافي دخيلتهم . وهؤلاء جميعهم يحسبون أنهم على شيء ، أو أنهم بعيدون عن أعين الرقباء ، ورصد الأقوياء ، ذلك بأنهم لايؤمنون ، فلا يعلمون أن الله رقيب عليهم ، يحصي كل همسة ، مهما اختاروا من أماكن التستر والاختفاء. إنهم قوم لاهون : «**لاهية قلوبهم** » ، فأعماهم اللهو عن رؤية الحق، أو اتباعه . ما أشقاهم يوم ينبئهم الله بما عملوا يوم القيامة ، ما أشقاهم يوم يدخلون جهنم وبئس المصير .

ولكن المؤمنين قد يتناجون فيما بينهم ، حماية للحق ، ودفعاً لعدوان الظالمين ، أو للأمر بصدقة أو معروف أو إصلاح ، أو غير ذلك من أعمال البر والتقوى . فيضع الله أدب النجوى للمؤمنين إذا تناجوا :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩)** ﴾ [المجادلة: ٩]

فالنجوى بين المؤمنين صورة من صور الشورى المؤمنة ، تحمل خصائصها ومميزاتها ، فهي لاتحمل إثماً أو عدواناً ولا معصية للرسول . إنها كلها بر وتقوى . ويحدد الله منطلق النجوى المؤمنة ، وخطها وسبيلها ، وموضوعها وآفاقها ويحدد أهدافها وغاياتها ، ويجعل لها الله حماية في كل مراحلها حتى تستقيم وتصدق . ويجعل التقوى ، تقوى الله ، هي الحماية ، ويذكر المؤمنين بالغاية النهائية ، بيوم القيامة ، يوم الحشر ، «**واتقوا الله الذي إليه تحشرون** » .

إنها ليست قواعد وأوامر ونواهي مجردة ، ولا هي قوالب جامدة . إنها تربية ومعالجة للنفوس . فتأتي الأوامر والنواهي من خلال العقيدة والإيمان . من خلال الخشية من الله ومن حسابه ، من خشية يوم الحشر . وتأتي مع هذا كله بألفاظ تحمل كل آفاق الرحمة والحنان ، والرفق والعون . وليزيد نفوسهم طمأنينة وقلوبهم أمناً وعزيمتهم قوة ، فتمضي الآيات :

﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المجادلة: ١٠]

نجوى الخير ، نجوى الأمن ، نجوى العافية ، تمتد بكل هذه الظلال إلى يوم القيامة ، فيناجي الله عبده المؤمن مناجاة ستر وعفو وسلامة .

روى الإمام أحمد عن صفوان بن محرز قال : « **كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل ، فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟! قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله يدني المؤمن فيضع كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا، حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه قد هلك ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته. وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين**». (رواه البخاري وأحمد)(١)

والنجوى قد تكون في طبع بعض الناس ، أو قد تكون عادة من عاداتهم ، فيقوّم الإسلام الطباع ، ويصحح العادات ، حتى يصبح الطبع بركة والعادة خيراً . فإذا النجوى بين المؤمنين هي هذا الخير ، وإذا هي ممتدة هذا الامتداد حتى يوم القيامة . وهذا شأن الخير كله يمتد في الدنيا ويتصل في الآخرة ، برحمة الله وعفوه ومشيئته . ويمضي القرآن الكريم يصحح ويقوّم حتى تصح الاستقامة :

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤]

فهي إذن إصلاح أو معروف أو صدقة ، وهي خير وتقوى ، وبركة ونماء ، وهي ذات أهداف محددة : «**ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ..**» ما أعظم الهدف ، وما أقوى الاتصال ، وما أطيب النماء .

---

(١) صحيح البخاري . كتاب المظالم (٤٦) . باب قول الله تعالى ألا لعنة الله على الظالمين . والفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد ج ٢٣ حديث رقم ٣٦٧ ص ١٥١ .

وتظل مجالس المؤمنين على هذا الخير ، لايشوبها السوء ، ولاتؤذيها أفاعيل الشر ، ولاتفتح أبواب الشيطان . فلا غيبة فيها ولا نميمة ، ولاظن ولاافتراء ، ولاظلم ولا اعتداء ولا إثم ولا معصية . فتتصل آيات النجوى هذه ، بسائر آيات الله ، آيات العقيدة والإيمان ، وآيات الأخوة والتعاون ، وآيات تحريم الغيبة والنميمة ، وغير ذلك من قواعد الإسلام آيات وأحاديث .

ويظل القرآن يرعى هذه الأجواء المؤمنة مجلوّةً بنور الإيمان ، مطهرة بصفاء النفوس ، فيضع الحدود والواجبات :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [المجادلة: ١٢]

ثم خفف الله على المؤمنين :

﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

[المجادلة: ١٣]

ولم تكن النجوى هذه مع رسول الله إلا نجوى خير . يسأل المسلمون رسولهم حتى أحفوه بالمسألة وشقوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ، فلما وجد المسلمون مشقة في تقديم الصدقة رفعها الله عنهم .

وقال علي رضي الله عنه : « آية في كتاب الله عز وجل لم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي . كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم . فكنت إذا ناجيت الرسول ﷺ تصدقت بدرهم . فنسخت . فلم يعمل بها أحد قبلي ولايعمل بها أحد بعدي »[١] .

ويتابع المنهاج الرباني تربية النفوس ، وتطهير الألسنة والضمائر ، وتنقية المجالس ، حتى يصوغها الصياغة الكاملة ، فيجيء حديث الرسول ﷺ في أدب

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص ٣٢٦ .

النجوى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه**» .
(متفق عليه) (١)

مهما تكن النجوى ومهما يكن موضوعها ، مهما يكن فيها من خير ومعروف وصدقة ، فإن حماية النفس المؤمنة ودفع الحزن عنها أمر هام يتنزّل به وحي من السماء ، وتوجيه من رب العالمين ، فلا يتناجى اثنان دون الآخر ... لماذا ؟ لاشيء إلا من أجل أن ذلك يحزنه . فيصبح التناجي وتصبح الشورى طيبة مباركة حتى إنّها لاتحزن ولاتؤذي .

وهكذا يمضي الإسلام يرعى النفوس المؤمنة من كل جوانبها ، ويدفع عنها الأذى من كل ناحية ، رعاية الحب والحنان .

وحتى نُدرك عظمة هذا التوجيه الرباني وأثره في حياة الناس ، فانظر إن شئت في نجوى القرن العشرين ، وقرون عديدة خلت ، عقدها الشيطان على مكر وإفساد ، وظلم وعدوان .

وقد نجد النجوى في عصرنا الحالي في المجالس والندوات . ولاتنتهي هذه المجالس إلاّ والقلوب مهمومة محزونة ، والظنون هائجة . ويفترق الناس وقد مزقت النجوى القلوب ومزقت الوشائج .

وقد نجدها اليوم في أجواء السياسة ، ودنيا الأعمال ، وعالم المال . ولعلّ اللفظة التي عاشت حتى أصبحت أقرب إلى نجوى الشياطين : كلمة «وراء الكواليس» ..

إنها تحمل كل ظلال النجوى الآثمة ، والمداولة المعتدية . حيث تدور المؤامرات ، وتطبخ القضايا في عفن الزوايا ، وظلمة التكتم ، وفتنة المعصية .

---

(١) صحيح البخاري . كتاب الاستئذان (٧٩) . باب لايتناجى اثنان ... (٤٥) صحيح مسلم . كتاب السلام (٣٩) . باب تحريم مناجاة الاثنين ... (١٥) حديث رقم ٢١٨٤/٣٧.

«وراء الكواليس» لفظة شاعت حتى أصبحت تدل على مايبرم من شر ، وما تحوكه العصابة هذه أو تلك من تآمر واعتداء ، في سرية واختفاء ، في هذه المجالس أو تلك .

وعجباً لهذه النفوس التي تلتقي تحت أسماء براقة ، وشعارات ساحرة ، تلتقي في هيئة رسمية ، أو مجلس رسمي ، لتبحث وتتداول - كما يتوقع - في الخير . عجباً لها ! إنها تلتقي ، ويقوم الرجال يخطبون ، ويشيرون ، وتخرج القيم من الأفواه ، تردد صداها القاعات ويحملها المكبر الصوتيّ ، وتطير بها الإذاعات والتلفاز والأقمار الصناعية ، ثم يتوقف الاجتماع للراحة ، أو ليستأنف بعد يوم أو أيام . وخلال هذه الراحة تدور الكواليس وتدور الشياطين ، وتختفي القيم والمبادىء ، وتحاك المؤامرات .

«وراء الكواليس» نمط من أنماط النجوى ، وشكل من أشكال المداولة . ولكنها أنماط وأشكال ليست إيمانية ، وهو صورة واحدة من صور المداولة المتعددة التي عرفها عصرنا الحالي ، عرفها ومن حولها جميع زخارف القرن العشرين ، ومباهج حضارته . ولكن الزخارف والمباهج لم تستطع أن تخفي ظلام المداولة التي تدور وجريمة النجوى التي تستتر .

الفصل الثالث
الشورى في الأحاديث النبوية

وتمضي الأحاديث الشريفة لتضيف إلى الشورى في ميدان التطبيق في الواقع البشري . ونحاول الآن أن نستعرض بعض الأحاديث في هذا الشأن .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ .

«**ماخاب من استخار ولاندم من استشار ولا عال من اقتصد**» .

رواه الطبراني في الأوسط والصغير عن طريق عبدالسلام بن عبدالقدوس . وعلى ضعف الحديث ، فإننا نعرضه هنا لمطابقته لما سبق أن عرضناه من الشورى في القرآن الكريم ، ولأن معنى الحديث لايندرج تحت الأحكام أو العقائد ، ولأن العمل به أقرب إلى السلامة والنجاة وأقرب إلى التقوى ، وخاصة في ظروف المسلمين الحالية ، حيث يحتاجون إلى تغذية روح الشورى ، وروح التعاون ، على أساس من المنهاج الرباني . وسنرى كيف يساعد هذا الحديث على ذلك كله .

فالحديث يربط بين الشورى والاستخارة بصورة تجعل الشورى خلقاً ونهجاً ، ليس للجماعة المؤمنة فحسب ، وإنما للفرد المؤمن كذلك ، بما ينسجم والآيات التي سبق عرضها في سورة الشورى . وحين تأتي الاستخارة لتربّي النفس المؤمنة على حسن الاستسلام لله ربِّ العالمين ، وحسن اللجوء إليه والتوكل عليه ، تأتي الشورى في هذا الحديث لتربّي النفس المؤمنة على حسن التعاون وصدق التناصح ، كما يربيها على عدم الغرور والاعتزاز بالرأي . فلا يرى المؤمن نفسه على حق دائماً في كل رأي يجتهده ، إلاّ إذا كان على نص من قرآن أو سنّة لاخلاف فيه أو في فهمه .

وحين بدأ الحديث بالتوجيه إلى الاستخارة ، حيث يتخلّى المؤمن عن رغباته وأهوائه في كل الأمور ، صغيرها وكبيرها ، ليستسلم لله رب العالمين ، ويختم دعاءه إلى الله بقوله : «**واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به**» بهذا التخلّي عن

الرغبات والأهواء ، وبهذا الاستسلام المطلق لله ، بهذا كله تتهيأ النفوس المؤمنة عملياً لأجواء الشورى المؤمنة ، والتناصح الصادق فجاء الحديث يحث على الشورى بعد ذلك **«ولاندم من استشار»** .

وعن ابن عباس رضي عنه قال : قال رسول الله : **«من أراد أمراً فشاور فيه امرأ مسلماً وفقه الله لأرشد أموره»** .

رواه الطبراني في الأوسط وفيه عمرو بن الحصين العقيلي وهو متروك . ولكننا نعرض هذا الحديث مع الضعف للأسباب التي سبق أن ذكرناها مع الحديث السابق .

وللشورى رجال ، ولها أهلها:

روى الدارمي عن أبي سلمة أن النبي ﷺ سئل عن الأمر ليس في كتاب ولاسنة فقال : **«ينظر فيه العابدون من المؤمنين»** وهو مرسل .

وإذا أردنا أن نضع صفات هؤلاء العابدين فلن نجد أفضل مما وصفهم به القرآن الكريم في سورة الشورى .

وإذا كانت هذه بعض صفات أهل الشورى ففي الحديث التالي صفة أخرى :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : «المستشار مؤتمن» .

(رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه)[1]

فالمستشار مؤتمن ، مؤتمن على مايسمع ، ومؤتمن على مايقول ، ومؤتمن على

---

(١) سنن أبي دواد . كتاب الأدب (٣٥) . باب في المشورة (١٢٣) . حديث رقم (٥١٢٨) . والجامع الصحيح وهو سنن الترمذي . كتاب الأدب (٤٤) باب إن المستشار مؤتمن (٥٧) . حديث رقم (٢٨٢٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال الترمذي حديث حسن ، وحديث رقم (١٨٢٣) عن أم سلمة وقال الترمذي عنه غريب من حديث أم سلمة . وسنن ابن ماجه . أبواب الآداب (٢٨) باب المستشار مؤتمن (٣٧) حديث رقم (٣٧٩٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه . وحديث رقم ٣٧٩١ عن أبي مسعود .

مايفعل . فالشورى أمانة . فهي ليست إذن كلمات تقال ، ومجاملات تدور إنها أمانة ومسئولية .

وتعظم أمانة الشورى ومسئوليتها في نظر الإسلام حتى تكون أحد العوامل التي تحدد أيهما خير ظهر الأرض أم باطنها :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم ، وأموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها** » . (رواه الترمذي)[1]

وهكذا يأتي المنهاج الرباني ليضع الشورى في هذه الأحاديث الشريفة في موضع عظيم . وليوجه القلوب المؤمنة لتتحرك وتنهض إلى أمانة وإلى مسئولية . ونرى بذلك دقة التناسق بين التوجيه القرآني وتوجيه السنّة الشريفة إنه دائماً توجيه واحد . إنه توجيه المنهاج الرباني .

وهذا المنهاج الرباني هو لكل جيل ، ولكل عصر . وهو كذلك لكل حادثة ولكل أمر صغيره وكبيره . فإليه وحده ترد الأمور . وهذه هي الأمانة ، أو صورة من صور الأمانة ، التي عرضت على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان .

وهذه الحقيقة العظيمة - رد جميع الأمور إلى منهاج الله قرآناً وسنة - هذه الحقيقة قررها القرآن الكريم وقررتها السنّة وربطها المنهاج الربّاني ربطاً موثقاً بحقيقة الإيمان . يقول الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي

(١) الترمذي : الفتن (٣٤) . باب (٧٨) . حديث رقم (٢٢٦٦) . وقال : غريب لانعرفه إلا من حديث صالح المرّي . وصالح المرّي في حديثه غرائب ينفرد بها لايتابع عليها وهو رجل صالح .

شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٥٩﴾ [النساء: ٥٩]

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به». (حديث حسن صحيح)(١)

ولقد سبق الحديثان عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال:

«من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد».

وفي رواية: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

(رواه البخاري ومسلم)

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«تركت فيكم أمرين لن تضلوا ماتمسكتم بهما: كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ». (رواه مالك)(٢)

والمنهاج الربّاني مفصل، بيّن، كامل، حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قال الله سبحانه وتعالى:

﴿.... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ...﴾ [المائدة: ٣]

وقال سبحانه وتعالى:

﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩]

---

(١) الأربعين النووية: حديث (٤١). وقال حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح وقال المحقق في كتاب المختار من شرح الأربعين النووية: أخرجه أبو نعيم في كتاب الأربعين، والأئمة في مسانيدهم والطبراني.

(٢) مالك: كتاب الجامع حديث (١٦١٩).

وتطبيق منهاج الله في الواقع البشري ميسر لمن يسر الله له ذلك . فإن بدا خلل أو اضطراب ، أو عجز أو تقصير ، فإنما هو في جهد الإنسان نفسه ، وفي عطائه وبذله ، وفي إيمانه وعلمه ، وفي عزيمته ونيته ، وليس في منهاج الله أبداً (١).

وكانت رحمة الله بعباده المؤمنين أن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ، وأنزل عليه منهاجه الربّاني ، يتلو عليهم آياته ويبلغها ، ويبينها لهم في شتى أساليب التبيين : تلاوة وتبليغاً ، وشرحاً وتعليماً ، وتطبيقاً عملياً في واقع بشريّ ، وذلك كله في رعاية الله وحفظه :

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]

ولذلك جاءت سيرة رسول الله ﷺ صورة بينة لهذا التبيين كله في جميع ميادين العمل والتطبيق ، والشورى من بينها .

فلننظر في سيرة رسول الله ﷺ لنتعلم ونتأدب، ولنرى الشورى ليست نصوصاً فحسب ، ولكنها ممارسة مباركة في مدرسة النبوة ، تقدم المثل والنموذج.

ونشعر أنه من الضروري أن نبين ارتباط السنّة بالقرآن ، حتى تكون الصورة أوضح ، والتصور أدق .

وقد عرضنا في هذا الباب بعضاً من الأحاديث التي وردت حول الشورى أو مشتقاتها . ولكن هذه الأحاديث النبوية الشريفة ليست وحدها في هذا الباب . فهناك أحاديث أخرى عديدة تتعلق بالشورى بصورة أو بأخرى ، ولكن كلمة الشورى لم ترد بها ، ولم ترد بها أي من مشتقاتها .

فالنية والإخلاص ، والكلمة والرأي ، والنصيحة والتعاون ، هذه كلها ترتبط بالشورى من ناحية أو من أخرى . ولكننا رأينا أن نفرد لكل منها بحثاً خاصاً

---

(١) انظر كتابنا «دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية» .

تجتمع فيه الآيات والأحاديث حتى تقترب الصورة من الوضوح ، وحتى يظهر لنا كذلك قوة التكامل والترابط في منهاج الله .

وعندما ننظر في سيرة الرسول ﷺ ، لنتلمس ملامح الشورى ، نجد كذلك من خلال الممارسة والتطبيق ، قوة التماسك وشدة التناسق ، بين الآيات والأحاديث من ناحية ، وبين هذه المواضيع من ناحية أخرى .

ولذلك فإننا نورد قبسات أخرى من أحاديث رسول الله ﷺ حتى تزداد الصورة وضوحاً وعمقاً ، وحتى نرى تماسك القواعد الربّانية في الشورى وتناسقها .

وعن أبي مسعود الأنصاري قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله إني أُبْدِعَ بي (أي انقطع بي) فاحملني قال : لا أجد ما أحملك عليه . ولكن ائت فلاناً فلعله أن يحملك . فأتاه فحمله ، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره فقال رسول الله ﷺ : «**من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله**» . (رواه مسلم وأبو داود وأحمد)[(١)]

والدلالة على الخير هي من أهم معاني الشورى . فتصبح الشورى في هذا الحديث الشريف تعمل في الخير وتهدف إلى الخير ، وتتناسق المعاني مع ماعرضناه في الأسطر السابقة . ويؤكد هذا المعنى حديث رسول الله ﷺ عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «**إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه**» . (رواه ابن ماجه)[(٢)]

وعند أحمد :

عن حكيم بن زيد عن أبيه عمّن سمع النبي ﷺ يقول : «**دعوا الناس فليصب**

---

(١) أبو داود : كتاب الأدب (٣٥) . باب (١٢٤) حديث رقم (٥١٢٩) مسلم : كتاب الامارة (٣٣) باب (٣٨) حديث رقم (١٨٩٣) الفتح الرباني : ج١٩ ص ٧١ . أبواب تعظيم حرمات المسلمين (١٣١) .

(٢) ابن ماجه : أبواب الأدب (٢٨) . باب (٣٧) حديث رقم (٣٧٩٢) .

بعضهم من بعض ، فإذا استنصح رجل أخاه فلينصح له » .		(رواه أحمد)(١)

ولابد من أن تستكمل النصيحة شروطها الإيمانية كما سيرد معنا في فصل «النصيحة » .

وفي صحيح البخاري نجد قواعد للشورى تمضي في حياة المسلمين . ففي كتاب الاعتصام (٩٦) ، باب «قول الله تعالى » : **«وأمرهم شورى بينهم ، وشاورهم في الأمر . وأنّ المشاورة قبل العزم والتبيّن لقوله تعالى فإذا عزمت فتوكل على الله ، فإذا عزم رسول الله ﷺ لم يكن لبشر التقدم على الله ورسوله »** ، باب (٢٨) .

ويقول البخاري في هذا الباب أيضا : «.. وكان القرّاء أصحاب مشورة عمر كهولاً كانوا أو شبّاناً ، وكان وقافا عند كتاب الله ... ». ويقول كذلك : « ... وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها ، فإذا وضح الكتاب والسنّة لم يتعدوه إلى غيره اقتداء بالنبيّ ﷺ ».

وفي البخاري كذلك في كتاب الحدود (٨٦) ، باب (٣١) حديث طويل عن سقيفة بني ساعدة وغيرها . ويرد قول عمر في هذا الحديث :

« ..... من بايع رجلاً من غير مشورة المسلمين فلا يبايعُ له ولا الذي بايعه تغرّة أن يقتلا» .

قاعدة عظيمة في نظام الشورى في الإسلام يجمع فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، خلاصة ماتعلمه في مدرسة النبوة .

وترتفع منزلة الشورى في التصور الإيماني حتى يستشير الله سبحانه وتعالى نبيّه وعبده محمد ﷺ في أمته :

«إن ربي تبارك وتعالى استشارني في أمتي » .		(رواه أحمد) (٢)

---

(١) الفتح الرباني : ج١٩ . ص٦٥ . أبواب تعظيم حرمات المسلمين حديث رقم (١٠٣) .
(٢) مسند أحمد بن حنبل : ج٥ ص ٣٩٣ .

وتدور الشورى كذلك بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ . ففي صحيح البخاري : كتاب التوحيد (٩٧) ، باب (٣٧) ، يرد حديث المعراج وفرض الصلاة ، وفيه : «.... **يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ولايكره جبريل ذلك ...**» .

إلى هذا المستوى المشرق ترتفع الشورى ، إيماناً وتصديقاً وممارسة وتمتد الشورى في جميع ميادين حياة المسلمين وهي تحمل معها هذا الإشراق المبارك ، حتى إن فاطمة بنت قيس تستشير الرسول ﷺ فيمن تنكحه ممن تقدم لها ، بعد أن طلقها زوجها عمرو بن حفص . فأشار عليها أن تنكح أسامة بن زيد . قالت «فكرهتُه ، ثم قال انكحي أسامة بن زيد فنكحته فجعل الله عزّ وجل في ذلك خيرا واغتبطت به » (رواه النسائي) [١]

وتوضح لنا سيرة رسول الله ﷺ، وكذلك حياة الصحابة امتداد الشورى الواسع في حياة المسلمين وهي تحمل إشراقة التكريم وبركة الإيمان . وسيرد معنا في الفصول المقبلة مايفصّل هذا الامتداد ، بالإضافة لما بيّنته لنا الصفحات السابقة . فنرى هنا عظمة الامتداد من أمر نكاح إلى أمر الخلافة .

ولا بأس أن نوجز ملامح الشورى من خلال الأحاديث النبوية ، حتى تبرز أمامنا ملامح وقواعد ربّانيّة :

١ - تربط بعض الأحاديث - وكذلك الآيات - الشورى بالعبادة كالاستخارة وبالسلوك من طهر ووعي وعلم .

٢ - لممارسة الشورى ممارسة تؤتي ثمارها، لابد من أن يتخلى المؤمن عن أهوائه ورغباته ، وأن يصدق النيّة والتوجيه لرب العالمين ، كما يفعل ذلك في الاستخارة والعبادة كلها والعمل جميعه ، حتى تتهيأ النفوس للشورى .

٣ - الشورى أمانة تحمل عظمة الأمانة وامتدادها ، وترتبط كذلك بالنصيحة وشروطها .

---

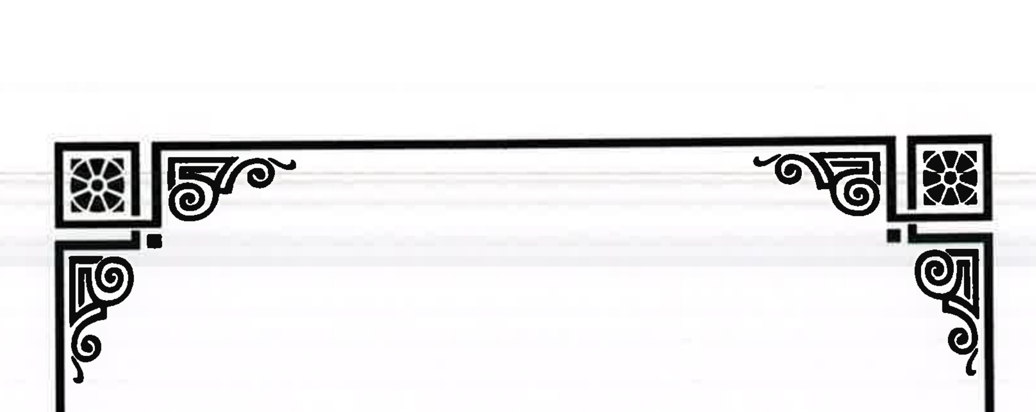
(٢) النسائي : كتاب النكاح (٢٦) باب إذا استشارت المرأة رجلاً فيمن يخطبها .. (٢٢) حديث رقم (٣٢٤٥) .

٤ - تمتد الشورى إلى جميع ميادين الحياة ، فهي تمضي في حياة الفرد في قضية كالنكاح ، وتمتد حتى تشمل الخلافة وقضاياها .

٥ - الشورى هي أحد العوامل التي تحدد أيها خير ظاهر الأرض أم باطنها .

٦ - تكشف لنا الأحاديث التي عرضناها طرفاً من خصائص أهل الشورى فهم العابدون من المؤمنين ، والأمناء من العلماء ، وهم القرّاء حفظة القرآن الكريم حفظ إيمان وعلم وممارسة ، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ.

فمن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تبرز لنا بعض القواعد الربّانية التي تقوم عليها الشورى ، وبدون هذه القواعد تضطرب الشورى ويتعذر قيامها على الصورة الإيمانية .



الباب الثاني

الشورى في السيرة النبويّة






مقدمـــة

عندما نعود إلى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي أوردناها في الباب الأول ، نجد أنّ لفظة «الأمر» أو «أمرهم » جاءت على عمومها دون تحديد لذلك الأمر : «**وشاورهم في الأمر** » ، «**وأمرهم شورى بينهم** » «**لأرشد أمرهم** » .

ولكننا رأينا أنها تمتد من الأمر في حياة الفرد ، إلى الأمر في حياة الأمة . وسنرى الشورى في التطبيق على اتساعها وعظم مداها . ولا نستطيع أن نكتفي بحادثة أو حادثتين مهما كانتا عظيمتين ، ولكننا نتقصى أحداثاً متعددة على قدر المستطاع ، لتشمل أوسع صورة وأكبر ميدان .

وسنرى كيف أن الرسول ﷺ استشار فرداً واحداً ، أو اثنين أو جماعة محدودة ، أو دعا جماعة المؤمنين عامة إلى المسجد ليأخذ رأيهم .

وسنرى أنه قد يطلب الشورى أحيانا ويسألها ، وأحياناً أخرى تعرض عليه المشورة دون طلب منه أو سؤال .

وسنرى أنه قد يأخذ برأي وقد يدع رأياً . ومع كل حادثة نجد صورة جديدة ، ودرساً جديداً في ميدان تطبيق منهاج الله .

وسنرى أدب الشورى في النية والمنطلق ، في الوسيلة والأسلوب ، وفي الغاية والهدف .

وسنرى الطاقات والمواهب ، وهي تعمل وتشير ، وهي تنمو وتزدهر في جو الجماعة المؤمنة ، وبرعاية النبوة والقيادة النموذجية ، ونرى كذلك ميادين الشورى وأبوابها .

فالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تمثل ، كما ذكرنا ، النظرية أو القانون في المنهاج الرباني . وفي الأبواب والفصول المقبلة سنرى ممارسة منهاج الله في الواقع البشري ، في هذا الميدان أو ذاك ، حتى تزيد الصورة وضوحاً .

الفصل الأول
الأمور العسكرية والسياسية

لقد كانت الشورى واضحة في هذا الميدان وبارزة ، حتى إن بعض المفسرين للآيتين الكريمتين اللتين عرضتا أمر الشورى ، حصروا الشورى فيه .

ولكن الحقيقة هي أن الشورى ، كما سنرى ، كانت ممتدة في معظم جوانب الحياة ، وأبواب الممارسة . ولكن كتب السيرة التي لدينا تبرز هذا الجانب إبرازاً خاصاً ، وقد يكون سبب ذلك أن حياة الرسول ﷺ كانت منذ وصوله للمدينة حياة جهاد ، بعد أن أذن الله للمسلمين بالقتال ، وكان الجهاد صورة بارزة حقّاً . وكان الإعداد واضحاً ، والتخطيط بيناً ، وتوالت آيات الجهاد والقتال تحض المؤمنين عليه .

ولكن هذا الجهاد كان جهاداً في سبيل الله ، لنصرة دينه وإعلاء كلمته . فكانت التربية والبناء ، والسياسة والاجتماع ، والمال والاقتصاد ، والعبادات وسائر الطاعات .كانت هذه كلها مندمجة متلاحمة ، من خلال العقيدة والإيمان.

ولنعرض الآن نماذج من الشورى في الأمور العسكرية ، حتى نرى هذا الاندماج والتلاحم وحتى نرى الإعداد والتربية ، والمال والطاعات ، تعمل كلها على نسق واحد في منهاج رباني .

١ - غزوة بدر الكبرى :

فهي أول المواقف . وقد ابتدأت أول الأمر دون شورى . «ذلك أنّ رسول الله ﷺ سمع أن أبا سفيان بن حرب قد أقبل من الشام في عير لقريش ، تحمل معها أموالاً وتجارة . وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون . فندب المسلمين إليهم وقال : **هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها** . فانتدب

الناس فَخَفَّ بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً »(١) .

إلى هنا لم يكن في الأمر شورى . «وخرج الرسول ﷺ في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه . واستعمل عمرو بن أم مكتوم على الصلاة بالناس . ثم رد أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة . ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير وكان أبيض . وكان أمام رسول الله ﷺ رايتان سوداوان : إحداهما مع علي بن أبي طالب يقال لها العقاب ، والأخرى مع بعض الأنصار .

فلما أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، استشار الناس وأخبرهم عن قريش . فقام أبو بكر فقال وأحسن . ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يارسول الله امض لما أراك الله فنحن معك . والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «**اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فو الذي بعثك بالحق ، لو سرت إلى برك الغماد – وهو موضع باليمن – لجلدنا معك من دونه حتى تبلغه . فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له . ثم قال : **أشيروا عليّ أيها الناس** . وإنما يريد الأنصار . وذلك أنهم عدد الناس ، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : إنا بُرَآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا . فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألاّ تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم . فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله قال : أجل قال : فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق . وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة . فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه ماتخلف

---

(١) ابن هشام ج١ ص ٦٠٦ – ٦٠٧ .

منا رجل واحد. ومانكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لَصُبُر في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك ماتقر به عينك فَسرْ بنا على بركة الله. فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشّطه ذلك ثم قال: «**سيَروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين. والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم**»[1].

وهذه صورة من صور الشورى في موقف خاص. لقد ابتدأت المسيرة في طلب عير قريش بدون شورى. حتى إذا أتى نبأ استنفار أبي جهل لقريش وبان أمر الحرب والقتال لم يدفع النبي قومه إليها دفعاً ولم يكرههم عليها إكراها.

وناحية أخرى. فلقد أصبحوا مقبلين على حرب وقتال، فيحسن معرفة العزيمة والقوة، واختبار الصبر والاستعداد، وهي أول حرب تخوضها الجماعة المؤمنة.

وهنالك بيعة وعهد. وكأنما الشورى جددت البيعة والعهد وأوضحت مداها وتصميمها.

وصورة الشورى هذه تعرض لنا الكثير. إنها تعرض المنطلق والأهداف، وإنها تعرض الوسيلة والأسلوب. ودارت الشورى ولم يناقش الصحابة رضوان الله عليهم، ولم يدر في خلدهم، أن الرسول ملزم بنتيجة الشورى. لقد كان هنالك عقيدة وإيمان، وبيعة ربطت الجماعة المؤمنة ربطاً وثيقاً، وبرز مقدار مايحرص الصحابة، مهاجرين وأنصاراً على دعوة الله ونصرة دينهم. فهو العنصر المحرك، وهو النية الموجهة، وهو القوة التي حددت المنطلق والأسلوب والنتيجة.

وما سلك الرسول ﷺ مسلك الآمر الناهي، ولا مسلك المتنفذ صاحب السلطان. وإنما سلك سبيل اللين والرحمة، والتوجيه والبناء، والتذكير والتوعية.

ولقد علم الناس حين قال: «**أشيروا عليّ أيها الناس ...**» علموا أنه يريد

(١) ابن هشام ج١ ص ٦١٢ - ٦١٥.

الحرب . فالأسلوب الذي عرضه الرسول ﷺ أسلوب فذ رائع يستنهض النفوس والعزائم الوفية . واستشار الرسول ﷺ في الأمر حين عرض شيء جديد خلاف ماخرجوا أصلاً إليه .

ونرى في هذه الصورة الوضوح والصدق ، والجد والعزيمة . إنه وضوحٌ بين القائد وجنوده ، وصدقٌ وجدٌّ بينهم ، على درجة عالية من الخلق والأدب ، خلق الإيمان وأدب الإسلام وجدِّ العقيدة .

ونرى الشورى تدور لامراءَ ولاجدال ، ولا قيل وقال . هذه هي الصورة المؤمنة للشورى المؤمنة . وهذه هي الدروس التي نحتاج أن نتعلمها ونربي أجيالنا عليها لتنهض إلى أماناتها ومسؤولياتها ، فهذا أولى من أن تتحول الشورى إلى مجرد حقوق والتزام ، في جو جاف ميت بعيد عن أنداء الإيمان وظلال الإسلام .

ونرى كذلك أن المقداد بن عمرو وسعد بن معاذ ، حين عرض كل منهما رأيه، كانا يدركان القضية المعروضة بكل أبعادها وحدودها . لقد كان كل منهما يدلي بمشورته ورأيه في قضية يفهمها ويدرك حدوده ومسؤوليته فيها . ولقد رد كل منهما تلك القضية إلى دينه وعقيدته رداً واضحاً ، وأدلى كل منهما برأيه على أساس من ذلك .

لقد استشار الرسول ﷺ قوماً ربَّاهم بنفسه في ظلال الإيمان ، وتعهدهم هو بنفسه في ميادين الخير ، ومدرسة النبوة .

وهذه اللفتة الإيمانية الذكية من سعد رضي الله عنه : «والله لكأنك تريدنا يارسول الله ... » لقد عرف سعد مقصد الرسول ﷺ من قوله : أشيروا عليَّ أيها الناس . وقد سبق أن استشار أبا بكر وعمر والمقداد .

فالنباهة والفطنة ، والإيمان واليقظة ، تضفي على أجواء الشورى سهولتها

ويسرها وإشراقها وبركتها ، وتمضي من خير إلى خير ، دون أن تموت في جدل بين الحقوق والواجبات ، الإلزام وغير الإلزام ، في صورة متفلّتة لاترد إلى نهج وأسس .

وفي هذه الصورة من الشورى في غزوة بدر الكبرى ، طلب الرسول لله ﷺ الرأي والمشورة . وفي الغزوة ذاتها نرى صورة أخرى ، نرى المؤمنين العاملين من أهل الخبرة والدراية يتقدمون بالمشورة والرأي ، دون أن يطلب ذلك منهم ، يتقدمون بها وهم يعرفون حدودهم ومسئولياتهم ، وينطلقون بمبادرة ذاتية ، يدفعهم إليها حرصهم على سلامة الدعوة ونصرة دين الله في موقف يحتاج إلى الطاقات والمواهب ، والخبرة والرأي .

فهذا الحباب بن المنذر يقول : أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو تتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال رسول الله ﷺ **«بل هو الرأي والحرب والمكيدة»** قال : يارسول الله فإن هذا ليس بمنزل . فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القليب ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولايشربون . فقال رسول الله : **لقد أشرت بالرأي**[1] .

فهذه صورة جديدة ولكنها تحمل السمات ذاتها من وضوح وصدق وعزيمة . إلا أنها تضيف أشياء أخرى ، فما الذي دفع الحباب أن يشير وينصح ؟ إن الذي دفعه هو ماتعلمه في مدرسة النبوة من فهم الأمانة والمسئولية ، وواجب النصح والعون وحدود التعاون والمشاركة ، والنهوض إلى ذلك كله بعزيمة وصدق .

وهذا الأسلوب الذي اتبعه الحباب رضي الله عنه أسلوب الأدب والوضوح والعزم .

(١) ابن هشام ج١ ص ٦٢٠ .

٢ – أسارى بدر :

أخرج الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه ، في قضية أسارى بدر ، قال : «استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر فقال : «**إن الله قد أمكنكم منهم** » .

فقام عمر ابن الخطاب فقال : «**يارسول الله اضرب أعناقهم** » . فأعرض عنه النبي ثم عاد فقال : « **يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس** » فقام عمر فقال : «**يارسول الله اضرب أعناقهم** » . فأعرض عنه . ثم عاد النبي ﷺ ، فقال للناس مثل ذلك . فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : «**يارسول الله نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء** » . قال : فذهب عن وجه الرسول ﷺ ماكان فيه من الغم فعفا عنهم وقبل منهم الفداء . وفي صحيح مسلم عن ابن عباس بنحو ذلك . وروى الترمذي والحاكم عن عبدالله بن مسعود بنحو ذلك من رأي أبي بكر وعمر . وفيه أن عبدالله بن رواحة قال : **يارسول الله أنت في واد كثير الحطب فاضرم الوادي عليهم ناراً ثم ألقهم فيه .** فسكت رسول الله ﷺ ، فلم يرد شيئاً . ثم قام فدخل . فقال ناس يأخذ بقول أبي بكر . وقال ناس يأخذ بقول عمر ، وقال ناس يأخذ بقول عبدالله بن رواحة .

ثم خرج عليه رسول الله ﷺ فقال : « **إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة . وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال : «فمن تبعني فإنه منّي ومن عصاني فإنك غفور رحيم » . وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال : «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » . وإن مثلك ياعمر كمثل نوح عليه السلام قال : «رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً». أنتم عالة فلا يُفَكَنَّ أحد منهم إلا بفداء ، أو ضربة عنق .** قال ابن مسعود قلت : يارسول الله إلا سهيل بن بيضاء فإنه يذكر الإسلام . فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليّ حجارة من السماء منّي في ذلك

اليوم ، حتى قال رسول الله ﷺ «إلا سهيل بن بيضاء» .ثم أنزل الله عز وجل : «**ماكان لنبي أن يكون له أسرى ..**» مطابقاً لرأي عمر [(١)] .

وتظل سمات الشورى في الإسلام قائمة في هذه الصورة أيضاً . وتظل تحمل روعة التطبيق لمنهاج الله . وقد عرض الرسول ﷺ هنا القضية للشورى ، ثم أشار بأسلوبه الكريم إلى ظلال رأيه ومعالمه مع حجة وتبرير : «**ياأيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم . وإنما هم إخوانكم بالأمس**» ومع ذلك فقد ظل عمر رضي الله عنه على رأيه بوضوح وثبات . وأخذ الرسول ﷺ برأي أبي بكر ، ونزل القرآن الكريم بعد ذلك على غير ماأخذ به .

ومضت الحادثة ، وتعلم المسلمون في مدرسة النبوة ، والقرآن يتنزل دروساً جديدة ، ومضت الحادثة على ماكان فيها من اختلاف في الرأي ، ومضى المؤمنون في جهادهم المستمر ، لايعطله خلاف وشقاق وتدابر . لقد كانوا يتعلمون في كل حادثه ، ويمضون في طريق الدعوة بهمة أشد ، وعزيمة أمضى . ذلك أنهم تعلموا حرية الرأي وصدق المشورة وسلامة النية والإخلاص ، وجمال الوضوح وأدب الحجة . وإذا كان اختلاف في الرأي ، فلن يكون شقاقاً وفرقة . فآيات الله تتنزل ومنهاج الله يمضي ، ليجمعهم صفاً واحداً ، وأمة واحدة :

﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾**﴾ [آل عمران: ١٠٥]

فيتعلمون الرأي والمشورة والسمع والطاعة ، وسائر أحكام منهاج الله ، في توافق وتوازن ، لايطبقون آية أو جزءاً من آية، أو حديثاً أو جزءاً من حديث ، ولكن يطبقون نهجاً يتكامل فيسري في قلوبهم وطبائعهم إيماناً وعملا .

---

(١) حياة الصحابة : ج٢ ص ١٤٧ -١٥١ - سبل الهدى والرشاد ج٤ ص ٩١-٩٤ .

٣ - غزوة أحد :

لقد سبق عرضها في الباب الأول، ورأينا الشورى تدور بين النبي ﷺ وتلامذته ، بين القائد وجنوده ، ورأينا الصور الإيمانية في الواقع والممارسة الكريمة في أجواء الصدق . ولكننا نحب أن نقف هنا وقفة عند قول الصحابة رضي الله عنهم : «يارسول الله استكرهناك ولم يكن لنا ذلك ... » . إنهم كانوا يعلمون دينهم أكثر مما نعلمه نحن اليوم ، فهم يقرون أنه لم يكن لهم ذلك . فكيف يجوز لنا اليوم أن نقول إن رأيهم كان ملزماً للرسول ﷺ لأنهم الأغلبية . والرسول ﷺ لم ينكر عليهم قولهم ولا قال إني ملزم برأيكم ولكنه قال : **«ماينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها ... »**

لم تكن قضية الإلزام بنتيجة الشورى أو عدمها قضية مطروحة ، لا على الألسنة ولا في الأذهان . ولكن المنهاج الرباني كما تعلموه ، والإيمان كما تربوا عليه ، كان هو المحرك والموجه لكل حركة وكل كلمة . لقد كانت آفاق الإيمان بكل أبعادها تظلل هذا الموقف وتنديه من أنداء اليقين والعلم ، والخبرة والكفاءة، والخلق والقوة .. لقد كان هناك نهج كامل متناسق يطبق ، ولم تكن قاعدة واحدة يضعها التصور البشري .

من أكثر الأمثلة التي يستشهد بها الذين يكتبون في الشورى ، هي معركة أحد . والذي يستشهد به بعض الكتاب ، ممن يعتقدون بأن الشورى ملزمة بنتيجتها ، هو أنّ الرسول ﷺ ترك رأيه وأخذ برأي «الأكثرية » الذين قالوا بالخروج إلى العدوّ وملاقاته . إنهم يوردون هذا الاستشهاد بصورة توحي للقارىء أن الشورى دارت حول الخروج للقاء العدو أو عدمه ، ثم حُصر أصحاب كلّ رأي ، وبان عددهم بصورة يقينيّة قاطعة ، فتبين بعد ذلك ، أنّ أصحاب الرأي القائل بالخروج كانوا أكثر . يوردون الاستشهاد دون أن يوردوا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٦٢ .

نصاً واحداً ، دون أن يعرضوا للقارىء المطمئنّ المستسلم ، عدد الحضور ، أو عدد أصحاب كلّ رأي ، أو أسلوب الشورى التي دارت ، فيطمئن القارىء إلى أنّ النصوص التاريخية التي اعتمدها الكاتب هي نصوص وافية ، قاطعة ، شملت كلّ المعلومات الدقيقة التي تسمح للكاتب المسلم بالخروج بنتيجة واحدة لامجال للخلاف فيها ، ولامجال للتأويل .

ولقد اخترنا خمسة نصوص لدراستها ، للبحث عن النصّ الذي يسمح لنا أو لغيرنا بالحكم القاطع الدقيق من أنّ الأغلبية كانت هنا أو هناك . إننا نحتاج إلى الأُسلوب العلميّ الذي يبرز الحقيقة ، ويقطع الجدل ، الأسلوب الإيماني الذي يعتمد على الحقّ واليقين ، ولايأخذ بالظنّ والتخمين .

والنصوص التي اخترناها هي من المراجع التالية :

إمتاع الأسماع للمقريزي ، الجزء الأول .

البداية والنهاية لابن كثير - الجزء الثالث .

سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للصالحي الشامي - الجزء الرابع .

السيرة النبوية لابن هشام .

زاد المعاد في سيرة خير العباد لابن قيم الجوزية - الجزء الثالث .

ففي إمتاع الأسماع[1] :

وقال : أشيروا علي . ورأى رسول الله ﷺ ألاّ يخرج من المدينة فوافقه عبدالله بن أبي والأكابر من الصحابة مهاجرهم وأنصارهم وقال عليه السلام : **«امكثوا في المدينة واجعلوا النساء والذراري في الآطام ، فإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأزقة فنحن أعلم بها منهم ، ورمُوا من فوق الصياصي والآطام»** ،

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي : ج١ ص١١٦-١١٨

وكانوا قد شبّكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية فهي كالحصن . فقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدرا وطلبوا الشهادة وأحبوا لقاء العدو : اخرج بنا إلى عدونا . وقال حمزة وسعد بن عبادة والنعمان بن ثعلبة في طائفة من الأنصار : إنا نخشى يارسول الله أن يظن عدوّنا أنا كرهنا الخروج إليهم جبناً عن لقائهم ، فيكون هذا جرأة منهم علينا . وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة رجل فظفّرك الله عليهم ونحن اليوم بشر كثير . وقد كنّا نتمنّى هذا اليوم وندعو الله به ، فساقه إلينا في ساحتنا . ورسول الله ﷺ لما يرى من إلحاحهم كاره ، وقد لبسوا السلاح . وقال حمزة : والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة ، وكان يوم الجمعة صائماً ويوم السبت صائماً ، وتكلم مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدريّ ، والنعمان بن مالك بن ثعلبة ، وإياس بن أوس بن عتيك ، في معنى الخروج للقتال . فلما أبوا إلا ذلك ، صلّى رسول الله ﷺ الجمعة بالناس ، وقد وعظهم وأمرهم بالجد والجهاد ، وأخبرهم أن لهم النصر ماصبروا ، ففرح الناس بالشخوص إلى عدوهم ، وكره المخرج كثير . ثم صلى العصر بالناس وقد حشدوا ، وحضر أهل العوالي ، ورفعوا الناس في الآطام . ودخل ﷺ بيته ، ومعه أبو بكر وعمر رضي ا لله عنهما، فعمّماه ولبّساه ، وقد صفّ الناس له مابين حجرته إلى منبره . فجاء سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا للناس : قلتم لرسول الله ﷺ ماقلتم واستكرهتموه على الخروج والأمر ينزل من السماء فردوا الأمر إليه فما أمركم فافعلوه وما رأيتم له هوى أو رأي فأطيعوه . فبينا هم على ذلك ، إذ خرج رسول الله ﷺ وقد لبس لأمته ، ولبس الدرع ، فأظهرها ، وحزم وسطها بمنطقة من حمائل سيف ، واعتمّ ، وتقلد السيف . فقال الذين يلحّون : يارسول الله ، ماكان لنا أن نخالفك ، فاصنع مابدا لك . فقال: «**قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، ولاينبغي لنبّي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . انظروا ماأمرتكم به فاتبعوه . امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم** » .

لانجد في هذا النصّ مايجزم بأنّ أصحاب هذا الرأي أو ذاك كانوا أقليّة أو أكثرية . فإنّ المؤرخ نفسه لم يكن يفكر في هذا الأمر ، والقضيّة التي يطرحها بعضهم اليوم لم تكن مطروحة لديه . وكذلك لم تكن مطروحة لدى صحابة رسول الله ﷺ . فجاءت الألفاظ في الرواية على عفوها ، لاتحدد أكثريّة أو أقلية تحديداً قاطعاً . فقد كان من أصحاب الرأي القائل بعدم الخروج : النبيّ ﷺ، أكابر المهاجرين أكابر الأنصار ، عبدالله بن أبي بن سلول . إن هذا النص يكاد يوحي بأن الأكثرية كانت مع هذا الرأي . ومما يقوّي هذا الظنّ النصّ الآخر في آخر الرواية السابقة : «وكره المخرج كثير» وكذلك فإن سعد بن معاذ وأسيد بن حضير كانا مع هذا الفريق . فالظنّ الغالب هنا أنهم هم الأكثرية . ولكنه ظنّ وليس بيقين قاطع . وكذلك فإن الذين رأوا الخروج هم فتيان أحداث لم يشهدوا بدرا وطلبوا الشهادة وأحبوا لقاء العدو . إذن هم فتيان أحداث لم يشهدوا بدراً ، فليس إذن جميع من لم يشهد بدراً طلب لقاء العدو . إنما فتيان أحداث فقط . والنص لايعني أن جميع الفتيان الأحداث طلبوا ذلك ، لأن التعبير جاء على صيغة النكرة مما يدلّ لغة على أنهم بعض الفتيان الأحداث وليس كلهم . ولو أراد التعبير عن جميع الفتيان لقال : فقال الفتيان الأحداث ، أي بالتعريف . ثم يعدد المؤرخ الذين تكلموا في الخروج تعداداً : حمزة ، مالك بن سنان ، والنعمان ابن مالك بن ثعلبة ، وإياس بن أوس بن عتيك . إن هذا النص لايسمح لمنصف أن يجزم بأن بعض الفتيان الأحداث ، وهؤلاء الأربعة رضي الله عنهم ، كانوا يمثلون الأكثرية . فإن قال أحد بذلك فهو ظنّ وتخمين لايحمل معه حجّة ، ولايقوم على بيّنة قاطعة . وعلى العكس فإنّ الظن الأغلب هو أنّ الأكثرية كانت مع الرأي الآخر ولكنه ظنّ كذلك .

ونشعر ونحن نناقش هذا الموضوع ، أننا نكاد نفوّت على أنفسنا خيراً كثيراً . ففي الرواية السابقة دروس عظيمة في الإيمان وفي الشورى ، هي أجدر أن نتعلمها من موضوع الأكثرية والأقلية ، وأول مايبرز أمام المؤمن ، وهو يقرأ

الرواية السابقة ، ويرى ماناقشه نحن اليوم ، هو ذلك البون الشاسع ، والفرق الواسع ، والفجوة الكبيرة الهائلة ، بين ماكان عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، وبين مانحن عليه اليوم . فأولئك ، رضي الله عنهم ، كانوا يتنافسون الدار الآخرة ، ويركضون ركضاً إلى الشهادة ، ويتزاحمون على أبواب الجنّة . كان هذا الأمر هو شغلهم الشاغل ، وهو محور إيمانهم ، وفكرهم ، وحديثهم . اسمع كيف تجري الرواية : «لم يشهدوا بدراً وطلبوا الشهادة وأحبوا لقاء العدو ....» وتدبر : «...ورسول الله ﷺ لما يرى من إلحاحهم كاره ، وقد لبسوا السلاح . وقال حمزة : والذي أنزل عليك الكتاب لاأطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة ، وكان يوم الجمعة صائماً ويوم السبت صائماً ... » **«وفي ذلك فليتنافس المتنافسون »** ...! هذه صورة الصحابة رضي الله عنهم ، وهكذا تدور الشورى بينهم ، لامجال «لأكثرية» تتحجر على ذاتها ، أو «أقلية» تنعزل عن الأمة هذه هي صورة الصحابة ، أمة واحدة ، وصف واحد . لم يكن يخطر على بال أحدهم أبداً أنهم هم الأكثرية أو أنهم أصحاب الرأي الحق لأكثريتهم . ذلك لأن رسول الله ﷺ، لم يعلمهم مبدأ الأكثرية أو الأقلية ، ليكون موضع التفاضل والتنافس والقرار . لقد علمهم طلب الشهادة والسعي إلى الجنة .

هذه صورة ! ونحن اليوم لانكتفي بأننا لانعمل عملهم ، ولانفكر مثلهم ، ولا نطرق أبواب الجنّة مثلهم . لانكتفي بذلك ، ولكننا نشوه الصور الرائعة في موقف الشورى في معركة أحد ، نطمس دروس الإيمان الفذّة ، نضعف النبضة القويّة مع كل كلمة من كلمات الشورى في هذا الموقف ، ونوهن الحقيقة الحيّة مع كل حركة في موقف الشورى هذا .هنا دروس رائعة نحن أحوج مانكون إليها اليوم ، نغطيها كلها بوهننا وضعفنا ، تحت ستار جدل لايقدم موقفاً إيمانياً ، ولايدفع عنا مصيبة قادمة .

نحن اليوم ، من أرائك الراحة والاسترخاء ، وندوات الجدال واللجاج ، نطرح قضايا نقتل بها الوقت ، والطاقة ، والموهبة ! .

هنا ترى أسس الشورى التي نحن اليوم بحاجة إليها :

الرأي الذي يحمل حجة الإيمان وبيّنة القرآن : قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعوالله به فساقه إلينا في ساحتنا ... الصدق والوضوح ... لا أطعم طعاماً اليوم حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة .

النيّة الخالصة والعزيمة : «.. ورسول الله لما يرى من إلحاحهم كاره .. » إنه الإلحاح في أدب وصدق ووضوح .

قواعد السمع والطاعة : قلتم لرسول الله ﷺ ماقلتم واستكرهتموه على الخروج والأمر ينزل عليه من السماء ، فردوا الأمر إليه ، فما أمركم فافعلوه وما رأيتم فيه له هوى أو رأي فأطيعوه .

الحزم وعدم التردد : **لاينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه .**

القرار والعزيمة : **انظروا ماأمرتكم به فاتبعوه . امضوا على اسم الله فلكم النصر ماصبرتم .**

كل قاعدة من هذه القواعد هي إيمان وقرآن ، وعقيدة ودين . لقد انتهت الشورى . واتخذ رسول الله ﷺ القرار هو ، لمصلحة غالبة رآها بعد أن سمع الآراء . ثم أمر وقطع باب النقاش والجدل : **انظروا ماأمرتكم به فاتبعوه ... !** .

إذن هو الذي اتخذ القرار ، وهو الذي أصدر الأمر ! .

إنها أمة تعمل . فقبل ذلك كانوا قد حصنوا المدينة وأعدوا أنفسهم . كل لحظة في حياتهم علم وإعداد ، وليس جدلاً ونقاشاً : «.. وكانوا قد شبّكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية فيه كالحصن ..» ولاقيمة للشورى في أمة مدنها مفتوحة للأعداء . ، وقلوبها مفتوحة للفتنة والأهواء ، وعزائمها مدفونة في طيات اللهو والاسترخاء .. لا تفيد الشورى في مثل هذه الأمة مهما كان رأي الأكثرية أو الأقلية !

وفي البداية والنهاية لابن كثير[1]:

«... **وأولت الدرع الحصينة المدينة ، فامكثوا** .... وكانوا قد سكّوا أزقة المدينة بالبنيان حتى صارت كالحصن . فقال الذين لم يشهدوا بدراً : كنا نتمنى هذا اليوم، وندعو الله فقد ساقه الله إلينا وقرّب المسير . وقال رجل من الأنصار : متى نقاتلهم يارسول الله إذا لم نقاتلهم عند شعبنا ؟ وقال رجال ماذا نمنع إذا لم تمنع الحرب بروع ؟ وقال رجال صدقوا به ومضوا عليه منهم حمزة بن عبدالمطلب قال : «والذي أنزل عليك الكتاب لنجالدنهم » وقال نعيم بن مالك بن ثعلبة ، وهو أحد بني سالم :

يانبيّ الله لاتحرمنا الجنة فوالذي نفسي بيده لأدخلنها . فقال رسول الله ﷺ : **بم** ؟ قال : بأني أحب ا لله ورسوله ، ولا أفر يوم الزحف . فقال رسول الله ﷺ : «**صدقت**» واستشهد يومئذ . وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو ، ولم يتناهوا إلى قول رسول الله ﷺ ، ولو رضوا بالذي أمرهم كان ذلك ، ولكن غلب القضاء والقدر . وعامة من أشار عليه بالخروج رجال لم يشهدوا بدراً ، قد علموا الذي سبق لأصحاب بدر من الفضيلة ، فلما صلى رسول الله ﷺ الجمعة وعظ الناس ... » . وتمضي الرواية قريبا من سابقتها . ويروي ابن كثير روايات أخرى عن البخاري ومسلم والبيهقي ومحمد بن إسحق وغيرهم ممن ذكرنا رواياتهم سابقا ونذكر بعضها فيما بعد . وهنا كذلك نجد أن المؤرخ لم يكن يتحرى المقارنة بين عدد هؤلاء وهؤلاء وإنما تأتي التعابير على عفوها لاتحمل البيّنة القاطعة ، ولا صورة المقارنة ، ولا الحجة الجازمة ، وهنا جاءت الرواية بخلاف الرواية السابقة : «وأبى كثير من الناس إلا الخروج » ، ويظل أي استنتاج ظنا ، وليس استنتاجا علمياً قاطعاً ، ففي الرواية السابقة : «وكره المخرج كثير » ، وهنا : «وأبى كثير من الناس إلا الخروج » .ولكن دروس الشورى والإيمان

---

(١) البداية والنهاية : ج ٤ ص١٢ .

واحدة في الروايتين. لأنها هي محور الموقف، ومدار الحديث، وأسلوب الشورى، ولأنها هي التي كان يحرص المؤرخ على إبرازها. والتعبير في كلا الحالتين هو لفظة «كثير» دون لفظة أكثر، لأن فكرة مقارنة عدد أصحاب كل رأي لم تكن واردة أصلاً.

وفي سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي رواية جامعة، نورد منها مايجب، ونحاول قدر الجهد تجنب التكرار: قال ابن عتبة وابن إسحاق وابن سعد وغيرهم: رأى رسول الله ﷺ هذه الرؤيا ليلة الجمعة، فلما أصبح جاء أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه. ثم ذكر الرؤيا لهم. وقال: «**إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة ونجعل النساء والذرية في الآطام. فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأزقة فنحن أعلم بها منهم، ورموا من فوق الصياصي والآطام**». وكانوا قد شبّكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية فهي كالحصن. وكان هذا الذي ذكره رسول الله ﷺ رأي الأكابر من المهاجرين والأنصار، وكان عبدالله بن أبيّ بن سلول يرى رأي رسول الله ﷺ. فقال جماعة من المسلمين غالبهم أحداث لم يشهدوا بدراً، وطلبوا الشهادة، وأحبوا لقاء العدو، وأكرمهم الله تعالى بالشهادة يوم أحد: «يارسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لايرون أنا جبناً عنهم». فقال عبدالله بن أبيّ: «يارسول الله أقم بالمدينة ولاتخرج. فوالله ماخرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه. فدعهم يارسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم الصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا». فقال حمزة بن عبدالمطلب وسعد بن عبادة والنعمان بن مالك في طائفة من الأنصار: «إنا نخشى يارسول الله أن يظنّ عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم جبناً... وقد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله تعالى به، فساقه إلينا في ساحتنا»، ورسول الله لما يرى من إلحاحهم كاره. وقد لبسوا السلاح. وقال إياس بن أوس بن عتيك: «نحن بنو عبد الأشهل. إنا لنرجو أن

نكون البقر المذبح » . وقال غيره : هي إحدى الحسنيين : «الظفر أو الشهادة »[1] وتمضي الرواية كسائر الروايات حول قول حمزة وهو صائم الجمعة والسبت ، وقول النعمان . ثم تمضي الرواية : ففرح الناس بالشخوص إلى عدوهم وكره ذلك المخرج بشر كثير . وتستمر القصة كسائر الروايات .

وهنا كذلك لايقوم إحصاء لعدد الحضور ، ولعدد أصحاب كل رأي . ولكنها ألفاظ عامة ، وتعابير جامعة ، لاتعطي الدقّة اللازمة لتحديد «الأكثريّة » أو «الأقلية» ، ولا تبين لنا طريقة حساب الأكثرية ، أو الأقلية وانظر إلى هذا التعبير: «ففرح الناس بالشخوص إلى عدوهم وكره ذلك المخرج بشر كثير » . إنه تعبير بعيد عن فكرة تحديد الأكثرية أو الأقلية . ولو كان الأمر سيدور حول الأكثرية أو الأقلية ، لكان ترتيب اللقاء ، وأسلوب الحديث ، وإدارة الجلسة تغيّرت عما رأينا . فاللقاء كان أشبه بالأمر الطبيعي الذي لم يسبقه إعداد خاص ودعوة خاصة : «فلما أصبح جاء أصحابه » . كم كان عددهم ..؟ وهل حضر جميع أصحابه ..؟ ثم هذا التعبير : «وكان هذا الذي ذكره رسول الله ﷺ رأي الأكابر من المهاجرين والأنصار ، وكان عبدالله بن أبي يرى رأي رسول الله ﷺ . ثم هذا التعبير : «**فقال جماعة من المسلمين** ..» إن التعابير كلها ، كما نرى لاتسمح بحكم قاطع ، من حيث «**الأكثرية**» أو «**الأقلية**» . وإن أمتنا اليوم ، في وهنها وهوانها تحتاج إلى دروس في الشورى ، نتعلمها من هذه المواقف ، أكثر من حاجتها إلى مبدأ «الأكثرية والأقلية» ، المبدأ الذي لانجد له أثراً في الروايات إلا الظنّ . إننا بحاجة إلى دروس الشورى التي فقدناها في واقعنا اليوم ، والتي بدونها لن تفيد أكثريّة ولا أقلية إننا بحاجة إلى دروس تبني قلوباً ، ونفوساً وعقيدة ، ونهجاً ، وأسلوباً ، لنبني أمة ، ونشق طريقاً ، ونطرق أبواب الجنّة .

أما عند ابن هشام فقد سبق أن أوردنا الرواية كلها [1] . وهنا نعيد جملاً ونماذج لنذكر :

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٤ ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

«فقال رجال من المسلمين ممن أكرمهم الله بالشهادة يوم أحد وغيره ، ممن كان فاته : يارسول الله ! اخرج بنا إلى أعدائنا ..» ، «.. فلم يزل الناس برسول الله ﷺ ، الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم ... » ، فلما خرج عليهم رسول الله ﷺ قالوا : استكرهناك ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد .. » ، فقال رسول الله ﷺ : «**ماينبغي لنبيّ لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل** ... » .

وهنا كذلك نجد الألفاظ على عمومها لاتحمل البيّنة القاطعة لهذا الرأي أو ذاك، ولكنّ الروايات جميعها تحمل الدروس الإيمانية التي نحتاجها في الشورى، في واقعنا اليوم ، والتي نحتاج أن نربّي الشباب المؤمنين عليها في مدرسة النبوّة ، كما تربّى أصحاب رسول الله ﷺ . إنّ الجدل حول هذا الرأي أو ذاك ، يجب أن لايدفعنا لنغفل هذه القواعد الإيمانية العظيمة في الشورى ، لتظلّ دروس الأجيال ! .

أما لماذا أخذ الرسول ﷺ بهذا الرأي ، وترك الرأي الآخر الذي كان يميل إليه لم يكن بسبب أكثريّة أو أقليّة . فلو كان هذا هو السبب حقاً ، ولو كانت القاعدة الإيمانية التي يحبّ رسول الله ﷺ أن يعلمها لتلامذته وصحابته ، وأجيال المؤمنين ، لو كان الأمر كذلك ، لأجاب الصحابة حين قالوا له : «استكرهناك ولم يكن لنا ذلك .. » ، لأجابهم : ماكان لي أن أترك رأيكم وأنتم الأكثرية ! ولكنه لم يقل هذا أبداً ، وإنما قال : «**ماكان لنبي لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل** ..» وكلام رسول الله ﷺ دروس للأجيال .

والذي نراه أنّ رسول الله ﷺ ، أخذ بهذا الرأي ، بعد أن سمع من الجميع ، بعد أن سمع مختلف الآراء ، فتمّت الشورى ، ثم درس جميع ظروف الدعوة في تلك اللحظة ، درس جميع الظروف مما قد نعرفه نحن اليوم ، ومما نجهله . نظر في إلحاح هذه الجماعة في طلبها للشهادة والجنّة ، نظر في كلمات حمزة ، نظر

(١) راجع الباب الأول الفصل الأول ص٥٦ .

في طاقة الدعوة وقدرتها ، وقلّب الأمور من جميع نواحيها ، في حدود مسئوليته كقائد أمة ودعوة ، وكنّبي مرسل . ثم اتخذ قراراً هو بنفسه ليلتزم به الجميع من أهل هذا الرأي أو ذاك ، ليكونوا صفاً واحداً ، سواء من أحب الخروج ومن كره الخروج . اتخذ قراره النهائي وأصدر أمره ، بعزم وحزم ، وكلمات قاطعة ، توقف الجدال والنقاش ، وتدفع إلى العمل والتنفيذ .

«**انظروا ماأمرتكم به فاتبعوه . امضوا على اسم الله فلكم النصر ماصبرتم** » .
كلمات قاطعة حازمة ، وأمر هو العزم والعزيمة . ووعد بالنصر ماصبروا . ومالنصر إلا من عندالله . إن الرسول ﷺ ليعد أصحابه بالنصر ، وما النصر إلا من عند الله . إنها لفتة عظيمة تحتاج إلى تدبر وتأمل ، ولانستطيع أن ندّعي أننا نعلم كلّ مافكر به رسول الله ﷺ ، مما لم يفصح عنه بياناً وكلاماً . الذي نجزم به أنه فكر وقلب الأمور ، فهذه مهمة القائد ، وأنه اتخذ قراره الذي رآه أقرب للحق والمصلحة ، وأنه أصدر أمره . وليس لأحد أن يدّعي أنّ الرسول ﷺ فكر بالأكثريّة أو الأقلية ، وهو لم يبيّن ذلك ، في حديثه وبيانه ﷺ .

إن اتخاذ القرار على هذه الصورة ليحمل دروساً عظيمة لجميع قيادات المؤمنين على مر الأجيال ، لأن الرسول ﷺ في موقف يجنح فيه بعض القادة إلى عدم اللين ، لان لهم برحمة من الله . وعفا عنهم في موقف قد لايعفو فيه بعض القادة ، ولقد شاور ، ثُمّ عزم ، وتوكل على الله . ثم جاء أمر الله سبحانه وتعالى : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

وعند ابن قيم الجوزية في زاد المعاد لاتخرج النصوص عما سبق . ونأخذ مقتطفات كذلك :

«... فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر وألحوا عليه في ذلك ...» .

«.. فنهض ودخل بيته ولبس لأمته وخرج عليهم . وقد انثنى عزم أولئك وقالوا أكرهنا رسول الله ﷺ على الخروج . فقالوا : «يارسول الله ، إن أحببت أن تمكث في المدينة فافعل ... » .

ولانجد هنا كذلك إلا مايؤكد ماذهبنا إليه من أنّ الروايات التاريخية ، لاتبين أن أصحاب هذا الرأي أو ذاك ، كانوا أكثرية أو أقلية ...! وكيف يبيّنون ذلك ، وهي قضية لم تكن في ذهن أحد منهم ، ولا في ذهن الصحابة ، ولا في أذهان الجماعة المؤمنة ولا في النصوص التي بين أيديهم ، ولا في الدروس التي تدربّوا عليها ؟ ومرّت الأجيال والقرون الطويلة ، ولم تكن هذه القضيّة موضع بحث لدى الفقهاء ، ولم تكن قضية واردة على ذهن المؤرخ المسلم ، ليصوغ النصوص صياغة تعتمد على هذا الرأي أو ذاك .

إنها قضية لم تنشأ ، كذلك ، من واقع إسلامي إيماني ، يمارس منهاج الله ممارسة حيّة ، بعيدة عن مؤثرات الغرب والشرق . لذلك نعتقد أنها فكرة طارئة ، دخلت العالم الإسلامي ، وهي تحمل جذورها وأصولها ، وشكلها وقالبها من خارج العالم الإسلامي . ونبادر بالقول إننا لانعني أنّ الأكثرية المؤمنة لاوزن لها في الإسلام . كلا ! إن الإسلام جعل للأكثرية دوراً غير الذي ندعيه اليوم ، مسؤولية غير مايذهب إليه بعضهم ، وأمانة غير ماتصوره الديمقراطية الغربية .

إنَّ دور « الأكثرية» في الإسلام لايمكن أن يكون على النحو الذي رأيناه في برلمانات العالم العربي ، التي مهدت للنظم الدكتاتورية ، ورسخت أسباب الفرقة ، وأقرت الفجور والضياع والتيه ، بين أصابع ممدودة ، ورؤوس غافية ، وقلوب غافلة . إن دور الأكثرية في الإسلام لايمكن أن يشابه دور الأكثرية في النظام الديمقراطي . ففي النظام الديمقراطي قد تضع الأكثرية أسس التشريع ، وقواعد

القانون ، ونظام الحكم ، بينما هو في الإسلام أمر من عند الله وهذا أول فارق :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٦]

والفارق الثاني هو أنّ الحق المطلق في الإسلام لايكون مقياسه عدد الناس المؤيدين أو المعارضين . إنّ ربط الحق بعدد ما ، بأكثريّة أو أقلِّيَّة، أمر مخالف لروح الإسلام. فقد يهتدي إلى الحقّ فردٌ ، أو قلة أو كثرة ، ثم يقَاس الأمر على ميزان واضح ، ليعرف بهذا الميزان ، أهو حق أو باطل . وعندما أمر الله عباده أن يردوا الأمر في حالة الاختلاف إلى ميزان ، فقد أمرهم أن يردوه إلى الله ولرسوله ، فقط ، وليس إلى أي شيء آخر . ذلك لأن هذا وحده في الإسلام ، هو ميزان الحق ، فإذا عجزنا عن رد الأمر إلى الله ورسوله ، أو عجزنا عن معرفة الحق من الباطل بهذا الرد ، فإنّ الضعف والعيب فينا نحن ، وليس في القانون والشريعة ، وليس في مانرد إليه الأمر ، وقد يكون سبب العجز عن معرفة الحق واتباعه هو غلبة الجهل ، أو الهوى ، أو كلاهما ، على أنفسنا ، وعقولنا ، فعندئذ لن يكون لنا أي مجال آخر ، إلا أن نحتكم لحلول وقتية ، يدفعها الهوى ، أو ظروف الواقع ، أو القوة القاهرة ... ! .

٤ - غزوة الخندق ، أو معركة الأحزاب :

أما قضية الصلح على ثلث ثمار المدينة في معركة الأحزاب ، فصورة أخرى أيضاً تتجدد فيها السمات والمعالم . لقد كُتب الصلح بين الرسول ﷺ وعيينة بن حصن على ثلث ثمار المدينة إلا أنه لم تقعَ الشهادة ولاعزيمة الصلح . فبعث الرسول ﷺ إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة . فذكر لهما ذلك واستشارهما . فقالا له : «أمراً تحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به . أم شئياً تصنعه لنا ؟ » .

قال : لا ، بل شيء أصنعه لكم . والله ماأصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب

قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما. فقال سعد بن معاذ: يارسول الله قد كنا، ونحن وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لانعبد الله ولانعرفه، وهم لايطمعون أن يأكلوا ثمرة إلا قرى أو بيعاً. أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا إليه وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا. والله مالنا بهذا من حاجة. والله لانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

قال رسول الله ﷺ: «**فأنت وذاك**» فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا مافيها من الكتاب ثم قال: «ليجهدوا علينا» [1].

صورة جديّة من صور الشورى. فهنا عرض القائد رأياً في قضية كان مضى فيها إلى حد دون الشهادة والعزيمة، عرض الرأي الذي يراه. وفي الحادثتين السابقتين، كان يسأل القائد عن الرأي دون أن يسبق فيعرض رأيه. وهنا يستوضح السعدان رضي الله عنهما بأسلوب واضح دقيق مفصل قبل أن يدليا برأيهما. ويوضح الرسول ﷺ رأيه ونيته واتجاهه بوضوح ودقة. ويرجع عن رأيه ويأخذ برأي أوضحه سعد بن معاذ. ولقد استشار الرسول هنا السعدين دون أن يستشير غيرهما، فلم يستشر المهاجرين. وفيهم أهل الرأي والمشورة، وفيهم وزيراه، المقربان، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وعن الصحابة أجمعين.

ونلمح هنا أن الرسول ﷺ كان يراعي الأنصار وهم أهل المدينة الذين بايعوه. وكأنما لايدفعهم إلى موقف شديد إلا ويأخذ رأيهم، رعاية لهم ولشعورهم وتقديراً لنصرتهم ووفائهم. ولقد تكررت هذه الظلال في أكثر من موقف كما رأينا. وكانت هذه الرعاية وهذا التقدير يظلان دائماً في حدود المنهاج الرباني وظلاله وآفاقه، وخاصة فيما يتعلق بالمدينة.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج٢ ص ٢٢٣.

وهذه قد تشير إلى ضرورة رعاية حقوق الجماعات والفئات في داخل كيان الأمة الواحدة، المتلاحمة المترابطة، بحبل الإيمان ورباط العقيدة، على أسس جليلة، دون زيغ أو شطط، وتشير كذلك إلى هدف من أهداف الشورى: وهو تطييب النفوس والقلوب. وتشير كذلك إلى معرفة الرجال ومنازلهم، واختيار أهل الشورى لهذا الأمر أو ذلك.

٥ - صلح الحديبية:

وصورة أخرى للشورى في صلح الحديبية:

روى البخاري رحمه الله في صحيحه عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا: «خرج رسول الله ﷺ من الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه. فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره، وأحرم منها بعمرة. وبعث عيناً من خزاعة، وسار إذ كان بغدير الأشطاط أتاه عينه فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادّوك ومانعوك فقال ﷺ: **أشيروا أيها الناس عليّ، أترون أن نميل على عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا قاتلناه؟**» فقال أبو بكر رضي الله عنه: يارسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لاتريد قتل أحد ولا حرباً فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. فقال النبي ﷺ: «**فامضوا على اسم الله تعالى**»[1]. حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «**إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة. فخذوا ذات اليمين**». فوالله ماشعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش. فانطلق يركض نذيراً لقريش. وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته. فقالت الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء. فقال النبي ﷺ: «**ماخلأت القصواء. وما ذاك لها بخلق،**

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي (٦٤). باب (٣٥). ج٥ ص ٦٧ تفسير القرآن العظيم لابن كثير. سورة الفتح ج٤ ص ١٩٤ - ٢٠٠.

ولكن حبسها حابس الفيل » . ثم قال ﷺ « **والذي نفس محمد بيده لايسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها »** ثم زجرها فوثبت ، فعدل عنهم ، حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء »[1] .

وفي هذه الصورة خرج رسول الله ﷺ بنية العمرة مع جماعة من المسلمين من أصحابه . فلما فاجأهم أمر جديد ، لم يكن جزءاً من النية التي انطلقوا بها ، ولا الخطة التي يرجونها ، ولا الهدف الذي يسعون إليه . عرض الأمر : «**أشيروا أيها الناس عليّ ...** » .

وقد عرض القضية على رأيين يحملان العزيمة والتصميم على المضي إلى ماخرجوا له ، وتذليل مايعترضهم من عقبات .

وعرض الأمر على الناس فتقدم أبو بكر بالرأي ، ولم يعط أحد غيره رأيه واستحسن رسول الله ﷺ رأيه فأقره ، وأمر الناس أن يمضوا على اسم الله .

ما أجمل هذه الصورة من الشورى الهادئة الواضحة تجتمع فيها لدى الجماعة المؤمنة عناصر الشورى وأسسها . عرض واضح للقضية من خلال رأيين لتتضح العزيمة والنية . وعرض على الناس ... فتقدم كبيرهم وأقربهم إلى رسول الله ﷺ . فهو بين المؤمنين على منزلته العظيمة هذه ، وهو من الرسول ﷺ وزيره وأخوه . «**لو كنت متخذاً خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ..** » فأعطى رأيه وسمع الناس - وهم صحابة رسول الله ﷺ - هذه الآراء وهي تدور . ورأوا كيف أن أبا بكر أعطى رأيه مع الحجة : «يارسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولاحرباً » ، فهو ليس رأياً نابعاً عن رغبة أو هوى ، ولا رأياً بعيداً عن المسئولية وتقدير الموقف . ولكنه رأي الرجل المسئول والمؤمن الواعي ، إنه رأي ينبع عن إيمان وعلم . فقد كان أبو بكر يعلم مقصد الرسول ﷺ حين خرجوا ، ويعلم خطته وهدفه .

---

(١) حياة الصحابة : ج١ ص ٢١٦ ، ٢١٧ . تفسير ابن كثير ج ٤ ص١٩٤-٢٠٠ .

وعندما بركت القصواء وقال الناس ماقالوا ، لم يعرض الرسول ﷺ الأمر إلى شورى فقد قال كلمة النبوة : «**ماخلأت القصواء وماذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل** » ، ثم رسم خطة الموقف كله بكلمة جامعة قاطعة : «**والذي نفسي بيده لايسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها** » . ثم زجرها فوثبت فعدل عنهم . ومضى المؤمنون على خطة واضحة ونهج مرسوم ، وأمر بيّن . وهكذا مضت قصة صلح الحديبية على هذا النهج وتلك الخطة .

وفي موقف آخر في الحديبية ، حين أراد رسول الله ﷺ أن يبعث من يبلغ أشراف قريش ماجاء له ، فاختار عمر بن الخطاب .

قال محمد بن إسحق في السيرة : «ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ماجاء له . فقال : يارسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعني . وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها . ولكني أدلك على رجل أَعَزَّ بها مني : عثمان بن عفان رضي الله عنه ، نبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته ، فخرج عثمان بن عفان[1] ، فقد أقر الرسول ﷺ رأي عمر ونفذه . ولم تكن القضية معروضة للشورى ، ولم يكن الرسول ﷺ ملزما برأي عمر . ولكن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه رأى رأياً في هذا الموقف العصيب ، لاضناً بحياته في سبيل الله ولا دفعاً لعثمان بن عفان أخيه وصاحبه ، إلى موقف يقع فيه وينجو هو منه . إنه صفاء القلب والإيمان ، وصدق الأخوة والمودة ، وتقديم المشورة في رأي يظن به خير المؤمنين وصالح الدعوة . وفي هذا الجو النظيف المؤمن الذي تربى فيه في مدرسة النبوة على تجنب سوء الظن ، تعلّم الصدق والوضوح ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ج٢ ص ٣١٥ . تفسير القرآن العظيم لابن كثير . سورة الفتح . ج٤ ص ١٨٦ .

وحرية الرأي ، والأخوة في الله ، والنهوض إلى أداء الأمانة والمسئولية . وعمر رضي الله عنه يعطي مشورته من مركز المسئولية وهو أهل لها ، وهو وزير رسول الله ﷺ .

وعمر رضي الله عنه في موقف آخر في صلح الحديبية ، وأثناء مناقشة بنودها بين رسول الله ﷺ وبين سهيل بن عمرو ، وسهيل يقول : وعلى أن لايأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك ، إلا رددته إلينا . فقال المسلمون : سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً . فبينما هم كذلك ، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده . وتسير القصة كما ترويها كتب السيرة ، حتى يتحرك عمر . قال عمر رضي الله عنه : فأتيت النبي ﷺ فقلت : ألست نبي الله حقاً ؟ قال ﷺ: «**بلى** » .قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل . قال ﷺ: «**بلى** » . قال : فَلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذاً ؟ رأي يتقدم به عمر بكل مايحمل من صدق ووضوح . يتقدم برأيه متسلسلاً متدرجاً حتى يصل إلى سؤاله الحقيقي: فَلِمَ نعط الدنية ؟ فتأتي إجابة رسول الله ﷺ قاطعة بيّنة : «**إني رسول الله ، ولستُ أعصيه ، وهو ناصري** » . قلت أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : «**فإنك آتيه ومطوف به** » [1].

والرسول ﷺ لم ينكر على عمر تساؤله . ولم يزد على أن قال : «**إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري** » . ولاداعي أن نختلف اليوم على دلالة هذا اللفظ . ويكفينا أن نعلم منه ثبات الرسول ﷺ على إمضاء الصلح ، وعلى المضي على خطته التي رسمها وأعلنها للناس قاطعة بيّنة : «**والله لايسألونني خطة يعظمون بها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها** » . كلمة فاصلة قاطعة ، وخطة أصبحت خطة الجماعة كلها .

وعندما اعترض المسلمون وقالوا : «سبحان الله كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد

(١) المرجع السابق : ص٣١٦ ، ٣١٧ .

جاء مسلماً» ، مضى النص الذي طلبه سهيل بن عمرو ، بالرغم من شدة الموقف والابتلاء . وقد جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو . وقال سهيل : «يامحمد هذا أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي » . فقال النبي ﷺ : « **إنا لم نقض الكتاب بعد**». قال : فو الله إذاً لاأصالحك على شيء أبداً . فقال النبي : «**فأجزه لي** » قال : «ما أنا بمجيزه إليك » . وهكذا تسير القصة مع كل مافي الموقف من شدّة وابتلاء ، ويمضي رسول الله ﷺ الصلح بنصوصه المعروفة .

ثم جاء عمر إلى أبي بكر رضي الله عنهما فقال : ياأبا بكر : أليس هذا نبي الله حقاً ؟ قال : بلى ، قال : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل . قال : بلى قال فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً ؟ قال : ياأيها الرجل إنه رسول الله ، وليس يعصي ربه وهو ناصره . فاستمسك بغرزه . فوالله إنه على الحق . قلت : أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف فيه . قال : بلى . قال أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت لا . قال : فإنّك تأتيه وتطوف فيه(١) .

وفي الحديبية ذاتها :

فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه : «**قوموا فانحروا ثم احلقوا** » قال : فوالله ماقام منهم رجل حتى قال رسول الله ﷺ ذلك ثلاث مرات ، فلّما لم يقم منهم أحد ، دخل على أم سلمة رضي الله عنها ، فذكر لها مالقي من الناس . قالت له أم سلمة رضي الله عنها : يانبي الله أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لاتكلم أحداً منهم بكلمة ، حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك » فخرج رسول الله ﷺ فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً(٢).

وفي هذا الموقف بعد أن أمضوا الصلح ، وقضوا الكتاب ، أصاب صحابة

---

(١) حياة الصحابة : ج١ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير . سورة الفتح ج٤ ص ١٩٩ .

رسول الله ﷺ غم شديد ، فلما قال لهم : «**قوموا فانحروا** » ماقام منهم رجل . فأعادها ثلاث مرات ، فما قام أحد . ولما ذكر لأم سلمة بدا لها رأي ومشورة فأعطت رأيها ومشورتها بوضوح ودقة ، وحكمة ، ووعي لجو الصحابة رضي الله عنهم ، ولحالة نبي الله ورسوله . فاستحسن رأيها وعمل به . فكان رأياً سليماً وكانت مشورة مباركة . وفي صلح الحديبية ، حين جاء سهيل بن عمرو ليكتب كتاباً بينه وبين رسول الله ﷺ ، اعترض سهيل بن عمرو على كتابة : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال المسلمون : والله لانكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال النبي ﷺ : **اكتب باسمك اللهم** . واعترض سهيل على : «هذا ماقضى عليه محمد رسول الله » . ثم قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه : **اكتب محمد بن عبدالله** ، وقال : «**والله إني لرسول الله وإن كذبتموني** » .

فواضح من هذه الأحداث والمواقف أن رسول الله ﷺ كان ينهج خطة واضحة محددة ، أعلنها للمسلمين قبل أن يمضي في تطبيقها النهائي ، وأخضع مواقفه كلها لهذه الخطة الواضحة .

وتتضح لنا هذه الخطة من ثلاثة نصوص :

الأول : حين قال رسول الله ﷺ : **أشيروا أيها الناس عليّ** ، قام أبو بكر فقال : «يارسول الله ﷺ خرجت عامداً لهذا البيت لاتريد قتال أحد ولا حرباً . فتوجه له . فمن صدّنا عنه قاتلناه . فأقر الرسول ﷺ هذا الرأي وقال : **فامضوا على اسم الله** » .

وهذا النص يبين لنا النية والعزيمة التي خرج المسلمون بها إلى مكة المكرمة ، والخطة التي انطلقوا بها .

الثاني : حين ظن الناس أن القصواء قد خلأت . قال رسول الله ﷺ : «**ماخلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل** » . ثم قال : «**والذي نفسي بيده لايسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها** » .

ولقد قال رسول الله ﷺ هذا القول ، لا ظناً وتخميناً ولكنه حق ويقين . إنه علم النبوة وقرار النبوة لامكان فيه للشورى أو الاعتراض .

الثالث : حين اعترض عمر رضي الله عنه على الصلح ، أجابه : **«إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري »** .

ولذلك أمضى الرسول أحداث الصلح على ضوء هذه الأسس وذلك النهج. وهذه النصوص الواردة عن رسول الله ﷺ لاتحتاج إلى تأويل أو استنتاج أو تحليل. إنها نصوص صدرت عن رسول الله ﷺ قاطعة واضحة . وهي كافية أن تجعل كل مؤمن يكف عن أي اعتراض أو لجاج . وأن يرضى بحكم رسول الله ﷺ .

وفي جميع هذه المواقف المتبدلة والمفاجآت ، كان المسلمون يطبقون منهاج الله إيماناً وتقوى ، وعلماً ، وتناصحاً ومشورة ، وسمعاً وطاعة ، وحرية في الرأي ، على صورة متناسقة لايتعارض بعضها مع بعض ، ولا يطبَّق جزء ويترَك جزء .

وهذه الأحداث التي استعرضناها حتى الآن ، لم تكن تحمل الجانب العسكري وحده ، ولكنها تحمل طابع الأمور العسكرية ، وخصائص العمل السياسي ، والتوجيه والبناء ، والحكم والإدارة ، ومعالم من القضاء .

إن هذه النماذج التي أخذناها من السيرة النبوية ، لم نحاول خنقها في زوايا محدودة ، ومجال مخنوق . وإنما عرضنا الأحداث على قدر الجهد ، مترابطة مفصلة ، حتى نلمس جمال تطبيق منهاج الله في الواقع البشري ، بما في هذا الواقع من مفاجآت وأحداث ، وإثارة واضطراب ، وقلق وحيرة وضعف وقوة .

ولنرى كذلك روعة تطبيق الشورى متماسكة مع سائر منهاج الله بكل آفاقه وحدوده . في أمة مؤمنة عاملة مجاهدة .

ولقد استعرضنا عدداً محدوداً من الغزوات ، وربما أبرزها وأهمها . وحيث نجد المواقف أكثر تعبيراً ووضوحاً .

ولكن هذه النماذج لم تكن هي كل الغزوات التي خاضتها الأمة المؤمنة المجاهدة بقيادة رسول الله ﷺ . لقد كانت الغزوات والسرايا أكثر من ذلك بكثير فلا تكاد تمضي سنة إلا ويكون فيها غزوة أو سرية .

وفي هذا الجو من العمل الدائب والجهاد ، يكون للشورى لون أكثر جدية ، وأعظم أثراً ، وأبعد إيجابية . إنها ليست شورى الأمة المسترخية على مجالس الجدل ، وندوات الأبحاث ، وعجاج الفتن ، وظلمة الضياع . كلا ! إنها أمة عاملة مخبتة لله رب العالمين . إنها مدرسة النبوة ، تتعلم فيها أمة الإسلام منهاج الله وصدق تطبيقه في الواقع البشري . إنها أمة الإسلام تحمل أعظم رسالة عرفتها الدنيا ، وأكرم نهج عرفه البشر ، فلم تُقتَلْ هذه الرسالة ، ولم يُمَزَّقْ هذا النهج ، في حميّا المناقشات وصراع الشهوات والرغبات .

والشورى في مثل هذه الأمة ، ومع هذا المنهاج ، لها شكلها الخاص ، ومنطلقها الخاص ووسائلها الخاصة ، وأسلوبها الخاص ، وأهدافها الخاصة .

وتمضي الشورى على ضوء الواقع الحقيقي ، لا في عالم الوهم والخيال والرغبات والأمنيات .

ففي الحديبية ، خرج المسلمون بنية العمرة . حتى إذا رأوا قريشاً تحركت لقتال ، استشار الرسول ﷺ أصحابه . فأشار أبو بكر رضي الله عنه بأن يمضوا على نيتهم وعزيمتهم فمن صدهم قاتلوه . وأقر النبي ذلك .

ولكن الرأي تغير والخطة تغيرت على ضوء واقع جديد ، حين بركت الناقة حسب ماعرضناه سابقاً .

ولابأس أن نستعرض جانباً من حياة هذه الأمة المجاهدة ، لنعرف صورة من الواقع الحقيقي الذي تدور فيه الشورى . لنستعرض الغزوات والسرايا في حياة الرسول ﷺ في المدينة المنورة .

٦ - نموذج من الوقائع العسكرية :

لقد ابتدأت الغزوات والسرايا على رأس اثني عشر شهراً من مقدم الرسول ﷺ المدينة المنورة .

ففي السنة الثانية من الهجرة :

- غزوة الأبواء في صفر .
- سرية عبيدة بن الحارث في ربيع الأول .
- سرية حمزة إلى سيف البحر في ربيع الأول .
- وكذلك غزوة بواط .
- غزوة العشيرة في جمادى الأولى .
- سرية عبدالله بن جحش في رجب .
- غزوة بدر الكبرى في رمضان .
- غزوة بني سليم بالكدر .
- غزوة السويق في ذي الحجة .
- غزوة ذي أمر في نهاية ذي الحجة .

وفي السنة الثالثة من الهجرة :

- غزوة الفرع من بحران في ربيع الثاني .
- أمر بني قينقاع وهم أول من نقض عهدهم من اليهود مع الرسول ﷺ .
- سرية زيد بن حارثة إلى القردة .
- غزوة أحد في شوال .
- يوم الرجيع .

وفي السنة الرابعة من الهجرة :

- بئر معونة في صفر .
- إجلاء بني النضير .
- غزوة ذات الرقاع في جمادى الأولى .
- غزة بدر الآخرة في شعبان .

وفي السنة الخامسة من الهجرة :

- غزوة دومة الجندل في ربيع الأول .
- غزوة الخندق في شوال .
- غزوة بني قريظة .

وفي السنة السادسة من الهجرة :

- غزوة بني لحيان في جمادى الأولى .
- غزوة بني قرد .
- غزوة بني المصطلق في شعبان .
- صلح الحديبية في ذي القعدة .

وفي السنة السابعة من الهجرة :

- المسير إلى خيبر في المحرم .
- عمرة القضاء في ذي القعدة .

وفي السنة الثامنة من الهجرة :

- غزوة مؤتة في جمادى الأولى .
- فتح مكة في رمضان .
- غزوة حنين .

- غزوة الطائف .

- العمرة من الجعرانة في ذي القعدة .

وفي السنة التاسعة من الهجرة :

- غزوة تبوك في رجب .

- بعث خالد بن الوليد إلى إكيدر دومة .

- إسلام ثقيف في رمضان .

وأخذت الوفود تتوالى في السنة التاسعة من الهجرة تعلن إسلامها . وامتد سلطان الإسلام .

*****

٧ - ملامح من الواقع السياسي :

ولعل أهم عمل سياسي ابتدأ به الرسول ﷺ عمله بعد الهجرة ، هو الكتاب الذي كتبه ، ينظم فيه العلاقات بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . بين فيه الحقوق والواجبات والمسئوليات والتبعات . فهو يمثل النهج والخطة التي تنظم العمل وترسمه وتوجهه . ومثل هذه الخطة أساس في بناء حياة الشورى في الأمة .

وتوالت بعد ذلك السرايا والغزوات ، لتكشف لنا عما كان يُكاد لهذا الدين وما يراد له من شر . وتكشف لنا مكر اليهود في المدينة ، ونكثهم للعهود فئة فئة ، وجماعة جماعة ، وتكشف لنا كيد القبائل حول المدينة ، وقبل ذلك كله ، كيد قريش ، ثم كيد المنافقين في المدينة .

وخارج الجزيرة فارس والروم ، أعداء حقيقيون ، لايقصرون في كيد إن استطاعوا ولا في إيذاء .

أمام هؤلاء الأعداء المنتشرين بين المؤمنين ، والممتدين خارج المدينة وخارج الجزيرة ، برزت موهبة القيادة وعظمة النبوة ، ومتانة الصف المؤمن ، وتماسكه أمام الفتن والأحداث ، لتأخذ الشورى شكلها الحقيقي .

وانطلق الرسول ﷺ ، يبعث الرسل والوفود إلى رؤساء في داخل الجزيرة ، وإلى كسرى ، وإلى ملك الحبشة ، يدعوهم إلى الإسلام وكلمة الإيمان .

لانستطيع هنا أن نستعرض الوضع السياسي بكامل تفاصيله . ولكننا أردنا أن نستكمل صورة النموذج الذي عرضناه عن السرايا والغزوات ، حتى نعيش قليلاً مع الواقع الإسلامي في حياة النبوة ، حيث كانت الشورى تدور ، لندرك أن الشورى التي كانت تدور بين المؤمنين هي شورى أمة عاملة مجاهدة ، لاتكاد تنتهي من القضاء على مؤامرة حتى تنهض إلى غيرها ، ودين الله يمتد وينتشر ، وكلمة الله تسود وتنتصر .

هذا الجهد العظيم المبارك ، وهذا الجو المليء بالجد والعمل ، لم يعطل شورى صادقة ، ولم يسترخ على ثنايا الجدل ، وشورى النزاع .

هذه الموازنة الرائعة في تطبيق الشورى ، لاتتحقق إلا إذا تحقق الإيمان في القلوب . وملأ العلم الصدور ، ووعي العاملون واقعهم وعياً مبنياً على الإيمان والعلم . عند ذلك يطبق منهاج الله ، والشورى جزء منه ، تطبيقاً حياً .

وإذا كانت كتب السيرة التي بين أيدينا اليوم ، لاتعرض لنا تفاصيل جميع مجالس الرسول ﷺ مع صحابته الأبرار ، فقد أخذنا من السيرة نماذج فحسب ، لنرى تطبيق منهاج الله في الواقع البشري ، وهو يمضي في حياة الأمة المؤمنة وفي حياة رسول الله ﷺ ، في عناية الله ورعايته .

الفصـل الثانـي
الأمـور الإداريـة

قد لانجد في كتب السيرة نماذج كثيرة للشورى في الميدان الإداري ، فقد كان رسول الله ﷺ يعين الولاة والعمال ويرسم لهم النهج ، ويزودهم بتعليماته وإرشاداته .

وقد كان رسول الله ﷺ أعلم الناس بالرجال وقدراتهم ، ونفسياتهم ، وكان أقدر الناس على اختيار الرجال للأعمال المختلفة ، يضع كل رجل حيث يتوقع صلاحه ونجاحه ، آخذا بعين الاعتبار مختلف العوامل . من نفسية ، وموهبة ، وقدرة ، ومن ظروف وغير ذلك . يضاف إلى ذلك أنه كان هنالك منهاج ربآني يتنزل منجماً يبين القواعد والأسس لمختلف شئون الحياة ، وماكان يصدر الرسول لله ﷺ إلا عن منهاج الله .

إلا أن هذا كله لايجعلنا نقطع بأنه لم تدر شورى في أمور الإدارة ، ولا تجعلنا نقول إن الشورى لاتجري على الأمور الإدارية إذا استدعى الموقف ذلك ، كما تجري في غيرها من شئون الحياة . ولربما استشار الرسول الكريم وزيريه أو أحدهما في هذا الأمر الإداري أو ذاك ، ولم تسجله لنا كتب السيرة ، فلقاء الرسول ﷺ مع تلامذته كان متتابعاً وقوياً .

يُروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : «مارأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ » . (رواه الترمذي)[1]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال :«مامن نبي إلا وله وزيران من أهل السماء ، ووزيران من أهل الأرض . فأما وزيراي من أهل السماء فجبريل وميكائيل ، وأما وزيراي من أهل الأرض فأبو بكر وعمر »

(رواه الترمذي بسند حسن)[2] .

---

(١) سنن الترمذي : كتاب الجهاد (٢٤) . باب (٣٤) . حديث رقم (١٧١٤) .
(٢) الترمذي : كتاب المناقب (٥٠) باب (١٧) حديث رقم (٣٦٨٠) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع فلم يرعني إلا رجل أخذ منكبي . فإذا عليّ يترحم على عمر وقال : ماخلفت أحداً أحب إلي من أن ألقى الله بمثل عمله منك . وأيم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك . وحسبت أني كثيراً كنت أسمع النبي ﷺ يقول : ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر » . (رواه الشيخان)[1]

فلا عجب أن يكون الرسول ﷺ استشار وزيريه في بعض الأمور الإدارية كما يستشير في غيرها . والشورى سنة من سنن الحياة . فبين المؤمنين هي شورى تأمر بالمعروف ، وبين أهل الشر هي مداولة تأمر بالشر وتحض عليه .

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «ما بعث الله من نبي ولااستخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصم الله » .

(رواه البخاري)[2]

ويؤكد الحديث التالي هذه الصورة أيضاً :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق ، إن نسي ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره وان ذكر لم يعنه » . (رواه أبو داود بإسناد حسن)[3]

وفي هذا الحديث يبدو لأول وهلة أن موضوعه محصور بالأمير وحده . ولكننا نرى أن الموضوع عام ، خاصة عندما نربط هذا الحديث بحديث «الدين

---

(١) البخاري : كتاب فضائل الصاحبة (٦٢) باب (٦) ومسلم . كتاب فضائل الصحابة (٤٤) . باب (٢) . حديث رقم (٢٣٨٩/ ١٤) .

(٢) البخاري : كتاب القدر ((٨٢) باب (٨) .

(٣) سنن أبي داود . كتاب الخراج والإمارة والفيء (١٤) . باب (٤) حديث رقم (٢٩٣٢) .

النصيحة » ، وبسائر الآيات والأحاديث . وإنما ورد ذكر الأمير هنا ، وذكر النبي والخليفة في الحديث الذي قبله ، لأهمية منزلتهما وخطورة مايترتب على النصح لهما ، دون أن يعطل هذا أهمية صديق الخير ، وأذى صديق السوء ، ورفيق الحياة ، ومختلف مستويات المسئولية . مادام هنالك رفقة وتعاون ، وصحبة وتناصح ، ومسئولية وأمانة .

ويعرض لنا الحديثان السابقان أيضاً جانباً من جوانب المسئولية في الإدارة والولاية في مجال الشورى ، فالأمير عليه أن يحسن اختيار أصحابه ووزرائه ، وعلى الصحبة أن تصدق نصيحتها ومشورتها .

وفي حياة الرسول ﷺ ، كان هو نفسه يعين الولاة كما ذكرنا ، إلا أننا نلمس المواقف ، ونجد بعض اللمحات في السيرة مما يلقي ضوءا على حرية الرأي ووضوح الكلمة . وكذلك على عظمة توجيه النبوة .

فحين رغبت نفس أبي ذر رضي الله عنه في الولاية ، عرض ذلك على رسول الله ﷺ . إن مبدأ العرض نفسه لدرس عظيم في صدق التعامل ، ووضوح الحياة في مجتمع ربّتْهُ النبوة ، ورعته السماء . ولنسمع إلى أبي ذر رضي الله عنه يحدثنا عن ذلك . قال أبو ذر رضي الله عنه : **«يارسول الله ألا تستعملني ؟ فضرب بيده على منكبي ثم قال : ياأبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها.»** (رواه مسلم)[1] .

لقد كان أبو ذر رضي الله عنه واضحاً مؤدباً حين عرض رأياً ورغبة . ولأبي ذر مكانته عند رسول الله ﷺ . ولكن الرسول لم يعنفه على ما طلب ، ولا زجره ، ولكن علمه وعرفه وأدبه . وكان الرسول الكريم واضحاً دقيقاً في إجابته له : إنك ضعيف . هذا في مايختص بأبي ذر نفسه . ثم عرّف له الإمارة كما يراها

(١) مسلم : كتاب الإمارة (٣٣) . باب (٤) . حديث رقم (١٨٢٦/ ١٧) .

منهاج الله : أنها أمانة وأنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها .

هذه هي مدرسة النبوة حتى في ميدان الإدارة والولاية . وهذه هي الشورى تصبح تربية وإعداداً .

ويؤكد الرسول المعلم هذا الدرس لأبي ذر في حديث آخر :

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«ياأبا ذر ، إني أراك ضعيفاً ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي ، لا تأمرَنَّ على اثنين ولا توَلَّيَنَّ مال يتيم »** .

(رواه مسلم) .[1]

ولم يكن أبو ذر رضي الله عنه ضعيفاً في دينه أو تقواه ، وإنما كان ضعيفاً في ناحية من شخصيته ، وقدرته على الولاية والإدارة ، حيث تحتاج تلك موهبة ذاتية يرعاها الإيمان ، وتنميها التقوى . وكان أبو ذر أقرب إلى الزهد ، بعيداً عن الدنيا وأمورها ، والولاية تحتاج إلى دراية في أمور الناس . وحنكة في معالجتها .

هذا مع أبي ذر رضي الله عنه .. أما مع أبي سعيد عبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه فكان أمر آخر :

عن أبي سعيد عبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : **ياعبدالرحمن بن سمرة ، لاتسأل الإمارة ، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وُكلت إليها ، وإن أوتيتها عن غير مسألة أُعنْتَ عليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عنَ يمينك وائت الذي هو خير »**

(رواه الشيخان والنسائي) .[2]

---

(١) مسلم : كتاب الإمارة (٣٣) . باب (٤) حديث رقم (١٨٢٦/ ١٧) .

(٢) البخاري : كتاب الأيمان والنذور (٨٣) باب (١) مسلم : كتاب الإمارة (٣٣) باب (٣) حديث رقم (١٦٥٢/ ١٣) . النسائي : كتاب آداب القضاء (٤٩ . باب (٥) حديث رقم (٥٣٨٤) . واللفظ للبخاري .

وعبدالرحمن بن سمرة قرشي صحابي من الولاة ، أسلم يوم فتح مكة ، جاهد وغزا وولي الإمارة حين ولي سجستان . فكان الرسول المعلم هنا يوجه أحد صحابته الأقوياء إلى أمر عظيم ، وهو أمر الإمارة التي يحرص عليها الناس . وجهه بالأسلوب النبوي الكريم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة » (رواه البخاري والنسائي) .(١)

أما مع أبي موسى ورجلين من قومه فكانت الصورة تختلف :

عن أبي بردة قال : قال أبو موسى : أقبلت إلى النبي ﷺ ومعي رجلان من الأشعريين أحدهما عن يميني والآخر عن يساري : فكلاهما سأل العمل . والنبي ﷺ يستاك . فقال : « ماتقول ياأبا موسى أو ياعبدالله بن قيس ؟ قال : فقلت : والذي بعثك بالحق ماأطلعاني على مافي أنفسهما ، وما شعرت أنهما يطلبان العمل . قال : وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلصت . فقال : «لن أو لانستعمل على عملنا من أراده . ولكن اذهب أنت ياأبا موسى أو ياعبد الله بن قيس» . فبعثه إلى اليمن ثم أتبعه معاذ بن جبل، إلى آخر حديث رواه أبو بردة.

(رواه الشيخان والنسائي) .(٢)

فهنا كانت الإجابة تختلف عن الإجابة لأبي ذر . فأسلوب أبي ذر في طلب العمل كان يختلف . كان لايكشف عن حرص . ولعل رسول الله ﷺ لمس الحرص من الرجلين الأشعريين ، واستشار النبي المعلم أبا موسى ، فكانت إجابة أبي موسى رضي الله عنه كما رأينا. أما مع أبي ذر رضي الله عنه فقد اختلف

---

(١) البخاري : كتاب الأحكام (٩٣) . باب (٧) النسائي : كتاب آداب القضاء (٤٩) باب (٥) حديث (٥٣٨٥) .

(٢) البخاري : روى الجزء الأخير منه في كتاب الأحكام (٩٣) . مسلم : كتاب الإمارة (٣٣) . باب حديث رقم (١٦٥٢/ ١٥) النسائي : كتاب (٤٩) باب (٤) حديث رقم (٥٣٨٢) .

الحال . والرسول ﷺ يعرف أبا ذر مع طول الصحبة ، وصدق اللهجة ، ووضوحها ، والرغبة في الزهد عن الدنيا وهو خامس من أسلم .

في هذه الأمثلة من أجواء الإدارة والولاية نلمس أطرافاً ونجد قبسات من الرعاية وحسن التوجيه ، دقة في الموازنة مع كل حالة من الحالات ، حيث يراعي رسول الله ﷺ جميع الظروف . ومنازل الناس ، وطاقاتهم وحقوقهم ، ورعاية الدعوة الإسلامية التي يقودها على أسس المنهاج الرباني .

وتكشف لنا النصوص السابقة مدى امتداد حرية الرأي والوضوح ، والشورى والتناصح ، في حياة المسلمين في عصر النبوة ، إنها تشمل المجتمع كله ، جميع مستوياته وجميع شئونه على صورة متوازنة متناسقة ، تسمح للمجتمع أن يستفيد من جميع القدرات والمواهب . وهذا ابن عمر رضي الله عنهما يحدثنا عن مثل هذه الأجواء . النقية المتعاونة ، حيث تبرز المواهب نامية طاهرة :

قال ابن عمر رضي الله عنهما : «**مانزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر إلا نزل القرآن على نحو ماقال عمر**» . (رواه الترمذي)[1].

فهذه الجملة الجامعة : «فقالوا فيه وقال فيه عمر ...» توضح لنا اتساع ميدان كلمة الشورى في المجتمع . كما يبين لنا الحديث مدى ارتباط الأمة كلها بأحداثها : «مانزل بالناس أمر قط فقالوا فيه ..» ، إن الناس لم يكونوا غافلين ساهين ، والقرآن يوقظ فيهم كل حواسهم ، وينمي كل قدراتهم . إنهم لم يكونوا إمعة ، إن أفواههم لم تكن مخنوقة ، ولم يكن ارتباط الناس بأحداثهم ارتباطاً شكلياً، ولكنه كان ارتباط أمانة ومسئولية ، ارتباط بذل وجهد ، ارتباط سمع وطاعة ، إنه ارتباط عقيدة ومنهاج رباني .

ومن خلال هذا الارتباط والتعاون والتناصح والشورى ، كانت تنمو

---

(١) الترمذي : كتاب المناقب (٥٠) . باب (١٨) . حديث (٣٦٨٢) .

المواهب وتبرز القدرات . ومن خلال هذا الارتباط برز عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ونمت مواهبه ، وصفت قدراته ، وظهرت طاقاته ، حين كان يبدي الرأي العظيم في أمور عدة ، فينزل القرآن يوافق رأي عمر .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال عمر : «**وافقت ربي في ثلاث ، في مقام إبراهيم وفي الحجاب وفي أسارى بدر**» . (رواه الشيخان)[1]

فهكذا ترعى الشورى المؤمنة مواهب المؤمنين وتصقل قدراتهم لتدفعها من خلال المنهاج الرباني إلى ميادين الجهاد والبناء والبذل والعطاء .

فالشورى في الإسلام إذن باب من أبواب الإعداد والتربية ، والتوجيه والبناء ، بالإضافة إلى أنها تنقيب عن الحق ، وبحث عن الأصلح . إنها كانت كذلك تنمية مواهب ، وصقل تجارب .

---

(١) البخاري : كتاب التفسير (٦٥) . باب (٩) مسلم : كتاب (٤٤) . باب (٢) حديث رقم (٢٣٩٩/ ٢٤) . واللفظ لمسلم .

الفصـل الثالـث
القضــــاء

أما في القضـاء فقد كان قضاء رسول الله ﷺ ملزماً للمؤمنين ، لاخيرة لهم في ذلك :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]

بل أكثر من ذلك .. فليس للمؤمنين أن يحكِّموا أحدا من الناس فيما يشجر بينهم ، خلاف رسول الله ﷺ. ثم يسلموا تسليماً :

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥]

ومن يفعل غير ذلك فهو منافق أو كافر ، إنه ظالم خارج عن جماعة المؤمنين . فللمؤمنين موقف واضح من السمع والطاعة لحكم رسول الله ﷺ ولحكم منهاج الله ، لحكم رب العالمين . وللمنافقين موقف آخر.

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

[النور: ٤٨ – ٥٢]

وهكذا يرتبط السمع والطاعة لله ولرسوله بالإيمان وحقيقته حتى يحقق الفلاح والفوز . إلا أن هذه الطاعة الواجبة على المؤمنين لم تكن لتعطل شورى أو تقتل رأياً أو تميت موهبة . ومن الناحية الأخرى فإن الشورى لم تكن تنقص من أمر الطاعة لله ولرسوله أو من شأنها . ذلك كله على صورة متوازنة من الخضوع لمنهاج الله الذي كان يتنزل من الله على النبي محمد ﷺ .

وحين أمر منهاج الله المؤمنين بالسمع والطاعة لقضاء الله ورسوله، فقد وضع أسسا وقواعد للقضاء، كما وضع مثل ذلك لجميع مجالات الحياة البشرية وشئونها. وهذه القواعد والأسس يلتزمها الجميع. يتعلمونها ويعونها، ويعملون بها ويخضعون لها، في مجتمع الإيمان وفي مدرسة النبوة، فقد نهى عن القضاء في حالة الغضب:

عن عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه قال: كتب أبو بكرة إلى ابنه عبيد الله وهو قاض بسجستان أن لاتقضي بين اثنين وأنت غضبان فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لايقضين حكم بين اثنين وهو غضبان». (رواه الخمسة)[1].

وحين كان يعهد رسول الله ﷺ لأحد بالقضاء، فإنه كان يعلمه ويضع له الأسس ويبين له المنهج:

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضياً: فقلت يارسول الله ترسلني وأنا حديث السن ولا علم لي بالقضاء. فقال: **«إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك. فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع الآخر كما سمعت من الأول فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء. قال فما زلت قاضياً أو ماشككت في قضاء بعده».** (رواه أبو داود والترمذي بسند حسن)[2]

هذا درس من دروس القضاء، وقاعدة من قواعد المنهاج الرباني شأنه شأن القاعدة السابقة من عدم القضاء عند الغضب.

وقاعدة أخرى ودرس في مدرسة النبوة:

---

(١) البخاري: كتاب (٩٣). باب (١٣) النسائي: كتاب (٤٩). باب (١٨) حديث رقم (٥٤٠٦) مسلم: كتاب الأقضية (٣٠) باب (٧) حديث رقم (١٦/١٧١٧). أبو داود: كتاب الأقضية (١٨). باب (٩). حديث (٣٥٨٩). الترمذي: كتاب (١٣). بب (٧) ج حديث رقم (١٣٣٤). ابن ماجه: كتاب أبواب الأحكام (١٤) باب (٤) حديث رقم (٢٣٣٧).

(٢) الترمذي: (مختصراً) كتاب الأحكام (١٣). باب (٥). حديث رقم (١٣٣١). أبو داود: كتاب (١٨). باب (٧). حديث (٣٥٨٣).

لما بعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له : «كيف تقضي ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله . قال : فإن لم تجد في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ ؟ قال : أجتهد برأيي . قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ . (رواه الترمذي وأبو داود) (١)

وفي هذا الحديث نجد قاعدة أخرى ودرساً آخر ، حيث تتحرك في معاذ رضي الله عنه موهبة الفقه وحسن القياس . وتتأكد هذه الصورة في الحديث التالي ، ورسول الله ﷺ يعلم الناس قواعد الاجتهاد وصدق القياس:

عن ابن عباس رضي الله عنه أنّ امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت : يارسول الله ﷺ إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها ؟ . قال : «نعم حجي عنها . أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا الله فالله أحق بالوفاء » . (رواه البخاري والنسائي) (٢)

ومن حسن القضاء أن يرد الحاكم الناس إلى إيمانهم ويرجعهم إلى منهاج الله حتى إذا تحرك الإيمان في القلوب ، وخشية الله في النفوس ، أصبحت أقرب إلى التقوى وأيسر على العدل .

قالت أم سلمة رضي الله عنها : أتى النبي ﷺ رجلان يختصمان في مواريث لهما ، ليست لهما بينة إلا دعواهما . فقال النبي ﷺ : «من قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار » فبكى الرجلان وقال كل واحد منهما : حقي لك . فقال لهما النبي ﷺ : «أما إذا فعلتما مافعلتما فاقتسما وتوخيا الحق ثم استهما ثم تحالا » وفي رواية « إنما أقضي بينكما برأي فيما لم ينزل عليّ فيه» .

(رواه الستة) (٣)

---

(١) الترمذي واللفظ له : كتاب (١٣) . باب (٣) . حديث (١٣٢٧) . أبو دواد : كتاب (١٨) . باب (١١) . حديث (٣٥٩٢) .

(٢) البخاري واللفظ له : كتاب (٢٨) . باب (٢٢) النسائي : كتاب مناسك الحج (٢٤) باب (٨) حديث (٢٦٣٣) .

(٣) البخاري : كتاب الشهادات (٥٢) . باب (٢٧) . مسلم : كتاب (٣٠) . باب (٣) . باب حديث (١٧١٣/ ٤) الترمذي : كتاب (١٣) باب (١١) . حديث (١٣٣٩) . أبو داود : كتاب (١٨) . باب (٧) حديث (٣٥٨٣ , ٣٥٨٤) . النسائي : كتاب (٤٩) . باب (١٣) حديث (٥٤٠١) ابن ماجه كتاب أبواب الأحكام (١٤) . باب (٥) حديث (٢٣٣٨) .

وأمثلة كثيرة نجدها في سيرة رسول الله ﷺ ، وهو يعلم الناس آداب القضاء ومناهج العدل ، وهو ينمي الإيمان في القلوب ، والمواهب والقدرات . وهذه كلها تبين لنا الأجواء والخصائص ، والرجال والكفاءات ، والإيمان وهو يعمل في النفوس ، ويربي الأجيال ، لتحمل منهاج الله كاملاً تدفعه إلى أجيال أخرى .

ونرى من هذه الأمثلة كذلك كثيراً من قواعد الشورى : نرى الكلمة الواضحة والنصيحة الصادقة ، والعلم ، وأدب السؤال ، وعظمة الإجابة في أجواء النبوة .

ونرى كذلك منهاجاً ربانياً يضع الأسس والقواعد ، ويضع النهج والأسلوب ، ويحدد الغاية والهدف ، لتقوم الشورى على أساس ذلك كله ، فبغير ذلك لاتصلح الشورى ، ولاتصدق نصيحة ، ولاينفع رأي .

هذه نماذج ! وما أردنا بها أن نستعرض شئون الإدارة والقضاء في حياة رسول الله ﷺ استعراضاً شاملاً . فليس هذا مكانه ولكننا أردنا أن نتلمس معالم حياة ، وملامح تطبيق ، وأجواء مجتمع ، حتى نرى أين كانت تدور الشورى، في أي قوم وفي أية أجواء .

وقد يحدث أن تكون القضية أكبر من النماذج التي عرضناها وأخطر . وقد تحيط بها ملابسات أدق وأصعب ، وتكتنفها أمور أوسع وأشمل . فقد تشمل الرسول ﷺ ، وبيته ، وأهله والمجتمع الإسلامي كله .

ففي حديث الإفك ، حين رمى المنافقون زوج رسول الله ﷺ عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بصفوان بن المعطل رضي الله عنه افتراء وبهتاناً وإفكاً ، بقي الأمر قريباً من شهر قبل أن ينزل القرآن ، بقي الأمر هذه المدة الطويلة ، يهز المجتمع الإسلامي كله .

« فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله . فأما أسامة فأشار بالذي يعلم في

براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود ، فقال : «يارسول الله أهلك فلا نعلم إلا خيرا .» أما علي بن أبي طالب فقال : يارسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير . وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر . فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : **أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟** فقالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ، إن رأيت منها أمراً قط أغمصه عليها ، أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها ، فتأتي الدواجن فتأكله .

وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج النبي ، فقال : «يازينب ماذا علمت أو رأيت ؟» فقالت : يارسول الله أحمي سمعي وبصري . والله ماعلمت إلا خيراً . وقالت عائشة : وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ ، فعصمها الله تعالى بالورع .

ثم قام النبي ﷺ في المسجد خطيباً ، فتشهد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : «**أشيروا عليّ في أناس أبنوا أهلي ، وأيم الله ماعلمت على أهلي إلا خيراً، وما علمت على أهلي من سوء وأبنوهم بمن ؟ والله ماعلمت عليه من سوء قط ، ولايدخل بيتي قط إلا وأنا حاضر ، ولا غبت في سفر إلا غاب معي**» . فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال : يارسول الله ائذن لنا أن نضرب أعناقهم . فقام رجل من الخزرج فقال كذبت أما والله لو كانوا من الأوس ماأحببت أن تضرب أعناقهم ، حتى كاد يكون بين الأوس والخزرج شر في المسجد » .(رواه البخاري) [1]

وفي رواية : فقام رسول الله ﷺ من يومه ، فاستعذر من عبدالله بن أبي بن سلول . فقال وهو على المنبر : «**يامعشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي. فوالله ماعلمت على أهلي إلا خيراً . ولقد ذكروا رجلاً ماعلمت عليه إلا خيراً . وما كان يدخل على أهلي إلا معي**» . فقام سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال ما قال ... إلخ .

---

(١) البخاري : كتاب الشهادات (٥٢) . باب (١٥) من حديث الإفك السيرة النبوية لابن هشام : ج٢ ص٢٩٧ -٣٠٧ .

ففي هذا الحدث العظيم، حيث تضطرب النفوس، وتختلط الحقائق، وتهيج العواطف والعصبية، في هذا الجو الشديد، على طول فترته وشدة أزمته، لم ينزل وحي من السماء .. حتى مضى قرابة شهر، لحكمة يعلمها الله . وفي هذه الشدة ،ومع تأخر الوحي، تابع الرسول ﷺ قيادة الأمة على أساس منهاج الله . فاستشار اثنين من أقرب الناس إلى بيته، علياً وأسامة، واستشار بريرة، واستشار زينب بنت جحش . وأشار كل واحد منهم برأي نابع من إيمانه وعلمه وقدرته، وبقي الوضوح والصدق في أجمل صوره وأشكاله في هذا الظرف العصيب، لم يسقط فيه في المجتمع الإسلامي إلا المنافقون، وتورط نفر قليل من المسلمين، وعصم الله القلوب والألسنة بإيمانها، وظلت القلوب المؤمنة تعمل في الشورى، على أساس إيمانها وعلمها وقدرتها .

ومع أن الأمر اشتدّ على رسول الله ﷺ، وهو صاحب السلطة في الأمة، مطاع من تلامذته وأصحابه، فلم يدفعه الهوى أبداً إلى قرار، ولا الغضب ولا العصبية . إنها حقاً النبوة، إنها حقاً الرسالة، إنه القائد الذي يظل يبلغ رسالة ربه ويبينها، ويعلم تلامذته وأصحابه . فقام في المسجد خطيباً فقال : «**أشيروا علي في أناس ..**» واستمرت الشورى في الأمة المؤمنة تعمل في هذه الظروف، اتسعت حتى شملت الجماعة المؤمنة كلها فبين رسول الله ﷺ للناس أنه لم يجد بينة على دعوى المنافقين والمرجفين، وأنه ماعلم على أهله إلا خيراً، وكذلك على صفوان بن المعطل . هكذا عرض القضية للشورى بوضوح وأمانة، وصدق، وبين رأيه بوضوح وصدق ودقة أيضاً . وحين قام سعد بن معاذ يعطي رأيه، عرض أن يأذن الرسول ﷺ لهم بضرب أعناقهم . فقد أشار سعد رضي الله عنه على أساس من رصيده العظيم من الإيمان إن شاء الله، وعلى أساس من دفاعه عن دينه وربه ورسوله . وإن كاد لَيَحْدُثُ شر بين الأوس والخزرج، فلعل ذلك يرينا الجانب البشري في الجماعة المؤمنة ،فهم ليسوا بالملائكة، ولا هم

---

(١) الترمذي : كتاب المناقب (٥٠) . باب (١٨) . حديث (٣٦٨٢) .

بالأنبياء ، ولكنهم صحابة رسول الله ﷺ . تتحرك فيهم بعض نوازع الضعف لحظات حتى يتذكروا فيعودوا فيبصروا .

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾

[الأعراف: ٢٠١]

وهنا تبرز عظمة الإيمان حين يتجاوز المؤمنون هذه اللحظات ، فيعودون صفاً كالبنيان المرصوص ، ولاتمزقهم فتنة دائمة ، ولا يخلخل بنيانهم منافق أفاك .

وأخذت الشورى صورها الكاملة المشرقة في جو من الصدق والوضوح ، حيث ابتلي المؤمنون جميعهم .

ومضت الشورى! ولم يكن جانب من المؤمنين يرى حق الإلزام أو عدمه ، أو يجول في باله ذلك الأمر ، وإنما ينظر كل مؤمن حين يستشار كيف يمارس إيمانه ، ويرضي ربه ، ويحمي الجماعة المؤمنة ، وجميع المؤمنين ، على أحسن حال من السمع والطاعة لرسول الله ﷺ . وهم يعلمون أن طاعته واجبة في كل مايقضي به ، ويؤمنون به .

وحين يتأمل المؤمن في هذه الحادثة ، في جوهرها وفي وقائعها ، وفي موقف رسول الله ﷺ ، وموقف الصحابة ، وفي تأخر الوحي ، حين يتأمل المؤمن في هذا كله يستوعبه ويقارنه ، مع واقع الحضارات العصرية ، والقوانين الوضعية ، يرى الفارق العظيم بين منهاج الله وبين القوانين الوضعية ، ويرى الفارق العظيم بين قيادة النبوة وبين قيادة البشر الضالة ، ويرى الفارق بين مجتمع الإيمان ومجتمع الحضارة العصرية . وحين يتأمل المؤمن في هذا كله يرى تلك الموازنة الرائعة في حياة المؤمنين . الموازنة بين مختلف قواعد منهاج الله في الموقف الواحد . فحين تدور الشورى لاتدور كقاعدة مبتورة عن الإسلام ، أو قاعدة جامدة في حدود مخنوقة ، ولكنها تدور مع سائر قواعد الإسلام في موازنة كريمة رائعة . تدور الشورى على أسس التقوى والإيمان . وعلى نهج الصدق وحسن البيان ، ومن منطلق العلم ، وفي ظلال الخلق والأدب ، وحسن السمع

والطاعة ، وحدود الرأي ، وسلامة التناصح ، كل ذلك تجده يجتمع في موقف واحد من مواقف الشورى في الأمة المؤمنة ، في مدرسة النبوة ، موازنة لايطغى فيها جانب على جانب ، وإنما تتكامل القواعد كلها في ممارسة إيمانية صادقة .

وبعد هذه الشورى التي دارت في مناسبة حديث الإفك ، لم يتخذ الرسول ﷺ قراراً ولم ينفذ إجراء ولكنه مضى إلى عائشة رضي الله عنها وهي في بيت أبويها

قالت : فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي ، إذ استأذنت عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي . فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ ، فسلم ثم جلس . ولم يجلس عندي منذ قيل ماقيل . وقد لبث شهراً لايوحى إليه في شأني شيء . قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال : «**أما بعد ياعائشة ، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي . فإن العبد إذا اعترف بذنبه ، وتاب ، تاب الله عليه**» . قلت لأبي : أجب عني رسول الله ﷺ ، فقال : والله مأأدري ماأقول لرسول الله ﷺ . فقلت لأمي : أجيبي عنّي رسول الله . فقالت : والله مأأدري ماأقول لرسول الله ﷺ . فقلت ، وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن . والله علمت ، لقد سمعتم حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به . فلئن قلت لكم إني بريئة ، والله يعلم أني بريئة ، لاتصدقونني ، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أني منه بريئة ، لتصدّقنّني ، فو الله ما أجد بي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف (**فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون**) . قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشي ، قالت : وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي . ولكن والله ماكنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى . ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها . قالت : فوالله مارام رسول الله ﷺ مجلسه ، ولاخرج من أهل البيت أحد ، حتى أنزل الله تعالى على نبيه براءتي . فأخذه ماكان يأخذه من البرحاء عند الوحي ، حتى أنه

ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شات ، من ثقل القول الذي أنزل عليه . قالت : فسري عن رسول الله ﷺ ، وهو يضحك . فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : «**أبشري ياعائشة أما الله عز وجل فقد برأك ..**» .

وهكذا استمرت قصة حديث الإفك شهراً ، دارت خلاله الشورى على النحو الذي رأينا ، ومضت حتى سأل رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها نفسها . وكيف يصدر رسول الله ﷺ قراراً أو يقضي قضاء قبل أن يسمع من عائشة نفسها . حتى استكمل القضاء كل صوره ومراحله ، وأخذت الشورى كل أشكالها وصورها ، وأخذ الابتلاء من الجماعة المؤمنة أشكاله وألوانه ، حتى إذا تم هذا نزل الوحي الكريم :

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ** (١١) ﴾

[النور: ١١]

ومضت عشر آيات تبرىء عائشة أم المؤمنين ، وتحلل الحادثة ، وتحلل النفوس ، وتضع القواعد والأسس للجماعة المؤمنة ، على طريق استكمال منهاج الله .

إن هذه القصة لترينا الشورى وهي تدور في أجواء القضاء ، وأجواء الحياة الاجتماعية ، وأجواء الإدارة . إنها قصة عظيمة يظل المؤمنون يتعلمون منها درساً تلو الدرس أبد الدهر . أو لم يقل الله سبحانه وتعالى :

«**لاتحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم**» .

ولقد كان خيراً عظيماً ماضياً أبد الدهر .

*****

لقد استعرضنا في هذا الفصل نماذج من الشورى التي دارت في الجماعة المؤمنة في حياة الرسول ﷺ ، نماذج من مختلف شئون الحياة في النواحي

العسكرية والسياسية والاجتماعية ، ورأينا من خلال ذلك ملامح المجتمع المؤمن من مختلف نواحيه . ونعيد ماسبق أن قلناه من أنّ كتب السيرة قد لاتكون جمعت لنا كل مواقف الشورى ، فقد كان لرسول الله ﷺ لقاءات متعددة مع أصحابه ، ومع وزيريه أبي بكر وعمر رضي الله عنهم أجمعين .

ومن هذه الأمثلة التي عرضناها ، نرى تنوع النماذج ، واتساع الصورة ، وملامح عقيدة وإيمان ، وقواعد منهاج وقرآن وسنّة وبيان ، ونظام يتكامل مع الوحي الذي يتنزّل . إننا لانلمس هنا قاعدة الإلزام أو عدمه ، ولاقاعدة أكثريّة أو أقلية ، ولكننا نلمس ملامح نظام ، وقواعد نهج . ونرى شدة ارتباط الأسلوب بالواقع الذي يحدث فغزوة بدر الكبرى ، مضى فيها منهاج الله يقود الشورى على ضوء واقع محدد للجماعة المؤمنة ، وهي في أول غزواتها ، تحتاج إلى بناء وإعداد ، وتوجيه وتكوين ، مع كل خطوة ، وكذلك نرى تبدّل الأسلوب في أُحُد ، أو الخندق ، أو أسارى بدر ، أو صلح الحديبية ، أو حديث الإفك ، أو غير ذلك . ومع تبدّل الأسلوب ، يظلّ منهاج الله هو الذي يحكم ، وتظل الأهداف الربانيّة واضحة مشرقة ، تتكاتف الجهود كلها لتحقيقها ، كما أوجزناها في «التمهيد» أول الكتاب .

ونود أن نشير إلى أن الرسول ﷺ ، وضع عهداً وميثاقاً ، أو نهجاً وخطة ، أو دستوراً وقانوناً ، أول دخوله المدينة . وهو ماتسميه كتب السيرة «بالكتاب» وكذلك يسميه النص نفسه : **«هذا كتاب من محمد النبيّ (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش و(أهل) يثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم»** . وأهم مايجب أن نشير إليه هنا من نصوص في هذا الكتاب هو **«أن المؤمنين أمة واحدة من دون الناس»** ، ومايتبع ذلك من نصوص مفصلة أخرى ، **«وأنه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده ، فإن مردّه إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ»**.[1]

(١) الوثائق السياسية : ص٤١ ، ٤٦ .

وهكذا نجد أن الرسول ﷺ وضع نهجاً وخطة مفصّلة للأمة أول استقراره بالمدينة . حدد فيها حقوقاً ومسئوليات ، على أساس من منهاج الله وعلى ضوء الواقع الذي يمر به المؤمنون . وسنرى كيف أن أبا بكر رضي الله عنه وضع للأمة خطة ونهجاً ، على نفس القواعد والأسس . ولقد اتسع الواقع في خلافة عمر رضي الله عنه ، واتسعت القضايا ، فجاء نهجه متسعاً لذلك كله . فأعلن خطة عامة ، وضع فيها لكل ميدان خطة يستوي في ذلك القضاء ، والمال ، والسياسة ، والحرب .

وهذه الخطة تمثل قاعدة للأمة تلجأ إليها في الشورى . فالخطة تقوم على أساس من منهاج الله ومن الواقع الذي تمر به الأمة . فتكون الخطة إذن قانونا تطبيقيا يعين الأمة في مشورتها ، وفي ممارستها لمنهاج الله عامة .

فيصبح للأمة إذن عقيدتها ودينها - منهاج الله - يحكمها كلها ، كبيرها وصغيرها ، وفي كل شئونها . ولها كذلك نهجها الذي تضعه على أساس منهاج الله وعلى ضوء الواقع ، وهذا النهج الذي تضعه الأمة من خلال جهد بشري مؤمن ، ينمو ويتطور ، ويتسع ، مع الممارسة ، مع الأيام ، ليغطي حاجة الأمة المتجددة ، على أسس ربانية .

وسنرى مع متابعة البحث أهمية هذا النهج لخطورته ، في ميدان الشورى .



البــاب الثالث

قواعـد وأسـس عامـة

الفصل الأول
قواعد عامة

لقد سبق أن ذكرنا أن الشورى في الإسلام لاينحصر فهمها من الآيات والأحاديث التي وردت فيها لفظة «الشورى» أو مشتقاتها بنصها فحسب، ولكنها تتكامل وتتناسق مع سائر قواعد الإسلام، وتترابط مع مختلف أسسه ارتباط عقيدة ومنهاج. بحيث يتعذر أو يستحيل تطبيق الشورى - كما يراها الإسلام - بدون توافر قواعد الإسلام وأسسه الأخرى.

وجميع قواعد الإسلام ترتبط بالشورى كما ذكرنا ارتباط تناسق وتكامل. إلا أن هناك بعض القواعد ترتبط ارتباطاً مباشراً.

فالشورى في أبسط تصور لها هي تبادل الرأي بين مجموعة من الناس في أمر من الأمور، أو هي صورة من صور النصيحة وشكل من أشكال التعاون. فهي بذلك ترتبط بموضوع النصيحة والرأي في الإسلام. ثم إنها تحتاج إلى اتخاذ قرار، وتتعلق بموقف ولي الأمر أو الإمام أو الحاكم، فهي من هنا تتعلق بالسمع والطاعة وميادين تطبيقهما، وهكذا. ولقد سبق تعريف الشورى في «التمهيد» في الصفحة (٣٢، ٣٣) من هذا الكتاب.

لذلك سنبحث في هذا الكتاب مجموعة من الموضوعات التي نرى أن لها أثراً مباشراً في موضوع الشورى وعلاقة قوية في مجال تطبيقها.

وهذه الموضوعات جميعها - وفي الحقيقة غيرها كذلك - تقوم على أسس عامة وقواعد هامة من الإسلام. وحتى لاتتكرر هذه القواعد والأسس مع كل موضوع فإننا نعرضها هنا، ونحن نعني بعرضها أنها هي الأساس الذي تقوم عليه الدراسة المقبلة والأبحاث القادمة.

القاعدة الأولى : صدق الإيمان :

وهي سلامة القلب وصدق الإيمان ، فإذا صح إيمان القلب صح مايخرج من هذا القلب . فسلامة الإيمان أساس لكل عمل ظاهر أو عمل خفي . ولايستطيع الناس أن يحكموا على مافي قلوب عباد الله إلا بالأمور الظاهرة ، وعلى قدر دلالتها ، فيتركون الأمر لله وحده ، فهو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . إننا نعرض هذه الحقيقة لأنها أساس لكل عمل ولكل جهد ولكل فكر . إننا نعرضها هنا لخطورتها وأهميتها في ميدان التطبيق في واقع الحياة ، حيث تتحرك الرغبات ، وتهيج المصالح ، وتعصف الأهواء ، حتى لايبقى من سلطان يقوى على كبحها ، إلا الإيمان بالله رب العالمين . فإن فقد هذا الإيمان ، فلن ينفع بعده أي سلطان ، ولن يفيد أي جهد ، إننا نعرض هذه الحقيقة للتذكير ، ونحن نعلم أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء . نسأل الله العفو والعافية والتثبيت على الحق . ونعرض هذه القاعدة العظيمة لأنها محور التربية وأساس التنشئة لكل جيل ، ولأنها محك الأعمال ومقياس الإنجاز لكل جهد ، نعرضها دون أن نقصد أبداً عزلها عن سائر قواعد الإسلام .

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

«إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لايعلمهن كثير من الناس . فمن اتّقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه . ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » . (رواه الخمسة)[1]

---

(١) صحيح البخاري : كتاب البيوع (٣٤) باب الحلال بين .. (٣) ج٣ ص٤ . صحيح مسلم كتاب المساقاة (٢٢) باب أخذ الحلال ... (٢٠) حديث (١٥٩٩/ ١٠٧) ج٣ ص ١٢١٩ .
سنن أبي دواد كتاب البيوع والإجازات (١٧) باب اجتناب الشبهات (٣) حديث رقم (٣٠٢٩) ج٣ ص ٦٢٣ . الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي . كتاب البيوع (١٢) باب ماجاء في ترك الشبهات (١) حديث رقم (١٢٠٥) ج٣ ص ٥١١ . سنن ابن ماجه . أبواب الفتن (٣١) . باب الوقوف عند الشبهات (١٤) حديث رقم (٤٠٣٢) ج٢ ص ٣٧٥ . واللفظ لمسلم .

فصلاح القلب وسلامته بالإيمان تصلح الأعمال ، وتقوم على قواعد سليمة . والشورى ، وسائر مايتعلق بها كذلك تحتاج إلى سلامة الإيمان وصحة القلب ، حتى تستقيم وتصلح ، وتستقر على قواعد الإسلام . والنصيحة والرأي والسمع والطاعة ، كلها تحتاج إلى سلامة الإيمان وصحة القلب المؤمن . والشورى كذلك تقوم على هذا كله .

والقاعدة الثانية : النية

ألا وهي النية والإخلاص والتجرد . وهي نابعة من القاعدة الأولى ، مبنية عليها . فلا تصدق نية ولايصح تجرد إذا خلا القلب من الإيمان بالله سبحانه وتعالى . ولانعني بالنية تمتمة شفاه وترديد كلمات . إنها إيمان ووعي وشعور وبصيرة ، إنها الحبل الذي يربط بين العقيدة والعمل وبين الشعور والتنفيذ .

عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :« **إنما الأعمال بالنيّة وإنما لكل امرىء مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ماهاجر إليه** .

(رواه الشيخان)[1] .

والنية هي التي تحرك القوى الكامنة في المؤمن ، وتهبه الوعي والإدراك ، وتطرح عنه الغفلة والجهل ، فيقبل على عمله ، أو يلقي كلمته وهو يعي مايعمل وما يقول ، ولِمَ يعمل ولِمَ يقول .

وهذه النية ليست أي نية . إنّها نية واضحة محددة . إنها التوجه إلى الله سبحانه وتعالى بالعمل والإخلاص فيه لوجهه الكريم . إنها الطهارة من الشرك والتحرر من الأنانية والأهواء ، إنها تربية النفس والقلب وهو يستحضر التوجه إلى الله . إنها إعداد طاقة الإنسان وتوجيهها في خط مستقيم من الصدق والطاعة . إنها مدرسة واسعة ممتدة . إنها مدرسة كاملة تصاحب المؤمن في كل حركاته وسكناته ، في قيامه وقعوده في غضبه ورضاه .

---

(١) سبق تخريجه ص ٤٣ .

فحين تدور الشورى ، أو تقوم نصيحة ، أو يُعطي رأي ، أو يمارس سمع وطاعة حين يحدث هذا لن يكون على أساس الإسلام إذا لم تصدق النية على النحو الذي عرضناه . فبدونها تثور أهواء وتصطدم مصالح ، وتهيج شهوات . والنية على النحو الذي ذكرناه ، تصطحب معها سائر قواعد الإسلام : إنها تصطحب محاسبة النفس ومغالبة الهوى ، ومراجعة العلم واستذكار الآيات والأحاديث . ومن هنا كانت النية أساس العمل ومصدر خيره وبركته ، وسبب قبوله عند الله سبحانه وتعالى : «**إنما الأعمال بالنيّة**» .

والقاعدة الثالثة : العلم

وهي العلم ! العلم **بمنهاج الله قرآنا وسنة ولغة عربيّة**، والعلم بالواقع وميدان التطبيق . ولا يصبح العلمُ علماً ، مهما نما وغزر ، إذا لم يكن قائماً على القاعدتين السابقتين : **الإيمان وصحة القلب ، والنية وإخلاصها**. بدونهما يضطرب العلم أو لايكون علماً ، أو تنزع النفس بدونهما إلى التأويل والتحريف، وتولج بالفتنة والفساد ، وسنستعرض أطرافاً أخرى من هذه القاعدة في الفصول المقبلة .

والقاعدة الرابعة : الممارسة الإيمانية

وهي الممارسة والخبرة ، والتجربة والمران . وهي سنة الله في هذه الحياة الدنيا ، وذلك أن الإنسان يحتاج إلى تدريب على هذا الأمر أو ذاك والممارسة أهم أبواب التدريب ، فيها ينمو الإيمان بإذن الله وينمو العلم وتنمو الكفاءة والقدرة . والمسلم الذي يعتزل الحياة لايستطيع أن يمارس إيمانه في مختلف الميادين ، فقد ينقص إيمانه أو يضيق علمه ، وتضمر تصوراته وتذبل قدراته ، وينحصر عطاؤه وينضب بذله .

والآيات والأحاديث التي تدعو المؤمن إلى العمل الصالح في مختلف الساحات والميادين ، والتي تدعوه لأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، والتي تدعوه إلى مجاهدة النفس ومغالبة الهوى ، والتي تدعو المؤمنين إلى التعاون

على البر والتقوى ، والتي تدعو مع هذا كله إلى الصبر في كل الحالات ، إن هذه الآيات والأحاديث أوسع من أن نعرضها في هذه العجالة هنا . ولكنها بينة واضحة على أهمية الممارسة العملية والتطبيق العملي في واقع الحياة . وهذه الممارسة لن تعطي الخير الذي يرجى منها ، إذا لم تكن قائمة على القواعد السابقة كلها : صدق الإيمان . صدق النية . صدق العلم .

فبدونها تضطرب الممارسة وتفقد خيرها ، وتضيع بركتها ، أو تتحول إلى فتنة وفساد .

ولاغنى عن هذه الممارسة الإيمانية الواعية ، الممارسة الواضحة ، المبنية على أسس واضحة . لاغنى عن هذه الممارسة حتى لاتظل قواعد الإسلام شعارات ورايات مجردة من العمل والتطبيق ، وحتى لاتظل قواعد الإسلام مجرد شعارات تدغدغ العواطف وتهز المشاعر ولاتحل مشكلة أو تتصدى لقضية . لابد من الممارسة الإيمانية .

وفي الحديث المرفوع عن ابن عمر :

«المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لايخالط الناس ولا يصبر على أذاهم» . (رواه أحمد والترمذي وابن ماجه)[1].

وأي مخالطة يقصدها الحديث ؟ إنّها المخالطة التي يرسمها منهاج الله ، إنها المخالطة المبنية على الإيمان والعلم . إنها ليست المخالطة المبنية على فساد النيات واصطدام الأهواء .

ومنهاج الله ميسر للذكر ، لمن يسره الله له ، لمن عزم وتوكل على الله ونهض إلى مسئوليته وأمانته . ومنهاج الله يبين ميادين الممارسة ووسائلها ، ويبين نهجها

---

(١) الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي : كتاب صفة القيامة (٨٥) . باب (٥٥) حديث رقم (٢٥٠٧) عن يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب النبي ﷺ . وسنن ابن ماجه : أبواب الفتن (٣١). باب الصبر على البلاء (٢٣) . حديث رقم (٤٠٨١) عن ابن عمر . الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد: كتاب المجالس وآدابها باب ماجاء في العلة والإختلاط بالناس ج١٩ ص ١٧٠ . عن ابن عمر .

وأهدافها . فهو يُعَلِّم المؤمن كيف يمارس إيمانه مع نفسه ، مع ربه ، مع أهله وولده مع أقربائه وأرحامه ، مع إخوانه وأمته ، مع الكافر والمنافق ، مع أهل الكتاب، في كل ميدان ، في الوظيفة ، في التجارة ، في العلوم ، في السياسة ، في العمل والفراغ ، في كل خلجة ونبضة ، إنه صحبة العمر وملازمة حياة .

والممارسة هي ممارسة إيمان وعقيدة ، في كل هذه الميادين . في كل ميدان يطرقه المؤمن ، حين يصاحبه إيمانه ، وتصاحبه عقيدته ، مع كل هذا الامتداد .

إنها ليست ممارسة جزئية لجانب واحد من الإيمان . أو في ميدان دون ميدان آخر . فمن الناس من قد يمارس الصلاة مثلا مع حركاتها ، أو يمارس سائر الشعائر من صيام وحج ، حتى إذا خرج من الصلاة ، أو انتهى من الصيام ، أو أدى الحج ، نزل ميدان الحياة العملية ، فمارس فيها الأعراف والعادات ، وترك قواعد الإسلام ، وممارسة الإيمان . ويصبح الإنسان في هذه الحالة يقوم بممارستين متباينتين : ممارسة الشعائر والعبادات ، وممارسة الأعراف والعادات ، لايبالي كم تحمل هذه من الإيمان وكم ترتبط بالإسلام .

وربما تولد هذه الممارسة وتلك ، تصوراتها الخاصة في نفس الإنسان ، حتى يصبح في داخله – وهو يشعر أو لايشعر – تصورات وخصائص متضاربة متباينة، تتصارع في داخله صراعاً عنيفاً ، وتصطدم فيما بينها اصطداماً مدمراً . ويظل هذا الصراع يدور في نفسه وكيانه حتى يحطم شخصيته ويستهلك قدراته ويميت مواهبه ، ويستنفد طاقته . فهذه هي الشخصية الواهية المضطربة ، والنفسية الحائرة المترددة ، والروح المظلمة المستسلمة . فإذا تقدم رجل على هذه الحالة إلى الشورى والنصيحة والرأي ، فلن يكون عطاؤه إلا نتيجة هذا الصراع المدمر ، والاضطراب القاتل ، والهوان المميت فأي شورى تفيد، وأي رأي ينفع .

أما الممارسة المتكاملة الشاملة ، فإنها تجعل الشعائر وسائر العبادات ممتدة مع المؤمن في حياته كلها . فإذا هو على نور وبينة . وإذا هو متوازن المواقف على

صراط مستقيم ، لاحيرة ولاتردد ، ولاهوان ولا ضياع . يرد قضاياه كلها إلى إيمانه وعلمه ، إلى منهاج الله ، فيشعر من خلال هذا الرد بالثقة والطمأنينة والقوة واليقين ، والتواضع واللين . كيف لا؟! وهو معه منهاج الله ينير له الطريق ويحدد له الموقف .

وليس هذا شأن العلماء والأئمة والعظماء وحدهم فحسب ، إنما هو شأن المؤمن ، كل مؤمن ، صدق مع ربه ، وأخذ قدر وسعه وطاقته ، وأعطى على قدر ذلك ، ومارس في حدوده . ذلك لأن كل إنسان هو راع وهو مسئول عن رعيته ، محاسب عليها .فلكل مؤمن إذن دائرة وميدان لايجوز له أن يمارس فيها إلا إيمانه ومنهاج ربه . وهو مسئول ومحاسب ضمن هذه الدائرة والميدان ، وضمن حدود مسئوليته وأمانته . وأي دائرة مهما ضاقت فإنها تمتد إلى أوسع من الشعائر والعبادات فللناس حاجات وأعمال ، حتى العبد فإنه راع وهو مسئول عن مال سيده .وتقوم هذه الرعاية ، وتتحدد هذه الدائرة وتتسع مع هذا المؤمن أو ذاك على أسس واضحة :

- على قدر إيمانه .
- على قدر وسعه وطاقته
- على قدر علمه .
- على قدر مسئوليته وأمانته .

وهذه الممارسة المتوازنة الشاملة ، الممارسة المؤمنة المتكاملة ، تجعل المؤمن على صراط مستقيم :

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الشورى: ١٥]

هذه هي الممارسة المتوازنة المتكاملة : «واستقم كما أمرت »

إنها ممارسة لاتتبع الهوى ، ولا العادات والأعراف ، إلا ما أباحه الإسلام . إنها تتبع منهاج الله الذي أنزل من السماء : «**ولاتتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ...**» ونتيجة هذه الممارسة هي العدل، العدل بينهم . وأساس العدل وميزانه منهاج الله. «**الله ربنا وربكم**» . وحينئذ تنقطع الحجة ، ويتوقف اللجاج والمراء ، فالقضية هي قضية عمل لاجدال : «**لنا أعمالنا ولكم أعمالكم**» ... هي قضية ممارسة وتطبيق ، وجهد وبذل ومعاناة وصبر ، فالله سبحانه وتعالى سيجمع الخلق ويحكم بينهم !

وتأتي هذه الآية الكريمة في سورة الشورى ، لتقرر هذه القواعد، أساساً لكل عمل ، وأساساً للشورى .

وهذا الشمول في الممارسة والتطبيق ، يتكرر في سور وآيات أخريات ففي سورة الأنعام :

﴿ **قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)** ﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣]

هذا هو الشمول في ميدان الإيمان والممارسة ، ميدان العقيدة والتطبيق : «**قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين**» . هكذا ارتبطت الشعائر كلها مع الحياة ارتباط إيمان وعقيدة لا انفكاك له ، وامتدت مع هذا الارتباط حتى الموت ، حتى الدار الآخرة . إنه الشمول ، إنه الاستقامة التي لاعوج فيها ، ولا انحراف فيها . إنه أمر الله رب العالمين .

وهذه الممارسة الشاملة المستقيمة العادلة ، هي ممارسة متوازنة ، لاطغيان معها. إنها في رعاية الله وتحت مراقبته . وتصبح العبادة والصلاة قوة للممارسة من ناحية ، وباباً من أبوابها ، مرتبطة مع الحياة حيث يكون الخطأ والصواب ، وحيث تكون الحسنات والسيئات ، وحيث تكون الذكرى للذاكرين ، والصبر للصابرين ... «**إن الله لايضيع أجر المحسنين**» .

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

[هود: ١١٢ - ١١٥]

ذلك لأن هذه الاستقامة ، وهذه التوبة ، وهذه الموازنة في ممارسة الإيمان في واقع الحياة البشرية ، على شمولها وامتدادها ، تحميها الصلاة وتطهرها ، وتصونها وتنقيها ! إن هذه الممارسة على هذا النحو تحتاج إلى صبر : «فاصبر»، وإن الممارسة على هذا النحو إحسان : «فإن الله لايضيع أجر المحسنين » .

وهذه الموازنة في التطبيق تمنع العوج والانحراف ، وتحفظ العمل على نهج مستقيم إنها القصد والعدل .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «إن الدين يسر ولن يُشاد هذا الدين أحد إلا غلبه . فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة » . (رواه البخاري والنسائي)(١) .

ومن ملامح هذه الموازنة والقصد ، المداومة والمتابعة على العمل وإن قلَّ : عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سئل : «أي العمل أحب إلى الله » قال : «أدومه وإن قلَّ » . (رواه الشيخان)(٢) .

وانظر إلى رسول الله ﷺ يعلم أمته هذا الشمول وهذه الموازنة بين القصد والمداومة ، حين جاء نفر تقالّوا عبادة رسول الله ﷺ، فقال فيما يرويه عنه أنس

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الإيمان (٢) . باب (٢٨) . سنن النسائي . كتاب الإيمان وشرائعه (٤٧) . باب الدين يسر (٢٨) حديث رقم (٥٠٣٤) . واللفظ للبخاري .

(٢) صحيح البخاري . كتاب الإيمان (٢) باب (٣٢) . مسلم . صلاة المسافرين ... (٦) باب فضيلة العمل الدائم ... (٣٠) حديث رقم (٧٨٢/ ٢١٦ ، ٢١٨) .

رضي الله عنه : عن أنس عن النبي ﷺ قال : «**أما والله إنّي لأخشاكم وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني**» . (رواه البخاري و أحمد)(1)

مع هذه الممارسة الكريمة لمنهاج الله ، مع هذه الخصائص والسمات : شمول ، ومعرفة للحدود والقدرات ، وموازنة وقصد ، واستقامة وعدل ، ينهض المؤمن إلى ميادين العمل على مبادرة ذاتية تدفعه إليها كل حوافز الإيمان وبواعث التقوى ، فلا يُساق إليها سوقاً ، ولايُدفع إليها دفعاً . إن الأمر هو أمره ، والقضية قضيته ، وهو الذي سيحاسَب عن عمله ، وعن جده أو قصوره ، وإن أُمِرَ ، أو دُعي وطُلِبَ، فإنه : يجيب ويلبي على وعي وسمع ، وطاعة وإنابة .

وفي عمله هذا كله فإنه يصاحبه منهاج الله على قدر وسعه وطاقته ، وهو يعي واقعه ويفهم ميدانه ، وهو يخطط ويدرس ، ولايرتجل ولا يغفل وهو حذر وقاف لايعجل . وهو يتقن عمله ، وينمي طاقته وجهده ، ويطور نتاجه وعطاءه .

والقاعدة الخامسة : التزام الحدود والقدرات

وهو أن يعرف المؤمن نفسه وحدّه وقدرته . فلا يتجاوز ولايطغى فيؤذي أو يسيء في نصحه أو مشورته ، أو رأيه أو فتواه ، أو قيادته أو رياسته .

وكذلك أن يعرف غيره في أجواء الممارسة والعمل حتى يستطيع أن ينزل الناس منازلهم على تقوى وعدل ، دون حسد وتباغض ، ودون هوى أو طغيان .

وهنا نرى كيف ترتبط القاعدة مع سائر قواعد الإسلام ، إيماناً ونية ، وعلماً وخلقاً ، ارتباط تناسق وتكامل ، فلكي يعرف المؤمن حده ، عليه أن يعرف غيره وأن يعرف منازلهم . وحتى يمارس في واقع الحياة احترام الحدود ومنازل الناس ،

---

(1) صحيح البخاري : كتاب النكاح (٦٧) . باب (١) . الفتح الرباني : كتاب النية ... (٥٦) حديث رقم (٢٢) . ج ١٩ ص ١٧ .

يجب أن يغالب الهوى ، فلا يدفعه الحسد إلى مادفع إخوة يوسف ، ولا التباغض ولا التدابر ، إلى غير ذلك من قواعد الإسلام ونصوصه . ويظل المؤمن مدعواً لأن يعرف نفسه ، لأن يعرف طاقته ، لأن يعرف حده ، ومعرفته هذه بنفسه هي معرفة مرتبطة بالإيمان نابعة منه .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾
[الحشر: ١٩]

وحين يعرف المؤمن نفسه معرفة نابعة من الإيمان ، فإنه يعرف حده ويعرف الأمر الذي يعنيه ، والأمر الذي لايعنيه ، يعرف متى ينهض ، ومتى يقعد :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله : «**من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه** » . (رواه الترمذي)[1]

وينطلق المؤمن بهذا الحديث بكل إيجابية لايتهاون في واجب ، ولا يقصِّر عن مسؤولية تحت أعذار الكسل واللامبالاة والضياع، أوفي أجواء الجهل والهوى والهوان . فالمؤمن على أساس إيمانه وعلمه وممارسته ، يعرف مايعنيه وما لا يعنيه . فهو لايعنيه اللغو فهكذا أمره منهاج الله . وهو يترك الجدل والقيل والقال وكثرة السؤال ، فذلك كله لايعنيه . ولايفتي عن غير علم أو قدرة ، ولايبقى على جهله وعجزه دون عذر شرعي . إنه ينصح ويشير على قدر علمه وفقهه ، إنه ينهض لمسئوليته وأمانته ، ولايتجاوز فيؤذي ، ولايقصر فيهلك . ولايجري إلى رئاسة لايقوى عليها ، ولا إلى إمارة تشبع هواه ، ولايشبع أمانتها ، وهو يعف حتى يحجم ، وينهض حتى يقدم ، كما يعلمه منهاج الله وكما يدفعه إيمانه .

وهو لايتتبع عورات ، ولايكشف سوءات ، ولايؤذي حرمات ، بل يرعى صلات ، ويحفظ مجالس وأمانات ويصون أعراضاً وسمعات ، وهو يرد الأمر

---

(١) سنن الترمذي : كتاب الزهد (٣٧) باب (١١) . حديث رقم (٢٣١٧) . موطأ مالك : كتاب الجامع . حديث رقم (١٦٢٩) .

كله إلى منهاج الله ، إلى الله ورسوله ، وإلى أولي الأمر حتى يعلمه الذين يستنبطونه منهم .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [النساء: ٨٢، ٨٣]

إنه الربط المتين في هذه الآيات الكريمة : بين تدبر منهاج الله وبين موقف المؤمن حين يأتيه الأمر من الخوف أو الأمن . وكأن الموقف الذي تعرضه الآية الكريمة «**أذاعوا به ...**» ، هو موقف من لم يتدبر القرآن ، وأما الذين يتدبرونه حق التدبر ، فهم يردّونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر ، بعد أن عرفوا حدودهم وطاقاتهم .

وهذه القواعد الخمس نراها أساساً من أسس الشورى المؤمنة ، والنصيحة الخالصة ، والرأي الصادق . ولذلك عرضناها مجتمعة هنا . وقد نشير إليها أو إلى بعضها في الأبحاث المقبلة إشارة تذكير وتثبيت ، وذلك حتى نبين أن الشورى في الإسلام نظام متكامل يقوم على قواعد ربانية متناسقة ، وأن هذه القواعد هي التي يحتاجها المسلمون اليوم لإقامة الشورى في حياتهم العامة وفي حياتهم السياسية . هي التي تحتاج إلى أن نجاهد أنفسنا حتى تنهض وتقوم في حياة الأمة كلها .

الفصل الثاني

النصيحة

وفي اللغة : نصح بمعنى خلص وصدق .

يقال نصحت توبته أي خلصت من شوائب العزم على الرجوع . والتوبة النصوح أي التوبة الصادقة .

ويقال نصح قلبه أي خلا من الغش .

ويقال نصح الشيء أي أخلصه.

ونصح فلاناً أو نصح له أي أرشده إلى مافيه صلاحه .

ونصح له الود ونصح له الشورى .

والنصح إخلاص المشورة .

ومن هذا العرض ، نجد كيف يستخدم الإسلام ألفاظاً كريمة ذات مدلول كريم ، حين تفشل المناهج الأخرى في إيجاد مثل هذه الكلمات فهذه كلمة نابعة من طبيعة هذا الدين ، منسجمة مع وسائله وأساليبه ، محققة لغاياته وأهدافه .

والفكرة المادية أو المنهج المادي ، يستخدم لفظة «النقد والنقد الذاتي » . وهذه اللفظة نابعة كذلك من نهجها المادي الخاص ، المادي الجاف والمبتور الصلة بالنفس ، بالصدق ، بالإخلاص . إنها لفظة تحمل معها أمواج الأهواء ، وعواصف الرغبات ، واصطدام المصالح ، حتى لتكاد تحس ذلك بجرسها ونغمها : النقد والنقد الذاتي . وأما في الإسلام فإنه النصح والصدق والإخلاص . إنه التناصح المتبادل بين الجماعة المؤمنة في أجواء الإيمان . وإن الجرس هنا والنغمة الحلوة ، لتوحي بكل مدلولاتها الكريمة وظلالها الحلوة المنداة.

١ - منزلة النصيحة وقواعدها :

فالنصيحة هي جوهر التعامل في الإسلام ، وهي سمة من سمات الإيمان في مختلف ميادين التعامل ، وهي جوهر النية الخالصة ، والكلمة المؤمنة ، والعمل الصالح . فهي جوهر الشورى .

وللنصيحة منزلة عظيمة في منهاج الله منذ أن بعث الله الرسل والأنبياء إلى عباده . ووصف القرآن الكريم مهمة الأنبياء بالنصيحة .

فنوح عليه السلام يقول لقومه :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٢) ﴾ [الأعراف: ٦٢]

وهود عليه السلام :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) ﴾ [الأعراف: ٦٨]

وصالح عليه السلام :

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) ﴾ [الأعراف: ٧٩]

وشعيب عليه السلام

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) ﴾ [الأعراف: ٩٣]

وهود عليه السلام أيضاً :

﴿ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) ﴾ [هود: ٣٤]

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى النصح إحساناً من الذين حبسهم العذر عن غزوة تبوك :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾ [التوبة: ٩١]

وأول ماتعلمه من هذه الآيات الكريمة أن النصح ليس كلمة تخرج من الأفواه على تراخ أو لامبالاة . إنه جهد صادق ،وبذل ، ومعاناة ، وتضحية ، إنه جهاد المسئولية وعطاء الأمانة وثمرة الصدق . إنّ النصح عمل عظيم ، إنه النية والكلمة والعمل . فأنبياء الله حين نصحوا لأقوامهم ، كانوا يوفون الأمانة ، ويؤدّون الرسالة ، ويتحملون من أجل ذلك الشيء العظيم .

وأردنا أن نوضح هذه الصورة بهذه المناسبة ، حتى ننفي من أذهان بعض الناس أن الشورى هي مجالس استرخاء وجدال ، أو كلمة تلقى أو حديث يدار فحسب. إن الشورى نية وكلمة وعمل . إنها جهد يتوجه العبد المؤمن به إلى ربه ، فإذا خلت الشورى من النصح ، فقدت معناها وجوهرها . وبكلمة موجزة : إنها عبادة .

وإن المسيئين ، حين يريدون أن يزينوا عملهم للناس ليخدعوهم به ، فإنهم يصبغونه بالنصح لأنها كلمة تدخل القلب ، فتبعث على الطمأنينة . فهؤلاء أبناء يعقوب عليه السلام ، حين أرادوا أن يمكروا بأخيهم يوسف ، قالوا لأبيهم :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١]

وإبليس حين مكر بآدم وزوجه قال لإقناعهما :

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف: ٢١]

ويظل النصح على إشراقه ، ونوره ، لايفسده قول المفسدين ، ولا قول إبليس . فكثيراً مايختفي الشر تحت شعارات الخير والإحسان ، وكثيراً مايرفع الظالمون شعارات العدل والإيمان . ولكن هذا كله لايضر الخير ، ولا العدل ولا

الإيمان بشيء بإذن الله في أمة رفعت الغفلة عنها ، وأزاحت الضلال عن مسيرتها. ولذلك تظل كلمة النصح سمة النية الصادقة ، والكلمة الطيبة والعمل الصالح .

وحين جاء مؤمن آل فرعون إلى موسى عليه السلام ، يشير عليه بالخروج من مصر لينجو بنفسه مما يكادُ له من آل فرعون ، قال :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القصص: ٢٠]

وتضيف لنا هذه الآية الكريمة ظلالاً جديدة وتأكيداً على مافي النصح من نية وعزيمة وجهد . فلقد جاء رجل من أقصى المدينة يسعى .. وهذا التعبير القرآني «**من أقصا المدينة ...** » يوحى بأنه جاء من مسافة بعيدة . وما جاء إلا وهو يحمل صدق النية والعزيمة والتصميم . وكذلك كلمة «**يسعى**» توحي بظلال الجهد والعمل الجاد . وجاء الرجل بنيته الصادقة ، وعزيمته القوية ، وجهده وجدّه ، ليشير على موسى عليه السلام . ولما أشار عليه بالرأي ، أشار بوضوح وبيان : «**إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك** » . فلم يعط كلاما مبهماً ، ولم يراء مراءاة تافهة ، ولم يضع الأمر في طيات المجاملة والجدل والمراء . وإنما أبان وأوضح ، ثم ختم قوله بعد ذلك بالرأي والمشورة : «**فاخرج إني لك من الناصحين** » وجاءت مشورته كذلك واضحة بينه تحمل كل معاني الصدق والود ، والحنان والإخلاص: «**إني لك من الناصحين** » .

والكلام يحمل في طياته إمارات النيّة ولمسات العاطفة . ويكفي أن نقارن هذا التعبير في هذا الموقف الصادق مع تعبير أبناء يعقوب عليه السلام ، حتى يشعر القلب المؤمن بالفارق العظيم بين المكر والصدق ، مع تقارب اللفظ وتشابه الحروف. ففي كلام إخوة يوسف مايوحي بعدم الثقة ، واضطراب العاطفة . وتزعزع المودة : «**قالوا ياأبانا مالك لاتأمنا على يوسف** » . وهناك مع مؤمن آل

فرعون تعبير يوحي بالعاطفة النقية ، والحرص الأكيد ، واللهفة إلى نجاة موسى ، بأسلوب واضح ، بين ، موجز ، في موقف جاد خطير . فهذه مشورة ، وتلك مشورة ! وختمت كل واحدة منهما بتعبير يكاد يشبه الآخر ، فهنا : «**إني لك من الناصحين** » ، وهناك : «**وإنا له لناصحون** » . ولكن التعبير يأتي في سياق كل من الآيتين ليصور الموقف كله نية وفكراً وعملاً .

لقد رأينا في الآيات السابقة كيف عرض لنا القرآن الكريم نماذج من مواقف النصح ، نماذج من مواقف النصح الجاد الصادق ، ونماذج من مكر يختفي خلف شعار النصح . ورأينا كذلك منزلة النصح في دين الله وأهميتها في ميدان التطبيق في شتى الميادين ومن أهمها المشورة والرأي .

وجاءت السنة الكريمة تضيف إلى الصورة المشرقة للنصيحة إشراقاً ، حتى تتكامل الصورة وتتناسق في المنهاج الرباني قرآناً وسنة .

عن أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « **الدين النصيحة** » قلنا : «**لمن يارسول الله** » قال : **لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** » . (رواه الخمسة)[1]

وجاء هذا الحديث الشريف الجامع يضع الصورة في إطارها الكامل متناسقة مع القرآن الكريم .

ولقد جعل الحديث الشريف للنصيحة منزلة عظيمة جداً . وبيّن هذه المنزلة العظيمة في أسلوب التعبير : «**الدين النصيحة** » ، فإذا ذهبت النصيحة من عمل ، وتجردت منه ، هان العمل وهبط ، حتى لايكاد يكون من الدين . إنه أسلوب الرسول ﷺ ، أسلوبه البين الرائع ، وهو يبلغ دين الله . ثم بين الحديث أركان النصيحة وأسسها حتى لاتكاد تصلح بدونها .

---

(١) صحيح البخاري . كتاب الإيمان (٢) . صحيح مسلم : كتاب الإيمان (١) باب (٢٣) حديث رقم (٥٥/ ٩٥) . الترمذي : كتاب البر والصلة (٢٨) . باب النصيحة (١٧) حديث رقم (١٩٢٦)، سنن النسائي . كتاب البيعة (٣٩) . باب النصيحة للإمام (٣١) حديث (٤١٩٧ - ٤٢٠٠) .

النصيحة لله : وذلك صحة الإيمان بالله وصدق العبادة وإخلاص النية .

والنصيحة لكتابه : ذلك بالتصديق به ، والتزام دراسته وتدبره وتلاوته والعمل به .

والنصيحة لرسوله : ذلك بالتصديق برسالته والتمسك بسنته والعمل بها .

والنصيحة لأئمة المسلمين : وذلك بإعانتهم على الحق ، وطاعتهم في غير معصية وتقديم المشورة الصادقة ، المشورة التي معها النية والجهد ، وتقويم اعوجاجهم بالمعروف ، وبأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

والنصيحة لعامة المسلمين : وذلك بإرشادهم إلى مافيه صلاح دينهم ودنياهم ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وإعطاء المشورة المخلصة ، المشورة المصحوبة بالنية والجهد .

ولقد جمع الحديث الشريف ، قواعد التعامل ، وأسس الشورى . ولذلك أجمع علماء الإسلام على أنه مدار الإسلام . وهو يطرق أبواب العمل كلها وميادين التطبيق ويضع أسسها ووسائلها ، بهذا الأسلوب البين العظيم . إنها النبوة .

والأسس التي عرضها الحديث الشريف هي : صحة الإيمان ، العلم بمنهاج الله قرآنا وسنة . العمل بذلك في ميدان التطبيق في واقع الحياة سواء مع الناس عامة ، أم العلماء والحكام وسائر القادة والرؤساء في الجماعة المؤمنة . فجمع بذلك ميادين العمل كلها . وسمة ذلك كله : الصدق والإخلاص .

وأسلوبه : اتباع الدين . فالدين النصيحة . ولا يصلح أسلوب يأباه الدين . فأسلوب النصيحة خلق ، وعلم ، وفطنة.

وهدفه : عبادة الله . فهدفه هو هدف هذا الدين . وذلك أن يتعبد الإنسان بعمله ويتقرب إلى الله طمعاً في جنته ومرضاته . فالدين النصيحة .

فالنص الأول من الحديث : «الدين النصيحة » ، جاء عاماً يحدد الهدف والأسلوب والسمات . ثم تلا ذلك نص آخر وضع القواعد والأسس بشكل جامع محكم . وارتبط ذلك كله في هذا الحديث ارتباط عقيدة ونهج .

ويبين لنا هذا الحديث العظيم ، أن تطبيق النصيحة في واقع الحياة يحتاج إلى تلك الأسس التي لاغنى عنها . فإذا غابت هذه الأسس ، غابت النصيحة واضطربت صورتها ، وذهب نورها وإشراقها فمن ضعف إيمانه ، أو طغى جهله بكتاب الله وسنة رسوله لايستطيع أن يؤدي أمانة النصيحة على الوجه الأكمل . فإن أداءها يحتاج إلى صدق في الإيمان ، وصدق في العلم بمنهاج الله .

ثم إنها ممارسة عملية ، وجهد واقعي . إنها أمر يمس أئمة المسلمين وعامتهم . إنها جهد عظيم لمن أراد أن يوفي هذه الأمانة ، إنها حركة لاسكون معها ولاجمود ، إنها شعور وارتباط وحب وتآخ ، لاعزلة وانقطاع . إنها وعي وإدراك، لاغفلة وجهل . إنها قوة لاضعف ، إنها رأي ومشاركة ، لااستهتار وانفراد .

إن أداء هذه الأمانة المعروضة في هذا الحديث يحتاج إلى سائر قواعد هذا الدين : يحتاج إلى أخلاق الإسلام ، إلى إخوة الإسلام ، إلى أمة الإسلام .

وإن النماذج التي عرضناها من كتاب الله تكشف لنا قوة الترابط والتناسق بين هذا الحديث الشريف وبين آيات الله في القرآن الكريم . إنها تكشف لنا منزلة النصيحة ، حين كانت هي مهمة الأنبياء ، وحين كانت مهمة مؤمن آل فرعون . ونرى كذلك كيف اضطربت الصورة واختلت النصيحة عندما ضعف الإيمان وغلب المكر الجهل . ثم إنها تكشف لنا ارتباط الشورى بالنصيحة في دين الله : ارتباط لغة ، وارتباط قرآن وارتباط السنة . إنه ارتباط عقيدة متكاملة ومنهاج رباني .

وإذا كان الحديث السابق يجعل الأمانة العظيمة في عنق كل مؤمن ،

ويجعلها واجباً حتى كأنها الدين كله ، فإن الحديث التالي يوضح لنا هذه الأمانة وهي في عنق ولي الأمر يرعى أمور المسلمين :

دخل عبيد الله بن زياد (أمير البصرة من قبل معاوية) على معقل بين يسار (وهو صحابي) يعوده فقال : أحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ فقال : **«مامن والٍ يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة »** . رواه الشيخان)(١)

فهذه المسئولية والأمانة عامة على كل المسلمين وممتدة إلى كل ميادين العمل، وكل أنشطة الحياة :

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : **« ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . فالإمام الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته . والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسئولة عنهم ، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »** . (رواه الشيخان والترمذي) (٢).

ففي هذا الجو ، وهذا المجتمع الذي تحترم فيه المسئولية ، وتصان فيه الحقوق ، وتقوم فيه الرعاية ، كل ذلك على أساس من النصيحة ، من الصدق والإخلاص، في هذا المجتمع تدور الشورى بين العناصر المؤمنة . وكل يدرك مسئوليته وأمانته. فهو راع وهو مسئول ، وكل صادق ناصح . فإذا أشار بالرأي أو أدلى بالنصيحة ، فإن الأسس السابقة كلها متوافرة فعالة ، تعطي ثمرتها في الرأي الذي يقدم ، والأسلوب الذي يتبع ،والغاية التي تطلب . وإذا ضاعت المسئولية

---

(١) البخاري : كتاب الأحكام (٩٣) .باب (٨) . مسلم كتاب الإيمان (١) باب (٦٣) حديث رقم (٢٢٩) . واللفظ للبخاري .

(٢) البخاري : كتاب الأحكام (٩٣) . باب (١) مسلم : كتاب الإمارة (٣٣) باب (٥) حديث رقم (١٨٢٩/ ٢٠) الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي : كتاب الجهاد (٢٤) . باب (٢٧) . حديث رقم (١٧٠٥) .

وغابت النصيحة .. فأين الشورى بعدئذ . عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

«ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه . فالمعصوم من عصم الله » (رواه البخاري) [1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

«إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق ، إن نسي ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره ، وإن ذكر لم يعنه » (رواه أبو دواد بإسناد جيد على شرط مسلم) [2].

٢ - آداب النصيحة :

وللنصيحة آداب . فالمسلم الذي يعطي النصيحة لأخيه المسلم يجب أن يتحلى بجميع الأخلاق الإسلامية . ولكننا نبرز هنا أهمها ونشير في الفصل التالي في بحث الرأي إلى نقاط أخرى .

فالنقطة الأولى : عدم تتبع العورات :

أن لاتكون النصيحة من باب تتبع العورات ، وفضح الناس والإساءة إليهم. عن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«إنك إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم . أو كدت تفسدهم »** . (رواه أبو داود بسند صحيح) [3]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

«المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يسلمه . ومن كان في حاجة أخيه كان الله

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الأحكام (٩٣) . باب بطانة الإمام ... (٤٢) .
(٢) سنن أبي داود : كتاب الخراج والإمارة والفيء (١٤) باب (٤) حديث رقم (٢٩٣٢) .
(٣) سنن أبي دود : كتاب الأدب (٣٥) . باب (٤٤) . حديث رقم (٤٨٨٨) .

في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » . (رواه مسلم)[1]

فالنصيحة عمل طيب ، وهدفها طيب ، فوسيلتها تكون إذن طيبة . فلا تتحول إلى شر وإيذاء ، وفضيحة وإفساد ، وتجريح وإساءة .

والنقطة الثانية : الأسلوب الطيب :

هي أن ينهج المؤمن في نصيحته أطيب الأساليب وأحسنها ، حتى يستطيع تحقيق أهداف النصيحة . فيقوم أسلوبه على صدق الإخوة في الله ، وسلامة الود ، حتى تكون تعاوناً على البر والتقوى . فيختار لذلك القول الحسن ، واللفظة المناسبة ، يبني ذلك على فهمه لظروفه ونفسيته . فيختار **الكلمة المناسبة والأسلوب المناسب والمكان المناسب والظرف المناسب** والوقت المناسب حتى يحقق هدف النصيحة .

فلا يفتح إذا باباً للشيطان بمحاولته النصيحة ، حتى لايتمكن الشيطان من إفساد الود ، وتقطيع حبال الأخوة ، فتفقد بذلك هدفها وغاياتها . فينصح حيناً على انفراد ، وينصح حيناً بأسلوب غير مباشر ولكنه عام ، وينصح حيناً جماعة دون أن يعين فرداً ، وهكذا .

والنقطة الثالثة : التثبُّت واليقين :

هي أن يبني نصيحته على التثبت واليقين ، لا على الظن والتخمين ، حتى لاتتحول النصيحة إلى اتهام وافتراء ، وظلم واعتداء ، وسيلي في باب الرأي تفصيل ذلك .

---

(١) صحيح مسلم : كتاب البر والصلة والآداب (٤٥) . باب تحريم الظلم (١٥) . حديث رقم (٢٥٨٠/٥٨) .

والنقطة الرابعة : أن تقوم على العلم والخبرة :

هي أن يطمئن إلى أن نصيحته صادرة من منهاج الله ، قائمة على العلم والمعرفة ، مبنية على الخبرة والتجربة . فلا ينصح بناء على تصوراته البشرية المتفلّته، أو المنعزلة عن منهاج الله . فلا ينصح المسلم أخاه المسلم إلا بعد أن يرد الأمر إلى منهاج الله رداً مبنياً على صدق الإيمان ، وقوة العلم ، وسلامة الممارسة، وسنعود إلى هذه النقطة كذلك في فصل «الرأي» مع الأدلة إن شاء الله.

والنقطة الخامسة : الموازنة :

هي أن يقوم المسلم بالموازنة والتقدير لمختلف القواعد التي سبق ذكرها ، أن يقوم بالموازنة المبنية على صدق الإيمان وقوة العلم بمنهاج الله ، وفهم الواقع والظروف حتى يعرف متى يستر على أخيه وكيف يكون الستر ، ومتى يعلن وكيف يكون العلن ، وحتى يعرف كيف يختار القول الحسن ، ومتى يرغّب ، ومتى يرهّب . إن هذه الموازنة تحتاج إلى قدرة ومران ، وخبرة وتجربة ، على أن يكون هذا كله مبنياً على الإيمان والعلم بمنهاج الله ، وفهم الواقع والظروف .

ونعيد ونكرر هنا حين نذكر هذه القضايا والنقاط ، فلا نعني أنها هي وحدها المقصودة فحسب ، فإن قواعد الإسلام ومنهاجه تعمل كلها معاً في آن واحد في الموقف الواحد . فلا يستغني عن قاعدة خلقية مثلاً ، ويعمل بقاعدة أخرى ، فالأخلاق الإسلامية المبنية على منهاج الله تعمل معاً في تكامل وتناسق في حياة المؤمن . فهو لايكذب ، ولايغدر ، ولايغتاب ولاينم ، ولايظن ، ولايفتري ، ولايظلم ، وهكذا تمضي جميع القواعد متآلفة متناسقة . وليست القواعد الخلقية وحدها ، ولكنها هي مع غيرها من الأحكام والتشريعات ، والحدود والعبادات والطاعات ، هذه كلها مما ذكرناه ومما لم نذكره هنا ، تتداخل فيما بينها وتترابط ، وتتناسق في منهاج الله قرآنا وسنة ، لتعمل على أساس من هذا التناسق والترابط والتكامل في واقع الحياة .

---

(١) سنن الترمذي : كتاب الزهد (٣٧) باب (١١) . حديث رقم (٢٣١٧) . موطأ مالك : كتاب الجامع . حديث رقم (١٦٢٩) .

والنقطة السادسة : الاقتصاد في النصيحة :

وذلك بالقدر الذي يحقق هدفها وييسر البلوغ إليه . فإن كثرة النصح قد تسبب الملل والسأم ، وقد تتحول إلى تتبع عورات والهبوط إلى مزالق . وقد تعطي بعض النفوس كبراً ، وبعضها حمية جاهلية . إنها قد تؤذي النفس ، فتفقد النصيحة خيرها ، إذا لم تأت بالقدر المناسب .

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

[النحل: ١٢٥]

وعن أبي وائل شقيق بن سلمة قال :

«كان عبدالله رضي الله عنه يذكرنا في كل خميس . فقال له رجل : ياأبا عبد الرحمن : لوددت أن تذكرنا كل يوم قال : أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم ، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا بها مخالفة السآمة علينا » . (متفق عليه)[(١)]

وعن أبي اليقظان عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال :سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مَئِنَّة (علامة دالة) من فقهه . فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة » .** (رواه مسلم)[(٢)]

والنقطة السابعة مسئولية الطرفين :

وهي أن النصيحة عمل متبادل بين طرفين ، يتحمل كل طرف مسئوليته وأمانته . ويخضع كل طرف لمنهاج الله وقواعده . فحين ندعو الناصح إلى الرفق

---

(١) صحيح البخاري : كتاب العلم (٣) . باب من جعل لأهل العمل ... (٣) صحيح مسلم . كتاب المنافقين ... (٥٠) . باب الاقتصاد في الموعظة (١٩) . حديث رقم (٢٨٢١) . واللفظ للبخاري .

(٢)صحيح مسلم : كتاب الجمعة (٧) . باب تخفيف الصلاة والخطبة (١٣) حديث رقم (٨٦٩/٤٧) .

واللين ، واختيار أحسن الأساليب ، فإننا ندعو الذي ينصح إلى حسن الاستماع وإلى التواضع .

فالنصيحة لها جانبان أو صورتان . ولكل جانب أو صورة آدابها وقواعدها وأسسها . والجانب الثاني أو الصورة الثانية ، وهي أن يقبل المسلم نصيحة أخيه المسلم ، وأن يستمع إليها ، وقد تكونُ هذه على بعض الناس أشق وأصعب . وقد لايجد كثير من الناس حرجاً حين يتولون أمر النصيحة أو الموعظة ، بل قد تجد من يرغب في ذلك . إلا أن الكثيرين قد يجدون الحرج كل الحرج ، والصعوبة كل الصعوبة في قبول النصيحة أو الاستماع إليها . وعلى الرغم من عظمة الآداب التي وضعها الإسلام لتخفيف هذا الحرج أو إزالته ، إلا أن بعض النفوس قد تظل تعاني من ذلك . وهذا هو دور مدرسة الإسلام ومدرسة الدعوة ، حين تتعهد هذه النفوس على هذه القاعدة أو تلك ، تعهداً منهجياً مدروساً وتربية عملية تقوم على نهج وتخطيط ، حين تنشأ النفوس المؤمنة وقد استقامت فطرتها على قواعد هذا الدين ، إيماناً وعلماً وعملاً . ويكفي الذي يتقبل النصيحة ويستمع القول ويتبع أحسنه ، نقول : يكفيه خيراً أن يكون ممن وصفهم الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم .

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]

وحين تعرض هذه القواعد والأسس في هذا البحث ، فلا نعرضها على سبيل الحصر ، وإنما نعرضها لنبرزها في جو معين ، دون تعطيل غيرها ، أو لتأكيدها خشية الغفلة عنها ، أو للتذكير بها خشية نسيانها ، على أن تمضي هذه القواعد وتلك متكاملة مترابطة في منهاج الله ، لتعمل على نسق متوازن في واقع البشرية .

وهذه القواعد ، وهذا التناصح ، نجده في حياة الجماعة المؤمنة ، في مدرسة النبوة ، في سيرة الرسول وأصحابه وتلامذته . نجد هناك ممارسة تمضي ، وقواعد تستقر ، وجهداً يبذل في منهاج تربوي عظيم في أسسه ، وأساليبه ووسائله ، في غاياته وأهدافه ، ومع كثرة الأمثلة الحية والنماذج القوية ، إلا أننا نورد هنا واحداً ، وسنرى في الفصول المقبلة أمثلة أخرى :

عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال : **بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت يرحمك الله . فرماني الناس بأبصارهم . فقلت وا ثكل أُمِّيَاه ماشأنكم تنظرون إلي ، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت فلما صلى رسول الله ﷺ - فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولابعده أحسن تعليماً منه فوالله ماكهرني[1] ولا ضربني ولا شتمني - قال : إن هذه الصلاة لايصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن . أو كما قال رسول الله ﷺ . قلت يارسول الله ، إني حديث عهد بجاهلية وقد جاء الله بالإسلام وإن منا رجالا يأتون الكهان . قال : «فلا تأتهم» قلت «ومنا رجال يتطيرون» قال : «ذاك شيء يجدونه في صدورهم ، فلا يصدنهم»** (رواه مسلم)[2].

(١) ماكهرني : ما نهرني.
(٢) صحيح مسلم : كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥) باب تحريم اللام .. (٧) حديث رقم (٥٣٧/٣٣) .

الفصــل الثالــث
الـــرأي

لعل كثيراً من الناس يظنون أن إلقاء الكلمة ، أو إعطاء الرأي ، هو من أقل الأعمال جهدا ، وأدناها مشقة . لعل الكثيرين يظنون أن الأمر لايتعدى كلمة تلقى بصورة عفوية ، لايتحرك معها إيمان وعلم ، ولا جهد وهمة ، ولا مسئولية وأمانة . لعلهم يظنّون أنها كلمة تقال وتمضي ، ثم يدير الرجل ظهره في طريق اللامبالاة ، في طريق الكسل والاسترخاء ، وهو لايدري أثر الكلمة .

ولكن منهاج الله لايرى الأمر هكذا ، ولا يعد جنوده هذا الإعداد ، ولا يرضى منهم هذا الأسلوب . إنه يرى ويقرر أن للكلمة والرأي أسساً وقواعد ، وأن لهما أثراً في الدنيا والآخرة .

وجميع القواعد التي عرضناها في مقدمة الباب : سلامة القلب ، وصدق الإيمان ، وصدق النية والإخلاص والعلم ، والخبرة ومعرفة المؤمن لحدوده وطاقته، كل ذلك هو من أسس الكلمة والرأي . وكذلك ماورد في فصل «النصيحة» متصل بدور الكلمة مرتبط بأثر الرأي .

ونعرض هنا قضايا جديدة ، أو نؤكد قضايا سبق عرضها ، لأهمية الموضوع ولاستكمال صورته ، ولارتباط الشورى والنصيحة والرأي ارتباطاً وثيقاً ، سواء أكانت من حيث النظرية أم التطبيق ، ذلك كله ، ليس بصورة مستقلة معزولة عن سائر المنهاج الرباني ، لكن صورة متناسقة متكاملة .

ولنعرض الآن بعضاً من قواعد المنهاج الرباني في هذا الصدد حتى نستكمل الصورة قدر المستطاع .

١ - القاعدة الأولى : الكلمة ومنزلتها :

والقاعدة الأولى هي منزلة الكلمة في منهاج الله، منزلتها كما يعرضها القرآن ، وتعرضها السنة من خلال عقيدة الإيمان ونهج الرحمن .

ولنتدبر بعض الآيات الكريمة :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٧]

تعرض لنا هذه الآيات الكريمة من سورة إبراهيم منزلة الكلمة الطيبة ، ومنزلة الكلمة الخبيثة ، أثر الكلمة الطيبة وأثر الكلمة الخبيثة ، وارتباط الكلمة الطيبة ، وارتباط الكلمة الخبيثة ، وأهل هذه ، وأهل تلك . تعرض الآيات هذه الصور في جو من المقارنة لتترك أثرها في النفوس والقلوب . وهذا العرض يأتي على صورة تشبيه ومثال ، تشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، والكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة. والشجرة الطيبة مرتبطة بالتربة مغروسة فيها تأخذ منها الماء وبعض أسباب النماء . هذه الكلمة الطيبة ، هي وحدها لها هذا الارتباط وهذا الغرس .

أما الكلمة الخبيثة فهي مبتورة الصلة عن العقيدة ، قلقة مضطربة ، لا قرار لها لا تستطيع أن تأخذ من أسباب القوة والنماء ، ولا أن تمتد في مجتمع الإيمان . والكلمة الطيبة ثابتة عميقة الجذور وخيرها ممتد واسع، ممتد حتى يبلغ السماء . وأما الكلمة الخبيثة فلا قرار لها ، ولا جذور لها ، ولا امتداد لها . والله سبحانه وتعالى يثبت عباده المؤمنين بالكلمة الطيبة وبالقول الثابت، فيجعله على قول ثابت لايتزعزع في الحياة الدنيا وفي الآخرة . وأساس هذا القول الثابت ومحوره هو التوحيد .

والكلمة الطيبة صفة من صفات الإيمان وسمة من سماته :

﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) ﴾ [الحج: ٢٤]

والقول الحسن كان أمر الله إلى بني إسرائيل ومن ميثاقهم الذي أخذه الله عليهم :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) ﴾ [البقرة: ٨٣]

وحين يخاطب المؤمنون السفهاء، وحين يمنعونهم من تبذير الأموال فإنهم يقولون لهم قولاً معروفاً :

﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٥) ﴾ [النساء: ٥]

وكذلك لأولي القربى واليتامى والمساكين حين يحضرون القسمة :

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٨) ﴾ [النساء: ٨]

والقول السديد هو الذي يخرج عن تقوى وعلم وتبين :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٩) ﴾ [النساء: ٩]

والقول السديد هو أمر الله إلى عباده المؤمنين :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) ﴾ [الأحزاب: ٧٠]

وللوالدين قول كريم :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) ﴾ [الإسراء: ٢٣]

وحين لاتستطيع عون أولي القربى والمساكين وابن السبيل فقل لهم قولاً ميسوراً :

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا (٢٨) ﴾ [الإسراء: ٢٨]

والله لايحب الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم :

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ ﴾ [النساء: ١٤٨]

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٣]

هذا هو أثر الكلمة الطيبة ، وهذا هو أدب الكلمة في الإسلام . وفي السنة الشريفة صورة رائعة لأثر الكلام والقول :

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قلت يارسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار . قال : **«لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه . تعبد الله لاتشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جُنّة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل . ثم تلا : «تتجافى جنوبهم عن المضاجع .. حتى بلغ يعملون» . ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه . قلت : بلى يارسول الله . قال رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد . ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله . قلت : بلى يارسول الله . فأخذ بلسانه وقال : كف عنك هذا . قلت : يانبي الله ، وإنا لمؤاخذون مما نتكلم به . فقال : ثكلتك أمك يامعاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم ، أوقال مناخرهم ، إلا حصائد ألسنتهم»** .

(رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح)(١)

ففي هذا الحديث الشريف عرض رسول الله ﷺ الأعمال التي تدخل الجنة وتباعد عن النار ، ثم عرض أبواب الخير . ثم عرض رأس الأمر وعموده وذروة سنامه . وبعد هذا كله قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله . كف عنك هذا . فالكلمة

---

(١) سنن الترمذي : كتاب الإيمان (٤١) .باب ماجاء في حرمة الصلاة (٨) . حديث رقم (٢٦١٦).

التي تخرج من اللسان هي ملاك الأمر كله ، إنها ملاك مايدخل الجنة ويبعد عن النار ، وملاك رأس الأمر وعموده وذروة سنامه .

ما أعظم أثر الكلمة في الإسلام .

وكان لابد من بيان منزلة الكلمة وأثرها وأدبها حين نتحدث عن الرأي في الإسلام . لابد أن نعرف هذه الصورة الرائعة التي يعرضها لنا القرآن الكريم ، وتعرضها السنة النبوية لنرى الكلمة وهي مرتبطة بالقلب والإيمان ، مرتبطة بالأمانة والمسئولية ، مرتبطة بالنية والهدف ، بالعمل والجهد ، موصولة باليقين والتبيّن ، مرتبطة بالعقيدة كلها ، نظيفة طاهرة نقية ، معزولة عن الكذب والنميمة وسوء الظن . عندئذ يكون للكلمة أثرها المبارك في الشورى . إنها تحيي الشورى وتجمع طاقاتها .

أما الكلمة التي تخرج من الأفواه مبتوتة الصلة بالإيمان ، منقطعة عن الأمانة والمسئولية ، معزولة عن الجهد الصادق والعمل الصالح . إن الكلمة التي تخرج من الأفواه على هذا النحو هي كلمة الكفر أو الجهل والضياع ، إنها كلمة تميت الشورى وتبددها .

انظر كيف يصف لنا القرآن الكريم صورة من صور هذا التفلت والضياع .

﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ ﴾ [الكهف: ٥]

وصورة أخرى :

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ۝١٥ ﴾ [النور: ١٥]

وهذا التعبير القرآني : «**تخرج من أفواههم** »، ليشعر بهذا الأسلوب الرباني أن الكلمة مصدرها أفواههم ليس لهم بها علم ، فلم ترتبط بالقلوب والعلم والتبين.

ويوجه الإسلام عباد الله المؤمنين ليقولوا الكلمة الطيبة، وليقولوا الخير، ويربط ذلك بالإيمان بالله واليوم الآخر، كما رأينا في الأمثلة السابقة. ويأتي الحديث الشريف التالي ليؤكد هذه المعاني:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت**». (رواه مسلم).[1]

هكذا يربي الإسلام جنوده وأبناءه! حتى الكلمة التي تتحرك بها الشفاه يجب أن ترتبط بالقلب، بالعقيدة، بالإيمان، يجب أن ترتبط بالأمانة وبالمسئولية وبالشعور الحقيقي بهما، يجب أن ترتبط بالعلم والمعرفة.

حين يتقدم المؤمن برأيه في قضية من القضايا، تتحرك فيه هذه الأمور كلها، تحركها عقيدته وإيمانه، حتى يدفع القلب الكلمة إلى الشفاه، كما يدفع الدم إلى الجسم، يدفع الكلمة الطيبة النقية الواعية، كما يدفع الدم الطاهر النقي. إن الإيمان وإن النية هما محركا ذلك كله. إنهما يحركان الشورى، بالكلمة الطيّبة والرأي الصادق.

ولا يجهر المؤمن بالسوء إلا من ظلم:

﴿**لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا** ﴿١٤٨﴾﴾ [النساء: ١٤٨]

ولكن هذا الجهر بالسوء من القول ليس متفلتاً من العقيدة. إنه محدد بحدودها مرتبط بأصولها. فهو إما دعوة وابتهال إلى الله، أو لجوء إليه في دعوة على ظالم: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من دعا على من ظلمه فقد انتصر**». (رواه البزار)

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان (١) باب الحث على إكرام الضيف.. (١٩) حديث رقم (٤٨/ ٧٧).

وهو إما شكوى إلى صديق أو أمير . وإما رد بقدر الظلم دون زيادة . ولكن العفو يظل أقرب للتقوى . ففي سورة النساء ترد الآية التالية بعد الآية السابق عرضها :

﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾

[النساء: ١٤٩]

وفي سورة الشورى كذلك آيات بينات فلنتدبرها :

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٠ - ٤٣]

وهكذا تتضح الصورة شيئاً فشيئاً، حتى إذا عاش المؤمن مع منهاج الله متكاملاً ، زدات الصورة إشراقاً ، حتى يحمل المؤمن هذا الزاد العظيم في واقع حياته فيطبق منهاج الله مع كل حادثة ، وفي كل ظرف ، وفي كل ميدان .

ويظل تطبيقه لمنهاج الله محور العبادة في الحياة الدنيا . ويظل مرتبطاً بالإيمان والعلم والقدرة .

وكان الرسول ﷺ يعلم صحابته هذه القواعد مع مضي الأحداث ، ووقائع الأمور ، فيزداد بذلك العلم ويرتفع الإيمان .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : **إن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله عنه والنبي ﷺ جالس . فجعل النبي يعجب ويبتسم ، فلما أكثر رد عليه بعض قوله ، فغضب النبي ﷺ وقام فلحقه أبو بكر رضي الله عنه فقال : يارسول الله إنه كان يشتمني وأنت جالس ، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت ، قال : «إنه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض أقواله حضر الشيطان فلم أكن**

لأقعد مع الشيطان » .ثم قال : «ياأبا بكر ، ثلاث كلهن حق : مامن عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله إلا أعزه الله تعالى بها ونصره ، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة ، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عز وجل بها قلة » . (رواه أحمد).[1]

ما أعظم هذا الدرس ، وما أروع تناسقه مع آيات الله وسائر الأحاديث في منهاج الله . إنها لصورة رائعة حقاً لمنهاج الله وهو في ميدان التعليم والتطبيق ، وفي ميدان الواقع .

إلا أننا يجب أن نوضح بهذه المناسبة أن العفو ، كما تعرضه لنا الآيات والأحاديث ، لايعني ذلاً وإفساداً ، ولا يعني إضاعة الحقوق وتمزيق المسئوليات ، ولا يعني الاستخذاء لعدو ، أو إضاعة ديار ، أو التفريط بثروات أمة . إن هذا كله ليس من العفو . إنها أبواب أخرى في الحياة البشرية ، تدعو المؤمن إلى النهوض والجهاد ، والعمل والبناء والبذل والعطاء حتى بالمال والنفس .

ومن هنا تتضح لنا أهمية التكامل والتناسق في منهاج الله ، وهو يعرض منهاجاً لكل ميادين الحياة ، وكل القدرات وكل الشعوب وكل الأزمان . فالمؤمن حين يعي منهاج ربه ، ويدرك أنه مسئول عن تطبيقه في كل أمور حياته صغيرها وكبيرها ، حين يعي هذا ويؤمن به ، ويعي أن عليه أن يدرك الواقع ويفهمه ، وأن يعرف الناس ويخبرهم ، وأن يفهم المجتمع ويعطي ويأخذ ، حين يعي هذا كله ويبذل الجهد الصادق له ، يصبح عندئذ قادراً على أن يدرك متى يطبق العفو ، أو الانتصار، متى يغضب ومتى ينهض ، إنها تظل أبداً مسؤوليته هو وأمانته هو، دون تعارض ، أو تعطيل لمسؤولية الآخرين ولكن كل إنسان سيحاسب فرداً بين يدي الله ، لايغني أحد عن أحد شيئا . وكل على قدر استطاعته ، وعلى قدر مسئوليته ، دون أن تهبط القدرات وتضيع المسئوليات ، في طيات الأعذار والاسترخاء والشهوات والأهواء .

---

(١) الفتح الرباني : ترتيب مسند الإمام أحمد : كتاب الأخلاق الحسنة . باب في العفو عن المظالم .ج١٩ص ٨٢ . حديث رقم (٣٣) .

وقد تكون الكلمة رأياً ، وقد تكون نصيحة ، وقد تكون شورى من خلال الرأي والنصيحة ، وقد تكون علماً أو غير ذلك .

وقد تكون الكلمة نثراً أو شعراً . ومن هذا الكلام كله كلمة طيبة أو كلمة خبيثة كما عرضنا ، وقد تكون حسناً ، وقد تكون سوءاً كما ذكرنا ، وكذلك قد تكون الكلمة مفيدة أو لغواً .

والمؤمن يبتعد عن اللغو وينأى عنه . واللغو قد يؤدي إلى الجدل والمراء ، والفتنة والشر .

﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٢]

والكلمة الطيبة في كل مجالاتها وميادينها ، نثراً كانت أو شعراً ، هي كلمة القوة لا كلمة الضعف ، وهي عدة وسلاح للفرد والأمة والجماعة .

حتى الكلمة الشاعرة ، حين تكون طيبة وحقاً، هي جهاد وقوة ، وهي مضاء وعزيمة ، عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ: إن الله عز وجل قد أنزل في الشعراء ماأنزل . فقال رسول الله ﷺ : «**إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأن ماترمونهم به نضح النبل** » . (رواه أحمد)(١)

عن عدي بن ثابت عن البراء أن النبي ﷺ قال لحسان :

«**أهجهم - أوقال - هاجهم وجبريل معك** » (رواه البخاري)(٢)

والقرآن الكريم ، حين كان يتنزل وهو يصحح خطأ ألم به بعضهم ، أو ضعفاً بدر من فئة ، كان يتناول حتى الكلمة ليصححها . فعندما قال أبو بكر رضي الله عنه أثناء حديث الإفك معرضاً بمسطح بن أثاثة ، وحلف أن لاينفع مسطحاً بنافعة أبداً ، وهو ابن خالته ، وكان مسكيناً ، ومن المهاجرين في سبيل الله ، فزلّ

(١) الفتح الرباني : ترتيب مسند الإمام أحمد : كتاب آفات اللسان . ماجاء في الشعر الممدوح . حديث رقم (٧٦) ج١٩ ص ٢٧٥ .
(٢) صحيح البخاري : كتاب الأدب (٧٨) . باب (٩١) .

زلة تاب الله عليه منها، وضُرب الحد عليها، فنزل قوله تعالى :

﴿ وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾ [النور: ٢٢]

هذه هي القاعدة الأولى التي نرى أن منهاج الله قرآنا وسنة قد عرضها، لتكون أساس الرأي في الإسلام ومنطلقه، ومن أسس الشورى .

٢ - والقاعدة الثانية : رد الرأي والأمر إلى منهاج الله .

والقاعدة الثانية أن يرد رأيه وأمره إلى منهاج الله وأن يقيسه عليه، ليكون منهاج الله هو الحكم في صلاح الرأي أو فساده، في صوابه أو خطئه، في فائدته أو ضرره . ولنذكر قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) ﴾ [الحجرات: ١]

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهم في هذه الآية : «**لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة**» .

ولقد مضت معنا الآية الكريمة في سورة النساء :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) ﴾ [النساء: ٥٩]

وسبق أن عرضنا كذلك آيات أخريات وأحاديث تؤكد هذه القاعدة وتوضحها . فيصبح منهاج الله هو وحده مايصدر عنه المؤمن في قوله أو عمله، وما يعود إليه في أموره كلها .

ولايستطيع المسلم أن يلتزم بهذه القاعدة إلا إذا توافر له علم بمنهاج الله .

حتى يستطيع رد الأمور إليه ، وإذا توافر له التدريب والنشأة ، وأعطيت له فرص الخبرة والمران ، ومارس الأمر ممارسة عملية ، كما مارسه أصحاب رسول الله ﷺ في مدرسة النبوة . وهذه هي من مهام مدرسة الإسلام ومدرسة الدعوة . وهذه القاعدة هي أساس الشورى وقاعدة تربّي الأجيال المؤمنة عليها تربية تتعهد النفوس والقلوب والعقول .

٣ - والقاعدة الثالثة : إعطاء الرأي عن بينة وفهم للموضوع والقضية :

فعلى المؤمن أن يتحدث عما يعلم ، وأن يدرس القضية التي يعرضها أو يعرض رأيه فيها ، يدرسها قدر جهده واستطاعته ، يدرس ظروفها وأحوالها ، حتى يعطي رأيه عن بينة وعلم ، لا عن ظن وتخمين. والظن والتخمين مصدر من مصادر الجدل، وسبب من أسباب إضاعة الوقت وقتل الجهد ، وتبديد الطاقات وإثارة الخلافات المؤذية المفرقة ، والقيل والقال ، وتحريك للأهواء والمصالح . وباختصار فإن الظن باب من أبواب الشيطان ولكنه باب واسع .

ومعرفة الموضوع وفهمه قبل التحدث فيه أو إعطاء الرأي ، أمر يحتاج إلى جد وإلى سعي وإلى عمل . فهو باب من أبواب الأمانة والمسئولية ، وهو أمر مرتبط بالعقيدة والإيمان . فإن نظرة المؤمن لقضية تختلف عن نظرة المنافق أو الكافر ، وفهمه يختلف عن فهمه . فالمؤمن يفهم الأمور من خلال إيمانه وعقيدته، وعلمه بمنهاج الله ، حين يتوافر له العلم .

وفهم الموضوع أو القضية يحتاج إلى فهم ظروفها وواقعها . فلا تدرس القضية معزولة عن ظروفها وأسبابها . ومن هنا تبرز أهمية فهم الواقع الذي يتحرك فيه المؤمن ويدلي فيه برأيه . فهم الواقع البشري والظروف القائمة في مختلف ميادينها ومجالاتها المتعلقة بالقضية . وهذا يحتاج إلى الممارسة والمران ، والجهد والعطاء ، والخبرة والتجربة .

ولنتدبر آيات الله الكريمة في كتابه الكريم وأحاديث رسوله ﷺ :

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٦]

وقد ربطت هذه الآية الكريمة الإنسان بمسئوليته وأمانته ، بسمعه وبصره وفؤاده . فمن خلال سمعه وبصره وفؤاده يأتيه العلم بالقضية ، والعلم بظروفها ، والعلم بالواقع ، حين تكون العقيدة هي التي تحرك سمعه وبصره ، وهي التي تدفع نبضات القلب الواعي .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر: ٩]

فعمل العلماء يرتبط بعقيدتهم ، بإيمانهم بالله واليوم الآخر ، بالخوف من عذاب الله ، وبالرجاء في رحمة الله . ويصور لنا القرآن الكريم عمل الكافرين والمنافقين . إنه لا يقوم على العلم وإنما هم يتبعون أهواءهم .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية: ١٨]

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون: ٨]

فهكذا تخرج الكلمة من المؤمن يدفعها إيمانه ، ويحاسب عليها سمعه وبصره وفؤاده ، وهكذا تخرج الكلمة من الكافر والمنافق يدفعها هواه وجهله وضياعه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات: ١٢]

ونلاحظ في هذه الآية الكريمة الأمر باجتناب الكثير من الظن ، مع أن بعض

الظن إثم . فالاجتناب عام إلا حيث يبيح الإسلام ، والإثم هو في بعض الظن .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝ ﴾ [الحجرات: ٦، ٧]

والتبين باب من أبواب العلم ، يحتاج إلى أمانة وجهد ، ومسئولية وبذل . وعدم التبين باب من أبواب الظن والجهل ، فإما أن يصيب قوماً بجهالة ، وإما أن يكون كذباً ، ويورث فتنة وندامة على كل حال .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« ... **إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث** » . (متفق عليه) (١)

٤ - والقاعدة الرابعة : البيان والوضوح على رفق وأدب .

وهي حسن البيان والوضوح . فإذا تحدث المسلم أو أدلى برأيه ، فليكن كلامه بيناً واضحاً .

عن أنس رضي الله عنه : «**أن النبي ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم ثلاثاً**» (متفق عليه) (٢)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : «**كان كلام رسول الله فصلاً يفهمه كل من يسمعه** » (رواه أبو داود) (٣)

وكم يَحْدُث أن لايفهم السامع الرأي أو يسيء فهمه ، فيقوم بين الناس جدل وظن ، وإضاعة للجهد والقدرات .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الأدب (٧٨) . باب (٥٨) . صحيح مسلم . كتاب البر والصلة (٤٥) . باب تحريم الظن (٩) . من حديث رقم (٢٨/٢٥٦٣) . وهذا جزء من حديث أورده مسلم بروايات عدة ، والبخاري أوردها في أبواب متفرقة .

(٢) صحيح البخاري : كتاب العلم (٣) . باب (١٣٠) .

(٣) سنن أبي داود : كتاب الأدب (٣٥) باب الهدي في الكلام (٢١) حديث رقم (٤٨٣٩) .

والبيان موهبة يتفاوت الناس فيها . ولكن العزيمة والتدريب من ناحية ، والأخذ بسائر قواعد المنهاج الرباني أخذاً متكاملا ، من طمأنينة وصدق نية ، وقوة علم من ناحية أخرى ، هذا كله يساعد المواهب حتى تنمو وتزدهر ، والعيوب والأخطاء حتى تضمر وتنحسر . والتدريب المنهجي يخفف كثيراً من الضعف . أما حسن الإيمان وقوة العلم فتساعد المؤمن على أن يكون أكثر دقة ووضوحاً ، وأقدر على عرض فكرته ورأيه. ولن يتسنى له ذلك إذا كان رأيه غير واضح لنفسه هو .

وكما أن القواعد الخلقية تساعد على البيان والإيضاح ، فعدم الغضب، والحلم والأناة ، والإحسان والرفق ، هذه كلها تساعد على الوضوح وحسن العرض كذلك . وللبيان والوضوح آداب في الإسلام ، منها عدم التقعير في الكلام وعدم التشدق والتكلف :

عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «**هلك المتنطعون** » قالها ثلاثاً .

(رواه مسلم)[(١)]

والمتنطعون هم المبالغون في الأمور .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : **إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة** » .

(رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن غريب من هذا الوجه) .[(٢)]

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة ، الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون** » . (رواه الترمذي وقال حديث حسن)[(٣)]

---

(١) صحيح مسلم : كتاب العلم (٤٧) . باب هلك المتنطعون (٧) . حديث رقم (٢٦٧٠/ ٧) .
(٢) سنن أبي دواد : كتاب الأدب (٣٥) . باب (٩٤) حديث رقم (٥٠٠٥) . الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي : كتاب الأدب (٤٤) . باب (٧٢) . حديث رقم (٢٨٥٣) واللفظ للترمذي .
(٣) الترمذي : كتاب البر والصلة (٢٨) . باب (٧١) حديث (٢٠١٨) .

ومما يساعد على الوضوح في الكلمة والرأي ، هو أسلوب الكلام وبُعده عن الفحش والبذاءة ، وقربة إلى الرفق والحياء ، حتى تعطي أخاك الفرصة ليستمع إليك ويعي قولك ، دون أن تثير فيه أجواء الاضطراب والغضب ، فيدخل الشيطان فيفسد القول ويضيع معناه أو غايته .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء»** . (رواه الترمذي وقال حديث حسن)(١)

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«ماكان الفحش في شيء إلا شانه ، وما كان الحياء في شيء إلا زانه»** (رواه الترمذي بسند حسن)(٢)

٥ - والقاعدة الخامسة : الصمت والإنصات :

وهي أن تنصت لأخيك وهو يتكلم حتى تعي منه مايقول . فلا يقاطع المسلم أخاه أثناء الكلام ، ولايتداخل الكلام بعضه على بعض فيفسد الرأي وتضطرب الفكرة ، وتسوء المجالس ، وتفتح أبواب الفتنة والهوى والجدل والمراء .

عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ في حجة الوداع : **«ياجرير استنصت الناس»** أي مرهم بالصمت والإنصات . (رواه أحمد)(٣)

٦ - والقاعدة السادسة : الخصائص الخلقية :

وهي أن يخلو الكلام والرأي من الغيبة والنميمة ، والافتراء وإفشاء السر ، والظلم وسوء الظن بغير حجة شرعية . وأن يلتزم المسلم سائر القواعد الخلقية في حديثه حتى يكون أقرب للتقوى وأصدق في العطاء . والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة . وقد مر معنا كثير منها خلال هذا البحث .

---

(١) الترمذي : كتاب البر والصلة (٢٨) . باب (٤٨) . حديث (١٩٧٧) .
(٢) الترمذي : كتاب البر والصلة (٢٨) . باب (٤٧) . حديث رقم ١٩٧٤) .
(٣) الفتح الرباني : ج٢١ ص.ب ٢٢٠

٧ - والقاعدة السابعة : الأمن والطمأنينة :

فالإسلام يوفر للمسلم جو الطمأنينة والأمن ، حتى يعطي رأيه غير مقيد بالإرهاب والخوف ، والقلق والاضطراب . إن الأساس في الإسلام هو توافر جميع أسباب الأمن في حياة المسلم ذاته وفي حياة المجتمع الإسلامي .

وأساس هذا الأمن ، وقاعدة هذه الطمأنينة ، هي **الإيمان بالله سبحانه وتعالى**، ومراقبته وخشيته ، وصدق النية إليه والإخلاص له . هذا هو أساس الأمن . حتى إذا انهارت في ظرف من الظروف سائر أسباب الأمن ، وعم الظلم والطغيان والاستبداد ، وغابت الرحمة والعدالة ، حتى إذا انهارت سائر أسباب الأمن ، ظلت قاعدة الإيمان راسخة ثابتة لاتتزعزع ، ظلت قوية تدفع الكلمة ، وتدفع الرأي ، وتدفع العمل . أما إذا انهار الإيمان ، أو وهن الإخلاص ، فلا رأي بعد ذلك ، ولا حرية عندئذ ، ولا أمن ولا طمأنينة ، ولا شورى ، ولا تناصح . فإذا انهار الإيمان فلن يصلح شيء بعده أبداً .

ويعرض لنا القرآن الكريم أروع وأعظم مثل لهذه الطمأنينة في حياة الرسل والأنبياء . يعرضها ، وهم يقدمون الكلمة الصادقة ، والعمل الصادق وقد انهارت من حولهم سائر أسباب الحماية المادية والأمن المادي إلا الإيمان الراسخ .

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾
[الأنعام: ٨٠ - ٨٢]

فهذا إبراهيم عليه السلام ، حين حاجه قومه في جو من الظلم والإرهاب ، في جو انهارت فيه جميع أسباب الأمن المادية في مجتمعه من حوله ، وفي هذا

الجو المظلم المكفهر ، ظل الإيمان قوياً راسخاً عظيماً ، ظل سبباً كافياً وحبلاً متيناً . فمضت كلمة الحق ، ومضى الرأي الصادق ، لايصده شيء ولا يوهنه خوف .

وهذه الآيات الكريمة في سورة الأنعام تضع لنا القاعدة الضخمة العظيمة التي يعتمدها المؤمن في كل أطوار حياته ، وفي جميع ظروفه وأحواله .

وهكذا كانت حياة جميع الرسل عليهم السلام : موسى أمام فرعون وطغيانه ، ونوح وهود وصالح وشعيب أمام ظلم أقوامهم ، وعيسى عليه السلام وسائر الأنبياء .

ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء والرسل . كانت حياته المثل الأعلى في هذا الأمن ، وتلك الطمأنينة ، في كل لحظة وكل خطوة : في مكة أمام جنون مشركي قريش ، أمام ظلم أهله وأقربائه ، أمام التآمر والمكر لقتله ، وحين هجرته ، وهو في الغار ، وحين طارده سراقة ، وأمام مؤامرات اليهود في المدينة ، وفي جميع المعارك والغزوات ! فحياته ﷺ كانت المثل الرائع لهذه القاعدة العظيمة في كل خلجه .

هذه القاعدة لاغنى عنها في أي أمر في الإسلام ، ولاغناء عنها في أجواء الشورى والتناصح وحرية الرأي ، سواء أكانت في حياة الفرد المؤمن أم الجماعة المؤمنة . ولكن الإسلام ، كمنهاج رباني ، يضع سائر القواعد لتوفير الأمن والطمأنينة للكلمة الطاهرة النقية ، والرأي النظيف المؤمن ، والشورى الواعية التقية ، والنصيحة الصادقة المثمرة ، يضع الإسلام سائر القواعد قائمة على الإيمان والإخلاص لله سبحانه وتعالى . يضع هذه القواعد في جميع تشريعاته وأحكامه ، وفي جميع تكاليفه ونداءاته ، وفي جميع أوامره ونواهيه .

يضعها الإسلام حين يوفر للفرد المؤمن في ظل المجتمع الإسلامي ، حقوقا بينة عادلة ، وواجبات واضحة منصفة ، تتوازن هذه مع تلك . يضعها وهو يرعى الفرد منذ ولادته ، وفي جميع مراحل حياته . يضعها ، وهو ينظم المجتمع الإسلامي ، ويقيم قواعد الحكم وأصول السياسة ، ومناهج الاقتصاد ، ووسائل

التربية والبناء . يضعها ، وهو ينظم العلاقات كلها ، وينظم علاقات الأمة المسلمة مع سائر أمم الأرض ، في جميع الظروف والأحوال .

من خلال هذا المنهاج الرباني المتكامل ، تتوافر الطمأنينة ويقوم الأمن ، حين يسود هذا المنهاج بكامل أجزائه وقواعده . أما حين يطبق منه جزء ويترك جزء ، فإن الحرية الحقيقية تضطرب ، والأمن يتزعزع ، والطمأنينة تهتز .

والإسلام يدعو ويحض على حرية الرأي . يدعو إلى ذلك بقوة ورعاية حين يطالب أبناءه وجنوده أن لايكونوا إمعة :

عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : «**لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنّا وإن ظلموا ظلمنا . ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا** » . (رواه الترمذي وقال حسن غريب) .[1]

والإسلام يدعو إلى حرية الرأي حين يحمل كل جندي من جنوده مسئولية ، ويضع عليه واجبات ، ويجعل له حقوقاً ، في صورة متوازنة متناسقة تحدد الحدود لكل مسئولية. ونعيد هنا حديث رسول الله ﷺ الذي سبق ذكره للتأكيد :

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : «**ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهله ، وهو مسئول عنهم . والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم . والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته** » . (رواه الشيخان والترمذي)[1]

والإسلام يدعو إلى حرية الرأي حين يدعو المسلم إلى التدبر والتأمل والتفكير في نفسه ، وفي الأرض وفي السموات ، وفي آيات الله هنا وهناك ،

---

(١) الترمذي : كتاب البر والصلة (٢٨) . باب ماجاء في الإحسان والعفو (٦٣) . حديث رقم (٢٠٠٧) .

(٢) البخاري : كتاب الأحكام . ومسلم : كتاب الإمارة حديث ١٨٢٩ . والترمذي : كتاب الجهاد حديث ١٧٠٥ . وقد سبق ذكره في ص ١٤٥ .

وهو يحرك فيه التفكير وينمي فيه موهبته وطاقته، حتى تعمل عملها وتؤدي دورها في الحياة عبادة وطاعة.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾

[آل عمران: ١٩٠، ١٩١]

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٤٦]

وحين يجعل الإسلام قضية الإيمان قضية ذاتية، يتحمل كل إنسان مسئوليته فيها، وحين يدعو إليها القلب والفكر والسمع والبصر، حتى يقرر كل إنسان موقفه، ويتحمل نتيجة قراره هو بنفسه. حين يدعو الإسلام إلى ذلك كله. فإنه يضع القاعدة الرئيسية لحرية الرأي.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩]

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]

والإسلام يدعو إلى حرية الرأي، وهو ينمي المواهب والقدرات لتعمل في بناء الأمة، وتساهم في نصرة دين الله، وإعلاء كلمته.

والإسلام يدعو إلى حرية الرأي وهو يحطم جميع القيود التي تقتل الرأي وتميته. إنه يرعى نفس الإنسان وروحه، وخلقه وفكره، وجسمه وحياته، إنه

يزيل سيطرة الرغبات والأهواء ، ويخفف حدة الشهوة والحاجة ، حتى تظل هذه كلها في حدودها الطبيعية اللازمة لحياة الإنسان النظيفة المتوازنة . إنه يحرر الإنسان من جميع أشكال الشرك في حياته ، حتى تتحرر نفسه وتنطلق ، ويتحرر فكره ويعمل ، ويتحرر جسمه فينهض . ليكون عندئذ الإنسان المؤمن السوي . إنه الإنسان المؤمن الآمن ، والمسلم المطمئن ، والرجل المتزن ، والطاقة التي تعرف حدها فتقف عنه . إن هذا الإنسان يستطيع أن يمارس حرية الرأي بيسر وسهولة ، ونظافة وطهارة . بمثل هذه الحرّيّة الكريمة للرأي ، في جو الأمن والأمان ، والطمأنينة والثقة ، تقوم الشورى يحرسها رضاء الله وجهود المؤمنين .

٨- والقاعدة الثامنة : المسئولية :

فحرية الرأي ليست كلمات يلقيها أي إنسان ثم يتفلت من تبعات كلماته ونتائجها . ولكنها حرية للرأي تصاحبها مسئولية ومحاسبة عن الكلمة والرأي والجهد .

ولقد رأينا فيما سبق أمثلة على ذلك كثيرة . فالإسلام جعل كل فرد مسئولاً : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، وحين قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : «**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ...**» جعل في الوقت نفسه مسئولية نتيجة لهذا الموقف أو ذاك ، فمضت الآية لتقرر : «**إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ..**» .

وحين عرضنا القاعدة الأولى ، وهي منزلة الكلمة في الإسلام مر معنا حديث الرسول الذي جاء فيه :

«**... وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم ..**»

فحين أعطى الإسلام للرأي حرية ، جعل مع هذه الحرية تبعة ومسئولية .

وهذه المسئولية هامة وخطيرة . إنها مسئولية ممتدة في حياة الإنسان في الدنيا

وتمضي كذلك في الآخرة . إنها مسئولية عظيمة لايستطيع أن يقدرها حق قدرها إلا المؤمن الذي يخشى الله ويخاف عذابه .

وإننا نرى في حياة المسلمين اليوم هوان الكلمة وضياع المسئولية ، فينطلق الرأي من الجاهل ، والمستهتر واللاهي ، والغافل . ينطلق الرأي بدون أي شعور بالمسئولية ، حتى كان من الآراء ماأضاع دياراً ، وشرد أقواماً ، وقتل رجالاً ونساء وأطفالاً . وما تحرك ضمير ولا اهتزت مشاعر . ومضى المستهترون اللاهون يدفعون الرأي المريض ، والكلمة الجاهلة ، لايتوقعون حساباً ولاينتظرون عقاباً .

وإذا ظن أحد من الناس أنه أفلت من حساب في الدنيا ، فلن يستطيع أن يفلت من الحساب بين يدي الله يوم يقوم الأشهاد ، وما أسرع مايأتي الحساب في الدنيا أيضاً ، على غير توقع أو حسبان .

ومن هنا تبرز عظمة الإسلام وهو يبني حرية الرأي في الفرد المؤمن . والأمة المسلمة ، وهو يبني معها كذلك مشاعر المسئولية ، وخطورة الأمانة ، وشدة الحساب ، على صورة ممتدة من الحياة الدنيا إلى الآخرة حتى لايستطيع أحد أن يتفلت منها أبداً .

٩ - والقاعدة التاسعة : حدود حرية الرأي :

فقد جعل الإسلام للرأي حدوداً حتى لايتفلت في متاهات ، أو يتحول إلى فتنة أو ينقلب إلى إفساد . وهذه الحدود هي منهاج الله .

فلا رأي ولا حرية للرأي حين يعارض منهاج الله .

فلا حرية لرأي فاجر أو فاسق .

ولا حرية لرأي كافر أو مشرك .

ولا رأي لنائم مسترخ لاه لايعرف المسئولية .

ولا لرأي جاهل ..

ولا لرأي تدفعه الشهوة الملوثة .

ولا لرأي يدفعه الهوى المريض .

ولا لرأي مفسد يدفع إلى فتنة .

١٠ - والقاعدة العاشرة : ارتباط حرية الرأي بسائر الحريات :

فلا ينظر الإسلام إلى حرية الرأي كقضية معزولة عن سائر الحريات ، ولا يرى أنها يمكن أن تمارس ممارسة مستقلة مبتورة الصلة مع سائر أسس التحرر . فالإسلام الذي حرر الإنسان ، حرره كله ، حرر فيه روحه ، وعقله ، وجسمه وكيانه كله .

بهذه الخصائص تقوم الشورى على قواعد راسخة عميقة الجذور في حياة الأمة وارتبطت حرية الكلمة مع سائر الحريات التي أطلقها الإسلام من خلال المنهاج الرباني ، حيث تمارس في واقع الحياة ممارسة متكاملة متناسقة .

ومن هنا كانت قولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» .

إنها إذن حرية متوازنة متكاملة ، في إطار منهاج رباني متكامل ، ولاتطغى ناحية على ناحية ، ولا حرية على حرية .

وهي ليست حرية فرد واحد ، أو مجموعة من الأفراد ، ولا هي حرية طبقة متميزة دون سائر الفئات ، فالناس في ذلك سواسية كأسنان المشط ، ولا هي حرية تنبع من مركز اجتماعي خاص ، أو من سلطان ونفوذ ، أو من غنى وثروة ، إنها حرية تنبع من الإيمان والتقوى ، تنبع من عهد وميثاق مع الله سبحانه وتعالى ، تنبع من خلال منهاج رباني .

إنها حرية الإنسان وعزته من خلال عبوديته لربه وخالقه ، لرب العالمين رب السموات والأرض ، رب العرش العظيم .

ولننظر كيف كانت هذه القواعد تمارس في حياة صحابة رسول الله ﷺ مع رسولهم وقائدهم . لنرى كيف كان الرأي يدور ويطرح وكيف كان الرأي يمارس.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **إياكم والجلوس في الطرقات . قالوا يارسول الله مالنا بد من مجالسنا ، نتحدث فيها ، قال رسول الله ﷺ : «فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه » قالوا وما حقه ، قال «غض البصر وكف الأذى ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .** (رواه الشيخان) [1].

فلم يجد الصحابة حرجاً أن يعرضوا رأيهم وحاجتهم على رسول الله ﷺ ، وهو ينهاهم عن ذلك الأمر . ولقد عرضوا رأيهم مع بيان الأسباب والحاجة . وهنا كانت التربية في مدرسة النبوة تأخذ هذا الأسلوب الفذ : فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه ! فكانت بركة الرأي عظيمة حين شرح رسول الله ﷺ حق الطريق ، وأدّب صحابته بأدب الإسلام . إنها حقاً مدرسة عظيمة .

ولقد كان الصحابة يعودون إلى رسول الله ﷺ يسألونه في أمور دينهم ودنياهم فيسمع لهم ويرشدهم ويعلمهم . لايجدون في ذلك مشقة ولاحرجاً .

وكانوا يعطون الرأي لرسول الله ﷺ . وستمر معنا أمثلة نرى فيها جمال حرية الرأي وصدق ممارسته ، وكيف كان يعرف المسلمون منازل بعضهم بعضاً وحدود بعضهم بعضاً .

أخرج الشيخان عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن عبدالله بنِ أبي لما توفي جاء ابنه إلى النبي ﷺ فقال : «أعطني قميصك أكفنه فيه وصلِّ عليه ، واستغفر له فأعطاه قميصه وقال : «آذني أصلي عليه » فآذنه فلما أراد أن يصلي جذبه عمر فقال أليس الله نهاك أن تصلي على المنافقين فقال : أنا بين خيرتين ،

(١) البخاري : كتاب المظالم (٤٦) . باب (٢٢) . وكتاب الاستئذان (٧٩) باب (٢) . صحيح مسلم . كتاب اللباس (٣٧) . باب النهي عن الجلوس في الطرقات (٣٢) حديث رقم (٢١٢١/ ١١٤) . واللفظ لمسلم .

قال ﴿ **استغفر لهم أولا تستغفر لهم** ﴾ فصلى عليه فنزلت الآية من سورة التوبة بذلك .

﴿ **ولاتصل على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره** ﴾ (أخرجه الشيخان)[1]

ونرى هناك كيف أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدم رأيه لرسول الله ﷺ بأسلوب الاستفهام دون أن ينقص بذلك من وضوح المقصد ، مع بيان الحجة والبينة ، ونرى كيف أن رسول الله ﷺ لم يعنف عمر بن الخطاب وإنما استمع له ثم رد عليه بالحجة والبينة .

ويجعل الإسلام للرأي منزلة عالية ، حين يعرض لنا القرآن الكريم أدب النبوّة وهي تعرض رأياً جال في الفؤاد والفكر ، وهي تعرض رأياً أمام ربها ومولاها وخالقها .

ففي سورة القصص تعرض لنا الآيات قصة موسى عليه السلام ، وقد سار بأهله وآنس من جانب الطور ناراً ، فدفعته خطاه إليها يلتمس جذوة من النار . فناداه الله :

﴿ **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢)** ﴾ [القصص: ٣٠ - ٣٢]

في هذا الموقف العظيم يتلقى موسى من الله مهمته العظيمة : « **... إلى فرعون وملئه ...** » موقف يحمل كل معاني الجلال والرهبة . موسى النبيّ بين يدي ربه يتلقّى المهمة ، ويقلب أوجهها وعظمتها ، ويدرك خطورة الرسالة وأمانتها . فيتوجه إلى الله خاشعا متعبّداً ويقدّم خاطرة قلبه وإشراقة فؤاده :

---

(١) تفسير ابن كثير . ج(٢) ص (٣٧٨) .

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: ٣٣، ٣٤]

إنها خاطرة من استعد للمسئولية، وبادرة من أخذ يهيىء أمره لها، ليصدق في أمانتها. إنه يقدم رأيه في إنابة وخشوع، وسمع وطاعة، وعبودية كاملة لله رب العالمين.

أدب الكلمة ورأي الإيمان، وأمانة المسئولية وطاعة العبودية، كلها تنطلق في هذا الموقف الجليل من نبي الله موسى عليه السلام. وينزل الوحي الكريم ليعرض هذه الصورة المشرقة في القرآن الكريم، صورة تتعلم منها البشرية كلها على مر العصور والأجيال إلى أن تقوم الساعة، تتعلم منها البشرية كلها أدب الكلمة ورأي المسئولية ولفتة الإيمان.

أيملك نبيّ بشر أن يعبّر عن رأيه بهذا الوضوح والصدق والأمانة واليقين، ولايملك إنسان أن يعبّر عن رأيه أمام إنسان مثله، بشرٍ مثله، لايزيد عليه إلا في مال ومنصب أو عتاد وقوة؟

كيف يموت الرأي وتختنق الكلمات على شفاه مرتجفة من إنسان لإنسان؟ أيقبل الله رب العرش العظيم عالم الغيب والشهادة رأياً من عبد من عباده، ولا يقبل إنسان رأياً من أخيه الإنسان؟

«**قتل الانسان ماأكفره**»! يموج الكبر في الإنسان حتى يخال نفسه فوق بني الإنسان، فيستحل دماءً حرمها الله، ويخنق أصواتاً خلقها الله، ويميت طاقات ومواهب.

وسبق معنا في فصل سابق حديث رسول الله ﷺ في مسند الإمام أحمد: «**إن ربي تبارك وتعالى استشارني في أمّتي**».

هكذا يرفع الإسلام الرأي والمشورة حتى إنهما ليتمّا بين الله رب العالمين وبين نبيّ من أنبيائه.

ويظل جميع مايرد من ملامح الشورى في الفصول السابقة والمقبلة أمثلة حية على حرية الرأي في ظل الإيمان ، وفي مدرسة النبوة .

وفي سيرة رسول الله ﷺ ، سنجد أمثلة ونماذج .

وحرية الرأي دعوة ممتدة في حياة الإنسان على مختلف العصور . ومطلب سعى إليه الكثيرون .. وكانت هذه الدعوة تشتد كلما خيم استبداد أو قامت دكتاتورية . والدكتاتورية لفظة شاعت بين الناس تحمل معها ظلالاً كثيرة . ومن أبرز هذه الظلال أنها تشير إلى حكم الفرد، أو حكم مجموعة ضيقة، تخنق أفواه الآخرين، وتحجر على عقولهم . ومهما تكن هذه الظلال لهذه اللفظة المقيتة ، فإننا نحب أن نبرز ظلاً آخر لها وصورة أخرى .

إننا نعتقد أن المجال الواسع للدكتاتورية أو الاستبداد يظهر حين لايحكم الناس جميعهم عقيدة واحدة ، عقيدة تحكم كبيرهم وصغيرهم ، يخضع لها غنيهم وفقيرهم . فحين تغيب مثل هذه العقيدة ، أو حين يتفلَّت منها هذا الفرد أو ذاك ، أو هذه الطبقة أو تلك ، حين يحدث هذا فإن الهوى هو الذي يطغى عندئذ، والمصالح هي التي تسود . والصراع يدور حتى يتمكن فرد ، أو تتمكن طبقة من فرض أهوائها ومصالحها ، على سائر الأفراد والفئات .

في هذا الجو يمكن للدكتاتورية أن تعمل وتسود . سواء أتمثلت في فرد أم في جماعة ، سواءً أقامت مجالس شعب أم برلمانات ، وسواءً أقللت من المجالس أم أكثرت منها، أو وسعت الهيئات أم ضيقتها، وسواءً أدارت الشورى في صورة من الصور أم لم تدر ، وسواءً أعملت وسائل الإعلام في شكل من الأشكال أم لم تعمل، سواءً أحدث هذا أم ذاك فإن التربة خصبة والجو ملائم للدكتاتورية والاستبداد .

أما حين توجد العقيدة التي تحكم الجميع واقعياً لانظرياً ، وحين تتسع العقيدة باتساع الناس والفئات ، فلا مجال للاستبداد ولا فرصة له . في هذا الجو تذوب المصالح أو تتناسق ، ويضعف الهوى أو يطهر ويسمو . في هذا الجوّ تقوم العدالة وتظهر الحرية ، وتبرز حرية الكلمة .

وتصدق هذه القاعدة التي نعرضها بمقدار ماتصدق العقيدة ، وبمقدار مايصدق الناس معها . وينال الناس حرية بمقدار مايبذلون من خضوع لعقيدتهم والتزام بها .

وتصدق كذلك هذه القاعدة بمقدار ماتصدق العقيدة ذاتها ، وبمقدار ماتتسع لحياة الناس ومختلف شئونهم . ومن هنا كانت الحرية للإنسان وللكلمة أعظم ماتكون في الإسلام ، الذي أنزل من عند الله ، «**فمن أصدق من الله قيلاً ...» ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** » ، وهو الذي أكمل الدين وأتمه لعباده المؤمنين .

ومن هنا كان الخضوع للعقيدة حرية للإنسان وعزة له . ولذلك كانت الحرية والعزة أعظم مايكونان في الإسلام ، حين كانت العبودية لله رب العالمين لا لأصنام وأوثان ، ولا لرجال أو سلطان .

فالدكتاتورية والاستبداد إذن هو غياب العقيدة عن الناس ، حتى ولو حكمتهم مجالس وساستهم برلمانات ، فسيظل الهوى المتفلت هو الحاكم الحقيقي .

وأسوأ أنواع الاستبداد هو حين يغيب منهاج الله ، وأضيق الحريات تكون حين يغيب منهاج الله ، وأشد أنواع الهوان والذل يكون أيضا حين يغيب منهاج الله .

وقد تختنق الحرية وتموت الكلمة في أجواء من يمكن تسميتهم متدينين ، حين يكون التدين شعاراً لا رصيد له في واقع حياة الناس ، أو حين يكون التدين محصوراً في مجال ضيق من الحياة يتفلت الناس خارجه من قواعد الدين ومنهاجه .

وقد تختنق الحرية وتموت الكلمة حين يغلب الجهل على الناس ، وتنقطع صلتهم الحقيقية بمعين دينهم الصافي ، حين يغلب الجهل على الناس فلا تظل إلا فئة تحمل بعض العلم دون إيمان ، ومثلهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، فإن انحرفوا فلا يجدون من يقوّم أو ينصح .

وقد تموت الكلمة والحرية حتى في أجواء العقيدة حين تكون العقيدة قد

ماتت في النفوس، أو تحجرت على أعراف وتقاليد، جعلها الناس قيوداً لأنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان.

وتموت الكلمة والحرية في أجواء العقيدة، حين تكون العقيدة غير منهاج الله، حين تكون صناعة بشرية أفرغ فيها الناس كل أهوائهم وغرورهم، وجهلهم وظنهم. وقد تموت الكلمة في أجواء العقيدة حين لاينهض أبناء العقيدة ليرسموا نهجاً يقوم على منهاج الله والواقع، وحين لاتتحدّد القوانين التفصيلية التي تنظم الحقوق والواجبات. فتصبح الكلمة تائهة، والرأي فوضى، والجدل فتنة.

١١ - القاعدة الحادية عشرة: الشورى بين المناظرة والحوار وبين الاستعلاء والاستكبار:

عندما تدور الشورى بين قوم فإن أساس نجاحها أن يلتزم أهل الرأي بآدابها وقواعدها. ومن أجمل قواعدها وأعدلها أن يحترم كل واحد رأي صاحبه ويعتبره مناظراً له في الحقوق وفي الرأي، فيدور الرأي بين الجماعة ليّنا غنيّا بالخير والبركة، ويدور الحوار أمينا عادلا ويتماثل الناس في مناظرة طاهرة.

ومعنى ناظره أي صار نظيراً له. ويقول الزُّهريّ: لاتناظر بكتاب الله ولا بكلام رسول الله. وفي لسان العرب: التناظر هو التراوض في الأمر. وفلان نظيرك أي مثلك، أو الذي يراوضك وتناظره.

وللحوار والمناظرة، وللشورى عامة، آداب وقواعد تطبيقية تنمو مع الأيام من خلال الممارسة والجهد، والتدريب والتقويم، وهي تهدف في كل خطوة إلى تفاعل الآراء وهي تبحث عن الحق أو ماهو أقرب إليه.

وهذا يتطلب استعداداً نفسياً واستعداداً علمياً وفكرياً، حتى لايشعر أحد بالهزيمة والخسران إن رُفض رأيه، ولا يشعر أحد بالكبر والاستعلاء إن قُبل رأيه، وتظل النيّة متجهة إلى الله سبحانه وتعالى، راغبة في طاعته وأجره وثوابه. ولايوجد لدى الإنسان وسيلة تخفف عليه مرارة الهزيمة إن مسّته، إلا صدق النيّة وحسن التربية والإعداد والتدريب عليها منذ النشأة في بيئة نظيفة.

الفصل الرابع
السّمع والطاعة

والسمع والطاعة للأمير ، أو أُولي الأمر ، أو للخليفة ، أمر من منهاج الله . وهذا الأمر كذلك ، شأنه شأن غيره من قواعد الإسلام ، لايؤخذ منفصلا معزولاً عن غيره من الأمور والقواعد والأسس . وإنما هو يمضي في منهاج الله على أساس التكامل والتناسق والتوازن .

وهو أيضاً شديد الصلة بموضوع الشورى ، مرتبط ارتباطاً مباشراً وقوياً . وهو مرتبط بالشورى ، كما ترتبط النصيحة والرأي ، وهذه كلها مع ارتباطها فيما بينها ، ترتبط بمنهاج الله .

والمؤمن مكلف بتطبيق منهاج الله كله حسب قدرته ، وحسب مسئوليته وأمانته . وفي ميدانه والتزاماته وعهوده . فليس له أن يأخذ بجزء من هذا الدين ويدع جزءاً ، والجزء الذي قد يأخذ به بعضهم ، حين يدع جزءاً آخر ، قد يتعذر تطبيقه على هذا النحو من العزلة والانفصال . وإذا مارس ذلك ، فإن الممارسة والتطبيق تأتي مضطربة غير متوازنة ، متضاربة غير عادلة . والسمع والطاعة مثل واضح على ذلك فكيف يتم السمع والطاعة من رجل عطل طاقاته وقدراته ، فلم ينهض إلى نصيحة أو رأي ، ولا إلى تدبر أو وعي .

١ - السمع :

السمع والطاعة في الحقيقة أمران وليسا أمراً واحداً . إنه السمع أولا قبل الطاعة . إنه السمع والوعي والإدراك . وهذه المهمة وحدها تحتاج إلى كثير من الخصائص والقواعد التي سبق عرضها . إنها تحتاج إلى الإيمان والأمانة ، إلى العلم والخبرة ، حتى يكون للسمع دوره الحقيقي من إدراك مايسمع وإنزاله منزلته الحقة ، على أساس منهاج الله . والسمع له دور هام في منهاج الله . والله

سبحانه يقول في أكثر من موضع في كتابه الكريم ، في سورة يونس من آية (٦٧) والروم من آية (٢٣) ﴿ وَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الروم: ٢٣]

والنحل من آية (٦٥) ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [النحل: ٦٥]

فواضح في هذه الآية الكريمة أن السمع يعني الوعي والتدبر . ويتأكد هذا المعنى في آيات كثيرة أخرى .

﴿ ... إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٦]

وكأن الآية الكريمة هذه تجعل الموتى أولئك الذين لايسمعون ، فهم لايستجيبون . وكأن السمع والاستجابة لله هي الحياة الحقة .

﴿ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [السجدة: ٢٦]

فالآيات البينات .. كيف لايسمعها أولئك .. أي كيف لايعونها ويدركونها ، ويتدبرونها .

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٨]

إن الصوت يصل إلى آذانهم ، ولكنه لايصل إلى قلوبهم ، ولايحرك فيهم وعياً وإدراكاً ، فهم لايسمعون . أولئك هم الكافرون . ولهم أعين يحركونها وينظرون بها ، ولكن الرؤية لاتصل إلى القلب ، ولا تحرك لباً ولا شعوراً ، فهم لايبصرون .

﴿ ... أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [يونس: ٤٢]

والله سبحانه وتعالى يأمر عباده المؤمنين أن يسمعوا وأن يقولوا سمعنا وأطعنا :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٤]

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التغابن: ١٦]

ففي سورة البقرة يعلّم الله عباده المؤمنين أدب الكلام ، حتى يتميزوا من اليهود الذين حادّوا الله ورسوله ، والذين لهم عذاب أليم . ومن هذا التعليم كان السمع . «**واسمعوا**» .

وفي سورة التغابن اقترن السمع بالتقوى ، واقترن بالطاقة والإنفاق « .. **واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا** ... » .

والسمع ، كما عرضته هذه الآيات البينات ، هو السمع لله ولرسوله حيث تؤخذ العقيدة ، ويؤخذ المنهاج . وكل سمع بعد ذلك هو مقترن بالسمع لله ولرسوله حيث تؤخذ العقيدة ، ويؤخذ المنهاج . وكل سمع بعد ذلك هو مقترن بالسمع لله ولرسوله مرتبط به ، نابع عنه .

والسمع الذي عرضناه هو السمع الذي يحرك في الإنسان المؤمن قدراته ومواهبه ، يحرك فطرته واستجابته ، يدفع خطواته في طاعة وإنابة . وبذلك أصبح السمع مرتبطاً بالطاعة ارتباط إيمان وعقيدة ، ارتباط وعي وإدراك ، ارتباط حركة وعمل ، ارتباط قوة ونهوض ، ارتباط فلاح وفوز :

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥١، ٥٢]

٢ - الطاعة :

وطاعة الرسول ﷺ هي من طاعة الله حتى يتكامل منهاج الله قرآنا وسنة ، ويتناسق في إعجاز عظيم :

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾
[آل عمران: ٣١، ٣٢]

فارتبطت الطاعة هنا بالمحبة ، بمحبة الله ، فمحبة رسول الله ﷺ .

﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾
[النساء: ٨٠]

إنها طاعة السمع ، وطاعة النية والعزيمة ، وطاعة القلب وسائر الجوارح في منهاج رباني ارتبطت أحكامه وآياته وتناسقت ، حتى يخبت لها المؤمنون العاملون .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾
[النساء: ٦٤، ٦٥]

وهنا ترتبط طاعة الرسول بطاعة الله أيضاً ، ولكنها تأتي في هذا العرض في هاتين الآيتين الكريمتين مع مثل وحكم ، حتى يتضح معناها ، ويعرف مداها : فإذا هي الإيمان وهي الاستسلام لله ورسوله .

والآيات الكريمة حول هذه الطاعة كثيرة في منهاج الله . ومع كل آية ظلال جديدة وآفاق تمتد ، حتى تشمل حياة المؤمن كلها في توازن وتوافق تستجيب له فطرته ، وتنهض من خلاله قدراته ومواهبه .

وكما أن السمع في منهاج الله يحتاج إلى خصائص وقدرات كما عرضنا ، فإن الطاعة كذلك تحتاج إلى إيمان وأمانة ، وعلم وخبرة ، وفقه وخلق ، وحركة ونشاط. إنها تحتاج إلى منهاج الله ليكون صحبة المؤمن في ليله ونهاره ، وحِلِّه وترحاله ، وعمله وفراغه ، صحبة عمر وحياة ، صحبة صدق وعزيمة .

فالسمع والطاعة إذن على هذا النحو ليسا للاستخذاء والهوان، أو الذل والركون، أو الحيرة والاضطراب، أو الكسل والاسترخاء، أو الظلم والاعتداء.

وميدان آخر:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)﴾ [الأنفال: ٢٠ – ٢٨]

إنه في الحقيقة ليس ميداناً واحداً إنها ميادين واسعة ممتدة. وهذه الآيات من سورة الأنفال قد نزلت بمناسبة غزوة بدر. فهي تعرض السمع والطاعة هنا في ميدان الجهاد والقتال – تعرضهما من خلال العقيدة والمنهاج تربطهما ربطاً موثقاً. وتكشف لنا ثمرة السمع والطاعة: من مأوى وهم مستضعفون، ونصر ورزق من الطيبات. ثم تكشف ويلات الإدبار وعدم السمع والطاعة: من فتنة عامة، وعقاب شديد، وخيانة لله وللرسول، وخيانة للأمانات. إنها توقظ الإيمان في قلوب المؤمنين حتى لاتكون الأموال والأولاد لديهم فتنة، وحتى يتوجهوا على سمع وطاعة إلى أجر عظيم من عند الله.

فمن هذه الأمثلة، نرى ثمرة قوة ارتباط السمع والطاعة لله وللرسول مع كل

ميادين الحياة ، من خلال عقيدة ومنهاج ، عقيدة ربانية ومنهاج رباني : فهي مع الحكم ، ومع آداب البيت المسلم ، مع الإنفاق . مع الجهاد ، ومع التشريع . إنها تطرق أبواب الحياة كلها وميادينها حتى تبدو أنها هي الحياة الحقيقية : «**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ..**» .

وتمتد الطاعة في منهاج الله إلى أولي الأمر بهذه الصيغة وهذا التعبير، إلى أولي الأمر من المؤمنين لا من غيرهم . إلى أولي الأمر وهم يعملون بكتاب الله وسنة نبيه ويقيمونهما في واقع الحياة كلها :

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩]

وهذا الامتداد طبيعي متناسق أجمل التناسق في منهاج الله ، مرتبط أقوى الترابط . فطاعة الأمير أو المسئول مرتبطة بمنهاج الله ، مرتبطة ، من خلال المنهاج الرباني وحده ، بطاعة الله وطاعة رسوله . حتى إذا حدث بين المؤمنين خلاف أو تنازع أو اختلف ولي الأمر مع أحد من المؤمنين من أهل الرأي في موضوع فحينئذ يرجع الجميع ، ويرجع ولي الأمر ، ويرجع أهل الرأي إلى الله ورسوله ، إلى القرآن والسنة ، إلى منهاج الله ليحكم بينهم ، وذلك في كل عصر وجيل ، وفي كل زمان ومكان . وارتبطت هذه العودة إلى الله والرسول بالإيمان بالله واليوم الآخر ، فمن لايعود هذه العودة الصادقة إلى كتاب الله وسنة نبيه ، فقد خرج من الإيمان «**... إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا**» .

وهكذا كان النفي بيناً واضحاً فاصلاً ، لايفتح مجالاً لمراءاة أو جدال .

وجاءت لفظة «شيء» على صيغة النكرة لتشمل كل شيء ، وكل باب من أبواب التنازع : «**فإن تنازعتم في شيء ..**» .

وطاعة ولي الأمر أو الأمير مرتبطة بطاعة الله ورسوله من خلال منهاج الله ارتباطاً قوياً على هذا الأساس . ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه يتأكد هذا المعنى أيضاً :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني** » . (رواه الشيخان والنسائي)[1]

ويقوم هذا الارتباط لهذه الطاعة على أساس منهاج الله وحده .

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال :

«**السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية . فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة** » . (رواه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود)[2].

هذا السـمع وهذه الطاعـة واجـبـة على هذه الأسس التي عـرضناها ليس للمؤمن أن ينفك منها بهواه أو مصلحته .

عن أبي ذر رضي الله عنه قـال : «**إن خليلي أوصـاني أن أسـمع وأطيع وإن عبداً مجدع الأطراف** » . (رواه مسلم)[3]

وفي رواية للبخاري : عن أنس بن مالك :

«**أسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة** »[4].

---

(١) البخاري . كتاب الأحكام (٩٣) باب (١) مسلم . كتاب الإمارة (٣٣) . باب (٨) حديث رقم (١٨٣٥/ ٣٢) . والنسائي : كتاب البيعة (٣٩) . باب (٢٧) . حديث رقم (٤١٩٣) ، وكتاب الاستعاذة (٥٠ . باب (٤٩) . حديث (٥٥١٠) . واللفظ للبخاري ومسلم .

(٢) البخاري : كتاب الأحكام (٩٣) . باب (٤) . مسلم . كتاب (٣٣) . باب (٨) حديث رقم (١٨٣٩/ ٣٨) أبو داود : الجهاد (٩) . باب (٩٦) . حديث رقم (٢٦٢٦) . والنسائي . كتاب البيعة (٣٩) . باب (٣٤) . حديث رقم (٤٢٠٦) واللفظ واحد .

(٣) مسلم كتاب الإمارة (٣٣) . باب (٨) حديث رقم (١٨٣٧/ ٣٦) .

(٤) البخاري . كتاب الأحكام (٩٣) . باب (٤) الفتح الرباني : ج ٢٣ . ص ٣٩ . حديث رقم ٨٧ .

عن يحيى بن حصين عن جدته أم الحصين قال : سمعتها تقول حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع ، قالت فقال رسول الله ﷺ قولاً كثيراً ثم سمعته يقول : «**إن أمر عليكم عبد مجدع (حسبتها قالت أسود) يقودكم بكتاب الله تعالى فاسمعوا له وأطيعوا** »(١) .

وإذا كانت الطاعة مقرونة بالسمع ، وبالوعي والإدراك ، وبالحدود التي يحدها منهاج الله ، بعيدة عن الهوى ، متصلة بالإيمان إذا كانت الطاعة على هذا النحو فإن من حدودها التي بينها منهاج الله هي أنها في معروف . إنها ليست في معصية ، ليست طاعة تعطل التفكير أو رد الأمور إلى منهاج الله . فإذا مضى المسلم على طاعة غير واعية فإنها قد ترديه مهاوي الهلاك . ولايكون المعروف في معصية أبداً . ولكن قد يلتبس الأمر أحياناً على المسلم فيرده إلى الحق ، منهاج الله ونور الله .

فالطاعة إنّما هي في المعروف :

عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث جيشا وأمر عليهم رجلاً ، فأوقد ناراً وقال : ادخلوها ، فأراد ناسٌ أن يدخلوها وقال الآخرون : إنما فررنا منها ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال للذين أرادوا أن يدخلوها : «**لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة** » وقال للآخرين قولاً حسناً . وقال : «**لاطاعة في معصية الله ، إنما الطاعة في المعروف** » . (رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد) (٢) .

وعدم وضوح الطاعة وعدم وضوح ارتباطها بالسمع والوعي وبمنهاج الله ، يجعل تطبيقها أحياناً أقرب إلى الخروج عن منهاج الله . وكم ذاق المسلمون ويلات وويلات من هذا الاضطراب . وكم نجد أناساً أخطأوا التطبيق وهم يتفلتون من السمع والطاعة يقودهم الشيطان ، وكم نجد أناساً هم أقرب إلى دخول النار بطاعتهم العمياء كما في الحديث السابق .

---

(١) مسلم : كتاب الإمارة (٣٣) . باب (٨) . حديث رقم (١٨٣٨/ ٣٧) .

(٢) صحيح البخاري : كتاب الأحكام (٩٣) . باب (٤) صحيح مسلم . كتاب الإمارة (٣٣) . باب (٨) حديث رقم (١٨٤٠/ ٣٩) . سنن أبي داود كتاب الجهاد (٩) باب (٩٦) . حديث (٢٦٢٥) الفتح الرباني ج ٢٣ ص ٤١ حديث رقم ٨٧ . واللفظ لمسلم .

٣ - مع الأمراء :

ويمضي منهاج الله يوضح حدود السمع والطاعة على صورة مشرقة واضحة. فقد يجد المرء من أميره مايكرهه :

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « **من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات مات ميتة جاهلية** ». (رواه مسلم)(١)

فليصبر إذن مالم تكن هناك معصية لله. فإن الخروج عندئذ من طاعة الأمير تفريق لجماعة المسلمين. ويتأكد هذا المعنى بالحديث الآخر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **من خرج من الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية. ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقتل فقتلة جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولايتحاشى مؤمناً ولايفي لذي عهد عهده، فليس مني، ولست منه** ». (رواه مسلم)(٢)

ويعرض الحديث الشريف هذه النوازع التي قد تدفع إلى قتال، أو تجر إلى شقاق، على أسس يبرأ منها منهاج الله، يعرضها الحديث الشريف حتى لايتستر تحتها أي ذي هوى، وحتى يتحاشاها كل ذي إيمان. وتزداد الصورة وضوحاً ودقة في منهاج الله مع تتابع الأحاديث النبوية تربي وتعلم :

عن أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنه قال : « **إنه يستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برىء، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع** » قالوا : يارسول الله أفلا نقاتلهم، قال : « **لا ماصلوا** » (رواه مسلم وأحمد) (٣)

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الإمارة (٣٣). باب (١٣). حديث رقم (١٨٤٩/ ٥٥).
(٢) صحيح مسلم : كتاب الإمارة (٣٣). باب (١٣). حديث رقم (١٨٤٨/ ٥٣).
(٣) صحيح مسلم : كتاب الإمارة (٣٣). باب (١٦) حدث رقم (١٨٥٤/ ٦٣). الفتح الرباني ج ٢٣ ص ٣٩. حديث ٨٦.

وهذا التوجيه القوي ، والتوعية المتينة ، والوضوح والجلاء ، هذا كله ليجمع صف المؤمنين دون تدابر وشقاق ، إذا أخذ دوره الواعي في ميدان التطبيق . وكل ناحية في هذا الحديث ، كما في غيره ، هي مرتبطة بمنهاج الله ، فكلمة «**تعرفون وتنكرون ..**» لاتتحقق إلا لمن عرف منهاج الله أولا ، فهو عندئذ يستطيع أن يرى الحق فيعرفه مطابقا لمنهاج الله فيرضى به ويتبعه ، ويرى المنكر مخالفاً لمنهاج الله فينكر ويكره . وفي حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه صورة أخرى :

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت : يارسول الله إنا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر ، قال : «نعم»، فقلت له : هل بعد ذلك الشر من خير ، قال : «نعم وفيه دخن » ، قلت وما دخنه قال: «قوم يستنون بغير سنتي ويهتدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر » فقلت : هل بعد ذلك الخير من شر ، قال : «نعم دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها » ، فقلت : يارسول الله ماترى إن أدركني ذلك ، قال : «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم » . فقلت : إن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ، قال : «فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » . (رواه مسلم) (١)

وهنا نلمح ارتباط حذيفة رضي الله عنه بمنهاج الله ، مع آفاقه الممتدة أجيالاً وأجيالاً . ونرى وعيه للممارسة والتطبيق . ودقة أسئلته وتكررها ، لتشمل آفاقا بعيدة . ونرى رسول الله ﷺ ، وهو يجيب ويعلم بوضوح ، وهو يربط الواقع الممتد بمنهاج الله وهو يحدد المواقف على أساس من منهاج الله. ونرى هنا امتداد الدعوة إلى عصور وعصور ، ونرى المؤمن وهو يفكر في أمر دعوته ودينه ليس لليوم أو غد فحسب ، وإنما يحمل همّ ذلك وأمانته ، ومسئولية ذلك ، لأجيال وأجيال .

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الإمارة (٣٣) باب (١٣) . حديث رقم (١٨٤٧/ ٥١) .

٤- الأمة الواحدة والجماعة :

وبعد ذلك كله نرى ارتباط المؤمنين كلهم أمة واحدة ، وجماعة واحدة ، ودعوة واحدة . «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ..**» .

إنها أمة واحدة ارتبطت على نهج واحد . والشعور بهذا الارتباط وامتداد الدعوة هذا الامتداد ضروري للداعية وهو يدعو ، وللمؤمن وهو يعمل ، وللسمع الطاعة وهي تمضي ، وللشورى وهي تدور . وهذا الامتداد وهذا الارتباط لاينحصران في جيل أو عصر ، وإنّما يقومان منذ أن بعث الله الرسل والأنبياء ، منذ نزول آدم عليه السلام وتلقيه رسالة ربه :

﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة: ٣٧]

ويمضيان ارتباطاً وامتداداً مع جميع الرسالات السماوية كلها . ففي سورة الأنبياء يستعرض القرآن الكريم رسالات الأنبياء ثم يختمها بالآية الكريمة :

﴿ **إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]

وفي سورة «المؤمنون» يستعرض القرآن الكريم الرسالات السماوية كما استعرضها في سورة أخرى ، على نسق هادف وظلال واسعة ، ثم يختم ذلك أيضاً بقوله تعالى :

﴿ **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴿٥١﴾ **وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** ﴿٥٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢]

ويمضي ذلك حتى يوم القيامة ... هذا الوعي لمنهاج الله ، وهذا الوعي للواقع تمضي به الدعوة ، هو الذي كان يحرك قدرات حذيفة رضي الله عنه ومواهبه ، حتى يمتد هذا الامتداد ، ويرتبط هذا الارتباط ، على سمع وطاعة ، وممارسة مؤمنة للرأي وحريته ، وظلال للشورى كريمة .

عند ذلك يصبح معنى الجماعة ، ومعنى مفارقتها ، ومعنى الفرق ، ومعنى الإمام ، واضحاً جلياً لايحدده تصور بشري محدود ، ولا واقع مريض منهزم ، ولا رغبات قوية مسيطرة ، وإنما يحدده منهاج الله بيناً جلياً .

وبذلك نجد الآيات الكريمة السابقة والأحاديث الشريفة تعرض لنا هذا التصور الكريم متناسقا مباركاً . ويمضي منهاج الله مع كل آية وكل حديث يزيد الصورة وضوحا وبياناً :

عن عرفجة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إنه ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان**» (رواه مسلم)[1]

فالأمة واحدة والمنهاج واحد والرب واحد ، فما أعظم الجريمة حين تفرق هذه الأمة وهي جميع . فأما الهنات فيحددها منهاج الله ولاتحددها الرغبات والمصالح.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال «**من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا**» . (رواه البخاري ومسلم)[2]

وهكذا أخذت معالم الجماعة تتضح ، وخصائصها تبرز ، على هذا النحو من القوة والتحديد . فلا غش بين الجماعة المؤمنة « **فمن غشنا فليس منا** » ، والغش المحرم هو كل أنواع الغش في كل مجالات الحياة ، صغيرها وكبيرها ، فالغش في النصيحة والمشورة هو غش ، ولعله أخطر أنواع الغش وأكثرها أذى . ولايحمل عليها السلاح أحدٌ منها ، فمن حمله فهو ليس منها .

وتحديد آخر للجماعة المؤمنة :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً ، فيرضى لكم أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال**» (رواه ومسلم)[3]

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الإمارة (٣٣) باب (١٤) . حديث رقم (١٨٥٢/ ٥٩) .
(٢) صحيح مسلم : كتاب الإيمان (١) . باب (٤٢) حديث رقم (٩٨/ ١٦١) صحيح البخاري : كتاب الفتن (٩٢) . باب (٧) .
(٣) صحيح مسلم : كتاب الأقضية (٣٠) باب (٥) . حديث رقم : (١٧١٥/ ١٠) .

فالأمة المؤمنة التي يدور بها الرأي والنصيحة والشورى ، والسمع والطاعة ، هي أمة واحدة واضحة الخصائص معروفة المميزات :

إنها أمة تعبد الله وحده .

ولاتشرك به شيئا .

تعتصم بحبل الله ولاتتفرق .

لايقوم بينها قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال .

لايغشها فرد منها ولايحمل عليها سلاحاً .

لاتدعو إلى عصبية ولاتغضب لها ولاتنصرها .

لاتقاتل تحت راية عميّة .

تفي بالعهد ، وترعى الأمانة وتقيم الشهادة .

تسمع وتطيع لله ولرسوله ولأولي الأمر الذين يقيمون منهاج الله .

تقوم بينها النصيحة والرأي والشورى .

إلى غير ذلك من الصفات .

وبصورة موجزة إنها تلتزم منهاج الله في واقع الحياة البشرية إيماناً وعلماً وممارسة ، لاتتفلت منه ولا تخرج عنه .

لاتجتمع تحت راية إقليمية أو عصبية ، ولاتدعو لها سراً أو جهراً ، ولاتأخذ بها تحت أي ستار .

فإذا اضطربت هذه الخصائص والسمات فإن الأمة نفسها تضطرب ، والجماعة تضطرب ، والالتزام بمنهاج الله يضطرب . فقد تظهر عندئذ فئات وطوائف ، وجماعات وشتات . ومهما كثرت الطوائف والفئات فسيظل دائماً هنالك حق وباطل . فالجماعة التي لايجوز مفارقتها هم أهل الحق .

أخرج العسكري عن سليم بن قيس العامري قال : سأل ابن الكواء (من زعماء الخوارج) ، علياً رضي الله عنه عن السنة والبدعة والجماعة والفرقة . فقال : ياابن الكواء ، حفظت المسألة فافهم الجواب ، السنّة والله سنة محمد ﷺ ، والبدعة ما فارقها ، والجماعة مجامعة أهل الحق وإن قلّوا ، والفرقة مجامعة أهل الباطل وإن كثروا (١).

فهذه هي الجماعة التي التزمت منهاج الله وتركت البدعة والتزمت الحق . ومثل هذه الجماعة هم قوم واعون يعرفون كيف يبحثون عن الحق حتى يروه فيتبعوه . إنهم ليسوا إمعة. وكيف يستطيع أحد أن يعرف الحق إذا جهل منهاج الله، وجهل واقعه ، والأحداث التي تدور ... ؟ كيف يستطيع أحد أن يعرف الحق إذا لم يردّ الأمور كلها صغيرها وكبيرها إلى منهاج الله ؟ ولاتتحدد الجماعة بالعدد . وإنما هو النهج الحق وإن قل أهله .

عن أبي عامر عبدالله بن يحيى ، قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة ، قام حين صلى الظهر ، فقال : إن رسول الله ﷺ قال : «**إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وإنّ هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني الأهواء - كلها في النار إلا واحدة - وهي الجماعة - وأنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، لايبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله** » . (رواه أبو دواد والترمذي وابن ماجة وأحمد) (٢).

فهذه هي الجماعة ، مهما تفرق الناس ، ومهما باعدت بينهم الأهواء ، فإن الجماعة تظل تلتزم بنهج الله لاتخرج عنه .

---

(١) حياة الصحابة . ج٢ ص (١٠٠) .

(٢) الفتح الرباني : ج٢٤ . ص٧ واللفظ له . أبو داود : كتاب (٣٤) . باب (١) . حديث (٤٥٩٦ ,٤٥٩٧) الترمذي : كتاب (٤١) . باب (١٨) . حديث (٢٦٤٠ ، ٢٦٤١) . وابن ماجة : كتاب (٣١) . باب (١٧) حديث (٤٠٣٩-٤٠٤١) .

وعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله : «**لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لايضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك** » .

(رواه مسلم) [1].

وعن عبدالرحمن بن شماسة المهري قال : كنت عند مسلمة بن مخلد وعنده عبدالله بن عمرو بن العاص ، فقال عبدالله : «لاتقوم الساعة إلا على شرار الخلق هم شر من أهل الجاهلية ، لايدعون الله بشيء إلا رده عليهم » فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر رضي الله عنه فقال له مسلمة : ياعقبة اسمع مايقول عبدالله . فقال عقبة : هو أعلم . وأما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول : «**لاتزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم ، لايضرهم من خالفهم ، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك » فقال عبدالله أجل ، «ثم يبعث الله ريحاً كريح المسك ، مسها مس الحرير ، فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس ، عليهم تقوم الساعة** » . (رواه مسلم) [2]

وهكذا فإن الجماعة المؤمنة خط ممتد في الحياة حتى قيام الساعة . وهو خط ممتد كريم خاتمته في الدنيا ريح كريح المسك .

وهذه الجماعة وقد عرفت الحق لايضرها من خالفها ، وهي قاهرة لعدوها ، ثابتة على نهج الله ، ماضية على نور منه .

وعن جابر بن عبدالله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة. قال فينزل عيسى بن مريم عليه السلام فيقول أميرهم: تعال صل لنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة**» (رواه مسلم) [3].

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الإمارة (٣٣) . باب (٥٣) . حديث رقم (١٩٢٠/ ١٧٠) .
(٢) نفس المرجع والكتاب والباب . حديث رقم (١٩٢٤/ ١٧٦) .
(٣) صحيح مسلم : كتاب (٣٣) والباب (٥٣) حديث (١٩٢٣/ ١٧٣) .

فما أوضح إذن معنى الجماعة، وما أوضح معنى مفارقتها . ولكن الغموض والإبهام يقع في قلوب معتمة ، أو قلوب جاهلة ، أو نفوس أضَرّتْ بها الأهواء . وقد يدعي كلٌ مايشتهي ، ولكن الحق ظاهر أبداً ، فمن شاء فليتبع الحق بهداية الله ونوره . ولن يغني أحد عن أحد شيئاً يوم القيامة .

هذه الأمة أمة واحدة لها رب واحد ، ودين واحد . هذه الأمة هي أمة واحدة منذ أن بعث الله الرسل والأنبياء . وهي أمة واحدة مهما اختلفت بينها الأقطار ، وتعددت الألوان واللهجات . إنها أمة الإسلام .

ولابد من أن ننتبه إلى دقة التعبير في أحاديث رسول الله ﷺ وهو يتحدث عن الافتراق والاختلاف : «... **ستفترق على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا واحدة ...**» وحين نحاول فهم واقعنا اليوم من خلال منهاج الله يجب أن لايدفعنا الهوى حتى تحسب كلّ مجموعة من الناس أنها هي الفئة الناجية وأن من عداها في النار . فأساس الافتراق الذي عبّر عنه الرسول ﷺ هو في كلمة «ملّة» . وحتى تكون هذه الملة أو تلك في النار يجب أن تكون قد خرجت عن منهاج الله أو تركت قاعدة من قواعد الإيمان يسبب تركها دخول النار أمّا الاختلاف في الاجتهاد البشري فنرجو أن لايكون داخلا في هذه الملل ، وندعو الله أن يكون جميع المسلمين العاملين ملتزمين أساسا بقواعد منهاج الله ، وأن يكونوا جميعهم من الفئة الناجية .

وفي واقعنا اليوم جماعات متعددة تعمل للإسلام . فإذا كان الاختلاف بين جماعة وجماعة هو اختلاف في أمر اجتهادي ، فلا يعني ذلك ضرورة تحويل الخلاف إلى شقاق يموج فيه الهوى وتضطرب فيه العصبيات الجاهلية . ولكن الجهود يجب أن تنصب على توحيد النهج والخطة حتى تلتقي القلوب على صورة جليّة بيّنة ، وتلتقي الجهودفي مجرى من الخير والنور ، وتقوم الأمة الواحدة والدعوة الواحدة لتعبد ربّاً واحداً . وبذلك نكون قد وضعنا الأساس

الحقيقي لممارسة إيمانية وعمل صالح، وأقمنا قواعد الشورى وأسسها وأجواءها وبيئتها .

ونختم هذا الفصل بموجز له، نضع النقاط الرئيسية فيه :

١ - إن السمع والطاعة يمارسان من خلال منهاج الله مع سائر قواعده وأسسه ولا يمارس معزولا مبتوتاً .

٢ - يرتبط السمع والطاعة في منهاج الله بقواعد رئيسية دون أن يضطرب أو يتخلخل ارتباطه العام وتناسقه مع منهاج الله . وأهم هذه القواعد :

صدق الإيمان وسلامة القلب .

صدق النية وحسن التجرد لله سبحانه وتعالى .

العلم بمنهاج الله والواقع .

الممارسة والخبرة .

معرفة المؤمن لحدوده ولمنزلته ولمسؤوليته وأمانته .

معرفة المؤمن لمنزلة غيره ممن يتعامل معهم أو يأخذ عنهم أو يعطي لهم .

٣ - يرتبطان كذلك ارتباطاً وثيقاً بالنصح وحرية الرأي في حدود منهاج الله ويرتبطان كذلك بالشورى ارتباطا وثيقاً . ويرتبطان كذلك بالقواعد الخلقية.

٤ - إن السمع يعني التدبر والفهم، وحسن الموازنة وقياس الأمور وردها إلى منهاج الله على تكامله وتناسقه .

٥ - أساسهما هو السمع والطاعة لله ولرسوله . ومن هذا الأساس وحده يقوم السمع والطاعة لولي الأمر، والأمير، والرئيس، وكل مسئول يرتبط به المؤمن من خلال منهاج الله .

٦ - إن ارتباط السمع - وهو الوعي والفهم كما أسلفنا - بالطاعة يقوم على اساس الوضوح والصدق ، والوفاء والالتزام بصورة متوازنة كريمة .

٧ - تذوب من خلال هذا كله العصبيات والأهواء والمصالح والشهوات وتذوب كل جاهلية عمياء وتختفي .

٨ - وهما يهدفان ، مع جميع هذه الروابط والقواعد إلى حماية الجماعة المؤمنة ، والأمة المؤمنة ، حماية قوية جادة لايجوز معها مفارقتها .

٩ - إن الجماعة والأمة المؤمنة التي لايجوز مفارقتها هي أمة واحدة تكون صفاً واحداً ، ولها خصائصها وميزاتها ، ولها سماتها الأصلية الملتصقة بها . وقد حدد منهاج الله ذلك كله بوضوح وجلاء حتى لاتبقى أمام المؤمن ريبة ، ولايهبط ليختفي وراء الأعذار والتراخي .

١٠ - لا تُحددَّ الجماعة بالقلة أو الكثرة ، ولكنها سمات الإيمان والخصائص التي حدَّدها الله وهي التي تحدد الجماعة. وأساس ذلك كله الإيمان ورد الأمور صغيرها وكبيرها إلى منهاج الله .

الفصل الخامس
البَيْعَة

هذه الأمة المسلمة اجتمعت على منهاج رباني واحد ، تمارس من خلاله النصيحة والرأي ، والمشورة والتعاون ، والسمع والطاعة ، وسائر قواعد هذا الدين في الواقع البشري ، دون أن تخرجها الممارسة عن حدود منهاج الله ، فقد التقت على ذلك ، وتعاهدت عليه .

وكان هذا اللقاء على المنهج الرباني لقاء عقيدة والتزام . وقد أصبح لهذه الأمة من خلال هذه العقيدة وهذا الالتزام خصائص متميزة ، خصائص نابعة من النهج الذي التقت عليه والتزمت به .

وهذا اللقاء لهذه الأمة على هذا النهج الرباني ، وهذا الالتزام تمثل على صورة السمع والطاعة كما عرضنا في الفصل السابق . وهو أمر يحكم الكبير والصغير والغني والفقير ، والقوي والضعيف والرجل والمرأة . إنه التزام ، وسمع وطاعة ، يحكم الأمة كلها بكل عناصرها وكل ميادينها . لايتفلت منه أحد .

وهذا السمع والطاعة على هذا النحو يمضي بنية وعزيمة ، ويتوثق بعهد وبيعة . فأصبحت البيعة مرتبطة بالسمع والطاعة ارتباط عقيدة وإيمان .

ومهما اختلفت ظروف البيعة وأنماطها ، فإنها تخرج كلها من أصل واحد وبيعة واحدة ، ألا وهي البيعة مع الله ، والعهد والميثاق معه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ [التوبة: ١١١]

وهذه البيعة هي عهد وميثاق مع الله ، وهي نعمة من الله ، عهد وميثاق ونعمة

ارتبطت كلها مع السمع والطاعة ، وارتبطت بالتقوى التي هي في الصدور ، ولكن الله عليم بذات الصدور .

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [المائدة: ٧]

ومن هذه البيعة مع الله ، تنطلق كل بيعة مؤمنة في حياة الإنسان . إن بيعة الإيمان هذه انطلقت مع دعوة الله في الأرض ، انطلقت مع الرسالة السماوية : « **وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ...** » .

انطلقت ثم امتدت في حياة المؤمنين إلى يوم القيامة ، بيعة صدق ووفاء ، « ومن أوفى بعهده من الله ... » لتنقلب إلى بشرى وفوز عظيم ... « **فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم** » .

ومن هذه البيعة تكون كل بيعة بعد ذلك ، وترتبط البيعة للرسول مع البيعة لله كما ارتبطت الطاعة وارتبط السمع :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح: ١٠]

والبيعة عامة شاملة ولو تخصّصتْ بلفظة أو تعبير ، أو جاءت بمناسبة موقف محدد ، أو حدث خاص . ذلك لأنها هي بيعة المؤمنين لاينقص فيها الموقف الخاص ، أو اللفظة الخاصة ، قواعد الإيمان ، وأسس منهاج الله . وهي عامة للرجال والنساء :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الممتحنة: ١٢]

وهذه البيعة شملت أسس العقيدة والإيمان وميادين التطبيق والممارسة مرتبطة

بالطاعة، مظللة بالمغفرة، مباركة باليقين والإيمان. وجاءت البيعة للرجال كذلك على هذا النحو من الشمول:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «**بايعوني على أن لاتشركوا بالله شيئاً، ولاتسرقوا، ولاتزنوا، ولاتقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولاتعصوا في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله. ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله عليه فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه فبايعناه على ذلك**». (رواه البخاري والنسائي)[1]

وكانت هذه البيعة في العقبة الأولى. فقد أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن عساكر عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال:[2]

«**كنا أحد عشر رجلا في العقبة الأولى فبايعنا رسول الله بيعة النساء قبل أن يفرض علينا الحرب، بايعناه على أن لانشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولانزني ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولانقتل أولادنا، ولا نعصيه في معروف فمن وفى فله الجنة، ومن غشّ شيئاً فأمره إلى الله إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له. ثم انصرفوا للعام المقبل عن بيعتهم». وفي رواية كانوا اثني عشر رجلاً وهو الأغلب.**

وكما سيرد معنا فهذه هي البيعة الأولى وقد شملت قواعد الإسلام. وشابهت في بنودها بيعة النساء فسميت بذلك.

فإذا كانت هذه هي بنود البيعة في مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية، فإنها اتسعت بعد ذلك لتشمل قواعد أخرى من الإسلام، ولتشمل بنوداً خاصة لنفر خاصين كما سنرى بعد قليل.

---

(١) البخاري: كتاب الإيمان (٢). باب (١١). كتاب مناقب الأنصار (٦٣). باب (٤٣). كتاب الأحكام (٩٣). سنن النسائي. كتاب البيعة (٣٩). باب (٣٨) حديث رقم (٤٢١٠).
(٢) حياة الصحابة - الكندهلوي. ج١ ص ٣٥٩.

وتمتد البيعة في شمولها حتى تضع الشروط والحالات، وتعالج الوهن والتراخي. فتأخذ أجواء النفس ومواطن الضعف، وحالات التردد ونوازع الرغبة، فترد ذلك بقوة وحزم، ووضوح وجلاء، إلى نهج العقيدة وجذور الإيمان:

عن عبادة بن الصامت قال: «**بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وأن لاننازع الأمر أهله وعلى أن نقول الحق أينما كنا لانخاف في الله لومة لائم**». (رواه مسلم وأحمد)(١)

وفي رواية أخرى لمسلم:

عن جنادة بن أبي أمية قال: **دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض فقلنا حدثنا أصلحك الله بحديث ينفع الله به، سمعته من رسول الله ﷺ. فقال: دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لاننازع الأمر أهله. فقال: «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان»**(٢).

فالبيعة إذن ليست في حالة اليسر والمنشط والرضا، ولكنها كذلك في العسر والمكره وعلى الأثرة، وعلى قول الحق، فما أعظمها من شروط وما أوضحها وأبينها.

إلا إذا كان هنالك كفر بواح عليه برهان من الله.. فهنا تنتقض البيعة، وقد نقض أساسها وقوامها ألا وهو الإيمان. ولكن البيعة لاتهتز تحت مؤثرات خاصة من الضعف والعسر والمكره، أو الخوف وسائر نوازع الضعف، إنها تمضي مع الإيمان في كل حالات المؤمن.

وحالة أخرى من حالات الضعف:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة. رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده. ورجل حلف على سلعة بعد**

(١) صحيح مسلم: كتاب الإمارة (٣٣). باب (٨). حديث رقم (١٧٠٩/ ٤١) الفتح الرباني. ج٢٣ ص ٤٩ حديث (١١١).
(٢) المرجع السابق والكتاب والباب. حديث رقم (١٧٠٩/ ٤٢).

العصر يعني كاذباً ، ورجل بايع إماماً فإن أعطاه وفى له ، وإن لم يعطه لم يف له». (رواه الخمسة)[1].

فهذه مدرسة النبوة ، تأخذ الحالة من النفس البشرية ، حين تعلق وفاءها ببيعتها على عطاء الإمام ، فإن أعطى وفى له ، وإن لم يعط لم يف له . ارتباط بالمصلحة الذاتية ، واستغلال رخيص لأمر عظيم . فامتزجت هذه الحالة من الهبوط مع الحلف الكاذب والبخل المقيت ، وفي صورة مريعة مفزعة : «**ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة ..**» . فما تركت نصوص البيعة إذن منفذاً لهوى أو هوان، أو ضعف أو خذلان ، إلا أن ينكشف على حقيقته .

وتمتد البيعة أيضاً في نصوصها امتداداً أوسع ، فبعد أن جمعت قواعد الإسلام ، وراعت نواحي الضعف ، أخذت حالات خاصة ومواقف متميزة ، ورجالا خاصين. عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال : «**بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكم مسلم**» . (أخرجه الشيخان والترمذي وأحمد)[2].

وأخرجه الإمام أحمد من وجه آخر عنه : قال قلت يارسول الله اشترط لي فأنت أعلم بالشرط . قال : «أبايعك على أن تعبد الله وحده لاتشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتنصح لكل مسلم وتبرأ من الشرك »[3] .

أما إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فهما من أركان الإسلام الخمسة . فالبيعة عليهما هنا للتثبيت والتركيز ، وكذلك في الرواية الأخرى : **أن تعبد الله لاتشرك به شيئا** ، فهذا أساس كل بيعة ، وقاعدة كل سمع وطاعة .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الأحكام (٩٣) . باب (٤٨) . صحيح مسلم : كتاب الإيمان (١) . باب (٤٦) حديث رقم ١٠٨/ ١٧٣ . أبو داود كتاب البيوع والإجارات (١٧) . باب (٦٢) حديث رقم (٣٤٧٤) . الترمذي : السير (٢٢) . باب (٣٥) . حديث رقم (١٥٩٥) النسائي : كتاب البيوع (٤٤) . باب (٦) حديث رقم (٤٤٦٢) واللفظ لأبي داود .
(٢) صحيح البخاري : كتاب الأحكام (٩٣) . باب (٤٣) . صحيح مسلم : كتاب الإيمان (١) . باب (٢٣) حديث رقم (٥٦/٩٧) . الفتح الرباني : كتاب المناقب . باب جرير بن عبدالله . ج ٢٢ ص ٢١٢ . الترمذي : كتاب البر والصلة (٢٨) . باب (١٧) . حديث رقم (١٩٢٥) . واللفظ لمسلم والترمذي .
(٣) حياة الصحابة للكندهلوي : ج ١ ص ٣٥٥ .

أما الجديد هنا فقوله : «**والنصح لكل مسلم** ..» ، وما أوسع هذا الشرط وأعظمه. وإن كان هو أيضاً من منهاج الله كما سبق معنا ، إلا أنه يأتي هنا في نصوص بيعة وميثاق ، وعهد والتزام ، حتى برزت أهمية النصيحة بأسلوب جديد في مدرسة النبوة ، حيث تتجدد أساليب التربية والتعليم ، فتحيط بالنفس من جميع جوانبها ، وبالقلب من كل مداخله .

وتزداد أهميتها في نصوص البيعة حتى ترتبط مع ركنين من أركان الاسلام : إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم .

فهذه البيعة على هذه الأمور تمضي بتناسق وتكامل مع سائر المنهاج الرباني لا تنتقض عراه ، ولا تحل مواثيقه . وإنما هي هنا أمور جرى عليها التأكيد والتثبيت لترسخ الممارسة ، وتغذي الانطلاق ، وتدفع العزيمة .

وهذه البيعة ترافقها الرحمة والمغفرة ، حتى تظل في حدود الإنسان وفي ميادين ممارسته :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : «**كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا فيما استطعتم** » . (رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد ومالك)[1]

فهنا تمتد ظلال الرحمة والرفق من الرسول ﷺ ، على تلامذته ، جنود الدعوة ، في وضوح وتناسق مع منهاج الله ، حتى يكون منهاج الله ممارسة عملية ، وتطبيقاً واقعياً على صورة منسجمة مع طبيعة هذا المنهاج من اليسر ودفع الحرج ، ومن طبيعة الإنسان المتفاوتة في القدرات والمواهب ، والطاقة والاستعداد ، والضعف والقوة ، ذلك كله دون مجاوزة الحدود ، أو اعتداء على قواعد ، أو تفلت من منهاج .

﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ**

---

(١) صحيح البخاري . كتاب الأحكام (٩٣) . باب (٤٣) مسلم : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب (٢٢) حديث رقم (١٨٦٧/ ٩٠) النسائي : كتاب البيعة (٣٩) .باب (٢٤) . حديث (٤١٨٧ , ٤١٩٠) الفتح الرباني : ج٢٣ ص٤٩ حديث رقم ١١٠ . مالك : كتاب الجامع حديث رقم (١٧٩٨) .

أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج: ٧٨]

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ.. ﴾ [البقرة: ١٨٥]

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن: ١٦]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«دعوني ماتركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»**.

(رواه البخاري والنسائي وأحمد)(١)

فهذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تبين لنا أن هذه القواعد كلها تخرج من مشكاة واحدة نوراً وهداية، تتناسق فيما بينها دون أي تعارض.

وأول صورة للبيعة انطلق بها المسلمون، وانطلقت بها دعوة الله، هي بيعة العقبة. وكان الرسول ﷺ بمكة يعرض نفسه على الناس يدعوهم إلى دين الله. وكان يتبع الناس في منازلهم: عكاظ ومجنة، ومع كل مناسبة، وفي المواسم يقول: من يؤويني من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة. فلا يجد أحداً. بل إن قومه وذوي رحمه كانوا يصدون الناس عن دعوة الله، ويقولون: **«احذروا غلام قريش..»**(٢)

وكان أن لقي رهطاً من الخزرج عند العقبة في أحد المواسم، فدعاهم وقال بعضهم لبعض: ياقوم تعلموا والله أنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنّكم

(١) صحيح البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (٩٦). آخر حديث باب (٢). وسنن النسائي كتاب الحج (٢٤). باب (١) حديث رقم (٢٦١٩).
(٢) حياة الصحابة للكندهلوي الجزء الأول ص٣٦١.

إليه . فأجابوه ووعدوا أن يدعوا قومهم في المدينة عند عودتهم . ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم . فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم هذا الأمر ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم . فلم يبق دار من دور الأنصار إلا فيها ذكر لرسول الله ﷺ.

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوا رسول الله ﷺ بالعقبة الأولى ، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب [١]. وبيعة النساء كما وردت في الآية السابقة من سورة الممتحنة [٢]، وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه فقد كان ممن حضر هذه البيعة مع بني عوف بن الخزرج ، فلما انصرف القوم بعث معهم مصعب بن عمير رضي الله عنه .

ثم خرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم من المدينة مع حجاج قومهم أهل الشرك حتى قدموا مكة ، وواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق وكانوا يكتمون من معهم من قومهم من المشركين أمرهم [٣].

حتى إذا كانت ليلة الموعد تسللوا من رحالهم للميعاد تسلل القطا ، مستخفين ، حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة . وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين [٤]. فحضر الرسول ﷺ ومعه عمه العباس . فتكلم العباس ليستوثق للنبي ﷺ . فقال : «يامعشر الخزرج (يعني الأوس والخزرج) .. إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده. وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما وعدتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص ٤٣١ .
(٢) سيرة ابن هشام الجزء الأول ص ٤٣٨ .
(٣) الوثائق السياسية ص ٣١ سيرة ابن هشام ص ٤٤١ .
(٤) الوثائق السياسية ص ٣١ سيرة ابن هشام ص ٤٤١ .

فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده». فقالوا قد سمعنا ماقلت . فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ماأحببت . فتكلم الرسول الله ﷺ فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام . ثم قال : «**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**». قال فأخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال : «نعم ، والذي بعثك بالحق نبياً ، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر» . قال فاعترض القول ، والبراء يكلم رسول الله ﷺ ، أبو الهيثم بن التيهان . فقال : «يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالا ، وإنا لقاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا» ، قال : فتبسم رسول الله . ثم قال : «**بل الدم الدم ، والهدم الهدم . أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم . ثم قال رسول الله ﷺ : أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً ، ليكونوا على قومهم بما فيهم» . فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس**[1] . وفي رواية عن عاصم بن عمر بن قتادة : أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف : «يامعشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ، قالوا نعم . قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن . فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة . وإن ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف ، فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة» . قالوا :«فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا بذلك» . **قال** : «**الجنة** ». قالوا : ابسط يدك فبسط يده فبايعوه .

وفي رواية أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يد رسول الله . هكذا يزعم بنو النجار . وبنو عبد الأشهل يقولون بل أبو الهيثم بن التيهان . وفي

(١) حياة الصحابة : ج ١ ص ٣٦٣، ٣٦٤ .

رواية عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور . ثم بايع بعده القوم . ثم قال رسول الله : **ارفضوا إلى رحالكم** . فقال العباس بن عبادة بن نضلة : والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا ، قال : قال رسول الله ﷺ : **لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم**(١) .

ولقد أوردنا بعض الروايات ، لنستعرض بيعة العقبة الثانية من مختلف وجوهها ، ومن مختلف قضايا البيعة وأسسها .

ولقد رأينا أن البيعة هذه جاءت بعد اللقاء الأول في العقبة ، وكأنه كان تمهيدا لها .

ولقد تمت كذلك بظروف قاسية كانت تمر بها دعوة الله ، بين صدود قريش ومقاومتها ، وصدود معظم الناس عنها ..!.

ولذلك فقد أخذت صورة سرية ، عرضنا جوانبها من خلال الروايات السابقة . ولكنها كانت سرية على أعداء الله ، جلية بينة مع المؤمنين .

ثم كان الموعد واللقاء . فإذا بين الطرفين أسلوب مشرق رائع من الوضوح والصدق ، والنية والعزيمة ، والقوة والتصميم . وإنما كل فريق يستوثق لنفسه على أسس كريمة عادلة ، ووضوح مشرق .

وكلٌّ عرض شروطه فطلب وأعطى : حماية وأمناً ، وصدقاً ووفاء . وما أجمل بيعة الوفاء . وما أروع الوفاء بالبيعة، إنها نعمة الرجولة ، والفطرة السليمة، والعطاء السخي والربح العظيم . إنها نعمة من الله على من يشاء من عباده ...!

ولم يكن العهد والمساومة والشروط تدور حول غنيمة في حرب ، أو ربح

(١) سيرة ابن هشام الجزء الأول ص٤٤١ - ٤٨٨ .

في تجارة دنيوية ، أو منصب وزعامة ، أو جولة انتخابات ورياسة. إنها لم تكن لتتصل بشيء من ذلك أبداً .

ولننظر التجارة والربح ، والعطاء والوفاء ، ولننظر على ماذا كانوا يتعاهدون .

قال : « **أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ..** » . **وهذا ما طلبه رسول الله ﷺ** . وبغير توفير هذا الشرط الذي كانت تحتاجه الدعوة في تلك الفترة بين صدود قريش وتعذيبها للمؤمنين ، بغير توفير هذا الشرط فستضطرب أمور كثيرة ، وتختل قواعد وأسس .

وماذا قالت الأنصار ، فلنسمع إلى أبي الهيثم بن التيهان : « فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا .. » ، فمع البسمة المطمئنة التي أضاءت من وجه الرسول ﷺ، انطلقت كلمات العهد الموثق والإيمان الثابت ، والحق اليقين ، انطلقت كلمات ذلك كله لتطمئن القلوب وتثبت العهود .

«**بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منّي ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم** » .

ما أعظمها من كلمات صادقة انطلقت لتشق طريق الدعوة إلى الله شقاً بين صخور قريش وسدود الكافرين .

ومع وقفة أخرى في هذه البيعة :

«فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ..» ؟! سؤال حق عادل ، وكلمات تجد لهفة الصدق ورغبة المقبل بين أحرفها وظلالها . سؤال عظيم في ميثاق عظيم ، ووضوح وجلاء ، ولكن الإجابة كانت أعظم ، كانت أعظم من ذلك بكثير : إنها تجاوزت كل صخور قريش ، وسدود الكافرين ، وتعذيب المجرمين : إنها إجابة تجاوزت كل رغبات الدنيا ولهفات الدنايا ، إنها وثبة الحق

إلى عالم الحق ، تجاوزت المال والبنين ، والنساء والشهوات ، والخيول والأنعام ، والذهب والفضة ، والقصور والرياش ، والأنهار وزخارف الدنيا ، إنها تجاوزت كل هذا المتاع الزائل إلى الحق الثابت . فأجاب رسول الله ﷺ إجابة اليقين ! كلمة واحدة فقط «الجنة» . فاطمأنت النفوس ، ورضيت القلوب ، وفرحت العيون . فقالوا : ابسط يدك . فبسط يده ، فبايعوه .

فلقد تحدد بذلك منطلق البيعة وأسلوبها ، وهدفها ومحورها . إنها بيعة العقيدة . فحق للشيطان أن يرتعد فيصرخ بأعلى صوته : ياأهل الجباجب .. هل لكم في مذمم والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم .. إلى آخر الرواية الواردة في سيرة ابن هشام(١) .

وهذه البيعة تختلف عن البيعة الأولى في العقبة : فتلك كانت بيعة النساء ، وهذه بيعة الحرب حين أذن الله لرسوله ﷺ في القتال ، ولم يكن قد أذن الله بالقتال وقت العقبة الأولى . فبايع الرسول ﷺ على حرب الأحمر والأسود في العقبة الثانية . أخذ لنفسه ، واشترط على القوم لربه ، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة .

وهذه البيعة لاتنقض بيعة العقبة ولاتنسخها . وإنما هي تمثل مرحلة جديدة في الدعوة ، وقفزة جديدة ، على نمو واستمرار في مسيرة الدعوة ، وثبات واستقرار في قواعدها وأسسها .

ومضت البيعة في حياة الدعوة بذلاً وعطاء ، وصدقاً ووفاء . وظلت البيعة عهداً يثبت ويذكر ، ويعين ويقوي ، وكلما استدعى موقف بيعة أو تثبيتاً لبيعة، كان ذلك يتم على نفس أسس منهاج الله .

ولنأخذ أمثلة ونماذج من هذه البيعات :

أخرج الحسن بن سفيان والطبراني في الأوسط وأبو نعيم والحاكم والبيهقي

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص٤٤٧ .

وابن عساكر عن بشير بن الخصاصية رضي الله ﷺ عنه قال : **أتيت رسول الله ﷺ لأبايعه فقلت علام تبايعني ، يارسول الله فمد رسول الله ﷺ يده فقال : «تشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله . وتصلي الخمس لوقتها ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، وتجاهد في سبيل الله » . قلت : يارسول الله كلاّ نطيق إلا اثنتين فلا أطيقهما : الزكاة ، والله مالي إلا عشر زودهن رسل أهلي وحمولتهن . وأما الجهاد فإني رجل جبان ويزعمون أنه من ولى فقد باء بغضب من الله. وأخاف إن حضر القتال أن أخشع بنفسي فأفر فأبوء بغضب من الله . فقبض رسول الله يده ثم حركها ثم قال أبايعك . فبسط يده فبايعته عليهن كلهن »**[1] .

فهذه البيعة جمعت أركان الإسلام والجهاد . وجعلت مع بعضها ظلالاً من التوكيد والوضوح .. «**وتصلي الصلوات الخمس لوقتها**» وهذا الحوار بين الرسول ﷺ وبشير رضي الله عنه ليوضح لنا منزلة حرية الرأي ، ووضوح الكلمة ، وصدق اللهجة ، وعزيمة البيعة إنه حوار مشرق يكشف لنا عن صور من الإيمان في ميدان الممارسة والواقع .

ولقد سبق حديث رسول الله ﷺ عن جرير رضي الله عنه قال : «**بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم** » .

(أخرجه الشيخان والترمذي وأحمد) .

وجاء هذا الحديث في روايات مختلفة لأحمد والنسائي . والروايات كلها تدور حول هذه الصورة وإنما يزيد هذا الأمر أو ذاك في هذه الرواية أو تلك قوة أو تأكيداً .

ومثل آخر :

عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ

---

(١) حياة الصحابة للكندهلوي . ج ١ . ص٣٥٤ .

تسعة أو ثمانية أو سبعة . فقال : ألا تبايعون رسول الله ﷺ . فرددها ثلاث مرات. فقدمنا أيدينا فبايعنا رسول الله ﷺ فقلنا يارسول الله ، قد بايعناك فعلى أي شيء نبايعك ، فقال : «على أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً ، والصلوات الخمس ، وأسرّ كلمة خفية - أن لاتسألوا الناس شيئاً قال : فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوطه فما يقول لأحد يناوله إياه . (أخرجه النسائي)[1]

فهنا جاءت البيعة لتضيف أمراً جديداً : **«أن لاتسألوا الناس شيئاً»** . وكانت بيعة على هذا الأمر الخاص .

ونلمح هنا عظمة التربية في الإسلام ، عظمة البناء ، حين تجتمع كل الوسائل والطاقات ، كل الدوافع والمناسبات ، وسائل تربية وبناء . وهذه البيعة تعلم الناس أركان الإسلام وتأخذ منهم العهد على ذلك وتضيف مسلكاً ونهجاً ، وخلقاً ، وإيماناً . ولكنه مسلك خاص لايقوى عليه كل المسلمين ، فاختص به هذا النفر من المسلمين في هذه البيعة ، وربما آخرون في مناسبات ومواقف كما حدث لثوبان مولى الرسول ﷺ أيضاً .

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من يبايع» فقال ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله : بايعنا يارسول الله ، قال : «على أن لاتسأل الناس شيئاً » . فقال ثوبان : فما له ، يارسول الله ، قال : الجنة . فبايعه ثوبان . قال أبو أمامة : فلقد رأيته بمكة في أجمع مايكون من الناس يسقط سوطه وهو راكب فربما وقع على عاتق رجل فيأخذه الرجل فيناوله فما يأخذه حتى يكون هو ينزل فيأخذه[1] .

وهذا الصدق في البيعة والوفاء بالالتزام ، ينهض إليه الرجال الصادقون

---

(١) حياة الصحابة للكندهلوي . ج١ . ص٣٥٦ . ورواه النسائي : كتاب الصلاة (٥) . باب (٥) حديث رقم (٤٦٠) .

(٢) حياة الصحابة ج١ ص (٣٥٧) . وذكر أخرجه الطبراني في الكبير . وأحمد والنسائي وغيرهما مختصرا .

والعاملون المؤمنون ، يحملون مع رسول الله ﷺ أعباء الدعوة ، فيتعهدهم في مدرسة النبوة إيماناً وعلماً وعملاً . وهذا الوفاء من ثوبان رضي الله عنه في خط الدعوة الطويل على هذا الأمر ، وفاء عظيم .

وعن يعلى بن مُنْيَة رضي الله عنه قال : جئت رسول الله ﷺ ثاني يوم الفتح فقلت : يارسول الله ، بايع أبي على الهجرة . قال : « بل أبايعه على الجهاد ، وقد انقطعت الهجرة يوم الفتح » (١) .

وهنا بيعة على الجهاد ! فالهجرة قد انتهت يوم الفتح . ولكن الجهاد في سبيل الله فتح منذ أن أذن لرسوله بالقتال ، وسيظل باب الجهاد مفتوحاً لايقفل أبداً إلى يوم القيامة .

فعن مجاشع بن مسعود السّلمى قال : أتيت النبي ﷺ أبايعه على الهجرة فقال «مضت الهجرة لأهلها » . فقلت : علام تبايعنا ، قال : «على الإسلام والجهاد» .
(أخرجه الشيخان)(٢) .

وهذه البيعة كسابقتها مع يعلى بن منية . فقد مضت الهجرة لأهلها يوم الفتح فتح مكة .

وأما يوم الفتح فقد أخذ الرسول ﷺ البيعة من الناس .

عن عبد الله بن عثمان بن خثيم أن محمد بن الأسود بن خلف أخبره أن أباه الأسود رضي الله عنه رأى رسول الله ﷺ يبايع الناس يوم الفتح . قال : جلس عند قرن (جبل صغير وأعلى الجبل) مستقبله ، فبايع الناس على الإسلام والشهادة . قلت : وما الشهادة ؟ قال : أخبرني محمد بن الأسود بن خلف أنه بايعهم على الإيمان بالله وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . (أخرجه أحمد) (٣)

(١) حياة الصحافة ج١ ص ٣٥٩ وذكر أخرجه البيهقي ج٩ ص ١٦ .
(٢) حياة الصحابة ج١ ص ٣٥٣ .
(٣) حياة الصحابة ج١ ص ٣٥٢ .

وهذا العهد يوم الفتح ، يأخذ من الناس عهدهم على أسس الإسلام وقواعده، أسس الدين الذي دخلوا فيه أفواجاً فهو العهد الأول والبيعة الأولى بالنسبة إليهم . ونموذج آخر :

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : **بايعت النبي ﷺ أنا وأبو ذر وعبادة بن الصامت وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة رضي الله عنهم وسادس : على أن لاتأخذنا في الله لومة لائم » . وأما السادس فاستقاله فأقاله .**
(أخرجه ابن عساكر والطبراني بنحوه)[1] .

وهذا أمر عظيم لايقوى عليه إلا الأقوياء حقاً : أن لاتأخذهم في الله لومة لائم. عبادة بن الصامت ، وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة، كلهم كانوا إن شاء الله على العهد الذي أعطوه . رضي الله عنهم وعن سائر الصحابة أجمعين .

والسادس استقال .. أي طلب الإعفاء من هذه البيعة ، فأعفاه الرسول ﷺ . وهنا الصدق والوضوح ، والأمانة والعدل ، ومعرفة المسلم حده، وهنا النبوة والقيادة ، والحكمة والتربية ، فأقاله . لم يسجنه ، ولم يعدمه ، ولم يحقر عليه نفسه ، وإنما تركه إلى الله . وهكذا كانت المواهب والقدرات تمارس إيمانها في الواقع البشري بعزيمة وقوة ورضاء ، وقبول . حتى إذا اشتدت الأمور ثبت الرجال على العهد ، مهما بلغت الشدة ، أو اشتد النصب :

عن أنس رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فإذا المهاجرون والأنصار ، رضي الله عنهم يحفرون في غداة باردة فلم يكن لهم عبيد يعملون بذلك لهم . فلما رأى مابهم من النصب والجوع قال ﷺ : «اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة . فقالوا مجيبين :

نحن الذين بايعوا محمداً — على الجهاد مابقينا أبداً[2] .

---

(١) حياة الصحابة ج١ ص ٣٥٢ .
(٢)صحيح البخاري : الأحكام (٩٣) . باب (٤٣) . وكتاب مناقب الأنصار (٦٢) باب (٩) . حياة الصحابة للكندهولي ج١ ص ٣٦٧ . واللفظ من حياة الصحابة .

هذه هي البيعة الحقة ... فلما اشتد التعب ، وعظم الهم ، واقترب الأعداء : الكافرون والمشركون والمنافقون وأهل الكتاب ، يحيطون بالمدينة ، في هذا الموقف العصيب ، لم يجد الرسول ﷺ مايكافىء به أصحابه خيراً من دعوة بالمغفرة للأنصار والمهاجرة .

إنها كلمات طاهرة نقية مؤمنة ، خرجت من القلوب على سجيتها دون تكلف، فأجابوا : نحن الذي بايعوا محمداً . إذن هذا هو العهد ، وهو البيعة .

وعن سلمة رضي الله عنه قال : بايعت النبي ﷺ ثم عدلت إلى ظل الشجرة. فلما خف الناس قال : «يا ابن الأكوع ، ألا تبايع ثم قال : قد بايعت يارسول الله قال : «أيضا فبايعته الثانية» . (رواه مسلم)(١)

وكذلك عن يزيد بن عبيد قال : قلت لسلمة : على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، قال : على الموت . (رواه مسلم والنسائي) (٢)

وهذا الموقف كان يوم الحديبية ، وسترد قصتها في فصل مقبل . ولكن هذا الموقف هو موقف البيعة ، والتي سميت ببيعة الرضوان تحت الشجرة . وفيها نزل قول الله سبحانه وتعالى في سورة الفتح :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) ﴾ [الفتح: ١٠]

وكذلك قوله تعالى

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) ﴾ [الفتح: ١٨، ١٩]

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير (٣٢) باب (٤٥) . حديث رقم (١٨٠٧) . وحياة الصحابة ج١ ص ٣٦٨ .

(٢) صحيح مسلم : كتاب الإمارة (٣٣) . باب (١٨) حديث رقم (١٨٦٠/ ٨٠) النسائي : كتاب البيعة (٣٩) . باب البيعة على الموت . (٨) حديث رقم (٤١٥٩) .

وذلك : أنه حين بلغ رسول الله ﷺ أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قد قتل ، قال : لانبرح حتى نناجز القوم . فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة . فبايع رسول الله ﷺ الناس ، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس ، أخو بني سلمة ، فكان جابر بن عبدالله يقول : والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط نقاته ، قد ضبأ إليها ، يستتر بها من الناس . ويروى أن رسول الله ﷺ بايع لعثمان فضرب بإحدى يديه على الأخرى وكان الناس يقولون بايعهم رسول الله ﷺ على الموت .

وكان جابر بن عبدالله يقول : إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت ، ولكن بايعنا على أن لانفر . (رواه النسائي)[1]

ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان باطل ومضت قصة الحديبية بعد ذلك ، ومضى الصلح على نحو ماسيأتي .

وهذه بيعة في موقف خاص طارىء . أخذها الرسول الكريم من أصحابه الذين كانوا على بيعة وميثاق وعهد . لكن الموقف الجديد جعل الرسول ﷺ يستوثق من ناحية ، ويهيء النفوس ويعدها لهذا الموقف الجديد من ناحية ثانية . ومنهم من أخذ الرسول ﷺ منه البيعة أكثر من مرة في هذا الموقف نفسه . كما مر معنا في حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه .

ونموذج آخر من البيعة :

عن جرير رضي الله عنه قال : «بايعت النبي ﷺ على السمع والطاعة والنصح للمسلمين »[2].

وفي رواية له أخرى : قال : أتيت النبي ﷺ فقلت : «أبايعك على السمع

---

(١) النسائي : كتاب البيعة (٣٩) . باب (٧) . حديث رقم (٤١٥٨) .
(٢) حياة الصحابة ج ١ ص ٣٧٠) .

والطاعة فيما أحببت وفيما كرهت». فقال النبي ﷺ: «أتستطيع ذلك أو تطيق ذلك، فاحترز، قل فيما استطعت». فقلت: فيما استطعت. فبايعني والنصح للمسلمين[1].

والبيعة لم تكن تقتصر على الرجال، كما رأينا في سورة الممتحنة. فقد كانت البيعة للرسول ﷺ من الرجال والنساء. فعندما قدم المدينة أخذ البيعة من النساء.

عن أم عطية رضي الله عنها قالت: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جمع نساء الأنصار في بيت، ثم أرسل إليهن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقام على الباب فسلم عليهن فرددن عليه السلام. فقال: أنا رسول رسول الله ﷺ إليكن فقلن: مرحباً برسول الله ﷺ وبرسول رسول الله ﷺ. فقال: تبايعن على أن لاتشركن با لله شيئاً، ولاتسرقن، ولاتزنين، ولا تقتلن أولادكن ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، ولاتعصين في معروف. قلن نعم. فمد يده عمر من خارج الباب ومددن أيديهن من داخل الباب، ثم قال: اللهم اشهد. وأمرنا أن نخرج في العيدين الحيض والعتق. ونهينا عن اتباع الجنائز ولا جمعة علينا[2].

وعن أميمة بنت رقيقة قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة يبايعنه فقلن: «نبايعك يارسول الله ﷺ، على أن لانشرك بالله شيئاً ولانسرق ولانزني، ولانقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولانعصيك في معروف». فقال رسول الله ﷺ: «فيما استطعتن وأطقتنّ». فقلن: «الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا». هلّم نبايعك يارسول الله: فقال: «إني لاأصافح النساء إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة». (أخرجه مالك)[3].

---

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ٣٧٠).
(٢) حياة الصحابة ج١ ص ٣٧١ وذكر أخرجه بطولة ابن سعد والبخاري باختصار.
(٣) مالك: كتاب الجامع. باب ماجاء في البيعة، حديث رقم (١٧٩٩). ص ٦٩٦. حياة الصحابة. ج١ ص ٣٨٤. وذكر أخرجه الترمذي وغيره مختصراً. النسائي: كتاب البيعة (٣٩). باب (١٨). حديث رقم (٤١٧٩).

ومثل ذلك كانت بيعة سائر من بايع من النساء ، مثل فاطمة بنت عتبة رضي الله عنها ، وعزة بنت خايل رضي الله عنها ، وهند بنت عتبة رضي الله عنها زوج أبي سفيان . ومع كل بيعة نجد لفتة جديدة وظلاً جديداً وموقفاً جديداً .

فمع أميمة بنت رقيقة في رواية أخرجها الطبراني ورد : «**ولاتنوحي ولاتبرجي تبرج الجاهلية الأولى**»[1].

ومع فاطمة بنت عتبة : وضعت يدها على رأسها حياء عند كلمة «**ولا يزنين**» فأعجب رسول الله ﷺ ما رأى منها[2] .

ومع عزة بنت خايل : «**ولاتئدين فتبدين أو تخفين**»[3] .

ومع هند بن عتبة : قالت : «لا أبايعك على السرقة ، إني أسرق من مال زوجي». فأرسل إلى أبي سفيان فتحلل لها منه . فقال أبو سفيان : «أما الرطب فنعم . وأما اليابس فلا ، ولا نعمة» . وفي رواية أن هنداً قالت «وهل تزني الحرة..»، وقالت كذلك : «هل تركت لنا ولداً يوم بدر»[4] .

ومن البيعات بيعة من لم يحتلم :

عن محمدبن علي بن الحسين رضي الله عنهم : «أن النبي ﷺ بايع الحسن والحسين وعبدالله بن عباس وعبدالله بن جعفر رضي الله عنهم وهم صغر لم يبقلوا ولم يبلغوا ، ولم يبايع صغيراً إلا منا » أخرجه الطبراني . قال الهيثمي وهو مرسل ورجاله ثقات[5] .

وأخرج الطبراني أيضاً عن عبدالله بن الزبير وعبدالله بن جعفر رضي الله عنهم أنهما بايعا رسول الله ﷺ وهما ابنا سبع سنين . فلما رآهما رسول الله ﷺ تبسم وبسط يده ، فبايعهما . وفيه إسماعيل بن عياش وفيه خلاف كما قال الهيثمي ، وبقية رجاله رجال الصحيح[6] .

---

(١) ، (٢) ، (٣) (٤) حياة الصحابة ج ١ ص ٣٧٤ - ٣٧٨ .

(٥) ، (٦) حياة الصحابة ج ١ ص ٣٧٩ .

فبيعة الصغار إذن على حسب هذه الروايات ليست عامة . وإذا أخذنا بهاتين الروايتين فتكون محصورة في الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبدالله بن جعفر . وهؤلاء ، على حداثة أسنانهم كان لهم منزلة خاصة ، وكانوا على صغرهم على مواهب فذة ، وهم على قرابة من رسول الله ﷺ فاجتمعت لهم ميزات لم تجتمع لغيرهم . فقد أخرج النسائي عن الهرماس بن زياد رضي الله عنه ، قال : «مددت يدي إلى رسول الله ﷺ وأنا غلام ليبايعني ، فلم يبايعني» .

وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وخلف بعده تلامذة نجباء ، ورجالاً أفذاذاً ، وخلف بعده منهاج الله قرآناً وسنة ، إنه خلف بذلك أمة ! هي أمة الإسلام فيها رجالها وفيها نهجها الحق . تمضي إلى يوم القيامة تدعو إلى الله ورسوله !

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾
[آل عمران: ١٤٤]

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ﴾ [الزمر: ٣٠]

وظل منهاج الله نوراً يهتدي به المسلمون . وظلت الشورى ، والسمع والطاعة والتناصح والرأي ، وظلت البيعة ماضية في حياة المسلمين . وظهرت عظمة الإسلام ، وعظمة تلامذة النبوة في هذه اللحظات العصيبة ، حين توفي رسول الله ﷺ ظهرت هذه العظمة جلية قوية ، والمؤمنون يمارسون إيمانهم كله في صورة رائعة تتمازج فيها الشورى وحرية الرأي ، والنصيحة وصدق الإيمان ، والسمع والطاعة ، والبيعة والاعتصام على نحو فريد كريم ، جمعته سقيفة بني ساعدة تحت ظلال الإيمان ، حيث تتحرك الطاقة البشرية في الجماعة المؤمنة ، والطبيعة البشرية في هدى العقيدة .

أخرج أحمد عن ابن عباس أن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهم رجع إلى رحله . قال ابن عباس : وكنت أقرىء عبدالرحمن بن عوف ، فوجدني وأنا أنتظره . وذلك بمنى في آخر حجة حجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فقال عبدالرحمن بن عوف : إن رجلاً أتى عمر بن الخطاب فقال : إن فلاناً يقول : لو قد مات عمر بايعت فلاناً والله ماكانت بيعة أبي بكر إلا فلتة فتمت فقال عمر : إنّي قائم العشية إن شاء الله في الناس فمحذرهم هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغصبوهم أمرهم . قال عبدالرحمن فقلت يا أمير المؤمنين : لاتفعل ، فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم ، وإنهم الذين يغلبون على مجلسك إذا قمت في الناس ، فأخشى أن تقول مقالة يطير بها أولئك فلا يعوها ولايضعوها مواضعها . ولكن حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة ، وتخلص بعلماء الناس وأشرافهم ، فتقول ماقلت متمكناً ، فيعون مقالتك ، ويضعونها مواضعها . قال عمر رضي الله عنه : لئن قدمت المدينة صالحاً لأكلمن بها الناس في أول مقام أقومه . فلما قدمنا المدينة في عقب ذي الحجة ، وكان يوم الجمعة ، عجلت الرواح صكة الأعمى . فوجدت سعيد بن زيد عند ركن المنبر الأيمن قد سبقني ، فجلست حذاءه تحك ركبتي ركبته . فلم أنشب أن طلع عمر . فلما رأيته قلت : ليقولن العشية على هذا المنبر مقالة ماقالها عليه أحد قبله . قال : فأنكر سعيد بن زيد ذلك وقال : ماعسيت أن يقول مالم يقلْ أحد . فجلس عمر على المنبر . فلما سكت المؤذن قام فأثنى على الله بما هو أهله ، ، ثم قال : أما بعد أيها الناس فإني قائل مقالة وقد قدر لي أن أقولها لا أدري لعلها بين يدي أجلي ، فمن وعاها وعقلها فليحدث بها حيث انتهت به راحلته ومن لم يعها فلا أحل له أن يكذب عليّ : إن الله بعث محمداً بالحق وأنزل معه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها وعقلناها ، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده . فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : لانجد آية الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله عز وجل ، فالرجم في كتاب الله حق على من

زنى إذا أحصن من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة ، أو كان الحمل ، أو الاعتراف . ألا وإنا قد كنا نقرأ « **لاترغبوا عن آبائكم فإن كفراً بكم إن ترغبوا عن آبائكم** » ألا وإن رسول الله ﷺ قال : « **لا تطروني كما أطري عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام - فإنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله** » . وقد بلغني أن قائلاً منكم يقول : لو قد مات عمر بايعت فلاناً ، فلا يغترن امرؤ أن يقول : إن بيعة أبي بكر رضي الله عنه كانت فلتة فتمت . ألا وإنها كانت كذلك . إلا أنّ الله وقى شرها . وليس فيكم اليوم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر . وإنه كان من خبرنا حين توفي رسول الله ﷺ ، أن علياً والزبير ومن كان معهما تخلفوا في بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وتخلف عنها الأنصار بأجمعها في سقيفة بني ساعدة ، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر ، فقلت له : ياأبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار ، فانطلقنا نؤمهم ، حتى لقينا رجلان صالحان ، فذكرا لنا الذي صنع القوم ، فقالا : أين معشر المهاجرين ، فقلت : نريد إخواننا في الأنصار فقالا : لاعليكم لاتقربوهم واقضوا أمركم يامعشر المهاجرين ، فقلت : والله لنأتينهم . فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة فإذا هم مجتمعون . وإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل ، فقلت : من هذا ، قالوا : سعد بن عبادة . فقلت : ما له ، قالوا : وجع . فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله ، وقال : أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام . وأنتم يامعشر المهاجرين رهط نبينا وقد دفت دافة منكم (قال وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر) فلما سكت أردت أن أتكلم وكنت قد زورت مقالة أعجبتني أردت أن أقولها بين يدي أبي بكر . وكنت أداري منه بعض الحد . فقال أبو بكر : على رسلك ياعمر ، فكرهت أن أغضبه فتكلم - وهو كان أحكم مني وأوقر - فوالله ماترك كلمة أعجبتني ، من تزويري إلا قالها بديهة أو مثلها أو أفضل حتى سكت . فقال : أما بعد فما ذكرتم من خير فأنتم أهله . وما تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش . هم أوسط العرب داراً ونسباً . وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين

فبايعوا أيهما شئتم ، وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح . فلم أكره شيئاً مما قال غيرها . كان والله أن أقدم فتضرب عنقي ، لايقربني ذلك إلى إثم ، أحب إليّ أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر (إلا تغير نفسي عند الموت) . فقال قائل من الأنصار: أنا جذلها المحكك وعذيقها المجرب . منا أمير ومنكم أمير يامعشر قريش . قال فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى خشينا الاختلاف . فقلت : ابسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته ، وبايعه المهاجرون ثم الأنصار . ونزونا على سعد بن عبادة. فقال قائل منهم قتلتم سعداً . فقلت : قتل الله سعداً ، ، قال عمر : أما والله ماوجدنا فيما حضرنا أمراً هو أرفق من مبايعة أبي بكر . خشينا إن فارقنا القوم ، ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة . فإما أن نبايعهم على مالا نرضى ، وإما أن نخالفهم فيكون فساد . فمن بايع أميراً عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له ، ولابيعة للذي بايعه تغرة أن يقتلا » [(١)].

وفي هذا الموقف العظيم ، نرى في هذه الرواية الإيمان في جماعة المؤمنين ، يعمل في كل ناحية ومن كل ناحية ومن كل وجه . ففي موقف الخلاف مما هو أشد مايختلف الناس عليه يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى من سأله أين تريدون؟. «نريد إخواننا من الأنصار » فالأخوة في الله مازالت تعمل عملها ، ورابطة العقيدة مازالت على قوتها . فما قالها عمر إلا وهي كلمات تخرج من قلبه ويقينه وإيمانه .

وأمر آخر، فعندما قام رجل من الأنصار قال : نحن أنصار الله . نعم أنصار الله لا أنصار عصبية جاهلية ، ولا أنصار رجل من الناس ، ولا أنصار إقليمية . نعم أنصار الله وكتيبة الإسلام .

وموقف آخر : حين تكلم أبو بكر رضي الله عنه ماأنكر على الأنصار فضلهم وما ذكروه . ثم رد الأمر كله إلى منهاج الله ، فقال : ماتعرف العرب هذا الأمر

(١) الفتح الرباني : كتاب الإمارة والخلافة . ج٢٣ ص ٥٨ حديث رقم (١٣٥) وحياة الصحابة ج٢ ص ١٠٤ -١١١ السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص (٦٥٦) .

إلا لهذا الحي من قريش . هم أوسط العرب داراً ونسباً !. وذلك لحديث رسول الله ﷺ : **عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « لايزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان »** . (رواه مسلم)[1]

وكذلك :

عن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إن هذا الأمر في قريش لايعاديهم أحد إلا كبه الله في النار على وجهه ما أقاموا الدين** » .
(رواه البخاري)[2]

ثم هي حرية في الرأي ! مارست كل طائفة حقها في حرية الرأي على النحو الذي سبق أن عرضناه ، وكل يصدر عن منهاج الله بحجته وبرأيه .

ثم هي النصيحة ! ينصح كلٌّ لله ولرسوله ولكتابه ولعامة المسلمين وأئمتهم . فرجل من الأنصار نصح على حسب مايراه خيرا فقال : منا أمير ومنكم أمير. وأبو بكر نصح . وقال عمر : «أما والله ماوجدنا أمراً هو أرفق من مبايعة أبي بكر».

ثم هو خلق الإسلام ! يقول أبو بكر : «على رسلك ياعمر ...» .

ويقول عمر فكرهت أن أغضبه ، «وكنت أداري منه بعض الحد» . وهكذا مع كل كلمة وكل حركة ، خلق وأدب والتزام .

ثم هي الشورى ! حيث اجتمع المسلمون مهاجرين وأنصاراً ، ودار الرأي وقامت الحجة على نهج واضح ، كلمة بينة . وكانت كلمة عمر رضي الله عنه بعد ذلك : «فمن بايع أميراً من غير مشورة المسلمين فلا بيعة له ولابيعة للذي بايعه تغرة أن يقتلا » .ثم هي النية وصدق الاتجاه ! ففي هذا الموقف العصيب حيث تثور عادة الأهواء فتعصف بالرجال والأمة ، وتعصف بالعقيدة .

---

(١) مسلم : كتاب الامارة (٣٣) . باب (١) حديث رقم (١٨٢٠/ ٤) .
(٢) البخاري : كتاب الأحكام (٩٣) . باب (٢) .

في هذا الموقف العصيب ، كانت النية الصادقة أكبر من الهوى ، وكان الإيمان أوسع من الرغبات . فألجم الإيمان هوى إن كان قد تحرك ، وحبست النية رغبات إن كانت تريد الانطلاق .

ثم هي الجماعة على منهاج الله ، تلتقي عليه أولاً قبل أن تلتقي على أشخاص ، وتتمسّك به أكثر من تمسكها بأشخاص ، ويظل الخير من خلال هذا اللقاء على منهاج الله : تحترم للرجال منازلهم ، وتصان للمواهب مكانتها . فما كاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبايع أبا بكر بعد أن دارت النصيحة والرأي وبعد أن قامت الشورى بين المسلمين، ماكاد عمر يفعل هذا ، حتى قام المهاجرون فبايعوا أبا بكر ، ثم قام الأنصار فبايعوا أبا بكر رضي الله عنه .

وقد أخرج ابن عساكر عن سويد بن غفلة رضي الله عنه قال : دخل أبو سفيان على علي والعباس رضي الله عنهم فقال : ياعلي وأنت ياعباس . مابال هذا الأمر في أذل قبيلة من قريش وأقلها . والله ، لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجالاً . هذه كلمات أبي سفيان تنفث روح القبيلة وتثير الضغائن وتحرك الأهواء . فبماذا أجاب علي رضي الله عنه ؟ ولنسمع إجابة المؤمن العظيم ، إجابته تذيب كل نفث أبي سفيان وتذروه حتى لايكون شيئاً : «لا والله ماأريد أن يملأها عليه خيلاً ورجالاً . ولولا أن رأينا أبا بكر لذلك أهلاً ماخليناه وإياه . ياأبا سفيان إنّ المؤمنين قوم نَصَحَة بعضهم لبعض متوادون ، وإن بعدت ديارهم وأبدانهم ، وإنّ المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض ... » [1] هكذا يرد علي بن أبي طالب الأمر كله إلى منهاج الله فتنحل كل عرى الجاهلية ، وتتوثق كل عرى الإيمان .

وقد وردت روايات أخرى حول مادار بين أبي سفيان وعلي رضي الله عنهما لاتختلف في مضمونها عما أسلفنا .

وأخرج الحاكم والبيهقي عن سعد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهم أن عبد الرحمن بن عوف كان مع عمر بن الخطاب رضي الله

(١) حياة الصحابة . ج٢ ص ١١٦ .

عنهما ، وأن محمد بن مسلمة كسر سيف الزبير رضي الله عنه ، ثم قام أبو بكر رضي الله عنه فخطب الناس واعتذر إليهم وقال : والله ماكنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قط ، ولا كنت فيها راغباً ، ولا سألتها الله في سر ولا علانية، ولكني أشفقت من الفتنة ، وما لي في الإمارة من راحة ، ولكني قلدت أمراً عظيماً مالي به طاقة ولايد إلا بتقوية الله عز وجل ، ولوددت أن أقوى الناس عليها مكاني اليوم . فقبل المهاجرون منه ما قال وما اعتذر . وقال علي والزبير رضي الله عنهما وما غضبنا إلا لأنا أخرنا عن المشاورة ، وإنا نرى أن أبا بكر أحق الناس بها بعد رسول الله ﷺ ، وأنه لصاحب الغار ، وثاني اثنين ، وإنا لنعرف شرفه وكِبَرَه ، ولقد أمره رسول الله ﷺ بالصلاة بالناس وهو حي [(١)].

وهذه البيعة التي تمت في سقيفة بني ساعدة لم تكن البيعة التامة . ولكنها جمعت معظم أهل الرأي من المهاجرين والأنصار . حتى كان الغد من بعد يوم السقيفة والتقى المسلمون في المسجد .

قال ابن اسحق حدثني الزهري قال حدثني أنس رضي الله عنه أنه سمع خطبة عمر رضي الله عنه الأخيرة حين جلس على المنبر وذلك الغد من يوم توفي رسول الله ﷺ . وأبو بكر رضي الله عنه صامت لايتكلم . قال : «كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبرنا - يريد بذلك أن يكون آخرهم - فإن يك محمد قد مات فإن الله قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به ، وإن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين، وإنه أولى المسلمين بأموركم فقوموا فبايعوه » . وكانت طائفة قد بايعوه قبل ذلك في سقيفة بني ساعدة . وكانت بيعة العامة على المنبر . قال الزهري عن أنس : سمعت عمر يقول يومئذ لأبي بكر رضي الله عنهما : اصعد المنبر ، فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه عامة الناس [(٢)].

(١) المرجع السابق ص ١١٥ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص (٦٦٠) .

وعن ابن إسحق عن الزهري عن أنس رضي الله عنه رواية أخرى عن هذه البيعة العامة ، لاتختلف من حيث الجوهر عن الرواية السابقة ، وفيها أن هذه البيعة تمت في اليوم الثاني لبيعة السقيفة . وأن عمر بن الخطاب تكلم على المنبر أولاً بما يشبه الرواية السابقة ، وفيها :

«ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله . ثم قال : أما بعد أيها الناس ، فإني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أزيح علته إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله ، لايدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولايشيع قوم قط الفاحشة إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ماأطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله »(١) .

ولقد جمع أبو بكر رضي الله عنه في كلمته هذه قواعد السمع والطاعة ، وأسس البيعة جمعاً بيناً كريماً . كلمات فواحة بالصدق ، نضاحة بالأمانة ، ريانة باليقين . قالها لإخوانه وأنداده وأهل الرأي والمشورة ، وللعامة كلهم ، ولكل من بلغته أو سمع بها . ورسم نهج الحكم وخطة الخلافة .

ما أروع هذه الممارسة العملية لمنهاج الله في الواقع البشري . إنهم تلامذة النبوة تلامذة القرآن والسنة ، جابهتهم الأحداث على شكل سريع مؤلم ، يكاد ينزع القلوب من الأضلاع ، فما استكانوا ، وما خاضوا بالجدل والأهواء ، ولازعزعتهم المصيبة العظيمة ، فدين الله يمضي مع كل حدث وكل مصاب .

وما تحولت الكلمات إلى فلسفة ومراء ، ولكنها حجة تقوم لها حجة ، وبينة من منهاج الله تنهض مع بينة ، فحسم كل خلاف ، وانطوى كل هوى ، ورضيت النفوس .

---

(١) المرجع السابق ص ٦٦١ .

وكان المصاب مذهلاً ! فقد غاب الرسول النبي العظيم ﷺ الذي كان يدير للقوم أمورهم ، وانقطع الوحي الذي كان يواسي كل مصاب ، حتى ذهل عمر ابن الخطاب لحظات وهو يقول : إن محمداً ﷺ لم يمت . وما صحا من ذهوله إلا على قول أبي بكر رضي الله عنه يتلو القرآن الكريم : « **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً** » . فقال : « هذه الآية في القرآن ، والله ماعلمت أن هذه الآية أنزلت قبل اليوم » . ذهول أي ذهول ! ولكنها يقظة نعم اليقظة ! إنها يقظة المؤمن .

هنا عظمة الإيمان تبرز حين يمارسه المؤمن في مثل الأحداث العظام . وهنا عظمة الشورى ، تنهض حين تدور مع الآلام وخطف القلوب . ألا إنه جيل القرآن يظل مثلاً وقدوة يتطلع إليه الناس إلى يوم القيامة ، فطوبى لمن يبلغه ، برحمة الله وعونه . فدين الله قائم ومنهاجه قائم ، وهذا المنهاج قادر بإذن الله أن يجدد أجيالاً ، وأن يبني أمة ! كيف لا ونحن نقرأ في كتاب الله .

﴿ ...وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد: ٣٨]

وكذلك :

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الإنسان: ٢٨]

وكذلك :

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١]

ما أروع هذه الممارسة الكريمة للإيمان في هذه البيعة العظيمة :

مع هول المصاب بوفاة الرسول ﷺ .

مع انقطاع الوحي من السماء .

مع وجود الأنداد الأكفاء أهل الخلافة والولاية .

حيث اعتاد البشر أن تثور الأهواء في صراع على هذا المنصب العظيم حيث اعتاد البشر أن يعودوا إلى فلسفات وجدل ومراء .

أو إلى سلاح وعراك .

أو إلى غيلة وانتهاك حرمات .

أو إلى أي مفسدة ونفاق .

أو إلى أي شكل من أشكال الجاهلية العمياء .

في هذا الموقف مع كل هذه الآلام والمفاجآت ، مع كل الاحتمالات والأخطار ، لم يستغرق الأمر أكثر من ساعات ، ساعات قليلة محدودة ، حتى حسم الأمر على خير وبركة .

ذلك أنهم يخضعون لمنهاج الله ، فردوا أمرهم إليه لا إلى سواه. فرضيت النفوس واطمأنت القلوب .

ولو أحصينا قواعد الإسلام التي مارسها صحابة رسول الله ﷺ في هذا الموقف لوجدناها أكثر من أن تحصى . ولقد سبق أن ذكرنا طرفاً منها ، ونعيدها لنرى روعة الممارسة :

المبادرة إلى أداء الواجب ، مبادرة الأنصار والمهاجرين .

الأخوة في الله صافية صادقة .

خشية الله .

معرفة فضل الناس وعدم بخسهم حقهم .

رد الأمور إلى الله ورسوله عند اختلاف الرأي .

حرية الرأي في حدود منهاج الله .

التناصح والتعاون .

التزام الجماعة على الحق وخشية الاختلاف والتفرق على وعي ووضوح .
ثم الشورى بمختلف قواعدها وأسسها .
صدق النية والتجرد لله سبحانه وتعالى .
السمع والطاعة .

ونستطيع أن نمضي أكثر من ذلك لنعدد من خصائص هذه البيعة الكريمة ، والممارسة الأمينة ، ومع كل قاعدة آيات وأحاديث .

فإذا استعرضنا ذلك وجدنا أن تلامذة النبوة لم يكونوا يطبقون قاعدة واحدة معزولة ، ولا يأخذون بآية أو حديث معزولين عن منهاج الله ، وإنما يطبقون منهاجاً كاملاً على صورة حية متفاعلة مترابطة ، وعلى صورة متوازنة ، وذلك في الموقف الواحد ، والحادثة الواحدة .

وإذا الآيات والأحاديث ، القرآن والسنة ، منهاج الله ، ، يتمازج في نفوسهم وقلوبهم ، ودمائهم وأعصابهم ، وفطرتهم وسجيتهم ، حتى يخرج هذا كله عملاً متوازناً ، وسلوكاً واعياً .

هنا ! في هذا المجتمع المؤمن العامل بين هؤلاء التلامذة النجباء ، تلامذة النبوة هنا يمكن أن تدور الشورى وتقوم حرية الرأي ، تنهض النصيحة ، على صورة عملية واعية ، وطبيعة مهذبة نقية ، فلا يعطل ذلك قواعد ونظريات تطلقها الأمزجة ، وتدفعها التصورات البشرية .

هنا ! تكون الممارسة الصادقة الأمينة ، هي أصدق تمثيل . والعمل الواعي أيسر من الجدل والمراء ، وعي لمنهاج الله ووعي للواقع البشري .

*****

لقد رأينا في هذا الفصل ملامح البيعة يعرضها القرآن الكريم ، وتعرضها السنة وتعرضها الممارسة الأمينة . ونعرض الآن موجز ذلك في نقاط للتثبيت والتذكير :

١ - بيعة المؤمن أولاً هي بيعة لله ولرسوله . وهي عهد وميثاق . وهي نعمة من الله على عباده المؤمنين ، وأساس ذلك الخضوع لمنهاج الله قرآنا وسنة والسمع والطاعة لله ولرسوله .

٢ - ومن هذه البيعة تنطلق كل بيعة أخرى وتبنى عليها . وهي ترتبط كذلك بالسمع والطاعة على الأسس التي سبق ذكرها ، لله ولرسوله ولأولي الأمر منهم .

٣ - وتقوم البيعة على أساس وجود منهج واضح بيّن هو منهاج الله .

٤ - والبيعة الخاصة على أمر خاص ، كما سبق عرضه ، تقوم على الوضوح المتبادل وتوافر الحرية والأمن . والبيعة الخاصة لاتنقض الأساس الأول ، وهو منهاج الله. وبذلك تصبح البيعة عطاءً ووفاءً ، وصدقاً ، ورضاءً ، ووضوحاً وجلاءً ، ونية وعزيمة .

٥ - والبيعة تحترم القدرات وتراعي الاستطاعة ، وتنهض على أساس التعاون المتبادل في جو من الرحمة والتراحم .

٦ - وإذا كانت بيعة العقبة قد تمت سراً عن قريش فقد كانوا أعداءها ومناوئيها . وأما بين المؤمنين فكان كل الوضوح ، وشدة العزيمة .

٧ - والبيعة قد تكون للنساء كما هي للرجال .

٨ - ويمكن تثبيت البيعة وتوكيدها بالإعادة والتكرار .

٩ - والبيعة : بذلك تصبح مدرسة تنمي الإيمان وترفع المواهب . وهي بذلك قوة رباط كلما أمكن توثيقه فهو خير .

١٠ - والبيعة : منطلقها وتصورها وأهدافها ، لاتؤخذ من حديث واحد أو آية واحدة وإنما هي تتكامل في منهاج الله مع سائر قواعده وأحكامه .

١١ - والبيعة تقوم على أساس الشورى كما مرت معنا كلمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتمضي معها الشورى في ميدان التطبيق والممارسة وتمضي معها النصيحة والرأي .

١٢ - ولايحل نقض البيعة لهوى أو مصلحة ، أو رغبة أو رهبة فهي في كل حالاتها عهد مع الله رب العالمين . وإذا كان لبيعة أن تنقض فذلك على أسس يحددها منهاج الله بوضوح وجلاء .

١٣ - والبيعة ذاتها تدعو المؤمن أن لايكون إمعة وأن لايعطل قدراته ، وأن ينهض لمنهاج الله ، يتدبره ويتفقه فيه حتى يقوى على عهده الذي أعطاه ، ويفي بالأمانة التي نذر نفسه لها ، وحتى يحقق شروطها ويلتزم ببنودها . وهي تدعو المؤمن كذلك لأن يعي واقعه وظروفه حتى يستطيع أن يردها إلى منهاج الله ، أو يطبق منهاج الله في واقع حياته ، تطبيقاً أميناً واعياً ، فيصدق منه العهد ، ويستقيم له الأمر . وهي تدعوه لأن يعرف حده فلا يتجاوزه ، ولاينازع الأمر أهله ، ولايتصدى لما لايقوى عليه .

١٤ - والبيعة رباط الأمة المؤمنة التي اجتمعت على نهج رباني واضح ، والتقت ولها خصائصها وسماتها الأصيلة كما حددها منهاج الله ، تعرف بها في السلوك والتطبيق ، والممارسة والواقع .

١٥ - وهذه الأمة الواحدة على هذه الأسس والسمات تجتمع ولاتفترق ، وتتحد ولا تتمزق ، فتأتي البيعة لتوثق العرى وتشد العهود .

١٦ - ولقد جمعت خطبة أبي بكر رضي الله عنه قواعد السمع والطاعة وأسس البيعة جمعاً رائعاً :

(أ) «إني وليت عليكم ولست بخيركم » ، ولكنه أهل لهذه الولاية وجملته أقرب إلى التقوى وخشية الله ، وقد اعتبره المهاجرون والأنصار خيرهم . وكلمة عمر بن الخطاب : وليس فيكم اليوم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر .

(ب) إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني .

(جـ) الصدق أمانة .

(د) الكذب خيانة .

(هـ) الضعيف فيكم قوي عندي حتى أزيح علته إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله .

(و) لايدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل .

(ز) ولايشيع قوم قط الفاحشة إلا عمهم الله بالبلاء .

(حـ) أطيعوني ماأطعت الله فيكم ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .

(ط) قوموا إلى صلاتكم .

إنه منهاج ، وخطة خلافة ، لم يبتدعها وإنما صاغها صياغة المؤمن ، وعرضها عرض المؤمن .

وكنا نود أن نتابع نماذج من البيعة أخرى : بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه ، وبعد وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وسائر الخلفاء الراشدين .

ولكننا آثرنا أن نعرض البيعة بعد وفاة أبي بكر في الفصل الخاص بالشورى في حياته ، وكذلك بالنسبة لعمر بن الخطاب .

وسنكتفي بهذا القدر من دراسة البيعة ، إذ الغاية أن نطرقها من حيث ارتباطها بالشورى من خلال المنهاج الرباني .

بهذا نعتقد أننا نكون قد عرضنا ملامح الشورى في المنهاج الرباني قرآنا وسنة ، وعرضنا معها كذلك ملامح لما يرتبط مع الشورى من مواضيع ، نعرض ذلك كله آيات وأحاديث ، قرآنا وسنة .

وبهذا العرض ، نكون قد أوردنا القانون العام الذي يحكم الشورى ويحددها في المنهاج الرباني . إنا نكون قد استعرضنا النصوص وهي الحق

الكامل . إنها النصوص التي نزل بها الوحي من السماء على رسول الله ﷺ . فهي الحق المطلق ، تتناسق وتتكامل مع سائر منهاج الله . إنها ليست نظريات بشرية، ولاتصورات بشرية . إنها من عند الله .

هذه النصوص التي عرضناها من منهاج الله لم يتنزل بها الوحي الكريم لذلك العصر وحده . إنها لجميع العصور والأجيال . وستظل هي مهمة الإنسان ومسئوليته أن يمارس هذه القواعد الربانية في واقعه البشري . إنها الأمانة والاستخلاف والابتلاء في عبودية صادقة لله رب العالمين .



البــاب الرابع

الاختـــلاف

مقدمة

إذا استعرضنا التاريخ البشري منذ أقدم الأزمنة حتى يومنا الحاضر، يبدو لنا اختلاف الناس ظاهرة بارزة قوية البروز. ويبدو لنا أن هذا الاختلاف يأخذ صوراً متعددة، حتى يصل إلى أعنف الصور وأشدها، وهو القتل والاقتتال، والحروب والمذابح.

فالاختلاف بين الناس في هذه الحياة الدنيا حقيقة تاريخية، وحقيقة علمية. ولكننا نسرع هنا لنقول إنه ليس كل اختلاف يقع في الأرض هو أمر عادل مشروع، أو حق نقبله وندافع عنه. فالحق وحده هو الذي يقبل ويدافع عنه، والباطل، ولو كان قائماً، ينكر ويدفع. وكذلك نستطيع أن نقول إن هذا الاختلاف بين الخلق هو سنة من سنن الحياة، بل هو سنة من سنن الله في الكون، أرادته مشيئة الله العادلة الحكيمة العليمة. وقد ندرك نحن طرفاً من حكمة الله هذه، بالبحث والتأمل والتدبّر، أو بما يعلمنا الله سبحانه وتعالى فيما ينزل على أنبيائه ورسله، وقد تغيب عنا أطراف أخرى من هذه الحكمة الربانية العادلة العالمة. وسواء أعلمنا أم جهلنا، فتظل الحقيقة الصادقة أن الله يقضي بالحق، والذين من دونه لا يقضون بشيء.

ولقد خلق الله الإنسان، وأنزله الأرض، وجعله متشابهاً في أمور عديدة، مختلفاً في أمور أخرى.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦﴾
[آل عمران: ٦]

فالله خالق كل شيء، هو الذي يصور الإنسان في الأرحام كيف يشاء، هو وحده وفق حكمته ومشيئته التي قد ندرك طرفاً أو أطرافاً منها، ونجهل الكثير عنها.

فالناس يتشابهون في معالم ويختلفون في أخرى. وقد خلقهم الله سبحانه وتعالى على النحو الذي أراده، في حكمة ربانية غالبة وسنة ماضية. ونحاول أن نتلمس بعض ملامح التشابه وبعض ملامح التباين، حتى نلم بقدر المستطاع بطبيعة هذا الإنسان، وهو يمضي مع الحياة بين اختلاف ووفاق، ولقاء وافتراق، وشقاق واتفاق.

هذا الانسان الذي يمارس الشورى من خلال طباعه وخصائصه ، ومن خلال علمه ومواهبه ، ومن خلال جهده وكسله ، من خلال ذلك كله ، نريد أن نتلمس معالم طبيعته وخصائصه ، حتى يكون فهم الاختلاف في حياته أدق وأعمق .

وفهم هذه الطبيعة الإنسانية ضرورية . لأنها تشكل جزءاً من منهاج الله . وضرورية لفهم الواقع البشري ، والنشاط البشري . وبذلك تصبح ضرورية لوضع أي خطة بشرية صادقة مع منهاج الله ، في أي ميدان من الميادين . والشورى من أهم هذه الميادين .

وسيظل الإنسان بشراً ، بخصائصه البشرية ، مهما ارتقى علمه ، ونمت مواهبه ، وحسن إيمانه . لن يكون الناس ملائكة ، فللملائكة خصائص أخرى ، وهم خلق آخر من خلق الله . ومن خلال هذه الخصائص بقوتها أو ضعفها ، سيمارس الإنسان الشورى .

ولكن الإنسان قد ينحدر في انحرافه وهبوطه ، حتى يكون شيطاناً في عمله وفكره ونشاطه مع شياطين الإنس والجن. وقد يسمو في طبيعته وخصائصه، حتى يكون بشراً رسولاً ، يصطفيه الله ليبلغ الرسالة السماوية ، ويبيّن الحق للناس.

*****

سيمارس الإنسان هذه الشورى ، مع تباين خصائصه ، واختلاف طبائعه . ومن خلال هذه الخصائص والطبائع ، سيخرج الرأي ، وستخرج المشورة والنصيحة ، ويقيم الإنسان خطته ونظامه ، من خلال جهده البشري ، وهو يمارس المنهاج الرباني في واقعه النامي المتطور ، على سنن ربانيّة .

إن كل خصيصة من خصائص التشابه في حياة الإنسان ، تؤثر بشكل أو بآخر في قوته أو ضعفه ، في موهبته أو خموله ، في سائر عطائه وإنتاجه . وتؤثر كذلك في رأيه ومشورته ونصيحته . إن أصل الإنسان من تراب ، وإن آدم خُلق في الجنّة ومنها أُخرج، وإن خضوعه للسنن الربّانيّة في الحياة ، وتعامله معها ،

وصراعه الثابت مع الشيطان وحزبه، وفطرته التي فطر عليها، وشكله العام المتماثل، إن ذلك كله، يؤدي دوراً هاماً في صياغة الإنسان لرأيه. إن طبيعة الإنسان من حبه للمال والثروة والنعيم، ومن هلعه وجزعه، وضعفه وقوته، وبخله وكرمه، وحبه للجدل، وميله للهوى، وفرحه وقنوطه، وتذكره ونسيانه، إن هذا كله ليؤثر في أسلوب الشورى ونهجها، ومدى ممارستها وحدودها.

وكذلك فإن عناصر التباين في حياة الإنسان وطبائعه، لتؤثر كذلك في مستوى الأداء، وقوة الآراء، وحدود الشورى، وسلامة ممارستها. فالاختلاف في تفاصيل الصورة والشكل، والاختلاف في الآجال والأرزاق، والمواهب والقدرات، والمستوى والدرجات، والطبيعة والخصائص، إن التباين بين إنسان وآخر في هذه النواحي كلها، يؤثر إلى مدى بعيد جداً في صياغة الشورى والرأي، ونهج الممارسة والأداء، وسلامة البذل والعطاء.

وهذه كلها، عناصر التماثل والتشابه، وعناصر التباين والتمايز، تلعب دورها الكبير في فهم طبيعة الاختلاف في حياة الإنسان، وبصورة خاصة، في طبيعة الاختلاف بالرأي. والإسلام درس طبيعة الاختلاف في حياة الإنسان، من خلال هذه العناصر، من تشابه وتباين فلا بد إذن من معرفة هذه العناصر بصورتها القرآنيّة، حتى تكون هذه المعرفة قاعدة لدراسة سنة الاختلاف وطبيعتها، كما يعرضها الإسلام. ومن هذه الدراسة، نخرج بالقواعد التي يضعها الإسلام لحل الخلاف، وحسم النزاع. ثم تكون هذه القواعد جزءاً أساسياً من أسس الشورى وقواعدها. وبغير هذه القواعد لن تستقيم شورى، ولن يصح رأي، ولن تصدق نصيحة.

من هذا العرض السريع، نجد أن دراسة «الاختلاف» على النحو الذي عرضناه ضرورة، لدراسة «الشورى» نظاماً متكاملاً، متناسقاً، في دين الله، له قواعده وأسسه، ونهجه وأسلوبه، وغاياته وأهدافه. وبغير هذه الدراسة «للاختلاف» على هذا النحو، تفقد الشورى كثيراً من قواعدها وأسسها، وخصائصها وميزاتها، وتفقد شيئاً كثيراً من صورتها المتكاملة، وطبيعتها المتناسقة.

ولقد كانت دراسة الاختلاف على النحو الذي أشرنا إليه موسعة في الطبعة الأولى . ومع الطبعة الثانية كان هنالك إضافات في مواضع مختلفة من الكتاب : كالتمهيد ، ودراسة حول غزوة أحد ، واتخاذ القرار ، وغير ذلك . وعلى ضوء هذه الاضافات رأينا أن نختصر باب الاختلاف مع الطبعة الثالثة .

ولقد سبق أن ذكرنا في التمهيد أن هنالك مواضيع أخرى ماتزال تحتاج إلى تفصيل أوسع : كالأكثرية والأقلية من حيث المبدأ ، والديمقراطية . وإننا لنرجو أن يخرج موضوع الاختلاف ، بتفصيله ، وكذلك سائر المواضيع المتبقية في كتب مستقلة ، في كتاب واحد بإذن الله .

الفصل الأول

ملامح التشابه

نحاول أن نستعرض بإيجاز أهم ملامح التشابه في الإنسان ، معتمدين على نصوص المنهاج الرباني وحدها . ونأمل أن تساعد معرفة هذه النواحي في فهم طبيعة الإنسان ، كما خلق ، لنفهم من ذلك أساساً من أسس الاختلاف في حياة الإنسان وفي رأيه ومشورته ، وفي سلوكه ومواقفه .

١ - أصل خلق الإنسان :

لقد فصّل القرآن الكريم في سور عدة أصل خلق الإنسان . فذكر أنه : من تراب ، ومن سلالة من طين ، ومن صلصال ، ومن حمأ مسنون ، ثم من ماء مهين، من نطفة أمشاج! ولقد تكرر عرض أصل الإنسان في سورة الحجر ، والأعراف ، وآل عمران ، والكهف ، والروم ، والصافات ، والمؤمنون ، والسجدة، وص . وهذا من علم الغيب ، ماكنا لندركه لولا الوحي المنزّل . ولقد جاءت هذه التعابير في القرآن الكريم ، من تراب ، إلى سلالة من طين ، إلى حمأ مسنون ، إلى غير ذلك ، لتعبر عن غيب لانعلم مراحله ، إلا كما وردتْ . وهذا هو أصل الإنسان الذي يجب أن نعلمه ونؤمن به على هذا القدر الذي علّمنا إياه الله .

٢ - بشر سوي :

لقد نفخ الله فيه من روحه ، فجعله بشراً سويّا . ولقد كانت هذه النقلة في خلق الإنسان من تراب وطين إلى بشر سوي ، نقلة واسعة ، ونبأ من الغيب ، أطلعنا الله سبحانه وتعالى على القدر الذي تستوعبه قدراتنا ، ونحتاجه في حياتنا .

ولقد أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبى .

﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ

﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: ٦ - ٩]

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩]

وتمضي الآيات الكريمة تؤكد هذه المعاني في سور متعددة كما ذكرنا .

٣ - الناس كلهم بنو آدم :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١]

وروى الإمام أحمد عن أبي نضرة . قال حدثني من سمع خطبة النبي ﷺ ، في أوسط أيام التشريق فقال : ياأيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجميّ ولا لعجميّ على عربيّ ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى . أبلغت ؟» . (رواه أحمد)[1]

وروى البزار في مسنده عن حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال : كلكم بنو آدم وآدم خُلق من تراب ولينتهينّ قوم يفخرون بآبائهم أو ليكوننّ أهون على الله من الجعلان » .

ولقد ربط الحديثان الشريفان الخصائص السابقة كلها ربطاً محكماً وربطاها كلها بالعقيدة . وألحّ الرسول ﷺ في التبليغ ، وأشهد الله ، ودعا الشاهد أن يبلغ الغائب . وما كان ذلك إلا لأهمية هذا الموضوع ، وخطورة أثره في حياة الإنسان كلها : فكره وتصوره ، ورأيه ومشورته ، وعلاقاته وصلاته ! إنها حقائق تثبت الإيمان واليقين ، وتهب التواضح والأمانة ، وتُبعد عن الكبر والظلم ، وتجعل الإنسان أسرع إلى نصيحة وأصدق في شورى .

(١) الفتح الرباني : كتاب الحج والعمرة (١٠) . باب (٤) ج١٢ ص ٢٢٦ .

٤ - خلق الإنسان :

ولقد خلق الله آدم وأسكنه الجنة . وعصى آدم ربّه فغوى . فأهبط منها إلى الأرض . وأصبح الشيطان عدواّ له . فهو الذي أغواه ودفعه إلى المعصية ، ولكن آدم تاب وأناب ، ثم اهتدى .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه: ١١٦ - ١٢٤]

لقد هبط آدم وزوجه من الجنّة مزودين بما علمهما الله سبحانه وتعالى ، ومزودين بالتجربة القاسية المرّة في الجنة . هبطا ليجابها في الأرض عدواً هو الشيطان نفسه الذي أغواهما ، وعدوا من ذريّتهما ، حيث قضى الله أن يكون بعضهم لبعض عدو. فبالإيمان والعلم ، والتجربة والخبرة ، كان على آدم وبنيه مجابهة الحياة الدنيا . ويؤكد القرآن الكريم هذه الصور في عدة سور : كالبقرة والأعراف والإسراء والكهف وغيرها .

٥ - التوالد والتكاثر :

لقد جعل الله لذلك سنة ثابتة فيها آيات بيّنات :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ

مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج: ٥]

وتستعرض سورة المؤمنون وسورة غافر، وسورة الزمر، وسور أخرى غيرها ظلالاً أخرى لتوالد الإنسان وتكاثره، على هذه السنة الثابتة، والآيات البيّنات، حتى يعي الإنسان ويتدبّر.

٦ - الفطرة السويّة:

هي الفطرة التي فطر عليها كلّ إنسان، هي فطرة الدين القيم، فطرة العبودية لله الواحد الأحد، فطرة التوحيد.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠]

وفي الحديث الشريف:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود إلا ويولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول: إقرؤوا فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم**». (رواه الشيخان والترمذي وأبو داود)[1].

وهذه الفطرة هي محور الابتلاء والمحنة والاختبار والفتنة.

٧ - الشكل العام للهيئة:

لقد جعل الله للناس هيئة عامة واحدة. فلكل إنسان رأس فيه عينان وأذنان

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجنائز (٢٣). باب (٨٠) مسلم: كتاب القدر (٤٦). باب (٦) حديث (٢٦٥٨/ ٢٢)، واللفظ له. الترمذي: مختصراً في كتاب القدر (٣٣) باب (٥) حديث (٢١٣٨). أبو داود: كتاب السنة (٣٤) باب (١٨) حديث (٤٧١٤).

وأنف وفم. وله رقبة وصدر وأطراف، إلى غير ذلك من مكوّنات الهيئة العامة، والخلق المتشابه.

﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦ - ٨]

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التغابن: ٣]

وتتوالى الآيات الكريمة تعرض صورة الإنسان وما تحمل من سمع وبصر وفؤاد، ومن أعضاء أخرى، حتى نرى الآيات البيّنات في هذا التشابه. ولكن هذا التشابه في الهيئة العامة كان يحمل تباينا في التفاصيل، كما سنذكر في الفصل التالي.

٨ - الطبيعة العامة للإنسان:

طبيعة الإنسان التي تشمل ميوله وغرائزه، ونوازعه ورغباته. ولقد عرض القرآن الكريم من هذه الطبيعة القدر الذي أراده.

أ - شديد الحب للخير، كنود لربه، يطغى إذا استغنى.

﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات: ٦ - ٨]

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧]

ب - طبيعته تحمل التقوى والفجور:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]

ج - يأخذه الغرور بنفسه:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ

أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [البلد: ٤ - ٧]

﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦]

د - هلوع ، جزوع ، منوع ، إلا المصلين :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٣]

هـ - لايقدّر نعمة الله عليه حق قدرها :

﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ ﴾ [عبس: ١٧]

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٧]

وآيات كثيرة تفصل في هذا المعنى إيضاحاً وبيانا .

و - الإنسان عجول :

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴿١١﴾ ﴾ [الإسراء: ١١]

ز - وهو ضعيف :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء: ٢٨]

حـ - وهو شحيح :

﴿ ... وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ ... ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النساء: ١٢٨]

ط - نفس الإنسان أمارة بالسوء ، توسوس له ، وهي نفس لوّامة :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٣]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦]

﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝ ﴾ [القيامة: ١، ٢]

ي – والإنسان يحب الجدل :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف: ٥٤]

ك – يفرح للخير، وييأس في الشرّ :

﴿ لا يَسْأَمُ الإنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ۝ ﴾ [فصلت: ٤٩]

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝ ﴾ [هود: ١٠]

وهذا معنى تكرّره الآيات، وتصف الحالات النفسيّة من جميع جوانبها، لأهمية هذه الطبيعة البشرية في مجرى حياة الإنسان.

ل – النسيان من طبيعته :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝ ﴾ [طه: ١١٥]

وتمضي الآيات تعدد مظاهر النسيان في طبيعة الإنسان، وتصورها من جوانب شتى. ويستغل الشيطان هذا الضعف فينسى الإنسان بعض واجباته، وشيئاً من أموره، ويشتد النسيان في الكافرين والمنافقين حتى ينسوا خلقهم :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ... ﴾ [يس: ٧٨]

م – رغبات شتى في طبيعة الإنسان :

ففي طبيعته حب المال : وفيها الرغبة الجنسية. ومن طبيعته أن يحس بالجوع

والظمأ ، وأن يشعر بالخوف والأمن ، والرضا والغضب . رغبات شتى وأحاسيس متباينة ، يعرضها القرآن الكريم والسنّة النبوية ، مع دقة التوجيه ، وحنان الرعاية ، وطهارة المسلك ، وألفة السكن والمودة . وتظلّ رعاية القرآن ، تحوط طبيعة الإنسان لتدفعها إلى درب التقوى ، وتبعدها عن الفجور .

ن - لقد كرم الله آدم وبنيه :

لقد كرم الله آدم حين أمر الملائكة بالسجود له . وكرم بني آدم حين حملهم في البرّ والبحر ، ورزقهم من الطيبات ، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ ءأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٦١، ٦٢]

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠]

س - جعله الله قادراً على التعلّم :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا . . . ﴾ [البقرة: ٣١]

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]

ويتعلم الإنسان الغيب من عند الله وحده ، حين يبعث الله الرسل والأنبياء ، وكما علّم آدم عليه السلام . يتعلم الإنسان في حياته الدنيا بالسير والنظر ، والسعي والعمل ، حيث سخر الله له مافي السموات ومافي الأرض ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ،ويظلّ يتعلم مستخدماً سمعه ، وبصره ، وفؤاده . والتقوى سبيل للعلم : «**واتقوا الله ويعلمكم الله** » ، ويظل علم الإنسان قليلاً .

ع - والإنسان خطاء :

عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :« **كل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون** » . (رواه الترمذي وابن ماجة وأحمد)[1]

ف - الإنسان يميل إلى الغيبة والنميمة، وسوء الظن :

يميل الإنسان إلى هذه النواحي ، ولا يجد مايهذب هذا «الفجور » إلا الإيمان ورعاية القرآن . وتستعرض سورة الحجرات كثيراً من مظاهر هذه الطبيعة في أجواء الرعاية والتقويم :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات: ٦]

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ** ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات: ١٢]

هذه الطبيعة في الإنسان ، مع هذه المظاهر ، تشتد في فجورها كلما ضعف الإيمان ، أو ابتعد الإنسان عن منهاج الله ، فغلبته الضلالة ، أو طغى عليه الجهل . ومن خلال هذه الطبيعة ، يعمل الإنسان في كل أحواله . فهي التي تدفع رأيه ، وتسوق مشورته . وفي فهمها مجال واسع ، لتصحيح النهج ، وحماية البناء ، بناء الشورى ، وهو يقوم بالسواعد المؤمنة .

والإنسان ، وهو من هذا الأصل ، خلق على هذا النحو ، يحمل هذه الطبيعة ، يستطيع بهذا العلم عن خلقه وأصله ، وطبيعته ، أن يدفع قواعد الشورى دفعاً أسلم لتماسك في نظرية قرآنية متكاملة .

---

(١) الفتح الرباني : كتاب التوبة (٧١) . باب الأمر بالتوبة حديث (١٣) ج ١٩ ص ٣٣٧ وابن ماجة : كتاب أبواب الزهد (٣٢) باب (٣٠) حديث (٤٣٠٥) ، واللفظ له . الترمذي : كتاب القيامة (٣٨) . (٤٩) . حديث رقم (٢٤٩٩) .

الفصل الثاني
ملامح التباين

مع شدّة ماخلق الله من تشابه في خلق الإنسان، فقد جعل كذلك، لحكمة ربّانية، أبواب تباين واختلاف. ونوجز أهم هذه النقاط إيجازاً سريعاً.

١ - الاختلاف في تفاصيل الصورة والخلقة والهيئة :

أ - لقد خلق الله الناس رجالا ونساء، ذكوراً وإناثاً. وكان هذا الاختلاف البيّن هدفاً مقصوداً، ليؤدي الذكر دوره في الحياة، وتؤدي الأنثى دورها المختلف، على تعاون وتناسق، وسكن وود.

ب - ويختلف الناس بالأطوال، والقوّة، واللون، واللغة. ويختلف إنسان عن إنسان وجيل عن جيل.

جـ - ويقع الاختلاف كذلك في دقائق الخلق. فالبنان يختلف من إنسان لإنسان، والدماء تختلف كذلك، وربما كشف لنا العلم عن دقائق أخرى في الاختلاف. وتجمع الآية الكريمة أبواب هذا الاختلاف كلها جمعاً معجزاً :

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾

[آل عمران: ٦]

٢ - الاختلاف في الآجال والأرزاق :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾

[الأنعام : ٢]

فلكل إنسان أجل قدّره الله لايعلمه إلا هو. وكذلك لكل أمة أجل محدد أيضاً :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

[الأعراف: ٣٤]

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : «**إنّ خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة ثم يكون علقة ، ثم يكون مضغة مثل ذلك . ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات : رزقه وعمله وأجله وشقّي أو سعيد . ثم ينفخ فيه الروح** » . (رواه الخمسة)[1]

وفي سورة الاسراء :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

[الإسراء: ٣٠]

عندما يعلم الإنسان هذه الحقائق : أجله محدود ، ورزقه محدد معلوم ، وعمله مقدر ، وحياته تمضي على سنن ثابتة ، عندما يعلم هذا العلم عن إيمان ويقين ، فإن فطرته تتحرك باتجاهها السليم ، وقواه تنطلق في درب كريم ، فلا تأخذه اللهفة لينحرف برغباته عن الصراط المستقيم ، وتتفاعل فطرته وقواه ، مع هذا الإيمان ، ليقدم الرأي النظيف والمشورة الصادقة ، والنصيحة الأمينة . وتأخذ قواعد نظرية الشورى تتكامل وضوحا وإشراقاً .

٣ - الاختلاف في الوسع والقدرات :

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وعليها ما اكتسبت .. ﴾

[البقرة: ٢٨٦]

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ **[الطلاق: ٧]**

﴿ ... وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ... ﴾ **[البقرة: ٢٣٦]**

﴿ ... لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ... ﴾ **[البقرة: ٢٣٣]**

وهكذا تتوالى الآيات لتؤكد اختلاف الوسع في ميادين الحياة المختلفة ، وعلى أساس من هذا الوسع يحاسب الإنسان . فعندما يعي الإنسان هذه الحقيقة

وعي إيمان ، فإنه يعرف حدوده وقدره ، ووسعه ومكانه . وبذلك يكون أصدق في ممارسة إيمانه ، وفي تقديم رأيه ومشورته ، في حدود وسعه وطاقته ، ومسئوليته وأمانته ، وهو يعلم أنه محاسب على ذلك بين يدي الله .

وتكاليف الإسلام كلها في حدود وسع الإنسان ، ونقصد بذلك تكاليف الإيمان والعقيدة ، التكاليف الثابتة الحاسمة . وهذا الوسع هو موضع تماثل في إطاره العام . وأما سائر التكاليف كالإنفاق والعفو وأمثالها ، فهي على حسب الوسع المختلف ، والقدرة المتباينة . وفي هذا الوسع المتفاوت تكون المواهب ، وقوة الأعصاب ، والصبر والمعاناة ، والقوة الجسدية وغير ذلك . ويعرض لنا القرآن الكريم نماذج متعددة من القوة والمواهب وسائر نماذج الوسع والطاقة . ولنأخذ مثلين على حالتين مختلفتين من الوسع والطاقة . ففي سورة التغابن يعرض القرآن الكريم نموذجاً وحالة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن: ١٤ - ١٦]

« **فاتقوا الله ماستطعتم ...** » وقد ورد هذا النص الكريم في مجال عرض مايلقاه الإنسان من فتنة المال والأولاد ، وعداء الزوجة والأولاد . يأتي هذا النص الكريم ، والقرآن يوجه الإنسان إلى أسلوب معالجة هذين العدوين وتلك الفتن : «**فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا ...** » وكذلك : «**واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا ..** » هذه وسائل معالجة هذه الحالات . إنها تثير في الإنسان طاقاته ووعيه وحذره . إنها تطلب منه أن يعفو ويصفح في مواقف يجد الإنسان فيها العفو قاسياً على نفسه ، وتطلب منه أن ينفق خيراً لنفسه ، وأن يقاوم مافي نفسه من شح. إنها تطلب منه أن يغالب بعضاً من طبيعته التي جبل عليها .. وفي صدد هذا

التوجيه وهذه النداءات ، جاءت القاعدة العظيمة : «**فاتقوا الله ماستطعتم ..**» ذلك لأن قدرة الناس تتفاوت في هذه الميادين . إنهم يتفاوتون في ميدان كظم الغيظ ، والعفو ، والصفح والمغفرة ، وفي ميدان الإنفاق . فكان النداء الرباني والتوجيه السماوي منسجماً كل الانسجام مع هذا الجو من التكاليف ، ومع هذا الاتساع من الميادين ، ومع طبيعة الإنسان نفسه . والله أعلم بها . لقد كان النداء رحيماً ، ندياً ، يحمل معه الرحمة والحنان : «**فاتقوا الله ماستطعتم ...**» حتى تنطلق الطاقات المتفاوتة في ميادين الإيمان واثقة مطمئنة ، تضع صدق النية وصدق العزيمة ، فتبلغ ماشاء الله لكل نفس أن تبلغ ، حسب وسعها وطاقتها .

ولما تغيّر الموقف تغيرت التكاليف . لما انتقل القرآن الكريم إلى قضية الكفر والإيمان ، إلى قضية المفاصلة والحزم ، تغيّر النداء الربانّي ، واستقرّ التكليف على أمر واحد للناس كلهم ، للبشريّة كلها . ففي سورة آل عمران ، حيث يتحدث القرآن الكريم عن عقيدة ونهج، وخطة ومواقف، ويراجع عملاً وأسلوباً ، كان القرار فاصلاً حاسماً :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٠ - ١٠٢]

هي المفاصلة بين الإيمان والكفر لاتتقبل إلا التقوى حق التقوى .. «**اتقوا الله حق تقاته**» .. وهي تقوى مستمرة دائمة لاتتوقف أبداً ... «**ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون**» . إنه العهد الحقيقي الذي يعهد الله به إلى عباده المؤمنين ، وهو أنه في مجال الإيمان فلا مساومة ولا مهادنة ، ولاتراخ ولا استطاعة تنقص أو تهبط ، لايشترك مع الكفر بشيء أبداً . إن الإنسان عليه أن يقطع صلته بالكفر قطعاً ، إن الموقف الأول في سورة التغابن كان يتطلب التوجيه الرباني : «**فاتقوا الله ما**

استطعتم » وأما هنا في سورة آل عمران فقد كان التوجيه فاصلاً حاسماً «اتقوا الله حق تقاته » فالآيتان تتكاملان في بناء التصور الإيماني دون أن تنسخ إحداهما الأخرى .

٤ - اختلاف الدرجات :

إن اختلاف الوسع والطاقة ، والآجال والرزق ، والقدرة والموهبة ، إنَّ هذا الاختلاف كله يكوّن عاملاً من عوامل اختلاف الدرجات . وجاء اختلاف الدرجات في الحياة الدنيا سنّة من سنن الله ، تمضي على حكمته الربانية .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥) ﴾

[الأنعام: ١٦٥]

وهذه الدرجات عامة ، تشمل مختلف ميادين الحياة : في المال ، والمنصب ، والموهبة ، والوسع ، والقوة ، وغير ذلك ، لتكون هذه الدرجات باباً من أبواب الابتلاء والتمحيص . وبذلك يصبح الإنسان أقدر على إنزال الناس منازلهم ، وهو يقيسهم بمقياس الإيمان ، بميزان الإسلام ، دون أن تفتنه درجات سنّها الله في الكون امتحاناً وابتلاء .

وهذا كله يصب خيره في تقويم الرجال ، ومعرفة أهل الرأي ، وصياغة الخصائص والصفات في ميدان الشورى .

٥ - الاختلاف في الطبائع والسجايا والمعدن :

وكما كان هناك تشابه في الخطوط العامة لطبائع الناس ، فإنّ هنالك اختلافاً أيضا . وخصائص التشابه وخصائص الاختلاف تنبع كلها من الآية الكريمة .

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾

[الشمس: ٨ - ١٠]

فجميع خصائص التشابه تختلف ، هي نفسها ، بين إنسان وآخر ، في الشدة والعنف ، أو التوسط ، أو الضعف ، فيشتد حب المال في هذا ، ويضعف في سواه . وهذا شديد الهلع وذاك أقل شدة ، وكذلك في سائر الخصائص .

وهناك خصائص في إنسان ، وفي إنسان آخر تجد نقيضها : فهذا حليم وهذا حاد الطبع ، وهذا رحيم وذاك عتلّ ، وهذا صبور وذاك ملول ، إلى غير ذلك من الطبائع المتناقضة .

وهذا التفاوت في الطبائع يترك أثره القويّ في الرأي والمشورة ، في الموقف والسلوك .

إن مظاهر الاختلاف هذه : في الصورة والهيئة ، في الآجال والأرزاق ، في الوسع والقدرات ، في الدرجات ، في الطبائع ، إن مظاهر الاختلاف هذه كلها، عند فهمها ودراستها ، تعيننا في وضع تفاصيل نهج وخطة ، وقواعد إدارة ، وتنسيق جهود ، في الواقع البشري ، حتى نرسي قواعد الشورى إرساء متيناً ، ذلك لأن الواقع البشري يقدّم لنا نماذج متباينة من الناس ، تحمل هذه الخصائص من التشابه والتباين . ومن خلال هذه الخصائص كلها ، يخرج الجهد والرأي والنصيحة ، وتدور الشورى .

وقد وصف لنا الرسول ﷺ الاختلاف في الطبائع والسجايا في حديث هام يربط فيه عناصر الاختلاف ويُشبّه الناس بالمعادن :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **الناس معادن كمعادن الفضة والذهب ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، والأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »** . (رواه مسلم)[1]

فالناس معادن في طبائعهم وسجاياهم ومواقفهم ، يجلو الإيمان والفقه جوهرها ويبرز خيارها .

---

(١) صحيح مسلم : كتاب البر والصلة والآداب (٤٥) - باب الأرواح جنود مجندة (٤٩) حديث رقم (٢٦٣٨) .

الفصـل الثالث
سنة الله في الاختلاف

لقد خلق الله الإنسان خلقاً متميّزاً عن سائر مخلوقاته . واقتضت مشيئة الله أن يهبط آدم عليه السلام من الجنّة إلى الأرض مزوّدا بالزاد الذي سبق أن ذكرناه ولقد جعل الله لحياة الإنسان في الأرض سنناً ثابتة لاتتبدل . وتعمل هذه السنن كلها ، ويعمل الكون كله ، لتتحقق حكمة الله العادلة ، ومشيئته الغالبة ، في كل أمر ، وفي حياة الإنسان . واقتضت مشيئة الله كذلك أن يموت الإنسان ، ثم يبعث ، ثم يحاسب ، ثم يدخل الجنة أو النار ، فلم يكن خلق الإنسان فلتة من الفلتات ، ولامصادفة من المصادفات :

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ [القيامة : ٣٦]

ومع كتاب الله ، وفي سنّة رسول الله ﷺ ، نستطيع أن نجد أربعة ألفاظ أو تعابير ، تبيّن حكمة خلق الإنسان على الأرض ومحور سنن الحياة الدنيا .

١ - مهمة الإنسان في الحياة :

أولاً : العبادة :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]

فالحكمة هنا هي العبادة . وتشير الآية الكريمة إلى الرزق . وقد سبق أن بيّنا في الفصل السابق أنه محدد لكل إنسان ، كالأجل والعمل ، وشقي أو سعيد . وتأتي هذه الإشارة هنا في ظلال موحية ، لتنبه على أن السعي وراء الرزق ، يجب أن لا يَصدَّ عن الهدف الأول في الحياة الدنيا ، والمهمة الرئيسة التي خلق لها الإنسان. ويتكرر هذا المعنى في آيات عديدة .

ثانياً : الأمانة :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣]

فالمهمة هنا هي أداء الأمانة ومن خلال هذا الأداء، ينكشف المشركون والمنافقون فيعذبهم الله، ويفوز المؤمنون فيتوب الله عليهم.

ثالثاً: الاستخلاف والعمارة:

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ... ﴾ [فاطر: ٣٩]

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس: ١٤]

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴾ [البقرة: ٣٠]

وتتوالى الآيات في كتاب الله تعرض الخلافة وظلالها، وتربطها في كل آية مع معنى من معاني العقيدة، أو حادثة من أحداث المرسلين. وتمضي الآيات في سور: النمل، ويونس، وص، وغيرها من السور لتمد من معاني الاستخلاف وظلاله.

وهذه المعاني الأربعة: العبادة، والأمانة، الاستخلاف، الإعمار، نراها تدل على مهمة الإنسان في الأرض، وتشير إلى مايشاء الله أن يبيّن لنا من أطراف حكمته، حتى تستيقن النفوس المؤمنة من أن الإنسان لن يتركه الله سدى. وتعمل هذه المعاني الأربعة، من خلال سنن الله، لتتحقق حكمة ربانيّة جليّة، عرضها القرآن الكريم عرضاً وافياً، وفصل فيها. ألا وهي الابتلاء والتمحيص.

وفي سورة هود:

﴿ ... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ... ﴾ [هود: ٦١]

تتضح لنا صورة من صور الاستخلاف وهي عمارة الأرض.

رابعاً : الابتلاء والتمحيص :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) ﴾ [الملك: ١، ٢]

فقد ربطت هذه الآية الكريمة الابتلاء بالموت والحياة . والابتلاء يهدف ليظهر من هو أحسن عملاً .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) ﴾ [الكهف: ٧]

وتربط هذه الآية الكريمة الابتلاء بما على الأرض من زينة جعلها الله للابتلاء. وتتوالى الآيات الكريمة تربط معنى الابتلاء بشتى نواحي حياة الإنسان فتربطه بخلق الإنسان ، وخلق السموات والأرض ، وهكذا حتى يتكامل العرض وتستكمل الصورة ألوانها .

وعندما يحمل العبد المؤمن هذا التصور في نفسه ، في قلبه ، في فكره ، في أعصابه وفي دمه ، عندما يحمل هذا التصور ، يستطيع أن يمارس إيمانه في ميادين الحياة ، ممارسة مؤمنة واعية ، تعمل فيها النية والإيمان والعلم وسائر الطاقات ، مخبتاً لله ، منيباً إليه ، متوكلاً عليه .

مع هذا التصور يصبح للإخبات معناه وللإنابة معناها ، وللاستسلام معناه ، وللتوكل على الله معناه الإيماني المتناسق مع طبيعة العبد المؤمن وفطرته ، مع طاقاته وقدرته . وفي الوقت ذاته يظل هذا التصور يغذي الفطرة السوية وينميها ، ويمدها بالماء والهواء وأسباب الحياة ، ويدفع عنها الانحراف والتلوث والدنس .

٢ - سنة الله في الاختلاف :

إذاً ، هذه الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها ، تتلقى بكل خصائصها أقدار الله في الحياة الدنيا على ابتلاء ومحنة وتمحيص وعلى هدف واحد ثابت لايتغير ،

هو عبادة الله وفق النهج الذي يرسمه ، والقواعد التي يحددها ، كما يبلغها رسله وأنبياؤه لعباده ، ليكون الإنسان خليفة الله في الأرض . ومن خلال هذا التلقي لأقدار الله ، تكون الاستجابة متفاوتة متباينة . ففي خلق الناس تفاوت وتباين في النواحي التي عرضنا ملامحها ، وفي أقدار الله وابتلائه تفاوت وتباين . فوضح لنا إذن أن هذه الطبيعة المتباينة ، ، وهذه الأقدار من رب العالمين ، تجعل أمر التجاوب والاستجابة ، تجعل المواقف والسلوك ، تجعل الجهد والبذل ، تجعل الرأي والنصيحة ، تجعل الرؤية والصورة ، تجعل الشورى ، تجعل ذلك كله متبايناً مختلفاً على سنن ماضية ، حتى يصبح الاختلاف لوناً من ألوان الابتلاء ، وشكلاً من أشكال التمحيص . ولكنه في جميع أحواله سنة ماضية في الحياة ، متناسقة مع سائر السنن ، حتى تتحقق حكمة الله وتمضي كلماته .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

[هود: ١١٨، ١١٩]

وفي تفسير هذه الآية الكريمة أقوال ، خاصة فيما يتعلق بـ « **ولذلك خلقهم** » . ولا نريد أن نفسر القرآن برأينا معاذ الله . ولكن القرآن الكريم والسنة الشريفة تفسر لنا آيات الله على أساس من العلم والعمل ، وعلى أساس من اللغة العربية وقواعدها . فإذا اعتبرنا الاختلاف صورة من صورة الابتلاء وضحت الآية أمامنا . ذلك أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليبتليه ، وليكون الابتلاء محكاً للهدف الأساسي ، وهو عبادة الله في الأض .

« **ولذلك خلقهم** » ! أي ليبتليهم : « **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** » . والاختلاف بين الناس ابتلاء وأي ابتلاء . إنه يحرك معظم عناصر طبيعة الإنسان أو جميعها، إنه يحرك فجوره أو تقواه ، طمعه أو قناعته ، حبه أو بغضه ، صدقه أو نفاقه ، شجاعته أو جبنه ، غيرته أو شكره ، حسده أو

حمده ، ذكاءه أو غباءه ، قوته أو ضعفه ، وأخيراً إيمانه أو كفره . إن الاختلاف ابتلاء عظيم . ومحك قوي . إنه يكشف مايخفيه الوفاق الزائف ، والصّحبة المبطنة والبسمة المصطنعة .

فلا حرج إذن أن نفهم الآية الكريمة : «**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة**» ولكن مشيئة الله اقتضت غير ذلك . اقتضت مشيئته أن يكون الناس أمماً مختلفين، لا أمة واحدة فقط ، فكان الاختلاف سنة من سنن الحياة الدنيا . سنة ماضية ومشيئة غالبة، وهي مشيئة عدل وعلم وحكمة . إنها مشيئة الله ! وستكون نتيجة هذا الاختلاف كله ، ونتيجة هذا الابتلاء كله ، أن يصير الناس إما إلى جنة وإما إلى سعير . وهذا مابينته الآيات (١٠٣-١٠٨) من نفس السورة، سورة هود، حيث يرد فيها «**فمنهم شقي وسعيد ...**» فأما السعيد فهو من رحمه الله .

وفي سورة الشورى :

﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿٨﴾**﴾ [الشورى: ٨]

إن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل الناس ، على مدى العصور والأجيال ، أمة واحدة . ولكن الله شاء بعدالته وحكمته ، وعلمه ورحمته أن يخلق هذا الإنسان بخصائصه التي سبق عرضها ، ليبتليهم في الحياة الدنيا وليكون الاختلاف باباً من أبواب الابتلاء ، حتى ينال كل إنسان جزاءه الحق ، بما كسبت يداه ، على ميزان وعلى قسط . ولايستطيع أن يحكم بين الناس إلا رب الناس ، خالق الناس ، ملك الناس ، الذي يعلم كل شيء ، وقادر على كل شيء. هذه هي المشيئة الربانية كما عرضها منهاج الله وهذه هي عدالة الله التي تقوم على علم بكل شيء ، وقدرة على كل شيء ، وحكمة بالغة ، تضع الموازين القسط فلا تظلم نفس شيئاً .

وكذلك في سورة النحل :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [النحل: ٩٣]

يضل من يشاء ... ويهدي من يشاء ... إنها مشيئة الله . إنها مشيئة عادلة لاتظلم أبداً ، عالمة بكل شيء ، قادرة على كل شيء . فمن أضله الله فقد استحق ذلك بما كسبت يداه عدلاً وحقاً . ومن هداه فقد رحمه فضلاً منه ونعمة . والله وحده لاشريك له ، هو وحده يعلم مافعل هذا وما فعل ذاك ، وماذا يستحق هذا وماذا يستحق ذاك . وأنّى لأحد أن يعلم هذا العلم ، أو يحكم بهذا العدل . سبحانه وتعالى لا إله إلا هو .. تعالى عما يشركون .

كان الناس أول الخليقة أمة واحدة على دين واحد هو دين الله ، دين الفطرة دين التوحيد . تلقوا رسالة الله ودينه في فطرتهم ، وتلقوها من أبيهم آدم عليه السلام . تلقوا رسالة السماء في فطرتهم ومن أبيهم ، وهم يحملون في ذاتهم خصائص التشابه وخصائص التباين ، لتعمل مهمتها في هذه الحياة الدنيا . تلقوا رسالة الله على هذه الخصائص ومضت الحياة الدنيا على سننها ، يتلقون أقدار الله ابتلاء وتمحيصاً ... فاختلفوا ، وتمايزت مواقعهم ، وتباينت نظرتهم ، وتحركت كل عوامل الفطرة التي فطروا عليها ، تستقبل الحياة بكل سننها ، وفطرتهم تعمل بكل عواملها ، من خلال الابتلاء والتمحيص والاختبار .

وأول ماأعلمنا إياه الله عن الابتلاء ، هو ماوقع لآدم وزوجه مع الشيطان في الجنة . فهبط آدم عليه السلام وزوجه إلى الأرض ، وهما يحملان هذا الدرس القاسي . ولقد سبق أن تحدثنا عن ذلك . والابتلاء الثاني الذي تعلمناه من القرآن، هو اختلاف ولدي آدم عليه السلام، وانتهى الاختلاف بأن قتل أحدهما الآخر . ولكن عرض القرآن الكريم لهذا التمحيص والابتلاء ، من خلال الاختلاف ، كان عرضاً معجزاً ، يحمل مع كل آية درساً للبشريّة كلها .

درسان عظيمان في تاريخ الإنسان . أحدهما في الجنة ، هبط آدم منها وهو مزود بهذه التجربة القاسية ، ليتعلم منها هو وبنو آدم كلهم إلى يوم القيامة ، والثاني قصة ولدي آدم حيث وقع الخلاف حسب ماأوضحنا . فكان درساً آخر قاسياً ليتعلم منه بنو آدم . فازدادت التجربة ونمت الخبرة ، وقامت الحجة . كان الناس أمة واحدة على دين واحد هو دين التوحيد :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) ﴾ [يونس: ١٩]

فاختلفوا ... اختلفوا إلى عبادات شتى ، وانحرفوا إلى ضلال متعدد . اختلفوا لأن الاختلاف باب من أبواب الابتلاء ، يكشف الحقائق ، ويظهر ماتخفي الصدور . وتتحرك طاقة الإنسان ، لتتلقى أقدار الله في الحياة الدنيا ابتلاء وتمحيصاً . فينكشف الزيف ويظهر الحق وتقوم الحجة .

«**ولولا كلمة سبقت من ربك ...** » لقد سبقت كلمة الله أن لايعذب أحداً حتى تقوم الحجة عليه ، وسبقت كلمة الله أن يكون قضاؤه وفصله بين العباد يوم القيامة ، وسبقت كلمة الله أن يبتلي الإنسان ويمحصه في الحياة الدنيا ، وسبقت كلمة الله أن تمضي سننه كلها ، ومشيئته العادلة الحكيمة كلها .

كان الناس أمة احدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين لمَّا اختلفوا ، رحمة منه تعالى ، وفضلاً منه حتى لايعود للكافرين حجة .

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾ [البقرة: ٢١٣]

في هذه الآية الكريمة تستكمل الصورة السابقة من الآية في سورة يونس

ملامحها وألوانها . فلم يترك الله عباده سدى لَمَّا اختلفوا ! ولكنه بعث النبيين مبشرين ومنذرين :

«وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس » .

فالفطرة التي فطر الله الناس عليها ، والسمع والأبصار والأفئدة ، والآيات البينات في هذا الكون ، هذا كله لم يمنع الاختلاف بين الناس ، فبعث الله لهم برحمته وفضله النبيين وأنزل الكتاب .

وتجربة آدم عليه السلام ، وقصة ولديه ، والدرسان العظيمان ، كل ذلك نسيه الإنسان ، فاختلف وانحرف : فريق ضلّوا وأغواهم الشيطان ، وفريق آمنوا واعتصموا بإيمانهم ، فاستحقوا رحمة الله وهدايته ، فهداهم لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه .

«والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

ومضى الاختلاف في حياة الإنسان ، سنّة ماضية ، وحكمة غالبة ويظل أبرز معالمها أنها باب من أبواب الابتلاء والتمحيص.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) ﴾ [هود: ١١٠]

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) ﴾

[آل عمران: ١٩]

﴿ ... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) ﴾ [البقرة: ٢٥٣]

وهكذا تؤكد الآيات معنى الابتلاء، وتؤكد أن الاختلاف مشيئة من عند الله وسنة ماضية في الحياة. واستمع الى هذا التأكيد في الآيات: «**ولولا كلمة سبقت من ربّك**»، «**ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد**»..

ويعرض القرآن الكريم اختلاف أهل الكتاب، وهم على عهد وميثاق، سواء في ذلك اليهود والنصارى. ويعرض القرآن الكريم تفاصيل ذلك، حتى تكون كل آية عبرة وهدى. وكان هذا الاختلاف يقع في كل قوم جاءهم رسول، حتى يميز الله الخبيث من الطيّب، وحتى تمضي سنّة الابتلاء، من خلال طبيعة الإنسان وخصائصه، ومن خلال سنن الله في الحياة الدنيا، وهي تعمل كلها متناسقة.

لقد رأينا كيف استزل الشيطان آدم، فعصى آدم ربه، ثم تاب عليه، ثم اهتدى ورأينا اختلاف ولدي آدم.

ورأينا اختلاف الناس بعد أن كانوا أمة واحدة.

ورأينا اختلاف الأقوام على رسلهم وهلاك المكذبين. وذكرنا اختلاف اليهود والنصارى.

ثم كانت أمة محمد ﷺ، تحمل الرسالة الكاملة، والكتاب المهيمن. وظلّت سنّة الله ماضية، ليكون الاختلاف باباً من أبواب الابتلاء والتمحيص:

أخرج الإمام أحمد: عن أبي عامر عبدالله بن يحيى، قال حججنا مع معاوية بن أبي سفيان فلما قدمنا مكة، قام حين صلى صلاة الظهر، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة – يعني الأهواء – كلها في النار إلا واحدة – وهي الجماعة – وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لايبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله**»[1].

---

(١) سبق تخريجه في ص (٢١٨) فيرجع إليها.

(٢) مسلم: كتاب (٣٣). باب (٥٣) حديث (١٩٢٠/ ١٧٠) الترمذي: كتاب الفتن (٣٤). باب (٢٧). حديث (٢١٩٢). أبو داود: كتاب الجهاد (٩). باب (٤) حديث (٢٤٨٤). ابن ماجة: المقدمة (١). باب (١) حديث (٩).

وكذلك :

عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لايضيرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك** » .
(رواه مسلم والترمذي وأبو دواد وابن ماجة)[2]

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه : «**أما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول : «لاتزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم ، لايضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك » فقال عبدالله بن عمرو بن العاص : أجل ، «ثم يبعث الله ريحاً كريح المسك مسها مس الحرير ، فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته ثم يبقى شرار الناس ، عليهم تقوم الساعة** » .
(رواه مسلم)[1]

وأمة محمد ﷺ اختصها الله بأمور لم يختص بها غيرها بفضل دعائه ﷺ :
عن ثوبان رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها . وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها . وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض . وإني سألت ربي لأمتي أن لايهلكها بسنة عامة وأن لايسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم . وإن ربي قال : يامحمد . إني إذا قضيت قضاء لايرد . وإني أعطيتك لأمتك أن لاأهلكهم بسنة عامة وأن لاأسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها . أو قال من بين أقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً** ».
(رواه مسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجة)[2]

عن عامر بن سعد عن أبيه : **أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية ، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية ، دخل فركع فيه ركعتين ، وصلينا معه ودعا ربه**

---

(١) مسلم . كتاب (٣٣) . باب (٥٣) . حديث (١٩٢٤/ ١٧٦) .
(٢) مسلم : كتاب (٥٢) باب (٥) حديث (٢٨٨٩/ ١٩) الترمذي : كتاب (٣٤) باب (١٤) . حديث (٢١٧٦) أبو داود : كتاب (٢٩) . باب (١) حديث (٤٢٥٢) .
(٣) مسلم : كتاب (٥٢) . باب (٥) . حديث (٢٨٩٠) واللفظ له . والترمذي : كتاب (٣٤) . باب (١٤) . حديث (٢١٧٥) ابن ماجة : كتاب (٣١) . باب (٩) حديث (٣٩٩٩) .

طويلاً ، ثم انصرف إلينا فقال : سألت ربي ثلاثاً ، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة . سألت ربي أن لايهلك أمتي بالسنّة فاعطنيها . وسألته أن لايهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لايجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها » .

(رواه مسلم والترمذي وابن ماجه) (٣)

ولو استعرضنا تاريخ المسلمين لوجدنا صدق حديث رسول الله ﷺ ، وهو الصادق المصدوق . فلم يدخل عدو ديار المسلمين إلا حين كان عداؤهم بينهم ، هم أنفسهم ، شديداً ، وحتى تكون جماعة يتكيء عليها العدو ، وحتى يهلك بعضهم بعضاً ، ويسبي بعضهم بعضاً . وانظر تاريخ الأندلس وأيام ضعف الدولة العباسية ، وانظر سقوط الخلافة الإسلامية ، وانظر ضياع فلسطين .

ولكننا اعتدنا دائماً أن ننحي باللائمة على العدو ، وهو عدو ، ونبرىء أنفسنا ، والمرض فينا ، والداء بيننا مستشر ، يطغى على المجتمعات حتى لايكاد ينجو منه أحد .

ومضت قافلة الإيمان . ودخلت فيما دخل فيه من قبلها . من الفتنة والابتلاء . «عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «لتتبعن سنن الذين من قبلكم ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتّموهم » . قلنا : يارسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟» . (رواه الشيخان وابن ماجة)(١)

ومضت قافلة الإيمان .

مضت ، تحمل خاتمة الرسالات ، وتتعرض للابتلاء والتمحيص ، والفتنة والاختلاف ، حتى تصفو الجماعة المؤمنة ، وتتخلص من الشوائب ، وحتى تبرز طائفة الحق ، وعصابة الإيمان ، تمضي لايضرها من خالفها ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك .

وتظل سنة الاختلاف ماضية حتى بين الطائفة الصادقة ، والعصابة الظاهرة ،

---

(١) البخاري : كتاب الأنبياء (٦٠) باب (٥٠) مسلم : كتاب العلم (٤٧) . باب (٣) حديث (٦/٢٦٦٩) . ابن ماجة : كتاب ابواب الفتن (٣١) باب (١٧) . حديث (٤٠٤٢) .

ولكنه اختلاف من نوع آخر ، لايبعثه الهوى ، ولكن يبرزه الجهد الصادق المبذول، والسعي الدائب المؤمن ، في ظلال الإيمان والأخوة والتراحم . وتظل طبيعة الإنسان تعمل في كل الظروف ، وتظل سنن الله ماضية مع كل الأجيال ، حتى يأتي أمر الله وينفذ قضاؤه ، ولا راد لقضاء الله .

وجاء منهاج الله ليضع لهذه العصابة المؤمنة قواعد حل الخلاف وفض النزاع، وليضع للبشرية كلها هذه القواعد والأسس في كل ميادين حياتها ، وأوجه نشاطها . فإلى لمحات من ذلك .



الفصـــل الرابـع

طبيعـة الاختـلاف

لقد تبين لنا من الفصول السابقة التصور لطبيعة الاختلاف ، ونماذج منه في حياة الإنسان ، وأطراف من أسباب هذا الخلاف ، والأشكال التي كان ينتهي إليها .

ونود أن نوجز ماعرضناه سابقاً إيجازاً يهدف إلى الربط والتنسيق ، وإلى التثبيت والتركيز .

١ - موجز للتصور العام لطبيعة الاختلاف :

أ - يعرض لنا منهاج الله ثلاثة وجوه من حكمته تعالى في خلق الإنسان :

- عبادة الله .
- الاستخلاف في الأرض والأمانة ، والعمارة .
- الابتلاء .

وهذه كلها مترابطة فيما بينها ، مترابطة مع منهاج الله ، متناسقة معه ، كل الترابط والتناسق .

ب - خلق الله الإنسان على الفطرة ، وأودع فيه خصائص تميزه من سائر مخلوقاته ، وتميز قوماً من قوم ، وإنساناً من إنسان ويكون هذا التمايز بين الناس من خلال خصائص تشابه وتماثل .

جـ - جعل الله سنناً ثابتة وقوانين ماضية في الحياة الدنيا . وهذه السنن الثابتة هي من مشيئة الله العادلة ، العالمة ، الحكيمة ، الرحيمة ، القادرة القوية . فالله خالق كل شيء ، عليم بكل شيء ، قادر على كل شيء ، جعل هذه السنن الثابتة رحمة بعباده . ومقتضى لمشيئته العادلة . وقد علمنا الله في منهاجه أطرافاً منها .

د - يتلقى الإنسان بكل مافيه من خصائص ، من تشابه أو تمايز ، سنن الله في الكون وأقداره في الحياة لتحقق رحمة الله ، وعدالته وحكمته التي اقتضت العبادة والاستخلاف والابتلاء .

هـ- كان الناس أمة واحدة على دين واحد هو التوحيد الذي فطروا عليه ، والذي تكشف عنه آيات الله البينات في هذا الكون ، والذي نزل به آدم عليه السلام من الجنة بعد أن تلقى كلمات من ربه فتاب عليه .

و - وكان من نتيجة تلقي الإنسان لسنن الحياة وأقدار الله ، أن يتحقق الابتلاء وتمايز الطاقات والمواهب ، والمواقف والعطاء . فاختلف الناس نتيجة هذا الابتلاء والتمحيص إلى فريقين : فريق مؤمن بالله ، وفريق كافر دفعه انحرافه وهواه إلى ضلالة من بعد ضلالة ، حتى كان الكفر الصريح .

ز - بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، وجعل الله من سننه آيات بينات ، ليرعوي الكافرون ويعودوا إلى الإيمان .

وجعل من سننه مصائر الشعوب والأقوام عظة وتذكيراً ، وبعث خاتم النبيين والمرسلين محمداً ﷺ بخاتمة الرسالات ، كاملة تامة ، نعمة منه ورحمة ، ذلك حتى لايكون لأحد حجة أبداً بعد الرسل .

والإنسان مسئول عن عمله : «**ولتسئلن عما كنتم تعملون**» ، مسئول عن موقفه ، مسئول عن رأيه ، مسئول عن نصيحته ، عن مشورته ، عن جهده ، فمن كفر فعليه كفره .

ح - واقتضت سنة الله أن تكون الحياة الدنيا دار متاع . وظلا زائلاً ، ودار ابتلاء والآخرة هي دار القرار ، والحساب والجزاء ، فإما إلى جنة وإما إلى نار .

يعرض منهاج الله هذا كله بتفصيل وإحكام يعجز أي مخلوق عن الاتيان بمثله ، ولاغناء لأحد عن هذا المنهاج الرباني قرآناً وسنة ، حتى يجمع الحق في صدره ، وفي فكره . وإنما نأتي هنا بقبسات لتذكر فتدفع المؤمن ليعود إلى منهاج الله ، يأخذ منه التصور الكامل ، والعرض الحق ، والإحكام المفصل . لاغناء لأي إنسان عن هذا المصدر ، عن هذا المنهاج الرباني حتى لايدعي بشر أبداً أن مايعرضه هو حق كامل ، أو تصور شامل ، وأنّى له ذلك . فالمهمة مهمة تذكير ونصح ، وتوعية وإيقاظ ، حتى يتمسك الناس بالكتاب الذي أنزل من السماء

على عبادة وطاعة، وممارسة وعمل، وبذل وصبر، ويقين وثبات. لاغناء للبشرية كلها عن منهاج الله، إنه ضرورة لهم يحتاجونه كحاجتهم للهواء والماء بل أشد.

عندما يحمل المؤمن هذا التصور في قلبه وفكره، وعندما يحمله متكاملاً مترابطاً متناسقاً، عندما يحمله صحبة عمر ورفقة حياة، عندما يتحقق هذا في الإنسان، في الجماعة، في الأمة، فإنا نكون قد وضعنا القاعدة الرئيسية الأولى بكل جزئياتها وتفاصيلها، لتكون الأساس السليم الوحيد، الذي لاأساس سواه، والذي لاغناء عنه، لتسوية أي خلاف، ولجمع الأمة.

هذا موجز للتصور الذي عرضناه في الفصول السابقة حول طبيعة الاختلاف في حياة الإنسان. سقناه مع الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة لندرك عمق القضية، وصلتها بالعقيدة وبحياة الإنسان، وليكون منهاج الله وحده هو مصدر ذلك. ونعرض الآن موجزاً لنماذج الاختلاف.

٢ - موجز لنماذج الاختلاف :

من العرض السابق كله، نستطيع أن نضع الخلاف على ثلاثة نماذج عرضها منهاج الله كما رأينا سابقاً.

لقد كان **النموذج الأول** هو اختلاف الناس إلى طائفتين : طائفة الإيمان وطائفة الكفر. وقد تحمل طائفة الكفر شعارات براقة، وزخارف مغرية ويمضي الشيطان يزين للكافرين أعمالهم، حتى تحق عليهم كلمة الله.

هذا النموذج عرضه القرآن الكريم بتفصيل محكم، وأخذنا من ذلك قبسات. وأوضحنا أسبابه وبينا سقوط حجة الكافرين، إذ لا حجة لهم. فمن كفر فعليه كفره.

والنموذج الثاني هو تفرق أصحاب الرسالات السماوية إلى ملل. وفصّل المنهاج الرباني اختلاف اليهود والنصارى تفصيلاً محكماً. فهما أقرب الرسالات زمناً بالنسبة للرسالة التي نزلت على خاتم النبيين والمرسلين محمد ﷺ. وكذلك اختلاف المسلمين إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة.

والنمـوذج الثـالث هو مـايقع بين المؤمنين من خلاف في الرأي والموقف . وهذا خلاف يقع بين الناس عامة نتيجة لتفاوت في القدرات والخصائص . ويظل حتى هذا النموذج باباً من أبواب الابتلاء والتمحيص . والخطر يكمن ليس في الخلاف هذا ذاته ، بقدر مايكمن في احتمال نموه وازدياده ، حتى يؤدي إلى فتنة وفرقة ، أو يؤدي إلى كفر وضلالة . لاكابح له ولا ضابط إلا عناصر الإيمان ، ونهج القرآن ، والممارسة والتربية في الميدان .

٢ - موجز لأسباب الاختلاف :

وإذا أوجزنا نماذج من الاختلاف بهذه الأنواع الثلاثة ، نستطيع أن نوجز أسباب الخلاف على النحو الذي سبق تفصيله بنقاط أساسية . ونركز فيها على واحدة منها تركيزاً خاصاً وهي «الهوى » .

أ - حب الدنيا :

حب الدنيا وزخارفها حباً كبيراً يضطرب معه السلوك ، وتضطرب الفطرة السوية وأبرز عنصرين مؤثرين هما : النساء والمال .

وقد فصلنا في ذلك بلمحات من القرآن والسنة . ونضيف هنا لمحات أخرى :
عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون . فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء** » . (رواه مسلم وابن ماجة)[1]

عن أسامة بن زيد بن حارثة وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أنهما حدثا عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**ماتركت بعـدي في الناس فتنة أضر على الرجال من النساء** » (رواه الشيخان والترمذي وابن ماجة)[2]

عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**لو كانت الدنيا تعدل**

---

(١) مسلم : كتاب (٤٨) . باب (٢٦) . حديث (٢٧٤٢/ ٩٩) ابن ماجه : كتاب (٣١) باب (١٩) . حديث (٤٠٤٨) .

(٢) البخاري : كتاب (٦٧) . باب (١٧) مسلم : كتاب (٤٨) . باب (٢٦) . حديث (٢٧٤١/ ٩٨) الترمذي : كتاب (٤٤) . باب (٣١) حديث (٢٧٨٠) . ابن ماجة : كتاب (٣١) باب (١٩) . حديث (٤٠٤٦) .

عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء » . (رواه الترمذي وابن ماجة)[1]

عن كعب بن عياض رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال** » . (رواه الترمذي وأحمد)[2]

وأحاديث وآيات كثيرة تبين منزلة الدنيا عند الله ، وتصف تفاهة زخارفها وأثرها على فتنة الإنسان ، ويظل المال والنساء أكبر عاملين .

ومنهاج الله حدد سياسة واضحة للمال ونهجاً بيناً ، فمن تعدى هذا النهج وأعطى المال قدراً أكثر من حقه ، سواء أكان في كسبه ، أم جمعه ، أم إنفاقه ، من تعدى سياسة الإسلام ومنهاج الله ، فقد وقع في فتنة المال .

ويظن الانسان أنه ماهر قوي وهو يفتتن بالمال ، لايشعر بالهلاك الذي يصيبه. وقد يحسب نفسه أنه على خير . ومن أثر المال على نفس الإنسان قد ينطلق الرأي أو يتحدد الموقف ، ولن يلتقي رأي وراءه التقوى وخشية الله ، ورأيٌ وراءه الدنيا .

وفي النساء رسم الإسلام نهجاً وحد حدوداً وأمر ونهى . فمن أطاع والتزم نجا . ومن عصى وغوى هلك ووقع في فتنة النساء . وكيف يكون الرأي وكيف تكون المشورة إذا دفعتها شهوة ملوثة ، أو طغيان وهوى .

ب - الظن :

والظن أكذب الحديث . وقد مرت معنا آيات وأحاديث عن الظن . وكان وصف الكافرين أنهم اتبعوا الظن دون علم أو يقين . والإنسان يميل إلى الأخذ بالظن وينزله في نفسه منزلة اليقين ، عندما لايلتزم بمنهاج الله ، وعندما تضطرب فطرته . ولذلك جاء الإسلام ليقوّم الفطرة حين تضطرب ، ويعدلها حين تنحرف . فنهى عن الظن .

---

(١) الترمذي : كتاب (٣٧) . باب (١٣) . حديث (٢٣٢٠) . وابن ماجه : كتاب (٣١) .باب (٣) . حديث (٤١٦٢) .

(٢) الترمذي : كتاب (٣٧) . باب (٢٦) . حديث (٢٣٣٦) الفتح الرباني : كتاب المدح والذم (٧٠) . باب ما جاء في ذم المال حديث (٢٤) . ج (١٩) . ص (٣٠٧) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ... ﴾ [الحجرات: ١٢]

وتلاحظ هنا عظمة التعبير : «اجتنبوا كثيراً من الظن ... » مع أن بعض الظن ، فقط هو إثم . ولكنه خلق الإسلام وإخوة الإيمان تستوجب ذلك . «اجتنبو كثيراً من الظن » توحي أيضاً بأن هنالك ظناً مباحاً ، حتى لايستغل المؤمن ويستهان به ، وحتى يتوازن السلوك البشري بين احترام أخوة الإيمان ، وبين الحذر والفطنة ، وبين التثبت والتبين .

والظن المنهي عنه مرض خطير فتّاك ، ينسل في النفس حتى يقلب الوهم يقيناً ، فينشأ الخلاف ويحتدم النزاع ، وتتقطع العلاقات . والظن وحده على هذه الصورة يكفي ليهدم أسراً ، ويحطم مجتمعات ، ويقوض أركاناً ، ويمزق صلات .

ولا علاج للظن إلا بالعودة دائماً إلى منهاج الله ، ورد الأمور صغيرها وكبيرها إليه .

والظن في خطوطه العريضة أساس دعوى الكافرين ، يبنون آراءهم عليه ، ويمضون في ضلالتهم به :

﴿ ... إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ... ﴾ [النجم: ٢٣]

﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النجم: ٢٨]

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يونس: ٣٦]

﴿ ...إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٦]

وهكذا تتوالى الآيات لتكشف خطورة الظن في حياة الناس ومدى تأثيره السيء المدمر ، حتى لا يستَغلَّ المؤمن أَو يُستَهانَ به .

إن الإعداد والتدريب والتعهد والتوجيه في ظلال الإيمان ومنهاج الله يقدم العلاج لهذا المرض ، حتى لا يستَغلَّ المؤمن أَو يُستَهانَ به.

والظن يفسد الشورى ، وقد يحولها إلى فتنة وفساد ، ونزاع وخلاف .

جـ : - الجهل :

كيف يلتقي رأي العالم الذي بنى رأيه عن علم وجهد ، ورأي الجاهل الذي يدفع رأيه الغرور والكبر . لايلتقيان أبداً ! إذ الجهل يسوق الظن ويغذي الهوى . ولقد علم الله آدم ، وعلم الإنسان مالم يعلم ، ووهبه القدرة على التعلم . فهو ذنب الإنسان نفسه إذا قعد للجهل .

وكيف تدور الشورى بين عالم وجاهل ، وكيف تتلاحم الآراء وكيف يبحث عن الحق .

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٦]

والجهل صفة من صفات الكافرين . يصفهم القرآن بهذه الصفة ، فيرد وصفهم بذلك على لسان نوح عليه السلام ، وهو يخاطب قومه الكافرين المعاندين :

﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [هود: ٢٩]

والجهل دليل على الكسل والاسترخاء ، أو التقصير أو الإدبار ، أو الانشغال بأمور الدنيا ، جرياً وراء الشهوة والمصالح ، دون بلوغ حد من شبع أو قناعة .

د - الهوى :

وهو مجمع الشر كله ، وملتقى الفساد ، ومصدر الإفساد وباب واسع للشيطان، يدلف منه إلى الإنسان ليفسد عليه أمره . يدب دبيب النمل ، وهو غلبة «الفجور» في الفطرة على «التقوى» . وهو قد يجمع حب الدنيا والظن والجهل في صورة مفزعة بشعة . إلا أن يكون هوى الإنسان تبعاً لما جاء به محمد ﷺ. ففي الحديث : قال رسول الله ﷺ : «لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1].

(١) الأربعون النووية . حديث (٤١) . عن عبدالله بن عمرو بن العاص . وقال النووي رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح . وقال المحقق أخرجه أبو نعيم في كتاب الأربعين ، والأئمة في مسانيدهم والطبراني .

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣]

« **وما تهوى الأنفس ...** » الأنفس التي تموج فيها الرغبات المتفلتة لا ضابط لها ولامسيطر عليها . ومن أين لهم أن يجدوا سيطرة على «**ماتهوى الأنفس ...** » وقد أدبروا عن هدى الله الذي جاءهم ؟ والنص القرآني يوحي هنا بالمقارنة بين ماتهوى الأنفس ، وبين الهدى الذي جاءهم . فما تهوى الأنفس رغبات وضلالة ، والذي جاءهم من ربهم هو الهدى.

وصف القرآن استكبار بني إسرائيل وإدبارهم عن رسالة محمد ﷺ بأنها جاءت بما لاتهوى أنفسهم ، وكذلك إدبارهم واختلافهم واستكبارهم على أنبيائهم :

﴿ ... أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧]

وتكرر الصورة هذه في سورة المائدة :

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المائدة: ٧٠]

ويظل الهوى المتفلت من ضوابط الفطرة السوية يثير في النفس ألوان «الفجور» وأمواج الرغبات ، على قدر انفلاته وغلبته . ويثير الحسد حتى ينمو فيستحكم ، فيصدر عنه الرأي والموقف ، ويثير الغيرة حتى تشتد فتتحكم ، وتدفع إلى الانحراف والجريمة ، ويهيج الحرص على الدنيا وطول الأمل ، والجري على الكسب دون مبالاة بحلال أو حرام ، ويطلق اللسان بالكلمة الخبيثة ، والغيبة والنميمة ، والتناجي بالإثم ، ويغذي الخيانة والشهوة والاعتداء . وينمي الحقد والظلم ، ويوقع الجدل والمراء ، والنفاق والكذب ، والعصبية الجاهلية والغضب والعجلة والكبر ، والغدر والخديعة ، يقطع الصلات والأرحام ، والجوار

والقربى، والشفقة والرحمة ، ويميت التواضع والأناة ، والحلم والوفاء ، والروية والصدق ، والسماحة وكظم الغيظ ، والعدل والرفق .

ولكل صفة من صفات الفجور صفة أخرى تقابلها من التقوى . فهذه تنمو وتشتد بالهوى المتفلّت ، وتلك تضمر وتذوي . فتضطرب الفطرة السوية ويختل التوازن .

ويمضي ذلك على درجات متفاوتة على قدر نمو الهوى وضعف الإيمان . يمضي ذلك متفاوتاً بين إنسان وإنسان ، وقوم وقوم ، حتى يتحقق الابتلاء من خلال أحداث الحياة وأقدار الله ، من خلال المواقف والممارسة والجهد والعمل ، من خلال غياهب النفس والنية العاملة المتحركة ، من خلال المعاناة والمجاهدة ، من خلال ذلك كله يتحقق الابتلاء ، ويمحص الله النفوس ، حتى تتمايز وتختلف . ويمضي الاختلاف حتى يكشف الحقائق ، وتبرز طبيعة العبادة وينهض الصدق أو الكذب ، الإيمان أو النفاق ، التوحيد أو الشرك ، القوة أو الضعف . لذلك نهى الله سبحانه وتعالى عن اتباع الهوى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾ [النساء: ١٣٥]

هذه الآية الكريمة تهز المؤمن هزاً عنيفاً وتوقظ فيه كل قوى الخير والحق ، والحذر والحيطة ، والتقوى والإيمان حتى يلتزم حدود الله ولايتبع الهوى . ومن كان على غير ذلك فإنه يمر عليها كأنه لايسمع شيئاً ولا يرى شيئاً .

وهذه الآية في مجال الحكم والقوامة بين الناس ، وهو ميدان واسع ، إن عمل فيه الهوى أفسد الأمر كله .

وكذلك في سورة ص :

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾ [ص: ٢٦]

وهذا الخطاب إلى داود عليه السلام ينهاه عن اتباع الهوى في مجال الحكم

والاستخلاف في الأرض ، حتى لايضل عن سبيل الله . خطاب من الله إلى نبيه داود ، بيِّن ، يبين فيه سنة الله التي لاتتبدل ، وهي أن الهوى يضل عن سبيل الله .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٤١ ﴾
[النازعات: ٤٠، ٤١]

وارتبط الهوى هنا في ميدان آخر من ميادين الإيمان ، ارتبط بالنهي مع كل ظلال المعاناة والشدة في أثناء الممارسة الواقعية ونهي النفس . وفي الآية السابقة جاء التعبير مختلفاً يناسب ذلك الميدان وتلك الممارسة . ولاتتبعوا الهوى ... ، ولاتتبع الهوى . إنها هنا مقابلة بين : «**من خاف مقام ربه**» وبين «**نهى النفس عن الهوى**» ، فكانت خشية الله دافعة إلى نهي النفس .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦ ﴾
[الأعراف: ١٧٦]

وهنا ميدان الإيمان ، ميدان آيات الله ، إنه ميدان يرفع الإنسان ويعلي قدره ، واتباع الهوى يهبط به حتى يسف ويخلد إلى الأرض ، جارياً لاهثاً ذليلاً بهبوطه، كالكلب الذي يدلع لسانه لاهثاً سواء زجرته وطردته أو تركته . إنها ظلال جديدة لاتباع الهوى .

ويتأكد هذا الهبوط مع ظلال التردي والسقوط باتباع الهوى في سورة طه :

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦ ﴾ [طه: ١٦]

ميدان الإيمان بالساعة ويوم البعث والحساب ، مع كل ظلال التردي والسقوط لمن لايؤمن بها .

وقد لايتبع الإنسان هواه وإنما يتبع هوى غيره ، هوى غيره الضال المضل ، فينهى الله عن ذلك .

﴿ ... وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٢٠ ﴾
[البقرة: ١٢٠]

﴿ . . ولَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) ﴾ [البقرة: ١٤٥]

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ (٣٧) ﴾ [الرعد: ٣٧]

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ . . . ﴾ [الشورى: ١٥]

وكأن «اتباع أهوائهم» مناقض للعلم الذي جاءه من عند الله ، مرتبط بالظلم ، ومسبب لعدم نصرة الله وولايته ، مناف للاستقامة والعدل ، والدعوة الحقة ، والإيمان المستقر برسالة السماء ، ورسالة الأنبياء والرسل ، ويظل هذا التوجيه ماضياً في ميدان العقيدة والإيمان ، والدعوة والممارسة ، والعدل والحكم ، والعمل كله .

وفي سورة الأنعام ظلال أخرى :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) ﴾ [الأنعام: ٥٦]

فارتبط الهوى هنا بالشرك ، والضلال وعدم الهداية . وجاء الأمر من الله حاسماً قاطعاً : «قل لا أتبع أهواءكم» .

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠) ﴾ [الأنعام: ١٥٠]

وجاء الهوى هنا متصلاً بما كان الناس يحرمونه من غير علم . جاء مرتبطاً بالشهادة الباطلة والتكذيب بآيات الله وعدم الإيمان باليوم الآخر وبالشرك بالله .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا

اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام: ١١٩]

وهنا مع الضلالة وعدم العلم والاعتداء . فقد تجاوزوا حدودهم وحرموا مالم يحرم الله فاعتدوا وظلموا .

وفي سورة الجاثية آفاق أخرى تكشف أمراض الهوى وأخطار الانحراف .

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨]

إن أهواء الذين لايعلمون منحرفة عن شريعة الله ومنهاجه ، فكيف يتبعها المؤمنون إنما يتبعون شريعة الله وحدها دون غيرها من أهواء الجاهلين .

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣]

وهكذا يشتد الهوى حتى يتخذه الضالون إلهاً من دون الله . لقد ضلوا ولاحق لهم بالضلالة ، وقد خلقهم الله على الفطرة ، وأعطاهم السمع والبصر والفؤاد ، وبث آياته في الكون وفي الإنسان وفي مصائر الأقوام ، وبعث الرسل والأنبياء وجاءهم العلم من عند الله ، ومع ذلك ضلوا واتبعوا الهوى . والله يعلم أمرهم كله علماً حقاً كاملاً ، عادلاً حكيماً فاستحقوا الضلالة على علم من الله ، عدلاً لاظلم معه . فمن يهديهم من بعد الله .

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٤٣]

تأكيد آخر لأثر اشتداد الهوى ، واتباع الهوى ، وضمور خصائص الخير ، وفضائل الحق في فطرة الإنسان ، حين تنحرف هذا الانحراف القاتل المهلك .

ولايقع هذا الانحراف الشديد ، الذي يقود إلى الكفر والشرك إلا عندما يتفلت الهوى من هداية الله .

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠]

ولاظلم أشد من الشرك، ولا هوى منحرفاً أشد من هوى التفلت من هداية الله. وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ:

«لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[1].

هذه لمحات مما يعرض منهاج الله عن الهوى. والهوى في فطرة الإنسان، فإما أن يتجه الهوى إلى شريعة الله وأمر الله وما نزل من السماء على محمد ﷺ، وإما أن يتفلت في دياجير الشرك والكفر والفساد والضلال.

لقد رأينا كيف يعرض منهاج الله أثر الهوى في مجالات الحياة المتعددة وميادينها المختلفة.

فهو يعرض آثاره في ميدان الإيمان والعقيدة، وفي ميدان الحكم والسلطان، وفي ميدان الأسرة والحياة الزوجية، وفي ميدان القضاء وفي ميدان الحياة الاجتماعية، وفي سائر العلاقات البشرية.

ورأينا آثاره وخطورته: من ظلم واعتداء وضلال، وفساد، وزلل وإفساد، وتمزق روابط وصلات، وفساد بيوت، ودمار أسرة، وهلاك أمة، ويشتد أثره حتى يقود إلى الشرك بالله والكفر به، ثم يقود صاحبه إلى النار في الدار الآخرة.

والعلاج بيّن واضح، لاعلاج سواه. إنه اتباع منهاج الله. إنه الإعداد والتربية، والمراقبة والتوجيه، على نهج واضح، وجهود دائبة. إنها العبادة المتصلة بالممارسة، والعمل، والمعاناة، والمجاهدة، ذلك كله على أساس الإيمان المستقر.

وهنا تكون المسئولية عامة شاملة، تشمل كل ذي قدرة وسعة، وأمانة ومسئولية، إنها مسئولية الفرد نفسه، ومسئولية الوالدين والأسرة، مسئولية المجتمع ومؤسساته، مسئولية العالم والحاكم، مسئولية مترابطة متناسقة من خلال منهاج رباني.

---

(١) الأربعين النووية. حديث رقم (٤١). عن عبدالله بن عمرو بن العاص. وقال النووي رويناه في كتاب الحجة باسناد صحيح. وقال المحقق أخرجه أبو نعيم في كتاب الأربعين، والأئمة في مسانيدهم والطبراني.

هـ - اضطراب الموازنة :

حين يغلب الهوى ، ويعمل الظن ، ويسود الجهل ، وتطغى الدنيا ، تضطرب لدى الإنسان كل موازينه التي يزن الأمور بها ، ويصبح لكل امرىء ميزانه وهواه ، فكيف لاتختلف الآراء ، وتضطرب المواقف ، ويفسد الرأي والنصيحة والمشورة . لقد جعل الله ميزاناً واحداً يحكم بالقسط والعدل ، ألا هو منهاج الله . ولا ميزان للناس سواه . وأي ميزان آخر ، فإنه يجعل الأمور على غير حقيقتها ، مضطربة غير متوازنة متصادمة غير متلاقية .

﴿ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾
[الرحمن: ١ - ٩]

«ووضع الميزان » !ميزان لكل شيء في السموات والأرض ، والكون كله . فحين تضطرب الموازنة في طبيعة الإنسان ، وفي فكره ، وفي سلوكه ، سيكون الخلاف لامفر منه ، واللقاء عابراً لاثبات عليه . ولأهمية هذا الموضوع سنفرد له بحثاً نستعرض فيه طبيعة التوازن وخصائص الموازنة .

و - القوى الخارجة عن الصف المؤمن :

إن المؤمنين يؤلفون أمة واحدة ، وصفاً واحداً . وهذا هو الأساس ، وهذا هو مطلب الإسلام . والقوى الخارجية عن صف المؤمنين قد تلين حيناً ويشتدّ عدوانها حيناً آخر . وما داموا خارج دائرة الإيمان ، فقد رسم الإسلام سياسة التعامل مع كل فئة أو طائفة من الناس ، في كل ظرف ، ومع كل عصر . لامجال لبحث هذا هنا ولكننا أشرنا إليه إشارة فحسب .

إلا أن أعداء الإسلام هم قوم معتدون ، لأنفسهم ولغيرهم . يخططون ليل نهار لإثارة الفتنة والخلاف بين المسلمين لإضعاف قواهم . وقد فصّل الإسلام في ذلك كثيراً ، وحدد مواقف العداء في فئات ثلاث : الكافرين والمشركين ، أهل

الكتاب ، المنافقين. وليس كل أهل الكتاب يقفون موقف الحرب والعداء فمنهم من آمن وصدق إيمانهم ، واليهود عامة هم أشد عداء للمسلمين من غيرهم ، وجميع الفئات التي تلتقي على حرب الإسلام ، فإنها تلتقي تحت راية واحدة مهما اختلفت الشعارات والأسماء ، هذه الراية هي راية الكفر والشرك لأنهم يحاربون الله ورسوله . وهم من جنود الشيطان وحزبه .

وسعى هؤلاء لتفريق صف المؤمنين بالخلاف والتمزيق سعياً حثيثاً . وهو سعي ممتد مع التاريخ ومازال قائماً حتى اليوم ، وسيظل قائماً ماضياً في المستقبل : مكر وكيد ، وغدر وخديعة . ولكنها مسئولية المؤمنين أنفسهم حين يقعون في الشرك الذي ينصب لهم ،والحبائل التي تمد إليهم . إنها مسئولية المؤمنين حيث جعل ا لله لهم من منهاجه نوراً وهداية ، وموعظةً وشفاء ، ونهجاً وسبيلاً ، وحماية وصوناً . ولكنه الابتلاء ليميز الله الخبيث من الطيب .

ولقد فصَّلت سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، والنساء والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، لقد فصَّل منهاج الله دور كل طائفة تفصيلاً ، وفصَّل أساليبهم ، وأهدافهم، مكرهم وكيدهم ، حتى لايبقى عذر لأحد من المؤمنين إذا سقط في خديعة شياطين الانس والجن . ولنأخذ قبسات هنا :

﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٢، ٧٣]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١]

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥]

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٩]

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٠]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المائدة: ٥١، ٥٢]

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [التوبة: ٨ - ١٠]

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [التوبة: ٤٧، ٤٨]

هذه نماذج من عداء الكافرين والمنافقين وأهل الكتاب . وهؤلاء جميعهم يمثلون شياطين الإنس ، ويعملون مع شياطين الجن حزباً واحداً وصفاً مهزوماً واحداً.

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٨]

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) ﴾ [الأنعام: ١٢٨، ١٢٩]

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣) ﴾

[الأنعام: ١١٢، ١١٣]

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) ﴾ [المجادلة: ١٩]

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾ [فاطر: ٦]

وهذا العامل في الاختلاف، يختلف عن سائر العوامل الأخرى بأنه عامل خارجي، عامل خارجي عن الصف المؤمن. أما العوامل الأخرى فهي ذاتية، من أنفسهم. ومع هذا العامل الخارجي لايسقط الإثم عنهم إذا أفلح عدوهم وأفلح الشيطان فيما يبغون من فتنة وهلاك.

ويسهل على الإنسان أن يضع اللوم على غيره، حتى يخفي عجزه واستسلامه، وضعفه وهوانه. وفي واقعنا اليوم نرى الكافرين والمنافقين، ومن سلك سبيلهم من أهل الكتاب، غازين ممزقين للعالم الإسلامي. ونرى كثيراً من الناس يحصرون اللوم بهؤلاء الأعداء وحدهم، وينسون أن اللوم يجب أن يقع عليهم هم أنفسهم أولا لتخاذلهم وابتعادهم عن منهاج الله، واتباع سُبُل شتّى ولولا ذلك مانال منهم عدو نيلاً. لقد تمكن منا العدو حين أصبح بأسنا بيننا شديداً، مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ الذي ورد في الفصل السابق.

أوردنا هذا العامل الخارجي للتذكرة والتوعية . ولنعلم أن هذه القوى استغلت واستفادت من جميع نقاط الضعف السابق ذكرها : حب الدنيا ، الظن ، الجهل ، والهوى ، اضطراب الموازنة . لقد استفاد العدوّ واستغل كل واحدة منها أبعد استغلال قروناً عديدة حتى استطاع أن يمزق العالم الإسلامي ، في حمّى خلافات غبية جاهلة قاتلة ، حتى اتسع الخرق على الراقع . ولكن دعوة الله ماضية في الأرض بإذن الله ، وستلتقي هذه الأمة بإذن الله أمة واحدة . ولن يجمعها إلا منهاج الله ، لن يجمعها أبداً شيء سواه ، فعليه ستلتقي القلوب المؤمنة الصادقة ، وينهزم المجرمون . وتعلو كلمة الله .

وعوامل الفرقة والخلاف التي أوردناها هنا اعتبرناها موجزة . وكذلك نستطيع أن نحصر أسباب الخلاف هذه وما سبق ذكره في الفصول السابقة ، فيما يتعلق بأجواء المؤمنين وخلافاتهم ، نستطيع أن نحصره بعاملين اثنين فقط وهما :

- الهوى .
- والجهل ، أو كلاهما معاً .

وعنهما تخرج سائر الأسباب . فحين يختلف مؤمنان في رأي أو موقف ، أو في عمل ونشاط ، وحين يتحول الخلاف بينهما إلى نزاع وشقاق وقتال ، أو إذا حدث مثل هذا بين طائفتين من المؤمنين ، فلن يعدو الأمر أن يكون إحدى الحالات التالية :

- ضعف إيمان أحدهما وغلبة الهوى عليه .
- ضعف إيمانهما وغلبة الهوى عليهما .
- جهل أحدهما بمنهاج الله والقضية موضوع النزاع .
- جهلهما بمنهاج الله والقضية موقع النزاع .

وقد يكون «الجهل» وسوء التقدير سبباً لهذه الشحناء . ولكن الإيمان إذا استقر صادقاً في القلب ، عرف كل مؤمن حده وقدره . وقد يكون ضعف الموهبة حين يتسلم المسئولية من هو أدنى منها سبباً ، في فساد الرأي والمشورة . ولكن المؤمن الذي يعرف حده وقدره يقف عنده .

وليس كل خلاف بين المؤمنين يمثل أمراً باطلا . فقد يكون من اختلاف الرأي مايعين على معرفة الحق وصدق الاجتهاد . وفي هذه الحالة لن يؤدي الاختلاف إلى فرقة أبداً . إنه اختلاف عادي طبيعي ، وظاهرة إيمانية في واقع البشر . إن مثل هذا الاختلاف يقرب القلوب ويجمع النفوس التي خلت من التحاسد والغيرة والظن، فتحوط الرأي والموهبة برعاية الحنان والحماية ، لارعاية الغيرة القاتلة . وتمتد السواعد لتتشابك في ود وإخاء .

فكل خلاف أدى إلى فرقة ونزاع وقتال ، لايرضاه الله . وكل اختلاف أدى إلى ملل ونحل وطوائف .. لايرضاه الله .

إن الله يرضى لعباده المؤمنين أن يكونوا صفاً واحداً ، صفا واحداً فقط . فإن كان خلاف ذلك فإنّه الهوى أو الجهل أو كلاهما معاً .

ولقد تحدثنا حتى الآن عن الاختلاف عامة ، في إطاره العام ، وشكله العام . ولم نحصره بلون واحد أو شكل خاص من أشكال الاختلاف .

فقد يختلف الناس على الحقوق والأموال ، أو على المناصب والقيادة ، أو على المصالح المختلفة . وقد يختلفون في الرأي الذي يعطى والمشورة التي تقدم . وكل خلاف مهما كان نوعه قد ينطلق أساساً من اختلاف في الرأي أو قد ينتهي إليه ويتحول لشكل من أشكاله .

وبذلك يبقى الخلاف مهما تعددت أشكاله وألوانه ، يدور حول اختلاف في الرأي والتصور ، أو في الفكر والمعتقد .

وتظل نوازع الاختلاف ، هنا أو هناك ، هي نفسها تعمل في النفس البشرية وتؤثر فيها وتحدد الرأي والموقف .

لذلك نستطيع أن نستفيد من العرض العام لنفهم حالة خاصة أو خلافاً محدوداً.

كيف تقوم الشورى بين حب للدنيا ، وظن وتخمين ، وجهل وهوى . إن هذه كلها تقود إلى اضطراب الموازنة . واضطراب الموازنة يفتح فرجات لعدوّ من

البشر ، أو لشيطان غويّ . وهذا كله يفسد الرأي ، ويقتل الشورى . فلا بد إذن من علاج ذلك بين المؤمنين، ليكون العلاج ممهداً للشورى الأمينة والنصيحة الصادقة ، والرأي الصائب ، وليكون العلاج جزءاً من قواعد الشورى وأسسها ، ونهجها وأسلوبها ، وغاياتها وأهدافها .

الفصــل الخامــس
الاختــلاف ومعالجته مع المؤمنين

كان الفصل السابق موجزاً عاماً ، أوجزنا فيه التصور العام لطبيعة الاختلاف، وأوجزنا الاختلاف وأشكاله في ثلاثة نماذج كبيرة ، وأوجزنا أسباب الاختلاف تلك من خلال عرضنا السابق للخلاف وطبيعة الإنسان .

ونستطيع أن نعدد من أسباب الاختلاف ، ومسببات الفتنة ، أشياء كثيرة . ولكننا حاولنا أن نجتهد لنتلمس أهم الأسباب المباشرة النابعة من طبيعة الإنسان ذاته ، حين نتعامل مع واقع الحياة البشرية . وكذلك أوردنا أهم الأسباب الخارجة عن صفّ الجماعة المؤمنة وهي أعداؤها ، حين يحاولون أن يستغلوا نواحي الضعف ليثيروا فتنة وخلافاً .

ثم وضعنا جميع الأسباب في إطارين كبيرين نعتقد أنهما يشملان بصورة مباشرة أو غير مباشرة جميع الأسباب الأخرى ، وهما : **الهوى والجهل** .

ولم يجد أعداء الإسلام أبداً أيسر استغلالاً ولا أطوع رغبة من هذين العاملَيْن ، لينفذوا بواسطتهما إلى العالم الإسلامي ، وينفثوا فيه سموم التفرقة والفِتنة والخلاف . واستجاب الضعفاء للهوى وانقادوا إليه ، أطاعوا الجهل واتبعوه ، فكان الواقع الذي نعيشه اليوم بكل آلامه وجراحه ، وهوانه وشقائه ، ودمائه وضحاياه ، ودموعه وأحزانه .

ونحصر البحث الآن لنعيش في أجواء المؤمنين . أجواء الإيمان التي يفترض ألا تدخلها فتنة ولا يمزقها اختلاف . ونود أن نرى أسلوب المنهج الرباني أو الأصح ملامح منه في معالجة ذلك .

ونحاول الآن أن نعرض لمحات من أسلوب منهاج الله في معالجة الخلاف وأجوائه . ونعترف منذ البداية بالعجز عن أن نلم في هذا البحث بتفاصيل أسلوب الإسلام كلها . ذلك لأنها معروضة في منهاج الله عرضاً ربانياً كاملاً

مفصلاً. وعلى الإنسان أن يضع جهده وطاقته في مصاحبة منهاج الله ، ليرى الأسلوب بعرضه الكامل وتناسقه الرائع ، وترابطه القويّ . إننا نعرض هنا لمحات ، لتذكر ، فينهض المسلمون إلى القرآن والسنة ، إلى منهاج الله ، فهو الأسلوب الكامل ، وهو نفسه الشفاء والنور . وهذه قبسات وتذكرة . إن عرضه بأسلوبنا البشري لايمكن أبداً أن يؤدي المهمة أو أن يوفي بالقصد . إنها تذكرة ونماذج .

إن أسلوب الإسلام لاينحصر في معالجة الاختلاف عند حدوثه ، ولكنه يبدأ بمعالجته قبل حدوثه ، يبدأ بإعداد الفطرة والطبيعة الإنسانية ، إعداداً يمكنها من قيامها بمسئوليات **العبادة والأمانة والاستخلاف** ، والصبر عند الابتلاء والمعاناة. ولننظر إلى مراحل ولمحات .

١ - الإيمــــان :

إن الإيمان بكافة آفاقه وامتداداته وبكل معانيه وتصوراته ، يقدم النفحة الطيبة ، ويفتح الخير الوفير ، لكل جمع ووفاق طاهر صادق . الأخوة في الله تأخذ صورتها الإيمانية الصادقة ، والعبودية لله رب العالمين عندما تصدق باستسلام وخشوع ، وما ينشأ عن ذلك مباشرة من تعاون وبذل وسماحة ، من تنمية لكل نوازع التقوى في النفس البشرية ... ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس: ٨]

عندما يحدث هذا كله تنحسر أمواج هائلة من الخلاف ، وتلتقي قلوب ونفوس ، وجهود وسواعد ، وكلمة ورأي ، ونصيحة ومشورة .

إن أيّ اضطراب في الإيمان ، أو ضعف في العبودية يبرز ، عاجلاً أو آجلاً ، على شكل من أشكال الخلاف ، واضطراب في العلاقات والوشائج في ميدان الممارسة والعمل .

﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ** ﴿٢٢﴾ ﴾

[محمد: ٢٢]

ولذلك تظل المهمة الرئيسة هي تغذية الإيمان وتقويم تصوراته . وقد يفيد

الوعظ والإرشاد ، ويفيد النصح والتوجيه ، والأخوة والرفقة ، ولكن العامل الرئيس يظل هو مصاحبة منهاج الله قرآناً وسنة صحبة عمر وحياة وليل ونهار ، فهو نفسه يقدم الشفاء .والإيمان ليس تصوراً نظرياً يحمله القلب فحسب ، ولكنه كذلك عمل وممارسة ، وأمانة وجهد . فالإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل . فيمضي الإنسان مع إيمانه في الحياة ، وهو يمارس ألوان العمل الذي يحفظ الإيمان وينميه . وأول ذلك ، العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج بكل مافيها من معاناة نفسية وإعداد وتوجيه وتقويم . وبدون العبادات ، إذا مضى الإنسان في حياته ، يأخذ إيمانه يضمر ، وفكره يضطرب ، وتصوراته تنحرف ، وهو يحسب نفسه على خير ، حتى يبلغ الشرك والكفر . وينفجر في نفسه فجورها كله ، ويضمر فيها تقواها .

وتعرض سورة الروم هذه الصورة في أجواء الخلاف والفرقة التي تقود إلى الشرك .

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٢٩ - ٣٢]

هذه هي الحلول التي يقدمها منهاج الله في هذه الآيات الكريمة :

«فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله ... »

«منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم » .

«فأقم وجهك للدين حنيفاً » . ولاتمل إلى سواه ، واستقم كما أمرت . وارتبط الدين بالفطرة التي ألهمها الله فجورها وتقواها ، فأثار فيها كل التقوى

«**منيبين إليه واتقوه** » ، إنابة استسلام ثم تقوى . ثم يرعى الله هذا الإيمان والإنابة والتقوى ، بما فرض من عبادة ، «**وأقيموا الصلاة** » فهي رأس العبادة . «**وأقيموا** » تحمل ظلال الإقامة الصادقة بما فيها من خشوع واستسلام ، وتدبر وخشية ، مع كل حركة من ركوع أو سجود أو قيام . ثم جاء بعد ذلك «**ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ..** » .

أي أسلوب يستطيع أن يبلغ هذا الأسلوب وأي شفاء أعظم من هذا الشفاء . وهكذا يكون الإيمان بكل آفاقه التي يمدها منهاج الله قرآنا وسنة أساساً لكل محاولة ، مصدراً لكل جهد ، إيماناً تحوطه العبادة ، ويصدقه العمل والممارسة .

٢ - العلـم :

إذا صدق الإيمان على النحو الذي يعرضه منهاج الله ، فإن العامل الذي ينتج مباشرة عن ذلك ويُبنى عليه ، ويقوم به ويصاحبه هو العلم . العلم القائم على منهاج الله ، القائم على الإيمان . إنه استجابة المؤمن لربه وهو يدعوه ويأمره .

﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴿٣﴾ ﴾
[الأعراف: ٣]

فينهض المؤمن يلبي نداء الله وأمره : «**اتبعوا ...** » لينهض إلى قرآنه وسنة نبيه ليتعلم ويتزود ، وليعلم ماأنزل من عند الله ، ليتبعه .

هذا العلم هو نتيجة مباشرة للإيمان الصادق ، واستجابة إيمانية لأمر الله ، وصحبة منهاج الله دراسة وتدبراً وعملا ، على هذا النحو ، تفتح طاقات المؤمن ، وتحرك مواهبه ، لتزيل عنه الغفلة والتراخي والكسل ، فيهب إلى دراسة واقعه في حدود طاقته وأمانته ، ووسعه ومسئوليته ، حتى لايكون إمعة ولايكون التائه ، ولايكون واحداً من قطيع .

فهو يملأ طاقته ووسعه بالعلم بمنهاج الله والعلم بالواقع في إطار حدوده ومسئوليته ، على أساس من الإيمان ، فعندما يلتقي رأي مع رأي أو موقف مع

موقف ، فإن الوفاق تكون أبوابه مفتوحة مادام الإيمان قد صدق ، والعلم زادُ المؤمن العامل .

٣ - التربية والإعداد :

مع آفاق الإيمان الممتدة ، والعلم الذي يقوم عليه ، العلم بمنهاج الله والواقع البشري ، تنهض التربية والإعداد . إن التربية في نظر الإسلام ليست عملا مرحلياً ينتهي بشهادة ، أو يبتدىء بفصل دراسي . إن التربية جهد يتحمل أمانته ومسئوليته آباء وأمهات ، وأرحام وقرابات ، ومؤسسات ومجتمعات ، ودعاة وعلماء ، ومعاهد وجامعات ، وأولوا أمر وذوو سلطان ، إنها مسئولية عامة يكاد لايفلت منها أحد . وأول المسئولين المسلم الفرد ذاته . ويمكن أن نوجز أهداف التربية الإسلامية في هذه العجالة ، بكلمات قليلة وهي حماية الفطرة السوية المتوازنة التي فطر الله الناس عليها ، وتنمية خصائص الإيمان لتمارس في الواقع البشري ممارسة إيمانية حقيقية .

بغير هذا الإعداد ، فإن فطرة الإنسان قد تتعرض إلى الاضطراب والانحراف. وهذا الإعداد هو مهمة عمر ممتد لايتوقف أبداً . ويظل الإنسان أمام الابتلاء في الحياة ، يتدرب ويتعلم ويعتبر ويتدبر . ولذلك كانت التوبة ممتدة والأوبة مقبولة عند الله، حتى يغرغر العبد . وجاء حديث رسول الله ﷺ يضع الصورة في صياغتها الحقة وأسلوبها الفذ :

عن أبي صفوان عبدالله بن يسر الأسلمي رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ :

« **خير الناس من طال عمره وحسن عمله**» .

(رواه الترمذي وقال حديث حسن ورواه الدارمي) [١]

إنه ليس طول العمر فحسب ، ولامجرد العمل فحسب إنه من طال عمره وحسن عمله ، فهو خير الناس ، ذلك أنه وهو في مدرسة الإسلام الممتدة مع العمر

(١) الترمذي : كتاب (٣٧) . باب (٢١) حديث رقم (٢٣٢٩) . الدارمي : كتاب الرقاق . باب (٣٠) .

تظل جميع ممارساته تحت التوجيه والمراقبة ، والنصح والرعاية ، في صحبة كريمة ثابتة لمنهاج الله ، ورفقة حانية لأخوة في الله ، حتى إذا اتسعت رحمة الله ومشيئته كان المجتمع الحاني ، والأمة الواحدة ، والسلطان الراعي ، والمعهد المربي ، والبيت ، والشارع والإعلام وسائر طاقات الأمة تصب في مدرسة الإسلام ، لتخرج أجيال الإيمان .

ذلك أن المسلم إذا طال عمره وهو مع هذه الصحبة المباركة ، والرعاية الحانية ، وهو دائب على واجبه ، يؤدي أمانته ، ويرعى مسئوليته ، فإن إيمانه ينمو ، وعلمه يزداد ، وتجربته تصقل ، ومواهبه تتسع . فإذا عمله يحسن في طاعة وعبادة ، ويظل إيمانه وعلمه وتجربته وموهبته في نمو وزيادة ، وصقل واتساع ، ويظل عمله يحسن ويزداد حسناً ، وطاعته تقوى وتزداد قوة ، وخشوعه يصدق ويزداد صدقاً . فإذا عطاؤه أوسع ، وبذله أكبر ، وجهاده أمضى . وكم من الناس تجدهم في قوة من شباب ، وعاطفة من حداثة ، حتى إذا امتد بهم العمر ، ضمر إيمانهم ، وخف علمهم ، ونضب جهادهم ، وأخذت الدنيا تبتلعهم شيئاً فشيئاً ، حتى يصبح طول العمر مالاً يجمع ، وزخارف ترفع ، فتنة بعد فتنة ، وضياع بعد ضياع . هؤلاء لم يكونوا في مدرسة الإسلام أبداً ، ولم يكونوا في صحبة منهاج الله مهما رفعوا من شعارات ، وحملوا من ألقاب ، وزينوا من شهادات .

هؤلاء كثيراً مايكونون سبباً في فتنة واختلاف ، حين يمضي منهم الرأي والمشورة مزيناً بكل الشعارات والزخارف والألقاب ، ويخفي في طياته ضعف الإيمان ، وضحالة في العلم ، وغلبة في الهوى .

وكم من الناس حمل العلم ، وحفظ القرآن ورددته شفتاه ، ولم يبلغ قلبه وجوارحه ، إنه لم ينل الإعداد والرعاية ، والتدريب والنصح . فجمع في عمره أخطاء تتراكم ، وأهواء تتجمع ، تبتلعه فتنة ، وتلفظه أخرى . هؤلاء لم يكونوا في مدرسة الإسلام أو لم يطلبوها ويسعوا إليها .

إن مدرسة الإسلام ليست مقيدة في موضع واحد ، أو لحظة واحدة . إنها في

البيت ، في الوظيفة ، في الشارع ، في الأسواق ، في التجارة في السياسة ، في كل الميادين ، في كل العصور ، مع كل الأجيال فقد مدت لها الأرض مداً ، ومد لها الزمان أبداً فإذا كانت تمتد بالنسبة للفرد امتداد عمره وحياته ، فإنها تمتد بالنسبة للدعوة امتداد الحياة كلها حتى تقوم الساعة .

إن هذه التربية وهذا الإعداد ، ومع هذه الصحبة الطاهرة لمنهاج الله، والممارسة الواعية النامية ، والرعاية الناصحة والمراقبة الحانية ، إن هذه التربية واجب لايتخلى عنه وواجب لايسقط . إنها محور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وإذا تخلى الناس عن هذه الأمانة وتراجع العلماء ، وغاب الدعاة ، في لحظة من لحظات الزمن ، لحكمة يريدها الله ، فإن مسئولية العبد لاتسقط أبداً . فالله حي قيوم هو رب العباد ووليهم وهاديهم ، ومنهاج الله محفوظ بحفظ الله ، والأرض مبسوطة كلها للمؤمن . وتمضي به مدرسة الإسلام إذا لم يقعد به كسله، ويحجزه هواه .

لو لم يبق في الأرض إلا مؤمن واحد ، فستظل مدرسة الإسلام قائمة مفتحة الأبواب عاملة نشطة ، وستظل دعوة الله ماضية إلى يوم الدين ، وقد حفظ الله منهاجها وهو منهاج الله ، وبسط لها الأرض وهي أرض الله ، ولكن أقدار الله ماضية وسنّته ثابتة وحكمته غالبة عبادة واستخلافاً وابتلاء .

هذا الجيل ، الذي تخرجه هذه المدرسة ، يختلف في الرأي ، على ألفة ولقاء جهود ، يجمعهم الحق والصدق والأمانة ، في ظلال شورى وارفة ، ونصح طاهر.

٤ - مدرسة الإيمان وقواعدها :

يتعلم المؤمن في هذه المدرسة العظيمة أعظم دروس الإنسانية . يتعلمها ويتدرب عليها حتى يمهر فيها ويصدق عليها . وكل آية درس وكل حديث درس.

هنا في بحثنا هذا نعرض موجزاً لبضع دروس ونقاط تحوط المؤمنين بالرعاية، حتى لايفترقوا أو يختلفوا ، وتصونهم من التمزق والضياع ، دون أن نعني أنها وحدها تكفي ، أو أنها تؤخذ مجزأة معزولة عن سائر منهاج الله . فلا بد من التأكيد والتكرار أن منهاج الله متكامل متناسق لايترك منه جزء أبداً .

(أ) وأول هذه القضايا الأخوة في الله ، أخوة الإسلام ، أخوة الإيمان . وسنكتفي بأن نعرض صوراً من الاضطراب الذي أصابها في حياة المسلمين اليوم .

أولا : إن هذه الأخوة جزء من العقيدة والإيمان . وأنها أمر من عند الله رب السموات والأرض وليست أمراً يقره أحد من البشر أو يرفضه .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... ﴾ [الحجرات: ١٠]

المسلم أخو المسلم .

فهي إيمان وممارسة وليست شعاراً فحسب . فإذا تحولت الأخوة في العقيدة إلى صياغة بشرية ، فإنها تتحول بذلك إلى ملل ونحل ، وتضيف شعاراً جديداً إلى القومية ، والعنصرية ، وسائر عصبيات الجاهلية .

فلا بد إذن أن نعي أن أخوة الإيمان رباط ربطه الله بين المؤمنين في الأجيال كلها ، موغلة في التاريخ ، مفتحة للمستقبل وهي مما أمر الله به أن يوصل .

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]

ثانياً : إن هذه الأخوة يترتب عليها حقوق وواجبات . وهذه الحقوق والواجبات مبينة في منهاج الله وهي جزء منه ، وليست جزءاً من دستور بشري. وبغير ممارسة هذه الحقوق والواجبات ، تتعطل هذه الأخوة ، وتصبح شعاراً من الشعارات ، وقد تصبح باباً من أبواب الاختلاف والتفرق في الرأي والموقف والجهد .. . باباً من أبواب التمزق والضياع .

ثالثاً : لاتؤخذ الأخوة في الله معزولة عن سائر الوشائج والروابط والعلاقات ، وسائر الأحكام والقواعد والأسس في منهاج الله ، ولكنها تؤخذ على تناسقها وتكاملها .

رابعاً : لقد أنزل الإسلام هذه الأخوة منزلة عظيمة ، ونحن نعلم كيف آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار ... وكيف مارسها المؤمنون أصحاب رسول الله. وتظل أخوة الإيمان قائمة ثابتة راسخة حتى في مواقف النزاع والاختلاف ،

مهما اشتد حتى لو بلغ حد القتل في القصاص، أو الاقتتال بين فئتين:

﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)** ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠]

ثم تتوالى الآيات في سورة الحجرات لتنهى المؤمنين عما يثير الخلاف والنزاع والاقتتال: من سخرية قوم من قوم، أو نساء من نساء، أو تنابز بالألقاب، أو الظن والتجسس والغيبة ..

ويأتي ذكر أخوة الإيمان هنا «**إنما المؤمنون إخوة**» في أجواء الاقتتال، وبغي طائفة على أخرى. وبالرغم من أي موقف يتخذ طبقاً لشرع الله فإن أخوة الإيمان تبقى ما دام الإيمان باقياً.

وفي سورة البقرة:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)** ﴾ [البقرة: ١٧٨]

وانظر هنا إلى عظمة التعبير الرباني في موقف من أصعب وأشق ما تمر به النفس البشرية: فمن عفي له من أخيه. وحتى تظل الأخوة حقيقة، جاء بعد ذلك أرق التعابير وأحنى الألفاظ «**فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان**». هكذا يظل منهاج الله يربي النفوس في واقع الممارسة والتطبيق، في يسر وعسر وشدة ونعيم ..

خامساً: إن هذه الأخوة لاتنشأ بالمحاضرات والندوات، ولا حتى بمجرد الكتابة والتأليف. ولكنها تنشأ نشوءاً مع الإيمان وتنمو معه. وتظل تحتاج إلى رعاية التربية والتوجيه والإعداد والتكوين، حتى تتحقق الصورة الحقيقية في واقع حقيقي، ولاتظل أماني وأوهاماً.

(ب) الموالاة بين المؤمنين هي آفاق واسعة للإخوة في الإيمان ، حين تنزل في ساحة التطبيق في جماعة المؤمنين وأمة الإسلام . ونكتفي بأن نورد هذه الآيات في آخر سورة الأنفال وهي تحمل التأكيد والتكرار لتثبيت هذه القاعدة العظيمة وعرض آفاقها وامتدادها ، وأثر اضطرابها أو ضعفها . وترد هذه الآيات في آخر سورة الأنفال التي تتحدث عن معركة بدر حيث التقى الصف المؤمن والصف الكافر ، وبين الصفين أبناء لآباء ، وصلات ووشائح ، صلات جاهلية ، بعد أن دخل الإيمان القلوب . وقد تتحرك عاطفة هذه الروابط في لحظات الضعف ، فيردها الإيمان ومنهاج الله إلى التصور الإيماني الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٧٢ - ٧٥]

(جـ) ومما يجب أن يتدرب عليه المؤمن في مدرسة الإسلام ، تدريباً يقوم على الإيمان والعلم والممارسة ، هو معرفة المسلم لحدوده ، لطاقته ، لوسعه ، لنفسه . ومعرفة المؤمنين لمنازلهم . وبغير هذه المعرفة يثور بين المسلمين عواصف التناقض ، والاصطدام ، وزوابع الفتنة والاختلاف ، والتفرق والتمزق . فحين يقوم بمسئولية من هو أضعف من أمانتها ، وحين يطرح الرأي من لايفقه في القضية ، وحين يندفع المسلم في مالا يعنيه شرعاً ، حينئذ تهيج النفوس على فوضى واضطراب ، وتغيب الشورى في جدل ومراء . ومما يوضح ذلك آيات وأحاديث . وقد سبق عرض ذلك وشرحه . ولانرى بأساً أن نعيد هذه الآيات

والأحاديث في هذا الصدد تأكيداً وتثبيتاً :

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (٣٦) ﴾ [الإسراء: ٣٦]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩]

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٣) ﴾ [النساء: ٨٣]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه**». (رواه مالك والترمذي وابن ماجة) [١].

ومع أن شرح الحديث هذا قد سبق في فصل ماض، إلا أنه لابد من التذكير بأن الحديث الشريف لايعني التراخي عن المسئولية والأمانة، والإدبار عن دعوة الله وبذل الجهد. إنه يدعو المسلم ليضع طاقته في ميادين البذل والجهاد، والعبادة والطاعة قدر وسعه وعلمه، ومسئوليته وأمانته. وهذه كلها يحددها منهاج الله. فلا يؤخذ الحديث منعزلا عن سائر المنهاج الرباني الذي يحدد المسئولية والأمانة والوسع والطاقة.

وإذا كان على المسلم أن يعرف حده ولا يتجاوز قدره، فعلى المؤمنين أن يعرف بعضهم بعضاً، ويعرفوا أقدار بعضهم لبعض. حتى يكون التعارف أكمل، والتنازل أكرم.

(١) مالك في الموطأ: كتاب الجامع. باب ماجاء في حسن الخلق. حديث رقم (١٦٢٩). الترمذي: كتاب الزهد (٣٧). باب (١١). حديث (٢٣١٧). ابن ماجة: كتاب أبواب الفتن (٣١). باب (١٢) حديث (٤٠٢٤).

ذكر عن عائشة رضي الله عنها قالت : **أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم** . (رواه مسلم وأبو داود والحاكم)[1]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم عيينة بن حصن فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس . وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضي الله عنه ، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته ، كهولا كانوا أو شباباً . فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير ، فاستأذن لي عليه فاستأذن له فأذن له عمر رضي الله عنه . فلما دخل قال : هي ياابن الخطاب فوالله ماتعطينا الجزل ، ولاتحكم فينا بالعدل . فغضب عمر رضي الله عنه حتى هم أن يوقع به . فقال له الحر : ياأمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه : «**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** » . وإن هذا من الجاهلين . والله ماجاوزها عمر حين تلاها عليه . وكان وقافاً على كتاب الله تعالى . (رواه البخاري)[2]

فلقد كان عمر رضي الله عنه يعرف منزلة الحر بن قيس وقدرته وقراءته فيدنيه . وكان يعرف شأن عيينة بن حصن .

ولقد وضع الإسلام القواعد العامة للمنازل والقدرات والمواهب والطاقات .

قال الله تعالى : ﴿ ... **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر: ٩]

فهو العلم إذن ، والعلم قد سبق أن عرفناه . وهم أولو الألباب وتشمل هذه اللفظة الكريمة في كتاب الله المواهب المبنيّة على صدق العلم بمنهاج الله . وماسوى ذلك ففضل .

عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «**يؤم القوم اقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا في القراءة سواء**

---

(١) صحيح مسلم : المقدمة . أبو داود : كتاب الأدب (٣٥) . باب (٢٣) . حديث (٤٨٤٢) . ضعيف الجامع الصغير وزيادته . حديث رقم (١٣٤٤) . ج٢ ص ١٨ . الحاكم في كتابه (معرفة علوم الحديث) .
(٢) البخاري : كتاب التفسير (٦٥) . باب (٥) .

فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سناً . ولايؤمَّن الرجلُ الرجلَ في سلطانه ، ولايقعد في بيته على تكرمته إلا بإذنه » (رواه مسلم والترمذي وأبو دواد والنسائي وابن ماجة)(١)

والتكرمة ماينفرد به من فراش أو سرير . وفي رواية لمسلم أيضاً فأقدمهم سلماً أي إسلاماً .

وعنه أيضاً قال : «كان رسول الله ﷺ **يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول : استووا ولاتختلفوا فتختلف قلوبكم ، ليليني منكم أولوا الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »** (رواه مسلم وأبو داود والنسائي)(٢) .

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لِيَلني منكم أولو الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم - ثلاثا - ، واياكم وهيشات الأسوَاَق »** .

(رواه مسلم)(٣)

وهيشات الأسواق : اختلاطها ومنازعاتها وارتفاع الأصوات واللغط والفتن.

عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ **كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد يعني في القبر - ثم يقول : أيهما أكثر أخذاً بالقرآن ؟ فإذا أشير له إلى أحدهما قدمه في اللحد »** . (رواه البخاري والترمذي وابن ماجة)(٤) .

فتظل منزلة المؤمن مصونة وتكريمه قائماً حتى بعد موته . ولننظر في دقة هذا

---

(١) مسلم : كتاب (٥) باب (٥٣) . حديث (٦٧٣ / ٢٩٠) الترمذي : كتاب أبواب الصلاة . باب (١٧٤) . حديث (٢٣٥) . أبو داود : كتاب الصلاة (٢) . (٦١) حديث (٥٨٢) النسائي : كتاب (١٠) . باب (٣) حديث (٧٨٠) ابن ماجة : كتاب (٦) باب (٤٦) حديث (٩٦٧) .

(٢) مسلم : كتاب (٤) . باب (٢٨) . حديث (٤٣٢/ ١٢٢) . أبو داود : كتاب (٢) . باب (٩٦) حديث (٦٧٤ ، ٦٧٥) النسائي : كتاب (١٠) باب (٢٦)/. حديث (٨١٢) .

(٣) مسلم : كتاب (٤) باب (٢٨) حديث (٤٣٢/ ١٢٣) .

(٤) البخاري : كتاب الجنائز (٢٣) . باب (٧٣) . وكتاب المغازي (٦٤) . باب (٢٦) . الترمذي : كتاب الجنائز (٧) . باب (٢٨) . حديث (١٥١٣) .

التعبير : «**أخذاً بالقرآن**» إنّه ليس مجرد التلاوة ، ولا مجرد الحفظ والقراءة . إنه هذا كله مع تدبر ووعي وممارسة وعمل . إنه الأخذ كله بجميع صوره وأشكاله .

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله : «**إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه ، وإكرام ذي السلطان المقسط**» (رواه أبو داود)(١)

والغالي فيه : المتجاوز الحد .

عن عمرو بن شعيب عن أبيه رضي الله عنهم قال : قال رسول الله ﷺ : «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا**» . (رواه الترمذي) (٢)

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله : «**ما أكرم شاب شيخاً لسنّه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه**» . (رواه الترمذي وقال حديث غريبَ)(٣)

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيﷺ قال : «**الناس معادن كمعادن الفضة والذهب ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا ، والأرواح جنود مجنّدة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**» .

(رواه مسلم والبخاري وأبو داود)(٤)

الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، والناس منازل ، والناس مواهب وقدرات . وهكذا يعدد منهاج الله خصائص الرجال ، ويعرِّف الميزان الذي يوزنون به حتى تعرف منازلهم .

وهكذا يربي الإسلام أبناءه ليعرفوا أنفسهم أولا ولينظروا فيها وما قدمت لغد وليحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا غيرهم ، ولينظروا إلى منازلهم على

---

(١) أبو داود : كتاب الأدب (٣٥) . باب (٢٣) . حديث (٤٨٤٣) .

(٢) الترمذي : كتاب البر والصلة (٢٨) . باب (١٥) حديث (١٩٢٠) صحيح الجامع الصغير وزيادته. ج(٥) ص (١٠٣) حديث ٥٣٢٠ .

(٣) الترمذي : كتاب (٢٨) . باب (٧٥) . حديث (٢٠٢٢) .

(٤) البخاري : كتاب الأنبياء (٦٠) . باب (٢) مسلم : كتاب البر والصلة والآداب (٤٥) . باب (٤٩) حدث (١٦٠) . أبو داود : كتاب الأدب (٣٥) باب (١٩) . حديث (٤٨٣٤) .

خشية من الله ، وزهد في العلّو والكبر ، وبعد عن تزكية النفس وتقديمها على غير أمانة وعدالة ، وتواضع لله .

ثم يعرف منازل الناس وأقدارهم على نفس الميزان والعدل . ويمكن أن نشير إلى ملامح هذا الميزان بنقاط :

(أ) الإيمان وخصائصه كما بينها كتاب الله وسنة نبيه .

(ب) العلم بكتاب الله وسنة نبيه .

(جـ) العمل والبذل .

(د) المواهب والقدرات إذا قامت على الإيمان والعلم والعمل .

(هـ) السابقة في الإسلام .

(و) السن .

(ز) الاختصاص

ولكل من هذه النقاط تفاصيل حددها منهاج الله حتى لايضل الناس أو يخدعوا ، ولا يظلموا أو يظلموا .

وحين نعيش مع كتاب الله نجد آيات كثيرة تعلمنا منازل الناس وأقدارهم وتعلم المؤمن كيف ينظر إلى نفسه ليعرفها .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٤٩﴾ ﴾ [النساء: ٤٩]

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم: ٣٢]

ويصف القرآن الكريم المؤمنين ، ويبين فضائل الإيمان وخصائصه في آيات كثيرة وسور متعددة . وكل آية تعطي صفة وتحدد منزلة .

وحين يجمع المؤمن هذا كله من قرآن وسنة جمع وعي وتدبر وامتثال

واستجابة ، يسهل عليه عندئذ أن يعرف نفسه بصورة أقرب إلى التقوى ، وأن يعرف منازل المؤمنين كذلك . وتكون هذه المعرفة قائمة على علم وتبين ، لاظنون وأقاويل . وقائمة على مقياس محدد ، وميزان عادل ، وهو ميزان الإسلام ، بعيداً عن عصبيات الجاهلية وموازينها .

هنا ، في مثل هذا الجو ، تنمو المواهب والقدرات ، وتزكو النفوس والطاقات.

ولقد أخذنا هنا نماذج فقط ، قبسات وملامح : الأخوة والموالاة ومعرفة الحدود والمنازل وأقدار الناس . ولاينحصر الأمر بهذه ، ولكنه يشمل سائر القواعد التي سبق عرضها في الفصول السابقة . النصيحة وآدابها ، والرأي وحدوده ، والسمع والطاعة وقواعدها . وبصورة موجزة فإن في كل آية دروساً ، لمن أراد أن يمارس إيمانه في واقع الحياة ، ممارسة ماهرة مؤمنة ، ممارسة قادرة منتجة .

ونعتقد أن النماذج التي عرضناها هي أشد الأمور اضطراباً في حياة المسلمين ، وغيرها من القضايا مضطرب أيضاً . ولكنها نقاط تمثل قواعد يقوم ويبني عليها سواها ، ونقاط أشد مساساً بالشورى وبالاختلاف ، وهي قضايا أساسية في التربية الإيمانية والإعداد الإسلامي ، هي أصول في تربية الفطرة المؤمنة ، حتى لاتتفلت في متاهات الهوى ، ولاتنجرف إلى سبل ، فتفرق بها عن سبيل الله .

٥ - النهي عن الاختلاف والتفرق :

لذلك أكد الإسلام في آيات متعددة نهيه الحاسم عن التفرق والتمزق إلى ملل شتى . وجاء النهي بالآيات يجمع معظم قواعد الألفة والوفاق ويحذر من أسباب الفرقة والخلاف . ولنأخذ الآيات الكريمة نتدبر معانيها وظلالها . ثم يعود المؤمن إلى هذه الآيات ذاتها ليربطها بالآيات الأخريات التي تحيط بها في السورة ، وبالسورة ذاتها ، حتى يرى امتداد الظلال واتساع المعاني وإعجاز القرآن ، ذلك كله في منهاج الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) ﴾

[آل عمران: ١٠٢ – ١٠٥]

أمثلة من الواقع « **إذ كنتم أعداء ...** » لتكون عظة وتذكرة ، ومقارنة بين حالتين : كفر وإيمان ، ومنهجين ، وموقفين ومصيرين : جنة أو نار ، أولئك هم المفلحون ... ، وأولئك لهم عذاب عظيم ، حتى يشعر المؤمن حق الشعور ، ويؤمن حق الإيمان ، بأخوة الإيمان ، على علم وبصيرة ، فيبذل لها البذل الحق . أخوة الإيمان ، في الواقع البشري ، لا أخوة الإقليم ، والقوم .

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾ [الأنعام: ١٥٣]

إنها سبيل التقوى ولا سبيل سواها . فسائر السبل فرقة وشتات . وتمزق وخلاف .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) ﴾ [الأنعام: ١٥٩]

إنها براءة من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا . براءة قوية شديدة ، لاتترك صلة أبداً ... «**لست منهم في شيء** » . وحين أصروا على هذه التفرقة وهذه الشيع ، فقد كان أمرهم بعد ذلك إلى الله .

جاء الإسلام ليقوّم جميع انحرافات الأجيال السابقة في التاريخ البشري . لقد كان الانحراف يعقب كل رسالة ، والتحريف يصيب كل كتاب ، لحكمة

يعلمها الله ، حتى جاءت خاتمة الرسالات السماوية ونزل القرآن مهيمناً على جميع ماسبق ، ومصدقاً لما بين يديه . جاء ليقوّم كل الانحرافات ويصلح كل التحريف . فتعهد الله بحفظه :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]

ولقد صحح الإسلام وقوّم جميع الانحرافات والتحريف . وأصبحت بذلك رسالة السماء رسالة واحدة ، تمثل وحدتها إيماناً وعقيدة .

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥]

ووحدة العقيدةهذه ، منذ أول الرسالات السماوية حتى خاتمتها ، تمثل قوة وحبلا متيناً . تمثل قوة تربط المؤمنين في كل جيل وفي كل عصر أمة واحدة ، أمة تشعر بعظمة هذا الامتداد التاريخي حتى لاتجد أمة في الأرض لها مثل هذه الجذور الضاربة في أعماق تاريخ الإنسان ، أمة تشعر بعمق الإيمان الممتد ، والعزة الممتدة ، ممتدة في ماضي التاريخ الإنساني ، وممتدة في مستقبل الإنسان والبشرية كلها . أمة صنعت تاريخ البشرية كلها وحضارته الحقيقية ، وهي تصنعه اليوم ، وستمضي تصنع المستقبل تاريخاً وأمة وحضارة . أمة تمثلها العصابة المؤمنة التي تظل ظاهرة على الحق لايضرها من خالفها ، كما ورد في الحديث الشريف ، حتى تلقى الله وهي على ذلك .

أي أمة أعظم من هذه الأمة ، وأي انتساب وولاء أعز من هذا الانتساب والولاء .

٦ - الشورى الإيمانية :

إذا قامت هذه القواعد في حياة الأمة المسلمة تربية وتنشئة وإعداداً وتكويناً حتى تستقيم الفطرة السوية على توازنها ، إذا قام هذا كله على :

إيمان صادق وعبودية لله رب العالمين واستسلام له .

علم بمنهاج الله قرآنا وسنة وعلم بالواقع .

تدريب في مدرسة الاسلام ينمي الإيمان ويغذي العلم .

ممارسة واقعية لقواعد الإيمان كلها .

أن يكون النهي عن التفرق جزءاً من التصور الإيماني وسائر قواعد الإيمان والإسلام .

حين يقوم هذا ، تقوم معه الشورى وسيلة إيمانية لمعالجة الخلاف وأسباب الفرقة والنزاع . حينئذ تكون الشورى جامعة لامفرقة ، مثمرة لا مجدبة فالشورى أسلوب وعلاج .

٧ - رد الأمور إلى منهاج الله :

وحتى يمضي ذلك كله على بركة وخير ، دون تعطيل وجدال أو مراء ، قرر منهاج الله أن يعود المؤمنون في كل مايختلفون عليه أو يتنازعون فيه إلى الله ورسوله . لا إلى شيء آخر . إلى القرآن والسنة فحسب . وربط هذه العودة بالإيمان ، فمن لايعود لايكون مؤمناً ، كما سنرى في الآيات المقبلة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء: ٥٩]

وكيف ترد أبواب النزاع إلى الله ورسوله إذا كانت القلوب بعيدة عن منهاج الله قرآنا وسنة ، أو إذا اضطرب الإيمان أو غلب الهوى . كيف يكون رد الأمور إلى منهاج الله حين يكون هنالك جهل بمنهاج الله وجهل بالأمور .

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾ [الشورى: ١٠]

وفي هذه الآية الكريمة والآية التي قبلها ترد لفظة شيء على هذا النحو : «من

شيء» حتى لاتكاد تترك أي لون من ألوان الاختلاف ، ولامستوى من مستوياته ، ولا موضوعاً من موضوعاته ، إلا جعلت أمره وحكمه إلى الله رب العالمين .

إن هذا التأكيد على هذا المعنى ضرورة من ضرورات التصور الإيماني ، والممارسة الإيمانية . إنها دعوة المؤمن لأن يرد جميع أموره إلى الله ورسوله ، إلى القرآن والسنة . ويتكرر هذا المعنى ويتأكد في آيات كثيرة وسور كثيرة وأحاديث كثيرة ، حتى كأنما هو هدف من أهداف المنهاج الرباني : تثبيت هذا التصور في القلوب ، في النفس ، في العقول حتى لاتحيد عنه أبداً .

وليس الأمر مقتصراً على فئة محدودة في المجتمع المؤمن . إنه واسع ممتد يشمل كل مؤمن مكلف شرعاً . ذلك لأن الأمر الذي يجب رده إلى منهاج الله ليس القضايا الكبرى فحسب ، ولا القضايا التخصصية فحسب ، إن أمور البيت المسلم كلها ، علاقة الزوجين ، علاقة الأبناء وسائر علاقات الأسرة ، أساليب التربية في البيت ، التعامل ، الكلمة ، النية ، وكذلك عمل المؤمن في وظيفته في تجارته ، في سفره وإقامته حيثما كان أو مهما فعل ، فإن عمله كله يجب أن يصدر عن إيمان وفهم وعلم لمنهاج الله ، على قدر وسعه وطاقاته ، ومسئوليته وأمانته . ولاننسى بهذا الصدد حديث رسول الله ﷺ «**ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**» .

إن العودة إلى منهاج الله ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وليوجه الناس في ممارساتهم كلها ونشاطهم كله ، أمر هام يشمل في طياته جميع القضايا التي سبق عرضها . إن ارتباط المؤمن بمنهاج الله ارتباط عقيدة وإيمان ، وارتباط دراسة وتدبر ، ارتباط عمل وممارسة ، ارتباط مجاهدة ومعاناة ، إن هذا الارتباط يقدم بنفسه العلاج الأول لكل أوجه الخلاف ونوازعه في كل ميادينه وساحاته .

إنه يقدم العلاج للقلوب المؤمنة المنيبة المخبتة . أما القلوب المستكبرة المتمردة فإنها تحتاج أولا إلى نفحة إيمان لتتواضع لله ، ولمسة قوة لتهدأ وتسكن .

إن معالجة الإسلام لطبيعة الاختلاف لاتشمل قاعدة واحدة نطبقها فينتهي الخلاف . إن معالجته تقوم على أساس من منهاج متكامل يشمل جميع أوجه الحياة ونشاطها . يشمل الفرد في نفسه وضميره ، في فطرته وطبيعته في سلوكه وحركته ،

في كلمته وخطوته . إنه يشمله في كيانه كله ، ثم في علاقاته كلها إنّه يشمل المجتمع والأمة والإنسان .

إنه يشمل المجتمع كله ، وجميع أوجه نشاطه السياسي والاجتماعي ، والاقتصادي ، التربوي والعلمي ، الأدبي والإعلامي ، كل نشاط سواء أذكرناه أم لم نذكره، فإنه يدخل في دائرة منهاج الله المتكامل .

من هذا التصور نرى أن الاختلاف اختبار وابتلاء ، حتى تمحص عودة المؤمن إلى الله ورسوله في كل شيء : «**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله** ... » وحتى تمحص عودة الأمة إلى منهاج ربها . ليميز الله الخبيث من الطيب . إنه ابتلاء وتمحيص حتى تعرف القدرات والطاقات ، وتتمايز الكفاءات المؤمنة في مجرى واحد يحمل الخير والبركة ، والقوة والعزة .

إنه ابتلاء وتمحيص حتى نرى النصيحة المؤمنة ، والرأي الواعي ، وحتى نرى السمع والطاعة ، حتى نرى هذا كله يمارس في شتى الظروف ومختلف الأحوال .

وتلتقي هذه القواعد كلها في منهاج الله لتقدم الحلول للاختلاف وتبقى المسئولية على الإنسان نفسه . أيرد الأمر إلى دينه أم إلى هواه ، إلى قرآن وسنة أم إلى شعارات وزخارف .

وفي قلب المؤمن تلتقي قواعد الإسلام ، وفي صدره ، في فكره في دمه في أعصابه ، في سمعه وبصره ، حتى تتحرك الفطرة السوية ، وتنطلق النية الخالصة لوجه الله ، صافية نقية ، تدفع العمل والسلوك والجهد والعطاء والبذل والمعاناة ، والصبر والاحتساب ، والتعاون والألفة ، والولاء والأخوة ، والصدق والأمانة ، تدفع ذلك كله في مجرى طاهر نظيف ، يروي الأرض كلها بعطائه الخير .

إنها حاجة البشرية كلها ، إنها حاجتها الماسة الضرورية ، كحاجتها للماء والهواء والغذاء والكساء .. كحاجتها إلى الطاقة ، إنه الطاقة بذاتها وبكل صورها .

هذه الوقفات ... حين يقف المؤمن ليرد الأمر إلى منهاج الله فإنه يقف وقفة الخشوع والإيمان ، وقفة المحاسبة لنفسه قبل أن يحاسب غيره ، لينظر في نفسه

قبل أن ينظر إلى غيره كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، وتجهزوا للعرض الأكبر يوم تعرضون لاتخفى منكم خافية »[1] .

هذه الوقفات ... ما أروعها في حياة المؤمن ... ماأروعها في حياة الإنسان أي إنسان .

هذه الوقفات في حياة المؤمن ، وهو في ساحة العمل والممارسة والمجاهدة ، والمعاناة، تحمل معها حركة النية التي تدفع نوازع الخير وحوافز الإيمان . تحمل معها حركة النية لتدفع التوبة والاستغفار ولهفة الإنابة والأذكار .

إنها تحمل معها عزة العبودية لله رب العالمين ، وفرحة الرجاء بالرحمن الرحيم ، واطمئنان العبد إلى مولاه القادر العزيز ، والخشية من المنتقم الجبار خالق كل شيء ، لا إله إلا هو .

فالخطوة الأولى في معالجة الفتنة إذن هي في نفس الإنسان وضميره ، في قلبه وفطرته ، في معتقداته وتصوراته .

٨ - الإصلاح ، السلطان ، القتال :

إن جميع ماذكرناه في النقاط السابقة يمثل نماذج ولمسات فقط من أسلوب الإسلام في معالجة الفتنة والاختلاف ، وهي في مجملها محصورة في إعداد الإنسان فطرة وعقيدة وتصوراً وفكراً وسلوكاً ونشاطاً .

وكما ذكرنا من أسباب الخلاف فإن العدو الخارجي قد يستغل نواحي الضعف في الجماعة المؤمنة ويسعى جاهداً لنشر الفتنة والاختلاف ، والتفرقة والتمزق ، فإن الإسلام أخذ هذا العنصر في حسابه .

ويبدأ الموقف من هؤلاء بدعوتهم إلى الله ، وقد ينتهي بالقتال والحرب حتى يُقضى على الفتنة ويكون الدين كله لله .

---

(١) أخبار عمر ص (٢٩٠) .

﴿ ... فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٣]

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٩]

وقد يقع القتال بين المؤمنين أنفسهم وقد يكون القتال علاجاً . ولقد مرت معنا الآيات في سورة الحجرات :

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠]

وتعرض الآيتان الكريمتان صورتين من وسائل العلاج هنا : الإصلاح أولا ، ثم القتال . هذا بين المؤمنين أنفسهم . فقد يشتد الخلاف ويمتد ، وتقوى الفتنة وتنمو ، وتضطرب الأمور وتختلط ، حتى الاقتتال بين طائفتين من المؤمنين . وقد اعتبر الله سبحانه وتعالى الطائفتين «من المؤمنين » ، رغم الاختلاف ورغم الاقتتال .

وهنا يضع الإسلام الحل والعلاج . وهذا العلاج ليس علاجاً بشرياً وضعته مجموعة من الفلاسفة والمفكرين ، وإنما هو تنزيل من رب العالمين .

والخطوة الأولى في الحل هو الإصلاح . وهذا هو الأساس بين المؤمنين حتى يظلوا صفاً واحداً وأمة واحدة . ويمضي السعي إلى الإصلاح على أسس بينة واضحة، وهو منهاج الله بكل مافيه من أحكام وأخلاق وسائر قواعده وأسسه . ومن خلال هذا السعي للإصلاح تتضح أوجه الاختلاف وأسباب الاقتتال ، وادعاءات كل فريق ويرد هذا كله إلى منهاج الله لا إلى سواه . نعم إلى منهاج الله بكل آفاقه وامتداداته .

إذن يقوم مسعى الإصلاح على دراسة القضية بكل تفصيلاتها وردها إلى منهاج الله .وحتى هذه اللحظة يظل اعتبار الفئتين «من المؤمنين » لأن الأصل أن

فإذا تبين أن إحدى الطائفتين باغية ظالمة معتدية ، فيقف المؤمنون جميعهم في وجهها ، ويقاتلونها قتالاً حتى تخضع إلى أمر الله .

والنص يوحي بأن الإصلاح سيؤتي ثماره إذا التزمت كل طائفة بحدود الله ومنهاجه وأمره . سيكون الصلح وحده كافياً لحسم الخلاف وجمع الكلمة .

فإذا لم ينجح المسعى إلى الصلح على الأسس التي سبق عرضها على أساس منهاج الله ، إذا لم ينجح الصلح على هذا الأساس ، فلا بد أن تكون إحدى الطائفتين باغية خارجة عن أمر الله ، فيجب قتالها حتى تعود إلى أمر الله .

فالقضية الأساسية التي تعرضها الآيات هو الخضوع إلى منهاج الله ورد الأمور إليه . هذه القضية لاحق لمؤمن بالخروج عليها ، أو رفضها أو التفلت منها . وإلا فهو باغ معتد يحل قتاله حتى يفيء إلى أمر الله . فإن فاءت الفئة الباغية إلى أمر الله ورضيت بذلك ، يعود الصلح ، فأصلحوا بينهما بالقسط والعدل ، ليُعطى كلَّ ذي حق حقه ، ويُنزل كلٌّ منزلته على أساس من منهاج الله .

وتعودالطائفتان مؤمنتين عند استسلامهما والتزامهما بمنهاج الله وتقوم بينهما أخوة الإيمان : «**إنما المؤمنون إخوة**» .

ومن هنا نرى أن الأساس الذي تقوم عليه أخوة الإيمان ، هو الالتزام بمنهاج الله ، ورد الأمور صغيرها أو كبيرها إلى أمر الله ، وأن يكون الولاء الأول لله، والعهد الأول مع الله، والحبُّ الأكبر لله ورسوله.

﴿ ... فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) ﴾ [النساء: ٥٩]

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ .... ﴾ [الشورى: ١٠]

وبدون هذا الالتزام تضطرب صورة الإيمان ، وتضطرب أخوة الإيمان ويتعطل كل مسعى للصلح .

إن الآيات الكريمة هذه في سورة الحجرات واضحة بينة . وليست الصعوبة في فهمها أبداً . إنها ميسرة للفهم ، إن الصعوبة الحقيقية تظهر عند ممارستها في الواقع

البشري . إن هذه الممارسة ابتلاء واختبار حتى تنكشف القدرات ويظهر صدق الإيمان وسلامة الفهم والعلم بمنهاج الله .

فقد تقع أخطاء تعطل الصلح وتزيد الفتنة اشتعالاً . ويمكن حصر الخطأ مبدئياً بناحيتين : الناحية الأولى هي عدم دراسة الواقع وفهم القضية وموضوع الاختلاف فهماً سليما قائماً على منهاج الله . إن عدم فهم القضية يقف عقبة أمام ردها إلى منهاج الله .

والناحية الثانية هي عدم فهم منهاج الله وعدم توافر العلم توافراً يسمح برد القضية إليه . وكيف يستطيع أحد أن يرد قضية إلى منهاج الله إذا قصر فهمه للقضية ذاتها أو قصر فهمه لمنهاج الله .

ويمكن أن نجمع هاتين الناحيتين بكلمة واحدة هي «الجهل» .

وإن واقع المسلمين يقدم أمثلة عديدة على ذلك . وإذا كان الجهل ، فإنه يحرك الهوى ، ويثير الرغبات ، ويدور الصلح بجهود بشرية متفلتة لاميزان لديها ولا مقياس لها . تتحرك المصالح ، والقوميات ، والإقليميات ، وسائر الشعارات ، والعواطف ، والنوازع في أجواء عاصفة مضطربة يموج بها الجهل والهوى . فأي صلح يمكن أن يتم وأي تسوية يمكن أن تقوم . لذلك نجد أن نص الآيتين السابقتين يجعل الأمر كله يدور حول قضية واحدة أساسية : «**فإن تنازعتم في شيء ...**» ، ربطت هذه القاعدة بالإيمان فمن خرج عليها أو أنكرها فقد خرج عن الإيمان .

ويظل الإصلاح قاعدة إيمانية ووسيلة من وسائل العلاج ، في حالات متعددة ، بل في جميع الحالات ما أمكن ذلك . ولابد أن يستوفي الإصلاح شرطه الرئيسي : «**حتى تفيء إلى أمر الله**» .

ويعرض لنا القرآن الكريم الاصلاح في حالاته المتعددة وظلاله الممتدة . فهي كلمة الأنبياء إلى أقوامهم . فهذا شعيب عليه السلام يخاطب قومه :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود: ٨٨]

وفي أجواء الأسرة الواحدة وما قد ينشب من خلاف يظل للإصلاح دوره الرئيسي .

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٢٩) وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠) ﴾ [النساء: ١٢٨ - ١٣٠]

وفي هذا الموقف ، في داخل الأسرة ، حين تخاف المرأة من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ، يعرض منهاج الله الصلح : «**أن يصلحا بينهما صلحاً** » . ويعقب القرآن الكريم مشجعاً ومرغباً : «**والصلح خير**» ويعيد القرآن الكريم أسباب نوازع الخلاف أو عقبات الصلح إلى طبيعة الإنسان إذا اضطرب فيها التوازن ففيها الشح . فلا بد أن تتنازل المرأة عن شيء وأن يقترب بعلها إلى جانب العدل والتقوى أكثر . وتبين لنا الآية الكريمة أساسين لنجاح الإصلاح :

«**وإن تحسنوا وتتقوا ...** » ذلك لأن الإحسان والتقوى يخففان من غلو الشح وشدة تحكمه وسيطرته .

وهذه الممارسة الإيمانية صعبة ، حين يمارس المؤمن الإحسان والتقوى مع النساء فلن يستطيع أن يبلغ ذلك كله ، فيكون التوجيه الرباني : «**فلا تميلوا كل الميل ...**» «**وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً** » فالتوجيه هنا يقوم على بذل الجهد والممارسة ، وعلى السعي للإصلاح الذي يقوم على الإحسان والتقوى فإن لم يجْد ذلك : «**وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ...**» .

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) ﴾
[البقرة: ٢٢٨]

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٣٥]

ومع اليتامى :

﴿ ....وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾

[البقرة: ٢٢٠]

ومع الناس كافة :

﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤]

وليقف المسلم مع نفسه قليلا ، وقفة كالتي سبق أن عرضناها في الصفحات السابقة ، ولينظر في نجواه ، ولينظر في مسعاه ..

أكانت نجواه أمراً بصدقة أو معروف أو إصلاح ، فلينظر إلى ذلك الآن ، فإن الله سبحانه وتعالى ناظر إليه ، مطلع عليه ، عالم بحقيقته ، مهما أخفى المرء نفسه وعمله عن الناس . فلينظر المسلم هل أراد الإصلاح فعلا وهو يظهر للناس أنه يسعى إليه « **إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما** ... » فلينظر المسلم في نجواه ، في نيته ، في مجلسه، في كلمته ، أكان يسعى إلى الإصلاح حقاً ، أم أنها فتنة كان يدبرها ؟!

ولينظر المسلم إن صدقت نيته : هل استوفى مسعاه للإصلاح شروطه وأسسه التي أمر الله بها ؟ أم أنه مضى على هواه ، معتمداً على فصاحة وبيان ، ومهارة وقدرة ، مجردة من قواعد الإسلام ومن الفيء إلى أمر الله ؟ .

فلينظر المسلم في ذلك ! فهذه هي مدرسة الإسلام .

ونرى مما سبق أن الصلح باب من أبواب العلاج في منهاج الله ، أمر الله به سبحانه وتعالى وبين أسسه وسبله مع ظلال واسعة لمختلف الأجواء والحالات ، في الحياة الزوجية ، لحظات الطلاق والشقاق ، مع اليتامى مع الناس كافة .

وكذلك في حالة الوصية إن مال موصٍ إلى إثم أو مال عن الحق، فإصلاح بين الموصي والموصى له:

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عليه إن اللهّ غفورٌ رحيم (١٨٢)﴾ [البقرة: ١٨٢]

وتتابع الآيات الكريمة تمد من ظلال الصلح والإصلاح، وتشرح من أسسه وسبله في تناسق وترابط حتى يعي المؤمن آفاق المهمة كلها.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾ [الشورى: ٤٠]

إصلاح وعفو في ميدان الإساءة، حيث لاحرج في ردها والجزاء بمثلها. ولكنها تربية النفس المؤمنة لتدخل هذه المعاناة والمجاهدة في الواقع البشري فتعرف على أساس من مناهج الله متى تعفو وتصلح وتسمو في روعة الإيمان وعزة النصر.

ولايرى منهاج الله عقبة محتملة أمام أبواب الإصلاح، إلا ويزيلها، وينهى عنها ويبينها،. حتى تبقى المسئولية هي مسئولية الإنسان نفسه، وهو يمارس إيمانه على هدى من الله وبصيرة ونور:

﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤)﴾ [البقرة: ٢٢٤]

وفي موقف من مواقف الاختلاف بين المؤمنين نزل أمر الله بالتقوى وإصلاح ذات البين. ذلك عندما اختلفوا في غنائم بدر:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١)﴾ [الأنفال: ١]

فارتبط الإصلاح هنا، كما ارتبط في آيات أخريات، بالتقوى وبطاعة الله ورسوله. ويظل هذا الأمر أساساً لكل إصلاح ولكل جهد، ولكل ممارسة.

﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩)﴾ [المائدة: ٣٩]

وهنا جاء الإصلاح مع التوبة والرجاء بالله، من بعد إثمه وظلمه.

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ ﴾ [النور: ٥]

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٤٨ ﴾ [الأنعام: ٤٨]

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٤ ﴾ [الأنعام: ٥٤]

﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٥ ﴾ [الأعراف: ٣٥]

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝١٦٠ ﴾ [البقرة: ١٦٠]

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٤٦ ﴾ [النساء: ١٤٦]

وهكذا نرى في هذه الآيات الكريمة منزلة الإصلاح العظيمة في دين الله. ويأتي الإصلاح في هذه الآيات مقترناً بالتوبة والإيمان، ومع هذا يقترن بالنتيجة المباركة الطيبة فلا خوف ولا حزن، ويقترن كذلك بالنبيين والاعتصام بالله وإخلاص الدين، والأجر العظيم من عندالله.

ونرى الإصلاح في هذه الآيات كلها باب الخير في مختلف ميادين الحياة، ومختلف أوجه النشاط والعمل. وهو مهمة فرد أو جماعة وأمة.

ويقوم الإصلاح على أساسين هامين لاغنى عنهما: فهم القضية والواقع الذي يدور فيه الخلاف فهماً نابعاً من منهاج الله، وكذلك فهم منهاج الله فهماً يسمح برد الخلاف إليه حتى يفيء الطرفان إلى أمر الله. وبغير هذين الأساسين

لايكون الإصلاح إيمانياً . وبغيرهما تتحرك كل نوازع الفتنة والخلاف ، كبر وغرور ، وعصبية وانحراف ، وطمع ورغبة ودنيا مؤثرة ، وهوى متبع .

ويحتاج الصلح إلى قدرات ويرتبط بأمور : الإحسان والتقوى ، ومعرفة الحقوق والمسئوليات في جو من التسامح والعفو ، والنية والإرادة في الصلح والرغبة فيه ، حتى يوفق الله المسعى ، وحتى يكون ذلك ابتغاء وجه الله ومرضاته ، وطاعة الله ورسوله ، والتوبة .

وترد التوبة في الآيات التي سبق إيرادها مقترنة بالإصلاح ، حين تعرض هذه الآيات أشكالاً مختلفة من الإثم أو الظلم مما يستدعي التوبة والإصلاح . وأشكال الإثم والظلم هذه تكون باباً من أبواب الفتنة والفساد ، والفرقة والاختلاف ، حين تمضي على إصرار واستكبار .

وجاءت الأحاديث النبوية الشريفة لتوضح كذلك وتبين مع ظلال ومعانٍ وممارسات .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل (أي تصلح) بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة . وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة**» (رواه الشيخان وأبو داود)[(١)]

وهكذا يرتبط الإصلاح هنا بالصدقة وكل مجالاتها لتتحرك كل نوازع الرغبة فيه والإقبال عليه .

وعن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) البخاري : كتاب الجهاد والسير (٥٦) . باب (٧٢) . مسلم : كتاب الزكاة (١٢) . باب (١٦) حديث (١٠٠٩/٥٦) . أبو داود : كتاب الأدب (٣٥) . باب (١٧٢) حديث (٥٢٤٣) .

«ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ، فينمي خيراً أو يقول خيراً » .

(متفق عليه)[1]

وفي رواية مسلم زيادة قالت : **«ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث : تعني الحرب والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها . »** .

وتبرز هنا عظمة الإصلاح بين الناس ، حتى رخص من أجله في مايقوله الناس ، لينموا خيراً أو يقولوا خيراً ليصلحوا بين الناس . ونلمس هنا مثلاً على قوة الترابط وشدة التناسق في منهاج الله قرآنا وسنة ، وحتى تجتمع الظلال كلها وتفصل المعاني كلها .

ونستطيع أن نوجز أسلوب الإسلام في معالجة الاختلاف والفتنة بين المؤمنين على ضوء ماسبق بنقاط :

١ - معالجة الأمر قبل حدوثه .

٢ - الإيمان بالله واليوم الآخر ، ملائكته والكتاب والنبيين إيماناً يستقر في القلب ويصدقه العمل .

٣ - العلم بمنهاج الله قرآناً وسنة والعلم بالواقع ، علماً يقوم على الإيمان .

٤ - التربية والإعداد ويقوم ذلك على أساس منهاج الله . ويكون هدف التربية هو إعداد الفطرة السوية المتوازنة . ويكون العمل والممارسة باباً من أبواب التربية . وتكون المراقبة والتوجيه ، والنصح والتذكير وسيلة ضرورية . والمهمة مهمة المؤمن نفسه في صحبة منهاج الله صحبة تدبر ودراسة ، وصحبة عمر وحياة ، وصحبة منهجية . وهي مهمة سائر الطاقات والمؤسسات والجماعة والأمة ، مهمة العلماء والمعاهد ، حتى يكون منهاج الله علماً لاثقافة فحسب ، وممارسة لانظرية فحسب ، حتى تكون مدرسة الإسلام مدرسة ممتدة مع الأيام لاتتعطل ولا تتوقف أبداً .

---

(١) البخاري : كتاب الصلح (٥٣) . باب (١٢) . مسلم : كتاب البر (٤٥) . باب (٢٧) حديث (٢٦٠٥/١٠١) .

٥ - وفي المدرسة هذه يكون التدريب وتنشأ الخبرة على قواعد الإسلام وأسسه . وذكرنا أطرافاً منها : الأخوّة في الله والموالاة بين المؤمنين ، ومعرفة المؤمن لنفسه وقدرته وحدوده ، ومعرفة منازل الناس وطاقاتهم على ميزان الإسلام .

٦ - النهي عن الاختلاف والتفرق وتبيان آثاره وأخطاره على الجماعة والفرد وعلى الإيمان والعقيدة .

٧ - الشورى الإيمانية .

٨ - رد الأمور إلى منهاج الله .

٩ - الإصلاح والسلطان والقتال .

وهذه هي الأسس العامة تحمل معها تفاصيل وقواعد أخرى . وهي جميعها ، العامة والتفاصيل ، تعمل معاً في إعداد المؤمن والجيل والأمة ، لتستقر على حالة الإنتاج المثمر ، والعمل الجاد ، والمضي في دعوة الله من نصر إلى نصر .

ونؤكد مرة أخرى أن ماعرضناه ليس أكثر من قبسات نأخذها من منهاج الله ويبقى منهاج الله وهو المصدر الوحيد الذي يقدم العرض الكامل .

ونختم هذا الباب بقاعدة نقدمها بدلاً من قاعدة سابقة انتشرت بين المسلمين ، وهي : «نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه». وهذه القاعدة جعلت التعاون والاختلاف مرهونا بأمر البشر، بأمر اختلافهم أو اتفاقهم. ولذلك نضع القاعدة البديلة ليكون التعاون والاختلاف مرهوناً بشرع الله :

«يجب أن نتعاون فيما أَمرنا الله أن نتعاون فيه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما أذن الله لنا الاختلاف فيه.»





الباب الخامس

الموازنة
في الممارسة والتطبيق

الفصل الأول
الموازنة في الممارسة والتطبيق

١ - حكمة التوازن في الفطرة «قانون الفطرة»: [١]

من السهل أن نرى من خلال دراستنا السابقة عن خصائص الإنسان، ما يتشابه وما يتباين منها، توازن هذه الخصائص وتوازن الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وتكاد تدور كلها حول محور رئيسي، هو الآية الكريمة: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ولا تجد طبعاً من طبائع الإنسان إلا ويقابله طبع آخر فيه، يعمل ويتوازن معه: الكرم والبخل، الشجاعة والجبن، الحلم والغضب، الأناة والعجلة، الحب والبغض . . . ومن بين هذه الخصائص كلها هنالك خاصية الإيمان الذي فطر الإنسان عليه كما أسلفنا سابقاً، الإيمان الذي يرضاه الله لعباده، والذي وفر الله جميع الأسباب لحمايته في فطرة الإنسان وهو ينمو، وهو يجابه أقدار الله وسنن الحياة، لحمايته من أن ينحرف ظالماً لنفسه إلى الكفر والضلال، بما كسبت يداه. وفر الله سبحانه وتعالى رحمة بعباده جميع الأسباب لحماية هذا الإيمان، حتى لا يبقى للناس حجة على الله أبداً.

فمع الفطرة السوية المتوازنة التي فطره الله عليها، والإيمان الذي فطره عليه، والعهد الذي أخذه من ذرية بني آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم، مع هذا كله، منّ على الإنسان بالسمع والبصر والفؤاد وسائر القدرات التي تريه آيات الله في الكون، في السماء وفي الأرض وفي سائر المخلوقات وفي نفسه، وفي سنن الله في الحياة والكون ومصائر الأمم والشعوب. وبعث الرسل والأنبياء، وأنزل عليهم الكتب والوحي، وختمت الرسالات السماوية برسالة محمد ﷺ قرآناً وسنة، منهاجاً ربانياً، حقاً، كاملاً.

---

(١) يراجع كتاب: «الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميّته» وكتاب «التربية في الإسلام النظرية والمنهج» وكتاب «النهج الإيماني للتفكير» لدراسة قانون الفطرة.

وينمو الإنسان، وتنمو خصائصه، ويظل الإيمان هو الذي يحفظ في فطرته التوازن، ويمدها بالغذاء وكل أسباب النمو الطبيعي السوي.

تنمو غرائزه وشهواته ومواهبه وقدراته، وميوله ونزعاته، تنمو على تناسق وتوازن، لتؤدي وظيفتها الحقيقية بالقدر والصورة التي خلقها الله لها، عبادة وطاعة، دون أن تطغى واحدة على الأخرى.

تنمو الشهوة الجنسية في المؤمن دون أن تطغى، وتتحرك رغبته في المال دون أن يعبده ويذل له. وينمو ذكاؤه وعقله، وتأخذ كل خاصة حجمها السليم وقدرها الموزون، لتؤدي كلها مجتمعة حياة الإيمان والتقوى، حياة الأمانة التي يحملها، حياة العبودية التي خلق لها. فإذا انحرفت الفطرة واضطربت، اختل التوازن واضطرب، ونمت واحدة نمواً زائداً على حساب الأخرى، وانعكس ذلك على السلوك والموقف والنشاط والجهد والرأي.

إن فطرة الإنسان شبيهة ببستان فيه تربة وبذور من كل الثمار والألوان. يدفع الإيمان فيه نهراً جارياً يمتد إلى جميع نواحي البستان يروي كل قطعة فيه، وكل بذرة من البذور، وكل نبتة رياً عادلاً متناسقاً حتى تنمو الثمار كلها والأشجار كلها، والزهور والورود، وتمتد الأغصان والفروع، نمواً وامتداداً متناسقاً متوازناً. أنى التفت وجدت الثمرة الغنية والورقة الزاهرة، والنبتة المخضرة. تجد كل الألوان، وكل المطاعم، وكل الثمار. تجد كل مذاق وكل شكل. لا يطغى ثمر على ثمر، ولا شجرة على شجرة. تجد آيات بينات . فإذا سُدَّ فرع من فروع النهر، انحسر الماء من ناحية من نواحي البستان فجفت عيدانها وثمارها. وزاد الماء في ناحية أخرى فنمت نمواً زائداً طاغياً. هنا يفقد التوازن، ويختل التناسق،ويضطرب البستان.

إن الإيمان الصادق الذي فطر عليه الإنسان، هو النبع الذي يدفع النّهر

ليروي، وإن النية التي تعمل وتحرك، النية الصادقة الخالصة لوجه الله تعالى هي المفتاح الذي يفتح النبع. وإن العمل الصالح والممارسة الصادقة تنقي المسالك والفروع ليظل الماء يجري في كل الاتجاهات وجميع نواحي الفطرة. إن التوبة والاستغفار والدعاء، إن الذكر، وما أعظم الذكر، يظل ينظف وينقي كل مجرى وكل فرع، ويزيل كل عقبة أو صخرة، حتى يمضي نهر الإيمان على جريانه اللين الغني.

وهذا النبع وهذا النهر، هذا الإيمان في فطرة الإنسان، لا ينقطع عنه الماء أبداً ما دامت الينابيع تصب كلها فيه مدة حياة الإنسان، وحياة البشرية على الأرض. هذه الينابيع هي السمع والبصر والفؤاد، الرسل والأنبياء والكتب السماوية، وآيات الله في الكون كله، وسنن الله ، والعبرة في مصائر الشعوب، وجميع مصادر الذكرى والتذكير.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

[ق: ٣٧]

ويظل المنهاج الرباني هو النبع الأوسع، يمد الفطرة في كل آن، في كل حال، مداً غنياً ثرّاً، يغذّي الإيمان حتى لا ينقطع. إنه المنهاج الرباني قرآناً وسنة عندما يكون صحبة عمر وحياة.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾

[ق: ٤٥]

إنه المنهاج الرباني عندما يكون صحبةعمر، والتزام حياة، دراسة وتدبراً، وعملاً وممارسة. إنه يمد النهر بالماء، بالحياة، بالإيمان. إنه يحرك النية الخالصة لتفتح المسالك لها ، إنه يدفع إلى التوبة والإنابة والاستغفار والذكر ، وإلى العمل الصالح ، والممارسة الأمينة ، حتى تنقى المسالك كلها وتصفو كلها ، إنه ذكرى ، ونور ، وشفاء ، وموعظة.

هذه هي الفطرة المتوازنة التي لا تنحرف إلى ضلالة. فإذا اختلّ التوازن طغت ناحية على أخرى. فيطغى المال حتى يصبح فجوراً، أو تطغى الشهوة حتى تجعل الناس قوماً بوراً. وتموت طبائع كريمة أخرى سدت عنها مجاري الريّ والغذاء. وقد يطغى الزهد حتى يكون انعزالاً وجفافاً لكل الطاقات والمواهب. وقد يشتد الاضطراب والاختلال وعدم التوازن حين يقفل النهر، نهر الإيمان، وتسد مجاريه ومسالكه كلها أو معظمها فتموت خصال، وتجف خصائص، حتى ينتهي الإنسان إلى الكفر والشرك، والانحراف والهلاك !عندئذ تصم الأذان وتغلق العيون، وتعمى الأبصار وتسد القلوب، فمن أين الري ؟!

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ [الأعراف : ١٧٠]

فلا النهر يجري، ولا النية الصالحة تتحرك، ولا العمل الصالح ينقي . ويبطل العمل كله ويحق قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً (٢٣) ﴾ [الفرقان: ٢٣]

هذه هي الفطرة المتوازنة السوية التي فطر الله الناس عليها. هذه أسباب حمايتها، وهذا من فضل الله على عباده وهذا هو قانون الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

٢ - حكمة التوازن في الخلق كله :

والتوازن ليس في فطرة الإنسان وحده. ولكن التوازن القائم في خلق الله كله، قائم في الكون كله : في السموات والأرض، في النجوم والشمس والقمر ، في الجبال والوديان، في اليابسة والبحار ، في الرياح والأمطار ، في الثروات الموزعة في الأرض.

توازن سُنَن الله في الكون رحمة منه تعالى. توازن في ثبات سننه، «**سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً**». وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في عدة سور وعدة آيات، وبيّن بأسلوب مباشر أو غير مباشر في منهاجه الذي أنزله على عبده محمد ﷺ.

﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾** ﴾ [يس: ٣٦ - ٤٠]

ونلمح التوازن هنا في كلمة: «**الأزواج، تجري لمستقر لها، قدرناه منازل، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر . . .**»

﴿ **اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾** ﴾ [الرعد: ٨]

وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار، تحمل كل ظلال التوازن.

﴿ **وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾** ﴾

[الحجر: ١٩ - ٢٤]

جولة واسعة تعرض التوازن في الكون والحياة حتى شملت الموت والحياة، والمستقدمين والمستأخرين. وفي مد الأرض توازن، وفي إرساء الجبال، وفي كل ما تنبت الأرض، فإنه شيء موزون. وخزائن الله لكل شيء وما ينزله إلا بقدر معلوم، بقدر يحفظ التوازن ويُمضي سنن الله في الكون. ونلاحظ هنا عظمة الشمول في أحناء التعبير القرآني : «**وإن من شيء إلا عندنا خزائنه . . .**» والموت والحياة على سنن الله في كل ما فيها من توازن : «**وإنا لنحن نحي ونميت ونحن الوارثون**».

يمضي القرآن الكريم يعرض لنا صوراً متعددة من آيات الله البينات في هذا التوازن في خلقه كله. وتمضي جهود الإنسان تضرب في آفاق الحياة لتكتشف آية بعد آية، وسنّة بعد سنّة، وتوازناً يمسكه توازن.

وجولة قرآنية أخرى :

﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ [الرحمن: ١ - ١٠]

«**الشمس والقمر بحسبان**» توازن محسوب وتقدير معلوم. إنه تقدير رباني ونقلة واسعة «**والسماء رفعها**». ولكنه رفع على تقدير وحساب : «**ووضع الميزان. ألا تطغوا في الميزان...**» . هذا التوازن الذي جعله الله من سننه ومشيئته في الكون كله، كيف يخرج عنه الإنسان بسلوكه وعمله ... ؟ فكان أمر الله إليه : «**ألا تطغوا في الميزان . . .** » وسنعود لهذه الآيات الكريمة مرة أخرى.

٣ - التوازن في المنهاج الرباني :

وامتدت رحمة الله حين جعل منهاجه الرباني الذي أنزله على رسوله محمد ابن عبد الله ﷺ ، منهاجاً متوازناً في كل ناحية :

أ - في يسر الدين ورفع الحرج :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج: ٧٨]

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾

[القمر: ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠]

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾

[مريم: ٩٧]

﴿ ... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٥]

وهذا اليسر كما نراه في الآيات السابقة مرتبط بالدين والإيمان والقرآن، والذكر والبشرى والتقوى، وتكاليف الصوم، وإكمال العدة، وتكبير الله وشكره على نعمه. إنه يسر يمتد مع الدين كله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الدين يسر ولن يشاد**

الدين أحد إلا غلبه. فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة». (رواه البخاري) [1]

وفي رواية له : «**وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة، القصد القصد تبلغوا**».

والغدوة : أول النهار، والروحة آخره. والدلجة آخر الليل.

وقد شمل هذا الحديث الشريف آفاق اليسر كلها، ومحور الموازنة والقصد وارتبط اليسر في الدين باليسر في سنن الله بقوله تعالى :

﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)** ﴾ [الشرح: ٥، ٦]

﴿ **لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)** ﴾ [الطلاق: ٧]

كذلك بقوله تعالى : «**سيجعل الله بعد عسر يسرا**».

ب - وفي التكاليف جعل الإسلام يسراً وقصداً وتوازناً.

ب - ١ - في الإنفاق والمعاملات والحقوق والواجبات .

﴿ **وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا (٢٨) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠)** ﴾

[الإسراء: ٢٦ - ٣٠]

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الإيمان (٢) . باب (٢٨) .

رسم النهج العادل، والموازنة الأمينة بين الحقوق، والقصد. وربط ذلك كله بالعقيدة والإيمان، وبسنن الله وحكمته ومشيئته. فارتبط توازن سنن الله في الكون بتوازن التكاليف.

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) ﴾ [القصص: ٧٧]

وتمضي الآيات ترسم نهج الإنفاق حتى تتكامل الظلال وتتناسق على نهج اليسر والقصد والتوازن.

ب - ٢ - وفي العبادات :

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة. قال : **«من هذه ؟ قالت : هذه فلانة تذكر من صلاتها. قال : مه عليكم بما تطيقون فو الله لا يمل الله حتى تملوا. وكان أحب الدين إلى الله ما داوم صاحبه عليه».**

(رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة)[١]

وعن أبي عبد الله جابر بن سمرة رضي الله عنهما قال : **«كنت أصلي مع النبي ﷺ فكانت صلاته قصداً، وخطبته قصداً».** (رواه مسلم والنسائي)[٢].

«وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«هلك المتنطعون، قالها ثلاثاً».** (روه مسلم)[٣]

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الإيمان (٢) باب (٣٢). صحيح مسلم : كتاب (٦). باب (٣١) حديث (٢٢١). النسائي : كتاب (٢٠). باب (١٧). حديث رقم (١٦٤٢). ابن ماجة كتاب (٣٢). باب (٢٨). حديث رقم (٤٢٩٤).

(٢) صحيح مسلم : كتاب الجمعة (٧). باب (١٣). حديث رقم (٨٦٦/ ٤١). النسائي كتاب صلاة العيدين (١٩). باب (٢٤). حديث رقم (١٥٨٣).

(٣) صحيح مسلم : كتاب العلم (٤٧). باب (٤). حديث رقم (٢٦٧٠/ ٧٠).

والمتنطعون: المتشددون في غير موضع التشدد.

وقصة الرهط الثلاثة الذين أتوا إلى بيوت أزواج النبي يسألون عن عبادة النبي ﷺ. فلما خرجوا كأنهم تقالوها. وقالوا أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ثم وصف كل منهم عبادته وما فيها من غلو. فأحدهم يصلي الليل أبداً، والآخر يصوم الدهر أبداً، والآخر يعتزل النساء. فخرج عليهم الرسول ﷺ وقال: «**أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له. لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**». (أخرجه البخاري) [1].

هذا الحديث عن أنس رضي الله عنه:

وقصة الحبل الذي نصبته زينب رضي الله عنها في المسجد حتى إذا فترت تعلقت به. فقال النبي ﷺ:

«**حلّوه، ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقعد**». (متفق عليه) [2]

والموازنة بين التكاليف والحقوق:

عن أبي جحيفة وهب بن عبد الله رضي الله عنه قال:

آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة. فقال ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً. فقال له: كل فإني صائم. قال ما أنا بآكل حتى تأكل فأكل فلما كان الليل ذهب يقوم فقال له نم، فنام، فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا جميعاً. فقال له سلمان: «إن لربك عليك حقاً.

(١) انظر ص ٩ من هذا الكتاب:

(٢) البخاري: كتاب التهجد (١٩). باب (١٨). صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين (٦). باب (٣١). حديث رقم (٧٨٤/ ٢١٩).

وإن لنفسك عليك حقاً. وإن لأهلك عليك حقاً. فأعط كل ذي حق حقه» فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له. فقال النبي ﷺ : «صدق سلمان». (رواه البخاري) [1].

وقصة عبد الله بن عمرو بن العاص حين قال «**والله لأصومن الدهر**» فعلمه وأدبه رسول الله ﷺ كيف يصوم، ففي إحدى الروايات قال : «**فلا تفعل، صم وأفطر وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينيك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن بحسبك أن تصوم في كل شهر ثلاثة أيام فإن لك بكل حسنة عشرة أمثالها. فإن ذلك صيام الدهر**».

(رواه مسلم والبخاري بروايات متعددة) [2].

وتمضي التكاليف على يسرها في دين الله وتوازنها :

﴿ ... **فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ** .... ﴾ [البقرة: ١٩٦]

﴿ .... **فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ** ... ﴾ [البقرة: ١٩٦]

ولكن هذا اليسر ليس مُتفلّتاً تائهاً مضطرباً. إنه يسر متوازن متناسق مع سائر التكاليف والأحكام، مع طاقة الإنسان ووسعه وقدرته، مع سنن الحياة..) مع منهاج الله.

إنه يسر يخضع لميزان عادل، هو منهاج الله قرآنا وسنة، حين ترد الأمور إليه، على تكامله وتناسقه.

إنه يسر في الفهم والتدبر، ويسر في الممارسة والتطبيق، ويسر في التكاليف.

إنه يسر دون أن يعني تراخياً وكسلاً، وتوانياً وتقصيراً، وعجزاً وضعفاً.

ففي البذل والعطاء، والجهد والجهاد، سبق وتنافس : «**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**». وقد يعظم البذل حتى يأخذ المال، ويعظم حتى يبلغ النفس.

---

(١) صحيح البخاري : كتاب (٣٠) . باب (٥١).

(٢) البخاري : كتاب التهجد (١٩). باب (٢٠). صحيح مسلم: كتاب الصيام (١٣). باب (٣٥). حديث رقم (١٩٣).

وفي البذل والعطاء معاناة ومجاهدة للنفس، وكبح للهوى والنزعات، وتجاوز للعقبات وصبر على الملمّات ، وقيام وقرآن، ودمعة خشية من الله.

ومن هنا تبرز مهمة المؤمن في الموازنة بين اليسر الذي عرضناه والجهاد الذي دعا الله إليه. وفي جميع الحالات تظل التكاليف كلها ضمن حدود قدرة الإنسان ووسعه، حتى ولو بلغت بذلك النفس. ولكنه الإعداد الذي يربي، والتربية التي تنشئ، والنشأة التي تدفع، تدفع همة وعزيمة، وسعة وطاقة، يغذيها ويرعاها منهاج الله.

ج - وفي النَّهْي عن الغلو والطغيان:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١)﴾ [النساء: ١٧١]

وفي سورة المائدة تعرض الصورة مع ظلال أُخرى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)﴾ [المائدة: ٧٧]

ففي الآية الأولى أدى الغلو إلى الشرك والكفر وارتبط به. والتوازن يؤدي إلى التوحيد. والآية الثانية تحمل المعنى ذاته مع ظلال الهوى والضلال والإضلال. إنه الغلو الذي قاد إلى الانحراف في العقيدة وفي الدين وهذا هو أشد أنواع الغلو وأبعدها فساداً.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾

[النازعات: ٣٧ - ٣٩]

وظهر الطغيان هنا في إيثار الحياة الدنيا. حين اختل توازن الفطرة السوية، ونمت الرغبة على حساب غيرها، نمواً طاغياً دفع إلى الكفر.

وفي سورة هود تأتي الصورة على نحو آخر، تأمر بالاستقامة فالاستقامة على نهج سوي هي نتيجة الموازنة الأمينة والفطرة السوية.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]

وفي سورة فصلت:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠]

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾﴾ [فصلت: ٦، ٧]

وفي سورة الشورى آية جامعة للاستقامة والموازنة والعدل، في تناسق وترابط مع إيمان وعقيدة وتوحيد:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ [الشورى: ١٥]

إنها دعوة إلى الله، والاستقامة على أمر الله، وعدم اتباع الهوى، والإيمان بالرسالات السماوية كلها، والعدل بين الناس، فالله واحد لا شريك له رب الناس أجمعين، سيجمع الناس وإليه المصير ليحكم بينهم، فلاحجة لكافر. ولا يفيد خصام وجدال ما دام الحكم لله يفصل بين عباده، حين تظهر الأعمال ويقوم الحساب.

إنه التوازن في العقيدة والفطرة والموازنة في العمل والممارسة.

ولقد مرت معنا الآيات في سورة الرحمن، قبل صفحات. رأينا فيها التوازن في السموات والأرض. ورأينا أمر الله: «**أن لا تطغوا في الميزان**» ، ذلك الميزان الذي وضعه الله لكل صغيرة وكبيرة، في الدنيا، وضعه لخلقه كله، وضعه للنّبتة وللشجرة، للهضبة والجبال، للقطرة والأنهار، للجنين والمولود والرجال، للذكر والأنثى، للشمس والقمر والنجوم، للعمل والجهد، للطاقة والقدرة، للدرجات والمراكز، للرزق للآجال، لكل حركة وكل نبضة في هذه الحياة.

من خلال هذا التوازن : في الفطرة السوية، في الخلق كله، في سنن الله في الكون والحياة، في المنهاج الرباني الذي ختم الرسالات السماوية، من خلال هذا التوازن، ومن أجل الاستجابة له، والتناسق معه، كان على الإنسان وهو يمضي في الحياة ليحقق معنى العبودية والاستخلاف من خلال التمحيص والابتلاء، كان على الإنسان أن يوازن في سلوكه، في جهده ، في بذله، في مواقفه، أن يوازن موازنة عادلة أمينة وهو يمارس إيمانه وعقيدته في واقع الحياة. ولقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يقوموا بهذه الموازنة وجاءت التعابير متعددة تحمل معها كل ظلال الموازنة الأمينة : لا تغلوا في دينكم، فاستقم كما أمرت، ثم استقاموا، فاستقيموا إليه واستغفروه، فلذلك فادع واستقم كما أمرت، أن لا تطغوا في الميزان. وتوالت الآيات الكريمة في كتاب الله لتدعو إلى هذه الموازنةالعادلة.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥]

«وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط». حملت امتداد الموازنة في كل ميادين الحياة وأوجه النشاط. حتى إذا اختلت الموازنة قام فريق المؤمنين يقيمون الموازنة والعدل بالقوة والحديد. وفيه قوة وبأس شديد ومنافع للناس، قاموا ليعيدوا الموازنة في حياة الناس بالقوة إذا استدعى الأمر ذلك. وأنزل الحديد والبأس الشديد فيه، والمنافع، ابتلاء للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، فإن نصر الله هو الموازنة، أو هو سبيل إعادة الموازنة بعد اختلالها، وسبيل إعادة القسط بين الناس.

ويتكرر المعنى مع ظلال أخرى في سورة الشورى:

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾

[الشورى: ١٧]

يتكرر المعنى هنا ليؤكد أنّ الكتاب الذي أنزله الله بالحق والميزان هو الذي يدفع الموازنة في الحياة ويقيم القسط بين الناس.

ويمتد معنى القسط والميزان مع تاريخ الرسالات السماوية كلها، وهي قد اكتملت برسالة محمد ﷺ وختمت بها. فهذا شعيب عليه السلام يقول لقومه:

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾

[الشعراء: ١٨١ - ١٨٣]

ويتنزل أمر الله إلى عباده :

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٥]

ويظل هذا الأمر ماضياً مع العصور والأجيال، متسقاً مع كل التكاليف والأحوال، ممتداً مع كل الرسالات «**وزنوا بالقسطاط المستقيم**».

د - في العواطف والشعور :

ويرعى منهاج الله جنوده في كل أحوالهم، حتى في المحبة والبغض والفرح والحزن. يرعى جنوده في خصائص الفطرة الإنسانية، رعاية ربانية حتى تمضي الطاعة والعبادة في كل الميادين على توازن عادل، وموازنة في الممارسة أمينة، على يسر يرفع الحرج، واستقامة وعدل، وبركة وخير.

عن أبي الدرداء، رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**حبك الشيء يعمي ويصم**» . (رواه أبو داود) (١)

فهذا الغلو في المودة يؤتي هذه النتيجة. إنه اضطراب وخلل في الموازنة، دفع الغلو في العاطفة حتى نمت نمواً غير متوازن أعمى وأصم.

ولذلك جاء التوجيه في الحب والبغض قصداً.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**أحب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما. وابغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما**». (روه الترمذي) (٢)

هذا هو الحب والبغض في الممارسة المتوازنة، ولا يغلو فيطغى هنا أو هناك.

---

(١) أبو داود : كتاب الأدب (٣٥). باب (١٢٥). حديث (٥١٣٠).

(٢) الترمذي : كتاب البر والصلة (٢٨). (٦٠) حديث (١٩٩٧).

وهذا هو التناسق مع سنن الله في الحياة، ومع فطرة الله التي فطر الناس عليها، ومع سائر تكاليف الإسلام.

ونسرع لنبين أن حب الله ورسوله يجب أن يكون أعلى شيء، وأثبت شيء، لا يتحول ولا يتبدل، ولكنه ينمو مع نمو الإيمان، وعياً وتدبراً وممارسة، ينمو حتى يكون أعظم حب وأصدق حب.

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]

فجمعت الآية الكريمة كل الأرحام وكل الأموال وكل الزخارف، كل ما يشد الإنسان بهوى، أو عاطفة أو حب، جمعت ذلك كله لتبين أن المؤمن يجعل حب الله ورسوله والجهاد في سبيله أعلى مرتبة وأعظم منزلة، دون أن يجرد ذلك الحب المؤمن من حبه المتوازن الأمين للقربى والرحم وحاجاته الضرورية.

عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**». (رواه الشيخان والنسائي) [١]

وعنه عن النبي ﷺ قال:

«**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله تعالى وأن يكره أن يعود للكفر كما يكره أن يقذف في النار**». (رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي) [٢]

---

(١) البخاري: كتاب الإيمان (٢). باب (٨). مسلم: كتاب الإيمان (١). باب (١٦). حديث (٧٠). النسائي: كتاب الإيمان (٤٧). باب (١٩). حديث (٥٠١٣).

(٢) البخاري: كتاب (٢). باب (١٤). صحيح مسلم: كتاب الإيمان (١). باب (١٥) حديث (٥٦٧). الترمذي: كتاب الإيمان (٤١). باب (١٠). حديث (٢٦٢٤). النسائي: كتاب الإيمان (٤٧). باب ٢). حديث (٤٩٨٧-٤٩٨٩)..

ووضع الحديثان الشريفان قواعد الحب في حياة الإنسان. قواعد متوازنة مع الفطرة، متناسقة مع سنن الله، نابعة من منهاج الله. وجعل للحب أساساً ينبع منه هو الإيمان وحب الله ورسوله. فمن هذا الحب الصادق ينبع كل حب. وجعل له رابطة وغاية: (**وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله**). فجمع بذلك كل حب خير وود طاهر.

ويصبح كل حب في حياة الإنسان نابعاً من حب الله ورسوله، مرتبطاً به، يحمل معه الخير والطهر والصلاح. فإذا الأرحام حب لا عصبية فيه، والقربى قوة لا كبر معها، والصداقة تعاون لا إفساد فيه. وتظل عاطفة الإنسان بذلك مطيبة بالإيمان، مطهرة بالصدق، متوازنة مع سائر الطاقات ونواحي الفطرة تُغذِّي وتتغذى، وتنمو وتُنَمِّي، على خير وبركة.

وحب الله ورسوله يفتح القلب والأبصار والآذان. ويصل الوشائج وينمي الخير.

أما حب الإنسان بعضهم بعضاً، أو بغض بعضهم بعضاً، فإن الغلو والإفراط فيه، يعمي الأبصار فلا ترى العيوب والأخطاء، ويصم الآذان فلا تقبل التوعية والنصيحة. فيضطرب الرأي والمشورة، ويضعف العلم، وتختل روابط أخرى اختلالاً كبيراً.

فكم من الناس غلوا في حبهم لشخص أو فئة أو طائفة حتى طغى ذلك الحب على أمانات، ومسئوليات، ضاعت في حمى العاطفة المجنونة، فجعلت الناس شيعاً وأحزاباً، وطوائف وفرقاً، يتناصرون تناصراً قاتلاً، حتى إذا غلوا أكثر، قادهم غُلُوّهم إلى الشرك القاتل والكفر المهلك.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: ١٦٥]

وقد يكون الحب هو لإنسان، أو لشعار، أو لوطن، أو لسلطان، وكل ذلك مباح في حدود الموازنة الأمينة، وعلى أساس من منهاج الله، وعلى أساس من الإيمان. ولكن هذا الحب إذا طغى ظهرت القوميات والإقليميات والأحزاب والمِلَل والشيع في فوضى لا ضابط لها، وظلام لا رؤية فيه، وضجيج يطغى على كلمة الحق.

وفي الحزن والفرح قصد كذلك وموازنة وعدالة:

فالفرحة الكاذبة الضالة، الفرحة بغير حق، الفرح للدنيا وحدها، هذا الفرح كله لا يحبه الله، لأنه فرح لم يدفعه الإيمان، ولم تحركه الفطرة المتوازنة السوية، ولم ينهض على موازنة في ممارسة إيمان وعقيدة. وعاقبة ذلك كله أخذ من الله شديد، بعد هذا الابتلاء والتمحيص.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥]

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: ٢٦]

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣]

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: ٧٦]

ويأتي توجيه الله لعباده المؤمنين في الفرح والحزن متناسقاً مع سنن الله وقضائه وحكمته.

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]

ويبين الله جزاء الفرحين بغير الحق:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [غافر: ٦٩ - ٧٥]

﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨٨]

فهنا فرحة بما أتوا من ظلم وإضلال للناس، كان جزاؤها هذا العذاب الأليم. والآيات من سورة غافر بينت لنا أن العذاب الذي أُخذوا به كان جزاءً لفرحهم في الأرض بغير الحق، وبما كانوا يمرحون. وكأن جدالهم في آيات الله وتكذيبهم بالكتاب والرسل، والشرك والدعاء لغير الله، كأن هذا كله كان يتم في أجواء

من الفرحة الظالمة والمرح العابث.

وأما المؤمنون فلهم فرحة أخرى. فرحة تنبع من الإيمان، فرحة بالحق، فرح بما عند الله من أجر وثواب ورحمة:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨]

وتبرز هنا المقارنة القوية بين فرحتين: فرح بفضل الله ورحمته، وفرح بما يجمعون من دنيا ومتاع.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾

[الرعد: ٣٦]

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١]

وفرحة المؤمن تحيط به البشرى:

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤]

والحزن عند هؤلاء وأولئك يكون له الباعث والمسبب، كالفرح الذي كان له باعث ومسبب. ولكل فريق بواعثه وأسبابه، فأولئك يحزنون على دنيا أفلتت من

أيديهم، أو يحزنون لنعمة أصابت غيرهم حسداً من عند أنفسهم. والمؤمنون يرعاهم الله في أحزانهم ومصائبهم فينزل السكينة عليهم. ويجعل لهم أبواباً من رحمته يدفعون بها الحزن والهم والغم. فالدعاء والصدقة، وصلة الرحم، وإنفاق المال في سبيل الله والتوبة والاستغفار، والعبادات، كل ذلك يرفع الحزن عن المؤمن أو يعين على رفعه، ويظل المؤمن مع هذه الممارسة الإيمانية في أجواء يعبر عنها القرآن الكريم:

«**لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**» ، يظل المؤمن بين فرحه وحزنه على قسط وعدل وموازنة، وتقوم الموازنة عنده على نفس الأسس التي تقوم عليها في سائر الحالات، وسائر أبواب الممارسة، وميادين النشاط.

إن ممارسة الإيمان في واقع الحياة، وممارسة منهاج الله في الواقع البشري ليس مهمة محصورة بفئة دون فئة من الناس، ولا طبقة دون طبقة، ولا جيل دون جيل. إنّ هذه الممارسة الإيمانية هي مهمة الإنسان، فقد خلق الإنسان من أجلها، فهي العبادة وهي الاستخلاف. وهذه الممارسة الإيمانية ليست محصورة في ساحة دون ساحة، أو ميدان دون ميدان، أو نشاط دون نشاط. إنها تشمل ميادين الحياة كلها وأوجه النشاط كله.

إن ممارسة الإيمان والعقيدة ليست محصورة في إقامة الصلاة وغيرها من الفرائض، حتى إذا خرج منها المسلم، حسب أنه أدى المهمة، وانتهى دور الإيمان، وانقطعت مهمة العقيدة والإسلام. فينزل السوق بزاد غير الزاد، ويلقى الناس بميزان غير الميزان، ويدخل بيته ووظيفته ويقرأ ويكتب، ويمارس حياته، وفي شعوره أن دور الإسلام قد انتهى عندما خرج من الصلاة ! إلا من رحم ربك.

إن هذا التصور الخاطئ والمخالف لأسس العقيدة، وهذا التصور الذي خلفته فينا جهود الأعداء لقرون طويلة، آتى آثاره في حياة المسلمين اليوم في مختلف دياهم وأقطارهم.

وقد تجد المسلم أحياناً يخرج من المسجد وقد أدى الصلاة، ثم يساق مع التيارات الطاغية الجارفة، ليحارب الله ورسوله، ليمارس هوى، ويوالي شعاراً، ويتخذ من دون الله أنداداً.

لذلك أسباب لا مكان لعرضها هنا، وقد عرضنا معالم منها في كتابنا «دور المنهاج الرباني في الدعوة الاسلامية». إلا أننا نوجزها هنا أو نوجز أهمها. فبالإضافة إلى جهود الأعداء المتواصلة وبسببها غاب منهاج الله عن ممارسة عامة المسلمين، وغفل المسلمون عن دراسة واقعهم، حتى طالت المسيرة دون أي وقفة تستكمل رؤية سليمة وإيماناً حياً واعياً. غاب العلم بمنهاج الله، وغاب الفهم للواقع، وخفّت خفقة الإيمان.

فالممارسة الإيمانية هي مهمة كل إنسان وتقوم في كل ميدان. ويلقى المسلم، كل مسلم، عشرات القضايا، بل مئات منها، يومياً في حياته العادية. والأصل أن يرد كل قضية من هذه القضايا إلى إيمانه وإلى منهاج الله، ويصدر في نشاطه، وحركته، وكلمته، ورأيه وموقفه، عن إيمانه وعن منهاج الله، لا عن أي شيء سواهما. هذه هي القضية التي يجب أن تكون محور التربية وأساس الدعوة، وقاعدة التجمع، ولقاء الأمة، وأساس الشورى.

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

وحين يرد المسلم شئون حياته إلى منهاج الله تقف أمامه عقبتان: هواه وجهله. فلا بد إذن من إزالة هاتين العقبتين. ولكن المؤمن حين توافر له نصيبه الذي مَنّ الله به عليه من الإيمان، ونصيبه كذلك من العلم بمنهاج الله، والواقع الذي يتحرك فيه، أو القضية التي يريد ردها، تظهر أمامه مهمة خطيرة، وعمل عظيم، يكاد يكون محور الابتلاء في حياته الدنيا. هذه المهمة نسميها اصطلاحاً «الموازنة».

ونسميها الموازنة، لأن المسلم هو نفسه يحتاج ، مع كل موقف أو رأي، إلى أن يوازن بين عدة قواعد في منهاج الله لتطابق الحالة التي يمارسها . ولقد مارس المؤمنون في صحبة رسول الله ﷺ هذه الموازنة أكثر من مرة. وفي قصة الصحابة الذين اختلفوا حول صلاة العصر وهم في طريقهم إلى بني قريظة، فقد كان أمامهم قاعدتان أساسيتان: أمر الرسول ﷺ بصلاة العصر في بني قريظة، وكذلك الأمر بالصلاة لوقتها. ووازن الصحابة بين قاعدتين. وكان فريقان، ومارس كل فريق إيمانه حسب نتيجة موازنته، مطمئناً ما دام قد رد الأمر إلى إيمانه وإلى منهاج الله عن علم. وعندما عرض الأمر على رسول الله ﷺ أقر الفريقين، ولم ينشأ عن ذلك الخلاف شيع ولا ملل ولا طوائف، وظل المؤمنون صفاً واحداً متراصاً. ومثل هذه المواقف التي تتحرك فيها قدرة الموازنة بين هذه القاعدة أو تلك، مثل هذه المواقف قد تسبب خلافاً في الرأي أو الموقف، ولكنه خلاف يجب أن لا ينتج عنه شقاق وتدابر، ما دام الإيمان هو الذي يحرك الموازنة والنية والعلم. وهذه حالة تمس عامة المسلمين وعلماءهم، تمس كل مسلم في حدود أمانته ومسئوليته، ولا يوجد مسلم دون مسئولية أو أمانة، إلا من لم يبق له من إيمانه إلا شعار يحتمي خلفه، أو عاطفة يتستر وراءها.

وفي حياة الصحابة رضوان الله عليهم، في عهد النبوة والوحي، في عهد الخلافة بعد ذلك، نجد نماذج كثيرة. ويحسن بالمسلم، وهو يدرس السيرة وحياة الصحابة، أن يتوقف عند هذه الحالات ليأخذ منها العبرة والعظة، ويأخذ الخبرة والتجربة، ونجد بعض النماذج ونحن نعرض مواقف الشورى.

وفي موازنة دقيقة، تعتمد كغيرها من حالات الموازنة، على صفاء الإيمان وقوة العلم، والوسع والطاقة. وحين يختلط الأمر على مؤمن فليتوقف وليطلب الرأي والنصيحة، والعون والمشورة، ممن هو أعلم منه، أو أوسع قدرة وكفاءة، على أن يكون موضع ثقته القائمة على المعرفة والتعامل.

وليحذر المؤمن ! فلا يُوازن في قضايا لا تتوافر له القدرة على معالجتها، حتى ينهض فيستوفيَ الشروط علماً وإيماناً، وبذلاً وجهداً، وبحثاً ودراسة، على قدر أهمية الموضوع ذاته. فإن الله سائله عن كل ذلك، ومحاسبه عليه.

وفي بعض الحالات قد يكون الأقرب للتقوى أن يدع الأمر كلية إلي غيره: كما قال رسول الله ﷺ في ا الحديث الشريف الذي مرَّ معنا : «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**». وها نحن نستعرضه ثانية وثالثة في ميدان الموازنة، في ميدان الممارسة والتطبيق.

وتطبيق هذا الحديث الشريف يحتاج من المسلم أن يعرف نفسه وحدوده، وأن يعرف وسعه وطاقته، وأن يعرف مسئوليته وأمانته، وأن تقوم معرفته هذه على أساس من منهاج الله. ولقد ذكرنا ذلك سابقاً، ونكرره هنا لأهمية هذه القاعدة وخطورتها في ميدان الممارسة الإيمانية. والمؤمن عليه أن يوازن بين هذا الحديث الشريف والحديث الآخر: «**ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ...** ».

والحديث :«**لا يكن أحدكم إمعة**»، والآيات والأحاديث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وحالة أخرى من حالات الموازنة :

ذلك أن على المؤمن حين ينظر في نفسه ليرى حدوده ووسعه، عليه أن يعرف منازل الناس كذلك وأقدارهم وسابقتهم . عليه أن يوازن في ذلك كله بعد أن يتبرأ من الهوى، وبعد أن تقوم موازنته على علم لاظنون، وفي مجال معرفته وعلمه لا خارجها، وعلى أساس من ميزان عادل هو منهاج الله.

ومن الحالات الأخرى كذلك :

أن يوازن المؤمن في سلوكه الإيماني. أن يوازن بين مختلف القواعد الخلقية في دين الله، ليعرف متى يعفو ومتى يعاقب، متى يرضى ومتى يسخط، متى

يجامل ويرفق ومتى يعنف، ذلك كله على أسس منهاج الله، لا من هوى ورغبات.

وكذلك فالمسلم مدعو إلى الموازنة بين حقوقه وواجباته، فلا يفطن إلى حقوق وينسى واجبات. ولا يفطن إلى نصح غيره ويأبي أن ينصحه أحد، يرى عورات الناس ولا يرى عورات نفسه. إن هذا كله يقوم على أساس الأمانة التي يحملها، والاهتمام الذي يوليه لأمانته ومسئوليته.

وصلة الرحم، والوالدان والجوار، والأُخوّة في الله، وسائر الروابط والوشائج. وكل رابطة لها حقوق، بالصلة والإنفاق، وحسن المعاملة والزيارة، وعيادة المرضى وسائر العلاقات الاجتماعية. وقد فصّل الإسلام قرآناً وسنة في كل ذلك، حتى لا يبقى مجال لتقصير في طاعة وعبادة. فإن كان تقصير فإنه من الإنسان، لا من شرع الله. ويحتاج المسلم إلى موازنة عادلة، وهو يصل هذه الروابط والوشائج، وهو يبر الوالدين، ويصل الأرحام، ويحمي الجوار، ويرعى أُخوّة الله. ولن يفلح المسلم في أداء أمانة الموازنة إذا اضطرب الميزان لديه من جهل غلب عليه، فلم يعلم شرع الله في قرآنه وسنة نبيه. إن عقول البشر كلها، وكل إنتاجها، لا تستطيع أن تقوده إلى عدالة الموازنة وأمانة الممارسة. إنه منهاج الله وحده الذي يقدم الميزان العادل الثابت. ولن يفلح كذلك إذا غلبه الهوى وانحرفت فطرته وغلبت عليه شقوته.

وفي الإنفاق، عليه أن يوازن ويعدل. وأنى له ذلك إذا طغى عليه جهل أو هوى، أو دفعته شهوة وطمع. والموازنة في الإنفاق أمر يؤثر على حياة الفرد والأمة كلها . متى ينفق، وكيف ينفق وأي مقدار، ولمن ينفق ؟ وقد حدد الإسلام ذلك تفصيلاً، وحدد الظروف والحاجة والمسئولية. وهذا يطلب من المؤمن أن يتحرك، لا أن يجمد، أن يتحرك حتى يعلم الحاجة هنا أو هناك، فيسد منها قدر مسئوليته وأمانته، وقدر وسعه وطاقته. وبدون هذه الحركة لفهم الواقع والظروف

والحاجة والصلات، لا يستطيع أن يعدل في الموازنة.

وفي النصيحة، وقد عرضنا ذلك سابقاً، يحتاج أيضا إلى موازنة دقيقة، حتى لا يجعل النصيحة فضيحة، ولا يجعل الكلمة أذى، ولا تجريحاً، ولا يتتبع العورات. ولا يبالغ فيمل منه السامعون. عليه أن يوازن بين أهمية الموضوع، والوقت المناسب والأسلوب اللائق، حتى يبلغ هدفه في الإصلاح، إذا كانت نيته هي الإصلاح. عليه أن يوازن بين قواعد النصيحة نفسها من ناحية، ومن ناحية أخرى عليه أن يوازن بين قواعد النصيحة وسائر قواعد الإسلام. ذلك حتى يبقى نهجه متزناً وعمله محببا، وجهده مثمراً، وأجره عند الله قائماً بإذنه سبحانه وتعالى.

والكلمة والرأي، فكم ضج عصرنا الحاضر بشعار حرية الرأي، حتى أصبح مزماراً وطبلاً، يتحرك الغافلون على ضجيجهما، دون أن يتحرك منهم رأي أو فكر. لقد أصبحت حرية الرأي شعاراً يحرك كل «فجور» الإنسان في فطرته، ولا يتحرك من تقواها إلا القليل القليل. لقد أصبحت شعاراً تائهاً مضطرباً، لا ميزان له إلا الهوى والشهوة والمصلحة، إلا تصورات الإنسان التائه المنحرف الفطرة، والمشوه النظرة. لقد كانت ردة الفعل لذلك على قدر الفجور هذا. لقد كانت ردة الفعل «فجوراً» آخر من ظلم واستبداد، وقتل للكلمة والرأي والإنسان. أَفْلَتَ الزمام، واضطرب الميزان، فأين الموازنة بعد ذلك ؟.

والأمثلة واسعة كثيرة لا حاجة لذكر أي مثل منها. فانظر إن شئت في ديار الغرب الكافرة، أو بلاد الشرق الشيوعي، أو تقلبات ديار المسلمين، لرأيت العجب العجاب! أباحت حرية الرأي: الزنا واللواط والخمر والقتل وسائر الجرائم تحت غشاوة رقيقة من دساتير ونظم، تحمل شعارات وزخارف من حقوق الإنسان، حين لم يتركوا له حقاً، أو أمناً، أو رعاية.

لقد ألجم الخوف والقلق الكلمة هنا وهناك. الخوف والقلق النابع من حرية متفلتة في حضارة منهارة. والخوف والقلق النابع من ظلمات وسجون، وعذاب وفتون، وإرهاب وجنون. وحرية الكلمة والرأي في الإسلام شيء آخر. إنها حرية موزونة بمنهاج الله، متناسقة مع فطرة الإنسان، منسجمة مع واقعه وحاجته. كل ذلك على قواعد ربانية.

وحين يمارس المؤمن حرية الرأي، فإنه يمارسها بموازنة دقيقة لا يقتلها سلطان الأرض فإنها لا تخشاه، وإن أحبته أو نصحته، ولا تخشى التيه والقلق فإنها في أمن من الله وحماية. ولا تخشى جبروت الظالمين في الدنيا فإنها تسعى إلى الدار الآخرة.

والموازنة في ممارسة حرية الرأي دقيقة وخطيرة. ولكن الذي ييسرها إيمان صاف، وعلم بمنهاج الله، وفهم للواقع والظروف، وسعة وموهبة تعرف حدودها وقدرها، حين يرتبط هذا بنية خالصة لوجه الله.

وعند الموازنة في ممارسة حرية الرأي، يحتاج المؤمن إلى أن يوازن بين حرية الرأي وأسسها وقواعدها في منهاج الله، وبين سائر الأسس والقواعد. فعليه أن يوازن بين حرية الرأي وبين السمع والطاعة. فهو مكلف بممارسة قواعد الإسلام لا جزء منها. فإن غلا في ممارسة السمع والطاعة غلواً زائداً، أصبح إمعة لا رأي له، قتل النصيحة وعطل الأمانة، أغلق لها أبواباً وفتح أبواباً للفتنة الهائجة الماجنة. وإن مارس حرية الرأي وحدها متفلتة من منهاج الله، فتح الأبواب لشياطين الإنس والجن، ليثيروا فتنة هائجة ماجنة أيضاً.

إن الموازنة الأمينة العادلة القائمة على إيمان صاف، وعلم بمنهاج الله والواقع الذي يتحرك فيه، إن هذه الموازنة وحدها هي التي تحفظ الأمة وتجمع صفوفها، وتنمي مواهبها وخبراتها، وقدراتها وطاقاتها. وفي اللحظة التي تقوم هذه الموازنة على أسس ليست من منهاج الله، في هذه اللحظة تكون الفتنة قد ولجت من كل باب.

وفي الكتمان والجهر قواعد وآداب في منهاج الله، ونماذج وأمثال في القرآن والسنة والسيرة، نتعلم منها دقة الموازنة، حتى لا يطغى أمر على أمر، فتختل القواعد في ممارسة مضطربة غير عادلة. ولا تنفصل الموازنة في هذين الأمرين عن الموازنة بينهما وبين سائر آداب الإسلام والواقع الذي تتحرك فيه الأمة. إن هذه الموازنة تحتاج إلى جهد وكفاءة تقومان على إيمان كما أسلفنا. إن الموازنة ليست عملاً روتينياً يقبل عليه المسلم، ولكنه علم يحرك في المسلم نيته وطاقاته المتنوعة في أجواء الممارسة الإيمانية، لتكون هذه الموازنة التي يقوم بها باباً من أبواب الابتلاء الذي أراده الله لعباده، وصورة من صور التمحيص والاختبار، وصقلاً للموهبة والكفاءة، وأسلوباً من أساليب التربية والبناء.

والإنسان خطاء. وخير الخطائين التوابون. وقد نص القرآن على أخطاء جعلها من الكبائر: «**الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ...**» وسمى غيرها لمماً: «**إلا اللمم ...**» فمن خلال الموازنة المؤمنة، يعطي ا لمؤمن كل أمر قدره العادل، وينزله المنزلة التي ينزلها فيها الإسلام، دون أن يطغى الجهل والهوى، ليجعل الصغيرة كبيرة، والكبيرة صغيرة، فتثور الفتنة، وتضطرب الحياة، وتختل العدالة. وكم قاسى المسلمون من ذلك كثيراً. وفقدوا جهوداً وأوقاتاً وطاقات ضاعت في أجواء خلافات أثارها اضطراب الموازنة، وجهالة التقدير. ذلك لأن الميزان الذي يرجع إليه هو ميزان الهوى، لا ميزان الإسلام. وكم من القضايا المصيرية تختفي في طيات الموازنة المضطربة، وكم يشغل الناس بالصغائر في حُمًّى مجنونة مسعورة!

فلمعرفة الخطأ ذاته لابد من موازنة عادلة أمينة. ولمعرفة أهمية الخطأ ودرجته لابد كذلك من موازنة عادلة أمينة. ولمعالجة الأخطاء واختيار الأساليب التي قد تبتدئ بكلمة نصح أو قدوة صالحة، وقد تنتهي بعقوبة صارمة أوإقامة حد، هذا كله لابد من موازنة صادقة أمينة.

وربما يشعر المسلم، حين تضطرب الموازنة لديه، بأن هذا الحكم أو ذاك، وهذه القاعدة أو تلك، كانت صالحة قبل أربعة عشر قرناً، ولكنها لم تعد اليوم مناسبة للممارسة والتطبيق. ويغذي هذا التصور لديه أعداء الله بأسلوب أو بآخر، تغذيه شياطين الإنس والجن. فينسى من خلال ذلك أن منهاج الله قرآناً وسنة حق كامل، وحاجة ضرورية، للإنسان كله، في كل العصور ، في كل الأجيال، في كل البيئات. إنه ضروري، وليس صالحاً فحسب، إنه ضروري كضرورة الماء والهواء والغذاء والكساء للإنسان في كل زمان ومكان.

ولكنه الابتلاء الذي كتبه الله على بني آدم. إنه الابتلاء والتمحيص، حين يمارس الإنسان منهاج ربه في واقعه البشري. إنها مسئولية الإنسان نفسه، أن يعرف القاعدة التي يجب ممارستها في هذا الموقف أو ذاك. وقد يخطئ الإنسان، وقد يكون الخطأ لمماً، وقد يكون كبيراً. ولكل حالة قواعدها وأسسها. فالآية الكريمة:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥]

هذه الآية الكريمة تمثل قاعدةقرآنية ربانية ماضية إلى يوم القيامة لا تتعطل أبداً. ولكنها تبقى مسئولية المسلم، أو الأمة المسلمة، أن تعرف كيفية ممارستها في ضوء واقعها البشري من ناحية، وعلى كامل التناسق والترابط مع سائر المنهاج الرباني، دون أن تتعطل قواعده الأخرى. وإن سائر قواعد المنهاج الرباني تبين تفاصيل كثيرة لهذه الممارسة سواء في إقرار الأخلاق الإيمانية، أو تحديد الحقوق والواجبات، أو تنظيم العلاقات بين المؤمنين وغيرهم. فهي مهمة المؤمنين أن يوازنوا موازنة يبتغون بها وجه الله، موازنة قائمة على علم من منهاج الله، وفهم للواقع، دون أن ينحرف المؤمنون إلى فتن النفاق، والموالاة، أو الذلة والضياع، أو التفريط بديارهم وثرواتهم، أو التفريط بدينهم. إن هذا هو باب من أبواب

الابتلاء لتكشف المعادن، وتعرف النفوس ويتمايز الناس. وآيات الجهاد ماضية إلى يوم القيامة، لا تتعطل ولا تنسخ. ولكنها مهمة المؤمنين أن يعدوا أنفسهم لكل مهمة يستنفرهم إليها القرآن. ولكل مهمة رجال، ولكل عمل خصائص ومتطلبات. أما النائمون الغافلون في أحلام الجدل والوهم، فليس لهم من مهمة إلا أن يستيقظوا أولاً.

والآية الكريمة :

﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]

آية ماضية في دين الله ثابتة في منهاج الله، مترابطة مع سائر الآيات متناسقة معها. ولكنها مهمة الإنسان نفسه أن يصدر عن إيمانه وعلمه بمنهاج الله وعلمه بالواقع الذي يتحرك فيه، في حدود مسئوليته وأمانته وقدرته ووسعه، أن يصدر عن ذلك كله ليعرف متى يمارس هذه الآية الكريمة وكيف. إنها مسئوليته في ظلال الابتلاء الذي كتبه الله عليه. والآية الكريمة من سورة النحل: ﴿**وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين**﴾. قاعدتان : عقوبة وصبر، وتشجيع على الصبر، وهذه الآية الكريمة الثابتة في منهاج الله لها ظروفها وشروطها ومناسباتها للممارسة سواء أكان في العقوبة أم الصبر. ومنهاج الله يُفصِّل ذلك كله، وسيرة الرسول ﷺ تقدم المثل والنموذج للممارسة الإيمانية والموازنة الأمينة، في رعاية الوحي. وهكذا نرى أهمية الموازنة في ممارسة الإيمان، وأهمية الأسس التي يجب أن تقوم عليها الموازنة العادلة.

وفي ممارسة الأخلاق الإسلامية من حلم وعفو وتسامح، وكظم غيظ وصبر ورفق، في ممارسة جميع الأخلاق الإسلامية، تحتاج أيضاً إلى موازنة عادلة، حتى لا يطغى العفو فيكون ضعفاً وذلة، ولا يكون التسامح حيث تجب العقوبة، ولا تختلط قاعدة بقاعدة، ولكن تمارس جميع الأخلاق في موازنة سليمة فيما بينها، وموازنة فيما بينها وبين سائر قواعد المنهاج الرباني، وفيما بين ذلك كله

والواقع الذي تمارس فيه، حتى يتحقق الإيمان، ويبرز الصدق، وتمضي العبودية لله رب العالمين، على قوة وعزة ونصر.

وهكذا تمضي كل ممارسة في هذا الدين في الواقع البشري النامي المتطور. هكذا تمضي كل ممارسة إيمانية صادرة عن إيمان وعلم وسعة. ويشعر المؤمن في كل حالاته بالأمن والطمأنينة، والعزة والقوة، والسعادة والبشرى. إن هذا هو الخير الذي يجده المؤمن في كل أمره:

عن صهيب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن. إن أمره كله له خير. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له**». (رواه مسلم)(١)

إنها الموازنة في أعلى درجات العدل والأمانة، حين يفلح المؤمن في تحقيقها في ذاته، في حياته، فإن أمره كله يكون خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. ذلك أنه إذا أصابته نعمة عرف بموازنته الهادئة الأمينة أنها من عند الله وحده، إنها نعمة لم يستحقها بجهده وحده، وإنما بفضل الله عليه. ولو شاء الله لحرمه منها، دون أن يملك أن يفعل شيئاً. وتتوالى الآيات والأحاديث في هذا الصدد في صدره، فيهدأ غروره وكبره، وطمعه وطغيانه، وتتوازن في قلبه كل الأحاسيس والمعاني، موازنة إيمانية تدفع لسانه ليلهج بالشكر والحمد لله رب العالمين. إنه وازن بين قوته وطاقته، وبين النعمة التي أتته، فعرف من خلال هذه الموازنة القائمة على إيمان وعلم بمنهاج الله، أنّه أضعف من أن يحصل على أي نعمة دون فضل الله عليه، عرف في موازنة هادئة مؤمنة قدره وعرف ربه.

وإذا أصابته ضراء تسارعت الآيات والأحاديث إلى صدره المؤمن وقلبه المتعلم، ودارت موازنة كتلك التي عرضناها فأخبت لله، وصبر فنال الأجر والخير.

وهكذا تمضي الممارسة الإيمانية في الواقع البشري، وهي تحمل معها موازنة وعدلاً وأمانة.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب (٥٣) باب (١٣) حديث (٢٩٩٩/ ٦٣).

إن هذه الموازنة لا تدور في القضايا الكبرى فحسب، ولا تدور في ميدان الاجتهاد في الأحكام من طلاق وزواج، وميراث وحدود. إنها تدور في كل ميدان مهما صغر أو كبر. وفي كل دائرة مهما ضاقت أو اتسعت.

وهذه الموازنة، كذلك كما أسلفناه، لا تنحصر بطبقة أو فئة. إنها تدور في حياة عامة المسلمين كما تدور بين علمائهم. وهي حاجة ضرورية لحياة الفرد أو الجماعة أو الأمة كلها.

ومن الموازنة ما قد يتم في ذات الإنسان، في فطرته فيكون سلوكه انعكاساً لهذه الموازنة الذاتية النابعة من فطرة متوازنة. وهذا النوع من الموازنة يغذيه الإيمان الذي يغذي الفطرة، ويحفظ توازنها، ويغذيه العلم بمنهاج الله الذي فيه نور وهدى وشفاء. وبغير ذلك تضطرب الفطرة شيئاً فشيئاً حتى لا تعود تقوى على موازنة ذاتية فتنحرف في اتجاه تغلو فيه وتطغى.

ومن الموازنة ما يحتاج إلى جهد وعلم وفهم للواقع الذي تدور فيه. إنها لن تكون موازنة عادلة إذا غاب عنها العلم بمنهاج الله والعلم بالواقع. ذلك لأن الموازنة هذه تعتمد وتقوم على رد الأمور إلى منهاج الله. فإن لم تدرس الأمور دراسة أمينة، وإذا لم يدرس منهاج الله في حدود الوسع والطاقة فكيف ترد قضية إلى منهاج الله ؟ وكيف تقوم موازنة ؟ .

ومن الموازنة ما يعتمد، بالإضافة إلى العناصر السابقة كلها، على قدرة وموهبة، وكفاءة وطاقة، واختصاص وتفرغ. ومن هنا كانت الضرورة لأن يعرف المؤمن نفسه ووسعه وطاقته، حتى لا تضطرب لديه الموازنة إذا تصدى لقضية دون علم، وقدرة، وجهد.

ومع ذلك تظل الممارسة الإيمانية تحمل هذه السمة من الموازنة في حياة الإنسان كله ، وفي شتى الميادين والمستويات. فلا يوجد مسلم دون مسئولية، وحديث رسول الله ﷺ يقول: «**ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ..**».

من أجل ذلك كانت الشورى ضرورية سواء في حياة الفرد والأمة. إنها تحمي هذه الموازنة وتصونها. وتدفعها على صراط أقرب للتقوى.

إنها تحمي الممارسة الإيمانية كلها بكل خصائصها وميادينها، والموازنة من خصائصها.

وفي الوقت الذي نحتاج فيه إلي الشورى لحماية هذه الممارسة، فإن الشورى ذاتها، وهي إبداء الرأي والنصيحة، تحتاج هي نفسها إلى الموازنة الأمينة، حتى تظلّ الشورى تبحث عن الحق، وعن أقرب الأوجه إلى التقوى. إن الموازنة تحمي الشورى وتصونها. وتدفعها في سبيل الخير.

فهما عنصران متداخلان كما رأينا. خير متصل، وعقيدة مترابطة، ودين متكامل. ولا بد أن نعيد ونؤكد في ختام هذا الموضوع أنه لا موازنة أمينة، ولا ممارسة إيمانية، إذا لم يقم ذلك كله على وعي الأسس التالية، وعي ا رتباط وتماسك وتناسق:

- التوازن في فطرة الإنسان.
- التوازن في سنن الله في الكون.
- التوازن في منهاج الله.

فعلى أساس هذا التوازن تنطلق الممارسة عادلة متوازنة أمينة. وإذا اعتبرنا هذا التوازن عنصراً واحداً، فإن سائر عناصر أسس الموازنة والممارسة الإيمانية تصبح على النحو التالي :

١ - الإيمان الصادق.

٢ - العلم بمنهاج الله.

٣ - العلم بالواقع الذي تدور فيه الممارسة.

هـ - الوسع والطاقة للفرد والأمة :

وتترابط هذه العناصر فيما بينها وتتداخل، حتى يؤثر كل عنصر في سائر العناصر، ويغذي كل عنصر العناصر الأخرى. فالإيمان يغذي توازن الفطرة والعلم بمنهاج الله. ومنهاج الله يغذي الإيمان بإذن الله لمن أراد الله له الهداية. وذلك كله ينمي الوسع والطاقة إلى القدر الذي يشاؤه الله. والحمد لله رب العالمين.

وإذا كان من الموازنة ما يصدر عن فطرة متوازنة، فإن الممارسة المتوازنة تحتاج إلى تربية وإعداد ومراقبة وتوجيه. إن التربية والتعهد جزء من أمانة الإنسان في الأرض. إن التربية والتوجيه جزء لا يتجزأ من منهاج الله. والموازنة تحتاج إلى إعداد وتدريب. إلى إعداد الأجيال المؤمنة إعداداً منهجياً متكاملاً، لا إعداداً قومياً أو إقليمياً مختلطاً ببعض نواحي الدين، ولا إعداد الشيع والملل والأحزاب، ولا إعداد الطوائف والنِّحَل. إنه إعداد الجيل المؤمن برب واحَد، ودين واحد وأمة واحدة، هي أمة الإسلام.

ولقد رأينا عظمة توجيه النبوة في إعدادها الجيل المؤمن، وهي تراقب فيه، وتنمي فيه، دقة الموازنة، وأمانة الممارسة، في قضية عبد الله بن عمر، ومجيبة الباهلية، وهي تروي عن أبيها أو عمها فيما رواه أبوداود والنسائي، وعثمان بن مظعون فيما رواه أبو داود، وفي سيرة الرسول ﷺ عامة، مما سبق أن عرضناه.

إن الأجيال المؤمنة تحتاج إلى التربية والإعداد، إلى التدريب على الممارسة، إلى المراقبة والتوجيه في واقع الحياة البشرية، لممارسة التوازن ممارسة حية، ممتدة على أسس ونهج، في كل ميادين العمل والممارسة: في التجارة، في السياسة، في الاجتماع، في العلوم، في كل ساحة وميدان، وبذلك تمتد الصلاة، والعبادات والشعائر الإسلامية إلى ميادين الممارسة امتداد حياة وجرأة، وقوة وثبات ، ومضّي لا يتوقف أبدا حتى تتوقف الحياة. بذلك فقط لن تنحصر مهارات

المؤمنين في الوضوء والطهارة البدنية، ولن تنحصر صلاتهم في الحركات الجسمية، ولكنها تصبح نبضات طهر صادق في الحس والقلب والبدن. وخفقات عبادة في كل خطوة وحركة وكلمة. عندئذ تستقيم الممارسة، وتبرز المواهب وتصقل.

*****



الباب السادس

الإنسـان بيـن الخطـأ والصّـواب

الفصل الأول

الإنسان بين الخطأ والصّواب

١ - أهمية الموضوع ومنزلته :

الخطأ هو مجانبة الصواب. ولمعرفة الخطأ والصواب لابد من ميزان يحدد ذلك، حين ترد الأمور إليه وتقاس عليه وتوزن به. وقد وردت كلمة «خطأ» بذاتها في آية واحدة في القرآن الكريم في سورة النساء:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ... ﴿٩٢﴾ ﴾ [النساء: ٩٢]

وفي الحديث الشريف : «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه» (حديث حسن رواه ابن ماجة والبيهقي وغيرهما)[١].

ومن هذه الآية الكريمة والحديث الشريف نشعر أن كلمة «الخطأ» تحمل معنى مجانبة الصواب من غير معصية متعمدة أو إثم بيِّنٍ. ولكنها قد تحمل ظلال العمد في نصوص أخرى.

وتأتي مشتقات كلمة خطأ في القرآن الكريم والحديث الشريف، كثيراً : أخطأنا، خاطئون،خطيئة، خاطئة، خطاياكم، خطء. ومع كل لفظة ظلال خاصة بها تدل عليها الآية أو الحديث.

ففي سورة الأحزاب:

﴿ ... وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ ... ﴾ [الأحزاب: ٥]

(١) ابن ماجة : أبواب الطلاق (١١). باب (١٦). حديث (٢٠٥٣).

وفي سورة البقرة :

﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦]

وتبقى هذه الظلال منسجمة مع المعنى الذي أوردناه. ولكنها في آيات أخرى، تحمل الألفاظ المختلفة، معنى المعصية والإثم الذي يستحق النار عقوبة وجزاء.

وتأتي لفظة «خطَّاء» في حديث رسول الله ﷺ تحمل كل الظلال أو معظمها وتقرن الخطأ بالتوبة :

عن أنس رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال : «**كل بني آدم خطَّاء وخير الخطائين التوَّابون**». (رواه الترمذي وأحمد والحاكم)[1]

وفي جميع الحالات يظل الخطأ مجانبة الصواب، والخطيئة أشد، وتقترب من المعصية أو هي نفسها.

والخطأ أنواع ودرجات. فمنه ما يخطىء به الناس في لفظة، أو عمل غير متقن أو أسلوب غير لائق.... وقد يكون هذا الخطأ في الرأي أو الكلمة أو العمل أو الموقف. ومثل هذه الأخطاء هي من طبيعة الإنسان، لا يكاد يخلو منها أحد. إنه خطأ لم تصاحبه نية وعزيمة على مجانبة الحق أو الصواب يخرج من الإنسان لأسباب سنعطي ملامحها.

ومن الخطأ ما يكون أكبر من ذلك فقد تصاحبه النية والعزيمة، وقد يتولد عنه أذى للغير، أو خطر على الشخص نفسه أو على الآخرين.

---

(١) الفتح الرباني : كتاب التوبة (٧١). باب (١) حديث (١٣) ج ١٩ ص ٣٣٧. وجاء فيه : «قال الترمذي غريب لا نعرفه إلا من حديث علي من مسعدة، وقال الحاكم صحيح الاسناد».

وقد يكون الخطأ مخالفة لعرف مقبول شرعاً، أو مخالفة لقاعدة من قواعد منهاج الله، ونص من نصوصه في حدود اللمم.

وإذا عظم الخطأ بتجاوز هذه الحدود، فيصبح خطيئة ومعصية وإثماً، أو كبيرة من الكبائر، من كبائر الإثم والفواحش.

وقد أشرنا إلى هذه النماذج لا بقصد التحديد المطلق، ولكن بقصد الإشارة والتنبيه منذ البداية إلى أن من الأخطاء ما يعفى عنه. فقد تجاوز الله لمحمد ﷺ عن أمته الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ، فلا نجعل من كل خطأ كبيرة. ولكننا نزن الأمور بميزان الإسلام، لننزل كل عمل منزلته وفق شرع الله، على موازنة عادلة أمينة حسب ما أوضحنا في البحث السابق «الموازنة».

ونشير إلى هذا الموضوع وأهميته في مجال التربية ومجال العمل والممارسة، حتى نعطي كل أمر قدره الحق العادل على ميزان عادل. وفي واقعنا اليوم، تلتبس هذه الأمور وتختلط فنجعل من الخطأ البسيط أو اللمم كبيرة، تقوم لها الدنيا وتقعد ونتهاون في شأن الكبائر وعظائم الأمور. أو نتابع الخطأ بحجة النصيحة، أو التربية أو التعاون، فإذا هو تتبع عورات، وإيذاء أشد من الخطأ ذاته، والخطأ في فطرة الإنسان، وفي طبعه. وقد رأينا في الفصول السابقة، ونحن ندرس خصائص الإنسان، هذا الأمر. ورأينا بعضاً من دوافعه وأسبابه.

فالنسيان الذي هو من خصائص الإنسان سبب من أسباب الخطأ، وهو أهون الأمور وأخفها شراً، وقد رفع الله عن المؤمنين الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه.

وعلم الإنسان محدود، وسيظل محدوداً ضيقاً مهما ظن الإنسان نفسه أنه زاد علماً ومعرفة. فكلما تعرَّف الإنسان في حياته الدنيا على أمر من أمور العلم، وجد نفسه بعد معرفته هذه ، أمام مجاهيل أخرى جديدة برزت أمامه، لم تكن تخطر له على بال ولم تكن عنده في حسبان. وهكذا تقود كل معرفة جديدة إلى

مجال واسع من الجهل. هذا العلم المحدود للإنسان قد يكون سبباً في الخطأ. والجهل يؤدي إلى الخطأ إلا إذا عرف الإنسان قدره، أو أوقف عمله ونشاطه وسعيه . ولكن سعي الإنسان ماض على علم قليل، فلابد من الخطأ والزلل.

والإنسان يميل إلى الظن والتخمين. وقد يزين الشيطان للإنسان ظنه فيحسبه يقيناً. ثم يبني الإنسان رأيه وموقفه وعمله على هذا الظن. فيقع في الخطأ، أو الخطيئة، أو الكفر والشرك، حسب مجال الظن وميدان التخمين.

والإنسان قد يغلبه هواه فيدفعه إلى الخطأ، إلى الخطأ بكل درجاته وأنواعه حسب اشتداد الهوى، وامتداد الشهوات، ولقد تحدثنا عن الهوى في فصل سابق.

وجميع هذه الأسباب الفطرية في الإنسان : من نسيان، أو علم محدود أو جهل، أو ظن، أو هوى ، جميع هذه الأسباب تعمل في حياة الإنسان وهو في ساحة الابتلاء ، ليعرف معدنه ويمحص خبرته، على« سنن ربانية ثابتة، ووفق حكمة الله العليم القدير، الملك العزيز، الجبار المتكبر، له الأسماء الحسنى. وعدم وجود مقياس ثابت للإنسان، وميزان عادل، يدفع للخطأ أيضاً. فالإنسان الذي يعيش دون قواعد ثابتة يعود إليها، هو إنسان تائه متفلت، ينتقل من خطأ إلى خطأ، ومن زلل إلى زلل، ومن نسيان إلى نسيان، ومن جهل إلى جهل ومن ظن إلى ظن. إنه إنسان يمضي في ظلام ومتاهات لا يكاد يجد بصيصا من نور.

وليس للإنسان في هذه الحياة الدنيا ميزان يرجع إليه إلا منهاج الله. لأنه المنهاج الوحيد من عند الله، فكان الحق المطلق. وأي منهاج آخر يضعه الإنسان، مهما بلغ علمه وموهبته وقدرته، فإنه منهاج يخرج عن طبيعة هذا الإنسان بعلمه المحدود أو جهله، وبغلبة الظن الذي يحسبه يقيناً، والجهل الذي حسبه علماً، الضعف الذي يظنه قوة ، والغرور الذي يحرك فيه فجوره. هذا الإنسان يتيه في فرحة من فرحات انتصاره فإذا هو كبر وظلم وعتو ! هذ الإنسان الذي تجمعه

هذه الخصائص. كيف يضع منهاجاً للبشر كلهم، للعصور كلها، للأجيال كلها.

ولكن الله سبحانه وتعالى وهو خالق كل شيء ، عليم بكل شيء، قادر على كل شيء ، عزيز حكيم، غفور رحيم، له الأسماء الحسنى كلها، الله رب العالمين، هو الذي يضع لخلقه منهاجاً، ويهب ويأخذ، ويعطي ويمنع.

﴿ ... وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

[يوسف: ٢١]

ويخطيء الإنسان كذلك لأن قدرته محدودة أيضاً، وليس علمه فحسب. إن سائر قدرات الإنسان هي قدرات محدودة مهما نبغت وعظمت فإنها ستظل في حدود القدرة البشرية وبسبب هذه القدرة المحدودة قد يخطئ الإنسان أثناء تناوله هذه القضية أو تلك.

ومن خلال قدراته المحدودة وعلمه المحدود فإنه قد يخطيء في الموازنة والقياس والاجتهاد، عندما يرد قضاياه إلى منهاج الله، فقد لا تصدق موازنته دائماً فإنه يصيب ويخطيء، وينجح ويفشل.

ومع وجود كل هذه الاحتمالات فإنه مكلف بالسعي والعمل، وبردّ الأمور إلى منهاج الله، وممارسة إيمانه وقدراته ومواهبه في طاعة الله. إنه مكلَف بذلك مع وجود احتمال الخطأ. بل الأمر أكبر من ذلك. فقد جعل الإسلام للحاكم إذا اجتهد فأخطأ أجراً، وإذا اجتهد فأصاب أجرين، هذا ما دام الاجتهاد يستكمل شروطه : بأن يكون قائماً على إيمان وعلم بمنهاج الله، وعلم بالأمر الذي يجتهد فيه، وقد خرج اجتهاده بعد أن بذل جهده وأدى أمانته، مستوعباً وسعه وقدرته. فلا يخرج اجتهاد عن إيمان مضطرب يغلبه الهوى. ولا عن جهل ولا عن تراخ في الجد وعجز في الموازنة والممارسة، وكسل في أداء الأمانة.

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «إذا

حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم واجتهد فأخطأ فله أجر»

(رواه مسلم)[1]

وإذا كانت هذه بعض دوافع الخطأ وأسبابه، فإن الإسلام لم يترك الإنسان نهبة لهذه الأسباب حتى يحيط به الخطأ. فالله الذي خلق الإنسان، جعل له في منهاجه سبيلا للنجاة مع كل حالة وكل نوع. والله رحيم بعباده، عليم بما فطرهم عليه. جعل الله سبحانه وتعالى سبيلاً للإنسان، إذا سلكه، فإنه ينجو من عواقب الخطأ، وويلات الخطيئة. إنه يخفف من نسبة الخطأ الذي هو في طبيعة الإنسان، ويجعل الخطأ درساً يتعلم منه حتى لا يقع فيه ثانية، وامتحاناً ليبتليه ويكشف معدنه. إنّه يفتح له أبواب الفرج ومنافذ الرحمة. ويظل الإنسان في جميع الحالات يتحمل هو نفسه مسئولية علمه، دون أن يقلل من مسئولية من شاركه في الخطأ أو الإثم.

إن هذا السبيل الذي يسره الله برحمته للإنسان، ليحقق هذا كله وكثيراً غيره هو منهاج الله. إنه منهاج الله قرآناً وسنة بكل آفاقه وامتداده. إنه رحمة وشفاء، وهدى ونور، وموعظة للمتقين.

نعم! للمتقين ، للمؤمنين ، لأن منهاج الله يعمل في النفوس المؤمنة، فيكون لها شفاء ونوراً. وأما الكافرون فإنه عليهم عمى. فالإيمان يأتي قبل العلم، وهو الباب الأول، والعلاج الأول، وبدونه تغلق كل الأبواب والمنافذ وبدونه يفسد كل علاج.

ونحاول الآن أن نتلمس بعض ملامح أسلوب الإسلام في معالجة الأخطاء في حياة الإنسان، فرداً أو جماعة أو أمة.

---

(١) مسلم : كتاب (٣٠). باب (٦). حديث (١٧١٦/ ١٥).

٢ - التصور الإيماني :

إن الإيمان برب واحد خالق لكل شيء، قادر على كل شيء، عليم حكيم، عزيز ، غفور، رحيم، إلى سائر الأسماء الحسنى، إن الإيمان بالبعث والحساب إيماناً صادقاً نابعاً من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، بالجنة جزاء للمتقين، والنار مثوى الكافرين، بسائر أسس العقيدة : بالملائكة والكتاب والنبيين، إن هذا الإيمان المتكامل المتناسق المتوازن مع طبيعة الإنسان وفطرته، المتوازن مع سنن الله في الكون، إن هذا التصور الإيماني بالإضافة إلى أنه ضرورة للإنسان وللبشرية كضرورة الهواء والماء والشراب والغذاء، فإنه كذلك حارس يخفف من أخطاء الإنسان المؤمن، وعلاج كذلك لأخطائه.

إن هذا التصور الإيماني يمد الإنسان بالنور ليرى ويبصر، ويمده بالقوة ليعمل، ويحرك فيه على توازن «تقواه» بكل عناصرها، لتعمل في حياته وممارساته، وتثير طاقاته وقدراته، في اتجاهها الحق السليم، وعلى صورة متوازنة فيما بينها، متوازنة مع سنن الله في الحياة، إنه يحرك فيه الرحمة، والتعاون، واليقظة، والحذر، والوعي، والتدبر والتفكير، إنه يثير فيه الخشية من عذاب الله فيتوقف أثناء مسيرته ليتدبر ويتفكر، حتى يتابع مسيرته، إنه يثير فيه حبه لله وثقته فيه، على توازن مع الخشية والخوف.

إن هذا التصور الإيماني يقدم للإنسان هدفاً واضحاً بيناً في حياته، يعيش له ويعمل له ويسعى له. إنه هدف يحقق فيه الإنسان كل معاني إنسانيته ليكون لها معنى حقيقيٌ، ودورٌ كريم في حياة كريمة. وبغير هذا الإيمان تضمر خصائص إنسانيته الكريمة، حتى تموت أو لا يبقى منها إلا القليل، يعمل مضطرباً غير متوازن، أو مؤذياً غير مفيد، مهما أحاطت به زخارف وزينة. فقد يبقى لديه شجاعة، أو كرم، أو نجدة، ولكنها مبتورة الصلة عن الإيمان. فإن بقيت فيه مظاهرها فلا مدد يرويها ويحفظ توازنها. فإذا الشجاعة عدوان وظلم وإفساد،

سواء أشعر الإنسان بذلك أم لم يشعر، وإذا الكرم غرور وكبر ومنافسة قاتلة، وإذا النجدة عصبية هائجة تفسد، وفتنة تمزق. أو ربما تكون ومضة سرعان ما تُطْفَأُ وتغيب .

إن هذا التصور الإيماني، بكل آفاقه، بكل عناصره وأسسه، يقدم للإنسان حماية وعلاجاً. إنه يقدم الرابطة بين الناس لتكون أكرم رابطة لا رابطة مصالح طارئة، ولا أهواء تلتقي وتفترق، ولكنها حبل قوي دائم. ومن هذه الرابطة النظيفة يجد الإنسان التعاون والمحبة والاجتماع، ويجد فيها الطهر والصدق، والأمانة والحق، والعدل والقسط، والتوازن والاستقامة. وهذا كله، إن لم يدفع الخطأ، فإنه علاج وشفاء، أو قاعدة لكل علاج وشفاء. ورحمة الله فوق كل ذلك، ورعايته لعباده المؤمنين علاج وشفاء. وبغير هذا الإيمان يضيع الهدف، وتتلاشى الغاية، وتجف إنسانية الإنسان وفطرته، حتى تتحول إلى مصالح وأهواء تحت طلاء رقيق من شعارات خادعة، شعارات الإنسانية المموهة الكاذبة، لترمي الإنسان كله في الوحل والطين. إن حياة الانسان بغير هذا الهدف الواضح اليقيني، حياة موت، حياة أنعام، حياة جمادات :

﴿ ... أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

[الأعراف: ١٧٩]

إننا نتحدث هنا عن الإيمان المستقر في القلب، الثابت في الفطرة، الواضح في العمل والممارسة. إننا لا نتحدث عن شعارات ومظاهر، مهما تكن تلك الشعارات مظهراً أو لباساً، ونعمت الشعارات والمظاهر الإيمانية حين تكون دليلاً على واقع وإشارة إلى حقائق.

٣ - التربية الإيمانية والتدريب :

مع جميع خصائص الإيمان،وقد ذكرنا ملامح منها، فإن الإنسان يحتاج إلى تربية وإعداد، وتدريب وبناء، حتى تكون الفطرة في تعهد سليم ورعاية كريمة،

ولتنمو الفطرة على خصائصها المتوازنة التي فطرت عليها.

ومن خلال هذه الرعاية يتلقى الإنسان غذاء ينمي إيمانه، ويزيده قوة، وماء يروي جميع أنحاء فطرته وخصائصها، ويتلقى علماً يقينياً يكون له زاده الحقيقي في رحلة الحياة الدنيا، ويكون تحت مراقبة حانية، ومراقبة تحنو عليه وهي تصحح خطوة أو كلمة، أو نية. مراقبة ترعى خيره وتطرد شره، مراقبة توفر له التدريب والممارسة، والعمل الجاد. فالتربية إذن :

- تنمية للإيمان.
- حماية للفطرة السوية المؤمنة حتى لا تنحرف ولا تضطرب.
- علم يقدم الزاد في رحلة الحياة، علم يقيني هو منهاج الله.
- تدريب على ممارسة الإيمان في الواقع البشري.
- مراقبة توجه وتقوم، وترعى وتحنو.

والتربية الإيمانية تبتدئ بالنفس ذاتها، تبدأ في أغوار النفس، وتدور في كل أحنائها وكل أجوائها تصحح وتعالج. ولا نستطيع أن نجمع في هذا البحث أو غيره، كل علاجات التربية الإيمانية، إنها مهمة أكبر من مهمة الإنسان. وقد جمعها الله كلها في منهاجه قرآناً وسنة. ولكننا نذكر لمحات ونأخذ قبسات، لتذكر وتعين، حتى ينهض القارىء إلى كتاب الله وسنة رسوله، ينهل منهما ما يشاء نهل عمر وحياة، نهلاً لا يتوقف. فقد جمع الله فيهما وفصل تفصيلاً كلَّ ما يُصْلح حياة الإنسان في الأرض، وينجيه من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة. وكان الجمع ربانياً والتفصيل ربانياً، دونه كل جهد بشري. ولكن الجهد البشري مطلوب ليؤدي دوره المحدد : إنه يذكر ويعين.

والتذكرة مهمة واسعة، وأمانة كبيرة، والتعاون فيه توجيه وتقويم وتدريب. فالتربية الإسلامية إذن تقوم على أساس من منهاج الله الذي يوضح أهدافها كاملة ووسائلها ومنطلقها . وعلى أساس من منهاج الله يقوم التدريب والتوجيه

والتقويم. وعلى أساس من منهاج الله تقوم الممارسة في الواقع البشري، في الواقع الذي يعيه المؤمن ويمارس فيه إيمانه، يعيه وعي المؤمن العامل، المؤمن الكيِّس الفطن، يعيه من خلال صحبته لمنهاج الله، وفهمه وتدبره لمنهاج الله.

ولنأخذ بعض الملامح والقبسات من أسلوب الإسلام في تربية الإنسان والأمة، تربية تخفف من الأخطاء، وتقومها، وتجعلها مدرسة تزود بالخبرة والمران.

(أ) المراقبة، تبتديء وتنبع من الإيمان حين يشعر المؤمن أن ربه يراه ويراقبه وسوف يحاسبه:

﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾

[الشعراء: ٢١٨، ٢١٩]

﴿ ... وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ... ﴾ [الحديد: ٤]

وآيات كثيرة.

وفي الحديث الشريف عن عمر بن الخطاب يروي فيه ما حدث وهم جلوس عند رسول لله حين طلع رجل فسأل النبي عن الإسلام، ثم الإيمان ثم الإحسان، وقال فأخبرني عن الإحسان قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك..» (رواه البخاري) [1]

وعن أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».**

(رواه الترمذي) [2]

(١) البخاري: كتاب الايمان (٢). باب (٣٧).

(٢) الترمذي: كتاب البر والصلة (٢٨). باب (٥٥). حديث (١٩٨٧).

ففي هذ الحديث الشريف تربية وإعداد لتجنب الخطأ ومعالجته بثلاث وسائل بينة: **تقوى الله، والخلق الحسن**، وتأتي المعالجة بأسلوب رائع فذ: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها ..**».

وحديث آخر:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك. وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**». (رواه الترمذي)[1]

وقد جمع هذا الحديث العظيم قواعد وأسساً. جمع الإيمان والمراقبة، والتوكل على الله والإيمان بالقضاء، وقد مر معنا البحث في هذا الأمر.

ثم تأتي مراقبة ولي الأمر، والراعي على رعيته. مراقبة الأب أبناءه والمعلم تلامذته، وكل مسئول عن رعيته مراقبة تحمل كل خصائصها من منهاج الله.

ومن هذه المراقبة كلها ينبع الحنو، والنصح، والتعاون. فإما أن يتجنب المؤمن الخطأ قبل أن يقع فيه، وإما أن يعالجه ويقلع عنه، وإما أن يأخذ عبرة وعظة. فهو على خير في كل حال.

(ب) التوبة والاستغفار:

لقد رأينا في حديث رسول الله ﷺ كيف ارتبط الخطأ بالتوبة «**وخير الخطائين التوابون**». وألح القرآن الكريم على هذا الأسلوب الرباني، وألحّت السنة حتى كانت التوبة باباً مفتوحاً للمؤمن، والمغفرة رحمة سابغة من الله سبحانه وتعالى:

(١) الترمذي: كتاب صفة يوم القيامة (٣٨). باب (٥٩) حديث (٢٥١٦).

والتوبة والاستغفار تأتي في منهاج الله قرآناً وسنة على ترابط وتوازن مع العقيدة والإيمان، ومع سائر التكاليف، يشد بعضها بعضاً، حتى يتضاعف خير كل منها. لذلك كان الإلحاح على هذا الباب في منهاج الله عظيماً.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣ - ٥٥]

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن الرسول ﷺ : قال الله تعالى : «**يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي. يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة**».

(رواه الترمذي) (١)

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)﴾ [النساء: ٤٨]

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**». (رواه البخاري) (٢)

وهذه التوبة وهذا الاستغفار علاج مصاحب للإنسان، ميسر له، ما دام الإيمان في قلبه. وإنه باب من أبواب الذكر والدعاء. وإنّه خير وبركة دائمة لا تنقطع إلا باضطراب النية وانقطاعها. وإنها مدرسة مصاحبة للمؤمن، مدرسة

---

(١) الأربعين النووية. حديث رقم (٢). وقال المحقق تفرد به الترمذي وقال حسن صحيح .الترمذي : الدعاء /٩٨/ ٣٥٤٠.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الدعوات (٨٠). باب (٤).

يتعلم منها كل يوم أمراً جديداً، ويكسب تدريباً ومراناً جديداً، ويتزود بزاد من الإيمان جديد.

(جـ) الدعاء :

والتوبة والاستغفار باب من أبواب الدعاء والعبادة. وقد رأينا في الأحاديث السابقة والآيات ارتباطهما بالدعاء والعبادة. والدعاء عامة مدرسة دائمة، وزاد مستمر، وعلاج مصاحب شاف. وقد جعل منهاج الله أدعية لكل حالة من حالات الإنسان: في السرور والحزن، في الهم والنصب، في المرض والفقر، في دخول البيت والخروج، عند النوم، عند الاستيقاظ، عند الشرب والأكل، مع كل حركة وكل سكون، وفي كل وقت من ليل أو نهار. ولذلك جاء حديث رسول الله ﷺ :

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**الدعاء هو العبادة**». (رواه أبو داود والترمذي) [1]

وفي القرآن الكريم :

﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: ٦٠]

﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٦]

فارتبط الدعاء بالعبادة ارتباط عقيدة وإيمان. ومع صحبة المؤمن المباركة للدعاء يجد الفرج، والمنفذ، والعلاج من غم وهم، أومشكلة أو خطأ. ما أروعها من كلمات تخرج المؤمن من آلامه في لهفة الدعاء، حين يصيب الخطأ، فيلجأ

---

(١) أبو داود: كتاب الصلاة (٢). باب الدعاء (٣٥٨) حديث رقم (١٤٧٩). الترمذي : كتاب الدعوات (٤٩) باب (١). حديث (٣٣٧١، ٣٣٧٢).

إلى الله، يسأله عونه ورحمته ومغفرته، وهو موقن بالإجابة.

وهذا العلاج لا يعالج الخطأ وحده، ولا يوجد الفرج وحده، ولكنه يعالج الإنسان كله، صدره وقلبه، ونفسه وفكره، وسمعه وبصره. وهو يقدم الحماية قبل وقوع الخطأ، ويعطي العلاج، ويؤمِّن الشفاء. حماية وعلاج وشفاء.

(د) العبادة :

والدعاء هو العبادة، كما في الحديث، وفي رواية أخرى: هو مخ العبادة. ومن العبادات فرائض ونوافل. ومنها صلاة وصيام وزكاة وحج. والعبادة كلها تحمل جميع الخصائص السابقة: فهي مدرسة دائمة بدوام صدق النية، تمتد مع امتداد حياة المؤمن، وهي زاد مستمر ونبع غني، يَرِدُهُ المؤمن كلما شاء وأينما شاء. وهي تقدم الحماية والعلاج والشفاء.

(هـ) الذكر :

والذكر يشمل ذلك كله ويشمل الحركة والسكون على نحو حياة رسول الله ﷺ ، وكما حدده منهاج الله، صافياً خالصاً من البدع نقياً من الشوائب.

وقد عظَّم القرآن من شأن الذكر وعظمت السنة من شأنه. وجعلت من بركاته أن يكون مصاحباً للمؤمنين قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم. ولنأخذ نماذج من الدعاء المأثور في هذا الباب.

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: **«اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني. اللّهم اغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي. اللّهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير»**. (متفق عليه) [1]

(١) البخاري : كتاب الدعوات (٨٠) باب (٦٠). مسلم : كتاب الذكر والدعاء ... (٤٨). باب (١٨). حديث رقم (٢٧١٩/ ٧٠) واللفظ لمسلم.

هذا سيد الخلق يقول: «**وكل ذلك عندي ....**» ويلجأ إلى الله يسأله مغفرته عن ذلك كله.

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: علمني دعاء أدعو به في صلاتي. قال: قل: «**اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**».

(متفق عليه) [1]

وعن علي رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**قل اللهم اهدني وسددني. وفي رواية اللهم إني أسألك الهدى والسداد**». (رواه مسلم) [2]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ: «**اللهم إني اسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة، والنجاة من النار**». (رواه الحاكم) [3]

عن زياد بن علاقة عن عمه، وهو قطبة بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء**». (روه الترمذي) [4]

وعن شكل بن حميد رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله علمني دعاء قال: «**قل اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي ومن شر بصري ومن شر لساني ومن شر قلبي، ومن شر منيِّي**». (رواه أبو داود والترمذي) [5]

وفي هذا الحديث الشريف جمعت أسباب الخطأ ومصادر الزلل، مما يكون

---

(١) البخاري: كتاب الدعوات (٨٠). باب (١٧) مسلم. كتاب (٤٨) باب (١٣) حديث (١٧٠٥/٤٨).
(٢) مسلم: كتاب الذكر والدعاء (٤٨). باب (١٨). حديث (٢٧٢٥).
(٣) رياض الصالحين: ج٢ ص ١٠١٦ حديث (١٤٩٤).
(٤) رياض الصالحين: حديث رقم (١٤٨٨٣) ح٢ ص ١٠١١.
(٥) المرجع السابق حديث (١٤٨٤).

شراً: السمع والبصر واللسان والقلب والفرج فما تركت شيئاً.

وعن عمران بن الحصين رضي الله عنهما أن النبي ﷺ علم أباه كلمتين يدعو بهما: «**اللهم ألهمني رشدي، وأعذني شر نفسي**». (رواه الترمذي)[1].

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والهرم، وعذاب القبر. اللهمَّ آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها. أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها**».

(رواه مسلم) [2]

(و) الخُلُـق:

والخلق يجنب المؤمن مواطن الزلل. والإسلام يبين محاسن الأخلاق ويدرب المؤمن عليها، ويبين سيء الأخلاق ليبتعد المؤمن عنها.

وتمتد الأخلاق في حياة المؤمن إلى جميع مجالات الحياة ولا تنحصر في العلاقة الاجتماعية وحدها. إنها تمتد إلى العمل والتجارة والسياسة وكل نشاط وكل عمل. إنها تقوِّم طبائع الإنسان حتى تستقيم على نهج الإسلام. وترتبط الأخلاق بالعقيدة والإيمان وبالدعاء والعبادة والذكر، وبالممارسة والتطبيق مع كل الناس وفي كل عمل. ومن خلال ارتباطها هذا تؤتي الأخلاق خيرها وبركتها في حياة المؤمن.، وتحميه من الزلل، وتعينه عند الخطأ، وتقرّبه إلى التقوى، وبدون هذا الارتباط تبطل، وتجف وتصبح هباءً، منثوراً.

وقد وصف القرآن الكريم محمداً ﷺ بهذه الصفة الرئيسية «**وإنك لعلى خلق عظيم**». ومع هذا الوصف العظيم كان رسول الله ﷺ يسأل الله حسن الأخلاق ويدعوه تعالى أن يهديه إلى أحسن الأخلاق ويصرفه عن سيئها.

---

(١) الترمذي: كتاب الدعوات (٤٩). باب (٧٠) حديث (٣٤٨٣).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء (٤٨). باب (١٨). حديث (٢٧٢٢/ ٧٣).

(ز) التسليم للقضاء دون عجز أو كسل :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير. احرص على ما ينفعك واستعن بالله عز وجل ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا. ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان**».

(أخرجه مسلم) [1]

هذه نفسية المؤمن ! إن أصابه شيء لم يقتله الندم والحسرة. ولكن الندم يدفعه إلى التوبة والاستغفار والدعاء والذكر، إلى العبادة، إلى متابعة السير مع خبرة جديدة وزاد جديد. إنه لا ينهزم أمام الخطأ والملمات، ولكنه ثابت ماض متوكل على الله. وتهدأ النفوس وتطمئن، وتمضي وهي أكثر قوة بهذا اللجوء إلى الله. دون ندامة قاتلة أو حسرة ممزقة. تمضي وهي تسمع قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) ﴾ [الحديد: ٢١، ٢٢]

وهكذا يدرب الإسلام أبناءه ليثبتوا في وجه المصاعب والملمات، ويستفيدوا من أخطائهم. فإذا هي علم وخبرة، وتدريب ومران، وتوبة واستغفار، وذكر ودعاء، وإنابة وحسن توكل على الله، وقوة ومضي وإذا هي نصر.

(ح) النظر والاعتبار :

والإسلام يعلم أبناءه تاريخ الأمم السابقة وقصص الغابرين، لتبرز أخطاءهم وخطيئاتهم التي أهلكتهم، فتكون لهم عبرة ودرساً.

---

(١) صحيح مسلم : كتاب االقدر (٤٦). باب (٨). حديث (٢٦٦٤/ ٣٤).

وبهذه يصبح التاريخ البشري متصلاً ممتد الفائدة، ويظل الابتلاء والاختبار سنة الله في خلقه، لينظر كل جيل ويعتبر.

وتأتي الآيات والأحاديث تعرض هذه الدروس من خلال العقيدة والإيمان.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾

[يوسف: ١١١]

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج: ٤٦]

وهكذا تتصل الأجيال البشرية كلها في مدرسة تقدم الآيات والعبرة لتعلم الإنسان وتقدم له الزاد فيتجنب الزلل ، على عقيدة واحدة ودين واحد هو الإسلام،ورب واحد هو الله رب العالمين.

(ط) سائر الصفات الإيمانية :

فللمؤمن شخصيته المتميزة من غير المؤمنين. متميزة بكل ما سبق، وبكثير غيره من قواعد هذا الدين، مما لا نستطيع جمعه هنا. فالإحسان ، والإنفاق، والرفق .... كل ذلك يساعد المؤمن على تجنب الزلل، فإن وقع فيه وجد بعون الله من إيمانه وعلمه وتجربته منفذا .

إن جميع هذه النقاط التي أوردناها تحت عنوان التربية الإيمانية والتدريب هي مدرسة ذاتية تصاحب المؤمن حيث كان، إنها مدرسة عاملة باستمرار لا تتوقف. إنها لا تتعطل لغياب مدرس ما دام المسلم مصاحباً لمنهاج الله عالماً بحدوده ومسؤولياته، وقد قام والداه بحسن رعايته وتربيته. إن منهاجها قائم وأسلوبها بيِّن.

إنها التربية الذاتية التي تنبعث من المؤمن نفسه، مصاحبةً لمنهاج الله، تدريباً وعلماً وممارسة، على دراسة للواقع الذي يمارس فيه إيمانه وفهمٍ له. إنها تنبعث من المؤمن وتمضي معه عمره كله.

إن هذه التربية الذاتية والتدريب الذاتي لا يتعارض مع وجود العلماء والدعاة. ولكن الذي نعنيه هو أنّ التربية الذاتية ماضية، حتى لو غاب العلماء والدعاة في فترة زمنية أو محنة قاسية، أو فتنة دامية.

وهي في الوقت ذاته تحمل جميع خصائص التربية الجامعة، حيث يلتقي المؤمنون على منهاج واحد، في درب واحد، وجهاد واحد.

٤ - الأمة المؤمنة الواحدة :

إن قيام الجماعة المؤمنة أو الأمة المؤمنة ضرورة في حياة الدعوة الإسلامية، فلكلّ دعوة جماعة ورجال، ودعوة الله لها رجالها وجماعتها وأمتها، يلتقون على أخوة في الله، ويستمسكون بحبل الله المتين، في صحبة منهاج الله علماً وتدبراً وممارسة. ففي الأمة المؤمنة تصبح جميع معاني الممارسة الإيمانية أوسع أفقاً، وأعمق بعداً، سواء في ذلك التوبة والاستغفار، أو الذكر والدعاء أو العبادة والطاعة، أو أي نشاط آخر يبرز في حياة الأمة من اقتصاد وتجارة، أو دولة وسياسة، أو اجتماع وعلم. ميادين واسعة وآفاق ممتدة وممارسة حية خافقة. في الأمة المؤمنة يجد المؤمن رعاية أوسع ومراقبة أدق. وتذكيراً أعمق. حيث تمضي الرعاية والمراقبة والتذكير في حنان الأرحام المؤمنة، ورعاية السلطة العادلة، وتذكير الأخوة الناصحة.

ينشأ التعاون الكريم على علاقات ووشائج طاهرة كريمة، وتقوم النصيحة تحمل معها كل خصائص الإيمان والإخلاص، ويدور السمع والطاعة على وعي ووفاء، وصدق والتزام، وتنهض العبادات جامعة : صلاة جامعة وحج جامع. ويأخذالخلق الإسلامي دوره الحي في ممارسة حية، على بر وتقوى، وخير وبركة.

وبهذه الخصائص كلها يجد المؤمن بين إخوانه ما يبعده عن الخطأ أو يعينه عند وقوعه، أويحميه من أسبابه.

فالأمة المؤمنة، وهي تمضي على محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، هذه الأمة وهي في صحبة منهاج الله، تعطي أبناءها الرعاية والحماية والعلاج من خلال نظامها المتماسك ونهجها الواضح، والشرع العادل، إنها تعطي ذلك كله وأكثر منه.

ونرى هنا عظمة المنهاج الرباني، وهو يرعي الإنسان هذه الرعاية الحانية فرداً وجماعة وأمة. يرعاه في خلقه، في نشأنه، في عباداته، في تشريعه. يرعاه في فطرته وسلامتها ، في طاقاته ونموها.

فالأمة المؤمنة ، بكل خصائصها، وسيلة من وسائل علاج الأخطاء، وسيلة تعمل قبل وقوع الخطأ حماية وصوناً، وعند وقوعه نصحاً وعوناً، وفي المجاهدة والمعاناة أجراً وثواباً.

والأمة المؤمنة التي تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وهي أمة متماسكة على نهج الله، مستمسكة بحبل الله، تعالج في داخلها - بجميع الوسائل السابقة - المؤمن من أخطائه، وتعالج أخطاءها كذلك.

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]

٥ - النهج والتخطيط :

ظاهرة جامعة، وميزة بارزة، في حياة الفرد المؤمن والأمة المؤمنة. إنها التخطيط على نهج واضح، وعلى دراسة وعلى بذل وجهد.

ميزة الإسلام أنّه الصراط المستقيم والمحجة البيضاء، إنه دين الله. بذلك جاءت الآيات بينات،والأحاديث مفصلات.

من هذه الاستقامة، من هذا الجلاء والوضوح، من هذه الآيات البينات، من هذا كله ، ينبع التخطيط ويقوم النهج، ليكون المؤمن على بينة في كل لحظة من لحظات حياته. ليكون المؤمن حذراً يقظاً كيّساً فطناً متبيناً صادقاً، عاملاً قوياً. وبدون النهج والتخطيط ينقلب الحذر واليقظة إلى غفلة، والكياسة والفطنة إلى بلاهة، والتبيُّن والصدق إلى ظن وكذب، والعمل والقوة إلى استرخاء وضعف.

ويمكن أن نتمثل قواعد التخطيط الإيماني من خلال آيات متعددة، ونأخذ هنا مثلاً واحداً.

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾

[الإسراء: ١٩]

ففي هذه الآية الكريمة تحددت نقطة الانطلاق بكل عناصرها وأسسها في قوله تعالى «وهو مؤمن» . فالإيمان هو أساس كل عمل، وهو أساس التخطيط وتجمع هذه الكلمة كل عناصرها، كل عناصر الإيمان والنية والإخلاص، مع كل ظلالها ومستلزماتها وخصائصها.

وتتحدد الغاية، والقصد والهدف . يتحدد ذلك بقول تعالى : «**ومن أراد الآخرة ...**» فالغاية إذن تصحبها إرادة وعزيمة. إنها ليست أي غاية ولا أي هدف. إنها غاية محدودة واضحة هي «**الآخرة**». هذا هو الهدف الأعلى والغاية الأسمى. وكل غاية أو هدف آخر، يصبح في مرحلة من مراحل السعي وسيلة ولا يعود هدفا وغاية، ولكن الدار الآخرة هدف وغاية وقصد يسعى إليه المؤمن ويوجه إليه نيته وقلبه وجهده. هذا بالنسبة للإنسان جعلها الله له هدفاً وغاية، وجعلها من عنده رحمة وجزاء.

ثم تحدد الآية الكريمة لنا السبيل: «**وسعى لها سعيها**». وبذلك تحددت نقطة البداية وتحددت الغاية، وتحدد السبيل. والقرآن الكريم والسنة تفصل لنا كل نقطة من هذه النقاط الثلاث، وكل قضية من هذه القضايا، وتؤكد عليها تكراراً

وتصويراً يحمل جميع الظلال والألوان، ويمد كل الآفاق حتى تستكمل كل قضية صورتها المشرقة، وعناصرها المحددة، وظلالها الغنية الممتدة. فمنهاج الله هو الذي يحدد هذا كله بالنسبة للإيمان الذي هو نقطة الانطلاق، وبالنسبة للدار الآخرة هدفاً وإرادة وغاية ، وبالنسبة للسعي المتميز لها «**وسعى لها سعيها**».

فيتضح لنا هنا عناصر ثلاثة من عناصر التخطيط: البداية ونقطة الانطلاق، الطريق والسبيل،الغاية والقصد. وهذه كلها في العمل الإسلامي في حياة المؤمن ، في حياة الأمة، يجب أن تكون نابعة من منهاج الله قرآناً وسنة، متوازية مع الواقع البشري الذي يُدْرَس من خلال المنهاج الرباني. فلا يصلح في دين الله إلا سبيل واحد هو الصراط المستقيم، ولا تصلح أي بداية ولا أي غاية. وترتبط هذه كلها فيما بينها ارتباط تناسق وتماسك، حتى كان العمل في دين الله، أي عمل، لا يقبل عند الله إلا إذا صدقت فيه النية (وهذه تجمع البداية والنهاية)، وكان مطابقاً لشرع الله (وهذا يجمع السبيل والطريق).

والتخطيط في حياة الأمة المسلمة لا تنحصر مسئوليته على قيادة أو رئاسة. ولكنه أمر يشمل كل المؤمنين، حين يبذل كل مؤمن وسعه وطاقته، في نطاق أمانته ومسئوليته، مستوفياً الشروط السابقة كلها من نية وإخلاص، ومطابقة لمنهاج الله وتمضي هذه الجهود في حياة الأمة المؤمنة على تناسق وترابط من خلال منهاج الله لا على اضطراب وتعارض.

وعلى ضوء هذا التصور يتضح لنا أن النهج في دين الله، والتخطيط الإيماني يختلف عن تخطيط الكافرين اختلافاً كاملاً، يختلف في المنطلق والغاية والمسعى. ولقد مثل الله نهج الكافرين في آيات متعددة في كتابه العزيز. نأخذ مثلاً واحداً منها من سورة الإسراء وهي الآية التي ترد قبل الآية السابقة الذكر :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: ١٨]

فهنا اختلف المنطلق والغاية والمسعى، وبذلك اختلف الجزاء، واختلفت النتيجة وابتعدت عن الغاية. لقد أرادوا الدنيا فعجَّلَ الله بها لمن يريد وفق حكمته ثمّ بلغوا بسعيهم نتيجة مختلفة كل الاختلاف، بلغوا جهنم وساءت مصيراً.

ويتضح لنا كذلك أن النهج والتخطيط بصورة عامة يقوم في دين الله على القواعد التالية حتى يستوفي كل عناصره.

١ - منهاج الله قرآناً وسنة.

٢ - الواقع البشري ليفهم من خلال منهاج الله.

٣ - الطاقة البشرية المؤمنة.

وعلى قدر ما تبلغه الطاقة البشرية المؤمنة من مستوى في إيمانها، وعلمها في منهاج الله، وعلمها في الواقع البشري، ووسعها وطاقتها، على قدر مستوى كل عنصرمن هذه العناصر، فإن النهج والتخطيط يبلغ مستواه المتناسب مع مستوى هذه القواعد. ولذلك كان التخطيط في حياة الأمة المؤمنة عملاً متكاملاً، عملاً متناسقاً، عملاً مترابطاً، يجمع جهود الأمة وطاقاتها حيث تكون كل طاقة في وضعها الحق العادل، في مختلف الميادين، وشتى الساحات، مترابطة فيما بينها من خلال عقيدة وإيمان، وممارسة وجهد.

هذا التخطيط الإيماني يوفر للأمّة المؤمنة والفرد المؤمن، خصائصَ وميزات. فالمؤمنون يتميزون بأنهم لا يعيشون متفلتين تائهين يحملهم الهوى اضطراباً وقلقاً، وخشية وفزعاً وتيهاً وضياعاً. فللمؤمنين نهج يتبعونه، وطريق مستقيم يسلكونه. لهم قواعد يعودون إليها ومنهاج رباني يردون أمورهم إليه، وميزان عادل يَزنونَ به. وهذه كلها من أسس التخطيط الناجح والدراسة الواعية. إن أي أمة تحتكم إلى أهوائها وتصوراتها البشرية، يكون تخطيطها ركاماً من الشر والفساد، وجمعاً للزلل والأخطاء. وقد لا يظهر هذا الفساد والشر في فترة

قصيرة، وقد تطول السنون والقرون، حتى تحق كلمة الله، فيأتي بيوتهم من القواعد ، ويخر عليهم السقف من فوقهم.

والتخطيط لفظة لا نجدها في كتاب الله. ولكننا نجد ألفاظاً أخرى تحمل معها ظلال التخطيط كله، وقواعد التخطيط كلها، ومناهج التخطيط في حياة الفرد والأمة البشرية.

فحين جعل الله للإنسان هدفاً وغاية يسعى إليها بإرادة وتصميم، وحين رسم له النهج الكامل والطريق المستقيم لهذه الغاية،وحين جعل ذلك كله للفرد وللأمة وللبشرية: إرادة ونية، ونهجاً وطريقاً، وغاية وهدفاً، حين مَنّ الله على عباده بذلك. فقد يسر لهم قواعد التخطيط.

ولا نهدف في هذا البحث إلى أن نبين تفاصيل النظرة التخطيطية المؤمنة،ولكننا نكتفي من أجل ذلك بالإشارة لنبين أن التخطيط من الإسلام ومن منهاج الله، وأنه وسيلة من وسائل الحماية من الخطأ، والمعالجة عند وقوعه والنجاة من آثاره.

فالذي ينطلق في عمله على نية مؤمنة واعية كما سبق أن تحدثنا عن النية والذي يسعى، وطريقه بيِّن مدروس، وهدفه واضح قوي، مثل هذا المؤمن يقل زللهُ بمقدار ما تفرضه الطبيعة البشرية والضعف البشري.

وإن كان التخطيط قد أصبح علماً رئيسياً في حياة الشعوب المتقدمة «مادياً» اليوم، وإن كان التخطيط غائباً عن حياة كثيرين من الأمة المسلمة، فما ذاك إلا لأن تلك الشعوب أدركت أهمية التخطيط في طبيعة هذه الحياة، وغفل المسلمون عنه، وهو بين أيديهم، وفي قرآنهم وسنة نبيهم، ولكن الغفوة أماتت الهمة، وضيعت الجهود، وأعمت البصائر والقلوب.

والتخطيط لدى غير المسلمين محصور في نطاق العلم والأبحاث من ناحية،

وفي نطاق استغلال ذلك لنشر الفساد في الأرض، ونهب الخيرات والثروات، وقتل النفوس والقلوب والأجساد، والاغتصاب والظلم والعدوان، تحت شعارات متعددة من حضارة وقانون وإنسانية، جفت كلها جفاف العود اليابس، حتى أصبح على وشك الكسر والتحطيم، فهو بذلك تخطيط يجمع فساداً ويلم شراً، على ركام الخطيئة والجريمة.

ولكن التخطيط ا لإيماني يحمل الخير ليحميه ويدفعه ويغذيه، إنه يحمل الإنسانية بكل طاقات الخير، ونوازع الأمانة، وبركة التقوى، لتخفف عن الإنسان ويلات الخطأ فرداً أو أمة .

ذلك أن تخطيط المؤمنين نابع عن الإيمان، مرتبط به، خاضع للتوحيد، موصول به. وتخطيط الكافرين مقطوع عن ذلك كله، وهي نقطة الضعف القاتلة فيه. إن الإيمان بالله سبحانه وتعالى، مع كل آفاقه ومعانيه وامتداده، مع كل ميادينه وممارساته، مع ميزانه العادل الحق، إن هذا الإيمان وهذا التوحيد هو أساس النهج الإيماني. يدرك المؤمن وهو ينهج ويخطط ويتدبر أن الأمر كله لله، إليه يرجع الأمر كله. يدرك المؤمن ذلك وهو يضع طاقته ووسعه، وفكره وعمله، وجهده وسعيه، في طاعة لله واستسلام له، وإنابة وتوكل عليه، ورضى وخير. يمضي على ذلك قوياً وهو يؤمن أنه يبذل الجهد والسعي استجابة لأمر الله، عبادة وطاعة، وأنه يبذل ويسعى، والله معه يهديه وينصره. وقضاء الله نافذ، والله غالب على أمره. فجهده ونهجه ليس مفلوتاً، تائهاً، مبتور الصلة عن أمر الله.

فالنهج الإيماني ليس جهداً بشرياً فحسب، ولكنه جهد بشري نابع عن إيمان وتوحيد، مرتبط بمنهاج رباني، يصدر عنه ويرد الأمور إليه وهو جهد بشري يهديه الله، ويحميه الله حماية ورعاية، وهداية ونوراً، وهو كذلك نهج لا يتعارض مع سنن الله في الكون ولكنه خاضع لها، متفهم لها، فالله وحده هو الذي يقدر الأمور. نهج يستفيد من سنن الله في الكون، وهو يتعامل معها، خاضعاً لقدر الله وقضائه.

وإننا لنلمس طبيعة النهج والتخطيط في دين الله، ونحن نتابع مسيرة الدعوة منذ انطلاقتها في مكة المكرمة، والوحي الكريم يتنزل ليرعى دعوة الله ويحنو عليها بين جهد صابر، وعطاء سخي، ومواهب متفتحة. حين نتابع مسيرة الدعوة، نجدها تمر برحمة الله من مرحلة إلى مرحلة، حتى بلغت النجاح ومَنَّ الله عليها بالنصر. ومن خلال هذه المرحلة نشعر كأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا النهج والتخطيط الإيماني.

والله قادر على أن ينصر دينه بلحظات لو شاء. ولكنه كان درساً عظيماً، بل دروساً عظيمة، والنبوة تمضي في دعوة الله خاضعة لقدر الله وقضائه، على صبر وإنابة وحسن توكل. لم تتغير سنن الله في الكون، بل ظلت ماضية كما أرادها الله، لا تعطلها نبوة ولا وحي. وظلت معها الجهود البشرية المؤمنة تدرس وتتدبر، وتعي وتفكر، وترسم وتنهج، وتبذل وتجود، واليقين يعمر قلوبها، والسبيل جلي، والغاية بينة.

من هذه المراحل التي مرت بها دعوة الله نتعلم دروساً، ومن أهم هذه الدروس طبيعة التخطيط الإيماني، ليحمي من الزلل ويرد مكر الماكرين.

وفي هجرة الرسول ﷺ نجد التخطيط الفذ والنهج العبقري، نجد ذلك كله وقد استوعب الطاقة البشرية والجهد البشري حتى لم يكن من أمر يمكن أن تتصور أخذه بعين الاعتبار، إلا وقد أخذ واعتبر. الكتمان النظيف والحرص الطاهر، وتحديد الأماكن والأزمان، وجمع الطاقة البشرية اللازمة وتدريبها وإعدادها، والاستفادة من كل سنّة من سنن الله في الواقع البشري الذي يحيط بهم، والاستفادة من العلاقات والوشائج استفادة أمينة لا غدر معها، صادقة لا غش فيها، وافية لا نقض لعهد يدخلها. وهكذا تستطيع أن تعدد الشيء الكثير حتى تجد النهج والتخطيط.

والنهج والتخطيط يحتاج إلي مواهب. ويحتاج أن تأخذ كل موهبة قدرها وحجمها ومكانها، وأن ترتبط هذه المواهب ارتباط عقيدة وإيمان، حتى تنصب

الجهود كلها في مجرى واحد لا تتبعثر، ولا تتشتت ولا تتمزق.

وإنا لنلمس هذه الظاهرة حية في حياة الأمة المؤمنة في صحبة النبوة، نابضة بالقوة واليقين والوضوح. ولقد رأينا أمثلة في السيرة، وفي حياة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، في مختلف مجالات الحياة وأنشطة الأمة. وكان من أثر هذا التخطيط الإيماني، أن استطاعت الأمة المؤمنة أن تنتقل تلك النقلة الرائعة، نقلة لا يعرف لها التاريخ مثيلا، استطاعت بها أن تمتد في ربع قرن امتداداً مباركاً عظيماً، في شتى أنحاء الأرض.

وإنا لنجد التخطيط، ونحن ندرس تاريخ تلك الحقبة، فذّاً في كل مجال : في الإدارة، في السياسة، في الشؤون العسكرية، في السياسة المالية.. بمثل هذا التخطيط والنهج تتجنب الأمة أخطاء عديدة، ومزالق قاتلة، وفتناً مظلمة.

وهذه القدرة على التخطيط تحتاج إلى إعداد وتدريب في مدرسة الإسلام. وهي من خصائص هذه المدرسة وميزاتها الظاهرة. يتدرب الفرد المؤمن وتتدرب الجماعة والعصبة، وتتدرب الأمة على ممارسة التخطيط، حتى يصبح سمة ظاهرة، وقوة عاملة، وممارسة حية.

٦ - الشورى :

والشورى تجمع هذه الخصائص السابقة كلها، وتجمع الطاقات والمواهب،على حبل متين، ورباط قوي، لتتفاعل كلها في عبودية لله رب العالمين.

هذه الشورى تحمي الفرد والأمة من الزلل، تقدم من الحماية ما تقدمه العناصر السابقة كلها، في جو إيماني حيث المشورة والنصيحة، والرأي والعون، والتخطيط والنهج. ولا داعي لأن نفيض هنا في أهمية الشورى في علاج الخطأ أو الحماية منه، وهي في حقيقتها جمع لكل ما سبق. لأنها مدار البحث كله.

٧ - الوقفة المؤمنة :

أحببنا أن نجعل لهذا الموضوع كلمه خاصة. وهو في الواقع شكل من أشكال المحاسبة التي تحدثنا عنها ، وباب من أبواب المراجعة والتدقيق، وأسلوب من أساليب التوجيه والتقويم. والوقفة المؤمنة لا نقصد بها تعطيل مسيرة، أو إيقاف ركب، أو إغلاق سبيل. إنها وقفة المؤمن ليحاسب نفسه بعد مسيرة، أو تقفها الأمة بعد ممارسة وتطبيق، إنها مراجعة نفس، ومراجعة عمل، ومراجعة تخطيط، وردُّ ذلك كله إلى المنهاج الرباني، لتصدق المراجعة، وتصدق المحاسبة.

هذه الوقفة المؤمنة والمراقبة الصادقة أهملها المسلمون في حياتهم اليوم. أهملها الأفراد والجماعات والأمة. وضاع نتيجة ذلك، زاد عظيم من الخبرة والتجربة، ضاع في زحمة الوهن المظلم، والتراخي التائه.

الوقفة المؤمنة تستجمع النية والإخلاص، والعقيدة والتوحيد، واليقين والإيمان، في جو من المراقبة الحانية والتوجيه المشرق على نهج رباني.

ولقد كان الرسول ﷺ يقف مع أصحابه وتلامذته هذه الوقفات المؤمنة، في مدرسة النبوة حين يلقاهم مع كل غروب أو فجر، في كل إبكار أو عشّي. كانت تتسم هذه الوقفات بأسلوب أو بآخر، مباشر أو غير مباشر، حتى ترى الأخطاء وتعالج الزلل، وتحمي الأمة. وقد تطول الوقفة أو تقصر، حتى كأن السُّنَّة كلها وقفات تعظ وتوجه، وتربي وتقوم، في ظلال الرحمة المهداة والنبوة المعلمة، وحتى كأن القرآن كان كذلك.

والوحي الذي يتنزل، كان يقف هذه الوقفات، ليعلم المؤمنين، ويعلم البشرية كلها صدق المحاسبة، وأمانة المراقبة، وعظمة الوقفة المؤمنة.

جاء ابن ام مكتوم، وهو أعمى، إلى الرسول ﷺ يسأله ويقول أرشدني يا رسول الله، وعند رسول الله رجل من عظماء المشركين. فأعرض الرسول ﷺ

عن ابن أم مكتوم، وأقبل على الآخر طامعاً في إيمانه.

مثل هذ الموقف يتكرر في حياة الناس. أو هو أقرب إلى المألوف، حيث ينال العظيم حفاوة واهتماماً، والضعيف، حسب مقاييس الناس، تولياً وإعراضاً. أما هنا فهو مجال عقيدة وإيمان، ودعوة وإرشاد من نبي مرسل إلى الناس أجمعين ليعدل بينهم. فينزل قوله سبحانه وتعالى:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ ﴾ [عبس: ١ - ١٢]

وقفة عظيمة جمعت أسباب العظمة في أنداء الوحي المنزل، والتوجيه الرباني: «كلا إنها تذكرة ...» وقفة تضع القواعد، وتقوم المسيرة، وتعالج النفوس، وتُحق الحق.

وفي غمرة الصراع مع قريش في مكة، بذل الكفار كل بذل ليحرفوا رسول الله ﷺ. عرضوا الملك والمال والنساء، والطب وكل ما صورت لهم أوهامهم، ثم كان التهديد والترهيب في أحناء المساومات. وفي هذه المواقف الصعبة القاسية، كانت رعاية الله حانية، ومراقبته موجهة، ورحمته مثبتة. ويصف لنا القرآن الكريم هذه المواقف وحياً يتنزل من السماء ليتلى إلى يوم القيامة.

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ

مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٨٢]

وهذه وقفة أبعد وأطول. يصف القرآن عمل قريش هنا في محاولتين: « **وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك ..** » والثانية: «**وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك ...**» وقد تكفل الله في المحاولتين بحماية رسوله ودعوته. وإن كان القرآن الكريم يبين لنا الطبيعة البشرية التي تحوطها رحمة الله فتثبتها على الحق «**ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً**». وبعد عرض هذه المحاولات وتحليلها، يضع منهاج الله الأسلوب الرباني في الحماية والمعالجة: «**أقم الصلاة ...**» فالعبادة من فرائض ونوافل، والدعاء الجامع للمسيرة كلها عند الخروج والدخول، واللجوء إلى الله لجوءاً يحمل كل أساليب منهاج الله ودروسه وقواعده، وطلب النصر من الله. ثم **العلاج العظيم**... هو **القرآن الكريم** ..... شفاء ورحمة للمؤمنين، وخسارة للظالمين. هو **القرآن الكريم** شفاء بتلاوته وحفظه، وتدبره وممارسته، شفاء في آياته ومعانيه، شفاء في منهاجه وقواعده وأحكامه، شفاء لكل خطأ أو خطيئة، وزلل أو مزلق.

ففي هذه الآيات جمعت كل أساليب المنهاج الرباني في معالجة الأخطاء، في وقفة إيمانية رائعة تشد البشرية كلها حتى يوم الدين بعظمة صدقها، ودقة تحليلها، وعظمة الدرس والشفاء والعلاج ... « **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً**» علاج يحمل إشراقة الفجر، وشهود الملائكة،وخير الدعاء، بركة

التقوى. علاج يدخل حنايا النفوس فيمسح ويداوي ويغسل ، حتى تطهر النفس وتبرأ. ولجوء إلى حمى الرحمن «وقل رب أدخلني مدخل صدق ... » لجوء الضارع إلى حمى آمن، لجوء الضعيف إلى القوة الحقة المالكة القادرة، لجوء العبد إلى ربه وخالقه.

وفي حديث الإفك ... في سورة النور وقفات مليئة بالخير، وغنية بالعطاء، لكل جيل ولكل عصر.

كلمة خرجت من أبي بكر على أن لا يعين مسطحاً بعد أن تورط مسطح في حديث الإفك. كلمة خرجت منه في صورة الغضب البشري، وعاطفة الأبوة، وقسوة الموقف المريع الهائل. كلمة يغفر أعظم منها لمن هو أقل شأناً من أبي بكر رضي الله عنه. ولكن الموقف هنا يختلف، فسلوك أبي بكر رضي الله عنه غير سلوك الآخرين، هو الصديق ثاني اثنين ، مبشر بالجنة. فنزل قوله تعالى في وقفة رائعة تحمل حنان السماء ورحمة الله، ودقة التوجيه:

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾ [النور: ٢٢]

فقال أبو بكر رضي الله عنه : بلى أنا أحب أن يغفر الله لي . ورجع ينفق على مسطح. تقويم خطأ، وتصحيح موقف، وقاعدة للمؤمنين ودرس عظيم، وذلك كله مع وقفة حول كلمة.

ولقد استزلّ الشيطان في حديث الإفك جماعة من المؤمنين دارت ألسنتهم بما ليس لهم به علم، ودفعهم الظن الذي لا محل له إلى القول السيء، يحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم. فكانت سورة النور كلها وقفة قرآنية مع الخطأ تقومه وتصححه،مع التشريع تضعه وتقره، ومع المجتمع المؤمن، تستر عوراته، وتوجه خطواته، على نور من الله.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) ﴾ [النور: ١١، ١٢]

وتمضي الآيات تقويماً وتوجيهاً ، وحكماً وتشريعاً. وحسبنا هنا هاتان الآيتان والدرس الذي ورد فيهما : «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً .... » هذه هي القاعدة الأصلية بين المؤمنين. وقد أقرت هذه القاعدة العظيمة سورة الحجرات.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ... (١٢) ﴾ [الحجرات: ١٢]

ولقد سبق إيرادها في بحث سابق. هذه الطبيعة في الإنسان، هذا الميل إلى الظن، إذا لم يكبحه الإيمان، إذا انفلت بغير ضوابط، كان فتنة وظلماً وإفكاً. لقد امتد الظن حتى نالوا من رسول الله في زوجه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. لم تمنعهم قدسية النبوة، ولا علو منزلة زوجه عائشة، ولا البيت الذي نشأت فيه بيت أبي بكر. امتد الظن حتى كانت هذه الفتنة، ولكن الله جعلها برحمته خيراً. **«لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم»**.

لقد كانت الوقفة ، في سورة النور طويلة. وإن الأمر ليستحق هذه الوقفة الطويلة. وإن الظن الذي ينساب في طبع ابن آدم يحتاج إلى هذه الضوابط والحواجز.

وفي غزوة بدر. حين استشار رسول الله ﷺ في أمر الأسرى. ثم أخذ الفدية، فنزل قوله تعالى في ذلك :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا

وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ [الأنفال: ٦٧ – ٦٩]

لقد كان التوجيه قوياً عنيفاً: «تريدون عرض الدنيا ...» ولكنه مع عنفه جاءت لمسات الرحمة والمغفرة والعفو: «فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً .....».

وقفة مع كُلِّ خطوة خطاها النبي، وأمر دارت به الشورى، وإجراء قد نفذ وتم. ولكن الوقفة كانت ضرورية لتضع القواعد وترسم النَّهج، فمسيرة الدعوة طويلة، ممتدة حتى يوم القيامة.

وفي غزوة أحد، وبعدها، كانت الوقفة طويلة ممتدة. حللت الأحداث تحليلاً دقيقاً، ودخلت أغوار النفوس، وكشفت الضعف، هنا وهناك على جلاء ووضوح وحق ويقين. فلقد وقعت أخطاء في الجماعة المؤمنة، وانكشف الضعف. ولقد ظهرت بطولات رائعة، وبرزت مواقف للإيمان ثابتة. ولكن هذه البطولات وذلك الثبات مع كل ما فيه من عظمة وقوة، لم يشفع حتى تخفى الأخطاء أو تطوى العيوب. وإنما نزل القرآن الكريم يحلل ويوضح، ويراقب ويوجه، ويعظ ويقوِّم، حتى تمضيَ القافلة على نهج الإيمان، على صراط مستقيم. ومع لحظات الضعف، ومواقف الخطأ، كانت رحمة الله وكان عفوه ومغفرته. كانت الرحمة والعفو يحوطان المواقف كلها، وكانت الملائكة تجالد وتدافع، مددا ربانياً للمؤمنين. وهكذا نجد في الآيات الكريمة أنداء الرحمة والعفو، في ظلال العتاب والتوجيه، وكشف مواطن الضعف.

ولقد ظهر الضعف في بعض نواحي الصف المؤمن في اللحظات الأولى للمعركة.

﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]

والطائفتان هما بنو سلمة ونبو حارثة، وكانا جناحي العسكر. لقد همتا أن تجبنا وترجعا عن القتال لما رجع عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه. ولكن الله ثبتهما ولم ينصرفا. وكان ابتلاءً وتمحيصاً مع اللحظات الأولى. وظلت رحمة الله وآياته تتكشف وتدفع المؤمنين إلى الحق يمضي :

﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩ - ١٤١]

وكان الرسول ﷺ قد جعل ظهره وعسكره إلى أحد، وأجلس جيشاً من الرماة أمَّرَ عليهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه بسفح الجبل وقال لهم : انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا ولا تبرحوا غُلبنا أو نُصرنا. وبعد جولات في المعركة انكشف الكافرون وهزموا، فنزل الرماة من سفح أُحد يطلبون الغنيمة من ميدان المعركة، مخالفين أمر أميرهم عبد الله بن جبير وأمر رسول الله ﷺ . فعاد المشركون من تلك الجهة ونفذوا من ذلك الثغر مفاجئين المؤمنين فاستؤنف القتال، وكان ما كان من نهاية معركة أحد، خسر المؤمنون سبعين شهيداً بينهم سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه. وكانت مصيبة كما سماها القرآن :

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ١٦٥]

ويحلل القرآن الكريم في سورة آل عمران هذه المصيبة، ويردها إلى أسبابها

في وقفة عظيمة :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٢ - ١٥٥]

وتمضي الآيات الكريمة في تحليل وتوجيه، في تقويم وتصحيح، على حق وجلاء لا يُموّه بطلاء الدعاوة، ولا يغذى بالوهم، ولا يخفى وراء الهوى.

عددت الآيات، من خلال الأسلوب الرباني، مواطن الضعف، ومظاهر الخطأ وطبيعة الزلل، عرضتها من خلال عقيدة وإيمان، وردتها إلى منهاج وميزان، يندي ذلك كله رحمة ربانية، وعفو من الله، ولين النبوة الرحيمة، وقوة القيادة الحكيمة.

«حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ... ».

«إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ...».

«وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون .. ».

عددت الآيات هذا الضعف بأسلوب رباني يملأ النفس ثقة، ويدفع القلوب للتوبة والإنابة، ويشحذ العزيمة قوة ومضاء، قوة الإيمان ومضاء اليقين. مع تخذيل للكافرين، وتهوين من شأن المشركين. كل هذا والحقيقة تبقى حقيقة لا تموه، والصدق يقين بيِّن. إنه تحليل يرد الأمور إلى أسبابها الحقيقية:

«إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم»

لقد كان الدرس عظيماً، قاسياً، ولكن الصف المؤمن تعلم منه في أنداء الوحي والنبوة شيئاً كثيراً، فثبتت النفوس على دعوتها، ومضت إلى مهمتها في الأرض، راسخة متينة، محسنة منيبة:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [آل عمران: ١٧٢]

هذا نموذج من الوقفات المؤمنة مثل سائر الوقفات، تنقد وتكشف ولكنها لا تمزق صفاً، ولا تشتت قوة. إنها طبيعة الكلمة الصادقة في النفوس الصادقة، حين تخطئ النفوس ويكشف الخطأ، فتجتمع كل النفوس على كلمة سواء، ونهج لا يعطله كبر، ولا غرور.

وقبل ذلك، خاطب الله المؤمنين بعد وقعة بدر :

﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾
[الأنفال: ٦٦]

«**الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً..** » وضوح وجلاء لا تمويه وطلاء. رحمة وتخفيف، لا قسوة وتعنيف. تتمازج في ايات الله لتعلم البشرية كلها هذا النهج في القيادة والتوجيه والنصح والتقويم. لتظل الأجيال المؤمنة عليه، تتقصى أثره، وتحذو حذوه مثلا ونموذجاً.

وفي سورة التوبة وقفات أخرى. مع كل وقفة درس متجدد مع الأيام، ونهج ثابت للأنام، وقفة مع المنافقين تكشف دخائل نفوسهم، وحقيقة مكرهم، وأسلوب كيدهم في القول والعمل. وكانت الوقفة طويلة معهم ومع الذين تخلفوا في غزوة تبوك. كانت وقفة أبرزت النماذج البشرية من المؤمنين والمنافقين والكافرين في المدينة المنورة والأعراب حول المدينة، وبينت الفئات والخصائص، والمواقف.

نأخذ من هذه الوقفة الطويلة نموذجاً واحداً، يعالج موقف النبي ﷺ حين أذن للمنافقين بالتخلف :

﴿ **عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾** ﴾ [التوبة: ٤٣ - ٤٥]

عتاب وعفو، ومراقبة وتوجيه : «**عفا الله عنك لم أذنت لهم**» يطمئن القلب ويتفتح، ليستقبل التوجيه الرباني الرحيم بكل عظمة الوضوح، وجلاء الحق. لا زيغ مع هوى ولا غلو الحاقدين. إنه من رب العالمين. وتوجيه ترد فيه الأمور إلى الميزان العادل، إلى منهاج الله الحق. فتقرر القواعد وتثبت الأسس : «**لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ...**» . إنه توجيه رباني يضع التجربة البشرية في ميزان الله، ويضع الممارسة في تقويم الرحمن، حتى تجتمع التجربة والممارسة في نمو واستقامة وتبقى الممارسة خبرة ومراناً، وعظة وبرهاناً.

ونكتفي بهذا القدر من الوقفات الإيمانية، وهي تعالج الخطأ في الممارسة، وحياً يتنزل من السماء، ليظل زاداً للعاملين في طريق الدعوة وساحات الإيمان. ولكن الذي يعيش مع منهاج الله يَجدُ نماذج أخرى كثيرة، وكل نموذج يقدم زاداً جديداً. ففي كل آية وقفة، ومع كلِ سورة وقفة، وقفات تبعث الصحوة في النفوس، وترفع الغفلة عن القلوب، وتزيح الوهم والظنون، وتمتص الخدر من العروق.

٨ - القيادة والسلطة والحدود:

وعلى أهمية هذا الموضوع وخطورته، فإننا نتعرض له من الجوانب التي تمس موضوعنا. الخطأ من طبيعة الإنسان، ولكن الخطأ قد يشتد فيتحول إلى ظلم واعتداء. فلا تنفع الكلمة، ولا تفيذ الموعظة، حين تهبط النفوس، ويغلب عليها الهوى، وتقتلها الشهوة.

في مثل هذه الحالة فإن هيبة السلطة وقوتها تردع كثيراً من الناس، وترد الآثمين أو بعضهم.

فإذا لم يرتدع الخاطئ من هيبة السلطان، فإن في القصاص حياة وتقويماً.

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

[البقرة: ١٧٩]

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يدع القصاص متروكاً للأهواء. فحد حدوداً للكبائر، وجعل للأمة المسلمة سلطة وقيادة يكون من بين مسئولياتها إقامة الحدود، وفرض القصاص. ولقد عبر الإسلام عن هذه القيادة بأولي الأمر وبالإمارة. وجعل البيعة علي السمع والطاعة، وأوجب التناصح بين المؤمنين على نحو ما هو مفصل في أبوابه الخاصة في هذا البحث.

إن هذه الخصائص مجتمعة تعطي كلها الفرد المؤمن والأمة المؤمنة فرصة عظيمة للنجاة من مزالق الخطأ، وقدرة وافية لمعالجته.

فالقيادة الواعية المؤمنة، القيادة التي تتمتع بالخصائص التي سبق عرضها، هي التي تستطيع أن توفر على الأمة، أفراداً وجماعات، أخطاء كثيرة. تستطيع ذلك بخصائصها الذاتية ومواهبها وقدراتها، حين تكون هذه الخصائص والمواهب والقدرات تنطلق من إيمان ثابت وعلى نهج بيِّن، متمسكة بمنهاج الله تمسكاً قائماً على العلم والممارسة، مزودة بالتجربة والمران، غنية بالناصحين الصادقين، تدور بينها الشورى الصادقة، فتثمر بالخطة الناجحة، والتدبير المتمكن، والسلطة النافذة، والإجراء العادل.

هذه هي الأمة العظيمة وهذه هي خصائصها. أمة ملتزمة بمنهاج الله إيماناً وعقيدة، وعلماً وتطبيقاً. نشأت عليه وتدربت على ممارسته في الواقع البشري.

أمة لها قيادتها، لها أولو أمرها، يتمتعون بخصائص القيادة المؤمنة، والمواهب القادرة المعطية.

أمة تلتقي كلها ، أفراداً وقيادة، على نهج واحد لتكون صفاً مرصوصاً لا يستطيع المفسدون والمنافقون والكافرون أن ينفذوا إلى داخلها تفريقاً وتمزيقاً.

أمة تنمو فيها كل المواهب والقدرات المؤمنة، نمواً إيمانياً مباركاً.

أمة هذه خصائصها، تستطيع أن توفر على نفسها كثيراً من الأخطاء، كثيراً من الجهود الضائعة، كثيراً من الأوقات.

٩ - موجز :

هذه ملامح من أسلوب الإسلام في معالجة الخطأ أو دفعه أو الحماية منه. ونحب أن نعيد فنوجز النقاط ا لسابقة:

١ - التصور الإيماني بكل مقوماته وآفاقه.

٢ - التربية الإيمانية والتدريب على أساس منهاج الله والممارسة:

- المحاسبة والمراقبة.
- التوبة والاستغفار.
- الدعاء.
- الذكر.
- العبادة.
- الخلق.
- التسليم للقضاء دون عجز أو كسل.
- التدبر والنظر والاعتبار.
- سائر الصفات الإيمانية.

٣ - الأمة المؤمنة.

٤ - النهج والتخطيط.

٥ - الشورى.

٦ - الوقفة المؤمنة.

٧ - القيادة والسلطة والحدود.

حين تعمل هذه العناصر كلها، مترابطة متناسقة متوازنة، في حياة الفرد المؤمن أو الأمة، فإنها توفر أسباب الحماية والعلاج. إنها تجعل الخطأ في حد ذاته مدرسة تعلم المؤمن والأمة المؤمنة دروساً لا تنقطع، وتزود المؤمنين بزاد غنّي وعطاء سخيّ إنها تمضي لتحقق لوناً من ألوان الابتلاء والتمحيص.

إنها تغذي الممارسة الإيمانية بكل أسباب الامتداد، حتى لا يقتل الخطأ النفوس، أو يثبط العزائم، أو يثير الخلاف والفرقة.

إنها تعلم المؤمن كيف يعرف خطأه فيرجع عنه، لا يدفعه غرور ولا يزيغ به كبر في متاهات العناد والإصرار على باطل أبداً.

إنها بذلك كله توفر الجهود حتى لا تضيع، والوقت حتى لا يتبعثر. إنها تجعل الجهد مثمراً، والوقت غنياً. إنها تمد الزمن بالعطاء والخير حتى يشعر المؤمن بمعنى الزمن، ويصبح للوقت معنى خاص في حياة المؤمن، معنى يستمده من ترابط منهاج الله، وتناسق التصور الإيماني، والعلم وسنن الله، وروعة الممارسة في عبودية خاشعة، وإنابة ضارعة.

إنها مدرسة لا تجعل الخطأ ركاماً فوق ركام، يحجب الرؤية وينشر الظلام، في أمواج متلاحقة، لا يبصر الناس فيها حقاً، ولا يسمعون رأياً.

إن الخطأ إذا تجمع وتكاثر اعتاده الناس وقبلوه، ورأوه صواباً حقاً. إنه يجري في العروق خدراً، ويلقي على العيون غشاوة، ويطبع على الأذن سداً. فإذا الرؤية معكوسة، والسمع ضجيج مختلط.

وتظل قاعدة الموازنة هنا قائمة. حتى لا يتحول إصلاح الخطأ إلى تتبع عورات، وإشاعة فاحشة، ورواج غيبة ونميمة، ونشر فضائح، وإيذاء أعراض. إن إصلاح الخطأ هدف إيماني فيظل مسلكه إيمانياً، ووسائله إيمانية، على موازنة عادلة، وتقدير أمين.

وبهذا الأسلوب الرباني، الذي نجد تفاصيله في منهاج الله، تظل الشورى قوية أمينة، لا يقتلها الخطأ، ولا يميتها الاختلاف فإذا هي تزداد قوة وبركة، وثمرة وعطاء.

ونحب أن نؤكد أن العرض الحقيقيّ لهذا الأسلوب لا نجده هنا أو هناك، فما

هذه إلا قبسات. إنما نجده في منهاج الله قرآناً وسنة بكل تفاصيله وأجزائه. وإنها هنا قبسات وتذكير، وعون ومحاولة، وجهد بشريّ.



الباب السابع

سُورة الشورى

الفصل الأول

سُورة الشـورى

١ - تمهيـد :

لقد ذكرنا في الفصول السابقة أننا نعتقد أن أخذ التصور الإيماني للشورى لا يستكمل من أخذ جزء من آية. ولكن التصور يأخذ بالاتساع والامتداد حتى يقترب من التكامل والتناسق على قدر الجهد المبذول والسعة العاملة، حين يرتبط هذه الجزء من الآية بالآية كلها، وترتبط الآية بما حولها من آيات وأجواء، والآيات بالسورة كلها، والسورة بالمنهاج الرباني. وعلى قدر هذا الامتداد والاتساع بالأخذ، يمتد التصور ويتسع. وضربنا لذلك أمثلة ورأينا الفرق الكبير بين التصور الذي نأخذه من : «**وأمرهم شورى بينهم**»، والتصور الذي ترسمه الآيات كلها بتكاملها وترابطها وتناسقها.

وناحية أخرى عرضناها. وهي أن هذا التصور الإيماني المتسع المتكامل المتناسق للشورى، حين نأخذه من منهاج الله، لا يفرض علينا أن نقصر أخذنا وتدبرنا على الايات والأحاديث التي تحمل لفظة الشورى أو مشتقاتها بعينها. فهناك موضوعات متعددة، ونصوص كثيرة ترتبط بالشورى تصوراً ونهجاً وممارسة، دون أن تحمل اللفظة أو مشتقاتها. ولقد أوردنا نماذج من ذلك في أبحاثنا عن :

- النصيحة.
- الرأي.
- البيعة.
- طبيعة الإنسان وطاقته وخصائص التشابه والتمايز.
- سنة الاختلاف وطبيعته.
- الخطأ.

- الموازنة.

-الواقع البشري.

لقد أوردنا ذلك حتى نرى خطورة موضوع الشورى ومنزلته الإيمانيّة، ومنزلته في منهاج الله، من حيث ا لنظرية والممارسة. وكذلك حتى نرى هذا التكامل والتناسق المعجز في منهاج الله، وهو يربط القواعد والأسس لكل جوانب الحياة، لكل أوجه نشاطها، لكل طاقات الإنسان، مع عقيدة وإيمان، ونهج وبرهان.

ولقد كنا، حين نعرض بحثاً من هذه الأبحاث، ونورد الدليل والبينة من القرآن والسنة، نُحاول قدر جهدنا أن نبرز التناسق والتكامل الذي أشرنا إليه.

لقد برزت ظاهرة جديدة ونحن نورد الدليل والبينة من هذه السورة أو تلك، لهذا الموضوع أو ذاك. لقد ظهر لنا أننا كُنّا نورد مع كل موضوع دليلاً من سورة الشورى مع غيره من الدلائل من سوَر أخرى. فظهرت سورة الشورى وكأنها تجمع خصائص الشورى الإيمانية كلهاً، وسماتها كلها، وقواعدها كلها، سواء أحملت معها لفظة الشورى أم لم تحملها. ومن هنا، من هذه النظرة وجب أن نعيش مع سورة الشورى لنرى كيف تجمع خصائص الشورى وسماتها، وخصائص رجالها وسماتهم.

من هذه السورة الكريمة نلمس أن الشورى ليست أمراً محصوراً في الحكم والدولة والسياسة. فالسورة مكية تبحث نواحي من العقيدة والإيمان، وتربط كل موضوعاتها ربطاً عقائدياً إيمانياً متناسقاً، قبل أن تبدأ هجرة الرسول ﷺ ، وقبل أن تقوم الدولة ولكن الذي كان قائماً حقاً هو الدعوة التي تعمل، والتخطيط الذي يمضي، والإعداد الذي يبني. كل ذلك كان قائماً في جو من العقيدة مشرق، ومن الصبر مندى، ومن الثبات على العزيمة. فطرح هذا الموضوع الخطير في هذه المرحلة من مراحل الدعوة في هذه السورة، لتحمل اسم سورة الشورى، وتنص في آياتها على لفظة الشورى ، كل هذا يقدم الإيحاءات القوية على أهمية الشورى في حياة المؤمن والأمة، في كل مرحلة، وفي كل جو، ومع كل حدث تحتاجه الشورى.

هذا الشمول للشورى تكشفه لنا سورة الشورى، وهي سورة مكية، لتربط في أذهان المؤمنين الذين يُرَبَّون، والجنود الذين يُعَدُّون، أن الشورى ملازمة للدعوة، سمة بارزة للعمل، ماضية نامية مع مضيّ العمل ونموه. وتبين كذلك أن على المؤمنين ممارستها، وصياغتها، وتنميتها، على ضوء المرحلة والواقع الذي تعيشه الدعوة، ولكن لا يتخلّى عنها، ولا تُهجَرُ ولا تسقط من حياة المؤمنين أبداً، مع كل ظرف، وكل أرض، وكل جماعة، وكل جيل، وكل مرحلة.

وسور القرآن كلها تعرض العقيدة. إنها تعرضها في كثير من الأحيان، من خلال قضية، أو تعرض القضية من خلال العقيدة والإيمان. وفي هذه السورة الكريمة نرى أن الشورى الإيمانية وخصائصها وأسسها وقواعدها هي محور السورة وموضوعها من خلال عقيدة وإيمان.

تبتديء السورة بالحديث عن الوحي المنزل من عند الله، الوحي المنزل عبر التاريخ البشريّ، لتقرر السورة الكريمة أن الوحي كله من عند الله، وأن أصله واحد، وأنها رسالة سماوية واحدة، تقوم عليها كل قضايا الإنسان في كافة العصور والأجيال. وتعرض صوراً من العقيدة الجامعة، وصوراً من سنن الله المرتبطة مع العقيدة، وصوراً من آيات الله البينات. حتى يستقر في القلب، أن كل قضايا الإنسان على مر العصور يجب ردها إلى منهاج الله، إلى رسالة السماء التي ختمت بما أنزل على محمد رسول الله ﷺ . فكل القضايا، ومنها الشورى، تقوم على هذا المنهاج الرباني الممتد في أغوار التاريخ البشري مع الأنبياء والرسل، والممتد في مستقبل البشرية كلها حتى تقوم الساعة. ولذلك ختمت السورة بالموضوع نفسه، موضوع الوحي، لتجمع الماضي والحاضر والمستقبل في منهاج ربانّي واحد، حق كامل، لا يأتيه الباطل أبداً. ولنعش مع بعض هذه الآيات نأخذ نماذج وصوراً :

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٤﴾

تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ١ - ٧]

وتعرض السورة صوراً من آيات الله البينات في الكون، عرض عقيدة وإيمان وتناسق، كما ذكرنا في الفقرة السابقة:

﴿.... فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٩]

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٩ - ١٢]

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٨-٢٩]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾

[الشورى: ٣٢ - ٣٤]

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩ - ٥٠]

وتعرض السورة الكريمة هذه الآيات البينات في مواضع مختلفة من السورة، مرتبطة مع ما قبلها وما بعدها، ترابط تناسق وتكامل. فهي لا تأتي قائمة متتالية معزولة عن قضايا السورة وموضوعاتها، ولكن متناسقة معها. وإنما عرضناها نحن هنا، على هذا النحو، لتبرز موضوعات وقضايا تتكامل فيما بينها في السورة الكريمة، بالأسلوب الرباني المعجز، وهذه الآيات البينات تمتد من السماء إلى الأرض، تعرض قدرة الله، وسلطانه الممتد. تعرض الموت والحياة، والبعث والنشور، والتوبة والمغفرة.

وتعود السورة إلى الوحي في ختامها لتؤكد الأصل الواحد، والحق البين، وأنواع الوحي، والنور والكتاب، والهدى إلى صراط مستقيم، ومع إقامة البرهان القاطع الفاصل أنه من عند الله رب العالمين: «**ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان....**».

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥١ - ٥٣]

تختم السورة بهذه الآيات عن الوحي وأنواعه، كما بدأت السورة بالوحي، لتقرر أنه من عند الله، حق، نور، هدى إلى صراط مستقيم. ثم تربط قضية الوحي كله بالعقيدة، بالإيمان، بالتوحيد، بالله، بصراطه:

﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]

بهذا العرض الربانّي تستقر العقيدة، ويثبت الإيمان، وتتجه القلوب المؤمنة المطمئنة إلى منهاج الله لترد قضاياها إليه، وليقوم نشاطها كله عليه في ممارسة إيمانية صادقة. والشورى تقوم على هذا الأساس أولاً، أساس العقيدة والإيمان.

٢ - أسس الشورى وقضاياها في السورة :

ثم تعرض قضايا الشورى وتربطها كلها بالوحي، بمنهاج الله، بالإيمان. فالاختلاف الذي عرضناه مفصلاً في أبواب سابقة، تعرضه السورة الكريمة عرضاً ربانياً جامعاً:

أ - الاختلاف :

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٣-١٤]

وكذلك ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠]

وكذلك ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢١ - ٢٢]

وحتى قضية الاختلاف تربطها الآيات بالعقيدة والإيمان، بالجزاء، بالثواب والعقاب، كما رأينا في الآيات السابقة. وتمضي الآيات الكريمة لتعدد نماذج من أهم أسباب الاختلاف.

«بغياً بينهم ..».

«ولا تتبع أهواءهم ...».

«والذين يحاجون ...».

ومن أهم الأسباب هو الرزق والسعي إلى المال، فتعرض السورة حكمة الله وقضاءه في أكثر من موضع :

﴿ ... يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢]

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩]

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]

فعالجت بذلك الطبيعة البشرية حتى تسعى سعياً مطمئناً إلى الرزق متوكلة على الله، تعلم أن الرزق بيد الله وحده، يبسط ويقدر وفق حكمة غالبة وعدالة ربانية. إنه لطيف بعباده.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾
[الشورى: ٢٢]

وتربط السورة قضية الاختلاف في حياة الإنسان ربطاً محكماً بالعقيدة، كما رأينا في الآيات السابقة، تربطها بالإيمان بالجزاء، بالثواب والعقاب، بالدار الآخرة. إنها تربطه كذلك بالمنهاج الرباني ليكون النهج الوحيد لحل كل خلاف :

«**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله**». حكمه إلى الله في منهاجه المنزل في الحياة الدنيا، وبقضائه، وقدره، وأحكامه الماضية الغالبة. وحكمه إلى الله في الدار الآخرة جنة أو ناراً.

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ [الشورى: ٨]

وتعدد السورة الكريمة بعض أسباب الاختلاف، تعرضها بالقدر المناسب لتلك المرحلة من الدعوة. وفي مرحلة أخرى تُعَرضُ في سور أخرى عرضاً أوسع ليناسب المرحلة الجديدة.

وإذاكان من بين أسباب الاختلاف حب الإنسان للمال، وسعيه في تحصيله سعياً لاهثاً مضطرباً، فإن الآيات الكريمة في سورة الشورى تضع القاعدة الحقة، والطمأنينة الثابتة:

﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الشورى: ٣٦]

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ [الشورى: ١٩]

وإن كانت هذه الآيات الكريمة تعرض مع ما تعرضه جانباً من طبيعة الإنسان، فإن آيات أخرى تعرض جانباً آخر. ويظل هذا العرض لطبيعة الإنسان مناسباً لمرحلة الدعوة.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى: ٤٨]

ولقد سبق أن فصّلنا في طبيعة الإنسان في فصلين سابقين، وأخذنا قبسات من معظم سور القرآن الكريم. وبذلك نستطيع أن ندرك الآن كيف أن الصورة

الواحدة أو القضية الواحدة، كانت تنمو وتستكمل في منهاج الله، مع نمو الدعوة واتساع ميدانها، نمواً يمتد حتى تتكامل القضية أو الصورة من كل جوانبها ومع تناسقها. فهنا تعرض الآية الكريمة فرحة الإنسان بالنعمة، وأما عند المصيبة فيغلبه الأسى، حتى يدفع الأسى من لم يعصمه إيمانه، إلى الكفر بنعم الله الواسعة عليه.

وطبيعة الإنسان باب من أبواب الاختلاف، ونواحي الضعف فيها منفذ للشيطان، إلا من عصم الله واعتصم بإيمانه.

ففي هذه الآية الكريمة في سورة الشورى عرض لبعض أنماط الاختلاف، وعرض لبعض أسبابه ومنافذه، وعرض لبعض أساليب العلاج والتقويم. ولقد فصلنا ذلك كله في فصول سابقة، ورأينا مدى أثر الاختلاف في الشورى، وأثر الشورى في الاختلاف، وعلاقة ذلك كله بالخطأ والصواب.

ب - الخطأ والصواب :

والخطأ كما عرضنا سابقاً موضوع مرتبط بالشورى. فالإنسان بين خطأ وصواب. وكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون. وترتبط التوبة والإنابة والاستغفار بالخطأ. والخطأ درجات. وتعرض لنا السورة الكريمة نماذج من ذلك كله:

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [الشورى: ٢٥، ٢٦]

﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠، ٣١]

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٠، ٤٦]

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ......﴾ [الشورى: ٣٧]

﴿... وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤]

فتعرض هذه الآيات الكريمة نماذج من الخطأ. خطأ يعفو عنه الله : «**ويعفو عن كثير ...**» وخطأ يردي ويهلك : «**إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ..**» وخطأ يحمل المصيبة في الدنيا: «**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ..**». وخطأ أهل الكتاب وهو انحراف وشك: «**وجزاء سيئة سيئة مثلها**». وأسلوب آخر يَسْمُو به المؤمنون: «**فمن عفا وأصلح ...**» وعلى كل حال، فما أحد بمعجز في الأرض: «**وما أنتم بمعجزين..**». ومن العلاج التوبة الصادقة، والاستجابة لله، والإيمان، والعمل الصالح. فمع كل آية درس وعلاج، وعظة وإصلاح.

جـ - النصيحة :

وتأتي النصيحة من أوسع أبوابها وأعظمها. تأتي من باب الدعوة. تأتي محوطة بكل العناصر الأخرى الضرورية لها، قائمة على كل أسسها. ويأتي الرأي بقواعده وأسسه، وحدوده ونهجه، حتى ينضبط ولا يتفلت، ويستقيم ولا ينحرف.

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ٣٧]

«**فلذلك فادع**». فهي دعوة ونصيحة تحمل شروطها الإيمانية من استقامة وعدم اتباع أهوائهم. وتحمل الكلمة الصادقة الطاهرة، الطيبة الأمينة: «**وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ...**» جمعت كل خصائص الرأي والكلمة الطيبة، من إيمان وصدق نية: «**آمنت ..**» وعلم: «**بما أنزل الله من كتاب ...**» وعدل: «**وأمرت لأعدل بينكم**». وكذلك تقييم للكلمة والعمل، حتى يكون العمل امتحاناً وابتلاء وحجة لصاحبه أو عليه على مقدار ما يطابق العمل والكلمة والرأي. ولذلك لا تعود هنالك حجة أخرى، فالله سبحانه وتعالى يعلم حقيقة الكلمة وحقيقة العمل والنية، وهو الذي يفصل في ذلك كله، فإليه المصير.

أيّ نصح أعظم من هذا النصح، وأيّ كلمة أصدق من هذه الكلمة. نصح يستوفي شروطه، وكلمة تنطلق من إيمان ونية ونهج. ويتكرر الرأي ونهجه والنصيحة وأسسها، في سورة الشورى بأساليب أخرى. ولكنها كلها تأتي ملبية لحاجة المرحلة التي تمر بها الدعوة. فهذا هو النصح التي تتطلبه تلك المرحلة، وهذه هي الكلمة الضرورية لها. ثم أخذت قواعد النصح والرأي والكلمة تستكمل صورتها النامية مع نمو الدعوة، وتتابع الأحداث، ونزل الوحي الكريم. وتظل النصيحة وتمضي الكلمة في نموها محافظة على خصائصها الإيمانية، وتظل تدخل أغوار النفس البشرية من هنا وهناك، مع ترغيب أو ترهيب، مع حجة وبيان، أو رأي وإقناع. مع آية وقوة وسلطان.

د - السمع والطاعة والبيعة :

قد مرت كلها في الفصول السابقة. ولكنها تأتي في سورة الشورى، وهي سورة مكية، بالقدر اللازم، والأسلوب المناسب، واللفظ الموحي. إنها لا تأتي هنا لتعرض السمع والطاعة في ميدان الحكم والدولة، ولا في ميدان الحرب والقتال.

إنهـا مرحلة خاصـة تحتـاج إلى غـزو القلوب، وفـتح النفـوس، وإنارة ظلمـات الإنسان. إنها تأتي هنا لتحدد القواعد الرئيسة للسمع والطاعة وللبيعة، لتحدد الخصائص الإيمانية مع الألفاظ الموحية: «**استجيبوا لربكم ...**» فهذه الاستجابة لله هي أساس السـمع والطاعة والبيـعة، هي أساس الأخوة في الله، وهي أساس الشورى.

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى: ٤٧، ٤٨]

نجد في هذه الآيات الكريمة تصويراً رائعاً متحركاً، حياً موحياً، لأجواء تلك المرحلة من الدعـوة. والنداء الرباني لم يخـاطب النفـوس هنا بـ: «**اسـمعـوا واطيعوا.**». وإنما خاطبهم بهذه اللفظة الجامعة العظيمة الممتدة: «**استجيبوا ...**» ولمن؟ استجيبوا لربكم .. قبل فوات الفرصة، فهذه الحياة الدنيا قصيرة، وهي متاع. فتربط هذه الإيحاءات كلها، وهي مشرقة، جميع ما ورد في السور السابقة في النزول، وفي سورة الشورى نفسها، لتفتح القلوب بالنور، وتغسلها بالطهر، وتربطها بالله رب العالمين، عبودية له، وسمعاً له، وطاعة له، واستجابة. ويتكرر هذا التعبير في السورة الكريمة مرات:

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ... ﴾ [الشورى: ٣٨]

﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [الشورى: ٢٦]

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [الشورى: ١٦]

فلفظة «الاستجابة لله» لفظة متكررة في سورة الشورى تكراراً يؤكد المعنى والإيحاء، ويمد الظلال والأفياء، حتى كأنها موضوع من الموضوعات، وأساس من الأسس، وقاعدة من القواعد، تترابط وتتناسق مع غيرها من الموضوعات والأسس والقواعد على النحو القرآنّي المعجز، لتجمع كل خصائص الشورى، وقواعدها، وموضوعاتها، وسماتها، بالقدر اللازم لتلك المرحلة من دعوة ممتدة نامية، ودين محكم منزل من عند الله.

هـ- النهج والتخطيط :

ولقد تحدثنا عنه سابقاً وبيّنّا دوره في الشورى، وبينا أن أهم ما يميز نهج المؤمنين عن غيرهم، وأهم ما يميز تخطيطهم عن تخطيط غيرهم، هو تميز الأهداف ووضوحها، وتميز الأساليب ووضوحها، وتميز المنطلق ووضوحه. وذلك كله الأهداف والأساليب والمنطلق، ذلك كله يحمل خصائصه الإيمانية الكريمة، القوية الواعية، الطاهرة الذكية. فتأتي سورة الشورى لتعرض بين آياتها البينات تَمَيُّز الهدف ووضوحه، على نحو يضم الأساليب والمنطلق. وكان ضرورياً، أن يكون الهدف الأساسي، الهدف العام الشامل، واضحاً قوياً :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِه مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠]

هدفان متمايزان واضحان. ولكل هدف سبيل :

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً

﴿... نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢١، ٢٣]

وكل آية في سورة الشورى تؤكد الهدف والنهج والمنطلق. تؤكد السبيل والوسيلة والأسلوب: «**فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم**»، «**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ..**»، وآيات أخرى كثيرة.

و – الممارسة الإيمانية:

ولقد لمسنا كثيراً من خصائصها في سورة الشورى. لمسنا خصائصها ونحن نستعرض الاختلاف وأنماطه وأسبابه، والخطأ ونماذجه وعلاجه، والنصح والرأي والكلمة، والسمع والطاعة والاستجابة، والنهج والتخطيط.

وسمة أخرى من سمات الممارسة الإيمانية سبق أن أفردنا لها فصلاً خاصاً، ألا وهي الموازنة الأمينة.

ز – والموازنة أيضاً:

تعرضها سورة الشورى بأساليب متنوعة، لتدرب المؤمن على حسن الموازنة، وتضع له قواعدها وخصائصها، على ضوء تلك المرحلة والواقع في الدعوة النامية المنتصرة، والدين المنزل من عند الله لتكون الموازنة قاعدة من قواعد السلوك عامة والرأي والشورى.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٧، ١٩]

وضعت هذه السورة الكريمة أساس الموازنة الإيمانية: «**الله الذي أنزل الكتاب بالحق ...**» فهو الوحي من السماء يرسم النهج الرباني للبشرية كلها، لتفيء إليه،

وتزن أمورها كلها به . ولذلك جاء بعد ذلك : «**والميزان**» تأكيداً من ناحية، وإبرازاً من ناحية أخرى للموازنة في الممارسة والتطبيق، والجهد والعمل، والتكاليف والواجبات. فهذه هي الخصائص الإيمانية للموازنة كلها، الخصائص الرئيسية: الإيمان بالله، الكتاب الحق، الميزان . ومع هذه الأسس تظل التذكرة بيوم الحق، يوم الحساب، فهو جزء من الإيمان، وجزء من الكتاب الحق، وجزء من الميزان. إنه الهدف الأسمى والغاية العظمى من كل موازنة ومن كل ممارسة : «**وما يدريك لعل الساعة قريب ...**».

ومع هذه الخصائص تعرض السورة نموذجين للموازنة: نموذج مضطرب لاضطراب الإيمان والميزان : «**يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ...**» ، يستعجلون بها وهم لا يؤمنون فلا يشعرون بخطورة الساعة، وشدة الحساب وهول البعث. موازنة خاطئة في ميزان خاطيء.

ونموذج آخر : «**والذين آمنوا مشفقون منها ...**» . وتحمل لفظة : «**مشفقون منها**»، أدق تعابير الموازنة، وأصدق تصوير للطبيعة البشرية المؤمنة، الطبيعة المؤمنة التي تبني موازنتها عن علم ويقين وإيمان : «**ويعلمون أنها الحق ...**». فهم مشفقون ، لا يستعجلون بها جاهلين، ولا يدبرون منكرين. إنهم يعلمون أنها الحق، وأنها الساعة مع هول البعث وشدة الحساب . إنهم مشفقون منها . إنهم بين رهبة من الهول والعذاب، ورغبة في نعيم الجنة. بين خوف من عذاب وطمع في رحمة. إنه الغيب الذي يؤمنون به ويعلمون أنه من علم الله وحده، لا شريك له، فكان الإشفاق وكانت لفظة : «**مشفقون**» تحمل كل ظلال هذه الموازنة الصادقة الأمينة، حين صدق العلم والإيمان بالكتاب الحق، حين اعتدل الميزان واستقام.

وتعرض السورة نموذجاً آخر للموازنة. نموذجاً من الممارسة الإيمانية في واقع الحياة البشرية:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤٠، ٤٢]

ولقد مرت معنا هذه الآيات في الصفحات السابقة. ونقدّمها هنا لتعرض لنا جانباً آخر: ألا وهو الموازنة في الممارسة الإيمانية في الواقع البشريّ. يأتي هذا التوجيه الرباني في هذه المرحلة من الدعوة، والجيل المؤمن ينشأ ويتربى ويُعَدُّ في وسط التعذيب والعنف والعنت والإساءة: «**وجزاء سيئة سيئة مثلها ...**». فهذا هو الأصل، ولا حرج في رد الإساءة بمثلها ولا ظلم ولا إثم. ولكن هنالك صورة أخرى للممارسة: «**فمن عفا وأصلح ...**». إنه ليس مجرد العفو مع الاستكانة والذل والفساد. إنه عفو مصحوب بالإصلاح بالعمل الدائب، والحركة المستمرة، والدعوة النشطة، والاستجابة الصادقة لله. إنه الإصلاح في كل ميدان وساحة. إنها دعوة في الأرض تمضي، ويمضي جنودها عاملين متحركين نشطين مصلحين، لا لاهين أو غافلين، ولا أذلاء مستكينين، ولا جهلاء مفسدين. وعلى المؤمن العامل أن يوازن على أساس المنهاج الرباني والواقع الذي يمر به، ليرى أي النهجين يسلك: سيئة بسيئة، أم عفو وإصلاح، وتمضي هذه القواعد الربانية مع الدعوة في كل مراحلها، في حياة الفرد المؤمن أو الأمة المؤمنة، لتظل الموازنة قائمة، وفهم منهاج الله ماضياً، ووعي الواقع مستمراً.

وتؤكد الآية تثبيت قلوب المؤمنين، وإشاعة الطمأنينة في نفوسهم حتى لا تضطرب الصورة الإيمانية، ولا تختل الممارسة الإيمانية، ولا تفسد الموازنة الإيمانية: بين معاني الصبر والعفو واللين والسماحة، بين معاني القوة والعزة ورد الإساءة:

﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى

الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
[الشورى: ٤١، ٤٢]

ما أعظم هذه الموازنة العادلة في تعبير قرآني معجز في كل نواحيه معجز في كل لفظة وكل آية، معجز في التصوير والدقة، معجز في النهج الرباني، النهج الذي يعالج طبيعة بشرية، ويعد أجيالاً إيمانية.

تعرض السورة نماذج عديدة من الموازنة حين تستقيم وتعتدل على ميزان الله، أو حين تضطرب وتختل تائهة في ظلام الضلال أو الفطرة المنحرفة. ولقد مرت معنا آيات من ذلك:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾

[الشورى: ٤٨]

ح - أهل الرأي والمشورة:

وأهل الرأي والإيمان، أهل النصيحة والصدق، تصفهم سورة الشورى وصفاً جامعاً، وصفاً معجزاً، وصفاً يأتي من خلال خصائص الشورى وقواعدها التي سبق عرضها. يأتي الوصف في السورة من خلال ذلك كله وثناياه بالأسلوب الذي تحتاجه الدعوة ومرحلتها. ويمضي هذا الوصف يستكمل تفاصيله ودقائقه مع امتداد الدعوة وتتابع الوحي.

﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ

سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى: ٣٦ - ٤٣]

ولنعدد هذه الخصائص :

١ - «**الذين آمنوا ...**» : فهو الإيمان إذن أولاً وقبل كل شيء. إيماناً يحمل أمارته ودلائله في الممارسة والطبيق: «**وعلى ربهم يتوكلون**». مع سائر معالم الممارسة الواردة في الآيات :

٢ - «**والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش**».

٣ - «**وإذا ما غضبوا هم يغفرون**».

٤ - «**والذين استجابوا لربهم**» : يعون منهاج الله إيماناً وعلماً وتدبراً، وصحبة عمر، حتى يعلموا النهج الحق فيتبعوه. وبدون هذا العلم القائم على الإيمان والممارسة. وبغير هذا كيف تكون الاستجابة ؟!

٥ - «**وأقاموا الصلاة**» : وأقاموا سائر العبادات نتيجة طبيعية للاستجابة الصادقة القائمة على الإيمان والعلم.

٦ - «**وأمرهم شورى بينهم**» : ولقد فصلنا في ذلك سابقاً. وهي محور الحديث كله ونتيجة للخصائص السابق ذكرها، نستكمل صورتها بالخصائص التي يلي عرضها بعد ذلك.

٧ - «**ومما رزقناهم ينفقون**».

٨ - «**إذا أصابهم البغي هم ينتصرون**».

٩ - يردون الإساءة بمثلها أو يعفون ويصفحون ويصلحون. والعفو مع الصبر من عزائم الأمور.

هذه هي أهم الخصائص التي تعرضها لنا هذه الآيات. فإذا هي جامعة شاملة. من هذا كله، نجد أن سورة الشورى قد عرضت بالأسلوب الربانّي المعجز كل الموضوعات التي طرقناها في هذا البحث عن الشورى في الدعوة الإسلامية. عرضتها بالأسلوب والقدر اللازم لتلك المرحلة من الدعوة على حكمة بالغة من الله، وتقدير ربانّي، وأسلوب الواحد الأحد، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا هو، سبحانه وتعالى عما يصفون.

ثم أخذت هذه الخصائص تستكمل دقائقها مع نمو الدعوة وتتابع الوحي حتى أتم الله دينه وأكمله، وأتم نعمته، ونصر عبده وجنده وأعزهم، وهزم الأحزاب وحده.

ومع نمو الدعوة واتساعها، وتتابع الوحي ونزوله منجماً، فإن موضوع الشورى أخذ ينمو ويستكمل دقائقه وتفصيلاته، كما رأينا في الأبواب والفصول السابقة، حتى تمت الصورة واكتملت اللوحة، بتمام الدين وكماله، عندما انقطع الوحي واختتمت الرسالات السماوية.

وعلى هذا النسق كانت سائر موضوعات هذا الدين، وهي تستكمل الصورة والألوان والدقائق، من جميع الوجوه، من جميع الجهات. حتى يكون الحق المطلق الذي يصلح لكل زمان ومكان، وكل عصر وجيل. وهكذا كانت القواعد الربانية للشورى، تمثل الحق المطلق. وأما القاعدة البشرية فلا تمثل إلا حقاً مرحلياً يصلح لممارسة في فترة محددة، أو بيئة محدودة، أو أرض محدودة. هذا إذا استطاع الجهد البشري أن يبلغ قاعدة حقيقية، هذا إذا لم تكن القاعدة هذه أو تلك تمثل خطأ، أو فتنة أو ضلالاً، عندما يضيع الميزان ويضطرب، وتختلط المقاييس، وإنها لظاهرة فريدة، ونحن نتأمل في الشورى المؤمنة، أن نجد أصولها وجذورها قد نمت، وأن بذورها قد غرست في العهد المكي، حين كان الجيل المؤمن يربى على أسس العقيدة والإيمان، وقبل أن تدور المعارك في الميدان، وقبل أن تنشأ السياسة، والمعاهدات، وقبل أن تقوم الدولة ويحكم السلطان هناك في مكة المكرمة، والعدد

قليل، والتعذيب شديد، يكاد يشغل المؤمن عن أجواء كثيرة، والصبر سلاح عظيم، تتفتت تحت ضرباته كل محاولات قريش في الإيذاء والفتنة. في هذا الجو يعرض القرآن الكريم سورة الشورى، وقواعد الشورى، وأسس الشورى، عرضاً ربانياً معجزاً.

إن هذه الظاهرة في حد ذاتها لَبَيِّنَةٌ قاطعة على أهمية الشورى، وخطورة منزلتها في الإسلام، في العقيدة، في الممارسة، في واقع حياة الجماعة المؤمنة.

فالجانب الذي ننظر منه إلى هذه السورة الكريمة يمد ظلال الشورى لتكون هي محور السورة وموضوعها الرئيس، يمد ظلال الشورى مع ظلال سائر موضوعاتها المرتبطة بها من نصيحة، ورأي وسمع وطاعة، وطبيعة إنسان، واختلاف، ونهج وتخطيط وممارسة إيمانية، وموازنة إيمانية. كل ذلك يترابط ويتناسق فيما بينه، ثم يترابط ويتناسق مع الشورى فتحيط الآيات لفظة الشورى إحاطة شاملة بكل الظلال. ثم ترتبط الشورى وموضوعاتها متجمعة ومتفرقة، مع العقيدة من خلال الوحي الذي تعرضه السورة في أولها وختامها. إنه ترابط فريد رائع يحمل كل معاني الإعجاز، وقد ندرك طرفاً من هذا الإعجاز، وتخفى علينا أطراف أخرى كثيرة، لتبرز مع مقبل الأيام بظلال جديدة، وتمضي الظلال القرآنية تمتد وتتجدد مترابطة متناسقة أبد الدهر، حتى يرث الله الأرض من عليها.







البـــاب الثامن

الممارسة الإيمانية للشورى في حياة الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه








مقدّمة

لقد رأينا فيما سبق قواعد الشورى، يعرضها القرآن الكريم والسنة النبوية نصوصاً ومثلاً وذكرى تنفع المؤمنين. ثم رأيناها في ميدان التطبيق في حياة الرسول ﷺ، حيث نجد قواعد المنهاج الرباني متفاعلة في الواقع البشري تمضي مع الممارسة الصادقة برعاية الوحي من السماء.

ورأينا كذلك أهم الموضوعات التي يعرضها منهاج الله وهي مرتبطة بالشورى وتطبيقها دون أن نجد لفظة الشورى ذاتها. رأينا الرأي والنصيحة، والسمع والطاعة والبيعة، ورأينا قوة الترابط بين هذه المواضيع من ناحية، وبينها وبين سائر قواعد المنهاج الرباني من ناحية أخرى.

ومضى رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى على ذهول المسلمين وعلى هول المفاجأة. مضى رسول الله ﷺ وترك بين المؤمنين نوراً يُهتدى به.

وبدأ المسلمون يمارسون إيمانهم، عقيدتهم، منهاج الله، ممارسة مباشرة فورية بكل ما يملكون من عزيمة وطاقة. وانتهت الشورى على أبي بكر خليفة للمسلمين.

وبدأ أبو بكر ومن حوله من صحابة رسول الله يحملون الأمانة العظيمة ويمضون في تطبيق منهاج الله على الهدى والنور الذي تركه رسول الله ﷺ فيهم. كما جاء في الحديث الشريف:

«تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة نبيه».
(رواه الإمام مالك) [1]

فسنوا بذلك سنة واضحة بينة، ألا وهي اتباع منهاج الله في كل أمورهم، صغيرها وكبيرها. ورد الأمور والأحداث إلى هذين المصدرين وحدهما دون أي شيء سواهما، على فهم للواقع والأحداث، وعلى إيمان وتقوى، وكفاءة وقدرة، وعلى شورى صادقة تقوم على هذا كله بين أقوياء أتقياء، وأنداد أكفاء، تلامذة

(١) الموطأ. باب النهي عن القول بالقدر. حديث رقم (١٦١٩).

محمد ﷺ. فكانت هذه هي السنة التي سنوها، والتي أمر الرسول ﷺ أمته باتباعها، هي سنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده :

عن العرباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون. فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا. قال: « **أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن أُمّر عليكم عبدٌ حبشيٌ فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخفاء الراشدين المهديين من بعدي. عضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة**».

(رواه أبو داود والترمذي وقال عنه حسن صحيح وابن ماجة) [1]

فمن هم الخلفاء الراشدون المهديون ... ؟

لم يسمهم الحديث الشريف. ولكنه وضع صفاتهم وسماتهم وعملهم. إنهم خلفاء راشدون، وإنهم مهديون، يهديهم الله بنور الإيمان، فيلتزمون منهاج الله قرآنا وسنة، ويردون أمورهم كلها إليهما، فيسنون للناس هذه السنة التي هي من أصل الدين وأسسه وقواعده. فما هي ببدعة، وما هي بأمر محدث، فإن محدثات الأمور شر، والبدعة الخارجة عن منهاج الله ضلالة.

ومضى أبو بكر رضي الله عنه، خليفة رسول الله ﷺ ، ومعه صحابة النبي الكريم في هذه الأمانة، تجمعهم الشورى النقية، والتعاون الصادق.

وكانت مدة خلافته رضي الله عنه سنتين : من السنة الحادية عشرة للهجرة، حتى السنة الثالثة عشرة للهجرة. وكانت الشورى ظاهرة واضحة قوية الوضوح، وأسلوباً بارزاً كل البروز.

ولنأخذ لمحات من خلافة أبي بكر الصديق وهو يمارس الشورى، ليس بينهم رسول الله ﷺ ، وإنما كان فيهم منهاج الله. لنرى هذه الملامح من الشورى وهي تطبق في أحداث جسام جديدة، لم يعتادوا أن يجابهوها وحدهم. وإنما جابهوا

---

(١) الترمذي: كتاب العلم (٤٢). باب (١٦) حديث (٢٦٧٦). أبو داود: كتاب السنة (٣٤). باب (٦) حديث (٤٦٠٧). ابن ماجة : المقدمة (١). باب (٦) حديث (٣٤).

قبل ذلك بعض الأحداث، فكانت نفوسهم مطمئنة بالعودة إلى نبيهم، ورسولهم ومعلمهم، وكانت نفوسهم مطمئنة بالوحي الذي يتنزل، وكانت نفوسهم مطمئنة بالإيمان بالله سبحانه وتعالى، آمنةفي ظلاله ورحابه، قوية بمدده وعونه. فإن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وإن انقطع الوحي، فإن مدد الله وعونه باق على مدى الدهر، إنه المدد المستمر الممتد، وإنه النبع الصافي الثر، وإنه الظل الآمن الواسع، وإنه القوة التي لا تغيب ولا تضعف، إلا إذا ضعف الناس ووهن الإيمان.

لنأخذ لمحات من الشورى في هذه الفترة، حتى نستكمل الصورة التطبيقية للقانون الرباني والحق المطلق، لنرى رقعة التناسق والامتداد، وقوة العقيدة واليقين، وثبات العزيمة، ومضيّ الهمة.

ولنرى الإيمان والعلم يقودان الأمة على الصراط المستقيم، صراط الله العزيز الحميد.

الفصل الأول

بعث أسامة رضي الله عنه

لابد أن نستعرض بإيجاز أساس بعث أسامة ومبتدأه، حتى نستطيع أن نتصور طبيعة الشورى التي دارت حوله، أول ما تسلم أبو بكر أمور خلافة المسلمين.

كان الرسول ﷺ قد أمر أسامة أن يغير على أهل إبنى - وهي موضع في فلسطين بين عسقلان والرملة - وأن يمضي على اسم الله. وأمره أن يعسكر بالجرف - وهو موضع قريب من المدينة. فتوافد الناس إلى المعسكر ولم يبق أحد من المهاجرين الأولين إلا انتدب في تلك الغزوة، وكذلك رجال من الأنصار. فقال عياش بن ربيعة رضي الله عنه، وهو من المهاجرين، وكذلك غيره: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين ؟! فكثرت القالة في ذلك، وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعض ذلك القول، فرده على من تكلم به. ثم جاء رسول الله ﷺ ، فأخبره بقول من قال. فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، وقد عصب رأسه بعصابة وعليه قطيفة، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**أما بعد أيها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟ فوالله لئن طعنتم في إمارتي أسامة، لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله. وأيم الله إن كان للإمارة لخليق، وإن ابنه من بعده لخليق بالإمارة وإنه كان لأحب الناس إليَّ وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ وإنهما لمخيلان بكل خير فاستوصوا به خيراً فإنه من خياركم**». ثم دخل بيته وكان ذلك يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول. ولما جاء المسلمون الذين سيلتحقون في بعث أسامة يودعون رسول الله ﷺ ، ولما جاءت أم أيمن رضي الله عنها تقترح تأخير بعث أسامة، حتى يتماثل رسول الله ﷺ للشفاء، قال لها : «**أنفذوا بعث أسامة**».

وجاء أسامة رضي الله عنه يوم الاثنين يودع رسول الله، وكان مفيقاً، فقال: «**اغد على بركة الله**». فبينما أسامة رضي الله عنه يريد أن يركب من الجرف، أتاه

رسول أم أيمن رضي الله عنها تخبره أن رسول الله ﷺ يموت. فعاد إلى المدينة ومعه عمر وأبو عبيدة رضي الله عنهم. وتوفى رسول الله ﷺ حين زاغت الشمس يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول [١].

ولما ارتد من ارتد من العرب عن الإسلام حين بلغهم نبأ وفاة الرسول ﷺ ، أمر أبو بكر رضي الله عنه أسامة أن ينفذ في وجهه الذي وجهه فيه رسول الله ﷺ. وأخذ الناس بالخروج وعسكروا في موضعهم الأول.

هذه هي الظروف التي أحاطت ببعث أسامة، رأينا عرضها أولاً، قبل أن نعرض الأحداث التي تلت، والشورى التي تمت، حتى يكون ذلك أقرب لفهم مختلف الآراء، وإدراك روح الشورى في هذا الموقف العصيب.

ولما أمر خليفة رسول الله أسامة بالمضي في بعثه، مع أجواء ارتداد بعض العرب، وتغير الظروف التي كانت قبل ذلك، شق هذا على كبار المهاجرين. فدخل عمر وعثمان وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد رضي الله عنهم على أبي بكر رضي الله عنه، وقالوا : يا خليفة رسول الله ! إن العرب قد انتفضت عليك من كل جانب، وإنك لا تصنع بتفريق هذا الجيش شيئاً. اجعلهم عدة لأهل الردة. ترمي بهم في نحورهم. وأخرى لا نأمن على أهل المدينة أن يغار عليها وفيها الذراري والنساء، ولو تأخرت لغزو الروم حتى يضرب الإسلام بجرانه [٢]، ويعود أهل الردة إلى ما خرجوا منه، أو يفنيهم السيف، ثم تبعث أسامة، حينئذ فنحن نأمن الروم أن تزحف علينا.

هذا هو ما كان عليه رأي كبار المهاجرين. قدموا به على الخليفة لا يدفعهم إلا حماية هذا الدين، ومعالجة هذه الظروف الصعبة. صدقت نيتهم، وما استكانوا لوهن أو هوى، وأدّوا النصيحة لخليفة المسلمين مع أجمل أدب. وأوضح تعليل، وصدق علم بالظروف والأحداث. فصدقت منهم النصيحة، ومارسوا حرية الرأي وصدق الكلمة أجمل ممارسة.

---

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ٦٢٧.

(٢) الجران : عنق البعير، أي يقر قراره.

وكانت النقاط التي أثاروها وجيهة وهامة، وكانت كذلك صادقة صحيحة! فماذا قال أبو بكر رضي الله عنه؟

فلما استوعب أبو بكر كلامهم قال: هل منكم أحد يريد أن يقول شيئاً؟ قالوا: لا! قد سمعت مقالتنا.

وهنا لابد من وقفة أيضاً لنرى كيف أن الخليفة سمع لهم الرأي حتى وعاه، ثم استوضح منهم إن كان لأحدهم ما يقول. وذلك حتى يعطي إخوانه وأهل الرأي كامل الفرصة لبيان رأيهم. وممارسة إيمانهم. فلما اطمأن إلى ذلك قال: «والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تأكلني بالمدينة لأنفذت هذا البعث، ولابد أن يؤوب منه. كيف ورسول الله ﷺ ينزل عليه الوحي من السماء يقول: أنفذوا بعث أسامة. ولكن خصلة أكلم بها أسامة. أكلمه في عمر يقيم عندنا، فإنه لا غنى بنا عنه. والله ما أدري يفعل أسامة أم لا، والله إن أبى لا أكرهه»[1].

هذه كلمات الصديق وهذه حجته. لم تهزه الأخطار الحقيقية التي تحيط بالإسلام وداره وأهله، لم تهزه هذه كلها بقدر ما هزته كلمات رسول الله ﷺ قبل أن يموت: «**أنفذوا بعث أسامة**»، والوحي ينزل.

وكان كبار المهاجرين يعرفون هذه الجملة كما كان يعرفها أبو بكر. ولكنهم رأوا ارتداد العرب، وخطر الروم، وشدة الأحداث التي لم تكن قائمة عندما أصدر رسول الله ﷺ أمره، فرأى أصحاب رسول الله ﷺ وتلامذته أنه يمكن لهم تأخير البعث، لمداراة خطر جديد داهم. وفي وجهة نظرهم ورأيهم قوة. وقد سبق لهم أن رأوا مثلاً لذلك في حياة رسول الله ﷺ، حين أمر أصحابه ألا يصلوا العصر إلا في بني قريظة. فعندما أدركهم العصر في الطريق، اجتهد فريق فصلى العصر، واجتهد فريق فأخر الصلاة حتى أدرك بني قريظة. رأى الصحابة رضوان الله عليهم أنهم ملزمون بتطبيق منهاج الله كله، لا قاعدة واحدة منه أو قواعد محدودة، على واقعهم وظروفهم المتجددة المتغيرة. وفي مثل هذا التطبيق

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ٦٣٢.

لمنهاج ا لله، إذا بُني على الإيمان وصدقه، والعلم بمنهاج الله والعلم بالواقع، في مثل هذا التطبيق يَبرز أكثر من رأي أحياناً، وأكثر من اجتهاد. فموقف الصحابة رضي الله عنهم من صلاة العصر، وموقفهم من بعث أسامة رضي الله عنه مثلان على ذلك. وأمثلة أخرى كثيرة.

وفي هذا الموقف رأى كبار المهاجرين رأياً، ورأى خليفة المسلمين رأياً آخر، ودارت الشورى على هذه الصورة التي عرضناها، مستوفية لجميع أسباب الشورى المؤمنة التي ذكرناها سابقاً، ومستوفية لشروط النصيحة الأمينة، وأسس الرأي، فما تحولت الشورى إلى جدل ومراء، ولا إلى فتنة وشقاق، ولا إلى مكابرة واستعلاء.

لقد كان يعرف كل منهم حده ومهمته، ولقد كان يعرف بعضهم بعضاً معرفة إيمان وأُخُوّة.

فما زاد كبار المهاجرين على قولهم شيئاً بعد أن سمعوا كلام أبي بكر، وعرفوا أنه عزم على إنفاذ بعث أسامة. كيف وهو يقول : والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تأكلني بالمدينة لأنفذت بعث أسامة.

فهي نية وعزيمة وتصميم، دون أن يسفه آراءهم، أو ينقص من قدرهم. وكلم أبو بكر أسامة بشأن عمر رضي الله عنه ففعل، وجعل يقول له :أذنت ونفسك طيبة ؟ فقال أسامة : نعم.

ما أكرمه من خلق، وما أطيبها من مشورة بين خليفة المسلمين وقائد جنده: حب وأُخوة، ورأي ومشورة، وسمع وطاعة.

وفي رواية أخرى أن أسامة طلب إلى عمر رضي الله عنه أن يرجع إلى خليفة رسول الله ﷺ يستأذنه برجوع الناس. وقالت الأنصار: فإن أبى إلا أن نمضي، فأبلغه عنا واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلا أقدم سناً من أسامة. فقال أبو بكر: لو اختطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضاه رسول الله ﷺ. قال: فإن الأنصار أمروني أن أبلغك أنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة.

فوثب أبو بكر - وكان جالساً - فأخذ بلحية عمر وقال: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ، وتأمرني أن أنزعه ! فخرج عمر إلى الناس. فقالوا: ما صنعت؟ فقال: امضوا ثكلتكم أمهاتكم ما لقيت في سببكم اليوم من خليفة رسول الله.

ثم خرج أبو بكر حتى أتى الجيش فأشجعهم وشيعهم. وهو ماش وأسامة راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر رضي الله عنه. فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن. فقال: والله، لا تنزل ووالله لا أركب، وما عليَّ أن أُغبِّرَ قدمي ساعة في سبيل الله، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له، وسبعمائة درجة ترفع له، وتمحى عنه سبعمائة خطيئة. حتى إذا انتهى قال له: إن رأيت أن تعينني بعمر بن الخطاب فافعل. فأذن له [(١)].

وروايات أخرى لا تختلف كثيراً عن الروايات السابقة. وفي جميع الروايات تتضح النقاط التالية:

١ - إن الخلاف كان أولاً وقبل وفاة رسول الله ﷺ على تأمير أسامة. فوقف رسول الله ﷺ على المنبر وثبت إمارة أسامة.

٢ - إن الخلاف بعد وفاة رسول الله ﷺ كان حول مبدأ بعث أسامة. وكل أدلى برأيه من منطلق إيماني، وبحرية، ووضوح. ولما سمع خليفة رسول الله ﷺ رأي الجميع، قدم رأيه وبين الأسباب. وكان مع كل رأي حجة واضحة بينة.

٣ - إن المسلمين جميعهم انقادوا لرأي خليفة رسول الله والتزموا به، بعد أن دارت الشورى، ووضحت الآراء، وصحت عزيمة الخليفة، وقد قدَّم البيّنة والحجّة والدليل، وهو على بينة ووضوح بعيد عن الهوى، ملتزم للتقوى، معتمد على أمر رسول الله ﷺ.

وقد يختلف المسلمون اليوم حول تفسير الشورى التي تمت في هذه الحادثة، وقد يقول فريق إن الجميع التزموا عندما اقتنعوا، وقد يقول فريق آخر إنهم التزموا

(١) حياة الصحابة ج١ ص ٦٣٤، ٦٣٥ .

بأمر الخليفة، وقد يقول فريق ثالث رأياً آخر ! وهكذا وقد يطول الخلاف ويشتد ويستغرق الوقت والجهد. ولكن أصحاب رسول الله ﷺ مارسوا الشورى ممارسة عملية ولم يختلفوا، ولم يستغرق الأمر أكثر من أن يعطي كل رأيه بوضوح وجلاء، ثم يعزم أمير القوم على ما يتضح له أنه الحق. لم يختلف المسلمون وهم يمارسون الشورى في المحنة، والموقف الصعب ، وإنما يختلفون بعد قرون طويلة حين لا يمارسون الشورى. يختلفون على تفسير تلك الممارسة الإيمانية الرائعة. ومثل هذا الاختلاف يمكن أن يزول حين ترتفع النفوس بإيمانها إلى مستوى ذلك الإيمان، وحين تنهض العزائم إلى مستوى تلك العزائم، وحين تنمو المواهب والقدرات إلى ذلك المستوى الذي رأيناه. عندئذ يمكن أن يزول الخلاف حول تفسير الشورى التي مارسها المؤمنون أصحاب رسول الله، ذلك أننا سنرى أن القضية أولاً وقبل كل شيء هي ممارسة إيمانية بكل أبعادها، وليست على قواعد بشرية. إنها ممارسة منهاج رباني متكامل، وليست ممارسة جزئية متفلتة. وإن شئنا أن نحصي القواعد الربانية التي مارسها المسلمون في الشورى التي دارت في بعث أسامة رضي الله عنه، لامتد بنا التعداد حتى تبرز لنا عظمة هذه الممارسة. فمن سلامة القلب والإيمان، وصدق النية والتجرد، إلى العلم بمنهاج الله والواقع، ومن صدق النصيحة والرأي، إلى أدب السمع والطاعة، ومن إيجاز في الكلمة وحسن في البيان، إلى تواضع في عزة، ومعرفة للمنازل والحدود. وهكذا تتوالى قواعد الإسلام في هذه الممارسة الكريمة، حتى تجمع القوم صفاًواحداً على أُخوة في الله مباركة.

وهذه هي مدرسة النبوة التي صقلت هذه المعادن الكريمة من الرجال، فدفعت مواهبها الفذة وقدراتها الإيمانية، وأبرزت جواهر الفطرةوقوة الإعداد، إلى تماسك وموالاة، وعمل وبذل، وجهد وجهاد. فأغلق المؤمنون بذلك منافذ الشيطان وأبواب الهوى، ونزعات الشهوة، وفتحوا ميادين الشهادة، وسعوا إلى أبواب الجنة، ودرجات المغفرة ، مع كل كلمة وكل جولة، مع كل خفقة وكل رغبة.

لم ينهض أحد ليقول لخليفة رسول الله ﷺ أن يلتزم برأي الأغلبية أو الأقلية، أو رأي عدد قل أو كثر، ولم ترتفع الأيدي لتنصر هذا الرأي أو ذاك،

فينشغل الناس بعدد أنصار هذا الرأي أو ذاك. وما دار بين القوم همس وتناج، ولا حديث زوايا وكواليس. لم يقل أحد للخليفة أن يلتزم برأي الأغلبية مهما يكن ذلك الرأي، أو مهما تكن تلك الأكثرية. أو مهما تكن الظروف المحيطة، والأجواء المضطربة، إنها ليست كذلك أبداً.

إنها ممارسة إيمانية، بكل أبعاد الإيمان، لمعرفة الحق ثم اتباعه. ثم إنها ممارسة إيمانية بكل أبعاد الإيمان، يتحمل كل راع مسؤوليته وأمانته، ويحمي كل جندي ثغره، ويقف كل مؤمن عند حده.

وهكذا مضى بعث أسامة كما أمر رسول الله ﷺ ، وكما أمر خليفة رسول الله ﷺ من بعده، وعاد أسامة من غزوه، وقد أصاب إصابة عظيمة، وسلمه الله وغَنَّمه هو وجيشه وردهم صالحين.

وبركة هذا الغزو الغنيمة، والأوبة والصلاح، كانت كلها من عند الله، لا بجهد من اجتهد، أو عزيمة من عزم. إنما هي فضل من الله وحده ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ولكن عزيمة أهل العزم، واجتهاد أهل الرأي، وممارسة الإيمان علي النحو الذي عرضناه، كان باباً عظيماً للأجر والثواب إن شاء الله، ولعل الله جعل بفضله وقوته بركة الغزو من ذلك الأجر العظيم.

ومن هنا تبرز لنا قضية من قضايا الشورى. ذلك أننا ونحن نتحرى الحق، ونحن نتبع هذا الأسلوب أو ذاك من أساليب الشورى، نؤمن، ونحن نفعل ذلك، أن الفضل بيد الله، وأن الخير من عند الله، وأننا إن حققنا نجاحاً أو أصبنا خيراً ليس ذلك لمجرد سلامة الأسلوب الذي اتبع فحسب، ولكن لسلامة الممارسة الإيمانية الممتدة وصدقها، وسلامة النية وتجردها، وقوة العلم وصفائه، ونمو الموهبة والخبرة، لأسباب عديدة لا نستطيع أن نحصيها كلها، اجتمعت فكانت عند الله، حسب عدله ومشيئته وسنته وعلمه، وقضائه وقدره، ورحمته ومغفرته، باباً لإصابة نجاح في الدنيا، أو إصابة أمر آخر.

فعندما يمارس المؤمن نصيحة أو رأياً أو مشورة، فإنه يمارس الإيمان والتقوى دون أن يَدَّعيَ لنفسه أو لرأيه فضل النجاح، أو بلوغ النصر. بل يؤمن إيماناً لا ريب فيه، أن الفضل كله بيد الله:

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٨، ٧٩]

الفصل الثاني

الشورى في غزوة الرّوم

وصورة أخرى من الشورى في حياة الخليفة الصديق، تكشف لنا النماذج من الرجال، والأنماط من المواهب، والصف المتراص من المؤمنين.

ذلك أن أبا بكر لما أراد غزو الروم دعا علياً وعمر وعثمان [1] وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبا عبيدة بن الجراح، ووجوه الأنصار والمهاجرين من أهل بدر وغيرهم رضي الله عنهم. فدخلوا عليه. فقال أبو بكر رضي الله عنه: إن الله عز وجل لا تحصى نعماؤه، ولا تبلغ جزاءها الأعمال، فله الحمد، قد جمع الله كلمتكم، وأصلح ذات بينكم، وهداكم إلى الإسلام ونفى عنكم الشيطان، فليس يطمع أن تشركوا به ولا تتخذوا إلهاً غيره. فالعرب اليوم بنو أم وأب. وقد رأيت أن أستنفر المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ليؤيد الله المسلمين. ويجعل الله كلمته هي العليا، مع أن للمسلمين في ذلك الحظ الأوفر، لأنه من هلك منهم هلك شهيداً، وما عند الله خير للأبرار، ومن عاش عاش مدافعاً عن الدين مستوجباً على الله ثواب المجاهدين. وهذا رأيي الذي رأيته، فليشر امرؤ عليّ برأيه.

ولنسمع الآن صحابة رسول الله ﷺ وهم يدلون برأيهم، ولننظر إلى الشورى وهي تدور بين القوم المؤمنين.

فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: الحمد الله الذي يخص بالخير من شاء من خلقه، والله ما استبقنا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، قد - والله - أردت لقاءك بهذا الرأي الذي رأيت فما قضى أن يكون حتى ذكرته فقد أصبت - أصاب الله بك سبل الرشاد - سرب إليهم الخيل في أثر الخيل، وابعث الرجال بعد الرجال، والجنود تتبعها الجنود فإن الله ناصر دينه، ومعز الإسلام بأهله.

---

(١) حياة الصحابة ج١ ص ٦٥١.

ثم إن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قام فقال: يا خليفة رسول الله ! إنها الروم وبنو الأصفر حد حديد وركن شديد. ما أرى أن نقتحم عليهم اقتحاماً. ولكن نبعث الخيل فتغير في قواصي أرضهم، ثم ترجع إليك، وإذا فعلوا ذلك بهم مراراً أضروا بهم وغنموا من أداني أرضهم، فقعدوا بذلك عن عدوهم. ثم نبعث إلى أراضي اليمن وأقاصي ربيعة ومضر، ثم تجمعهم جميعاً إليك. ثم إن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك وإن شئت أغزيتهم.

فقال أبو بكر ما ترون ؟ فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: إني أرى أنك ناصح لأهل هذا الدين، شفيق عليهم، فإذا رأيت رأياً تراه لعامتهم صلاحاً، فاعزم على إمضائه فإنك غير ظنين.

فقال طلحة والزبير وسعد وأبو عبيدة وسعيد بن زيد ومن حضر المجلس من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم: صدق عثمان. ما رأيت من رأي فأمضه وذكروا هذا وأشباهه. وعلي رضي الله عنه في القوم لم يتكلم. فقال أبو بكر: ما ترى يا أبا الحسن. فقال: أرى إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نصرت عليهم إن شاء الله. فقال: بشرك الله بخير، ومن أين علمت ذلك؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **لا يزال هذا الدين ظاهرا على كل من ناوأه حتى يقوم الدين وأهله ظاهرون**». فقال سبحان الله ما أحسن هذا الحديث لقد سررتني به، سرك الله.

ثم إن أبا بكر رضي الله عنه قام في الناس، فذكر الله بما هو أهله، وصلى على نبيه ﷺ ، ثم قال: أيها الناس إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام، وأكرمكم بالجهاد وفضلكم بهذا الدين على كل دين. فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام فإني مؤمر عليكم أمراء، وعاقد لكم ألوية، فأطيعوا ربكم ولا تخالفوا أمراءكم لتحسن نيتكم وأشربتكم وأطعمتكم.

﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل: ١٢٨]

فهذه صورة مشرقة أخرى للشورى تدور بين العصبة المؤمنة. نرى من خلالها عطر الإيمان مع كل حركة، وصدق النية مع كل كلمة، ومضاء العزيمة مع كل همة.

ونرى كذلك هذا الوضوح الأمين، واليسر مع القوة، والمسئولية مع الأمانة. دارت الشورى بحرية وصدق، حتى انتهت إلى قرارخليفة المسلمين، فأعلنه للناس، ودعاهم إلى الجهاد.

ولكن الخليفة لما خرج ومعه رجال من الصحابة إلى المعسكر، حيث عسكر الناس وتجهزوا، قال لأصحابه: ما ترون في هؤلاء إن أرسلتهم إلى الشام في هذه العدة؟ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما أرضى هٰذه العدة لجموع بني الأصفر. فقال لأصحابه: ما ترون أنتم ؟ فقالوا : نحن نرى ما رأى عمر. فقال: ألا أكتب كتاباً إلى أهل اليمن ندعوهم إلى الجهاد ونرغبهم في ثوابه ؟ فرأى ذلك جميع أصحابه فقالوا: نعم. ما رأيت افعل. وهكذا كتب أبو بكر رضي الله عنه كتابه إلى أهل اليمن يدعوهم ويستنفرهم لغزو الروم. وبعث بهذا الكتاب مع أنس بن مالك رضي الله عنه.

فلما اجتمع الناس وتجهزوا أمّر عليهم: زيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة. ولما ركبوا مشى أبو بكر مع أمراء جنوده يودعهم حتى بلغ ثنية الوداع، فقالوا: يا خليفة رسول الله تمشي ونحن ركبان: فقال: إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله . ثم جعل يوصيهم فقال: أوصيكم بتقوى الله اغزوا في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، فإن الله ناصر دينه، ولا تَغُلُّوا ولا تغدروا، ولا تجبنوا ولا تفسدوا في الأرض، ولا تعصوا ما تؤمرون. فإذا لقيتم العدو من المشركين - إن شاء الله - فادعوهم إلى ثلاث. فإن هم أجابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم. ادعوهم إلى الإسلام، فإن هم أجابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم. ثم ادعوهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن هم فعلوا فأخبروهم أن لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين. وإن هم دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم على دار المهاجرين، فأخبروهم أنهم كأعراب المسلمين

يجري عليهم حكم الله الذي فرض على المؤمنين. وليس لهم في الفيء والغنائم شيء حتى يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا أن يدخلوا في الإسلام، فادعوهم إلى الجزية، فإن هم فعلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم، وإن هم أبوا فاستعينوا بالله عليهم فقاتلوهم إن شاء الله. ولا تَعْقِرنَّ نخلاً، ولا تحرقنها، ولا تعقروا البهيمة، ولا شجرة ثمر، ولا تهدموا بيعة، ولَا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ ولا النساء. وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له. وستجدون آخرين اتخذوا للشيطان في أوساط رؤوسهم أفحاصاً، فإذا وجدتم أولئك فاضربوا أعناقهم إن شاء الله. (١)

وهذه الملامح من الشورى تتجدد مع كل صورة نعرضها في ميادين الدعوة الإسلامية، وساحات العمل والجهاد، ذلك لأن الدين واحد، والرب واحد، والأمة واحدة هي أمة الإسلام.

---

(١) حياة الصحابة ج١ ص ٣١٧.

الفصل الثالث

الشورى في حَربِ الردّة

لما قبض النبي ﷺ اشرأب النفاق، وكفر من كفر من العرب. وكان بعض العرب قد ادعى النبوة في حياة الرسول ﷺ. ومن هؤلاء الأسود العنسي الملقب بذي الخمار، واسمه عيهلة بن كعب بن عوف العنسي. وعنس بطن من مذحج. ادعى النبوة في مرض النبي ﷺ واتبعته مذحج عامة. وقد ظهر في اليمن وسمى نفسه رحمن اليمن. وقد اشتد أمره حتى أمر الرسول ﷺ المسلمين باليمن بقتله. وتمكن المسلمون من ذلك واستتب الأمر ثانية باليمن، وجاء خبر قتله المدينة صبيحة اليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ. ولقد كانت ردته أول ردة في الإسلام [١].

وكذلك طلحة بن خويلد الأسدي من بني أسد بن خزيمة. كان قد أسلم ثم ارتد وادعى النبوة في حياة الرسول ﷺ. ونزل سميراء بطريق مكة. فوجه إليه النبي ﷺ ضرار بن الأزور عاملاً على بني أسد، وأمرهم بالقيام على من ارتد. وتوفي الرسول ﷺ، وقد ارتد مع طليحة أناس أكثرهم من أسد وغطفان وطيء وفَزارة وغيرهم. وأنفذ طليحة وفوده إلى أبي بكر رضي الله عنه في الموادعة على الصلاة وترك الزكاة، وتوقع أبو بكر الإغارة على المدينة [٢].

ثم مسيلمة الكذاب. كان قد قدم المدينة إلى النبي ﷺ في وفد بني حنيفة. واجتمع برسول الله ﷺ. ثم رجع إلى قومه وادعى أنه شريك رسول الله ﷺ في النبوة. فاتبعه بنو حنيفة. وكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً يدَّعي فيه أنه أشرك معه في النبوة وأن له نصف الأرض، ولقريش نصفها ولكن قريشاً قوم يعتدون وقد اشتهر بالأسجاع السخيفة المضحكة فكتب إليه رسول الله ﷺ:

---

(١) أبو بكر الصديق ص٣٦. الأستاذ محمد رضا.

(٢) نفس المصدر ص٣٩.

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: أما بعد، فالسلام على من اتبع الهدى، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

ولقد اشتد أمر مسيلمة بعد وفاة الرسول ﷺ ، حتى بلغ تعداد جيشه أربعين ألف مقاتل[1].

والبحرين ! كان قد قدم الجارود بن المعلى على رسول الله ﷺ في وفد عبد قيس سنة عشر للهجرة. وكان نصرانياً، فأسلم وتفقه في الدين، وعاد إلى البحرين. وبعد وفاة رسول الله ﷺ بقليل ارتد أهل البحرين وارتدت بكر[2].

وردة أهل عمان ومهرة ! فقد ارتد فيها ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي وادعى النبوة، وغلب على عمان، ولجأ رئيس أهل عمان جعيفر بن الجلندي إلى الجبال والبحر. واستنجد بأبي بكر رضي الله عنه. وأما في مهرة فقد ارتد رجلان ومع كل منهما جماعته وجيشه ، أما أحدهما فهو رجل يقال له شخريت وأما الآخر فيسمى المصبَّح من بني محارب، وكان بين الرجلين منافسة وخلاف[3].

وفي اليمن ثانية ! حيث ارتد قيس بن عبد يغوث بن مكشوح لما بلغه وفاة النبي ﷺ ، مع أنه كان قد اشترك في قتل الأسود العنسي[4].

وحضرموت أيضاً ! فقد كان الأشعث بن قيس قدم على النبي ﷺ في وفد من كندة من حضرموت، فأسلموا وسألوا أن يبعث معهم من يعلمهم السنن ويجبي الصدقات. فبعث معهم زياد بن لبيد البياضي عاملاً للنبي ﷺ . فلما توفي الرسول ﷺ أبى الأشعث البيعة لأبي بكر رضي الله عنه[5].

---

(١) أبو بكر الصديق ص ٧٥ للأستاذ محمد رضا.
(٢) نفس المصدر ص ٧٢.
(٣) نفس المصدر ص ٧٧.
(٤) نفس المصدر ص ٨٠.
(٥) نفس المصدر ص ٨١.

هذه هي جولة سريعة حول أحداث الردة التي وقعت بعد وفاة النبي ﷺ، والتي واجهت الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه وقد تمت بيعته.

ومن هذا العرض - مع إيجازه - نستطيع أن ندرك الدافع الذي دفع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره من الصحابة أن يطلبوا من خليفتهم تأخير بعث أسامة. لقد كان الظرف خطيراً للغاية، وكان في حجتهم ورأيهم وجاهة. إلا أنّ أبا بكر رضي الله عنه كان رجل هذا الموقف العصيب، إذ رأى ما لم يرَ غيره، فنظر إلى القضية كلها نظرة أخرى مختلفة وأنفذ أمره ..

وهذا الدافع الذي نعتقد أنه كان وراء طلب الصحابة رضوان الله عليهم، في تأخير بعث أسامة، هو نفسه كان وراء ما قدموا من رأي في حروب المرتدين، أو أنه كان أحد الدوافع والأسباب.

فعند الإسماعيلي عن عمر رضي الله عنه قال: «لما قبض رسول الله ﷺ ارتد من ارتد من العرب وقالوا نصلي ولا نزكي. فأتيت أبا بكر رضي الله عنه فقلت: يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم، فإنهم بمنزلة الوحش. فقال رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك، أجباراً في الجاهلية خواراً في الإسلام؟ ماذا عسيت أن أتألفهم، بشعر مفتعل أو بسحر مفترى، هيهات هيهات مضى النبي وانقطع الوحي، والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف في يدي وإن منعوني عقالاً. قال عمر رضي الله عنه: فوجدته في ذلك أمضى منّي وأعزم مني، وأدب الناس على أمور هان عليَّ كثير من مؤونتهم حين وليتهم» .[1]

وقريب من هذه الرواية أخرجه آخرون. وروايات أخرى سنأتي على بعضها.

وأخرج العدني عن عمر رضي الله عنه قال: لما اجتمع رأي المهاجرين وأنا فيهم، حين ارتدت العرب فقلنا: يا خليفة رسول الله... ! اترك الناس يصلون ولا يؤدون الزكاة، فإنهم لو قد دخل الإيمان في قلوبهم لأقروا بها. فقال أبو بكر رضي

(١) حياة الصحابة ج١ ص ٦٤٥.

الله عنه: والذي نفسي بيده لأن أقع من السماء أحب إليّ أن أترك شيئاً قاتل عليه رسول الله ﷺ إلا أقاتل عليه. فقاتل العرب حتى رجعوا إلى الإسلام. فقال عمر: والذي نفسي بيده لذلك اليوم خير من آل عمر [١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب قال عمر رضي الله عنه: يا أبا بكر كيف تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله**» قال أبو بكر رضي الله عنه: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة. فإن الزكاة حق المال. والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه». قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق». (رواه الشيخان والإمام أحمد) [٢]

نلاحظ من استعراضنا لأحداث الردة أن الذين ارتدوا عن الإسلام كانوا أكثر من نموذج واحد.

فطليحة الأسدي طلب الموادعة على ترك الزكاة. وأما الأسود العنسي ومسيلمة الكذاب فقد ادعيا النبوة. وكذلك حالات مختلفة من القبائل والمناطق كانت قد ظهرت. فمنهم من منع الزكاة ومنهم من كفر كفراً.

والروايات السابقة تكاد تعالج حالة مانعي الزكاة. وربما كان ذلك لأن طليحة الأسدي اقترب من المدينة وأغار عليها، وكان بذلك أول قتال للمسلمين مع أهل الردة. فقد قاتلهم أبو بكر رضي الله عنه بعد إغارتهم على المدينة ليلاً، واقتفى أثرهم حتى نزل بذي القصَّة. وهؤلاء كما ذكرنا طلبوا الموادعة على ترك الزكاة. ولذلك نعتقد أن الشورى كانت حول هؤلاء.

---

(١) حياة الصحابة: ص ٦٤٥.

(٢) البخاري: كتاب الزكاة (٢٤). باب (١). مسلم: كتاب الإيمان (١) باب (٨). حديث (٢٠/ ٣٢). الفتح الرباني: كتاب الإسلام والإيمان (٢). باب (٩) حديث ٦٢.

وصورة الشورى هنا لا تختلف عن سابقتها شيئاً. لم يكن يتعامل المسلمون خليفة وصحابة، بقواعد بشرية، وقوانين تصوغها الرغبات والطاقات المحدودة. كانوا يتعاملون بقواعد ربانية، وعوها وحفظوها، وتدربوا عليها ومارسوها، وقبل ذلك كله آمنوا بها فنهضوا لها.

فانظر إلى عمر بن الخطاب يقول: «تألف الناس وارفق بها..» . فهذا التآلف من منهاج الله، فلم يأت به عمر من جاهليته السابقة التي طرحها كلها حين دخل الإسلام، ولم يأت بها من هواه، فما هو من أهل الأهواء . ولقد تألّف رسول الله ﷺ الناس ورأى الصحابة وتعلّموه. واسمع لأبي بكر يقول : «والله !لأُجاهدنّهم ما استمسك السيف في يدي وإن منعوني عقالا ...» وهذه أيضاً قاعدة ربانية. فهو لا يطلب العقال نفسه ولكنه حق الإسلام.

ولكن أيَّ القواعد تطبّق هنا ؟ وكيف تتمّ الموازنة ؟ وكيف يتخذ القرار ؟ ومن يتخده؟

وعمر يقول : «كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: (الحديث). «فعمر يروي حديثاً يعرفه أبو بكر رضي الله عنه».

وأبو بكر يقول : «... فإن الزكاة حق المال. فوالله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه» فأبو بكر يوضح معنى الحديث الشريف ويبسط ميدان تطبيقه وأُسلوب ممارسته في هذا الظرف العصيب.

ولم يكن رأي عمر بن الخطاب يمثل رأيه وحده. وإنما كان يمثل رأي الكثيرين، إن لم يكن رأي المهاجرين كلهم، كما ورد في الرواية السابقة: «لما اجتمع رأي المهاجرين وأنا فيهم ...» إذن كان هنالك إجماع أوعلى الأقل الأغلبية حسب اصطلاحات «البرلمانات» الحديثة ! ولكنَّ الأمر لم يكن أمر أكثرية أو أقلية، ولم يجر تسجيل الآراء ولا فرزها ، ولم ترفع الأيدي ولم يجر عدُّها، لا، لم يحدث شيء من ذلك. ولم يقل المهاجرون للخليفة هذا رأي الإجمَاع أو الأغلبية فاتبعه ،

ولا تخرج عنه. فمثل هذا القول هو قول بشريّ، وتصوّر بشري، والمسلمون آنذاك تدربوا على ممارسة الإيمان بكل أبعاده، وآفاقه، وميادينه. تدربوا على ممارسة منهاج الله في تكامله وتناسقه !

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، صاحب «الرأي المعارض» ورأس المهاجرين الذين جاءوا إلى أبي بكر يعرضون رأيهم عليه، ها هو يقول : «فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق». إذن القضية هي البحث عن الحق والتحري عنه بشتى الوسائل. وهنا عرف عمر ابن الخطاب الحق، حين رأى أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال. إنه يعرف صدر أبي بكر صدراً نقياً صافياً. وبمثل أبي بكر يمكن أن يعرف الحق. وذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه في روايته الأخرى، يستعيد ذكرى ذلك اليوم، وفضل أبي بكر فيه، فيقول: «والذي نفسي بيده، لذلك اليوم خير من آل عمر». وفي رواية: «والله لليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر».

وأمضى أبو بكر رضي الله عنه قراره وأنفذ أمره. وبات يعبئ الجيش، ثم خرج ليلاً يمشي وعلى ميمنته النعمان بن مقرن، وعلى ميسرته عبد الله بن مقرن، وعلى الساقة سويد بن مقرن، فما طلع الفجر إلا وهو والعدو على صعيد واحد. ودار القتال وانهزم المرتدون من أتباع طليحة بن خويلد الأسدي، واقتفى أبو بكر رضي الله عنه أثرهم، حتى نزل بذي القصة. وهي موضع على بريد من المدينة المنورة. ووضع بها حامية وعليها النعمان بن مقرن. وكان هذا النصر المؤزر أول الفتح، وأول الخير والبركة، وأوفى الله وعده للمؤمنين:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]

فحقق الله نصره، وأنجز وعده لهذه العصبة المباركة، وهي تمارس الشورى ممارسة مباركة، ليس فيها ظن ولا كذب، وليس فيها نجوى من الشيطان، وليس فيها إلا حزب الله: ﴿... أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]

هذه شورى الإيمان صنعها القرآن الكريم، وصنعتها السنة الشريفة، حين صدقت القلوب مع ربها، وأخلصت النية إلى بارئها، ووعت منهاج ربها واستوعبت واقعها، وانتظم المؤمنون صفاً واحداً على نهج واحد، ألا وهو نهج الله.

وإذا عدنا لآيات سورة الشورى في أول هذا الكتاب، لوجدنا أن أسس الشورى التي أرادها الله كانت مستوفاة في العصبة المؤمنة، فسارت على بركة الله بسهولة ويسر، في موقف عسير شاق.

والذي نحب أن نشير إليه، وأن نؤكده تأكيداً قوياً، هو أننا حين ندرس هذه الأحداث والوقائع، وحين نستعرض مواقف ورجالاً من الشورى أو غيرها، فإننا يجب أن ندرس الأحداث من خلال الواقع الذي كانت فيه، لا من خلال واقعنا نحن اليوم. وعندما نستعرض الرجال والمواقف، فيجب أن نستعرض ذلك من خلال الإيمان والتقوى، ومن خلال أعمالهم وممارساتهم، ليكونوا قدوةً ومثلاً في الثبات على الحق.

كم من الناس يحب أن يرى أحداث تلك الأيام ومواقفها ورجالها من خلال منظار القرن العشرين، مع كل ما فيه من غبش واضطراب. ومن الناس من يزن الرجال من خلال موازينه، ويراهم من خلال رؤيته، وقد ملأت الحضارة الغربية كل فكره وتصوره، وأبدلته موازين بموازين، ورؤية برؤية.

وعندما ندرس هذه الأحداث ونزنها بميزان الإيمان والعقيدة، عندئذ تبرز لنا عظمة الممارسة الإيمانية في هذه الحالات كلها، في مواقف اتحاد الرأي وائتلافه، أو تعدده واختلافه. ففي كل حالة يظل الإيمان، ويظل منهاج الله قرآناً وسنة، هو

الفصل الرابع

أمور عامة

كان أبو بكر رضي الله عنه مستمسكاً بالشورى على النحو الذي تعلمه في مدرسة النبوة.

أخرج ابن سعد عن القاسم أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان إذا نزل به أمر يريد فيه مشاورة أهل الرأي والفقه، دعا رجالاً من المهاجرين والأنصار، ودعا عمر وعثمان وعلياً وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت رضي الله عنهم. وكل هؤلاء كان يفتي في خلافته. وإنما تصير فتوى الناس إلى هؤلاء، فمضى أبو بكر على ذلك، ثم ولي عمر فكان يدعو هؤلاء النفر.

وحين كان يتطلب الأمر مشورة أو نصيحة لخليفة المسلمين، ويشعر بذلك أحد من أهل الرأي والمشورة، كان ينهض إلى هذا الواجب فينصح لله ويشير.

وقد جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال: يا خليفة رسول الله إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة. فإذا رأيت أن تقطعناها لعلنا نحرثها ونزرعها، فأقطعها إياهما، وكتب لهما عليه كتاباً وأشهد فيه عمر رضي الله عنه - وليس في القوم - . فانطلقا إلى عمر ليشهداه. فلما سمع عمر ما في الكتاب تناوله من أيديهما، ورماه. فتذمرا وقالا مقالة سيئة، قال عمر: إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما والإسلام يومئذ ذليل. وإن الله قد أعز الإسلام فاذهبا فاجهدا جهدكما لا رعى الله عليكما إن رعيتما. فأقبلا إلى أبي بكر، وهما يتذمران، فقالا: والله ما ندري أنت الخليفة أم عمر؟ فقال: بل هو لو شاء كان. فجاء عمر مغضباً حتى وقف على أبي بكر فقال: أخبرني عن هذه الأرض التي أقطعتها هذين الرجلين، أرض هي لك خاصة أم هي بين المسلمين عامة؟ قال: بل هي بين المسلمين عامة قال: فما حملك أن تخص بها هذين دون جماعة

المسلمين؟ قال: استشرت هؤلاء الذين حولي فأشاروا عليّ بذلك قال: فإذا استشرت هؤلاء الذين حولك أوَ كل المسلمين أوسعت مشورة ورضى ؟ فقال أبو بكر: قد كنت قلت إنك أقوى على هذا مني ولكنك غلبتني.

وعجباً من هذه المفارقة. ففي موقف سابق حول بعث أسامة، أمسك أبو بكر رضي الله عنه بلحية عمر، وقال تَكَلَتْكَ أمك يا ابن الخطاب وعدمتك. وفي هذا الموقف يشتد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مشورته، وهو يرى رأياً يختلف عما أجمع عليه من كان في مجلس أبي بكر. وكان في قول عمر حجة مقنعة، حتى ظهر الاقتناع في ثنايا كلام أبي بكر رضي الله عنه، ومضى رأي عمر، وقد رأى فيه أبو بكر رضي الله عنه رأياً حقاً، وكذلك رأى سائر الصحابة الذين شهدوا هذه المحاورة بين رجلين عظيمين. ومهما تكن منزلة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما عالية، فلو أن أحداً من الصحابة رأى في هذا الموقف أو ذاك شراً على دين الله، أو خروجاً عن الحق لما سكت. ولكن الحق ينجلي في المشورة الصادقة والنصيحة الأمينة، وقد تبين فيما بعد أن عيينة بن حصن ارتد عن الإسلام، وانضم إلى طليحة بن خويلد الذي ارتد وادعى النبوة.

وكذلك لما خرج أبو بكر رضي الله عنه إلى ذي القصة قال له المسلمون: ننشدك الله يا خليفة رسول الله ﷺ ألا تعرض نفسك، فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام، ومقامك أشد على العدو. فابعث رجلاً فإن أصيب أمّرت آخر. فقال: لا والله لا أفعل، ولأواسينكم في نفسي.

فهولاء أصحاب الرسول ﷺ يتقدمون بالرأي والمشورة والنصيحة لخليفة المسلمين، بمبادرة ذاتية، ودافع إيماني، اجتمعت فيه بواعث الإيمان، وفهم الواقع وتقديرهم الخاص للظرف والأحداث. وما طلب إليهم الخليفة ذلك، ولكن «**الدين النصيحة..**».

وأخرج الطيالسي وابن سعد والبخاري وغيرهم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «أرسل إليَّ أبو بكر رضي الله عنه مقتل أهل اليمامة، وإن عنده عمر بن

الخطاب رضي الله عنه فقال: إن هذا أتاني فأخبرني أن القتل استحرَّ بقراء القرآن في هذا الموطن - يعني اليمامة - وإني أخاف أن يستحر القتل بقراء القرآن في سائر المواطن فيذهب القرآن، وقد رأيت أن تجمعه. فقلت له - يعني لعمر - كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال لي عمر: هو والله خير. فلم يزل بي عمر حتى شرح الله صدري للّذي شرح له صدر عمر، ورأيت فيه مثل الذي رأى عمر. قال زيد: وعمر جالس لا يتكلم. فقال أبو بكر: إنك عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فاجمعه. قال زيد : فوالله لئن كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن. فقلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال : هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، ورأيت فيه الذي رأيا. فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع واللّخَاف، والأكتاف والعُسُب وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة براءة مع خزيمَة بن ثابت الأنصاريَ رضي الله عنه. فلم أجدها مع غيره. «**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ..**» حتى خاتمة براءة. فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر طول حياته حتى توفاه الله، ثم عند عمر طول حياته حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهم.

فهذه القلوب التي شُغلَتْ بالقرآن، وامتلأت بالقرآن، لم تكن لتمتليء بالنزاع والشقاق، ولا بالقيل والقَال، ولا بالظن والافتراء، ولا بالكذب والغيبة، ولا بالنجوى من الشيطان، لم تكن لتمتليء أبداً بشيء من ذلك، فظلت مشغولة ليلها ونهارها، بدين الله، ودعوة الله، وأمة الإسلام، في واقعها آنذاك ، وفي مستقبلها أيضاً، على شورى أمينة.

هذه القلوب وحدها هي التي تستطيع أن تفكر في الأمور العظيمة، وتنتج الأعمال العظيمة، وتدفع الأمة المؤمنة من نصر إلى نصر. وتدور بينها الشورى على مثل هذه القضايا، فيظل خيرها قائماً ممتداً حتى قيام الساعة.

ولما انشغل المسلمون بكل أسباب الفرقة والانقسام، وتناهبتْهم الفتن والتمزق، لم تعد قلوبهم تقوى على مثل هذه الأمور، ولا أن تحمل شورى مثل هذه الشورى.

الفصل الخامس

الخـلافـة

ومرض أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ومعارك الإسلام دائرة هنا وهناك. وكانت تشغله، وهو في مرضه هذا، قضايا الإسلام والمسلمين صغيرها وكبيرها. وأهم ما شغله في هذه اللحظات من أمر المسلمين، هو من سيخلفه فيهم، ومن سيتولى الأمانة. فجمع الناس، لا يشغله مرض ولا يصده ألم، فنزع البيعة من أعناقهم، وكلفهم أن ينتخبوا غيره. قال لهم:

إنه قد نزل بي ما ترون. ولا أظنني إلا ميتاً لما بي من المرض، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحل عنكم عقدتي، ورد عليكم أمركم، فأمِّروا عليكم من أحببتم. فإنكم إن أمّرتم في حياة منّي، كان أجدر أن لا تختلفوا بعدي.

فذهبوا وتشاوروا وبحثوا فلم يتفقوا على أحد، فرجعوا إليه، فوكلوه أن يختار لهم قال: أمهلوني حتى أنظر لله ودينه ولعباده.

وبدأ المشورة ! فدعا عبد الرحمن بن عوف فقال: أخبرني عن عمر بن الخطاب فقال له: ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني. فقال له: وإن. فقال: هو والله أفضل من رأيك فيه.

ثم دعا عثمان بن عفان. فقال: أخبرني عن عمر. فقال له : أنت أخبرنا به. فقال: على ذلك يا أبا عبد الله. قال: اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته. وأنه ليس فينا مثله. فقال أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته ما عدوتك.

ثم شاور غيرهما من الصحابة أمثال سعيد بن زيد وأسيد بن حضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار. وقال أسيد: اللهم ! أعلمُه الخيرة بعدك. يرضى للرضا ويسخط للسخط. الذي يسر خير من الذي يعلن. ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه.

وسمع بعض الصحابة بذلك، وكانوا لا يرون انتخاب عمر. فأتوا أبا بكر رضي الله عنه وقال قائل منهم: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا، وقد ترى غلظته؟ وهو إذا ولي كان أفظّ وأغلظ. فقال أبو بكر: أجلسوني .... ! أبالله تخوّفُونني..! خاب من تَزوّد من أمركم بظلم، أقول: اللهم استخلفت عليهم خير أهلك، أبلغ عنّي ما قلت لك من وارءك. ثم اضطجع ودعا عثمان بن عفان، فقال اكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده من الدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب : إنّي استخلفتُ عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا. وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً. فإن عدل فذلك ظنّي به وعلمي فيه. وإن بدّل فلكل امريء ما اكتسب ، والخير أردت ولا أعلم الغيب. «**وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون**». والسلام عليكم ورحمة الله [(١)].

وفي رواية الواقدي: دعا أبو بكر عثمان خالياً فقال له اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين. أما بعد» ، ثم أغمي عليه فذهب عنه. فكتب عثمان: «أما بعد فإني أستخلف عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً» ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ عليّ. فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال: «أراك خفت أن يختلف الناس إن مت في غشيتي» قال «نعم» قال: «جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله». وأقرّها أبو بكر رضي الله عنه [(٢)].

فخرج بالكتاب مختوماً ومعه عمر بن الخطاب وأسيد بن سعيد القرظي فقال عثمان للناس: أتبايعون لمن في هذا الكتاب؟

فقالوا : نعم. وقال بعضهم: قد علمنا به، قال ابن سعد: عليٌّ القائل، وهو عمر. فأقروا بذلك جميعاً ورضوا به وبايعوه.

---

(١) حياة الصحابة ج٢ ص ١٢٦.

(٢) أبو بكر الصديق ص ١٢٦ .

ثم بعث عمر رضي الله عنه فدعاه فقال:

«يا عمر أبغضك مبغض وأحبك محب. وقدماً يبغض الخير ويحب الشر. قال: فلا حاجة لي فيها. قال: لكن لها بك حاجة. وقد رأيت رسول الله ﷺ وصحبته، ورأيت إيثاره أنفسنا على نفسه، حتى إن كنا لنهدي لأهله فضل ما يأتينا منه. ورأيتني وصحبتي وإنما اتبعت أثر من كان قبلي. والله ما نمت فحلمت، ولا شهدت فتوهمت. وإني لعلى طريق ما زغت، تعلم يا عمر، إن لله حقاً في الليل لا يقبله في النهار، وحقاً في النهار لا يقبله في الليل، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق، وحق لميزان أن يثقل لا يكون فيه إلا الحق. وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل، وحق لميزان أن يخف لا يكون فيه إلا الباطل. إن أول ما أحذرك نفسك، وأحذرك الناس فإنهم قد طمحت أبصارهم، وانتفخت أهواؤهم، وإنّ لهم الخيرة عن زلة تكون، فإنهم لا يزالون خائفين لك فرقين منك، ما خفت الله وفرقته. وهذه وصيتي وأقرأ عليك السلام» (١).

وعند ابن المبارك وابن أبي شيبة وغيرهما،رواية تختلف بعض الاختلاف عن هذا النص. (٢) وإنما أوردنا نص الوصية، حتي تستكمل أجواء الشورى في هذا الحدث العظيم، وحتى تستكمل الصورة ملامحها، وحتى نعيش مع هذه العصبة لحظات، نعيش مع أعمالهم ونفوسهم، فيسهل علينا فهم ممارستهم وتطبيقهم لمنهاج الله.

ونجد في هذا الموقف أن أبا بكر رضي الله عنه اتبع أسلوباً آخر، يختلف عما تم حين تولى الخلافة هو نفسه. وفي كل من الموقفين نرى الإيمان والعلم، نرى الموهبة والقدرة، نرى الوضوح والصدق. وفي الموقفين كان هنالك هدف واحد لا يتغير : ألا وهو البحث عن ا لحق وتحريه، والاطمئنان إليه ثم اتباعه. وفي كل خطوة يظل منهاج الله هو الذي يدفع ويوجه، ويظل فهم الواقع وتقدير الظروف

---

(١) حياة الصحابة ج٢ ص٢٦٠، أخبار عمر صفحة ٥٩ ، ٦٠ ، أبو بكر الصديق ص١٢٦.
(٢) حياة الصحابة ج٢، ص(١٢٤-١٣٠).

من خلال منهاج الله ضرورة لحسن الممارسة وصدق التطبيق. فلقد ترك أبو بكر الأمر أولا للمسلمين ليختاروا خليفتهم. فلما أعادوا الأمر إليه قال: «أمهلوني حتى أنظر لله ودينه وعباده». فرد الأمر كله إلى منهاج الله حتى ينصح الأمة نصحاً أميناً. ففكر في هذه الأسس حتى اطمأنت نفسه إلى رأي.

ففي هذا الموقف كان أبو بكر نفسه مطمئناً كل الاطمئنان، واثقاً كل الثقة من أن عمر بن الخطاب هو خير من يخلفه. ومع أهمية هذه الثقة وهذا الاطمئنان، فإنهما لم يكونا وحدهما مصدر القرار وسبب الإنفاذ.

أضف إلى ذلك أن هذه الثقة لم تكن نابعة من قربى أو مصالح شخصية أو أهواء. وإنما هي ثقة نبعت من أخوة في الله، وتجربة تصقل الرجال، وتعارف على طريق طويل من الجهاد والبذل. إنها ثقة بنتها وكونتها هذه العوامل كلها في قلب أبي بكر، وهو الذي كان أخبر الناس بالرجال، يعرف معادنها ومواهبها. وأبو بكر كذلك لم تكن خبرته هذه متفلّتة، مجردة من ضوابط وروابط وموازين. ولكنها كانت تخضع لمنهاج الله، وموازين الإيمان، وضوابط الحق.

إن هذه الأسباب كلها مجتمعة أعطت لأبي بكر منزلة خاصة بين أصحاب رسول الله ﷺ، حتى كانت قلوبهم كلها مطمئنة إليه، إلى قدرته، إلى إيمانه، إلى علمه، إلى تجربته، إلى صدقه، ولقد كان هو الصِّدِّيق.

فلا عجب أن يقول رجل عظيم مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما دارت الشورى حول حروب الردة واختلفت الآراء، لا عجب أن يقول كلمته المشهورة «فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق..».

ولا عجب إذن لرجل مثل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهو على هذه المنزلة العظيمة أن ينصح للمسلمين وألا يألوهم نصحاً، في أعظم أمر من أمورهم، وهو خلافة المسلمين من بعده. ولا عجب أن تكون نصيحته هي الحق أو هي أقرب شيء إلى الحق.

ومع كل هذا فلم يعتمد الصديق على ثقته هو واطمئنانه هو، وإنما دعا أكابر

المهـاجـرين والأنصـار وأهل الرأي فـيـهـم، دعـا الذين يعرفـهـم وقـد خـبـرهم. فاستشارهم كلاً على انفراد. ودارت الشورى على النحو الذي عرضناه.

مع هـذه الشـورى، ومع منزلـة أبي بكر، فـقـد برزت حـرية الرأي وصـدق ممارستها، حين اعترض بعض الصحابة على استخلاف أبي بكر لعمر، خشية من غلظَته.

فـمـا غـضب أبو بكر لمبدأ الاعـتـراض، ولا لمبـدأ النصح، ولكنه رد الحجـة بالحجة، والبينة بالبينة.

وأيما مـأخـذ أخـذه الناس على عـمـر بن الخطاب رضي الله عنه في شـأن استخلاف أبي بكر له، لم يكن أكثر من غلظته وشدته.

وبعد أن اطمأنت نفس أبي بكر رضي الله عنه، نفسه المؤمنة التقية، نفسه النقية العالمة، وبعد أن اطمأن إلى رأي أهل الرأي، فما وجد لدى المعترضين منهم حجة قوية، رد الأمر إلى الناس فسألهم أو سألهم غيره، على اختلاف في الرواية، فوافق الناس وأقروا بذلك.

وأمر الخلافة أمر عظيم، لا يستوي مع غيره من الأمور الإدارية أو السياسية أو العسكرية. وأبرز مظاهر الاختلاف أن الناس مرتبطون فيه ا رتباطاً أشد وأقوى، وأنه أمر يشمل سائر الأمور من بعده. فالخليفة سيتولى الأمانة ويرعي الحقوق، ويوجه ا لسياسة وينظم الإدارة . إنها أمانة عظيمة.

ولذلك مرت الشورى في هذا الحادث أثناء مرض أبي بكر رضي الله عنه في مراحل ودرجات.

فأبو بكر، وهو خليفـة رسـول الله، عليـه أن ينصح للأمة ولا يـألو في ذلك. عليه أن ينصح علي نية صادقة، وعلم ودراية، وإيمان ووضوح، مـا وجد إلى ذلك سبيلاً. وقد نصح خليفة رسول الله ﷺ نصحاً استوعـب كل إيمانه، وكل نيته، وكل علمـه، وكل خبرته ودرايته، وكل مواهبه. لقـد نصح أبو بكر وهو يدرك حق

الإدراك أنه محاسب بين يدي الله سبحانه وتعالى عن نصحه هذا، فلم يكن يدفعه ويوجهه في نصحه إلا خشية الله، والخوف من عذابه وعقابه.

ونعتقد أن أبا بكر رضي الله عنه قد وازن بينه وبين نفسه، بين مختلف مسئولياته، وقارن بين مختلف الخطوات والاحتمالات، وعاد إلى منهاج الله قرآناً وسنة، حتى يجد السبيل الأقوم لصلاح هذه الأمة، على ضوء الواقع والظروف التي كانت قائمة آنذاك. نعتقد أن أبا بكر رضي الله عنه وازن هذه الموازنة حتى يحدد هو موقفه :

بين أن يدع الأمر كلية لمن بعده، كما فعل رسول الله ﷺ ، أو أن يتبع خطة أخرى لا تخرج عن منهاج الله الذي تعلمه بين يدي النبوة.

لقد وازن أبو بكر رضي الله عنه فرأى أن ينصح على بينة وصدق نية. ورأى كذلك أن يستكمل أسباب الشورى على نحو إيماني كريم.

ولذلك انتقل أبو بكر رضي الله عنه بعد أن رأى رأياً اطمأنت نفسه إليه، إلى وجوه المهاجرين والأنصار فاستشارهم، وسمع منهم وأنزل كل رأي منزلته، وسمع الحجة وأعطى الحجة، في جو من الإيمان كريم.

ثم دُعيَ الناس فَسُئلوا وقرىء عليهم كتاب أبي بكر رضي الله عنه، فرضيَ الناس واطَمأنوا.

ولقد مضى خليفة رسول الله ﷺ في هذا الأمر على نحوٍ جديد يختلف عما اتبعه المسلمون بعد وفاة رسول الله ﷺ . ولكنه أسلوب بُنيَ على قاعدتين عظيمتين: رد الأمر كله إلى منهاج الله، وفهم الواقع والظروف المحيطة من خلال منهاج الله.

لقد رد أبو بكر الصديق رضي الله عنه هذا الأمر إلى منهاج الله بكل جزئياته، على إيمانه وعلمه وصدق نيته. فاستوعب في رده هذا سلامة النية، وصدق التجرد، وسائر قواعد النصيحة والرأي، كما أوردنا سابقاً.

وكان أبو بكر رضي لله عنه يعي واقع المسلمين في تلك اللحظات وعياً

سليماً، ويفهمه فهماً إيمانياً. وكان يزن الأمور على أسس واضحة جلية. فاسمعه وهو يقول: «هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده من الدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب...». ما أعظم هذا الميزان الذي كان يزن به أبو بكر رضي الله عنه تلك الأمور في هذه اللحظات.

وما أعظم فهم أبي بكر رضي الله عنه لهذه اللحظات الأخيرة من حياته، وما أعظم رده الأمور إلى منهاج الله.

واسمعْه يقول: «وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً..».

وبعد أن تمت هذه المراحل كلها، لم يتوقف أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندها، وإنما دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأوصاه وصيته المشهورة التي أوردنا نصها سابقاً. وأوضح له فيها أهم الخطوط وأصدق النصيحة. وذكره بالله واليوم الآخر وميزان الله في الدار الآخرة.

وفي هذا الجو، وهذه الممارسة الكريمة للإيمان، نجد عظمة مدرسة النبوة. فلم تقتصر الممارسة الإيمانية على أبي بكر وحده وهو ينصح الأمة، ويستشير المسلمين، ويوصي عمر، وإنما استوعبت الممارسة الجماعة المؤمنة كلها على النحو الذي عرضناه. إنها استوعبت أهل الرأي والمشورة ووجوه الصحابة والأنصار، كما استوعبت عامة المسلمين. وقد مارس الجميع إيمانهم بكل أبعاده وآفاقه في اتساق وقدرة ووعي. وكان المؤمنون يعرف بعضهم بعضاً، ويعرف كلٌّ منزلته ومنزلة غيره، فما تجاوز أحد حده، ولا جاوز قدره.

واستوعبت الممارسة عناصر شتى للإيمان: فمن نصيحة ومشورة، إلى فكر ورأي، إلى صدق ووضوح، وإلى سمع وطاعة وإلى كثير من القواعد والأسس الأخرى.

ولم تقتصر الممارسة على طائفة من المؤمنين، وإنما استوعبت الذين وافقوا أبا بكر رضي الله عنه، كما استوعبت المعارضين.

وقد جمع المعارضون - إن صحت التسمية - قواعد الإيمان وصدق الممارسة جمعاً مباركاً بإلهام من الله. وأبرز مظاهر هذه الممارسة أن جمعوا بين حدود حرية الرأى وسلامة ممارسته، مع التزام بالسمع والطاعة، والتزام بالحق، وحماية الأمة حتى تظل صفاً واحداً مرصوصاً. فظل أصحاب الآراء المختلفة أمة واحدة، وحزباً واحداً هو حزب الله.

ومن صدق الممارسة أيضاً أن لو كان في سريرة أحدهم شيء ، فقد عبر عنه بأسلوب إيماني، دون خلل أو تقصير، أو جبن أو ضعف، ودون مغالاة أو تجاوز . فما أكرمها من ممارسة.

ومع اختلاف هذا الأسلوب الذي مارسه أبو بكر رضي الله عنه عن الأسلوب الذي اتبعه المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ ، إلا أن كلا من الأسلوبين ظل نابعاً من منهاج الله، خاضعاً لقواعده.

هذه بعض ملامح الشورى في خلافة أبي بكر رضي الله عنه. حاولنا أن نتلمس فيها أسلوب ممارسة الإيمان في ميادين مختلفة ومواقف متعددة. ومن خلال هذا العرض نرى أن قواعد الشورى التي أقرها منهاج الله، كانت تمارس في أكثر من صورة من صور الواقع البشري، مع كل ما فيه من تغيرات وأحداث، ومفاجآت ومعاناة.

ونرى كذلك أن صحابة رسول الله ﷺ ، ارتفعت هممهم، وسمت قدراتهم، حتى جابهوا هذه الأحداث بإيمان راسخ، وعلم قوي، وموهبة فذة، فأعطوا بذلك المثل الرائع على عظمة منهاج الله قرآناً وسنة، وعلى قدرته في معالجة جميع الظروف والأحوال. وأن منهاج الله لا يعجز أبداً عن معالجة كل الظروف وجميع الأحوال حتى تقوم الساعة، إذا صح الإيمان، وصدق العلم، وصقلت المواهب والخبرة، وسمت النفوس ولم تهبط.

وممارسة الشورى في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، كانت ممارسة للإيمان في واقع بشري، ولكنه واقع بشري له سماته وخصائصه، وله ظروفه ووقائعه. وحتى

نستكمل سلامة التصور فمن الحق أن نعرض الملامح الرئيسية في هذا المجتمع، حتى نعي أين كانت تمارس الشورى، وفي أي مجتمع كانت تدور. ولا نستطيع أن نعرض كل الملامح وجميع السمات، ولكن الذي يهمنا هو أن نبرز أن المجتمع لم يكن مجتمعاً لاهياً مسترخياً، إنه مجتمع المؤمنين الذين يحملون دعوة الله للناس كافة. إنهم يمضون في مهمّتهم التي ابتدأ رسول الله ﷺ ، والتي علمهم إياها، ودربهم عليها. فكان المجتمع مجتمعاً له رسالته ومهمته في الحياة، فأخذ سمة الجد والعزيمة، وارتبط بخصائص العمل والجهاد، وأخبت لله رب العالمين في عبودية، فأعزه الله بنصره، وأفاض عليه بنعمائه.

تولى أبو بكر الخلافة في السنة الحادية عشرة من الهجرة، وتوفى رضي الله عنه في السنة الثالثة عشرة من الهجرة وعمره ثلاثة وستون عاماً. فكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال (١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ - حتى ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣هـ). ولقد كان قبل ذلك تاجراً يسكن بالسنح من ضواحي المدينة المنورة. ولما تولى أمر المسلمين تحول إلى المدينة وتفرغ لشئون الخلافة وأداء الأمانة. يحيط به أصحاب رسول الله ﷺ .

ولما ولي أبو بكر قال له أبو عبيدة: أنا أكفيك بيت المال. وقال له عمر: أنا أكفيك القضاء. فمكث عمر سنة لا يأتيه رجلان، وكان يكتب له علي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وعثمان بن عفان.

ولقد عين الولاة والعمال فكان عتّاب بن أسيد على مكة، وعثمان بن أبي العاص على الطائف، وعلى صنعاء المهاجر بن أبي أمية وعلى حضرموت زياد بن لبيد الأنصاري وعلى خولان - وهي مخلاف من مخاليف اليمن - يعلى بن أمية، وعلى زبيد ورمع - وهما موضعان باليمن - أبو موسى الأشعري، وعلى الجند معاذ بن جبل، وعلى البحرين العلاء بن الحضرمي، وجرير بن عبد الله على نجران، كما بعث أبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة إلى الشام. وكان بالشام أيضاً عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان ، ووجه إلى العراق المثنى بن حارثة الشيباني.

وأهم القضايا التي جابهته: بعث أسامة وقتال المرتدين. كما وجه الجيوش للدعوة والفتوحات بعد أن أخمد الردة في قبائل العرب في أوائل السنة الثانية عشرة للهجرة. فوجه خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني وعياض بن غنم إلى الشمال، حيث دار القتال مع الفرس ومن والاهم من العرب وفتح الله على المسلمين في مواقع كثيرة. ووجه إلى الشام خالد بن سعيد بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص وجعل أبا عبيدة بن الجراح أميراً على جميع الجيوش التي وجهت إلى ديار الشام. ثم أمر خالد بن الوليد بالمسير إلى الشام.

وحتى نرى القوة والحركة، والدأب والجهاد خلال هاتين السنتين نعرض أدناه أهم الأحداث والوقائع:

*** سنة ١١ هجرية:**

١٢ ربيع الأول : سقيفة بني ساعدة والبيعة.

١٤ ربيع الأول : إرسال جيش أسامة.

في شعبان : إرسال البعوث إلى المرتدين.

آخر سنة ١١ هـ : موقعه اليمامة.

*** سنة ١٢ هجرية:**

مسيرة خالد بن الوليد وصلح الحيرة.

موقعة الثنى.

موقعة الولجة.

حصار الحيرة وتسليمها.

موقعة دومة الجندل.

البعوث إلى العراق.

موقعة الفرات التي اجتمع فيها الفرس والروم والبدو لمحاربة المسلمين.

غزو الشام.

*** سنة ١٣ هـ**

موقعة بابل.

بدء موقعة اليرموك.

وخلال سنتين تقريباً تقوم أمة الإسلام بهذه الأعمال الجسام، وتجابه هذه الأحداث الخطيرة، ومع حسن إدارة وتوجيه، ومضيٍّ في البناء والإعداد، حتى وكأن القوم لا يكادون يجدون فرصة لراحة، أو فرجة لاسترخاء.

في هذا الجو الدّؤوب كانت تدور الشورى. كانت تدور الشورى في وعي وبيان، وحزم وقوة، ومعرفة للحدود والقدرات، حتى ظلت الأمة صفاً واحداً يتبع الحق. وانصهرت الجهود كلها في بوتقة الخير والإيمان، فأعطت هذا العطاء العظيم، وبذلت هذا البذل الكريم.

رضي الله عنك يا أبا بكر الصديق !

ورضي الله عن الصحابة أجمعين !

ومن مظاهر الممارسة الإيمانية في هذه الفترة القصيرة من حياة الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، أن هذه الممارسة شملت مناحي الحياة، ومختلف الميادين، وشتى المواقف. فهي ممارسة في الإدارة والقضاء، في السياسة والاقتصاد، في الحرب والقتال، وكذلك كانت الشورى. وكذلك ، هي ممارسة في جميع الحالات، في الرضى والغضب، في العسر واليسر، في المنشط والمكره، في الوفاق والاختلاف.

وعظمة ممارسة الإيمان تبرز في مواقف الاختلاف. فهي محك أقوى وابتلاء أشد. فقد تسهل ممارسة الإيمان في مواقف الوفاق واتحاد الرأي، ولكن الصعوبة في ممارسة الإيمان ، تبرز حين يُطل اختلاف الرأي، ويظهر تباين النظر والتقدير.

في هذه المواقف يتمايز الناس، وتتضح المواهب. هنا يبرز العلم والخبرة، والموهبة والقدرة، والمسئولية والأمانة، والمنازل والحدود. هنا تتحرك نوازع الإنسان وتتفتح فرجات للشيطان. هنا تبرز عظمة ممارسة الإيمان، وعظمة ممارسة الشورى، لتغلق كل فرجة لشيطان، وتميت جميع نوازع الفتنة.

وهكذا فعل صحابة رسول الله ﷺ حين مارسوا إيمانهم في جميع المواقف والحالات ، حتى مواقف التباين والاختلاف. فما فتحوا باباً لفتنة، ولا شقوا عصا لطاعة . وظل المؤمنون صفاً واحداً متراصاً على شورى عاملة نشطة لا تتوقف.





الباب التاسع

الممارسة الإيمانية للشورى في حياة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه








مقدّمــة

ومضى أبو بكر الصديق، خليفة رسول الله، إلى ربه.

وتولى الخلافة من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

تولى عـمر الخلافة وجـيوش المسلمين هنا وهناك، في العراق وفي الشام، ومعركة اليرموك تدور.

تولى الخلافة بعد أن استتب الأمن في داخل الجزيرة العربية، وقُضِيَ على فتنة أهل الردة.

واتسعت رقعة دار الإسلام، وامتدت آفـاق الدعوة إلى الله، وأصبح أمام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه عـالم أوسع، وقضـايا متـجـددة، وظروف جـديدة، وشعوب أخرى، وتطور أسرع.

وكان هذا الاتساع والامتداد يشمل مختلف نواحي الحياة، وأبواب الممارسة. ففي القضاء والإدارة والحكم، وفي السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية، وفي الجهاد والحروب، في هذا كله كان هناك امتداد واتساع وتطور. وفي هذا كله كان هنالك جديد.

وتولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السنة الثالثة عشرة للهجرة أمانة الخلافة ليواجه هذا كله، مواجهة تستوعب إيمانه ومواهبه وعلمه. وكان عمر مؤمناً، وكان عالماً، وكان عبقرياً متعدد المواهب، متجدد القوى والطاقات. وكان عمر عظيماً في إيمانه وعلمه ومواهبه. ولكن هذه العظمة الواسعة لم تجعل من عـمر رجل غـرور واستكبار، أو بطش وجبـروت. ولكنه كـان رجل القـوة مع التواضع، والشدة مع العدل، واللين مع الأمانة، والإيمان مع قوة البصيرة وسداد الرأي.

ومع هذا كله فقد كانت الشورى مظهراً واضحاً في ممارسة عمر بن الخطاب

رضي الله عنه لإيمانه في تحمل أمانته. كانت الشورى مظهراً واضحاً على توازن وتوافق مع سائر قواعد الإسلام. وهذا التوازن في ممارسة منهاج الله في واقع الحياة كان أعظم مظاهر الحكم في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين. وإن اختلفت هذه الموازنة بين خليفة وخليفة فقد كان الاختلاف على قدر اختلاف الظروف والابتلاء. ولكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مد الله في فترة حكمه حتى تجاوزت العشر سنين انطلقت خلالها عبقريته وامتد إيمانه في ممارسة رائعة، تظل مثلا ونموذجاً في التاريخ البشري.

وإذا كانت الشورى مظهراً واضحاً في ممارسة عمر للحكم، فإنما كان هو بذلك يمارس إيماناً وعلماً. فلم تكن الشورى فلتة استنبطها، ولا بدعة أتى بها. ولكنها قاعدة من قواعد منهاج الله، تعلمها في القرآن والسنة، وتدرب عليها في حياة الرسول ﷺ ، وهو يرى النموذج الأمثل والتطبيق الحق. ورآها حية في ممارسة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. فكان زاده منها عظيماً، وعلمه بها كبيراً، وتدريبه عليها واسعاً، وإيمانه بها قوياً، كذلك كان زاده وعلمه وتدريبه وإيمانه في سائر منهاج الله، فنبغ بها ونبغت به، ذلك أن الله شاء أن يكون عمر قوياً وعبقرياً.

ولم تكن الشورى مجلساً تدور به الآراء والكلمات فحسب، وإنما كان جهداً ومعاناة، وكانت شمولاً واتساعاً، وكانت بحثاً وتأملاً، وكانت تدبراً وتدبيراً، إنها كانت تشمل المجتمع الإسلامي، بأسلوب عبقري، يتناسب وحياة ذلك المجتمع. فقد شاور الصغار والكبار، والعامة وأهل الرأي. وشملت الشورى مختلف نواحي الحياة، حتى امتدت إلى لباسه وبردته، فقبل الرأي والاحتجاج بإيمان وتواضع.

ولم يكن يرد الرأي إلا بالرأي، ولا الحجة إلا بالحجة. ولكن أي رأي وأية حجة ! إنه رأي الإيمان، وحجة القرآن. فلم تكن القضية لديه روعة بيان، أو ترتيب كلام، وإن كان البيان قائماً، والترتيب عظيماً، ولكنها كانت قضية عقيدة ملكته

كله. فلا يخرج الرأي إلا من قلبه ودمه، وأعصابه وفكره. إنه يخرج من كيانه كله. ويخرج من مستوى مسئوليته وأمانته.

وإذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوياً وعبقرياً، فإنّ قوته الذاتية وعبقريته الخاصة لم تكن هي وحدها مصدر حكمه وسلوكه ومواقفه. وإذا أردنا أن نبحث عن منابع قوة عمر رضي الله عنه، فيمكن وضعها في إطارها العام بثلاثة عناصر: قوته الأصلية في ذاته وما منّ الله عليه في ذلك من مواهب وقدرات، ثم أنّه من خيار معادن الناس. فالناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا. ومعدن عمر هو من خيار المغادن.

وصقل الإسلام هذا المعدن وشعَّ جوهره وتلألأ. فكان إيمانه وصحبته للرسول ﷺ ومنهاج الله مصدراً غنياً من مصادر قوته وعبقريته. كان مصدراً يمد ذاته وأصالته بكل أسباب الخير وفيض البركة، كان فيضاً مستمراً لا يتوقف.

ثم كان من حوله رجال، وأي رجال. كان حوله أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وسلمان، وعبد الرحمن بن عوف وكثير غيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ، رضي الله عنهم وأرضاهم.

وكان عمر أميراً على هؤلاء يعطونه صادق نصحهم، وخالص مشورتهم وكل قوتهم، حتى ارتبطوا في أخوة لله صافية، جعلت لعمر بن الخطاب مصدراً عظيماً من مصادر القوة.

والتقت هذه المصادر الثلاثة على معدن عمر تصقله فلا يزداد إلا لمعاناً وضياءً، وتصقله فلا يزداد إلا نماء وخيراً.

ولنمض مع أمير المؤمنين لنرى الشورى قوية صادقة، متوازنة عادلة.

فكان أول عمله أن لجأ إلى الله يدعو، وسأل المسلمين أن يؤمّنوا . ثم قدم نفسه بضعفه وقوته إلى الناس وسأل العون والنصيحة والرأي. ورسم نهجاً لا

بدعة فيه، فقد صدر في كل أمره عن منهاج الله في ممارسة رائعة.

تولى عمربن الخطاب رضي الله عنه الخلافة وأصبح أميراً للمؤمنين. فكان أول ما تكلم به بعد ولايته أن قال: «ثلاث دعوات إذا دعوت بها فأمّنوا عليها: اللهم إني ضعيف فقوني. اللهم إنّي غليظ فَلَيِّنِّي، اللهم إني بخيل فسخّني. لو علمت أن أحداً أقوى مني على هذا الأمر، لكان ضرب العنق أحب اليَّ من هذه الولاية. إن الله ابتلاكم بي، وابتلاني بكم، فلا والله لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فآلو فيه عن أهل الصدق والأمانة، ولئن أحسنوا لأحسننّ إليهم، ولئن أساءوا لأنكلن بهم».

ولما صعد المنبر قال: ما كان الله ليراني أني أرى نفسي أهلا لمجلس أبي بكر. فنزل منزل مرقاة (أي درجة). فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«اقرءوا القرآن تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله. وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية. إنه لم يبلغ حق ذي حق أن يطاع في معصية الله، ألا وإني أنزلت نفسي من مال الله منزلة ولي اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف والحق والعدالة».

ويبدو أن هذا لم يكن كافياً لإيضاح ما يحتاج المسلمون إلى إيضاحه. فما زال بعض الناس يتهيبون غلظته وشدته، ويخشون أن يتوهم عمر أنه قادر على أن يمضي على ما عهدوه فيه من غلظة وشدة. فدعا إلى صلاة جامعة وصعد المنبر وقال:

«بلغني أن الناس هابوا شدتي، وخافوا غلظتي، وقالوا قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا. ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟ ومن قال ذلك فقد صدق. فقد كنت مع رسول الله، فكنت عبده وخادمه، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة، وكان كما قال الله تعالى: «بالمؤمنين رءوف رحيم» فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً، حتى يغمدني أو

يدعني فأمضي. فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عنّي راض، والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد. ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر. فكان من لا ينكرون من دعته وكرمه ولينه، فكنت خادمه وعونه، أخلط شدتي بلينه، فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني فأمضي. فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنٍّي راض، والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد. ثم إني وليت أموركم أيّها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت. ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين. فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض، ولست أدع أحداً يظلم أحداً أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن بالحق، وإنّي بعد شدتي تلك أضع خدي لأهل العفاف وأهل الكفاف. ولكم عليَّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها: لكم عليّ أن لا أجتبي شيئاً من خراجكم، ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه. ولكن عليّ إذا وقع في يدي ألا يخرج منٍّي إلا في حقه، ولكم عليّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله، وأسد ثغوركم. ولكن عليّ ألا ألقيكم في المهالك ولا أجمركم في ثغوركم، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم.

فاتقوا الله وأعينوني على أنفسكم بكفها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم»[1].

وهذه الخطبة مع الخطبة السابقة تعرض نهج الحكم. فأساس ذلك كله منهاج الله: «اقرأوا القرآن تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا...».

(١) أخبار عمر ص٦٣، ٦٤.

وقدم نفسه وعرفها للناس وعرف منزلته من أبي بكر فنزل درجة على المنبر.

ثم عرض صحبته لرسول الله ﷺ، وصحبته لأبي بكر رضي الله عنه وما كان من أمر شدته على طاعة وعون.

«**فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني فأمضي...**» . ثم أعطى للناس عهداً ! أعطاهم ما يحتاجه الناس على مدى العصور والأجيال. أعطاهم الأمن، والحماية والأمانة. أعطاهم القوة والثقة، أعطاهم الأمن على الأرزاق والأوطان والحكم !

فحدد سياسته العامة في المال والإدارة والقضاء حتى تطمئن النفوس. حدد سياسته تلك على أساس من منهاج الله تحديداً بيناً واضحاً. فاطمأنت النفوس أو زادت اطمئناناً.

وأعطاهم العهد على صون دينهم وديارهم، وعيالهم بعون الله، فاطمأنت النفوس أو زادت اطمئناناً.

ثم دعاهم إلى أمانتهم ومسئولياتهم:

فاتقوا الله..

وأعينوني على أنفسكم..

وأعينوني على نفسي..

وإحضاري النصيحة..

ثم استغفر الله له وللناس وأناب.

فوضع بذلك مع أول عهده بالولاية قواعد الشورى وأسس النصيحة وحدود التعاون. عرف منزلته بوضوح وقوة، وعرف منزلة غيره، عرف حدوده ومسئولياته، وعرف كذلك حدود غيره ومسئولياته. وبنى ذلك كله على قرآن وسنة، لا على رغبات وأهواء. فكان للأمة كلها منهاج كامل يحكمها ويحكم

عمر بن الخطاب ذاته. يعود له هو، ويعود له غيره، لا يحل لأحد أن يخرج عنه. ومن خلال هذا المنهاج الرباني وعلى أساس من فهمه الواسع للواقع الممتد، رسم للأمة نهجاً عرضه عليها بقوة وإيمان، ووضوح وصدق. وكما سنرى فقد وضع للإدارة نهجاً، وللمال نهجاً، وللشئون العسكرية والفتوح نهجاً، لتكون للأمة خطة واضحة تقوم عليها الشورى، فلا تتفلت الأمور، ولا يتيه أهل الرأي، ويطمئن الناس فيحاسبون ويحاسبون، ولقد عمل أبو بكر رضي الله عنه قبل ذلك، ووضع خطة وحدد نهجاً.

وكان حول عمر رجال أفذاذ. كان حوله علي بن أبي طالب رضي الله عنه إنه أبو الحسن ! يقضي فيعدل في القضاء، ويشير فيصدقه في الشورى، وينهض إلى عظائم الأمور.

وكان حوله عبد الله بن عباس، الذي يقول عنه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما: ما رأيت أحداً أحضر فهماً، ولا ألب لباً، ولا أكثر علماً، ولا أوسع علماً من ابن عباس. ولقد رأيت عمر بن الخطاب يدعوه للمعضلات ثم يقول: جاءتك معضلة، ثم لا يجاوز قوله ، وإنّ حوله لأهل بدر من المهاجرين والأنصار. وإذا أهم الأمر عمر بن الخطاب، دعاه وقال له : غص غواص ! وكان حوله عثمان بن عفان يداً ممدودة، وتقوى طاهرة . وكذلك لم يكن يترك الفتيان. فإذا نزل الأمر المعضل دعا الفتيان فاستشارهم يقتفي حدة عقولهم، كما أخرجه البيهقي. وعند البيهقي أيضاً عن ابن سيرين: إن عمر بن الخطاب ليستشير حتى إنّه كان ليستشير المرأة، فربما أبصر في قولها الشيء الحسن فيأخذ به. إنه يتحرى الحق دائماً حيث كان. ويستفيد من كل طاقة، وينمي كل خير.



الفصل الأول

الإدارة والمال

١ - مع العباس وعلي:

لما تولى أبو بكر الخلافة جاء العباس وعلي رضي الله عنهما يطلبان ميراثهما من رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر رضي الله عنه إن رسول الله ﷺ قال: «**لا نورث، ما تركناه صدقة**» وأبى عليهما.

(رواه الشيخان والترمذي والنسائي) [١]

وفي عهد عمر راجعاه ليدفع ذلك لهما فقال عمر: إن شئتم دفعتها إليكما على أن تعملا فيها بالذي كان يعمل رسول الله ﷺ . فأخذاها على ذلك.

ثم عادا إليه ليقضي بينهما. فأقبل عليهما وقال: أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض أتعلمان أن رسول الله ﷺ قال:«**لا نورث، ما تركناه صدقة**». قالا: نعم ! فقال: إن الله عز وجل كان خص رسوله بخاصة لم يخصص بها أحداً غيره. قال: «**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول...**». فقسم رسول الله ﷺ بينكم أموال بني النضير فو الله يأخذ نفقة سنة ثم يجعل ما بقي أسوة المال (أي يضمه إلى الأموال العامة). ثم قال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض أتعلمون ذلك ؟ قالوا: نعم ! (قال ذلك الصحابة الحاضرون). ثم نشد العباس وعلياً مثل ذلك فقالا: نعم ! وتابع عمر رضي الله عنه يستعرض معهما مراحل هذه القضية وتاريخها ويردها كلها إلى منهاج الله. وينشدهما بالله على ما يقول. فيقولان نعم.

---

(١) البخاري: كتاب الفرائض (٨٥). باب (٣). مسلم واللفظ له. كتاب الجهاد والسير (٣٢) باب (١٥). حديث (٤٩)، باب (١٦) حديث (١٧٥٨/ ١٥). الترمذي: كتاب السير (٢٢). باب (٤٤)، حديث (١٦١٠). النسائي: كتاب قسم الفيء (٣٨) حديث (٤١٤٨).

ثم قال: ثم جئتماني لأقضي بينكما، لا والله لا أقضي بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما عنها فرداها إلي [1].

فنجد هنا عمر، وقد سمع من أخويه في الله ما يطلبان ووعاه، عرض الأمر كله وتاريخه، ورده إلى دين الله وأنشدهما بالله. فأقرا بكل ما قال. ثم قال كلمته الأخيرة وأعلن حكمه مع العلة والسبب، بحزم وقوة، وانتهى الأمر فلا جدل ولا مراء، ولا فرقة ولا خلاف.

٢ - بساط كسرى [2]:

ولما جاء بساط كسرى إلى عمر، وكان البساط ستين ذراعاً في ستين ذراعاً في طرق كالصور، وفصوص كالأنهار، وخلال ذلك كالدير وفي حافتيه كالأرض المزروعة، والأرض المبقلة بالنبات في الربيع، من الحرير على قضبان الذهب، ونوارة الذهب والفضة، وأشباه ذلك. وكانوا يعدونه للشتاء إذا ذهبت الرياحين، فكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه وكأنهم في رياض. فلما قدموا به على عمر، جمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه، واستشارهم في البساط، وأخبرهم خبره. فأشار كلهم عليه بأخذه، إلا علياً رضي الله عنه فإنه قال: يا أمير المؤمنين الأمر كما قالوا ولم يبق إلا التروية. إنك إن تقبله على هذا اليوم لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له. قال صدقتني ونصحتني فقسمه بينهم.

ونجد هنا اللمحة الطيبة، والإشارة الواعية، والصدق والوضوح. فقد رأى جميع من استشارهم عمر في مجلسه هذا رأياً. خالفهم فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فأعطى رأيه بوضوح وبين الحجة وأعطى القياس، حتى اطمأنت نفس عمر رضي الله عنه إلى الحق فأمضاه، لا لأنه رأي الأكثرية أو الأقلية ولكن حق صدّقة وآمن به.

---

(١) أخبار عمر ص ٩٠.

(٢) تمام الوفاء في سيرة الخلفاء للخضيري. أخبار عمر ص ٩١.

لم يتحول الأمر أبداً إلى لجاج. ولم تضطرب النفوس. ومارس كلٌّ حرية الرأي وصدق المشورة دون حرجٍ أو ضيق، إنها فسحة الإيمان واطمئنان اليقين. ولما أمضى عمر رضي الله عنه رأياً سمع إخوانه وأصحابه والمسلمون له وأطاعوا. ووقف كلٌّ عند حدوده، على وعي وقوة، وعلم وعطاء. ولم يغضب أحد من الصحابة رضي الله عنهم حين ترك أمير المؤمنين رأيهم، ولم يطالبوه باتباع رأي الأكثرية ولكنهم سمعوا وأطاعوا حين ابتدر عمر فقال: «صدقتني».

٣ - أرض العراق:

فلمّا فتح الله على المسلمين سواد العراق، رأى عمر أن مثل هذا الفتح لا يكون كل يوم. وأن الأرض إذا قسمت بين المقاتلين لم يبق شيء لمن بعدهم، ولم يبق لبيت المال مورد ثابت. ولكن عمر لم يجد نصاً من كتاب أو سنة يعتمد عليه في إمضاء رأي يرى فيه الخير والحق. فما استبد برأي، وإنما دعا الصحابة واستشارهم.

فرأى عامتهم أن يقسمه. وكان بلال بن رباح أشدهم في ذلك. وكان رأي عمر أن يتركه ولا يقسمه. فقال: اللهم اكفني بلالا وأصحابه. ومكثوا يبحثون الأمر يومين أو ثلاثة. حتى وجد عمر حجة ودليلاً من القرآن. فقال : إني وجدت حجة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ حتى فرغ من شأن بني النضير. فهذه عامة في القرى كلها. ثم قال: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. ثم قال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾. ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال: **﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** . فهذا ما بلغنا والله أعلم، للأنصار خاصة. ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال: **﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾**. [الحشر من ٦ - ١٠]

فكانت هذه عامة للمقاتلين وغيرهم. فكيف أقسمها بينهم، فيأتي من بعدهم، فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت؟ ما هذا بالرأي. فقال عبد الرحمن بن عوف فما الرأي؟ ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم، فقال عمر: ما هو إلا كما تقول ولست أرى ذلك. والله لا يفتح بعدي بلدٌ يكون في كبير نيل، بل عسى أن يكون كلاًّ على المسلمين. فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها، وأرض الشام بعلوجها، فما يسد الثغور؟ وما يكون للذرية وللأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق؟ فأكثروا على عمر وقالوا أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا، ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا؟ فكان عمر لايزيد على أن يقول هذا رأي. قالوا: فاستشر. فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا . فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم. ورأى عثمان وعلي وطلحة وابن عمر رأي عمر. فصرفهم وأرسل إلى عشرة من الأنصار، خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم. فلما اجتمعوا عرض رأيه وحجته. وقال: إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم. فإني واحد كأحدكم، وأنتم اليوم تقرون بالحق، خالفني من خالفني، ووافقني من وافقني. ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هواي، معكم من الله كتاب ينطق بالحق، فوالله لئن كنت

نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق قالوا: قل نسمع يا أمير المؤمنين. قال: قد أعوذ بالله أن أركب ظلماً، لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيتهم غيره لقد شقيت. ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى، وقد غنّمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا في توجيهه، وقد رأيت أن أحبس الأرض بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج، وفوق رقابهم الجزية، يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم. أرأيتم هذه الثغور؟ لابد لها من رجال يلزمونها. أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر؟ لابد من شحنها بالجند، وإدرار العطاء عليهم، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج؟ فقالوا جميعاً: الرأي رأيك، فنعم ما قلت ورأيت، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقون به رَحَل أهل الكفر إلى مدنهم، فقال: قد بان لي الأمر. فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها، ويضع على العلوج ما يحتملون ؟ فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف ، وقالوا: تبعثه إلى أهم من ذلك، فإن له بصراً وعقلاً وتجربة. فأسرع إليه عمر فولاه مساحة أرض السواد (١).

وفي هذا الحادث العظيم اجتمعت نماذج للشورى، وأمثلة بينة ، ومن مجريات الأحداث تبرز قضايا رئيسية هامة.

وأول هذه الأمور وأهمها أن الجميع يلتزم بنهج الله قرآناً وسنة، وتظل هذه القاعدة بارزة مع كل جولة وكل حركة. فعمر لم يستطع أول الأمر أن يقنع القوم لعدم وجود حجة لديه من قرآن أو سنة. وهو حين دعا الأنصار قال لهم، **معكم من الله كتاب ينطق بالحق**. فكان كل فرد، وكل جماعة ترد الأمر إلى منهاج الله الذي تعلمته بين يدي النبوة، وتدربت على ممارسته وتطبيقه. وهذه القاعدة العظيمة هي منطلق الشورى وقاعدتها، وهي قوة لها حماية، وهي مصدر توجيه ونماء.

---

(١) أخبار عمر ص ٩٤ .

والأمر الثاني أن الجميع يبحث عن الحق لا عن سواه. ولكنهم يعرفون الحق ويَزنونه بميزان المنهاج الرباني. فهذا عمر يقول: فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد إلا الحق. ولكن عمر لم يترك الحق لفظة عائمة، وكلمة مفلتة، وشعاراً فحسب. وإنما عرف الحق من مكان مسئوليته وأمانته: أرأيتم هذه الثغور؟ لابد لها من رجال يلزمونها، أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة ومصر، لابد من شحنها بالجند، وإدرار العطاء.

وقبل ذلك قال للمهاجرين: إني وجدت حجة. ثم تلا الآيات من سورة الحشر. حتى قال لهم: ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال:

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر: ١٠]

فكانت هذه عامة للمقاتلين وغيرهم. فعرض عمر بن الخطاب الحق الذي يراه على قاعدتين، المنهاج الرباني، والواقع الذي يمارس فيه هذا المنهاج الرباني. فلقد كان أمراً حقيقياً امتداد رقعة الإسلام، وكان حقاً أن تحتاج الثغور إلى رجال وحشد. وهذه أمانة في عنق الخليفة ومن مسئولياته. والصحابة رأوا القسمة، لأن هذا هذا هو الأصل الذي كان يُتّبع. ولأنهم رأوا الرسول ﷺ يفعل ذلك في الظروف التي سبق أن عاشوها. وكانوا يبحثون عن الحق ويَزنونه بميزان منهاج الله. ولكن الواقع تبدل والظروف تغيرت ومنهاج الله كله لهذه الظروف وتلك، ولكل ظرف حتى تقوم الساعة. وهنا أحس عمر بن الخطاب بحسه المرهف، ورأى ببصيرته النافذة، هذا التبدل، فبحث في منهاج الله حتى وجد الحجة ووجد الميزان. وجد الحجة لهذا الواقع الجديد، ووجد الميزان له كذلك. وجدهما في كتاب الله لا في غيره. وهذه هي الموهبة والقدرة، وهي أيضاً المسئولية والأمانة. فعمر من مركز الخلافة وأمانتها، يحمل مسئولية لا يحملها غيره. وأمانة

سيحاسب عليها هو أولاً. فلم يكن دوره أن يطرح القضية ويسترخي، أو يعد الأصابع والأيدي. ولكنه أعمل فكره وإيمانه، وأجهد نفسه وأعصابه ليحمي دين الله لا ليحمي ثروة، وليحمي دعوة لا ليحمي منصباً. وها هو يقول: «**إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم..**».

والأمر الثالث هو أن الجميع مارس الرأي والمشورة والنصيحة قدر وسعه وَطاقته، على إيمان وعلم وصدق. فهذا عبد الرحمن بن عوف يقول: ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم. ولما أكثروا عليه قالوا: أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا، لأبناء أبنائهم ولم يحضروا..؟ وما غضب عمر، وما أنكر قوة حجتهم. فهي حجة من منهاج الله. فلم يزد على أن قال: هذا رأي.

عمر الفظ الغليظ، كما كان يظنه بعض الصحابة، عمر الشديد القوي، يلين حتى يقول هذا رأي.

والنقطة الرابعة هي أن عمر - وقد كان وحيداً على رأيه هذا - لم يقف عند رأي أجمع عليه أصحابه وإخوانه الذين استشارهم، لقد عرف عمر الحق ووجد الحجة، ووزن الأمر بميزان منهاج الله والواقع، ورأى أهمية الأمر وخطورته. ورأى الخطر الحقيقي الذي يهدد دعوة الإسلام، لو فرغت الثغور وذهبت الحشود. رأى خطراً قد لا يتحقق في فترة وجيزة، ولكنه خطر حقيقي، فكيف يستسلم والحق في قلبه قوي يخفق ويدق ويقرع، يحرك كيانه كله وإيمانه، فما زال في الأمة من يستشيره، وما زال فيها من أهل الرأي. والقضية كلها هي البحث عن الحق أينما كان، واتباعه والخضوع إليه. فدعا الأنصار واستشارهم.

والنقطة الخامسة هي أن عمر، وقد عرف الحق، لم يحب أن ينفرد، وأحب أن يوسع الشورى ويمد من ساحتها. إنها أمانة عظيمة، وحساب بين يدي الله شديد فلعل عمر أراد زيادة في الطمأنينة، ومدداً في القوة، وعونا على هذا الموقف

الصعب، حتي يظل في مقبل الأيام من يعرف الأمانة ويدافع عنها. فالأمر ليس لغد أو بعد غد، إنه أمر لمستقبل بعيد ممتد. وفرق كبير في حياة الأمة، بين أن ينفرد أميرها برأي، وبين أن يجد الرأي له قوة وأعواناً. فيظل الحق ماضياً في حياة الأمة لا يتعلق مصيره برجل، مهما يكن ذلك الرجل، أو بعدد محدود، أو أكثرية أو أقلية.

والقضية السادسة إنها السمع والطاعة، والحب والاحترام، والأخوة والصدق. فاسمع إلى الأنصار يقولون لعمر: قل نسمع يا أمير المؤمنين ! ولما أمضى عمر رأيه، لم يعد هنالك حزب معارض وحزب مؤيد. إنها أمة واحدة وحزب واحد هو حزب الله. وكيف لا يُمضِي عمر رأيه؟ وماذا يقول لربه يوم الحساب؟ لقد بحث عن الحق حتى عرفه. بَحث عنه بكل الوسائل الممكنة في واقعهم آنذاك، أعمل فكره وإيمانه، وبذل جهده وطاقته، ثم استشار. وفي كل مرحلة يعود لإيمانه ويعود لمنهاج الله. وأعاد الشورى حتى وجد من يرى رأيه. فلم يعدَّ هؤلاء ولم يعد هؤلاء، وإنما بحث عن الحق في قضية من قضايا المسلمين، فوجد الحق في قلبه وإيمانه، وفي دينه وقرآنه، ثم وجد له أعواناً وأنصاراً. وبعد هذا كله سمع المسلمون وأطاعوا، لاخوفاً من عمر، ولا خشية من انتقامه، ولا حسباناً لجبروته. فقد كان لهم أخاً وفياً، ومحباً قوياً. وأنّى لعمر أن يتراجع عن الحق وقد عرفه، وقال: **قد بان لي الأمر!** ولما انتهى من ذلك، عرض أمراً آخر للشورى فقال: فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها، ويضع على العلوج ما يحتملون؟ فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف.

وهكذا في هذا الموقف الدقيق، دارت الشورى بأوسع ميادينها، وأزكى ممارستها، وأطهر نتائجها. ولقد مارس المسلمون في هذه القضية إيمانهم كله وعلمهم كله. ولم يمارسوا جزئية واحدة فحسب. مارسوا إيمانهم وعلمهم على تناسق وتكامل، وعلى حب وصفاء، وعلى قوة ومضاء وبقوا صفاً واحداً، وأمة واحدة، وحزباً واحداً، رضي الله عنهم أجمعين.

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يترك المهاجرين ورأيهم، ويدعو الأنصار لأمر أكثر من أنه أراد توسيع حلقة الشورى. فلقد استشار أولاً عدداً من المهاجرين فأجمعوا على خلاف رأيه. ثم قالوا استشر. فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا وأيده أربعة منهم: علي وعثمان وطلحة وابن عمر. فلما اختلفوا دعا عشرة من الأنصار. إنه يبحث عن الحق. ولم يصرف المهاجرين على غرار ما يفعله رئيس الدولة أحياناً في عصرنا الحالي، فيحل المجلس النيابي، كما يذكر كتاب أخبار عمر. فشتان بين مجلس عمر والمجالس النيابية. ومن ناحية أخرى فإن عمر لم يحل مجلس المهاجرين. فقد ظل مجلساً قائماً، مثله مثل سائر مجالس أمير المؤمنين، لا تعطل طاقة، ولا تميت موهبة، ولا تحل رابطة ربطها الله. فلقد ظل هؤلاء الصحابة الأبرار مع عمر لا يتركونه ولا يتركهم ، ظلوا معه أبداً أهل الرأي والمشورة، وأهل البذل والعطاء.

ولم يكن اختلاف الرأي سبباً في حل عروة أو رابطة، ولا في ضغينة أو كراهية، ولا في فتنة أو شقاق، ولا في الخروج عن السمع والطاعة، والأُخوة والتعاون، والبر والصدق.

ورئيس الدولة اليوم حين يحل مجلساً نيابياً فإنه يعطل طاقات ومواهب، إن وجدت، وينتقل من فتنة إلى فتنة، ومن خلاف إلى خلاف، فشتان بن مجلس ومجلس، وبين شورى وشورى، وبين رابطة ورابطة.

ولقد تكررت مشكلة سواد العراق في أرض الشام [1]، لما فتح الله على المسلمين هناك. فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك وبما سأله المسلمون من أن يقسم بينهم المدن وأهلها، والأرض وما فيها من شجر أو زرع، وأنه أبى عليهم ذلك وسأله رأيه. فكتب عمر:

«إني نظرت فيما ذكرت مما أفاء الله عليك، والصلح الذي صالحت عليه أهل

---

(١) أخبار عمر ص ٩٨ .

المدن والأمصار. وشاورت فيه أصحاب رسول الله ﷺ ، فكل قد قال في ذلك برأيه. إنّ رأيي تبع لكتاب الله تعالى، قال الله تعالى: «**للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا..**»، هم المهاجرون الأولون «**والذين جاءوا من بعدهم..**» ولد آدم الأحمر والأسود، فقد أشرك الله الذين هم بعدهم (أي المسلمين) في هذا الفيء إلى يوم القيامة. فأخر ما أفاء الله عليك في أيدي أهله، واجعل الجزية عليهم بقدر طاقتهم تقسمها بين المسلمين ويكونون عمار الأرض، فهم أعلم بها وأقوى عليها. ولا سبيل لك عليهم ولا للمسلمين معك أن تجعلهم فيئاً. وتقسمه للصلح الذي جرى بينك وبينهم ولأخذك الجزية منهم بقدر طاقتهم.

فإذا أخذت منهم الجزية فلا شيء لك عليهم ولا سبيل. أرأيت لو أخذنا أهلها فاقتسمناهم ما كان يكون لمن يأتي من بعدنا من المسلمين. والله ما كانوا يجدون إنساناً يكلمونه ولا ينتفعون بشيء من ذات يده، فاضرب عليهم الجزية، وكف عنهم السبي، وامنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم، ولا تأكل أموالهم إلا بحقها، ووف لهم بشرطهم الذي شرطت لهم في جميع ما أعطيتهم.».

وكان لرأي عمر رضي الله عنه في هذا الموضوع بركة عظيمة وخير عميم. وكذلك كتب إلى عمرو بن العاص لما سأله عمرو بن العاص عما يفعل بأرض مصر. وقد كان عمرو فتح مصر بغير عهد، وقال له الزبير يا عمرو اقسمها. فأبى. فقال: والله لتقسمنها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر.

وبذلك أمَّن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخراج يأخذه فيوزعه على المسلمين. أمَّنَ للأرضين رجالاً وللثغور حشداً، وحمى الحدود وصان ديار المسلمين. وذلك حين وفقه الله إلى فقه كريم في كتابه الكريم، وإلى وعي سديد في فهم ظروف الأمة المسلمة وواقعها.

٤ - الضمان الإجتماعي :

لما كثرت الأموال بعد أن فتح الله على المسلمين أمصاراً، جمع عمر ناساً من

أصحاب رسول الله ﷺ فقال: ما ترون؟ فإني أرى أن أجعل عطاء الناس في كل سنة، وأجمع المال فإنه أعظم للبركة. فقال علي بن أبي طالب: تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تمسك منه شيئاً. وقال عثمان بن عفان: أرى مالاً كثيراً يسع الناس، وإن لم يحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ، خشيت أن ينتشر الأمر. فقال الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أمير المؤمنين قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دوَّنوا ديواناً وجندوا، فدون وجند جنوداً. فأخذ بقوله. فدعا عقيل بن أبي طالب ومَخْرَمَة بن نوفل وجبير بن مطعم، وكانوا نسّاب قريش وكتّابَها فقال: اكتبوا الناس على منازلهم. فكتبوا.. فبدأوا ببني هاشم ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه، على الخلافة. فلما نظر إليه عمر رضي الله عنه قال: وددت والله أنه هكذا، ولكن ابدأوا بقرابة النبي ﷺ ، الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله. وكان ذلك سنة عشرين للهجرة [(١)].

ولما جاءت بنو عدي إلى عمر يسألون أن يضع عمر نفسه وقومه حيث جعله هؤلاء القوم قال: «بخ بخ بني عدي. أردتم الأكل على ظهري، وأن أهب حسناتي لكم. لا والله حتى تأتيكم الدعوة. وإنْ أطبق عليكم الدفتر (أي ولو أن تكتبوا آخر الناس). إن لي صاحبين سلكا طريقاً، فإن خالفتهما خولف بي. والله ما أدركنا الفضل في الدنيا، ولا ما نرجو من الآخرة من ثواب الله على عملنا إلا بمحمد. فهو شرفنا وقومه أشرف العرب، ثم الأقرب فالأقرب. إن العرب شرفت برسول الله ﷺ . ولو أن بعضهم يلقاه إلى آباء كثيرة. وما بيننا وبين أن نلقاه إلى نسبه ثم لا نفارقه إلى آدم إلا آباء يسيرة، مع ذلك والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل، فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة. فلا ينظر رجل إلى القرابة، ولنعمل لما عند الله، فإن من قصر به عمله، لم يسرع به نسبه».

ونرى هنا بركة الشورى حين جاء الوليد بن هشام بن المغيرة برأي استفاده مما رأى عليه ملوك الشام. وكان هذا أمراً لا يعلمه عمر نفسه. وقد أشار عمر رضي

(١) أخبار عمر ص ١٠٠.

الله عنه برأي، وأشار عثمان بن عفان رضي الله عنه برأي وأشار علي بن أبي طالب برأي آخر. وكذلك الوليد بن هشام بن المغيرة. ووضع كل من هؤلاء خبرته وإيمانه وعلمه نصحاً لأمير المؤمنين. فأخذ أمير المؤمنين بالرأي الذي رآه الأصوب. ولكنه في الوقت نفسه استفاد من الآراء كلها.

وأما بخصوص كتابة الناس على منازلهم فقد رأى رأياً من خلاصة إيمانه وصدقه وتجرده فأمضاه. وأبى على بني عدي أن ينزلوا كما أنزلهم القوم وأنفذ رأيه. ولقد جعل قاعدة للقسم بين الناس فقال: والذي لا إله إلا هو، ما أحد إلا وله في المال حق أعطيه أو منعه. وما أحد أحق من أحد إلا عبد مملوك. وما أنا فيه إلا كأحدكم. ولكننا على منازلنا من كتاب الله عز وجل، وقسمنا من رسول الله ﷺ . فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته في الإسلام، والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال، وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه. (أي بسبب السؤال والطلب) (1).

٥ - توسيع المسجد النبوي:

قال عمر للعباس: إني سمعت رسول الله ﷺ يريد أن يزيد في المسجد، ودارك قريبة، فأعطني نزدها في المسجد وأقطع لك أوسع منها:

قال: لا أفعل.

قال: إذن أغلبك عليها.

قال: ليس ذلك لك. فاجعل بيني وبينك من يقضي بالحق.

قال: ومن هو ... ؟

قال: حذيفة بن اليمان.

---

(١) أخبار عمر ص ١٠٥.

فجاءوا إلى حذيفة فقصوا عليه. فقال: عندي من هذا خبر. قال وما ذاك. قال: إن داود عليه السلام أراد أن يزيد في بيت المقدس، وقد كان بيت قريب من المسجد ليتيم، فطلب إليه فأبى، فأراد داود أن يأخذها منه. فأوحى إليه الله أنَّ أنزه البيوت عن الظلم لبيتي ، فتركه. فقال العباس: فبقي شئ؟ قال: لا !

قال العباس: قد أعطيتك الدار تزيدها في مسجد رسول الله ﷺ . فزادها عمر في المسجد ثم أقطع العباس داراً أوسع منها بالزوراء [1].

٦ - حفر الخليج:

دعا عمر بن الخطاب عمرو بن العاص أن يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر. ثم قال لهم: يا عمرو إن الله قد فتح على المسلمين مصر، وهي كثيرة الخير والطعام. وقد أُلقَي في روعي لما أحببت الرفق بأهل الحرمين والتوسيع عليهم، حين فتح الله عليهم مصر، وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين، أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل في البحر، فهو أسهل لما نُريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة. فإن حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ منه ما نريد، فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا في ذلك حتى يعتدل رأيكم.

وهذا نموذج جديد للشورى. لقد طرأت هذه الفكرة لعمر، فدعا إليها أناساً من أهل مصر ليتشاوروا فيما بينهم حولها حتى يعتدل رأيهم، فيرفعوه إليه.

وما طلبه عمر هو أن يتشاور القوم في إمكانية تنفيذ حفر الخليج ووسائله، وما يحتاجون لإنجاحه.

فلما عرض عمرو ذلك على أصحابه ثقل الأمر عليهم. وقالوا: نتخوف أن يدخل في هذا ضرر على أهل مصر. فنرى أن تعظم ذلك على أمير المومنين، وتقول إن هذا الأمر لا يعتدل ولا يكون ولا نجد له سبيلا. فلما عاد عمرو إلى عمر، ضحك عمر حين رآه وقال: والذي نفسي بيده كأني أنظر إليك يا عمرو

(١) أخبار عمر ص ١٣٥.

وإلى أصحابك حين أخبرتهم بما أمرتكم به من حفر الخليج، فثقل عليهم ذلك وقالوا: يدخل في هذا ضرر على أهل مصر، فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له: إن هذا أمر لا يعتدل ولا يكون ولا نجد له سبيلا. فعجب عمرو من قول عمر: وقال: صدقت والله يا أمير المؤمنين، لقد كان الأمر على ما ذكرت.

فقال له عمر: انطلق يا عمرو بعزيمة مني حتى تجد في ذلك، ولا يأتي عليك الحول حتى تفرغ منه إن شاء الله. وكان ذلك، وحفر الخليج الذي في جانب الفسطاط الذي يقال له خليج أمير المؤمنين، فساقه من النيل إلى القلزم (البحر الأحمر)، فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن [1].

وهذه هي قوة عمر بن الخطاب، لا يؤخذ عن غفلة، ولا يخدع، ولا يلفق له الآراء تلفيقاً. إنه هو القائل: لست بالخب، ولا الخب يخدعني.

وحق لعمرو أن يعجب حين فاجأه عمر بما دار بينه وبين القوم. وهذه المفاجأة في حد ذاتها درس عظيم لعمرو، حتى يزداد فهماً لأميره وطاعة له، وحسن مشورة ورأي.

وهذه فراسة عمر بن الخطاب، حين يعرف الرجال، ويميز الأفعال، يزن الآراء والأقوال.

وكم يحدث في أجواء الحكم في تاريخ الإنسان أن تلتقي مجموعة على رأي فيه هوى وتخاذل، فيحاولون تزيينه لأولي الأمر، حتى يمضي الهوى وتنفذ المآرب. ففي هذه الحالات يجعل الله إن شاء من ولي الأمر حامياً وبصيراً. فله أن يرد الأهواء ويميت الشهوات، ويمضي الحق. فالإيمان والعلم والخبرة والمواهب والقدرات، كلها تجتمع لتجعل من ولي الأمر بصراً نافذاً، ورأياً صائباً لا تضله الأكثرية.

(١) أخبار عمر ص ١٣٧ .

٧ - اختيار العمال والولاة:

وكان عمر يختار الولاة بنفسه، ويعمل كل وسعه ليطمئن على حسن اختياره، ثم إلى حسن سيرة الولاة وعملهم. فكان إذا استعمل رجلاً كتب عليه كتاباً أشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار، بأنه لا يظلم أحداً في جسده ولا في ماله، ولا يستغل لفائدة أو مصلحة له أو لمن يلوذ به. وكان يقول له: إني لم أستعملك على دماء المسلمين، ولا على أعراضهم، ولكن استعملتك لتقيم فيهم الصلاة، وتقسم بينهم، وتحكم فيهم بالعدل[1]، وكان له عيونه تأتيه بالأخبار كلها، وأحوال العمال والولاة، والأمصار والأقطار.

ومن روائع كلماته: أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم، ثم أمرته بالعدل، أكنت قضيت ما عليَّ؟ قالوا: نعم. قال: لا. حتى أنظر في عمله، أَعَمِلَ بما أمرته أم لا.

فكان يعين الولاة ويعزلهم على أساس من نهج واضح وخطة بينة، لم يكتمها وإنما أعلنها وبيّنها، وأعادها وكررها، ورأى الناس قوة تنفيذه وعدالة ميزانه. ومع ذلك فقد كان يستشير إذا أعوزه الرأي، ولم يرض بما يجد هو.

قال عمر لأصحابه: دلوني على رجل أستعمله على أمر قد أهمني. قالوا: فلان. قال: لا حاجة لنا فيه. قالوا: فمن تريد؟ قال: أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم. وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم. قالوا: ما نعرف هذه الصفة إلا في الربيع بن زياد الحارثي. قال: صدقتم. فولاّه[1].

فهنا أجرى عمر الشورى على موضوع حدده ووضع معالمه. ولم تكن عادته أن يستشير عن كل تعيين أو عزل. ولكنها حالة خاصة لم يسعفه رأيه بالرجل الذي يريد فاستشار أصحابه. وكانوا أصحابه حقاً فقد صدقوه ونصحوه.

ومن جميل قوله: أشكو إلى الله جلد الخائن وعجز الثقة. ومن طرائف

---

(١) أخبار عمر ص ١٤١.

مشورته في تعيين الولاة ما حدث في أمر تعيين ولاة الكوفة. فقد قال: أعياني أهل الكوفة، إن استعملت ليناً أستضعفوه، وإن استعملت شديداً شكوه. ولوددت لو أني وجدت قوياً أميناً مسلماً استعمله عليهم. فقال رجل: يا أمير المؤمنين أنا والله أدلك على الرجل القوي الأمين المسلم. فأثنى عليه قال من هو؟ قال: عبد الله بن عمر. قال عمر: قاتلك الله، والله ما أردت الله بها (١).

٨ - الاستماع للنصح:

طلب علي وعثمان وطلحة والزبير وسعد إلى عبد الرحمن بن عوف أن يكلم أمير المؤمنين أن يلين للناس، فإن الرجل طالب الحاجة يأتيه فتمنعه هيبته أن يكلمه في حاجته. فيرجع وما يقضي حاجته. فذهب إليه عبد الرحمن بن عوف وحدثه بذلك. فقال له: يا عبد الرحمن أنشدك الله أعلي وعثمان وطلحة والزبير وسعد أمروك بهذا؟ قال: اللهم نعم. قال يا عبد الرحمن لقد لنت للناس حتى خشيت الله في اللين. ثم اشتددت حتى خشيت الله في الشدة. وأيم الله لأنا أشد منهم فرقاً منهم مني. فأين المخرج؟ وقام يبكي يجر رداءه. فجعل عبد الرحمن يقول: أف لهم من بعدك (٢).

وجاءت برود اليمن ففرقها عل الناس. ثم صعد المنبر يخطب وعليه حلة منها (أي بردان) فقال: اسمعوا يرحمكم الله. فقام إليه سلمان، فقال: والله لا نسمع، والله لا نسمع. فقال : لم يا أبا عبد الله؟ فقال ياعمر تفضلت علينا بالدنيا وفرقت علينا برداً برداً، وخرجت تخطب في حلة منها؟ فقال: أين عبد الله بن عمر؟ فقالَ: هآنذا ! يا أمير المؤمنين فقال: لمن أحد هذين البردين اللذين عليَّ؟ قال: لي. فقال لسلمان: عجلت عليَّ يا أبا عبد الله. إني كنت غسلت ثوبي الخلق، فاستعرت ثوب عبد الله. فقال سلمان: أما الآن فقل نسمع (٣).

---

(١) أخبار عمر ص ١٤١.
(٢) أخبر عمر ص ١٧١.
(٣) أخبارعمر ص ١٧٣.

فهذان مثلان، وغيرهما كثير في حياة أمير المؤمنين عمر، يكشفان لنا هذا الجانب الوضيء من طبيعة الشورى في خلافته. فالذي يؤمن بالشورى يؤمن بالنصيحة، والذي يحب أن ينصح، فعليه أن يتقبل أيضاً النصح، ويسمع الكلمة المخلصة الأمينة. وبدون هذه الصفة لا تنسجم طبيعة الشورى ولا تتكامل.

ففي المثل الأول تنتهي النصيحة بأن يبكي عمر من خشية الله، وهو حائر يبحث عن المخرج بين الشدة واللين في حكمه. وإنه لشعور خاص لا يكاد يدركه إلا المؤمن الذي يستطيع أن يعيش هذه الحالات النفسية، أو أن يتصورها حق التصور. وإنه لأمر محير حقاً، وابتلاء من الله. إن الحاكم التقي النقي يحتاج إلى الشدة حتى يرعوي المفسدون، وإنه يحتاج إلي الرحمة حتى يفيء إليها المستضعفون. ويمارس عمر رضي الله عنه الشدة، وهو خائف من الله سبحانه وتعالى، حتى يرعب بها أهل الشر. ثم مارس اللين وهو خائف من الله تعالى. وهكذا يتناوبه هذا الشعور وذلك الشعور، وفي كل حالة تكون خشية الله هي الأساس. وبعد هذا التناوب، وبين هذه الحيرة، وهو كاظم ما يجد بينه وبين نفسه، فإنه يَشعر بما يحس به أصحابه من حوله، سامع لما يتداولون به من أمره. فما يكاد عبد الرحمن بن عوف ينصح ويقول، حتى ينفلت الشعور من عمر، ويكشف عما يحس ويشعر، ثم يفرغ حيرته كلها. وخشيته كلها، في أدمع انطلقت من جفونه.

وفي المثل الثاني: علانية، أمام الناس، دون أي مقدمات ينهض سلمان في المسجد فيقول ما يقول. والقائل هو سلمان الصحابي رضي الله عنه، يحب عمر، وعمر يحبه. وهذا هو الحب الصادق في الله، حيث ينظر في مستقبل أخيه بين يدي الله، فيعينه في الدنيا عون المؤمن، حتى ينجو في الآخرة. وهكذا تكون النصيحة والرأي، وهكذا تكون الشورى.

٩ - التاريخ الهجري

كتب أبو موسي الأشعري إلى عمر بن الخطاب أن رسائله ترد دون تاريخ. ورُفِعَ إليه صك محله شعبان فقال أي شعبان؟ ونقل إلى عمر أناس أنهم رأوا أهل

اليمن يؤرخون، وكذلك الروم والفرس. فجمع وجوه الصحابة وعرض عليهم الأمر فقال:

إن الأموال قد كثرت، وما قسمنا منها غير مؤقت، فكيف التوصل إلى ما يضبط ذلك.

فقال قائل: اكتبوا على تاريخ الروم.

فقيل إنه يطول وإنهم يكتبون من عند ذي القرنين.

فقالوا: يجب أن يُعرَف ذلك من رسوم الفرس.

فاستحضر عمر بن الخطاب رضي الله عنه الهرمزان وسأله عن ذلك.

فقال: إن لنا حساباً نسميه: ماه روز (حساب الشهور والأيام). وبينه لهم: فأراد عمر والناس أن يكتبوا من مبعث رسول الله ﷺ .

ثم قالوا: من عند وفاته.

ثم قالوا : من مولده.

وقال علي بن أبي طالب : منذ خرج النبي ﷺ من أرض الشرك، يعني يوم هاجر.

فاتفقوا على أن يكون المبدأ من سنة الهجرة. وكانت الهجرة من مكة إلى المدينة في ربيع الأول. فقال: بأي شهر نبدأ فنصيره أول السنة؟

فقالوا: رجب. فإنَّ أهل الجاهلية كانوا يعظمونه. وقال غيرهم: شهر رمضان، وآخرون قالوا : ذو الحجة، وآخرون: الشهر الذي خرج منه من مكة.

وقال غيرهم: الشهر الذي قدم فيه.

فقال عثمان: أرخوا من المحرم أول السنة، وهو شهر حرام وأول الشهور في العدة وهو منصرف الناس عن الحج [1].

(١) أخبار عمر ص ٢٧٠.

وبهذه الشورى استفاد المسلمون من كل الخبرات التي لديهم، ومن آراء أهل الرأي وملاحظة كل عامل.

فإن تتابع الملاحظات، كملاحظة أبي موسي الأشعري، عن رسائل أمير المؤمنين، كانت جزءاً من حياة الشورى، وسلامة النصح، وجودة الرأي.

ونرى هنا، ما نراه دائماً في حياة الصحابة، نرى المبادرة الذاتية النابعة من الإيمان والعلم، ومعرفة الحدود والمنازل. فقد كان يمكن لأبي موسى أو غيره أن يصمت ولا يشير. ولكنها المسئولية والأمانة، والإيمان والعمل.

فإذا أخذنا هذه النماذج من الشورى في سياسة عمر بن الخطاب أمير المؤمنين في المال والإدارة، فإن له أمثلة أخرى أمضاها دون الرجوع إلى الشورى. فإذا استشار في تعيين ولاة أو عمال، فقد عين آخرين دون مشورة أحد، وإذا استشار في أمر إداري فقد أمضى غيره دون شورى. ولكن مواقف عمر بن الخطاب كلها كانت مواقف واضحة قوية، لا يقوم مقاماً ليس لديه عليه حجة. وهو يعرف منزلته وحدوده، وهو يبحث عن الحق يتبعه أين كان.

فهو أول من عسَّ وأول من حمل الدرة وأدّب بها، وأول من مسح السواد، ووضع الخراج على الأرضين والجزية على الناس من أهل الذمة، ومصر الأمصار، ودون الدواوين، وكتب الناس على قبائلهم، ووضع في طريق السبل ما بين مكة والمدينة، ما يصلح من ينقطع به ويحمله من الماء إلى ماء. وهو أول من أخذ زكاة الخيل، وأول من وضع العشر ...إلخ.

الفصـل الثــاني

القضــاء

وكان يُمضي قضاءه وهو مطمئن إلى عدله وحجته. ولكنه لم يكن يمتنع عن الشورى كلما احتاج إليها في القضاء.

١ - قدامة بن مظعون:

وكان عاملاً على البحرين، وقد شهد بدراً، وهو خال ابن عمر وحفصة زوج النبي ﷺ .

فشكاه رجل إلى عمر، بأنه يشرب الخمر، وأشهد على ذلك أبا هريرة الذي قال: لم أره حين شرب وقد رأيته سكران يقيء. فقال له عمر: لقد تنطعت أبا هريرة في الشهادة.

فاستدعى عمر قدامة إلى المدينة، ثم شهدت عليه زوجه هند بنت الوليد. فلما سأله عمر قال: والله لو شربت كما يقولون ما كان لك أن تجلدني يا عمر.

قال: ولم ياقدامة.

قال: إن الله عز وجل يقول: ﴿ **لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴿٩٣﴾ ﴾ [المائدة : ٩٣]

فقال عمر: إنك أخطأت التأويل يا قدامة. إذا اتقيت اجتنبت ما حرم الله. ثم أقبل عمر على القوم فقال: ما ترون في جلد قدامة.

قالوا: لا نرى أن تجلده وهو مريض.

فسكت عن جلده أياماً. ثم أصبح وقد عزم على جلده.

فقال لأصحابه: ماذا ترون في جلد قدامة؟

فقالوا: لا نرى أن تجلده ما دام وجيعاً.

فقال عمر: إنه والله لأن يلقى الله تحت السياط أحب إليَّ من أن ألقى الله وهو في عنقي. إني والله لأجلدنه، ائتوني بسوط. ثم جلده [(١)].

٢ - المرأة التي جاءها المخاض:

خافت المرأة لما بعث عمر أمير المؤمنين في طلبها. وجاءها المخاض من شدة الخوف ومات ولدها.

جمع عمر المجاهدين والأنصار يستشيرهم في ذلك. فأشاروا عليه أنه إنما هو راع وإنما كان مؤدباً. ثم سأل علياً وكان بينهم، فقال: إنه كان القوم بايعوك على هواك والله ما نصحوا لك. وإن يكونوا اجتهدوا رأيهم فوالله لقد أخطأهم الرأي. عزمت عليك يا أمير المؤمنين أما ودية. قال: فعزمت عليك بما قمت فقسمها على قومك [(٢)].

لقد رأى الصحابة هنا رأياً أشاروا به على أمير المؤمنين وخالفهم علي بن أبي طالب. فأخذ عمر برأيه. ونرى هنا حرية الرأي وصدق المشورة وقوة التعبير وأدب السمع والطاعة، والتزام ما هو أقرب للتقوى.

٣ - المرأة التي غاب عنها زوجها غازياً:

خرج ذات ليلة يعس، فسمع امرأة مغلقة عليها بابها، تنشد أبياتاً من الشعر تفيض شوقاً إلى لقاء زوجها ورغبة إليه. فضرب باب الدار، فما فتحت له حتى اطمأنّت أنه أمير المؤمنين. واطمأن هو إلى عفافها. فقال لها: هيه كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قالت. فقال أين زوجك؟ قالت: في بعث كذا وكذا. فبعث إلى

---

(١) أخبار عمر ص ١٦٠.

(٢) عمر بن الخطاب – جمال الدين الجوزي.

عامل ذلك الجند أن سرح فلاناً. فلما قدم عليه قال: اذهب إلى أهلك. ثم دخل على حفصة ابنته. فقال: أي بنية كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قلت: شهراً واثنين وثلاثة وفي الرابع ينفذ الصبر. فجعل ذلك أجلا للبعث.

هكذا يبحث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الحق ويتحراه، وهكذا يجري الشورى لهذه الغاية وهذا الهدف. وهكذا يعيش عمر مع الشورى في الأمور الصغيرة والكبيرة، ويسأل المرأة ويسأل الرجل، يسأل الفرد ويسأل الجماعة، يذهب للناس ويأتون إليه، يطرق كل أبواب الشورى.

٤ - حذيفة بن اليمان:

لما كانت القادسية ولم يجد الناس نساء مسلمات، ووجدوا أهل الكتاب. فلما كثر المسلمات بعث عمر بن الخطاب إلى حذيفة بن اليمان بعدما ولاه المدائن: بلغني أنك تزوجت امرأة من أهل الكتاب، فطلقها. فكتب إليه حذيفة لا أفعل حتى تخبرني أحلال أم حرام؟ وما أردت ذلك؟ فكتب إليه: لا بل حلال. ولكن في نساء الأعاجم خلابة، فإن أقبلتم عليهنّ غلبنكم على نسائكم فقال : الآن ! فطلقها.

هذا هو الوضوح والصدق، وهذا هو الالتزام بمنهاج الله. وهذا هو السمع والطاعة، هذا كله يترابط في ممارسة الإيمان في حياة الأمة المسلمة التي رباها رسول الله ﷺ .

وكذلك كان الفهم الواعي لواقع المسلمين وهم يمتدون وينتشرون مع دعوة الله في الأرض. فكان عمر رضي الله عنه، يفهم واقع الدعوة فهماً واعياً نابعاً من إيمانه، ومن فهمه لدين الله. وعلى أساس هذا الفهم أمر حذيفة بطلاق كتابية. ولكن حذيفة، وهو ملتزم بمنهاج الله الذي تعلمه بين يدي النبوة، رد الأمر إلى دينه وسأل: أحلال أم حرام؟ وكانت ممارسة كريمة من حذيفة لإيمانه وهو يسأل، وفي سؤاله نصح وتذكير.

ويسأل كذلك: وما أردت بذلك؟ فهذا هو السمع الذي تحدثنا عنه سابقاً، هذا هو السمع الذي هو الفهم والوعي والإدراك.

وكانت إجابة عمر إجابة الحق والصدق، وإجابة الوعي والفهم. فقال حذيفة الآن ! وسمع وأطاع، وطلق وقد صدر إليه الأمر. سمع وأطاع في تطليق زوجته وهو يعلم، وعمر يعلم، أن ذلك حلال. سمع وأطاع وانتهى من أمر حلال لا حرمة فيه، دون هوى ومراء، وجدال.

ما أعظمها من شورى، وما أكرمها من وضوح وحرية رأي، وما أطيبها من سمع وطاعة.

ومع هذه الشورى الواسعة في حياة عمر رضي الله عنه ، فقد أمضى أموراً أخرى كثيرة دون شورى، حين وجد أن الأمر لا يستدعي الشورى.

فلقد منع سهم المؤلفة قلوبهم وفيها نص. وأمضى الطلاق ثلاثاً بكلمة واحدة وأوقف حد السرقة عام الرمادة، ومنع العمرة في أشهر الحج وخالفه بعض الصحابة رأيه، ولكنهم التزموا اجتهاده وسمعوا له وأطاعوا.

يقول أبو موسى الأشعري: إني كنت أرى غير رأي أمير المؤمنين (بخصوص العمرة في أشهر الحج)، ولكني تركت رأيي طاعة لأمير المؤمنين.

ولو كان في رأي عمر إثم أو معصية أو خروج عن منهاج الله، لما أطاعه أحد من الصحابة ولا سمعوا له. وكان رأي عمر مبنياً على فهمه لنص القرآن الكريم في آيات الحج في سورة البقرة: **وأتموا الحج والعمرة لله.** فقد قال عمر: إن الله كان يحل لرسوله ما شاء، بما شاء وإن القرآن قد نزله منازله، فأتموا الحج والعمرة لله كما أمركم.

وعين الولاة والعمال وقادة الجند دون الشورى، وعين بعضهم على شورى.

رأينا في هذا الفصل أمثلة ونماذج الشورى التي كان يديرها عمر في ميدان

القضـاء، ورأينا كيف أنه كـان يقـضي بأمـور دون شـورى. وفي هـذه وتلك، كـان يبحث عن الحق بكل وسيلة من وسائل منهاج الله.

وكما رأينا في الفصل السابق ، فقد جعل عمر نـهجاً وخطة للحكم. جعل نهجاً أعلنه على الناس وبينه لهم. وكـان نهجه قائماً على قاعدتين كبيرتين: منهاج الله كـما تعلمه وتدرب عليه في مدرسـة النبوة، وفهمـه للواقع فـهماً مبنياً على منهاج الله.

ولكن عمر رضي الله عنه لم يضع نهجاً أو خطة عامة للحكم فحسب، وإنما وضع نهجاً وخطة لكل ميدان، ولكل ممارسة. فقد وضع للإدارة والولاة نهجاً وخطة، ووضع للمال نهجاً وخطة، ووضع للقضاء كذلك نـهجاً وخطة. وكل خطة وضعها أو نهج كان يقوم على القاعدتين الكبيرتين.

ولذلك أصبح للأمة المسلمة نهجها العام وهو المنهاج الرباني الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ وبلغه الرسول إلى الأمة والناس. وهذا المنهاج الرباني كان يحكم الأمة كلها بجميع درجاتها ومستوياتها، وجميع عناصرها وفئاتها، وجميع ميادينها وممارستها.

وبالإضافة إلى المنهاج العام للأمة فـقد كان هنالك نهج لكل ميدان وكل تطبيق: نهج للحكم، نهج للإدارة، نهج للسياسة، نهج للمال، ونهج للقضاء . وهذا النهج كـان يصدر عن المنهاج العام للأمة – المنهاج الرباني – ويقوم على ضوء الواقع والأحوال التي تمر بها الدعوة.

وبذلك كان المنهاج العام والنهج الخاص يؤلفان قاعدة وأساساً للشورى التي تقوم بين الناس، وقد خضعوا لهذا النهج وتلك الخطة.

ولنستمع إلى نهج عمر في القضاء وهو يكتب إلى أبي موسى الأشعري ليضع دستوراً وخطة يلتزمها أبو موسى، ويلتزمها كذلك عمر أمير المؤمنين رضي الله عنهما:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس.

سلام عليك . أما بعد.

فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك. وأنفذ إذا تبين لك، فإنه لا ينفع حق لا نفاذ له.

آس بين الناس (أي سو بينهم) في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك.

البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً ، أو حرّم حلالاً.

ولا يمنعك قضاء قَضَيْتَهُ بالأمس، فراجعت فيه نفسك، وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم لا يبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، واعرف الأشباه والأمثال، ثم قس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أحبها إلى الله، وأشبهها بالحق فيما ترى.

واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذت له بحقه، وإلا استحللت عليه القضاء، فإن ذلك أنفى للشك، وأجلى للعمى، وأبلغ في العذر.

والمسلمون عدول في الشهادة بعضهم على بعض، إلا مجلوداً في حد، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في ولاء أو قرابة، فإن الله قد تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم الشبهات.

وإياك والقلق والضجر، والتأذي للناس، والتنكير للخصوم في مواطن الحق

التي يوجب الله بها الأجر، ويحسن الذخر، فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه، يكفه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس فيما يعلم الله خلافه منه شانه الله وهتك ستره، وأبدى فعله، فما ظنك بثواب عند الله عز وجل في عاجل رزقه، وخزائن رحمته والسلام [1].

فهذه خطة عمر رضي الله عنه في القضاء، جمع فيها القواعد والأسس والآداب والأصول، والوسائل والأساليب، جمعها في هذه الخطة جمعاً رائعاً. وهي مع ذلك قطعة أدبية بما فيها من بيان ومقاطع وتناسق. وهي قطعة فكرية سمت بقوتها وصدقها إلى منزلة عالية. ولقد كتبت قبل أربعة عشر قرناً، ولكنها ستظل منهلاً يعين القضاء والمفكرين في كل عصر وجيل، ليعودوا فيأخذوا من منهاج الله كما أخذ عمر.

ولقد برزت في هذه الخطة موهبةعمر وطاقته وقدراته التي منَّ ا الله بها عليه. ولكن برز مع هذا إيمان عمر، وفقه عمر، وفهم عمر لكتاب الله وسنة نبيه، فهمه لمنهاج الله، وللواقع الذي سيطبق فيه منهاج الله.

فلو أن عمر حاول أن يضع مثل ذلك في أيام جاهليته ما استطاع أن يبلغ شيئاً من ذلك، مهما حاول ومهما بذل، ومهما كدَّ وتعب. ولكنه منهاج الله ومدرسة النبوة، فتحا لعمر أبواب الخير، فزكت مواهبه، ونمت قدراته وارتفعت طاقته. إنه فضل الله على عمر نفسه، وعلى إخوان عمر، وعلى المسلمين والحمد لله رب العالمين.

وهكذا قامت الشورى على منهاج عام يحكم الأمة، ونهج خاص صادر عن منهاج الله يعالج الواقع على أساس من دين الله.

فلما استقر هذا النهج أصبحت ممارسة حرية الرأي، والنصيحة، والسمع والطاعة أمراً ميسوراً، وعملاً سهلاً لمن سهل الله له ذلك بإيمان وعلم وقدرة.

---

(١) أخبار عمر ص (١٨٤) ، الوثائق السياسية ص (٣٢٧) ، إعلام الموقعين عن رب العالمين ج١ ، ج٢.

وعلى أساس من هذا النهج، أصبحت منازل الناس أكثر وضوحاً، وحدودهم أكثر وضوحاً، وميادينهم أوسع، تمتد وتتسع مع اتساع الإيمان والعلم، والبذل والعطاء، والموهبة والقدرة، والخبرة والممارسة.

الفصـل الثـالث
الفتــوح

وإذا كـان عـمر رضي الله عنه قـد وضـع خطة لـلحكم، وأعلن نهـجاً للإدارة، ورسم سياسة للمال، وأقر نهج القضاء، فلم يكن هذا الأسلوب محصوراً في هذه الميادين وحـدها فـحسب، وإنما امـتـد إلى كل ميـادين نشاط أمير المؤمنين، وما أوسعها. لقد كانت تتسع هذه الميادين اتساع إيمانه، وتمتد امتداد طاقته، وتعلو علو همته.

وعلى هذا النحو من الجهـد والعمـل وضع نهـجاً للفـتـوح وخطة للعـمل العسكري، وسياسة للجهاد في سبيل الله. وكمـا ذكرنا سابقاً، فكل خطة أو نهج أو سياسة يضعهـا أمير المؤمنين عمر، إنما هي مستمدة من المنهاج الرباني الذي يحكم الأمة كلهـا، وعلى ضـوء الظروف المتجددة والأحداث المتـتابعة والواقع البشري.

وخير مـا يبين نهج عمر وخطته في الفتوح والجهـاد وصاياه لقادة جيوشه. ولنأخذ من هذه الوصايا نماذج لنتلمس معالم هذه الخطة. ونحن في بحثنا هذا لا نهدف إلى استيعاب تفاصيل كل خطة وجزئياتها، ولكننا نهـدف إلى إبراز هذه الحقيقة وتصوير هذا المبدأ. ونهـدف لهذا الأمر، لأنه، كما أسلفنا، يمثل قاعدة من قواعد الشورى وأسسها.

١ - وصيته لأبي عبيدة :

ففي كتابه إلي أبي عبيدة حين ولاه على جند خالد في جبهة الشام يوصيه فيه ويقول له :

أوصيك بتقـوى الله الذي يبـقى ويفنى مـا سـواه، الذي هدانا من الضـلالة

وأخرجنا من الظلمات إلى النور. وقد استعملتك على جند ابن الوليد، فقم بأمرهم الذي يحق عليك، لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم، وتعلم كيف مأتاه، ولا تبعث سرية إلا في كثف من الناس، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة. وقد ابتلاك الله بي وابتلاني بك. فغمِّضْ بصرك عن الدنيا وأَلْه قلبك عنها، وإياك أن تُهلكَكَ كما أهلكت من كان قبلك، فقد رأيت مصارعهم (١).

ففي هذه الوصية حدد عمر مسئولية قائد الجند نحو نفسه: «**أوصيك بتقوى الله...**» «**فغَمِّضْ بصرك عن الدنيا ....**» ونحو جنده: «**فقم بأمرهم...**». كما بين ملامح من أهداف الجهاد في سبيل الله، ونفى عنه أن يكون سعياً وراء غنيمة أو مطلباً لدنيا: «**لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة....**».

٢ - وفي وصيته لسعد:

يا سعد بن وهيب، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته. فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة. فانظر الأمر الذي رأيت عليه النبي ﷺ منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر. هذه عظتي إياك، إن تركتها ورغبت عنها، حبط عملك، وكنت من الخاسرين (٢).

وفي هذه الوصية يدفع عن نفس سعد الغرور والاعتزاز بغير الله. وحق لعمر أن يوصي بذلك، وسعد مقبل على أرض جديدة وقوم آخرين، فلا يدرك الغلبة عليهم إلا بطاعة الله، والتجرد له.

---

(١) أخبار عمر ٧٢.
(٢) أخبار عمر ٧٣.

٣ - وكتب إلى سعد أيضاً :

أما بعد فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين، وتوكل على الله، واستعن به في أمرك كله. واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير، وعدتهم فاضلة، وبأسهم شديد، وعلى بلد منيع وإن كان سهلاً، كؤود لبحوره وفيوضه ودأدائه، إلا أن توافقوا غيضاً من فيض. وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدأوهم الشد والضرب، وإياكم والمناظرة لجموعهم. ولا يخدعنكم فإنهم خدعة مكرة. أمرهم غير أمركم إلا أن تجالدوهم. وإذا انتهيت إلى القادسية، والقادسية باب فارس في الجاهلية، وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم، ولما يريدونه من تلك الأصول، وهو منزل رغيب (واسع)، خصيب حصين، دونه قناطر وأنهار ممتنعة، فتكون مسالحك على أنقابها، ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر، والجراع بينهما، ثم الزم مكانك فلا تبرحه، فإنهم إن أحسوا أنك أنقضتهم رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدِّهم وجدِّهم، فإذا أنتم صبرتم لعدوكم، واحتسبتم لقتاله، ونويتم الأمانة، رجوت أن تنصروا عليهم. ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً، إلا أن يجتمعوا، وليست معهم قلوبهم. وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم أجرأ وبها أعلم. وكانوا عنها أجبن وبها أجهل، حتى يأتي الله بالفتح عليهم، ويرد لكم الكرة (١).

ونشعر هنا ونحن نقرأ ذلك أن عمر كان يعيش مع جيشه ومع قواده يعيش معهم في كل حركة وكل منزل، ويتتبع خطواتهم بقلب رحيم عاطف، قوي واجف.

٤ - وكتب إلى النعمان بن مقرن:

ومما كتبه إلى النعمان بن مقرن المزني وهو في نهاوند : «... فإن رجلاً من المسلمين أحب إليَّ من مائة ألف دينار والسلام عليك» (٢).

(١) أخبار عمر ٧٤ .
(٢) أخبار عمر ٧٦ .

٥ - وكتب إلى عمرو بن العاص:

«.... وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف. فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل الرحمة فيها ووقت الإجابة، وليعج الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم» (١).

وكان مما خطب به الناس قبل عودته من الشام:

«ألا إني قد وليت عليكم وقضيت الذي عليَّ في الذي ولاني من أمركم إن شاء الله، قسطنا بينكم فيأكم ومنازلكم ومغازيكم، وأبلغنا ما لديكم فجنَّدنا لكم الجنود، وبوأناكم، ووسعنا عليكم، ما بلغ فيؤكم، وما قاتلتم عليه من شامكم، وأمرنا لكم بأعطائكم وأرزاقكم ومعادنكم، فمن عَلِمَ عِلْمَ شيء ينبغي العمل به فبلغنا، نعمل به إن شاء الله ولا قوة إلا بالله».

هذه ملامح من وصايا عمر أمير المؤمنين إلى قواده، ومن رسائله وكتبه إليهم. وعلى أساس هذه التوجيهات، كانت تدور بين عمر وقواده الرسائل يتبادلونها رأياً ومشورة ونصحاً. وكان عمر يتابع المعارك في جبهات ثلاث، وهو في المدينة المنورة، حوله إخوانه أصحاب رسول الله ﷺ ينصحون له ويشيرون ويعينون.

فقد كتب إليه سعد بأن ملك الفرس ولَّى رستم قيادة الجيش وأمره بالعسكرة أمام المسلمين. فكتب إليه عمر: لا يكربنك ما يأتيك عنهم، ولا ما يأتونك به، واستعن بالله وتوكل عليه. وابعث إليه رجالاً من أهل المنظرة والرأي والجلد يدعونه. فإن الله جاعلٌ دعاءهم توهيناً لهم وفلجاً عليهم.

---

(١) أخبار عمر ص ٧٦.

وهكذا كـان جميع أمراء الجنود يكتبون إلى عمر بكل أمر صغير أو كبير لإعلامه وإطلاعه من ناحية، ولاستشارته وطلب توجيهاته من ناحية أخرى.

٦ - خروجه إلى الجهاد :

أراد عمر الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، على رأس الجيش المتوجه إلى العراق. فخرج حتى أتى صراراً، (وهي بئر قرب المدينة). وقدم طلحة بن عبيد الله حتى يأتي الأعوص، وسمَّى لميمنته عبد الرحمن بن عوف، ولميسرته الزبير بن العوام رضي الله عنهم، واستخلف علياً على المدينة، استشار الناس فكلهم أشار عليه بالسير إلى فارس، ولم يكن استشار في ذلك حتى نزل بصرار ورجع طلحة. فاستشار ذوي الرأي فكان طلحة ممن تابع الناس، وكان عبد الرحمن بن عوف ممن نهاه. فقال عبد الرحمن: «فما فديت أحداً بأمي وأبي بعد النبي ﷺ قبل يومئذ ولابعده. فقلت: بأبي وأمي اجعل عجزها بي (أي إن عجز فقل هذا رأي عبد الرحمن)، وأقم وابعث جنداً، فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد، فإنه إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك، وإنك إن تقتل أو تهزم في أنف الأمر، خشيت أن لا يكبر المسلمون وأن لا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً، وهو في ارتياد من رجل. وأتى كتاب سعد على حَفَف مشورتهم، وهو على بعض صدقات نجد. فقال عمر: فأشيروا علي برجل. فقال عبد الرحمن: وجدته. قال من هو ؟ قال : الأسد في برائنه، سعد بن مالك، ومالأه أولو الرأي [(١)].

لقد بدأ عمر، كما يبدو من هذه الرواية، أمره بعزم وتصميم. فما استشار أحداً حتى بلغ صراراً واستخلف على المدينة وعين ميمنته وميسرته فالعزيمة هنا واضحة. واستشار الناس هناك. فكان رأيهم أن يمضي على هذا الأمر. وكان هذا رأي الأغلبية حسب لغة عصرنا اليوم. وكان رأي عبد الرحمن بن عوف يمثل رأي الأقلية. فأخذ عمر برأيهم واقتنع بحجتهم ورجع عن عزمه الأول.

---

(١) أخبار عمر ص ٧٧ وحياة الصحابة ج١ ص٦٥٩، تمام الوفاء في سيرة الخلفاء للخضري ص ٧٣ والنص من حياة الصحابة. .

وفي رواية أخرى ، تبين أن عمر استشار الناس أولاً في المسجد، فقال العامة سر وسر بنا معك. ثم جمع أهل الرأي وطلب منهم المشورة فأجمع ملؤهم على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ويقيم ويرميهم بالجنود [1].

وفي هذه الرواية نجد اتساع ميدان الشورى، ونجد حرص عمر رضي الله عنه على البحث والتحري عن الحق وخير المسلمين، حتى لا يكاد يدع الأمر إلا أن تطمئن نفسه هو للحق أو لوجه من وجوهه.

٧ - والطاعون في الشام : [2]

وهو في طريقه إلى الشام لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة وأصحابه. فأخبروه أن الطاعون في الشام. فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم واستشارهم وأخبرهم أن الوباء وقع في أرض الشام، فاختلفوا :

فقال بعضهم معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء. وقال بعضهم: قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه. فقال : ارتفعوا عني. ثم قال : ادع لي الأنصار، فدعوتهم (والخطاب موجه إلى ابن عباس). فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين فاختلفوا كاختلافهم. فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: ادع لي من كان ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم. فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس فلا تقدمه على هذا الوباء. فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه. قال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت لو كانت لك إبل هبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى مجدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله. فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً في

---

(١) أخبار عمر ص ٧٩ .

(٢) أخبار عمر ص ٨٠ .

بعض حاجته. فقال: إن عندي من هذا علماً. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه**». فحمد الله عمر ثم انصرف.

وهذا نموذج مليء بالدروس والعبر لممارسة الشورى. لقد كان عمر يبحث عن خير الرأيين. فاختلاف المهاجرين الأولين لم يجعل في نفسه طمأنينة لأفضلهما، وكذلك اختلاف الأنصار. ولما كان لمشيخة قريش من مهاجرة الفتح رأي واحد، بعد أن سبقت آراء ومداولات، اطمأنت نفسه إلى الرجوع وعزم على ذلك وزاده عزماً علم عبد الرحمن بن عوف بحديث رسول الله ﷺ.

ونرى من هذه القصة أنه لم يكن هنالك مجلس ثابت واحد للشورى، ولا عناصر ثابتة لا يجوز الخروج عنها إلى غيرها. ولكن كان هنالك دائماً أهل رأي، ومواهب وأصحاب لرسول الله ﷺ، وكان هنالك كفاءات وقدرات، تحوط أمير المؤمنين بالنصح والعون، على جهد وبذل، وصدق وأمانة، وسمع وطاعة.

ونرى كذلك حرية الرأي وهي تمارس بهذا الوضوح والصدق، لا تقود إلى شقاق مهما كان اختلاف الرأي واسعاً. وهذا أبو عبيدة بن الجراح، على علو منزلته وسابق صحبته وجهاده، اعترض بوضوح على رجوع أمير المؤمنين. فما غضب أمير المؤمنين ولا حجب عنه حق الكلمة والتعبير. ولكنه عاتبه عتاب المؤمن للمؤمن، والأخ لأخيه، حين رآه قد أخطأ في التقدير. عاتبه فقال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! ثم أعطى هو رأيه وحجته فرد الرأي بالرأي والحجة بالحجة. ثم عزم وتوكل على الله ثم مضى.

ولما كان الجميع، إن شاء الله مخلصين في مشورتهم ونصحهم، متجردين لله في عملهم، ينطلقون وهم يقدرون الأمانة والمسئولية، لما كانوا كذلك فتح الله عليهم، وجعل شوراهم بركة وخيراً، ويسر لهم من فضله علم عبد الرحمن بن عوف. ولو كانت القلوب مشحونة، والأهواء مائجة، والنفوس مضطربة، لو كان

ذلك وعلم الله منهم ذلك، فربما جعل الله من شوراهم فتنة واختلافاً. إنه صدق النية وسلامة القلب، وأمانة التجرد، هو الذي جعل اختلاف الرأي بينهم ممارسة إيمانية مباركة، أعطتهم الرشاد، وأمدتهم بالنور، وجمعتهم على صف مؤمن واحد. وهذه النية والتجرد كما أسلفنا أساس لاغناء عنه في كل عمل، وفي الشورى كذلك. فمن لا نية له لا عمل له.

٨ - وإلى أرض فارس :

ولما بلغ عمر أن أهل فارس تجمعوا من الجبال، من الباب والسند وخراسان وحلوان، يريدون نهاوند، بقيادة ذي الحاجب الذي أمره عليهم ملكهم يزدجرد، نادى بالناس «الصلاة جامعة». فاجتمع الناس. ووافاه سعد، فقام عمر على المنبر خطيباً، فأخبر الناس الخبر واستشارهم وقال: هذا يوم له ما بعده من الأيام، ألا وإني قد هممت بأمر وإني عارضه عليكم، فاسمعوه ثم أخبروني وأوجزوا، ﴿**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**﴾ ، ولا تكثروا ولا تطلبوا فتفشع بكم الأمور (أي تخل)، ويلتوي عليكم الرأي . أفمن الرأي أن أسير فيمن قبَلي ومن قدرت عليه حتى أنزل منزلاً وسطاً بين هذين المصرين، فأستنفرهم وأكونَ لهم ردءاً، حتى يفتح الله عليهم أو يقضي ما أحب ؟ فقام عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف في رجال من أهل الرأي من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: لا نرى ذلك ولكن لا يغيبنَّ عنهم رأيك وأثرك. فضع بإزائهم وجوه العرب وفرسانهم وأعلامهم، ومن قد فض جموعهم وقتل ملوكهم، وباشره من حروبهم ما هو أعظم من هذه، وإنما استأذنوك ولم يستصرخوك. فائذن لهم واندب إليهم وادع لهم. فقام علي بن أبي طالب فقال كلاماً صوبهم فيه وأيّد رأيهم. ورجع عمر إلى رأيهم وأرسل النعمان بن مقرن أميراً على الجيش [١].

---

(١) أخبار عمر ص ٨١ .

نعم، هذه هي الشورى المؤمنة الصادقة إن شاء الله. ولقد أهم تجمع الفرس أمير المؤمنين فنادى: الصلاة جامعة. وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ ، وكذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، كلما عظم الأمر واشتد، يدعون الناس إلى صلاة جامعة. ففي المسجد كان اجتماع المسلمين عامة لكل أمر ذي بال، وفيه تدور الشورى العامة، فجعلها عمر لهذا الأمر شورى عامة.

ولكن عمر مهد للأمر بأن وضع قواعد للرأي والشورى، ونصح القوم وسألهم صدق الرأي، وأوصاهم: أن يسمعوه وأن يخبروه وأن يوجزوا! والإيجاز ضرورة حتى لا تتفتح أبواب من كلمات تطول.

وتابع وضع القواعد فأوصاهم بعدم الاختلاف: **﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾**.

ثم عرض الأمر! عرضه بوضوح ودقة وإيجاز، حتى يستطيع القوم أن يسمعوه ويعوه، وينصحوه ويصدقوه، ويوجزوا له كما أوجز.

وعمل الصحابة رضي الله عنهم على ما أوصى به عمر بن الخطاب رضي الله عنه. سمعوا ونصحوا وأوجزوا.

وهكذا اجتمعت قواعد الرأي والنصيحة والمشورة في هذا الموقف اجتماعاً مباركاً. وبارك الله عليهم في نيتهم وعلمهم، ومواهبهم وجهدهم. وبارك عليهم في مشورتهم، فكان الخير والفتح.

٩ - واختيار القادة [١].

ولما رجع عمر إلى رأي أصحابه من البقاء وعدم مغادرة المدينة المنورة حسب ما ذكرناه سابقاً حول وقعة نهاوند، أراد عمر أن يختار قائداً لجيش المسلمين. فقال: أشيروا علي برجل أُوَلِّه ذلك الثغر غداً. قالوا: أنت أفضل رأياً، وأحسن

(١) أخبار عمر ص ٦٩ .

مقدرة. قال: أشيروا علي به واجعلوه عراقياً. قالوا : يا أمير المؤمنين أنت أعلم بأهل العراق، وهم جندك، وقد وفدوا عليك ورأيتهم وكلمتهم. قال: أما والله لأولين أمرهم رجلاً لَيكونَنَّ لأول الأسنة إذا لقيها غداً. فقيل من يا أمير المؤمنين؟ قال: النعمان بن مقرن المزني. فقالوا: هو لها.

استشار عمر هنا في أمر اختيار القائد فتركوا الأمر له ليختار. فلم يكن لديهم رأي يعطونه، ولو كان لديهم رأي لنصحوا به. وكانوا يعرفون مقدرة عمر فقالوا: أنت أعلم بأهل العراق، أنت أفضل رأياً وأحسن مقدرة. فلما اختار هو وعرض رأيه عليهم أقروه على ذلك وقالوا: هو لها.

فهذا نموذج آخر من الشورى، وصورة أخرى. وهي صورة تنبض بروح التعاون والألفة، ومعرفة المنازل والطاقات، وتقدير المسئولية والأمانة. فما وجدنا هنا أحداً اندفع برأي لم يطمئن إليه، أو بمشورة لم يمحصها، إنه الصدق محض الصدق والأمانة كل الأمانة. لم يندفع أحد برأي يسوقه الارتجال.

ولقد سبق أن رأينا كيف استشار عمر رضي الله عنه في اختيار أمير على حرب العراق. فأشار عليه عبد الرحمن بن عوف بسعد بن مالك (سعد بن أبي وقاص).

ولم يكن عمر يستشير في كل مرة يريد أن يعين قائداً. فقد عين وعزل دون مشورة. فقد اختار أبا عبيدة عامر بن الجراح قائداً للجيش الذي ذهب لفتح بلاد الشام مكان خالد بن الوليد. ولما خشي أن يسيء الناس فهم عزل خالد كتب منشوراً يذاع في الأمصار والبلدان ذكر فيه أنه لم يعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة. ولكن الناس فتنوا به فخشي أن يوكلوا إليه ويبتلوا، فأحب أن يعلموا أن الله هو الصانع، وأن لايكونوا عرضة للفتنة به، وينسبون النصر إليه وما النصر إلا من عند الله.

وأمَّرَ شرحبيل بن حسنة على جند الأردن وخراجها، ثم عزله. فقال

شرحبيل: أعن سخطة عزلتني يا أمير المؤمنين؟ قال : لا، لكما أحب ، ولكني أريد رجلاً أقوى من رجل. قال: نعم، فاعذرني في الناس لا تدركني هجنة. فقام عمر في الناس فقال: «أيها الناس إني والله ما عزلت شرحبيل عن سخطة، ولكني أردت رجلاً أقوى من رجل».

واختار عمرو بن العاص لمصر، ونعيم بن مقرن إلى همذان، وعتبة بن فرقد وبكير بن عبد الله إلى أذربيجان، وعبد الله بن عبد الله إلى أصبهان، وعمرو بن سراقة إلى البصرة وغيرهم.

وكان عمر يعرف الرجال ومقدرتهم. ويحسن الاختيار. وكان الصحابة رضوان الله عليهم يعرفون موهبة عمر هذه مع غيرها من مواهبه المتعددة. ولقد مر معنا حين استشارهم في اختيار قائد الجيش المتوجه إلى فارس، كيف قالوا له : أنت أفضل رأياً وأحسن مقدرة.

١٠ - وإلى فتح مصر [١]:

لقد استأذن عمرو بن العاص عمر بن الخطاب في فتح مصر. فتخوف عمر على المسلمين. ولم يزل عمرو بن العاص يهون عليه من أمر فتحها، حتى مال إلى ذلك وعقد له على جيش وقال له : سر وأنا مستخير الله في مسيرك. وسيأتي كتابي إليك سريعاً إن شاء الله فإن أدركت كتابي وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها، فانصرف وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي، فامض إلى وجهك، واستعن بالله واستنصره.

وهذا أسلوب آخر في تحديد عمر رضي الله عنه لمواقفه واتخاذ قراراته. إنها المداولة بينه وبين عمرو. ثم النظر والتريث والتفكير، ثم الاستخارة واللجوء إلى الله.

(١) أخبار عمر ص ٧١ .

لم يتخذ عمر قراراً حازماً على وجه بيِّن، وعمر رجل القرار الحازم الحاسم، ورجل المواقف. لقد تردد وتخوف، لا لشيء إلا لخشيته أن يُلْقيَ المسلمين في مهلكة. وكانت هذه الناحية جزءاً من نهجه وخطته، تكرر في وصاياه لأمراء جيوشه، وتبرز في سياسته وأقواله وأعماله. ألم يكتب للنعمان بن مقرن المزني : (... فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله، وبعون الله، وبنصر الله بمن معك من المسلمين ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم ولا تمنعهم حقاً فتكفرهم، ولا تدْخلنهم غيضة، فإن رجلاً من المسلمين أحب إليَّ من مائة ألف دينار والسلام عليك).

وأمام هذا التردد والتخوف لجأ عمر إلى الاستخارة ! لجأ إلى الله ! يسأله العون والسداد، ثم ترك الأمر معلقاً على ما يقدره الله سبحانه وتعالى من وصول كتابه إلى عمرو وهو في أرض مصر أو خارجها. وعمر يلجأ إلى الله في كل موقف حتى حين يقرر ويعزم.

وهذا الموقف الخاص ينسجم مع سائر مواقف عمر وخطته ونهجه. إننا نجد دائماً وأبداً، أنه مهما اختلفت المواقف والأحداث، فهو يصدر عن منهاج الله، يجد منه الأسلوب والوسيلة، ويبحث فيه عن الخطة والنهج، سواء أكان ذلك في مواقف الشورى العامة، أم مع شورى أهل الرأي ، في الموقف الحازم أم الموقف المتردد، في الشدة والغلظة أم في اللين والرحمة، في عزل خالد، مع أنه لم يعزله عن سخطه ولا خيانة، ولكن الناس قد فتنوا به، فخشي أن يوكلوا إليه، ويبتلوا به، فأحب أن يعلموا أن الله هو الصانع، وأن لا يكونوا عرضة للفتنة به، ينسبون إليه النصر، وما النصر إلا من عند الله. وأمضى عمر قراره، كما أمضى سائر قراراته وهو مطمئن إلى أنه يصدر عن دين وعقيدة تحكمه وتحكم الأمة، وفهم للواقع مبني على جهد وتحرٍّ، وبينة ودليل يحكم ممارسته الإيمانية.

ولم تكن الشورى لدى عمر مجلساً محدداً فحسب. لقد كانت مجلساً هنا وهناك، مع هؤلاء وهؤلاء، يتحدد على ضوء الواقع والحاجة، والخطورة والأهمية. وكانت كذلك رسائل تدور، تذهب وتأتي، بينه وبين قواده، وبينه وبين ولاته.

ولم يكن في الشورى رئيسٌ ينظم المجالس، ويحدد الأدوار، ويعد المؤيدين والمعارضين. لقد كان يتفاعل مع الشورى بكل إيمانه، وعلمه، وتجربته، ومواهبه. كان يمارس حقه في التأمل والتفكير، والدراسة والجهد والبيان والإبداء، والسؤال والاستفسار، والبحث والتحري، والبحث عن الرجال والمواهب، والاختصاص والقدرات، ثم يدلي برأيه كما يدلي الآخرون. ومن خلال هذا الجهد كله، ومن خلال الآراء كلها، يظل يبحث عن الحق وكان يعرف الحق بالحجة، والبينة لا بالهوى والرغبة. فإذا وجد الحجة والبينة، وعرف الحق، أمضاه . إنه مسئول بين يدي الله ومحاسب ، وهو يعلم ذلك حق العِلْم. وكانت هذه المسائل والأساليب تنسجم مع الواقع آنذاك.

الفصل الرابع

أمر الخلافة [1]

في صلاة الفجر! يوم الأحد ٢٣ ذي الحجة سنة ٢٣ للهجرة مر عمر بن الخطاب بين صفوف المسلمين يقول: استووا! حتى إذا لم ير خللاً بينها تقدم وكبر للبدء في الصلاة. فما كاد يكبر حتى قال قتلني الكلب.

وكانت سكين عدو الله، أبي لؤلؤة المجوسي، انهالت طعناً على أمير المؤمنين في كتفه وخاصرته، حتى قيل إنها كانت ست طعنات. وطار المجرم العلج بين المصلين لا يمر على أحد يميناً أو شمالاً إلا طعنه بسكين في يده ذات حدين، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً. فألقى عليه عبد الرحمن بن عوف برنساً له ليأخذه. فلما رأى الشقّي عدو الله أنه مأخوذ نحر نفسه.

وقدم عمر عبد الرحمن بن عوف يصلي في الناس. فصلى بهم صلاة خفيفة. وأخذ عمر رضي الله عنه وأرضاه إلى منزله وماج الناس! ومكث ثلاثاً بعدما طعن وتوفي رضي الله عنه يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة.

وسأل عن قاتله، فلما أعلمه ابن عباس قال: الحمد الله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط. ما كانت العرب لتقتلني. ولما احتمل ودخل الناس عليه قال: يا ابن عباس اخرج فناد في الناس، أعن ملأ منكم ومشورة كان هذا الذي أصابني؟ فقالوا: معاذ الله، والله ما علمناه ولا اطلعناه. وقال البدريون والمهاجرون والأنصار حين سألهم: لا والله ولوددنا أن الله زاد في عمره من أعمارنا.

وهكذا يظل عمر رضي الله عنه يستشير ليستوثق الحق، وهو في حالته هذه. وقال لابن عباس: أحب أن تعلم أمر الناس، فخرج إليهم ثم رجع فقال: يا أمير المؤمنين ما أتيت على ملأ من المسلمين إلا يبكون، فكأنما فقدوا اليوم أبناءهم.

---

(١) أخبار عمر ص ٤٣٣ - ٤٥٩.

فلقد ظل أمير المؤمنين يحمل همَّ المسلمين، يطمئن أنهم على خير، يحمل همَّ الحساب يوم القيامة بين يدي الله، حسابه وحسابهم، فيدفع بهم إلى « سبيل الحق، ويدفعهم عن طريق الهلاك، ويسعى دائباً لينجو من فتنَة الدنيا ويعين قومه على النجاة . فنجد في السؤال والتحري، والمشورة والاستفسار فرجة للاطمئنان وباباً للنجاة. وهكذا كانت الشورى معه دائماً.

ولما ذكره ابن عباس بخير ليطمئنه، وذكر فضله قال له: فوالله الذي لا إله إلا هو، لو أن لي ما بين السماء والأرض لافتديت به مما هو أمامي قبل أن أعلم الخبر، وأما ما ذكرت من أمر المسلمين فوالله لوددت أن أخرج منها كفافاً لا عليَّ ولا لي، وأما ما ذكرت من صحبة رسول الله ﷺ فذاك ! وتمضي الشورى معه، وتظل تصاحبه ويصاحبها، لحظة بلحظة، وخطوة بخطوة حتى في أمر دفنه.

فقال لابنه عبد الله: انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل يستأذن عمر ابن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه. فمضى فوجدها تبكي، فأبلغها قالت: كنت أريده لنفسي ولأوثرنه به اليوم على نفسي. فلما أقبل عبد الله على أبيه قال له عمر: ما لديك؟ قال : الذي تحب يا أمير المؤمنين، أذنت. قال : الحمد لله، ما كان شيء أهم إليّ من ذلك.

ثم التفت إلى الأمر الأهم، والقضية العظمى، أمر الخلافة من بعده، وما أثقلها من أمانة وأعظمها من مسئولية.

دخلت عليه حفصة. فسألها عن حال الناس فأخبرته. ثم قالت: إني سمعت الناس يقولون مقالة فآليت أن أقولها لك. زعموا أنك غير مستخلف أرأيت لو أنك بعثت إلى قيم أرضك، ألم تكن تحب أن يستخلف مكانه حتى يرجع إلى الأرض؟ قال: بلى. قالت: أرأيت لو بعثت إلى راعي غنمك، ألم تكن تحب أن يستخلف رجلاً حتى يرجع؟ فماذا تقول لله عز وجل إذا لقيته ولم تستخلف على عباده؟ فأصابه كآبة ثم نكس رأسه طويلاً، ثم رفع رأسه وقال: إن الله تعالى حافظ

الدين، وأي ذلك أفعل فقد سن لي، إن لم استخلف فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف، وإن استخلفت فقد استخلف أبو بكر.

وهكذا يظل عمر رجل العقيدة يرد الأمر كله إلى منهاج الله، ويعمل فيه بكل إيمانه وعلمه وطاقته، ووسائل الشورى والتناصح. فقد سمع لحفصة حجتها. وكانت حجة منطقية تحمل نظراً جديداً ورأياً. ولكن عمر رد الأمر إلى منهاج الله.

وتقول حفصة إنها علمت أنه لا يعدل أحداً برسول الله ﷺ ، وأنه غير مستخلف. فقد كان أمامه خطان كلاهما خير. فآثر سنة رسول الله ﷺ.

ولا شك أن عمر رضي الله عنه قبل أن يأخذ هذا القرار، استعرض واقع المسلمين بكل تفاصيله. استعرض النفر الموجودين، واستعرض التاريخ والسبق، واستعرض العلم والقدرة، واستعرض قلوب الناس ومشاعرهم. فلو أنه رأى الرجل الواحد الذي لا يختلف عليه اثنان فلعله كان قد استخلف.

روي أن عمر قال وهو مستند إلى ابن عباس : اعلموا أني لم أقل في الكلالة شيئاً، ولم استخلف من بعدي أحداً. وأنه من أدرك وفاتي من سبي العرب فهو حر من مال الله.

فهذه صورة من موقفه وقراره وعزيمته.

قال له سعيد بن زيد: إنك لو أشرت برجل من المسلمين ائتمنك الناس. فقال عمر : قد رأيت من أصحابي حرصاً سيئاً. وإني جاعل هذا الأمر إلى هؤلاء النفر الستة الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، ثم قال : لو أدركني أحد رجلين، فجعلت هذا الأمر إليه لوثقت به: سالم مولى أبي حذيفة وأبو عبيدة بن الجراح، فإن سألني ربي عن أبي عبيدة قلت : سمعت نبيك يقول : **إنه أمين هذه الأمة**. وإن سألني عن سالم قلت . سمعت نبيك يقول : **إن سالماً شديد الحب لله**.

وواضح أن حب سالم لله لم يكن الصفة الوحيدة التي أهلته برأي عمر لذلك الأمر. فالقدرة والقوة والعلم وسائر الصفات اللازمة للخليفة كانت متوافرة في

سالم وأبي عبيدة. وكثير من الصفات متوافرة في غيرهما من أصحاب رسول الله ﷺ . ولكن عمر ذكر هذه الصفة في أبي عبيدة، وتلك الصفة في سالم، ليجيب ربه إن سأله عن سبب اختياره، فهما صفتان وردتا في نص علمه من رسول الله ﷺ . وما أشد عمر تمسكاً في نص من قرآن أو سنة، وما أوسع فهم عمر للنص الذي يسمعه ويعيه، وما أقدره على ممارسة النص، وقد سمعه ووعاه وعلمه، في واقع يعيه أيضاً ويدركه. وما أقدر عمر وهو يربط النصوص بتكاملها وتناسقها ربط إيمان وعلم، فيضعها في واقع المسلمين موضع الخير والبركة.

ولقد قال عن غيرهما كذلك قولاً آخر. فقال عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لو ولوها الأجلح لسلك بهم الطريق (يعني علياً) . فقال ابن عمر : فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تقدم علياً ؟ فقال : أكره أن أحملها حياً وميتاً.

ومهما اختلفت الروايات، فمما لا شك فيه أن عمر رضي الله عنه، قد اتخذ قرارين واضحين لا يرجع عنهما. ثم مضى في تنفيذ ما رآه وما اطمأنت نفسه إليه. فأما القرار الأول، فقد كان أن لا يستخلف أحداً بعينه. وأما الثاني ، فقد كان أن جعل الأمر شورى في الستة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض : علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم أجمعين. وقبل أن يتخذ هذا القرار أو ذاك، فإنه مارس موهبته وطاقته، ومارس إيمانه وعلمه، ومارس تجربته وخبرته، وسمع ما سمع من حفصة، وعبد الله بن عمر وآخرين. ثم إنه فكر من خلال ذلك كله ورد الأمر إلى دين الله ثم حدد موقفاً ورسم نهجاً. وقد روى أن المغيرة بن شعبة قال له : أدلك عليه، عبد الله بن عمر.

قال : قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا. لا أرب لنا في أموركم. وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد ﷺ، أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد.

فلقد سمع عمر رضي الله عنه، ودارت الشورى، كما رأينا، وهو ينزف ويتألم، وهو على وشك فراق هذه الدنيا ماضيا إلى ربه .

ولقد جعلها شورى في هؤلاء الستة، وجعل عبد الله بن عمر معهم مشيراً وليس منهم، وأمر صهيباً أن يصلي بالناس، وأجلهم ثلاثاً.

ثم دعاهم فقال: إني قد نظرت لكم في أمر الناس، فلم أجد عند الناس شقاقاً إلا أن يكون فيكم. فإن كان شقاق فهو فيكم.

نعم، لقد نظر لهم في أمر الناس، وقلب الأمر على وجوهه كلها بقدر ما يملك من قدرة وعلم، على أساس من الإيمان. لقد نظر كما أسلفنا نظرة من يحمل الأمانة وهمها، حمل الجد والعزيمة، والقوة والمضي. فما كان لقرار أن يتخذه إلا وقد نظر وفكر، ولم يكن نظره تأملاً وعزلة. لقد كان مع الناس حتى آخر لحظة، وكان الناس معه كذلك. كانوا يقولون ويشيرون وينصحون. وكان يقول، فيرد ويأخذ، وما أوسع النظر حينئذ وما أعدله.

ثم قال : إن قومكم إنما يؤمِّرون أحدكم أيها الثلاثة (لعبد الرحمن بن عوف وعلي وعثمان) فاتق الله يا علي، إن وليت شيئاً من أمور المسلمين فلا تحملن بني هاشم على رقاب الناس. ثم نظر إلى عثمان وقال: اتق الله إنّ وليت شيئاً من أمور المسلمين فلا تحملن بني أمية (أو قال بن أبي معيط) على رقاب المسلمين. وإن كنت على شيء من أمر الناس يا عبد الرحمن، فلا تحمل ذوي قرابتك على رقاب الناس. ثم قال : قوموا فتشاوروا فأمِّروا أحدكم. وقاموا يتشاورون.

قال عبد الله بن عمر: فدعاني عثمان مرة أو مرتين يدخلني في الأمر ولم يسمني عمر. ولا والله ما أحب أني كنت فيه، علماً أنه سيكون من أمرهم ما قال أبي (يعنيٍ الشقاق). والله قلما رأيته يحرك شفتيه بشيء قط إلا كان حقاً. فلما أكثرِ علي عثمان قلت: أفلا تعقلون : أتؤمرون وأمير المؤمنين حي ؟ فوالله لكأنما نبهت عمر من مرقد. فقال عمر : أمهلوا، فإن حدث بي حدث فليصل لكم صهيب، مولى بن جدعان، ثلاث ليال. ثم أجمعوا أمركم، فمن تأمر منكم من غير

مشورة المسلمين فاضربوا عنقه. وذكر عمر سعداً فقال : إن وليتم سعداً فسبيل ذلك، وإلاّ فليستشره الوالي، فإني لم أعزله عن سخطة (ويروى فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة).

ودعا عمر أبا طلحة الأنصاري قبل موته بساعة، فقال: كن في خمسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر وأصحاب الشورى، فإنهم فيما أحسب سيجتمعون في بيت أحدهم. فقم على الباب بأصحابك، فلا تترك أحداً يدخل عليهم. ولا تتركهم يمضي اليوم الثالث حتى يؤمروا أحدهم. وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف. وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما. فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً فحكموا عبد الله بن عمر. فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم. فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس. ولا يحضر اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم. اللهم أنت خليفتي فيهم.

وهكذا فعل أبو طلحة فوافاهم ساعة قبر عمر فلزمهم. فلما جعلوا أمرهم إلى ابن عوف يختار لهم، لزم أبو طلحة باب ابن عوف في أصحابه حتى بويع عثمان.

لقد ذكرنا أنّ عمر لم يرد أن يستخلف، وقد بين هو أسبابه لذلك في عدة مناسبات عرضناها في الصفحات السابقة. وكان قراره هذا، كما ذكرنا ناجماً عن ممارسة لإيمانه وعلمه وتجربته، فلم يكن هوى يحركه، أو رغبات خاصة تدفعه.

وأما اختياره الستة فقد بين هو نفسه رضي الله عنه سبب ذلك أيضاً، نوجز تلك الأسباب بما يلي :

١ - كان يدرك واقع المسلمين في تلك اللحظات بكل ملابساته وحساسيته وقد أشار عبر كلامه إلى أطراف من ذلك. ولكنه لم يعط تفاصيل فهمه لواقع تلك اللحظات الأخيرة من حياته. كان يدرك فضل هذا الرجل أو ذاك من

أصحاب رسول الله ﷺ، ولكنه كان يدرك مع ذلك علاقات وروابط وأحاسيس، خشي معها أن لو استخلف منهم رجلاً، لحمل علي كتفيه حملاً ثقيلاً. أما سمعناه يقول : أكره أن أحملها حياً وميتاً.

٢ - لقد وجد أن هؤلاء الستة، مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض.

٣ - إنّ الناس لا يعدلون أحداً بعد هؤلاء الستة. فهم الصفوة والقدوة في نظر الناس. ولا يختلف الناس في ذلك. وهذه نتيجة عرفها عمر رضي الله عنه بنظره وتفكيره وتحريه وخبرته. وهو الذي خبر الناس في شتى الأمور، ورعى أحوالهم في شتى الحالات.

٤ - وسواء استخلف أم لم يستخلف فقد سُنَّ له. فرسول الله ﷺ لم يستخلف، وأبو بكر استخلف، ولم يرد أن يعدل بسنة رسول الله ﷺ أحداً.

وإذا أخذنا هذه النقاط الأربع على أنها حددت لعمر منهجه، فقد أخذنا لكل نقطة من كلامه وبيانه رضي الله عنه، وكل كلمة أو بيان، وكل موقف أو رأي كان يجمع رضي الله عنه فيه إيمانه وعلمه، وقوته ومواهبه، لينصح للمسلمين نصح مؤمن مدبر عن الدنيا، مقبل على الآخرة، يؤمن إيمان اليقين ا الذي لا ريب معه بالبعث والحساب، والدار الآخرة.

ومهما اختلفت الروايات في هذه الحادثة بين مختلف المصادر، فإن الصورة التي عرضناها عن عمر في أيامه الأخيرة تلك لا تضطرب ولا تختل. وتظل الشورى تصاحب عمر ويصاحبها، صحبة إيمان وعقيدة، وصحبة علم وتقوى، وصحبة خِبْرة ومران، وبعد ذلك صحبة موهبة وقوة.

واجتمع النفر الستة رضي الله عنهم. وقيل إنهم اجتمعوا في بيت المسورة بن مخرقة وبدأت بينهم الشورى. وتذهب الروايات إلى أنه حدث بينهم خلاف في الرأي أو أنهم تنافسوها. ومهما تكن الصيغة التي تصف لنا أجواء الشورى في ذلك الموقف الصعب، فإن اختلاف الرأي أمر طبيعي. وإلا فكيف تكون الشورى

إذا لم يصاحب الرأي رأياً. والحجة حجة. ولكنهم كلهم صحابة رسول الله ﷺ ، لهم علمهم الواسع بالقرآن والسنة، وقد سبقتهم تجربة أبي بكر رضي الله عنه، وتجربة عمر رضي الله عنه، فزادتهم التجربة خبرة ومراناً.

فقال لهم عبد الرحمن بن عوف: أيكم يُخْرِج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم. فلما لم يجبه أحد قال : أنا أخلع نفسي منها فرضي القوم بذلك. وقال لعلي رضي الله عنه : ما تقول يا أبا الحسن ؟ فقال: أعطني موثقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم لرحمه. ولا تألو الأمة فقال : أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير. وأن ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله، ألا أخص ذا رحم ولا آلو المسلمين. فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله.

وفي رواية قال لهم: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة نفر، فجعل الزبير أمره إلى علي، وجعل طلحة أمره إلى عثمان، وجعل سعد أمره إلى عبد الرحمن بن عوف. فائتمر أولئك الثلاثة حين جعل الأمر لهم. فقال عبد الرحمن : أيكم يتبرأ من الأمر ويجعل الأمر إلي ؟ ولكم الله عليَّ أن لا آلو عن أفضلكم وخيركم للمسلمين. قالا : نعم.

وفي البخاري : أيكما تبرأ من هذا الأمر يجعله إليه، والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه، فأسكت الشيخان. فقال عبد الرحمن بن عوف : اتجعلونه إليَّ ؟ والله عليَّ أن لا آلو عن أفضلكم. قالا : نعم. وحتى هذه المرحلة نجد الأمر على يسر ووضوح. فإذا كان أحد الستة يرى نفسه أهلاً للخلافة، فقد رأى ذلك عمر، ورأى ذلك المسلمون. ولا نري أحداً منهم إن شاء الله إلا وهو ينظر في مصلحة المسلمين قبل مصلحته سواءٍ أتقدم أم تأخر. وتلك كلمات علي رضي الله عنه تجمع قواعد الشورى والنصيحة جمعاً إيمانياً.

«لتؤثرن الحق، ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم لرحمه، ولا تألو الأمة» وما كان لعلي رضي الله عنه أن يقول ذلك اتهاماً لعبد الرحمن بن عوف، ولا تنقيصاً من أمانته، ولكنها تذكير. وفي هذه المواقف ينهض الرجال الصادقون ليذكروا الرجال الصادقين. ونعم الرجال ونعم التذكير.

وما وجد عبد الرحمن رضي الله عنه غضاضة في نفسه وهو يسمع هذا النصح، وهو يخضع له أيضاً، فيأخذ موثقا ويعطي موثقاً. وجميعهم كانوا صادقين، إن شاء الله، يجمعه الإيمان والعقيدة، وتدفعهم التقوى إلى سبل الخير.

وقد وضح للجميع، نتيجة للشورى حتى هذه المرحلة، أن الأمر سيكون بين علي وعثمان رضي الله عنهما.

ومن ثم أخذ عبد الرحمن يستشير الصحابة وأمراء الأجناد وأشراف الناس فأشار بعضهم بعلي، وأشار بعضهم بعثمان.

فقال لعلي: لو لم يكن لك هذا الأمر فمن ترضى ؟ فقال : عثمان. وكذلك فعل مع الزبير وسعد إذا لم يكن الأمر لعلي. فقالا: عثمان. ثم سأل عثمان فأشار بعلي، فكانا - علي وعثمان - محط أنظار الصحابة وأشراف المسلمين.

وخلا بعلي فقال : إن لك من القرابة من رسول الله والتقدم، ولي الله عليك لئن استخلفت لتعدلن ولئن استخلفت عثمان لتسمعن ولتطيعن. قال : نعم. وخلا بعثمان فقال له مثل ذلك.

ولما انتهى الأجل الذي ضربه عمر، جاء عبد الرحمن إلى المسجد وقت صلاة الصبح وقد ازدحم المجلس بالناس، وأهل السابقة من المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد.

فقال عبد الرحمن : إني نظرت وشاورت، ودعا علياً فقال له : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده قال : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي. ثم دعا عثمان وأعاد عليه ما قاله لعلي. فقال نعم. فبايعه. وفي رواية : ثم قال لعثمان : أبسط يدك يا عثمان. فبسط يده فبايعه وبايعه علي والناس.

وهكذا أصبح عثمان بن عفان رضي الله عنه خليفة المسلمين بعد عمر بن الخطاب.

ولقد رأينا موقف عمر بن الخطاب، أمير المؤمنين، رضي الله عنه، في أيامه الأخيرة حين آثر عدم الاستخلاف لأسباب نبعت من إيمانه وفهمه لواقع المسلمين. ولقد مارس إيمانه بكل طاقته وعلمه، حتى جعل الأمر شورى في هؤلاء النفر الستة من صحابة رسول الله ﷺ .

وكانت الشورى بين النفر الستة في مراحلها المختلفة التي أظهرت أن الأمر هو بين اثنين : علي وعثمان رضي الله عنهما. ولا يضيرنا، ولا يضير الصحابة، أن يكون تخلل الشورى اختلاف في الرأي. ولكن الذي يهمنا ويهمنا كثيراً، هو أن تلامذة مدرسة النبوة كانوا على الصدق الذي تعلموه، والوضوح الذي تربوا عليه، والممارسة النظيفة التي تدربوا عليها.

وفي هذه المواقف تبرز عظمة الإيمان. أما حين تكون الآراء واحدة والأمور هينة، فالممارسة سهلة قد لا تبرز فيها الطاقات والقدرات الإيمانية . إنها تبرز وتتمايز حين تختلف الآراء وتهيج العواطف، وتتفتح أبواب الشيطان. فهنا يبرز أثر الإيمان، وهنا تتمايز المواهب الطاهرة، وهنا تتسابق الخطوات المؤمنة في ميدان واسع، على كل ما فيه من وعورة ووديان وأشواك.

فلقد أخذ عبد الرحمن موثقاً وأعطى موثقاً، فكان صادقاً فيما أخذ وفيما أعطى. وقد سأل علياً فأجاب، وصدق فيما أجاب، وكذلك عثمان، رضي الله عنهم أجمعين.

وظل علي رضي الله عنه مع أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، ناصحاً له أميناً، صادقاً وفياً على العهد الذي أعطى والبيعة التي ارتبط بها، ولم يبدل ولم يغير. ظل كذلك في درجات الإيمان العالية، لا يهبط إلى دنية، ولا ينحدر إلى فتنة. ظل علي رضي الله عنه المؤمن الذي نشأ منذ صغره في أحضان النبوة الطاهرة، تنمو فيها مواهبه، ويسمو فيها إيمانه، ويزداد بها علمه، حتى تميز في كل ذلك. فما أخذه الغرور ولا اندفع إلى هوى.

وكذلك إخوانه كلهم إن شاء الله، لم يدفعهم اختلاف الرأي إلى فتنة، ولا إلى شقاق وتدابر.

ولا يضر علياً أو عثمان رضي الله عنهما أن تقدم أحدهما أو كلاهما للولاية، وقد رآهما على هذا القدر سائر الصحابة وعامة المسلمين. وفي هذه المواقف، ومستقبل الأمة الإسلامية يحتاج إلى أمير يتولى شئونهم، فلا بأس أن يتقدم أهل الكفاية وأصحاب الدراية ليسدوا ثغرة في حياة المسلمين ولعل بعض الصحابة أيد هذا، وآخرين أيدوا ذاك. فلقد مارس المسلمون حريتهم كأجمل ما تكون الممارسة. أما وقد وكلوها إلى عبد الرحمن بن عوف، فقد اجتهد رضي الله عنه اجتهاده، وأدى أمانته، وحساب الجميع يوم يقوم الحساب.

فالذي يهمنا هنا هو هذه الممارسة الواضحة للشورى، الممارسة الواضحة للإيمان في مواقف تختلف فيها الآراء. فلا هي امتدت زمناً طويلاً ولا هي كونت فئات وطوائف، وإنما حسم الأمر في يومين أو ثلاثة، والتزم الجميع السمع والطاعة لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

أما ما يذهب إليه بعض الكتاب أو المؤرخين من انقسام المسلمين إلى طوائف وفئات، يزينون ذلك بهذه الرواية أو تلك، فقد يكون ذلك من أمر بعض مرضى النفوس. وأما أصحاب رسول الله ﷺ ، وأولئك النفر الستة، فقد مارس كل منهم إيمانه وعلمه، ومارس حرية الرأي والصدق والوضوح، ومارس الشورى، ومضى الجميع بعد ذلك على سمع وطاعة، وتناصح وتعاون.

إننا نزن الأمور ونقيسها بمقياس الإيمان والإسلام، الذي لا يمنع حرية الرأي على قواعد الإيمان، ولا يكتم الأفواه، ولا يحجر على العقول، ولا يميت النفوس. إننا لا ندخل إلى القلوب والضمائر لنتهم عن ظن وتخمين، ولكننا ندع ذلك إلى الله رب العالمين.

ولعل بعض الناس يعيش مع الأحداث من خلال العقد النفسية التي يعانيها هذا الجيل أو ذاك. فمن الناس من يرى اختلاف الرأي فتنة دون أن تقع الفتنة،

والصدق والوضوح شقاقاً دون أن يقع الشقاق. لعل هؤلاء يظنون أن الإيمان حجْرٌ على كلمة واحدة، وقتل للرأي المؤمن. لعلهم يريدون أن يقول الناس، كل النَاس، كلمة واحدة، ورأياً واحداً، وأنى يكون ذلك؟! ولقد رأينا في جميع مواقف الشورى: في حياة الرسول ﷺ، وفي حياة أبي بكر الصديق، وفي حياة عمر بن الخطاب، لقد رأينا هناك الكلمة الصادقة القوية تخرج من القلوب المؤمنة، على آراء مختلفة، وتقدير متباين، ثم يمضون صفاً واحداً وأمة واحدة، وعزماً واحداً.

وأساس ذلك كله أنهم كلهم يخضعون لمنهاج رباني واحد. يخضعون له بكل أجزائه وقواعده.، ويمارسون إيمانهم وعلمهم لكل الميادين والمواقف، فإذا كانت الشورى بينهم، فإنما هي إيمان وعلم وتقوى وكلمة مؤمنة صادقة، وتناصح وتعاون، وسمع وطاعة، وأخوة في الله وتعاون على البر والتقوى، وصبر واحتساب، وجهد وعمل، ومعرفة للحدود التي ينتهي إليها الرأي أو الجهد أو الكلمة.

إن بعض الناس يريدون أن يَرَوا الأحداث قبل عشرات القرون من خلال تصوراته هو في عصره هو، من خلال رغباته ونوازعه، دون أن يعدل منها أو يقوم منها، حتى تستقيم رؤيته أو تعتدل نظرته.

إن صحابة رسول الله ﷺ تعلموا في مدرسة النبوة احترام الكلمة والرأي، كما تعلموا أن لا تنطلق الكلمة ولا يندفع الرأي إلا على نية وتجرد، وعلم وعمل، وبحث وتحر. إنهم تعلموا أن لا ينفلت الرأي انفلات عفوية وارتجال، أو جهل وغفلة. إنهم تعلموا أن تحمل الكلمة مسئوليتها، وأن يحمل الرأي أمانته، ولم يتعلموا أن تنساق الكلمة من مواقف اللامبالاة، وأن يجري الرأي في مجاري الهوى والضياع.

وإذا أقبل علي وعثمان أو غيرهما رضي الله عنهم أجمعين، إذا أقبل أحدهم أوبعضهم أو كلهم إلى مركز الخلافة ومنصب الولاية، فإنهم لا يقبلون على زخرف أو دنيا، أو عرض أو متاع، أو غرور أو كبر. فقد تركوا ذلك منذ دخلوا

حومة الإيمان، وميدان العطاء والبذل. فكيف يرى علي رضي الله عنه في الخلافة زخرفاً ودنيا، وهو الذي كان يعيش عيش الكفاف ويعزف عن الدنيا، ويتواضع بخشوع وإيمان، يتأسى بنبيه محمدﷺ . كيف يقبل على دنيا وهو الذي يقول يا دنيا غري غيري. فإن أقبل على خلافة فإنما ينهض إلى واجب ويسرع إلى بذل، ويجري إلى جنة. وعثمان بن عفان رضي الله عنه بذل حتى قال عنه الرسول ﷺ: **ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم**. ولعل الرسول ﷺ قالها وقد علم أن لعثمان من قوة الإيمان ما يكبح أي هبوط. وما يقبل عثمان على دنيا حين يقبل على خلافة، وهو الذي رفض أن تراق من أجله قطرة دم لمسلم. وجعل دمه فدى لدينه ودعوته وأمته.

هؤلاء الأفذاذ من الرجال هم منائر في حياة البشرية كلها، يستضاء بهم، ويُقتدى بهم، إنهم صفوة الصحابة وصفوة التلامذة. قال عنهم عمر رضي الله عنه : مات الرسول ﷺ وهو عنهم راض. رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

وكلمة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فمهما قيل أو كتب عنه فيظل في حياته مصدر خير وعلم.

قد يقول قائل إن عمر رضي الله عنه كان مركزياً شديد المركزية. وقد تأتي هذه النظرة حين نقيس الأمور بمقياس عصرنا الحالي، ونزنها بميزان اليوم وأعرافه، فنهبها كذلك أسماءها واصطلاحاتها. والمقاييس مضطربة، والموازين غير عادلة، والأسماء والاصطلاحات متصلة بها، مضطربة اضطراباً. وما كان عمر مركزياً. لقد كان يعرف حدوده وحدود غيره.

وقد يقول قائل إن عمر رضي الله عنه كان «مستبداً عادلاً». يسوق هذه المصطلحات على لسانه ولا يدري من أين تلقفها، ولا يدرك حقيقة فحواها. لفظتان متناقضتان تتوالى على الألسنة، يحسب أصحابها أنهم يمدحون عمر بن الخطاب بذلك، وما كان عمر مستبداً أبداً. فالاستبداد لا يتناسق مع العدالة، ولا هو من خلق عمر رضي الله عنه، ولا من نهجه.

وبمثل هذه الألفاظ وإيحاءاتها، نكون قد نفينا عن أمير المؤمنين عمر صفة من أهم صفاته، وسمةٍ من أعظم سماته، ألا وهي الشورى. وحين نزن الأمور بميزانها الحق، ونراها من خلال العقيدة والإيمان، نجد أن عمر رضي الله عنه لم يكن مركزياً ولا غير مركزي ولم يكن مستبداً ، إننا نجد أن هذه الألفاظ كلها غير عادلة، وغير أمينة.

إن عمر بن الخطاب، أمير المؤمنين، كان يمارس إيمانه وتقواه، وعلمه وخبرته، ومواهبه وطاقته، ممارسة إيمانية واسعة، ممتدة الحدود والآفاق، متناسقة الحركات والخطوات.

وكان ذلك على أساس من نهج رباني رسم له الحدود والخطة والطريق. فنفى عن نفسه بذلك الهوى والارتجال.

وكان ذلك على أساس من منهاج وخطط أعلنها على الملأ منذ توليه الخلافة، فأوضحت له وللناس مسلكه وسياسته. وكانت هذه المناهج والخطط مستقاة من منهاج الله الذي آمن به وتعلمه ووعاه وتدرب عليه في ممارسة النبوة فاستقامت له الطريق، وأقره عليها الصحابة الأبرار.

لقد كان ينطلق ويمضي، ومع انطلاقته ومضيه ملامح وأسس بارزة، واضحة شديدة الوضوح، قوية البروز :

كان ينطلق بنية وإخلاص، ومع نيته وإخلاصه عزيمة وتوكل على الله.

كان يمضي على نهجٍ مستقيم ، تنزيلٍ من رب العالمين.

وكان على إيمان وعلم ، وقوة ومران.

وكانت الشورى محور أسلوبه، وميزة سلوكه.

وكان على مواهب متعددة، وطاقة واسعة.

وكانت نيته، وإخلاصه، وإيمانه، وعلمه، ومواهبه، كانت هذه كلها تَمتزج

وتتكامل في ذاته ونفسه، فيمارس إيمانه في الواقع البشري من مركز المسئولية والأمانة، وهو يعي ذلك الواقع وعياً إيمانياً، ويدرك المسئولية والأمانة إدراكاً قوياً.

رضي الله عنك يا عـمر بن الخطاب، ورضي الله عن الصـحـابة أجـمـعين، والحمد لله رب العالمين.



الباب العاشر

بين الشورى والواقع

الفصل الأول
مقارنة عامة

يميل كثير من الناس عندما تطرق كلمة الشورى أذنيه ، أن يتجه بفكره وتصوره إلى الحكم والدولة والسياسة ، حتى كأن الشورى مقترنة بها محصورة فيها. ولا شك أن الحكم هو من أوسع ميادين الشورى ، ولكنه ليس الميدان الوحيد .

إن الشورى في الإسلام مبدأ عام يطرق كل الميادين ، ويطرق كل المستويات ويكاد يكون متصلاً بالفطرة السوية والطبيعة السليمة ، وكيف لا، والإسلام دين الفطرة ؟!

إنها طبيعة المؤمن وسجيّته وخلقه . إنها في الفرد ذاته ، في الإنسان نفسه ، تربطه مع غيره من الناس ، مع إخوانه ، رباط عقيدة وإيمان .

إنها صورة من صور التعاون بين المؤمن وأخيه المؤمن في طاعة الله على البر والتقوى .

﴿ .... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ [المائدة: ٢]

والمؤمن قوي بأخيه .

إنها صورة من صور الأخوة في الله : «**إنما المؤمنون إخوة ...** » . إنها التناصح، فالدين النصيحة .

وبذلك تصبح الشورى سمة المسلمين وطبيعة المؤمنين وخلق العاملين . إنها تمتد بذلك حتى تكون سمة المجتمع الإسلامي ، المجتمع الإسلامي المتحرك النشيط ، المجتمع الذي يحكمه منهاج الله ، ويربيه منهاج الله ويحدد له نهجه وخطه ، ويضع جميع سماته وصفاته .

فهي تمتد إذن إلى كل ميادين الحياة الخاصة والعامة ، كلما احتاج إليها

المؤمن، أو الجماعة المؤمنة ،. ولقد رأينا في الفصول السابقة كيف تدور الشورى في هذه الميادين كلها خاصة أو عامة .

وفي الحياة الزوجية في مواقف الشدة والعسرة ، في لحظات الطلاق :

﴿... وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ...﴾ [الطلاق: ٦]

ولقد رأينا الرسول ﷺ يستشير زوجه أم سلمة رضي الله عنها ، بعد صلح الحديبية ، حين قال للمسلمين : «**قوموا انحروا ثم احلقوا**» ، فما قام منهم أحد ، وقد أعادها ثلاث مرات ، حتى أشارت عليه بالرأي . ولقد رأينا الشورى وهي تمارس في الغزوات والفتوح ، وفي الإدارة والقضاء وفي السياسة والمال .

وهي باب من أبواب التربية والبناء ، وأسلوب من أساليب التوجيه والإعداد . إنها تجمع المؤمنين وتجمع إيمانهم وعملهم ، وتجمع طاقاتهم ومواهبهم ، وتجمع قواهم وتجاربهم ، إنها تجمع هذا كله فتدفعه في مجرى طاهر ليتآلف ويتناسق بركة وخيراً ، وعطاء وثماراً ، في خط واحد ممتد ، وصراط مستقيم لايعوج ، ثم لايتفرق ولايتبدد .

والشورى ، كما ذكرنا سابقاً وكما نكرر هنا ونؤكد ، ليست قاعدة معزولة عن سائر قواعد الإسلام . إنها ، شأنها في ذلك شأن غيرها ، مرتبطة كل الارتباط ، متكاملة أجمل التكامل ، في منهاج الله ارتباط إيمان وعقيدة وعمل وممارسة .

كيف نستطيع أن نمارسها في حياتنا اليوم ، في واقعنا البشري ، كيف نستطيع أن نحققها مع كل صفاتها هذه ، ومميزاتها وسماتها ؟ هل نستطيع أن نبلغ ذلك ونحققه إذا ألزمنا الإمام بنتيجة الشورى ، إذا ألزمناه في واقعنا اليوم بالعدد والكثرة فحسب ؟

هل نبدأ ممارستنا للشورى من هذه النقطة ، من التزام هذا المبدأ أو خلافه ؟ وإذا فعلنا ذلك فهل تحل القضايا ، وتنطلق الشورى ، وتجمع الجهود ، وتلتقي القلوب ، وتهدأ النفوس ؟ هل يتحقق الإيمان ؟

إننا حين نعرض قضية من قضايا هذا الدين ، نعرضها ونحن نهدف إلى

المساهمة في تحقيق تطبيقها وممارستها . فلا يعقل أن يهدف العرض إلى مجرد العرض ، ولا إلى حل خلاف جزئي ، حتى إذا انتهى العرض ، وحلت القضية الجزئية ، لم نجد الإيمان الدافع القوي ، والدعوة العاملة الماضية ، والجهود الباذلة النشيطة . فدراسة قضية أو عرضها يهدف إذن إلى محاولة في تسهيل الممارسة ، وتحقيق القاعدة ، وبلوغ الأهداف . إنها محاولة وجهد ينمو ويمتد ، ولا بأس أن تكون محاولة ، تحمل معها الجهد والجد والنهج والأسلوب ، حتى تنطلق محاولات أخرى فتتم أو تصحح ، وتدفع وتبني ، حتى تتكامل الجهود فلا تتعارض ، وتلتقي العزائم فلا تتصارع . وحينئذ تنمو المحاولات والجهود البشرية في طريق الدعوة مع نمو العمل ونمو الواقع . والأجمل أن نتخير القضايا التي نطرحها ، ونضعها في ميزانها الحق ، وحجمها العادل ، لتعطي ثمرتها في حياة الدعوة الإسلامية ومضيها .

والشورى كما نعتقد ، وكما عرضنا آنفاً ، موضوع حيوي هام ، يمس واقع الدعوة الإسلامية من أكثر من جانب واحد ، يمسّ واقع المسلمين كل المسلمين في عصرنا الحالي .

والدعوة الإسلامية ماضية إن شاء الله . ولكن التجارب التي مرت بها هنا وهناك خلال أكثر من نصف قرن ، لم تجتمع لتنمو المسيرة ، وتنضج التجربة ، وتعتدل الخطوة . ولو تحققت الشورى المؤمنة بين المسلمين لأصبنا شيئاً ، على الأقل شيئاً ، من هذا الغَنَاء ، وهذه النماذج ، وهذه التجارب .

وعندما نقول لو تحققت الشورى المؤمنة ، فإننا نعني لو تحققت بمنطلقها وأسسها ، وقواعدها ووسائلها وأساليبها وأهدافها ، وغاياتها ، لو تحقق ذلك كله في ممارسة إيمانية تستكمل قواعد المنهاج الرباني في فهم للواقع البشري ، للواقع الحالي ، حتى يرى الناس الشورى المؤمنة حقيقة حية ، نابضة قوية ، بين المؤمنين العاملين ، تبني وتجمع ، وتغذي وتدفع ، وتربي وتعين ، وتحمي وتصون ، حتى يرى الناس الآثار والنتائج ، والحقائق والبينات ، فيؤمنوا ويصدقوا ، ويتبعوا دين الله ويمضوا .

وربما يعتقد بعض الناس أن الشورى تطبق حين يحكم الإسلام الأرض ، حكماً كاملاً ، وتسود جميع أحكامه وتشريعاته ، وينطوي أعداؤه كل أعدائه .

وربما ينتظر بعض الناس حتى تمهد السبل ، وتستقيم الطرق ، وتسوى الأرض، ربما ينتظرون ذلك كله حتى يبدأوا في ممارسة الإيمان .

ربما ينتظر بعض الناس حتى يرفع الخوف ، ويسود الأمن ، وتفرش الورود ، وتفوح العطور ، حتى يبدأوا في ممارسة الإيمان ممارسة سهلة لينة ، وربما ينتظر بعضهم حتى يغنى ويجمع الثروات ، حتى يحقق الأحلام والأمنيات .

ربما يعتقد بعضهم هذا، وينتظر آخرون ذاك، ولكن الحياة ماضية لاتتعطل لاعتقاد حالم ، ولا تتوقف لأوهام نائم .

ربما حدث هذا، وربما كان هذا التصور سبباً في أن حُنِّطَت الشورى تنتظر مجالس الحكم ، وندوات الجدال ، حين ظن المسترخون أن الشورى مجالس وندوات ، وحكم وسلطان فحسب .

ولكننا نرى أن الممارسة الإيمانية تبدأ مع اللحظة التي يدخل فيها المؤمن ميدان الإيمان في أي عصر ، ومع أي جيل ، وفي كل واقع . وإن الممارسة الإيمانية التي تبدأ هذه البداية ، وتمضي هذا المضي ، هي التي تستكمل مع مسيرتها كل الأمنيات .

إن المؤمن يمارس إيمانه مع كل واقع ، فلا يدعه يتعطل أو يتوقف . إن المؤمن يمارس إيمانه في الغنى والفقر ، في الشدة واللين ، في العسر واليسر ، في المنشط والمكره .

إن المؤمن يمارس إيمانه في كل واقع بشري ، وهو في يد الأعداء ، مع إخوانه المؤمنين ، في مجتمع ملتزم بالإسلام كامل الالتزام ، أو مجتمع مضطرب مهتز .

إنه يمارس إيمانه مع المؤمن ، مع المنافق ، مع الكافر . إنه يمارس إيمانه مع كل الناس ، مع كل المجتمعات ، في كل جيل ، وفي كل حال .

إنه مؤمن ، يعبد الله ربه . والله حق باق . ومنهاج الله بين يديه حق كامل . إنه يعبد الله مع كل ممارسة .

ذلك لأنه : يخلص النية ، ويصدر في أمره كله ، وفي ممارسته كلها عن دين الله ، كما أنزله على نبيه وعبده محمد ﷺ. إنه يمارس الإيمان بكل آفاقه وميادينه ، وفي كل عصر ، ومع كل حال لأن منهاج الله هو النور الذي أنزل من السّماء ليقود الإنسان على هذه الأرض ، مهما اشتدت الظلمات .

والشورى ليست قاعدة واحدة تجمعها كلمات قليلة . مهما كانت هذه الكلمات عظيمة . إنها نظام وخلق ونهج . إنها تجتمع في منهاج الله على خصائص عديدة ، تلتقي كلها لتجعل من الشورى نهجاً تعبدياً يتقرب العبد إلى ربه ، والأمة إلى خالقها ، شأنها في ذلك شأن سائر قواعد الإسلام وممارسات الإيمان .

فالشورى تجمع كما فصلنا سابقاً جميع خصائص القواعد التالية جمعاً مباشراً وكثيراً غيرها : النصيحة ، حرية الرأي ، والسمع والطاعة ، والبيعة . وهذه كلها لاتنفصل عن سائر منهاج الله ، ولكنها ترتبط به ، وتلتحم معه ، لتتكامل هي نفسها ، وليتكامل المنهاج الرباني بها . فالإيمان بكل تصوراته ، والأخوة بكل مسئولياتها ، والنية والإخلاص ، والخلق الكريم ، والعدل والقسط ، والتوازن الأمين ، والعلم ، ومراقبة المؤمن لنفسه ، ومعرفته لحدوده وقدراته ، هذا كله لايمكن أن تستغني عنه الشورى المؤمنة أو أن تنفصل عنه .

ولقد رأينا في مواقف الشورى التي عرضناها ، كيف أن الممارسة كانت تحمل هذه القواعد كلها على بشاشة إيمان ، ووضوح صدق ، في موازنة عادلة في الموقف الواحد .

وتظل هي مسئولية الإنسان نفسه أن يصوغ ممارسته صياغة عادلة صادقة ، نابعة من منهاج الله وحده ، منسجمة مع الواقع البشريّ ملبية لمتطلباته الإيمانية محققة لخصائصه الفطرية ، جامعة للجهود المؤمنة ، حتى يتحقق نموها وامتدادها وتطورها .

إنها مسئولية الإنسان حين يعرف مهمته في الحياة ويدرك غاية وجوده وحكمة خلقه . فلم يترك الله عباده سدى :

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ [القيامة: ٣٦]

لقد جعل الله له فطرة سوية ، وسنناً متوازنة ، وبصراً وسمعاً وفؤاداً ، وأرسل له الرسل والأنبياء ، وأنزل معهم الكتاب ، فكان لنا من علم الغيب ماعلّمْنا إياه الله ، وما أكدته سنن الله ، وما صدقته وآمنت به الفطرة التي لم تنحرف .

وإذا بين الله لنا حكمته من خلق الإنسان على هذه الأرض ، كما عبر عنها المنهاج الرباني وأكدها في آيات وأحاديث : عبودية واستخلاف وأمانة ، من خلال ابتلاء وتمحيص ، حتى يميز الخبيث من الطيب ، إذا بين لنا منهاج الله هذا كله ، فقد أصبح الإنسان مدركاً لأمانته على هذه الأرض واعياً لمسئوليته في هذه الحياة الدنيا ، لاعذر له بالنكوص ، ولاحجة لديه على كفر . إنها مسئوليته أن يمضي في هذه الحياة الدنيا عبادة وطاعة ، وأمانة واستخلافاً ، ونظراً وتدبراً ، وسعياً وبذلاً ، ليمارس إيمانه في كل حال ، ومع كل عصر .

إنها إذن مسئولية الإنسان أن ينظر كيف يمارس أمانة الشورى ، ويحقق خصائصها الإيمانية التي حددها منهاج الله بكل آفاقها واتساعها .

إنها مسئولية الأمة المؤمنة أن تصوغ الشورى صياغة إيمانية نابعة من منهاج الله تحمل كل خصائصها ، مطابقة لواقعها البشري الجديد وحاجاتها الجديدة ، موفية بعهد الله ، ماضية مع سننه ، جامعة للقوى والمواهب ، مطلقة للقدرات والإبداع ، في عبودية لله وطاعة ، وخشوع وإنابة .

وفي واقعنا اليوم ، أنّى التفتنا في هذا العالم ، على هذه الأرض ، مع أي قوم ، نماذج متعددة من المداولة تدور هنا أو هناك ، على مستوى إقليمي أو مستوى دولي ولكننا لانرى في أي صورة منها ، أو أي ممارسة لها ، شكلاً قدم الخير للإنسان ، وأظهر الحق ونصره ، وكبت الباطل وخذله . نرى نماذج متعددة ، تقدمت بها نظم وتصورات ، وأقوام . ولكننا لانرى بينها النموذج الإيماني الذي يقدم الشورى بكل خصائصها الايمانية ، وطبيعتها التعبدية وأسلوبها الاسلامي ، وأهدافها الربانية . ذلك لأن الأمّة المسلمة لم تقدم في عصرنا الحالي هذا النموذج الفريد كما قدمته قبل أربعة عشر قرناً . إن الوضع القائم ، والتصورات السائدة. وهي كلها ، أو في معظمها مجردة من التصور الإيماني ومن خصائصه ومميزاته .

هيئة الأمم المتحدة ، مجلس الأمن ، سائر المنظمات الدولية السياسية والمالية ، والعلمية ، والاجتماعية ، هذه المنظمات والمؤسسات ، حين نتابع جلساتها ، ومناقشاتها ، قراراتها ، لانجد فيها وقفة من وقفات الحق ، ولاصيحة من صيحات الإيمان ، ولا ثباتاً على عدل ، أو تراجعاً عن طغيان .

أين هو القرار العادل الأمين الذي حملته هذه المنظمات الدولية ؟ أفي قضية فلسطين ، أم في قضايا أفريقيا ، أم في قضايا آسيا ؟ عقول ومواهب ، مختارة من كل بلد ، وزخارف وأرائك ، وميكروفونات وإذاعات ، وموظفون وسكرتيرات ، وأموال تصرف على بذخ وإسراف وسيارات وخدم ، وأعوان. كل هذه الطاقات الهائلة لم تنقذ مظلوماً ، ولم تنجد معدوماً ، ولم تمسح دمعة ، ولم تضمد جرحاً. ولكن الظلم يتسع في الأرض ، والحاجة تمتد إلى فقر ، والدمعة تنساب مع الدم ، والجرح يقيح وهو ينتظر . وأهل الشورى على أرائكهم المريحة، وفي سياراتهم الفخمة ، وعلى رياش ناعمة ، يتلهون بأنات المعذبين ، وصرخات الضعفاء . أنات وصرخات تموت على جرعة كأس ، أو لحظة غواية .

تلتقي هذه الطاقات والمواهب ، وهي متفرقة ممزقة قبل أن تلتقي . تموج في داخلها أحقاد سوداء قاتلة ، تلتقي هذه المواهب والقدرات وقد فسدت نياتها قبل أن تلتقي ، ونتنت وسائلها قبل أن تجتمع ، وعرفت أهدافها الإجرامية قبل أن تتشاور . وفوق هذا الفساد كله ، جعلوا بين القاعات كواليس النجوى وزوايا العناكب ، ومخابىء العفن .

ثم قيل إنها منظمات دولية ! هنا تبحث حقوق الإنسان ، وهناك عدالة المجتمع ، وروايات وشعارات لم تترك لها أي رصيد إلا الطمع القاتل والجشع الغالب ، والصراع الداوي ، على دم وقيح ، وجريمة وعفن .

هذه صورة لنموذج من الشورى الدولية ، حيث يجمع الطمع والهوى كل هذه القدرات والمواهب .

إن الأرض كلها لتتحدث عن نتائج هذه المنظمات التي لم تفلح إلا بتأمين لحظات راحة ومتعة لوفود في حمى الموائد ، وصرعة الليل . إلا من عصم ربك .

والدول الكبرى ! وخذ منها ماشئت شرقاً وغرباً ، وانظر في مجالسها الشورية ومؤوسساتها الدستورية وشعاراتها وزخارفها . ثم انظر في قراراتها ، وأساليبها ، وأهدافها الواقعية ، لرأيت العجب العجاب ! لرأيت المصالح التي تلتقي وتفترق ، والأيادي التي تمتد في ظلمة التآمر وديجور الفساد ، والكواليس المتعفنة برائحة الإجرام ، ودم الضحايا .

مجالس شورية تحت أسماء متعددة ، فيها مايحسبه الناس عقولاً جبارة ، وقدرات هائلة ، ونظماً عبقرية . لايوهم بذلك إلا بريق زائل ، وومض خاطف ، لايترك إلا أثر الشقاء الممتد في الأرض .

من خلال هذه الشورى : أبيح الزنا ، واللواط ، والخمر ، والقتل الظالم ، والسرقة ، ونشر الفاحشة بقرارات أو توصيات ، بعد شورى دارت بها هذه العقول الجبارة ، والقدرات المختارة . حتى لم تعد جريمة في تاريخ الإنسان إلا وأقرتها تحت شعارات الحرية ، حقوق الإنسان ، مساواة الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل ، أقرتها كلها تحت هذه الشعارات الكاذبة ، وتحت نداء الشهوة المتقيحة ، والرغبة المجنونة ، والسكرة العاتية .

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحجر: ٧٢]

جميع هذه المجالس الشورية لم يكن لديها ميزان ثابت يعودون إليه . وإنما كان لهم موازين مضطربة متعددة ، وضعها الإنسان من حصاد تجاربه وعلمه ، حصاداً يجمعه الهوى وتفسده الشهوة .

ورجال هذه المجالس الشورية ، من حملهم إليها ، ومن أولاهم الثقة ؟ ماهي كفاءاتهم وقدراتهم ؟ ماهي خصائصهم ومميزاتهم ؟

إنهم ذوو مقدرة في هذا المجال أو ذاك ، برزوا في مجتمعهم بمواهبهم . وهذا في أحسن الأحوال . ولكن هذه المواهب لم تكن نقية ولا صافية .

لقد كشفت لنا الأيام الأخيرة فضائح أعداد كثيرة منهم في هذا البلد أو ذاك . وما انكشفت فضائحهم إلا لأنها ارتبطت بحادثة مثيرة ، أو أمر خاص ، شد الاهتمام ولفت الانتباه . وما كان أقرانهم أقل فضائح ، إلا أنها لم تنكشف بعد .

أما الذين حملوهم إلى هذه المجالس وأولوهم الثقة، فقد فعلوا ذلك في ظلال الحرية والديمقراطية، ولكنها أي حرية وأي ديمقراطية ؟ أو في ظلال حرية الدكتاتورية وأي ديكتاتورية . قيل لهم قولوا كلمتكم ورأيكم، والقانون لايحاسبكم إذا قلتم هذا الرأي أو ذاك، في نطاق الأسلوب الديمقراطي الحر، كما يزعمون، بعد أن جُرِّدوا من حقيقة الحرية، وخُدعوا بالفتنة والشهوة . وفي الوقت نفسه نزلت الدعاية الانتخابية . نزلت تحمل كلَ اللافتات وكل الشعارات، محملة على أموال هائلة بغيرها لاتدور دعاية، ولاتنزل شعارات، وعلى قوى تعمل في الخفاء وقوى تعمل في العلن . قوى بغيرها لايتحرك المال، ولا تمضي خطة، ولاتضج الميادين .

وتمضي الانتخابات داوية في الغرب، صامتة في الشرق، ومع مضيها تدور المساومات من وراء الكواليس، أو تدور التصفيات . وتختفي الجريمة أو تنشر، وتطوى الفضائح أو تعلن على قدر المساومة ونتائج التصفية، والشعب يندفع كتلاً وتجمعات مع هذه القوة أو مع تلك، ويعطي «صوته» أو يدلي برأيه، وهو يحسب أنه يمارس حريته، كل حريته . لقد تحدث وخطب، وبحت الحناجر، وسارت المظاهرات، وتحركت الإذاعات ووسائل الإعلام، تغذي فيه وهمه وضياعه، دون أن يدري أنه قد جرد من العلم واليقين، وأخفي عنه الحق والصدق، أو زينت الزخارف بكل طلاء، دون أن يدري أن الخدر سرى في عروقه، خدر الهياج والصراخ، أو خدر الصمت والكبت، خدراً سرى في عروقه منذ طفولته البريئة، حتى شوهت فطرته، ونمت غرائزه، وانحرف في ضلال كافر، حتى حسب أنه يحسن صنعاً، وهو من الأخسرين أعمالاً. إنه لايدري أنه لايحس وأنه لايعي. حجبوا العلم عنه وأوهموه أنه عالم، قتلوا حسه وفطرته وأوهموه أنه قويّ حساس، أطفأوا عنه النور وأوهموه أنه في صبح أبلج .

ويظل هذا الوهم، في الغرب أو الشرق، في حمى الديمقراطية أو عتو الدكتاتورية، يتمثل للناس كأنه يقين، وهو أبعد مايكون عن اليقين، يتمثل علماً وهو جهل، يتمثل حرية وهو قيد .

أقنعوهم أن الفساد خير، فصدقوا ذلك ونشأوا عليه، وأوهموهم أن الجريمة

إصلاح ، فآمنوا بذلك ونشأوا عليها .. قطعوا الصلات والأرحام والوشائج وأوهموهم أنهم متعارفون ومتعاونون .

أحزاب ! كل حزب بما لديهم فرحون . أحزاب صنعت لأنفسها أدياناً ونصبت لأنفسها آلهة ، أصنام الجاهلية أطهر منها ، كتل وتجمعات ، تلتقي وتفترق ، ترسم المناهج وتضع الخطط ، ترسمها مصالح وتضعها قوى .

وكل فرد يتحرك بوحي آلهته هذه أو تلك وينطق بما تمليه ، لايتحرك له وعي أو قلب ، رأي أو فكر ، إلا من خلال فطرة مشوهة ميتة ، ودائرة مخنوقة لانفس فيها ، دون أن يحس بذلك ، لأن خدر الأصنام قد سرى في عروقه أعوام حياته كلها ، إلا القليل القليل .

من خلال هذه النشأة والتربية ، وفي جو هذه الأحزاب والأصنام ، وعلى أقدام الآلهة التي صنعها أو فرضت نفسها عليه ، سواء في ديمقراطية الغرب أو دكتاتورية الشرق ، من خلال هذا النظام الدامس ، يدعى الفرد ليمارس حريته ويدلي برأيه في انتخابات مهووسة ، وقد جرد حقيقة من كل أسباب الحرية ، جرد من أسس آدميته وإنسانيته ، حين قتلت فطرته ، وخدرت أحاسيسه ، حين جرد من إيمانه با لله رب العالمين ، وطغت عليه ظلمة الكفر وخَدَّره.

لاظلام أعتى من ظلام الكفر ولا «أفيون» أقتل من أفيون الكفر ، ولا عمى أضل من عمى الكفر .

تحمل لنا الأخبار كل يوم صورة انسلت انسلالاً ، وكلمة فرت فراراً ، وقصة طارت على الأثير ، ذلك كله يحمل جريمة أو فضيحة . ولو أردنا أن نعدد أمثلة لذهبت بنا مجلدات . ولكننا نشير إشارة إلى نماذج :

انقطعت الكهرباء عن نيويورك مركز الحضارة الغربية وأرض ناطحات السحاب . انقطعت ساعات فقط ، فنهبت المخازن ، وحطمت المعارض وانتهكت الأعراض ووقف القانون ، والعلوم التقنية ، والحاسب الآلي ، ورجال الأمن وأجهزة الاتصال . وقفت الحضارة الغربية بكل قواها وأموالها ورجالها عاجزة مشلولة ، أمام الشهوة التي رعتها ، والفطرة التي شوهتها ، والجنون الذي غذته .

فتاة في ريعان شبابها تختطف فيذهب شرفها ثم تذبح ، ويختلط دم الروح مع دم العرض المهدور في رائحة نتنة وجريمة عفنة . وتعجز الحضارة كلها عن إنقاذ شبابها ، أو كبح جنون قاتلها .

ممثلات كاسيات عاريات يقطعن بالسكين ، فتختلط أنات السكر وأنات النزاع ، ويفوح الخبث على صفحات الجرائد والمجلات ، فلا يزكم أنوفاً ولايحرك ضميراً . فقد قتل الخدر ذلك كله .

جيوش تزحف ، فتسحق الدبابات أجساد الأحياء ويمزق الرصاص أشلاء الضعفاء وتختلط الدماء على حديد يكاد يستحي ، والانسان لايستحي ، وقد جف الحياء وانقطع الرجاء واشتد البلاء .

أمم تسحق ، وملايين تقتل ، وثروات تنهب ، في حمى حقوق الإنسان ورعاية الطفل وعيد الأمومة ، ومحاكم العدل الدولية ، وهيئات الأمم ، ومجالس الأمة ، واتحادات العمال ، وسائر هذه المجالس ، يقف على أبوابها الضعفاء كالشحاذين ، يمدون اليد المرتجفة ، ويحركون الشفاه اليابسة .

هذه قطرات من بحر ، وشذرات من مجلدات ، ولكننا نستحي أن نكثر من ذلك ، نستحي من الله ، ونؤثر طهر الكلمة وعفاف اللفظ . في هذه الأجواء ، بين هذه النفوس ، من هذه المجتمعات ، تتحرك الشورى في هذا المجلس أو ذاك وتصدر القرارات .

إنها الشورى المخمورة ، والرأي المتخدر ، والهوى المحموم ، تخرج بالقرار تدفعه قوة السلاح وتمضيه مدنية القرن العشرين . فإذا الأرض اقتتال ونار ، وفتنة ودمار ، وهتك لكل عهد وذمار . إنها مداولة الشيطان .

والأمة الإسلامية بعد أن سقطت الخلافة الإسلامية ، وتمزقت شعوباً وتفرقت حدوداً ، كانت على حالة من التخلف والجهل كبيرة مريعة ، ولا نريد أن نتتبع كل مظاهر التخلف ، إلا أننا نريد أن نؤكد أمرين خطيرين ، أمرين كان غيابهما سبب كل مظهر آخر من التخلف والجهل ، وسبب كل نكبة ومأساة ، أمرين هما : غياب منهاج الله عن قلوب الأمة ، وغياب فهم الواقع الذي يجري

حولهم . لقد كانت جماهير المسلمين ملتزمة بالعاطفة الإسلامية ، مليئة بالمظاهر الدينية ، وبعض الشعائر التعبدية ، والبدع الخرافية . لم يكن الفرد المسلم على عاطفته وعلى مشاعره وشعائره يعي من منهاج الله شيئاً ذا بال ، إلا تلاوة لا تحرك أكثر من شفاه ورؤوس .

لم يكن منهاج الله علماً في القلوب ولانهجاً في الممارسة . ويحمل لنا تاريخ تلك الفترة قصصاً ونماذج من ذلك الجهل في دين الله . مسلمان يصليان ويصومان ويعبدان رباً واحداً ، حتى إذا خرجا من الصلاة أعمل كل منهما سيفه في الآخر ذبحاً وتقتيلاً . وشعارات جديدة طرحت تلقفها المصلون العابدون تلقف الجائع للقمة . فآمنوا بها وصدقوا وحسبوها ديناً . كانت القلوب خاوية ، والرؤوس خاوية . فأمكن ملؤها بالقومية والإقليمية فامتلأت حتى فقدت الصلاة أثرها في الأمة ، فلم تطرد الفتنة ولم ترفع الغفلة وما كان للفرد أو الجماعة أو الأمة أن تقوى على رد أمورها إلى منهاج الله . وأنّى لها ذلك وهي لاتعلم من منهاج الله إلا مواسم أعياد ، وحلقات موائد ؟ لا تعلم إلا القليل القليل . وأنى لها ذلك وهي لاتعلم أمورها ، فكيف تردها إلى منهاج الله ، وهي لاتعلم واقعها ، فكيف تراه من خلال منهاج الله ؟ مؤامرات تحاك للإسلام في خفاء وكواليس ، ويقدم للناس ابتسامات إبليس .

أمة لاتعلم منهاج الله علماً ولكنها تراه عاطفة وشعارات ولاتدري مايحاك لها ، فتخدعها البسمة ، وتقتلها الخدعة . وتمت مؤامرة سايكس بيكو وأمثالها ! تاريخ باك طويل . ومرت سنون على تمزق زادها جهلاً بدينها ، وجهلاً بواقعها ، حتى شاء الله ، ولا راد لقضائه ، أن يتمثل التمزق في دويلات تحت انتداب أو في قهر الاستعمار ، ثم استقلت دولاً شتى متفرقة أكثر من ذي قبل ، ممزقة أشد من عهد سابق .

وقامت حكومات ، ونشأت مجالس الشورى : برلمانات ، وهيئات ومجالس، حملت أسماءها من المستعمر . حملت نظمها من المستعمر، وحملت أساليبها من المستعمر . وانتقلت الشورى من الغرب إلى ديار الإسلام تنقل

فوضاها وخزيها ، ولا تنقل شيئاً من علم أو تكنولوجيا . نقلتها بكل شرها وفجورها . لايضبطها ضابط ولايحكمها نظام ، ولايزنها ميزان . إنها موازين شتى استوردناها كما هي مع كل فجورها ورجسها ودنسها ، وفرحنا بالديمقراطية ، والمجالس النيابية ، وحرية الرأي المتفلتة ، والتيه الأعمى . وفشلت فشلاً ذريعاً وهي تركيبة هزلية مضحكة ، لم تستطيع أن تحمي أمة أو عقيدة ، أو سلطاناً . وسرعان ماتهاوت هذه النظم تحت ضربات شعارات هائجة جديدة ، من اشتراكية لاحدود لها ، وحرية لامفهوم لها ، وعدالة لاميزان لها ، ووحدة لاجامع لها . مهزلة مضحكة مبكية . مهزلة قاتلة دامية ، حملت ديكتاتورية الشرق مظهرها بين تهليل الجماهير وتصفيق النائمين ، وهتاف الحالمين ، في أجواء انقلاب يتلوه انقلاب ، وذبح يتلوه ذبح ، حتى ذبحت الأمة رجالها ، وقتلت طاقاتها ، وأماتت مواهبها . وضاعت فلسطين . ودارت لها مجالس الشورى من عاصمة إلى عاصمة ، ومن بلد إلى بلد ، ومن هزيمة إلى هزيمة .

حملت أمتنا من خلال تمزقها صوراً هزيلة من شورى الغرب الهزيلة ، صوراً مفزعة من شورى الشرق المرعبة . فما استقرت على هذه أو تلك . وكيف لها أن تستقر . فانهار اقتصاد الأمة ، وهبط العلم ، وزرعت الأحقاد الدامية ، وتحركت الثارات الماجنة .

إلا القليل القليل، إلا نواة الإسلام ، نواة «أحد» ، نواة النبوة والفئة التي أحاطت بها تصد عنها وتحميها ، النواة التي لاتتحطم ، ولا تنهار ، ولاتموت . فإنها أعظم من هذه القوى كلها ، ولكنها صابرة ، محمية بحماية الله ، مرعية برعاية الرحمن ، مجتمعة على كلمة التقوى. إنها نواة لاتقهر أبداً . إنها باقية مدى الدهر . إنها المجموعة المؤمنة الصابرة التي أحاطت بالرسول صلى الله عليه وسلم في معركة أحد تدافع عنه وتحميه، وتحمي الدعوة الإسلامية مدى الدهر.

وكانت محاولات لتقديم الشورى المؤمنة ، شورى الإسلام ولكنها انطفأت في ظلمة الجدل ، وديجور المراء ، وجنون الشهوة ، وغلبة الهوى والجهل .

ومازال فينا حتى يومنا هذا آثار دامية من تلك العهود ، وجراح من تلك

المحاولات . ذلك لأن المحاولات لم تقم على نهج مدروس متكامل ، على منهاج رباني متناسق ، على ميزان ثابت عادل غير مضطرب . ولكن المحاولات ستستأنف والمسيرة ستمضي ، والنصر قادم بإذن الله . إنها دعوة الله حين تصحو وتصفو ، وتعلم وتعي ، وتصدق في علمها وممارستها .

لقد نقلنا عن الغرب معظم خصائص ديمقراطيته نقلا عاجزاً فقيراً ، نقلاً تائهاً مغلوباً ، نقلاً لم يسمح بالاستفادة من تجربة بشرية ، حين لم نردها إلى منهاج الله ، حتى يتبين لنا الزبد ويتبين لنا ماينفع الناس . وبدون هذا الرد إلى منهاج الله لانستطيع أن نستفيد من أي تجربة بشرية فائدة إيجابية نامية . فأخذنا الزبد كله والقليل القليل مما ينفع الناس . ومن ناحية أخرى ، لم نقم نحن من جانبنا بتنمية الممارسة الإيمانية التي انطلقت مع دعوة الإسلام وزادتها ممارسة الخلفاء الراشدين خبرة وغناء . لم نقم نحن بوضع طاقاتنا وقدراتنا ، حين يرعاها منهاج الله ،لنصوغ صياغتنا الإيمانية الرائدة .

نحن لم نفعل هذا ولم نفعل ذاك . أخذنا نظام الانتخابات مثلاً ، كما هو ، بكل شروره ومفاسده ، وحمله المسلمون إلى ديارهم ومارسوه في واقعهم ، دون أن يدفعوا غثاءه ، ودون أن يستأنفوا ممارسة الإيمان . ودخل نظام الانتخابات في حياتنا كما دخلت السيارة والطيارة ، ورفع الحجاب واختلاط النساء بالرجال ، دخل نظام الانتخابات الغربي وقد استقر في أذهاننا أنه حق وعلم لايأتيه الباطل . ومارسناه على أنه نعمة كبرى من حضارة القرن العشرين . وربما تبارى المفوهون ليثبتوا أن أصلها من الإسلام ، كما حاولوا بعد ذلك إلصاق الاشتراكية بالإسلام .

وكانت الانتخابات في كل ديار الإسلام ، وكانت الانتخابات في أجواء المسلمين ، نقلاً أميناً عن الغرب . لم تخطر خاطرة لتهذيبها على الأقل ، لغسلها ، لتطهيرها، فمنٍ يجرؤ إذن على تعديلها أو تحويرها ، أو إعادة صياغتها ! إنها ستجد من يدّعي عندئذ أن ذلك خيانة وطنية ، ومحاربة للعلم . ولكن الانتخابات فشلت كنظام شوريّ في واقعنا حتى انقضّت عليها ديكتاتورية الاشتراكية انقضاضاً عاتياً .

تطرح القضايا على الشعب ، وتطرح الأسماء وتعلق اللافتات ، وتنطلق حناجر الدعاية ، وأساليب الظلام ، ومساومات الزوايا ، وتوضع الصناديق ، وتملأ بالأوراق . ثم تفرز وتعلن النتائج : مائة بالمائة ، وتسع وتسعون ، ويظل بعض المتواضعين يحتفظون بنسب أقل ، على قدر تواضعهم أو تواضع نفقاتهم ، أو حشود جماهيرهم . وتسمى هذه الممارسة في حياتنا «معركة» ، معركة الانتخابات ، لتحمل هذه اللفظة كل ظلال الصراع الخفي والعلني . معركة ! ويفرح الفائزون بالمعركة الفاصلة ، وتقدم لهم التهاني على أطباق المراء ، وحناجر الهاتفين ، معركة عظيمة، وفوز أعظم استنفذ الأموال والطاقات والعقول والأوقات، معركة ، وفوز ، وفرحة كأنما هزمنا صهيون ، أو حررنا الديار الضائعة ، أو الشرف الممزق في ميادين الجهاد .

تطرح الأسماء وتلقى الأوراق المطوية ، في الصناديق السحرية . فهل أعمل هذا أو ذاك فكره أو أجرى دراسة وتقصياً ، أو حرك ضميراً أو مارس إيمانا ، أو علماً أو اتّقى الله وخشيه ولم يخش أحداً إلا الله ؟ هل شعر وهو يملأ الورقة ويضعها في الصندوق ، أنه تحرر من قيود العصبية الجاهلية ، العصبية العائلية ، أو الاقليمية ، أو الحزبية ؟ هل شعر أنه أعطى ولاءه لله رب العالمين دون أن يخشى لومة لائم ؟ هل شعر أنه محاسب بين يدي الله على مشورته ورأيه ؟ هل عرف أنها أمانة خلق لأدائها ؟ هل شعر بالخوف من ضياع مصلحة ، أو غياب منفعة ؟ هل عرف أن هنالك جنة وناراً وداراً آخرة ؟ هل حاسب نفسه وعرف قدره وأدرك حده ؟ هل رأى أنه أهل لإعطاء رأيه والإدلاء بصوته ؟ هل أحس أنه يملك العلم اليقيني عن هذا أو ذاك ، أم يحمل الظن التائه ، والرغبة المدفوعة ، والهوى المردي .

إنها معركة الانتخابات ! معركة وفوز وفرحة ، أو هزيمة وحسرة ، في أمة مغلوبة مقهورة ، ممزقة مضيعة ، تحتاج إلى كل دقيقة لتبني مجدها ، وإلى كل قرش لتغذي دفاعها وإلى كل موهبة لتصحح مسيرتها . ولكن هذه المعارك وأمثالها أخذت الوقت والمال والمواهب . لم تكن «المعركة» الوحيدة فأمثالها كثير .

ولم يصحُ على هذا الدوار صاح، لامسلم جاهل، ولامتعلم، لامتحلل ولا ملتزم، وغاص في أوحالها الجمع والحشد إلا من رحم ربك.

لم يصحُ أحد إلا على ديكتاتورية عاتية، قلبت الأوضاع، فاستسلم المستسلمون لها كما استسلموا للديمقراطية، كما استسلموا للهزيمة، كما استسلموا هنا وهناك. ولاتنتهي معركة من هذه المعارك أبداً إلا ويقوم فريق يدّعي بأن النتائج مزيفة، والانتخابات مزورة. وتدور معركة جديدة تأخذ الزمن اللازم لها والإعلام الضروري لها، والجهد الضائع في حماها، حتى يحين الموعد المقبل لمعركة الانتخابات الجديدة. وتظل الاستعدادات، والندوات، والحفلات، على مدار السنة والسنين تمتص الفكر والجهد، تستهلك العقل والموهبة في تخطيط رئيس استعداداً لتلك المعركة. ويغلف هذا كله غلاف رقيق من كل ماتشاء من الشعارات المخدرة للنفوس: وطنية قومية، طائفية، دينية، عائلية.

ولاينكشف ذلك أو قد ينكشف بعد حين. وحين لاينكشف يكون قد استحكم الشعار المستعار، وغلب المظهر على الجوهر.

لاعجب إذن في مثل هذه الأجواء الهائجة أن لاتجد الأمة وقتاً لصحوة، أو وقتاً لرسم نهج، ولا موهبة تتفرغ إلى إنتاج وعطاء، ولا جمعاً يدفع مسيرة النصر، ولاقدرة لتصوغ صياغة الإيمان.

لاعجب في مثل هذه الأجواء أن يدلف الأعداء من آلاف المنافذ المفتوحة والثغرات المهجورة. ولاعجب أن تنقض الديكتاتورية في لحظة مفاجئة لنا، غير مفاجئة لغيرنا. لاعجب أن تنقض وهي تحمل أي شعار محبب للنفوس، مخدر للعقول، مهيج للعواطف. لاعجب أن يكون شعاراً من دين أو قومية أو وطنية. وإذا ضاقت الشعارات أو استهلكت، فيظل شعار «المصلحة العامة» جاهزاً للطرح لكل ميدان.

ولايعني ذلك أن رأي الناس لايطلب، وأن الشعب لايستشار، وأن الشورى يجب أن تضيق حتى تشمل العدد المخنوق. ولكن الذي نعنيه أن الانتخابات كما مارستها ديار الاسلام في القرن الأخير، لم تحمل خصائص

الشورى الإيمانية، ولم تحمل الصياغة الإيمانية ولم تقم على أسس المنهاج الرباني.

إن ممارسة الانتخابات في نطاقها الضيق بين الجماعات،. أو في نطاقها الواسع للأمة لم تمثل ممارسة إيمانية ولا تجربة إسلامية. فلم تكن نتائجها في أي حالة من الحالات تحمل بركة الإيمان وخير العقيدة.

لقد تبين لنا مما سبق أن للأمة رأيها وحقها في أحداث وأمور. وأن للفرد حرية وأمناً يصونهما الإسلام، وأن لكل مستوى من مستويات الأمة مسئولية وأمانة، وأن هؤلاء كلهم أفراداً وجماعات وأمة، يستطيعون أن يمارسوا الشورى الإيمانية بكل خصائصها. وإنها لمسئوليتهم يحاسبون عليها يوم القيامة. وكذلك فإنها مسئولية المؤمنين أنفسهم أن يصوغوا الشورى المؤمنة في كل الميادين، وعلى كل المستويات، في كل عصر، ومع كل حال، صياغة إيمانية رائدة، تقود العالم كله.

إن العالم كله بحاجة إلى نبضة الإيمان، وخفقة الإسلام، ولمسة الرحمة وقيادة المؤمنين. إن الإنسان كله اليوم حيثما كان، تلفه الحيرة، ويقتله القلق، ويفزعه الاضطراب. ويفسد هذا كله عليه نعمة مايسميه بالحضارة. فتذهب من نفسه لذة السيارة الفارهة، ومتعة الاتصالات السريعة، وجمال الرياش، وضخامة الناطحات. إنه فقد المتعة في كل ذلك. إنه يبحث عن مخرج ومنفذ للنور، للأمن، لليقين.

إن «صرعة» الانتخابات تأخذ الأشهر الطويلة والجهود العنيفة، لتغيير وجه من الوجوه، أو لافتة من اللافتات، لاتهدف لغير هذا، إن هذه الصرعة أعطت جزءاً كبيراً من العالم اضطراباً في أوضاع، وزعزعة في أحداث. وربما أورثت قلقاً وخوفاً على خوف، وهي تمضي بكل عنفها لتغيير اللافتات والوجوه. تمضي وليس لها ميزان تحتكم إليه. ولاقاعدة تعود إليها، فتظل في مضيها مفلتة تائهة على أمواج الأهواء، والمصالح. ومن خلال هذا الضعف تنقض عليها ديكتاتورية مظلمة، أو تفتنها فتنة من فساد مستشر.

إن الانتخابات الدورية لم تكن لتهدف إلى أكثر من تغير الوجوه واللافتات في كثير من الأحيان، تحت ادعاء التطوير والاستفادة من المواهب. ولكن المواهب هي ذاتها، والتخلف هو نفسه، والسياسة العامة للأمة لاتتعلق بوجه واحد، ولاترتبط بلافتة، إنها مرتبطة بقوى مستحكمة وأجهزة متمكنة ظاهرة أو خفية. إن الاستفادة من المواهب الغنية أمر ميسور من خلال الأساليب الإيمانية والخصائص الإيمانية.

ولكن الإسلام حين يضع هدفاً فإنه يكون هدفاً صادقاً لا طلاء خادعاً. وعندما يرسم خطة تكون خطة أمينة، في موازنة عادلة واضحة، نابعة عن إيمان ونهج رباني. إن الممارسة الإيمانية في مثل هذه الحالات يعرض خطوطها منهاج الله، ويبسطها دين الله، تعرضها سيرة الرسول ﷺ لتؤكدها وضوحاً وتطبيقاً، وتزيدها سيرة الخلفاء الراشدين بياناً وتثبيتاً، وتمضي بها جهود المؤمنين على مدى الدهر عمقاً ووفاء، وصدقاً وأمانة. فتظل من خلال ذلك تبحث عن المواهب المؤمنة القادرة. والعبقرية الصادقة المعطية، في ميادينها كلها، لتكرمها وترعاها، وتصونها وتحميها، وتنظمها في إطار إيماني منسق مترابط، ومستويات عادلة صادقة وممارسة نامية متطورة، حية خافقة نابضة، تدفع الإنسان إلى الخير والبركة، والأمن والقوة. ويظل التنافس والتزاحم على طاعة وعبادة، لا على هوى وشهوات، ووجوه ولافتات.

﴿ ... وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين: ٢٦]

الفصـل الثاني
ملامح من الواقـع

واقعنا اليوم واقع مؤلم لانستطيع أن نلم مآسيه بكتاب ولا أن نجمع أحزانه بصفحات . واقعنا اليوم يحمل مظاهر الضياع ، وظلام الفتنة ، وهدير الشيطان ، وأمواج الهوى . ولكنه مع ذلك كله يحمل بذرة الخير الذي لايموت ، ونبتة الإيمان الذي يمتد في رعاية الله ، حسب مشيئته العادلة ، وحكمته الغالبة .

مع كل العصور ، في كل الأزمنة عبر التاريخ الطويل لبني آدم على هذه الأرض كانت ظلمات وكانت فتن . وكانت للشيطان جولات . ولكن الإيمان الحق ، والرسالة السماويّة ، ظلت تحتفظ ببذرتها النامية القوية لاتتحطم ، ونبتتها المخضرة الندية لا تذوي ، في صمود قوي ، وثبات جليّ . فإذا البذرة تشق الأرض على غير حساب الكافرين ، وإذا النبتة تمتد فروعاً وغصوناً ، وإذا ظلال الإيمان وارفة ، وأنداء النصر غنية ، وكلمة الله عالية ، وحكمته غالبة في كل آن .

مثل نراه في تاريخنا غزوة «أحد» انقلب ميزان المعركة ، وتولى فريق من المؤمنين ، وسقط الشهداء الصابرون . وفي ناحية من الميدان يقف رسول الله ﷺ ، وقد شج وجهه الكريم ، وسال دم النبوة الطاهرة ، وأحاطت به عصبة الإيمان قليلة العدد ، مثخنة الجراح ، تتلقى دونه السهام ، وتدفع عنه الهجمات .

والنظرة العاجلة الخائفة لاترى إلا الدعوة قد حطمت ، والإسلام قد انهزم ولكنه كان نصراً رائعاً لايراه إلاّ المؤمنون الثابتون . ذلك أن النواة الحية النابضة بالحياة مازالت في الميدان ، لاتتحطم أبداً . نواة الدعوة الربانية . نبوة يحوطها الصناديد ، ويقين يحمله الدهر . نواة لم تتحطم ولن تتحطم أبداً . هذه الصورة الفريدة في تاريخ البشرية كلها ، هذه الصورة لهذه العصبة التي تحوط النبوة إحاطة صدق وثبات ، ويقين وعزيمة ، وثقة بالله ممتدة امتداد العصور ، هذه الصورة الفريدة تحمل النصر المحقق ، والفوز المبين . لأنها أمر الله رب العالمين ولأنها كلمته الغالبة .

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة: ٢١]

فمن إذن يستطيع أن يهزم الإسلام، ولو اجتمعت قوى القرن العشرين وما بعده، بكل طائراتها ودباباتها، وصواريخها وعلومها وتخطيطها، بكل جنودها من شياطين الإنس والجن. إنها كلها مهزومة بإذن الله، وبكلمة الله وبجنود الله. ولكنها جولات أرادها الله بحكمته ومشيئته.

﴿ .... ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾ [محمد: ٤]

وكل هذه الجولات هي ابتلاء وتمحيص، ولاتنتهي إلا بشهداء صادقين وأجداث كافرين. ولكن النواة باقية والبذرة حية نابضة، والنبتة ندية طاهرة. فليتقدم الجنود المؤمنون. هكذا مضت دعوة الإسلام على الأرض، يزين الشيطان للكافرين أنهم انتصروا في جولة. فظنوا حين قتلوا عصبة من المؤمنين أن الأمر استتب لهم. هكذا كان شأن قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم. ونظل نرى هذه العصبة الثابتة في ميدان «أحد» صورة فريدة تختص بها الدعوة الإسلامية، تختص بها دعوة الله، فالنصر قريب والنصر يقين.

ولكنه واقع نعيشه اليوم. وعلينا دراسته وفهمه بكل دقائقه وبكل قضاياه الكبيرة وعلينا أن نفهمه لنعرف كيف نمارس إيماننا ومنهاج ربنا.

علينا أن نفهمه من خلال إيماننا، ومن خلال منهاج الله. حتى نستطيع أن نجعل من ممارستنا نهجاً وخطة إيمانية.

علينا أن نفهمه لنحذر ونتقي، ونعي فلا نتيه ولانضل بإذن الله.

علينا أن نفهمه لنعرف كيف نصوغ الشورى المؤمنة صياغة إيمانية تلبي حاجة المؤمنين في واقعهم الحقيقي.

علينا أن نفهمه حتى لانعيش في الوهم والخيال، والظن والآمال، وبريق الهوى وخطفة الأحلام.

علينا أن نفهمه حتى لانطرح قضايا ، ونعرض تصورات ، ونطلق قواعد وكأننا نكاد نضع دينا جديداً .

علينا أن نفهمه حتى لاتتجمع أوهام التصورات البشرية بين الغافلين يقيناً ، وبين الجاهلين ديناً .

فدين الله لايتبدل ، وقد اكتمل ، وهو الحق ، والحمد لله رب العالمين .

ولانستطيع هنا أن نلم بكل الواقع ولانقوى عليه . وإنما نحاول أن نأخذ لمحات تمس موضوعنا . وشذرات تعين في محاولتنا . حتى تنهض الجهود المؤمنة المتخصصة ، فتنزل ميدان الدعوة ، فتضع الدراسة المستكملة للواقع ، وتدع الجدل والقيل والقال . إن المهمة أعظم من جهد فرد ، إنها مهمة دعوة ومهمة أمة . ومن هذه اللمحات :

١ - الأمل بالرجل الواحد :

لقد كان من أحلام الشباب ، وما تردده الأماني والرغبات ، أن واقعنا المؤلم لا يتبدل إلا بظهور العبقرية الفذّة ، والرجل الواحد ، كأبي بكر أو عمر رضي الله عنهما أو كأحد من الصحابة الأفذاذ .

إن هذه الأمنية المتوجهة إلى الرجل الواحد ، حملتها الرغبات الموحية بالكسل الجماعي والهوان الشامل ، والاسترخاء المنتظر . حتى لم يعد يشعر المسلم أن عليه مسئولية أكثر من أن ينتظر ، ولا أمانة أبعد من أن يتأمل ، في مراتع الكسل وخدر الوهن .

لاننكر أهمية القيادة ، ولا دور الموهبة ، ولا أثر العباقرة على مدار التاريخ . ولكن الذي ننكره أن نسترخي على أرائك الانتظار حتى تحدث المعجزة الموهومة في أحلام النيام ، وشطحات الأوهام .

إن الإسلام جعل لكل فرد وسعاً وطاقة حين جعله إنساناً مكلفاً ، وعبداً محاسباً ، ومخلوقاً مبتلى ، وإذا كان هذا الوسع يختلف من إنسان إلى إنسان،

ويتنوع ويتفاوت، درجات وأشكالاً فإن المسئولية لاتسقط عن أي طاقة ولاتذهب عن أي وسع، ولايرفع الحساب، ولايغيب الابتلاء . وتمضي سنن الله في الكون لاتتحول، للعامل أجر وثمرة، وللنائم أحلام وأوهام . ولكن على كل مؤمن أن يعرف نفسه، وقدره وحده .

هذه النفسيّة المسترخية التي عاشها واقعنا أجيالاً طويلة، مسترخية على الأنين والدموع والدماء، تحتاج إلى أن تستيقظ، يقظة يعي فيها كل فرد أنه مسئول ومحاسب بين يدي الله، يقظة يبعثها منهاج الله - قرآناً وسنةَ ولغة عربيّة-، في كلِ مسلم ينهض بها إلى أمانته التي حملها، والعبودية لله رب العالمين التي خُلقَ لها، والاستخلاف الذي أنيط به . وهو يؤمن أن عليه أن يبذل الجهد الذي يستوعب وسعه وطاقته، على درب الإيمان وميادين الابتلاء، لا يتردد ولاينهزم.

وعندئذ تتوحد الجهود المؤمنة كلها في مجرى واحد ينتظمها دون أن تتبعثر في مسالك شتى، ومسارب متعددة . وعندئذ تبرز المواهب المجلوة بالإيمان والقدرات البارعة في الميدان، تأخذ كل موهبة مكانها الأمين، وتنزل كل قدرة ساحها الحصين . وعندئذ تستطيع القيادة أن تؤتي ثمرتها، وتستطيع العبقرية أن تدفع المسيرة . فتدور الشورى في أمة عاملة غير نائمة، وتنير النصيحة قلوباً متفتحة غير مغلقة، ويكون السمع والطاعة انتظاماً واعياً، وجمعاً أميناً .

٢ - الطاقات الإسلامية المهدورة :

هذه الطاقات الإسلامية المهدورة المتفلتة من نور الإسلام وضياء الإيمان، هذه القدرات السائحة في الأرض شرقاً وغرباً، تضع عرقها وأعصابها، وجهدها ووقتها، عن وعي أو بغير وعي في خدمة شرق وغرب، لاتفيد إيماناً ولاتنصر دعوة تمتصها قوي معادية امتصاصاً، تمتص كل جهد ووقت ومال . هذه الطاقات المنتجة هنا وهناك تحتاج إلى أن تحرر نفسها من العجلة الدائرة بها، الدائرة دوراناً هائلاً مريعاً، لايدع لها وقتاً لتفكر، ولافسحة لتتأمل . إنها تحتاج أن تخرج من هذه العجلة لتنجو أولا من هلاك محقق، ولتصون طاقتها فتدفعها طاعة وعبادة لله .

لابأس أن تتعارف الأمم والشعوب ، وأن تتعاون الأقوام والأوطان . ولكن التعاون لايعني امتصاص شعب ، وتخدير أمة ، لايستفيد منه إلا طرف واحد وجانب منفرد . وإن التعاون لايعني ذهاب عقيدة ، وضياع إيمان، ثمّ نلقى بعد ذلك وحسرة وحرماناً .

إن هذه القدرات التي يمتصها الشيطان ، طاقات كثيرة . وقد تحمل لافتة مغرية أو مظهراً جذاباً . ولكن اللافتة والمظهر لم يمنع أن تكون الجهود كلها تصب في خدمة عدو أو منافق . ولن تلتقي هذه الجهود إلا على صحوة إيمانية ، ويقظة قرآنية ينيرها منهاج الله دراسة وتدبراً ، وعلماً وعملاً .

وعندئذ تغنى الشورى بجنودها ، وتقوى بقدراتها ، وتمتد بالجنود العاملين .

٣ - واقعنا اليوم والعهد المكي :

يرى بعضهم أننا أشبه مانكون عليه اليوم هو العهد المكي . لكننا نقول : إننا في واقعنا اليوم ، في القرن الحادي والعشرين في عام كذا أو كذا. إننا أبناء هذا الواقع اليوم ، وعلينا أن نتعامل معه من خلال منهاج الله . إننا في واقع محدد ، وظروف بينة . وإن منهاج الله لم ينزل للعهد المكي ولا للعهد المدني فحسب ، ولكنه نزل لكل عصر وجيل . ونحن اليوم في عصر من العصور له واقعه وظروفه . وإنّ منهاج الله يتّسع لكل واقع ، مهما تعقدت الأحوال ، وتشابكت الأمور . ولكن الذي يَضيق هو جهد الإنسان اللاهي ، وطاقة الإنسان السادر . فلتتقدم الجهود لتعي منهاج الله وتعي واقعها ، ثم تجد بعد ذلك أن الدرب ميسر ، والطريق منير .

فلا نحتاج أبداً أن نعتبر أنفسنا أننا في العهد المكي ، لنخرج بأحكام اجتهادية لا تمت إلى حاضرنا بصلة . فمن داعٍ إلى ترك الجهاد ، ومن داعٍ إلى النّوم والاسترخاء . والعهد المكي الإيماني بريء من ذلك كله .

لم يكن المنهاج الرباني قد اكتمل في العهد المكي ، فقد كان القرآن الكريم يتنزل منجماً وأما اليوم فإن المنهاج الرباني مكتمل تام منذ اللحظة التي انقطع فيها الوحي الكريم ، ومنذ أن أنزل الله سبحانه وتعالى :

﴿ .. الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. ﴾ [المائدة: ٣]

منذ تلك اللحظة أصبح الإنسان مكلفاً بممارسة إيمانه وفقاً لقواعد المنهاج الرباني على ضوء واقعه وظروفه المتجددة مع كل عصر. ولا يمنع هذا أن يكون بين عصرنا اليوم وبين العهد المكي ملامح تشابه. فإن ملامح التشابه لا تنعدم بين عصر وعصر.

وأبرز ملامح التشابه بين جميع العصور سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. ولكن التشابه بين عصر وعصر لا يمنع من أن لكل عصر واقعه المحدد، وظروفه النامية، وأوضاعه الجديدة. مع كل واقع آيات بينات وكلمات الله.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ﴾ [لقمان: ٢٧]

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾ [الكهف: ١٠٩]

ويظل منهاج الله هو المنهاج الوحيد للإنسان كله. المنهاج الوحيد الذي يتسع لكل العصور، لكل الأجيال، لكل الكلمات، لكل واقع. والمؤمن وهو يحمل في صدره منهاج الله إيماناً وعلماً ونوراً، وهو يعي واقعه الجديد، يمضي في ممارسة إيمانه ممارسة تستوعب وسعه وطاقته على أساس من منهاج الله، وعلى ضوء واقعه المتجدد. ويكون الواقع المكي، والواقع المدني، والواقع في كل عصر، مصدر عبرة وخبرة، ودروس ومران، حتى تظل ممارسة الإيمان نامية، قوية بنموها، غنية بزادها وخبرتها.

٤ - عدم شمول الممارسة الإيمانية:

في واقعنا اليوم شعارات عديدة، ورايات متعددة، وألقاب وزخارف، وفرق وطوائف. وتمتد الفُرْقَةُ حتى في الطائفة الواحدة، والفِرْقَة الواحدة، ومن

خلال هذه الشعارات والرايات والألقاب والزخارف والفرق والطوائف انسلت من الكافرين حشود ، ودلفت جهود أصابت أو كادت تصيب مقتلاً . إن هذه النماذج من الشعارات والرايات وأمثالها كانت تحوطها العاطفة الملتهبة ، ولكنها كانت عاطفة متفلتة من نهج واضح ، ورؤية واعية ، والتزام بمنهاج كريم . من خلال هذه العاطفة انساقت الملايين في تيه ودياجير ، تلفّها الأعاصير ، أعاصير الجهل بالنهج والواقع . وكأن الجهل الغالب انشق في غفلة من الناس عن شعارات لاتمت لحقيقتهم بصلة ، إلا صلة العاطفة التائهة في الظلام، أو صلة الزخرف البراق ، أو زينة الشيطان .

وكم حسب الناس أن بعض مايفعلونه هو إيمان ودين . والدين منه براء . وكم حسبوه علماً وهو جهل ، وكم حسبوه وفاء وهو عداء . وإن كان لذلك من أسباب ، فإن أهم أسبابه : أن معنى الالتزام العقائدي لم يكن واضحاً في الصدور أو جلياً في القلوب . ربما حسب بعضهم أن الالتزام بآية هو كاف لممارسة الإيمان في شتى ميادين الحياة . وربما حسب بعضهم أن الصلاة إذا انتظمت حركاتها أغنت عن الالتزام بالصدق في العمل ، والأمانة في التجارة ، والوعي في السياسة ، والحذر مع الأعداء . ربما حسب بعضهم أن جزءاً من منهاج الله يكفي عن سائره ، وأن قاعدة تغني عن بقيته . جهلوا أن الإسلام منهاج رباني متكامل ، أنزله الله بتكامله لحاجة الإنسان إلى كل آية وإلى كل قاعدة . وما كان الله سبحانه وتعالى لينزل قواعد يكون الناس في غناء عنها . لقد كان رسول الله ﷺ رحمة للعالمين ، وكان منهاج الله كله رحمة للعالمين . نحتاج هذه القاعدة الإيمانية هنا ، ونحتاج غيرها هناك ، ونحتاجه كله في ميادين الحياة الممتدة ، ميادين الحياة التي يخوضها الإنسان . فمن من الناس لايسعى ولايعمل ولايتصل ولا يرحل ، ولايقطع ، ولايأخذ ولايعطي ؟ ولكن الذي يحدد القدر هو سعة الإنسان وطاقته ومسئوليته وأمانته . ولايتعارض هذا مع وجود تخصص في هذا الميدان أو ذاك ، يأخذ فيه الإنسان قدراً أوسع في باب تخصصه وميدان ممارسته ، قدراً أوسع من غيره الذي لم يتخصص في ميدانه ذاته . ولكن

الجميع يأخذون أخذاً متناسقاً متكاملاً من منهاج متناسق متكامل ، لا يتجزأ .

ولكن المهمة تتجزأ ، والعزيمة تنقطع ، والأماني تتنوع . فلا عجب إذن أن ترى أناساً يقضون السنين الطويلة يدرسون الوضوء والطهارة ، ولم يعطوا البيوع والتجارة في منهاج الله جهداً ولا وقتاً . فنزلوا إلى ميدان التجارة وهم يجهلون أن الإسلام سن قواعد ورسم نهجاً . فظلت الرغبة هي التي ترسم لهم الطريق . وإذا دخلوا بيوتهم جهلوا أن عليهم أمانة ومسئولية خلاف تحصيل الرزق ، هي أمانة التربية ومسئولية البناء . جهلوا أن الإسلام أرسى لذلك القواعد وأنار السبيل ، وحمّل الأمانة وإنها لأمانة عظيمة . ففي السوق ، وفي الوظيفة ، وفي البيت ، وفي كل مكان وكل نشاط ، يتحرك المؤمن بإيمانه على قواعد منهاج الله . وهذه الممارسة الإيمانية الشاملة هي مسئولية فردية لايغني بها أحد عن أحد يوم الحساب . ولكنها في الحياة الدنيا تذكير وتعاون ، ونصيحة ومشورة ، وصفّ مؤمن مرصوص . هذه المسئولية الفردية لاتتعارض مع منزلة العلماء ، وموهبة الأقوياء ، ودفعة النبوغ ، واحترام المنازل والدرجات ، ولكن المسئولية الفردية تظل قائمة .

إن الممارسة الإيمانية التي تتميز بالشمول والمبادرة الذاتية ، والموازنة الأمينة ، والتدريب الذي يقدم الزاد والخبرة ، والعلم والقوة ، إن هذه الممارسة حاجة أساسية ، وضرورة لاغناء عنها .

٥ - الرأي العام :

«الرأي العام» كلمة سارت في عصرنا الحديث ، وجرت مصطلحاً ماضياً ، وتعبيراً شائعاً تحمله الصحافة ، وتتداوله الألسنة . «فالرأي العام» في واقعنا اليوم أصبح له من الضغط والتأثير شأن عظيم . وكان له من الأثر البعيد في قضايا ومصائر . لقد نشأت اليوم عناصر متعددة تؤثر في صياغة وتكوين الرأي العام . وأصبحت هذه العناصر تعمل بسرعة مذهلة وتنسيق قوي . وأصبح للرأي العام تأثير على الرأي والمشورة والسلوك . وفي واقعنا الإسلامي نستطيع أن نحصر

عوامل تكوين الرأي العام بعاملين رئيسين : عامل داخلي وعامل خارجي . وكل عامل من هذه العوامل يجمع عوامل أخرى متعددة .

وأما بالنسبة للعامل الداخلي فنود أن نبرز من عناصره عنصر الجهل بالمنهاج الرباني والجهل بالواقع الذي تعيشه الأمة ، كذلك الواقع ذاته من نواحيه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ... إلخ . هذا الجهل وهذا الواقع يضغطان بقوة رهيبة على حياة الفرد والجماعة ضغطاً يولد نفسيات خاصة ، وتصورات خاصة ، وينشأ عن هذه النفسيات وهذه التصورات آراء ومواقف وسلوك .

والعامل الخارجي عناصره كثيرة نبرز منها الإعلام الهائل ، والجنود المبثوثة هنا وهناك . والإعلام العملاق في عصرنا الحالي يقوم على سرعة الاتصالات في شتى أشكالها وألوانها . ويقوم على طاقات بشرية متخصصة متفرغة ترسم الكلمة وتحدد الصورة وترفع أو تخنق الصوت . لقد أصبح الإعلام ملازماً للإنسان وقتاً طويلاً مهما حاول الإنسان أن يهرب منه ، وأصبح ملتصقاً بشدة وقوة ، منتشراً في شتى الميادين والأماكن .

لقد أصبحت الكلمة والصورة والصوت تجتمع كلها لدى الإنسان في وقت واحد من شتى أنحاء الأرض . من الشرق والغرب ، من الشمال والجنوب . وتجتمع الكلمة والصورة والصوت بكل الزخارف ، وكل التنسيق ، وكل التخطيط ، تجتمع لدينا دون أن يكون لنا دور فيها ، ولكنها هي التي تلعب الدور وتترك الأثر . هذه العوامل كلها أصبح تأثيرها واضحاً بحيث لانستطيع إنكاره . ولكن هذا التأثير يحمل شروراً كثيرة ، إذا حمل بعض الخير فإنه يحمل شرور الإنسان المنتشر على الأرض ، يحمل شرور معاركه وجرائمه ، شرور ضعفه وقوته ، شرور هواه ورغباته ، يحملها كلها ليصبها في لحظة واحدة أمامك .

٦ - الرأي العام المؤمن وخصائصه :

والرأي العام الذي يخضع لهذه العوامل ، لايعني دائماً أنه رأي عام مستسلم ، أو أنه هائج مائج ، أو مقاوم منيع . إننا قد نجد نماذج من هذا وذاك . ولكن أصابع التأثير واضحة في الاستسلام ، أو في الهياج ، أو في المناعة .

وفي جميع الحالات فإن هذا «الرأي العام» يختلف عن «الرأي العام» الذي يكونه الإسلام ويصنعه الإسلام، ويبنيه الإسلام.

إن الرأي العام الإيماني لايقوم في جو مبتعد عن منهاج الله إيمانا ودراسة وتدبراً وممارسة. إن التصاق الأمة بكل أفرادها، كل قدر وسعة وطاقته بمنهاج الله قرآناً وسنة هو العنصر الرئيسي الذي يحدد الرأي العام ويكوّن عناصره. وبذلك ينتفي الجهل بمنهاج الله وينتفي الجهل بالواقع. ينتفي أول عنصر يستغله الأعداء لدمار الأمة. ولقد وضع الإسلام عناصر متماسكة لصياغة الرأي العام. بل إن كل آية في كتاب الله، وكل حديث صح عن رسول الله ﷺ له أثره القوي في صياغة الرأي العام، وفي بنائه، وفي حمايته. ولانريد أن نورد أكثر من مثال واحد في هذه العجالة. إننا نورد المثال من قصة حديث الافك التي مرت معنا، حيث تأثر الرأي العام تأثراً محدوداً بأقوال المنافقين، تأثراً محدوداً بالنسبة لما يتأثر به الرأي العام اليوم بفرية أو إشاعة، تأثر الرأي العام تأثراً محدوداً لأن منهاج الله هو الذي يحكم، والإيمان هو الذي يوجه، والرسول ﷺ هو الذي يقوده. وكان من خلال هذه الأحداث أن أرسى الإسلام ضوابط وقواعد تحمي الرأي العام وتصونه، بالإضافة إلى ماكان قد أرساه سابقاً. وكما قلنا فإننا نورد هنا مثلاً واحداً تعرضه لنا الآيات الكريمة، وهي توجه الأمة المؤمنة في تلك المحنة وتوجهها إلى أبد الدهر:

﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ

الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ [النور: ١٢ - ٢١]

ويمكن اعتبار سورة النور كلها بناء وتوجيهاً وحماية للرأي العام . فهي توجه المؤمن في ذاته ، وفي بيته وأسرته ، ومع أهله وأرحامه وفي أمته كلها . ولكننا أخذنا هذه الآيات مثلاً ونموذجاً فحسب . فقد ربطت المؤمنين برباط متين لايقطعه الظن الكاذب ، والافتراء الظالم : «**لولا إذا سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ...**» . إن هذه الآية الكبيرة مع كل لفظة من ألفاظها لتبني حول المؤمنين سوراً متيناً لاتهدمه الظنون ، وانظر إلى التعبير القرآني : «**بأنفسهم**» ، إنه تعبير شد المؤمنين بعضهم إلى بعض شداً وثيقاً ، حتى كأنهم رجل واحد ، إن ظن فإنما يظن بنفسه . فأين هذا الرباط ، وأين هذا الشد في واقعنا اليوم . لقد أخذ الظن الأعراض ومزق الوشائج وقطع الأرحام .

ثم تتوالى القواعد الربانيّة على هذا النسق الكريم ، فتضع القانون ليلتزمه الجميع : «**لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ...**» . والقانون يحمي الأمة ويوحد صفها ويحفظ رأيها العام . فكيف إذا كان قانوناً ربانياً . ثم التحدث بغير علم : «**إذ تلقونه بألسنتكم..**» ، وهذا المرض القتال الذي يكاد يقوم عليه الرأي العام في عصرنا الحالي . فلا جهد ولاتبين ، ولا وضوح ، ولا علم . ولكنها ألسنة تتحرك وأفواه تمضغ الأعراض .

عندما نعيش مع هذه الآيات الكريمة ندرك أهمية الرأي العام وخطورته . ندرك أثره في الشورى وسائر أوجه النشاط ، وأهمية الأسس التي يقوم عليها ، تؤثر فيه ويؤثر فيها . وندرك كذلك أهمية تميز «الرأي العام» المؤمن بكل خصائصه الإيمانية وتميزه بكل العوامل المؤثرة فيه ، إنه «الرأي العام» المؤمن الذي يبنيه القرآن

والسنة ، وتحميه جنود الرحمن ، وقلوب الإيمان ، ومواهب الجهاد .

إن «الرأي العام» المؤمن يتميز بالوضوح والنور ، لا بالعتمة والظلام ، بالصدق واليقين لا بالظن والوهم ، بالمسئولية والأمانة ، لا بالوهن والعجز . إنه مسئولية كل مؤمن لا مسئولية أفراد أو طبقات أو جماعات . إنها مسئولية فردية ومسئولية عامة في آن واحد ، على ترابط وتناسق ، لايتفلّت منها أحد . إنه يتميز بالانضباط والالتزام .

٧ - أهم العوامل المؤثرة في الرأي العام :

وإذا أردنا أن نحدد العوامل المثيرة في الرأي العام المؤمن بخطوط واسعة عامة عريضة فإننا نستطيع أن نضعها في خمس نقاط كبرى :

أ - الإيمان عقيدة ونهجاً : عقيدة تحكم الفرد والأمة ، عقيدة تصوغ التصور والممارسة والالتزام ، عقيدة تصوغ الرأي والواقع ، والبذل والعطاء ، عقيدة تدفع النصيحة ، وتعالج الاختلاف والخطأ ، وتقيم الموازنة . عقيدة تربط الأمة كلها برباط الأخوة في الله ، وبحبل الله . عقيدة تحمل كل خصائصها الربانية وهي تصنع الفرد والأمة من خلال ممارسة وجهود وعلم وتدريب وإعداد وتكوين . تحمل ذلك كله من المنهاج الرباني نوراً ويقيناً في القلوب .

ب - الطاقة البشرية : الطاقة البشرية وسعاً وموهبة ، وقدرة وصدقاً وبذلاً وعطاء . الطاقة البشرية التي يأخذ كل فرد مكانه الحق ، ومنزلته الأمينة ، تحدد فيها المسئوليات والواجبات على صورة إيمانية متوازنة ، مترابطة متناسقة . الطاقة البشرية التي يصنعها منهاج الله في مدرسة الإسلام الممتدة النامية .

وعلى قدر مستوى هذه الطاقة البشرية إيماناً وعلماً ووسعاً ، يتحدد دورها في الساحة . فللنيام أحلام وأوهام ، وللعاملين بذل وعطاء . وكلٌّ عامل على قدر وسعه وطاقته ، يعطي ولايمن ، ويبذل ولايساوم .

ج - المؤسسات الإيمانية : وهي تحمل جميع السمات السابقة والخصائص

التي عرضناها، وفيها تصب الجهود ويلتقي العطاء، تحمل القوة والخير والبركة.

د - **النهج والتخطيط** : يحمي الطاقة البشرية المؤمنة، والمؤسسات الإيمانية الواعية : يحميها من أن تتفلت أو تتعارض، من أن تتيه أو تصطدم . هذه العوامل في خطوطها العريضة، تحمل معها عوامل أخرى تفصيلية، يعرضها منهاج الله عرضاً ربانياً مفصلاً .

هـ - الاتصال العالمي وامتداد وسائله :

منذ أقدم العصور والشعوب تتصل بعضها ببعض، فتتبادل العلوم والمعارف، والتجارب والأفكار، وكان الاتصال يتم عن طريق الحروب أو التجوّل والبحث عن أسباب الحياة، وعن طريق هجرات قد تحدث نتيجة عوامل جوية أو جيولوجية أو غيرها . وعلى مرّ العصور ظلت الشعوب يتصل بعضها ببعض لنرى من خلال ذلك آية من آيات الله، وسنة من سننه، وباباً من أبواب الابتلاء والتمحيص :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات:١٣]

ونمت وسائل الاتصال، وتطورت طرقة وأدواته مع التطور العلمي الواسع، حتى اقتربت المسافات، وزاد اتصال الشعوب، ونما تأثير بعضها على بعض . فوسائل التنقل من سيارات وطائرات، ووسائل الاعلام من صحف وإذاعة، وتلفاز وهاتف وأقمار صناعية، كل ذلك جعل انتشار الأفكار أسرع، ووسائل التدمير أفتك، واضطراب الأوضاع هنا وهناك أظهر .

فلا بد مع هذا النمو والتطور أن يكون الرأي العام في أي بلد خاضعاً لتأثير الموجات المتلاحقة السريعة من هنا وهناك، حتى يكاد الرأي العام يتبدّل بصورة سريعة مذهلة، وتتبدل موازينه ومقاييسه، إلا الرأي العام المؤمن، الرأي العام الملتزم بصدق مع عقيدة وإيمان، يظل هو الأقوى تأثيراً والأصلب موقفاً .

وحين نكتفي بهذا القدر عن «الرأي العام» فإننا نؤمن أنه بحاجة إلى دراسة وافية بها تقوم بها الجهود المؤمنة في ساحة العمل والممارسة. ولكننا عرضنا هنا القدر الذي يحتاجه البحث الرئيس: «الشورى».

٨ - اتهام الآخرين وتبرئة الذات:

لقد اعتدنا منذ صغرنا، منذ طفولتنا، في مجتمعاتنا كلها أن نضع اللوم دائماً على فئة محدودة، أو نحصره في زاوية معزولة، أو نجمده على موضوع واحد. واعتدنا دائماً أن نجعل اللوم اتهاماً وهجوماً، وقطيعة وحرباً بعد أن يكون اللائم والعاذل قد برأ نفسه من كل عيب أو تقصير، أو عجز أو وهن، أو ضيق في القدرة والعطاء. ماأسهل أن يتهم الإنسان غيره، ويلوم غيره، وينسى نفسه، ينسى أنه هو نفسه محاسب ومسئول، وعليه واجب وأمانة، وعليه بذل وعطاء. فليحاسب نفسه أولاً. ولم نقف عند هذا الحد، بل تجاوزناه، تجاوزناه حتى أصبحنا نضع اللوم على أعدائنا، نضع عليهم اللوم والعتاب، كل اللوم والعتاب، نطلقه من أرائك وأسرة، أو حناجر مبحوحة، نضع اللوم على الأعداء كأننا نطمع منهم أن يعدلوا، ويرحموا، ويتراجعوا. نطمع منهم أن يتركونا في غفوتنا وأحلامنا، وحولنا الثروات الغنية، والموقع الوسط الخطير، والعقيدة الربانية. نطمع منهم أن يتركونا ويتركوا ثرواتنا، وبلادنا وعقيدتنا، دون اعتداء علينا. وننسى مع أوهام الغفلة أحداث التاريخ، وآلاف السنين، وعبرة الغابرين، وسنن الله في الحياة. ننسى صرخة العقيدة والإيمان، وننسى التاريخ القريب القريب، ننسى هذا كله ثم نلوم الأعداء إن هم غزونا فضاعت ديار، وانتُهِبَتْ ثروات وانتهكت أعراض. ونحن في غفوة حالمة، لانصحو منها إلا على لوَم نحرك به الشفاه المرتجفة، والعيون المتوسلة، ثم نعود إلى غفوة أعمق وأحلام أكثر إزعاجاً ورعباً.

إننا ننسى أنفسنا، وننسى مسئولياتنا، وننسى حدودنا، وننسى عقيدتنا، ونغيب في طيات الجدل والقيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال.

إننا ننسى أن الوهن عام، والتقصير عام، والعقيدة تنحسر عن القلوب شيئاً

فشيئاً قروناً عديدة، حتى وهن الفرد ووهنت الأمة، واضطربت الأحلام، ودلف الأعداء وانتشرت الرايات والشعارات، وكثرت الملل والنحل، والمذاهب والآراء، دون ميزان ثابت.

من خلال هذه الأجواء، أمكن استدراج الأمة إلى حفر، وإلى هوة، ونكبة بعد نكبة، وحسرة بعد حسرة! وما نفع لوم ولا عتاب، ولاهجوم ولا اتهام!

استدرجت الأمة حتى تصنع مآسيها بأيديها، وتصنع نكباتها ببنيها، ولا تجد من يمسح لها دمعة، أو يرفع عنها نكبة.

ذلك كله لأننا لا نعلم منهاج الله إيماناً وعلماً وتدبراً وممارسة. لأننا نجهل واقعنا بكل أبعاده ومآسيه، نجهله بعد أن غلفته الدعاية وغشيت أعيننا غشاوة، وكثر الران على قلوبنا.

ومع هذا الجو المظلم الكئيب، الحزين المفجع، فما زالت في الأمة «بذرة أُحُد» لاتغلب ولاتقهر. فهي في رعاية الله، وحماية الرحمن، حتى يأذن الله لدينه بالنصر ولعباده المؤمنين بالفوز:

﴿ ... وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف: ٢١]

٩ - تكتلات وشعارات يغيب منها الجوهر:

كل مظاهر الواقع الذي نعيشه دفع إلى قيام «تكتلات» تحمل كل كتلة راية من الرايات، تخفق بأنسام العاطفة المشتعلة، أو زوابع الهياج التائه. كان من العبث جمعها كلها تحت راية واحدة. فقد جردت الأمة من حقيقتها، من عقيدتها، من جوهرها، وملىء الفراغ النفسي بكل أنواع العاطفة المخدرة، والهياج المضلل بعيداً عن منهاج الله، بعيداً عن النهج، والتخطيط، بعيداً عن الميزان.

واختلفت الكتل الهائجة، وحمي بينها الصراع، ووجد الأعداء فسحة لكل تخطيط مدمر، وكل تآمر قاتل. وطرحت تصورات، وقواعد، وشعارات، من خلال ذلك الخلاف الهائج المائج. وكل ماطرح لم يكن أثره إلا زيادة الخلاف،

وإلهاب الفتنة وتوسيع الشقة ، وإضرام العواطف حتى تعمى القلوب فلا تعي ، وتعمى العيون فلا تبصر ، وتسد الأذان فلا تسمع . فتمزقت الأمة أحزاباً وشعياً ، كل حزب بما لديهم فرحون، فأين اللقاء ؟ وأين الأمة ؟ إنّ الأيادي الخفية التي صنعت ذلك من خلال غفلة وغفوة ، ستفاجئها صحوة الإيمان حين يأذن الله ولا راد لقضائه ، ولا راد لحكمه ، ولا مبدل لسننه . إنها صحوة الوعي لاصحوة الارتجال ، وخطوة الإيمان المطمئن الثابتة ، لاخطوة الهياج والتيه والضياع ، إنه وعد الله ولن يخلف الله وعده .

وقامت في العالم الاسلامي نظم وأنماط متنوعة متعددة متبدلة . واختلفت الأسماء مع كل تبديل ، واختلف الناس على قضايا طرحت ، قيادة فردية أو قيادة جماعية ! ولو حللّت كل واحدة منها لما وجدت لها مدلولاً محدداً معيناً ، ولامعنى واحداً متفقاً عليه ، ولاصورة مطابقة لواقع . ماذا يقصد بالقيادة الفردية ، وماذا يقصد بالقيادة الجماعية ؟ ولو حملت القلوب منهاج الله لاختفت هذه الاصطلاحات ، وذهبت التعابير ، وطوي كل خلاف حولها .

فالقيادة الإيمانية تحمل خصائصها الإيمانية أولاً ، ثم يبحث لها عن تسمية . كما حدث حين تولى أبو بكر رضي الله عنه شئون الأمة ، وكذلك حين تولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه من بعد شئون الأمة. لقد كانت كل الخصائص الإيمانية متوافرة ، ولم تكن التسمية المتعارف عليها حتى وفاة الرسول ﷺ أبعد من لفظة «أمير» . وفي سقيفة بني ساعدة اقترح أحد الأنصار : «منا أمير ومنكم أمير » .

ولما تولى أبو بكر رضي الله عنه شئون المسلمين سمّي خليفة رسول الله ، ولما تولى عمر رضي الله عنه سمّي أمير المؤمنين . وقبل ذلك لم تكن القضية قضية أسماء ولافتات ، ولكنها كانت قضية خصائص إيمانية وقواعد ربانية ، ثبتت في القلوب وتدربت عليها النفوس . وكان الأمير أو الخليفة لايحكم بمفرده معزولاً عن المواهب والقدرات المتحركة في الأمة . لقد كان هو وحده الرئيس الأول ، عليه واجبات ومسئوليات يتعرف عليها من منهاج الله ومن واقع الأمة ، فلا

يتفلت منها ولايطرح المسئولية على غيره . ينهض إلى أمانته بإيمان وصدق وعزيمة ، وفي الوقت ذاته بقيت حوله العصبة الطاهرة بكل مواهبها العسكرية والقضائية والسياسية والاجتماعية ، لا تتركه ولا يتركها . وعندما همّ بعض الصحابة أن يغادر المدينة نهاهم عمر رضي الله عنه عن ذلك ، وألزمهم البقاء معه ليحملوا معه الأمانة . ولكنهم ظلوا معه على سمع وطاعة ، ونصح وعون ، وتذكير وبلاء ، وجهد وعطاء. هذه الصورة سمّها بعد ذلك ماشئت : قيادة فردية، أو قيادة جماعية. إننا نسميها القيادة الإيمانية لأنها حملت خصائص الإيمان من منهاج الله ، فعرف كل صحابي مكانه وحدّه ومسئوليته . وعرف الخليفة وأمير المؤمنين كذلك المسئولية والأمانة . ورأينا الأمثلة والنماذج في الأبواب السابقة جهداً وعملاً ، لا لقباً وشعاراً . وتتابعت الأسماء والمصطلحات : تقدمية ورجعية ، قومية وقطرية ، عدالة وحرية، وتتابعت تتابعاً عجيباً ، لاتحمل معها إلا إثارة العواطف ، وهياج الجماهير ، تتهاوى في مهاوي الظلمة والضياع ، فلا حدود لهذا اللفظ أو ذاك ، ولامعنى واضح ، ولانهج مرسوم ، ولكنها غلبت بكل حميّاها على الألسنة والأدمغة ، على الهتاف والهياج .

١٠ - الإسلام وحقوق الإنسان :

دوَّت الدنيا كلها بحقوق الإنسان ، حين أعلنتها الثورة الفرنسية مع سائر الشعارات التي أطلقت زخارفها . ودوَّت الدنيا بما أعلنته المحافل الدولية من حقوق للإنسان . ويصفق الشرق والغرب لهذه الشعارات . ولكن الثورة الفرنسية لم تمارس في واقعها حقوق الإنسان ، حقوق كل إنسان ، ومضت الأحكام البشرية تحرك «المقصلة» ، وتصفي من تشاء في أجواء محمومة. والمحافل الدولية لم تمارس حقوق الإنسان ، بالرغم من كل المجالس والهيئات والمنظمات . ولم يتجاوز الأمر شعارات محببة إلى النفوس ، شحنت الجماهير وعبأت الحناجر ، وظلت المآسي في الأرض هنا وهناك ، والمظالم هنا وهناك ، حتى لم تعد حقوق لإنسان أو حقوق لشعوب .

وحقوق الإنسان ليست كما يحسب بعض الناس ، هبة الثورة الفرنسية ، أو منحة المحافل الدولية . فبالإضافة إلى أنها كانت شعاراً أكثر منها واقعاً ، فإنها كذلك أمر أعمق في التاريخ من الثورة الفرنسية والمحافل الدولية . إن حقوق الإنسان الأمينة عميقة في التاريخ عمق الإنسان . إنها حقوق نشأت معه ، وكانت له ولأجْله ، وارتبطت بوجوده وحياته .

إنها في الحقيقة هبة السماء ورحمة الله ، وعدله وحكمته . إنها من الله رب العالمين لا من أحد سواه . إنها من الله خالق الإنسان وواهب الحياة وواهب الحقوق . لذلك كانت حقوق الإنسان مع الرسالات السماوية كلها ، ختمها الله وجمعها برحمته وعدله في رسالة محمد ﷺ . لقد حملت الرسالات السماوية وحمل الإسلام حقوق الإنسان ، للناس كافة ، في عقيدة ومنهاج . حملها ليس وحدها ، ولكن حمل الإسلام معها واجبات ومسئوليات ، تتوازن مع الحقوق والصلاحيات ، وتتناسق معها تناسقاً ربانياً معجزاً لأنها من عند الله وليست من عند البشر . ومهمة البشر هي ممارستها والوفاء بأمانتها ، وفاء وممارسة تحقق معنى الأمانة والاستخلاف والعبودية ، وفاء وممارسة تُمحَّصُ من خلال الابتلاء والاختبار . إنها هبة السماء ورحمة الله وإعلان الأنبياء والرسل ، خاتمهم محمد ﷺ. لذلك ليس لأحد من البشر أن يدعي أنه وهب الإنسان حقوقاً . ليس للثورة الفرنسية ولا للمحافل الدولية ان تدعي ذلك . وذلك لأسباب نوجزها بما يلي :

١ - إن حقوق الإنسان مرتبطة بالإنسان ذاته ، بخلقه بوجوده ، فهي أقدم من أي إعلان بشري . إنها رحمة الله وعدله ، وإعلان النبوة .

٢ - إن هذا الإعلان البشري كان إعلاناً لشعارات لم تلتزم حقيقة الممارسة الصادقة في الواقع البشري .

٣ - إنها أعلنت حقوقاً جزئية ، وليست متكاملة كما أمر بها الله في منهاجه الذي أنزله على عبده محمد ﷺ، خاتماً للرسالات السماوية ، جامعاً لها ، مهيمناً علينا .

٤ - إنها أعلنت حقوقاً جزئية ولم تعلن واجبات ومسئوليات . فكان الإعلان

مضطرباً مهزوزاً، يهيج العواطف، ولا يمنح الحقوق، ولا يحدد المسئوليات، ولا يقيم موازنة أو تناسقاً أميناً.

ولانستطيع هنا أن نعدد حقوق الإنسان كاملة كما جاءت في منهاج الله ولا نستطيع أن نحدد الواجبات ونبرز التوازن والتناسق بينهما. فهذا يحتاج إلى بحث مستقل ودراسة مستفيضة، ليس هذا مكانها. ولكننا، كشأننا في سائر الموضوعات المماثلة، نأخذ نماذج وقبسات، لنوضح ونبيّن:

أ - إن أول حق للإنسان يبدأ منذ لحظة ولادته. وذلك برعاية فطرته السوية، وطبيعته السليمة، التي ولد عليها وفطر عليها. رعاية تحميها من الانحراف والتشويه، رعاية تشمل التنشئة والتربية، والغذاء والكساء والمأوى والعلم والعمل. إن رعاية الفطرة السوية التي فطر عليها أمر هام، تساهم كل سنن الله في الحياة فيه، بما خلق الله على الأرض وفي السماء، وبما خلق في الإنسان ذاته من آيات لتحمى الفطرة وترعى سلامتها. ولقد جعل الله قسطاً من هذه الرعاية في أمانة الإنسان واستخلافه في الأرض. إنها من مسئولية الأبوة والأمومة، ومن مسئولية الجماعة والأمة، ومن مسئولية كل مستوى، ومن مسئولية الإنسان نفسه، سمعه وبصره وفؤاده.

ب - والحق الثاني الذي يلي ذلك مباشرة هو حقه في الأمن. الأمن في ذاته ونفسه، الأمن على عرضه وماله ودمه إلا بحقه، الأمن والفسحة ليرى ويسمع ويفكر ويتدبر. الأمن يهبه حرية الرأي المنهجي دون تفلت من الضوابط والحدود، حتى يقرر ويتحمل مسئولية قراره في الدنيا والآخرة. ذلك كله في الحدود التي رسمها منهاج الله، لا أي منهاج بشري آخر. ولقد فصلنا كثيراً من ذلك في الأبواب السابقة مع الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

جـ - والحق الثالث أن يسمع رسالة الله ويُبَلَّغَ وحي السماء، حقاً يرعى فطرته ويهبه الأمن، ويوفر الحقين السابقين. إنه حق لكل إنسان في الأرض أن

يسمع كلام الله . ومن يحل دون ذلك فهو ظالم لنفسه ولغيره ، وللإنسان كله . وهو حق له يدفع له ، وواجب عليه يسعى إليه .

ولمثل هذه الحقوق كانت نصوص المنهاج الرباني واضحة بينة ، لامجال فيها لتأويل أو تحريف إلا ممن غلبته الضلالة وأفسده الظلم والانحراف .

ففي منهاج الله رعاية الحقوق تبلغ أعلى درجاتها في ميدان العداء والحرب والقتال ، ميدان المفاصلة الحاسمة . فهناك ، وفي مثل تلك اللحظات الحرجة ، تظل تعاليم منهاج الله تحمي الحقوق ، وترعى السلوك وتضبط الاندفاع . ففي سورة التوبة مفاصلة حاسمة مع الكافرين تبلغ حد الحرب والاقتتال أو الإسلام والإيمان . في هذه المواقف يتنزل قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التوبة: ٦]

لقد جمعت هذه الآية الكريمة معظم حقوق الإنسان ، في أحرج الظروف وأقسى المواقف النفسية ، مع كل ذكريات التاريخ الذي مضى من دم ومال وثأر ، وقلوب مشحونة ، ونفوس صابرة ، مع العدو والكافر ، مع المشرك الذي يحمل للمسلم كل غدر، مع كل هذه الظروف ، تظل رعاية حقوق الإنسان وفاء والتزاماً وأمراً من الله سبحانه وتعالى :

« **فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه** » .

هي حقوق له ! أمر الله بها عباده المؤمنين أن يوفوا بها . ويظل منهاج الله هو الأعلى وهو الأسبق ، وهو الإعلان الأوفى لحقوق الإنسان .

هذه نماذج وقضايا من واقعنا اليوم . ويمكن أن نستطرد حتى يمتد بنا الاستطراد إلى قضايا يضيق عنها بحث واحد أو كتاب واحد . ولكننا نستطيع أن نجمعها كلها

بأمرين : غياب العقيدة الملتزمة ، وغياب الوعي المتفتح للواقع . إنه غياب وغيبوبة، حملا كل أسباب الغفوة والوهم ، والأماني والأحلام ، والهزيمة والخسران ، وانسياب الأعداء انسياباً هادئاً مطمئناً في ديار وأوطان وقلوب ونفوس .

١١ - مداولة تائهين لاشورى مؤمنين :

لو رجعنا إلى واقعنا ووقفنا على حقيقة أوضاعنا ودرسنا الاحداث التي مرّت بها أمتنا لوجدنا أن مآسي غير قليلة حملها إلينا قرار الأصابع المرفوعة أو الأيادي الممدودة أو الرؤوس الحالمة الجاهلة . لا أريد أن أحصر هذه الصورة في المجالس النيابية وحدها ، ولكن العين تمدّ نظرها إلى مجلس هنا وهناك ممن كنت تتمنى أن يدفعهم الإيمان والمسئولية إلى بذل جهد أقرب للتقوى ، وأدنى للنجاح ، وأغنى بالعطاء .

ربما تمرّ قضية عسكرية مثلاً فيدرسها عدد يزيد أو ينقص من مختلف الاختصاصات إلا المختص العسكري فيغيب عن هذه القضية . وتدور جلسات نقاش ، ومداولات حامية ، وهياج وحدّة ، ثم تعرض القضية على التصويت ، كما درجت العادة ، وترفع الأيدي ويتخذ القرار . ويكون به دمار ودماء وضياع . ثم تبحث عن المسئول ليحاسَب فيختفي بين الأيادي والأصابع . وتبدأ الاتهامات ويتفرّق الناس شيعاً ، وقد انكشف لهم فداحة الخطأ وضلالة القرار . ومع تكرر هذه الظاهرة في حياتنا ، وفداحة الخسارة التي تنكب بها الأمة ، فلا تجد من يسأل في مثل هذه المداولات أين الدراسات المكتوبة التي قدمها المختصون لتدرس ؟ أين الاحصاءات ؟ أين العلم ؟ أين الخبرة ؟ أين التجوال والسفر والبحث والتنقيب ؟ وكذلك لاتجد أحداً يسأل أين الخطة التي سينفّذ بموجبها القرار ؟ وأين الوسائل التي تحمي التنفيذ ؟ وأين الإمكانات التي ستبذل للتنفيذ ؟

لاتجد أحداً يسأل حتى كأن كل واحد حسب نفسه غير مسئول وظن أنه قد نجا من العقوبة بعد أن حملت المسئولية أصابع تائهة وأياد مرتجفة غابت واختفت في ظلام فتنة وشقاق . ونسي الجميع الحساب الشديد بينَ يدي الله .

لا أحد يسأل حتى لو حمل القرار تدمير مدن وحياة ، وجرّ مجازر وأشلاء ، وتختلط بالحديد والحجارة والتراب على نزوة جهالة وحمّى عصبية .

وحالة أخرى :

يمرّ ظرف يحتاج إلى قرار وموقف . فتدور المداولة والجدل والنقاش ، ويختلف الناس إلى أكثر من رأي ، ويسوّى الأمر بطريقة من الطرق ، وبعد مدة يعود الظرف نفسه والقضية ذاتها ، ويعود الجدل والخلاف والشقاق ، ويسوّى الأمر بالطريقة السابقة أو بغيرها . وتتكرر الحادثة ويتكرر الشقاق والخلاف مع الزمن الطويل .

ومع هذا كله لايسأل أحد أين النهج الذي يساعد على الشورى ويساعد على القرار ؟ أين الخطة المرحلية التي تحدد سلامة هذا الموقف أو ذاك ، وتساعد على تجنب الشقاق والخلاف ، وتجاوز الفتن والمحن ؟!

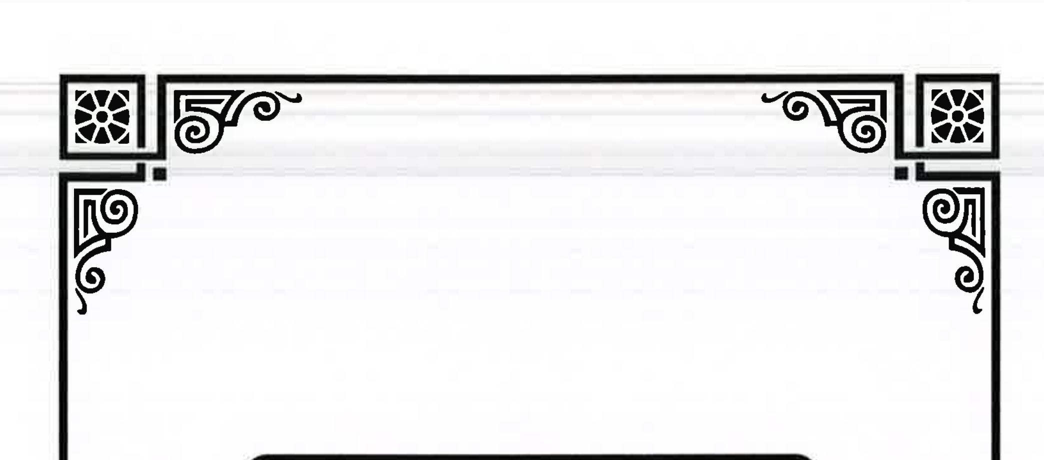
وتمر السنون الطويلة ويظل النقاش حول القضية ذاتها يحمله جيل عن جيل ، وتمتد الخلافات في الأمة تاريخاً طويلاً تتوارثه دون أن ينجح جيل في تسوية خلاف أو تسوية قضية .

وحالة أخرى :

يدور النقاش وهو يحمل في النفوس كل أهوائها وكبرها وعصبياتها . ويدلي هذا برأيه وقد استقر في نفسه أن رأيه وحده هو الحق والصواب قبل أن يسمع رأي غيره وقد يوفق إلى فرض رأيه بنفوذه ووضعه وأسلوبه وهنا كل واحد ينتفش وهو يعطي رأيه ، وحين تقع المصيبة ينكمش .

وحالة أخرى :

قد يقر الناس مبدأ الأكثرية . وعندما يدور النقاش ويصدر القرار يكون القرار يمثل رأي الأكثرية من حيث الشكل والمظهر ، ويمثل رأي فرد من حيث الحقيقة والمخبر . ذلك كله يعتمد على سلامة الأسلوب ووضوح الرؤية .



الباب الحادي عشر

أهل الرأي والصياغة الشورية









الفصـل الأول
أهـل الـرأي

إن أهل الرأي والشورى في الإسلام على حسب مامر معنا من نصوص أو ممارسة ، من نصوص القرآن والسنة ، أو سيرة الرسول ﷺ أو سيرة الخلفاء الراشدين ، إن أهل الرأي والمشورة على أساس ذلك ، قد يتسعون حتى يمثّلوا الأمة كلها ، أو يضيقون حتى يكونوا فرداً ، أو جماعة ، ذلك على حسب الواقع والحاجة، والمسئولية والأمانة ، والموضوع والساحة . ففي معركة أحد مثلاً وفي حديث الإفك ، نجد نموذجاً من النماذج التي امتدت الشورى فيها ، حتى شملت الأمة كلها ، على ضوء الواقع في ذلك العهد . فقد يكون هنالك عدد تأخر ، أو مجموعة تخلفت دون أن تفقد حقها . ولكن الذين حضروا الشورى كانوا يمثلون الأمة تمثيلاً أميناً ، دون أن تجرى انتخابات أو يحدد عدد ، على ضوء ذلك الواقع الإيماني .

وفي كثير من الأحيان كان المسلمون يُدعَون إلى أمر جامع ، فينادى «الصلاة جامعة » ، حتى يجتمع في المسجد المؤمنون دون أن يحدد عددهم أو تفرز أصواتهم، ومن يتخلف عن ذلك بعذره فلا يعطّل شورى ولايبطل الجماعة . فإذا حضر المؤمنون إلى المسجد إلى أمر جامع لم يكن لأحدهم أن يذهب أو يغادر حتى يستأذن . فيأذن الرسول الكريم لمن شاء منهم ويستغفر لهم الله . ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الصورة الرائعة من آداب الجماعة المؤمنة ، وآداب الشورى المؤمنة في سورة النور :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

[النور: ٦٢]

والأمر الجامع مثل صلاة جمعة أو عيد، أو لقاء جماعة مع الرسول ﷺ، أو اجتماع مشورة. ولقد رأينا نماذج الأمر الجامع فيما عرضناه في الأبواب السابقة. وليست كل قضية من القضايا تطرح على الأمة كلها، لتدور بها الشورى على ذلك المستوى الواسع. إن الواقع الذي تعيشه الأمة والظروف التي تحيط بها، والقضية ذاتها، هذا كله هو الذي يحدد القضايا التي تطرح على هذا الامتداد الواسع. فحديث الإفك في أول أمره تناولته شورى محدودة ضيقة، ثم عرضه الرسول بعد ذلك على المؤمنين في لقاء جامع في المسجد، عندما أصبح عرضه ضرورياً لدرء فتنة، وتقديم برهان، وإعلان حق، وإسكات نفاق. لقد كانت ممارسة إيمانية عظيمة في ميدان الشورى تحمل معها كل خصائص الشورى المؤمنة الواعية، الجرئية الصادقة، الأمينة العادلة، الرحيمة الحانية.

ومعركة بدر ومعركة أحد، ونماذج أخرى تمثل لنا الأمر الجامع، يدور في المسجد أو في الميدان!

ولكن الأمر الجامع هذا والذي يدور في شورى واسعة كهذه، يحتاج إلى أمة مؤمنة ملتزمة، إلى أمة عابدة خاشعة، إلى أمة يحكمها منهاج الله، يحكمها كلها، كبيرها وصغيرها، ويحكمها في كل أمورها، دقيقها وجليلها، يحكمها في كل أحوالها رضائها وغضبها، يحكمها حكماً لاتتفلت منه أبداً إلى غيره، تحت إغراء هوى، أو نزعة مصالح، أو رعشة خوف، أو لهفة شوق.

هذه الأمة المؤمنة التي يحكمها منهاج الله، هي التي نتحدث عنها هنا، وهي التي يمسها الأمر الجامع فيعرض عليها. ولا يتعارض هذا الخضوع الشامل لمنهاج الله مع وجود مستويات مختلفة في الأمة الواحدة، وطاقات متباينة، ووسع مختلف، ومواهب متعددة. لايتعارض مع وجود قلة ضعيفة، أو فئة منافقة، أو درجات في العلم. ذلك لأن طبيعة الواقع البشري تمثل هذه النماذج كلها. ولقد رأينا أن مجتمع المدينة في عهد رسول الله ﷺ كان يشمل طائفة المنافقين، وبعض المترددين، وفئة من الضعفاء، وحداً من الجهل، ونصيباً من الوهن، إنها النماذج البشرية التي لايخلو منها مجتمع أبداً. سيظل بين الناس موهبة قوية

وموهبة أضعف ، وعالم وجاهل ، وصادق ومنافق ! إنها سنة الله في الحياة . ولكن مجتمع الإيمان يتميز بأن النفاق ، والضعف ، والوهن لايعطل دفعة الإيمان ، وسلطان القرآن ، وشريعة الرحمن . إن مجتمع الإيمان تظل فيه الكلمة لدين الله ، والقوة لجند الله والعزة للمؤمنين . وهنا تبرز لنا عظمة منهاج الله ، حين يمضي في ممارسة إيمانية عظيمة ، في واقع بشري حقيقي ، يحمل هذه النماذج البشرية كلها ، فيقودها قيادة ربانية ظاهرة ظافرة . وتبرز كذلك عظمة الدعوة الإسلامية وهي تعمل في الواقع البشري المختلط بنماذجه وأشكاله وطاقاته ومواهبة ، ومستوياته ودرجاته .

إنها عظمة الإيمان ، وعظمة منهاج الله ، وعظمة دعوة الله . لم يجعل الله لدعوته خلقاً خاصاً ولا مجتمعاً خاصاً ، تنغلق فيه الدعوة على ذاتها . ولكن الدعوة مضت لتجابه الحقد والعداء ، والمودة والوفاء ، والكذب والخداع ، والصدق والأمانة ، مضت في واقع بشري حقيقي . مضت ومضت معها سنة الله في الحياة لاتتبدل . ولايتعارض هذا أبداً مع تميز الرسول ﷺ بطاقة عظيمة وموهبة واسعة . ولكنّه كان بشراً رسولاً . وكان عباقرة الصحابة كذلك بشراً لايتجاوزون في طاقاتهم ومواهبهم الحدود البشرية . وبذلك تظل دعوة الله ماضية في الأرض تجدد العزائم وتحيي المواهب ، ويمضي منهاج الله عظيماً في كل عصر ، ربانياً مع كل جيل .

ونعود لنقول : إن الأمة المؤمنة تمثل في بعض الحالات والقضايا اتساعاً عظيماً للشورى ، حتى كأن الأمة كلها في هذا الموقف أو ذاك هي أهل الرأي وأهل المشورة . ذلك حين تميزت هذه الأمة بخضوعها إلى منهاج الله . فلن يتقدم رأي إلا عن خبرة وعلم ، ولا تعطى مشورة إلا عن صدق ونصح . ومثل هذه المشورة الواسعة تهدف إلى أمور عديدة وتحقق خيراً واسعاً ، إذا نجحت الأمة في تحديد هذه القضايا ، ونجحت في ممارسة إيمانها . إنها أولاً تربط الأمة كلها برباط الأمانة والمسئولية وتشعرها بالواجب ، وتدفعها إلى العمل . إنها تقدم للأمة الاطلاع والعلم من خلال مسؤولية وأمانة . فلا تظل الأمة بواد والقيادة بواد آخر . إنها بذلك توثق العرى بين الأمة وقيادتها ، والأمة ذاتها ، وتسد ثغرات قد يدلف

منها الأعداء ، ثغرات الظنون ، والإشاعات ، والقيل والقال ، والجدل والمراء ، والفرقة والتنازع .

إنها تشق الظلام بنور الوضوح والصدق ، وتنفي الجهل بحجة العلم واليقين . إنها تغسل زوايا العناكب ، وتطهر نفوس العاملين ، وتميت الهمسة الخبيثة ، والوشاية الكاذبة ، والنميمة القاطعة .

إنها تنمي المجتمع الإيماني بخصائصه الإيمانية ، روابط ووشائج ، وعلماً وخلقاً ، وإيماناً وممارسة ، ورأياً ونصيحة ، وسمعاً وطاعة . امرأة تقف لتحاج عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في أمر المهور ، ورجل يقف ليحاج عمر في ثوب يلبسه، يظن أنه نال من الغنيمة ماليس له بحق . فيدافع عمر عن نفسه ، ويستشهد بابنه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما . وذلك في مسجد جامع على ملأ من المؤمنين . فذهب الظن ، وماتت الإشاعة ، وظهر الحق . وقال الرجل المؤمن : الآن نسمع ونطيع . فتوثقت العُرا ، ونمت الثقة . إنها الممارسة الإيمانية الرائدة ، تقوم على نية صادقة ، وإيمان واع ، وعلم واسع ، وحجة ورأي ، وأخوة ومودة .

وهكذا يظل «الرأي العام » بين المؤمنين طاهراً نقياً تقياً مؤمناً . لاتنفذ فيه همسة ، ولا تخرقه إشاعة ، ولايهزه نفاق .

وهنا نقول : إنها مسئولية المؤمنين أنفسهم أن يصوغوا حدود ذلك صياغة إيمانية على أساس من منهاج الله ، والواقع الذي يعيشونه ، والعصر الذي يمارسون فيه إيمانهم ، والقضايا العارضة للأمة ، والملابسات التي تحيط بها . إنها مسئوليتهم أن يضعوا عرض القضايا على الأمة عرضاً منهجياً مدروساً ، غير متفلت ولا فوضوي ، عرضاً يخضع لقواعد ثابتة وأسس بينة ، لا عرضاً مضطرباً مهزوزاً . إن الوسائل تختلف من عصر إلى عصر ، ومن جيل إلى جيل . ولكن الممارسة الإيمانية يجب أن تظل ماضية نامية ، نابعة من منهاج الله ، مستفيدة من وسائل المجتمع ، وطاقاته ، استفادة طاهرة نقية ، واعية ذكية ، يهديها الله ويرعاها الإيمان ، ويقودها العلم ، وتدفعها الموهبة .

هذه هي أوسع صورة يقدمها الإسلام لأهل الرأي والشورى . صورة واسعة تحتاجها الأمة في مواقف وأحداث ، ووقائع وأحوال .

وفي مواقف أخرى لاتكون الحكمة في هذا الاتساع ، وإنما يحتاج الأمر إلى تضييق الدائرة وحصر الشورى ، حتى تظل الشورى تحقق أهدافها الإيمانية وخصائصها الربانية . ويشير القرآن الكريم إلى ذلك إشارة تحمل كل ظلال الإيمان ، والصدق والوضوح . حين يعرف المؤمن نفسه وحدّه ، ويعرف قدره وقدرته ، ووسعه وطاقته . ويعلم أن الناس منازل وطاقات . وأن المنازل تتفاوت ، والمواهب تختلف ، حين يعرف المؤمنون أن الحذر واجب ، وأن الحماية أمانة ، وأن للمؤمنين حمى وحرمة يجب أن لايهددها خطر أو تفتح فيها ثغرات :

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٣﴾ ﴾ [النساء: ٨٢، ٨٣]

ونلاحظ هنا ، في الآية الأولى الأمر بتدبر القرآن . لقد كان الخطاب في الآيات السابقة لهاتين الآيتين موجهاً إلى المنافقين . وكانت الآيات تتحدث عن السمع والطاعة . فجاء الخطاب هنا منبهاً إلى تدبر القرآن الكريم ، ليروا أنه من عند الله ، ولو كان من عند غيره لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً . ليردهم ذلك عن نفاقهم الذي كانوا يؤذون به جماعة المؤمنين . فيذيعون ويشيعون مالا يجوز إذاعته ونشره . تعرض الآيتان الكريمتان صورتين وموقفين : صورة المنافقين وموقفهم ، وصورة المؤمنين وموقفهم . أولئك يذيعون دون تبين وتدبر ، ودون رد إلى منهاج الله الذي لااضطراب فيه ولا اختلاف ، وهؤلاء ، وهم المؤمنون ، يتبينون ويتدبرون . ويردون الأمر إلى منهاج الله قبل أن يذيعوا أو ينشروا .

فعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه ، لم

يتحدث بذلك أبداً حتى جاء الرسول ﷺ فاستأذن عليه . فأذن له . فاستفهمه أطلقت نساءك فقال : «لا» . فقام على باب المسجد ونادى بذلك بأعلى صوته .

ونتعلم من هذه الآية الكريمة أن هنالك قضايا يجب ردها إلى الرسول ﷺ وإلى أولي الأمر . فأولو الأمر هم الذين يستنبط منهم ، ويقوون على عرض الحقيقة ، ودراسة القضية وردها إلى منهاج الله حتى يصدر الرأي الأمثل ، ويتخذ الموقف الواعي .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (**كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ماسمع**) . (رواه مسلم)[1]

وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال . أي الذي يكثر الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبر ولاتبين .

ففي هذه القواعد الربانية حماية «للرأي العام» بين المؤمنين . وصون للجماعة المؤمنة كلها ، أموالها وأعراضها وديارها . وجمع للجهود المؤمنة حتى لاتتبعثر في الظنون والإشاعات ، والقيل والقال ، ودفع للمؤمن لأن يتوجه إلى موضع المسئولية والأمانة ، ليضع الأمر في أيديهم ، بوضوح وصدق وأمانة ، لا أن يسكت ويدبر ، ولايهجر ويستكبر ، ولايتوانى ويهمل .

نرى هنا الأمانة والمسئولية الممتدة من الفرد حتى أولي الأمر ، في أمّة متراصة ، مترابطة ، برباط الإيمان ، وعُرا الأخوة في الله مستمسكة كلها بحبل الله .

ونرى كذلك أن هنالك إشارة خاصة إلى أهل الأمانة والمسئولية ، أهل العلم وأهل الكفاءة ، وأهل الموهبة . إنها إشارة رائعة عظيمة تأتي بكل جوانب التناسق والترابط مع تدبر القرآن ، ورد الأمر إلى الرسول ﷺ وأولي الأمر . ويأتي التعبير القرآني بعد ذلك «**لعلمه الذين يستنبطونه منهم** » ، لتظل هذه الأمانة وسلامة النهج ، ووضوح السبيل ، أمام الذين يتدبرون القرآن الكريم .

---

(١) صحيح مسلم المقدمة . باب (٣) حديث رقم (٥) .

الرسول الكريم ﷺ، وأولو الأمر ، والذين يستنبطونه منهم ، يخبتون إلى نهج القرآن وطاعة الرحمن .

وأولو الأمر فقد رأى بعض المفسرين أنهم الأمراء ، ورأى بعضهم أنهم العلماء . ولكننا نشعر أن أسلوب المنهاج الرباني لاينسجم مع هذا الفصل الحاسم ، والتمييز القاطع بين الأمراء والعلماء . وإذا اعتبرنا أن لفظة الأمراء تشير إلى أهل السلطة والرياسة ، والحكم والتنفيذ ، فإن هذا المعنى هو الذي تؤكده الأحاديث السابقة ، والأحاديث التي وردت معنا في فصول البيعة والسمع والطاعة . فأولو الأمر هم أصحاب الأمر ، الذين يأمرون ويطاعون ، هم ولاة الأمر ، والأمراء وأصحاب السلطان . والأصل في دين الله أن يكون هؤلاء من العلماء الذين يحملون منهاج الله في صدورهم إيماناً وعلماً وعملاً . وإنهم استحقوا الإمارة لخصائص عدة يبينها منهاج الله ، والعِلْمُ أحدها وهو من أهمها .

والعلماء في دين الله لايمثلون طبقة معينة ، ولاتجمعاً خاصاً ، ولكنهم يمثلون الموهبة الممتدة في الأمة كلها . فهم بين الولاة والأمراء ، وهم بين الساسة ورجال المال ، وهم بين رجال التربية والتعليم ، وهم في المجتمع المؤمن يحتلون أماكنهم ، وينزلون في منازلهم حسب مواهبهم وقدراتهم ، واختصاصهم ، وإيمانهم وعلمهم . إنهم ورثة الأنبياء . إنهم في كل ساحة وميدان ، ومع كل قضية وشان . ولكنهم عن الأمة لاينفصلون طبقة خاصّة ، أو رجال دين ، أو رجال حكم فحسب . إن علماء الإسلام لايحصرهم ميدان ولايضيق عليهم سلطان . إنهم في كل هذه المجالات والميادين .

وبصورة موجزة ، فإن علماء الإسلام هم موهبة الأمة المؤمنة ، وطاقتها المتميزة ، تنمو وتمتد في حياة الأمة كلها . والأمة المؤمنة صف متراص شعباً وعلماء وولاة أمر . منهم الطبيب ، ومنهم التاجر ، ومنهم المهندس ، ومنهم السياسي والرياضي والفلكي والقائد العسكري . ومنهم ولاة الأمور . ذلك أن الإسلام لايقبل من مؤمن أن يتفرغ لدراسة الطب أو الهندسة ، مثلا ، بكل

صعوباتها وفروعها ، يسهر لها الليل ويجهد النهار ، ليتخرج من الجامعة بهذا الاختصاص أو ذاك ، وهو جاهل بالقرآن والسنة ، مدبر عن دراسة منهاج الله . إن هذه الصورة لايستطيع الإيمان الصادق أن يهضمها . ولكن الشيطان يزينها بطلاء الأعذار ، وزخارف الهوان .

إن دين الله ليس ثقافة يتناوله المؤمن من مجلة أو صحيفة ، أو ندوة عابرة ، أو مجلس خاص ، فحسب . إن دين الله علم . إنه العلم . وبغيره لايكون الطب علماً يتحدث عنه الإسلام ويرفع أهله درجات . وبدونه لاتكون الهندسة ، ولا أي علم من علوم الدنيا ، علماً يرفع الإسلام أهله درجات . ولكن الإسلام يدفع جنوده العاملين ، ومواهبه المتفتحة إلى كل أبواب علوم الدنيا لتقوم في صدورهم على العلم الحق ، واليقين الثابت ، ألا إنّه منهاج الله !

إن علماء الإسلام لايقتصرون على من يستطيع أن يفتي بالقضاء ، فالقضاء باب من أبواب الممارسة الإيمانية ، باب واحد ، ولكن سائر الأبواب مفتحة لهم ، ميسرة لكل موهبة قادرة وطاقة عاملة ، قائمة على منهاج الله إيماناً وعلماً وعملاً .

هذا التصور لمعنى هذه الكلمة وظلالها هو الذي نميل إليه ، لأنه لايخرج عن قواعد اللغة ، ولايعارض قاعدة شرعية ثابتة ، وينسجم مع الواقع ، وحاجة الممارسة الإيمانية ، وسلامة الموازنة والعدالة . إن الشباب المؤمنين بحاجة إلى هذا التصور الإيماني ، حتى يدفع طاقاتهم ومواهبهم ، ويبرز عظمة المسئولية والأمانة، ليعلموا أنها جهد وبذل ، وليست شعاراً ومظهراً . ولنعلم كلنا أن المسئولية والأمانة ممتدة في الأمة في كل المستويات . إنَّها أمانة متكاملة متناسقة ، لاتتجزأ ولا تتقطع . إنها مسئولية العامل في مصنعه ، والجندي في معركته ، والتلميذ في مدرسته ، والقائد في قيادته ، والوالدين في بيتهما ، ليعلم كل مؤمن حدوده وقدرته ، ومسئوليته وأمانته ، علماً لايأخذه من هوى ومصالح ، ولكن يأخذه من منهاج الله أخذاً مباشراً ، وعلماً وممارسة .

فحين تدور الشورى في مستوى الأمة ، فلا بد أن يكون لهذه الشورى أهل رأي وأصحاب مشورة . ولابد أن يكون لهؤلاء خصائص ومميزات .

ونرى أن نضع في بادىء الأمر ثلاث خصائص أساسية يقوم عليها الميزان وتحدد بموجبها المنازل ، ويعرف بها أصحاب الفضل بفضلهم ، ويتميز بها أهل الرأي والمشورة .

١ - الإيمان والتقوى :

إن هذه الصفةمن خصائص النفس ، وأحناء الصدور ، والله أعلم بما تخفي الصدور . ولكن لكل شيء أمارة . وأُمرْنا في الحياة أن نحكم على ظاهر العمل من حيث ارتباطه بالإيمان على أساس مَن منهاج الله .

ففي الأمة المؤمنة يعرف الناس بإيمانهم ، وتشير أعمالهم إلى بعض خفايا النفوس ، وتقوم أحكام الإسلام لتعين في ذلك . ويكون بين الناس مقصرون ، ومعتدلون ومتقدمون . فالعبادات والسلوك ، والعلاقات الاجتماعية والنشاط ، والعمل والمهنة ، وكل ممارسة في حياة المؤمن تعطي إشارة ، وتقدم أمارة ، فالتقي لايخفى ، والنقي لايطوى بعكر ، والصادق لايموه بكذب . هذا في المجتمع المؤمن ، والأمة المؤمنة .

فيكون الإيمان الذي يؤكده العمل ، وتصدقه الممارسة ، أساساً من أسس التقديم ، وقاعدة من قواعد الاختيار . بل هي الأساس والقاعدة التي تقوم عليها سائر القواعد ، فإذا اضطربت هذه ، اضطربت بعدها كل الموازين واختلت كل المقاييس .

فلا بد أن يكون أهل الرأي من الذين عرفهم المجتمع الإيماني ، في ميدان الممارسة والتطبيق ، بمواقف إيمانية ، في ميادين ممارستهم ، وأماكن نشاطهم ، مهما كان ذلك النشاط تجارياً ، اقتصادياً ، سياسياً ، علمياً أو تربوياً ... إلخ لابد أن يكونوا من الذين امتحنتهم التجربة وصقلتهم الممارسة ، حتى ظهر معدنهم فالناس معادن .

إن أبا بكر وعمر وعلياً وعثمان وسعد بن معاذ ومعاذ بن جبل وسائر وجوه الصحابة لم يتقدموا في مجتمع المدينة الإيماني بانتخابات ولا صناديق ولا أوراق، إنما دفعهم الصدق والتصديق ، والبذل والعطاء ، وساحات الجهاد ،

والموهبة العاملة المتفتحة ، حتى كانوا موضع التقدير ، ووجوه المؤمنين ، والمقربين إلى رسول الله ﷺ .

ولقد كان المجتمع المؤمن يزن الرجال بميزان واحد هو منهاج الله ، لاميزان سواه . كانوا يَزنُون الرجال فيعرفون أقدارهم ويرون منازلهم . ويلتزم كل مؤمن حده ، ولا يتجاوز قدره .

فالإيمان يزداد وينقص كما جاء في الحديث الشريف . وكلما ازداد الإيمان ازداد عطاء المؤمن وبذله ، وجهاده وعلمه ، حتى يصبح للمؤمن برهاناً ، وللعامل حجة وبينة ، يعلمها الناس فلا تخفى ، فهو في العبادة قوّام سباق ، وفي المال جواد كريم ، وفي السوق تاجر أمين ، ومع أهله بر رحيم ، وبين إخوانه مذكر ومعين . فإذا إيمانه عمل وجهد لا منّ معه ولا غرور ، ولا كبر . وإذا هو صابر محتسب ، قنوع عامل ، عفيف النظر واليد واللسان ، فكيف يخفى هذا الإيمان بظاهره . ولكن الله أعلم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور .

فبين هذا الطراز يبحث المؤمنون عن أهل رأي وأصحاب مشورة ، وإليهم تميل الأفئدة أولاً .

ولكن الإيمان والتقوى مع مظاهرها ، لاتكفي لتقدم الرجل إلى ميدان المشورة والرأي إذا لم تستكمل فيه بخصائص أخرى تقوم على الإيمان وتبنى عليه ولكن إذا ضعف الإيمان تصبح سائر الخصائص أقل شأناً وأقل منفعة .

٢ - العلم :

إن العلم هو أول نتاج الإيمان . فالإيمان الصافي يدفع المؤمن دفعاً إلى العلم . كيف لا ؟ وهو مؤمن أحب الأمر إليه أن يصدق عبادة الله ويحسن في طاعته ، فيكون عمله مطابقاً لمنهاج الله . ولا يتأتى له ذلك إلا بالعلم بمنهاج الله ، يأخذ منه قدر وسعه وطاقته . وبدون هذا العلم لايستطيع أن يحسن الطاعة ولا أن يصدق الممارسة الإيمانية في واقع الحياة المتجددة الأحداث ، المتعددة المواقف . إن المؤمن لايمارس إيمانه عند الوضوء والطهارة فحسب ، ولاعند الصوم والصلاة فحسب.

فهذه العبادات من أركان الإسلام ، يقوم الإسلام عليها . فالمؤمن يمارس إيمانه في كل نبضة وحركة ، ومع كل خطوة وسعي ، وفي كل عمل وجهد . إنه يمارس إيمانه في بيته مع زوجه حين يعرف حقوقها وحقوقه ، ومع أولاده وهو يؤدي أمانة التربية والنشأة ، ومع جيرانه ، وفي وظيفته ، ومع أمته ، ومع الناس أجمعين. إنه يمارس إيمانه في كل نشاط يقوم به . ولا يستطيع أن يستفتي الآخرين في كل أموره هذه . ولا يقبل منه عمل في أيّ مجال إذا لم يطابق منهاج الله . فعليه أن يستفتي نفسه ، وأن يؤدي أمانته . وبدون علمه بمنهاج الله قرآناً وسنة لايستطيع أن يؤدي الأمانة ويرعى الحقوق . إنها أمانة ممتدة في الحياة كلها ، ومسئولية عامة في حدود عمله وأمانته . فهو مكلف إذن أن يأخذ من منهاج الله قدر وسعه الذي وهبه الله ، وأودعه فيه . لايقبل منه إلا عذر شرعيّ يقبله الله سبحانه وتعالى . ولن تفيد أعذار الكسالى ، ولا أمنيات الوهن .

إننا ، ونحن نضع هذا التصور ، نعرف أننا نذكر ونعين . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحاسب . فيعفو ويغفر ، أو يعذب ويعاقب .

وهذا هو أول العلم وأساسه . وبدونه يصبح كل علم مجرداً من البركة ، منزوع الخير .

ويلي بعد ذلك العلم بالواقع الذي يمارس الإيمان فيه ، لتكون الممارسة عن بينة . ويكون العلم بالواقع من خلال منهاج الله ، وعلى قدر وسعه وطاقته أيضاً، وعلى قدر مسئوليته وأمانته .

ودراسة الواقع أمر واسع عظيم . يحمل الفرد المؤمن قسطاً من هذه المسئولية ، ولكنها تتكامل بجهود الجماعة والأمة .

ومن أبواب دراسة الواقع مثلاً : فهم الناس الذين يتعامل معهم فهماً نابعاً من منهاج الله وكذلك فهم ميدان عمله ، ومجال نشاطه ، فهماً يرفع عنه الغفلة والارتجال ، ويعينه على أداء الأمانة وصدق العمل .

ومن أبواب دراسة الواقع ما يمكن أن نسميه اليوم التخصص العلميّ .

فينتشر المؤمنون في مختلف أبواب علوم الدنيا ، يأخذون منها قدر وسعهم وطاقتهم ، وقدر موهبتهم وكفاءتهم . وعلى الأمة المؤمنة أن تستكمل جميع أبواب هذه العلوم ، لاتترك منها شيئاً أبداً . ولكن الفرد المؤمن يأخذ من التخصص العلمي مايستطيع في حدود وسعه وطاقته . وتكون هذه الدراسة قائمة على منهاج الله ، مرتبطة به ، ماضية معه ، حتى تكون دراسة الواقع عبادة وطاعة ، تصحبها النية والعزيمة ، وتمضي على نهج نيّر مستقيم ، وتسعى إلى هدف واضح جليّ . وتمتد دراسة الواقع إلى ميادين وميادين. ولقد عرضنا تفصيل ذلك في كتابنا : «**دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية** » .

فيصبح العلم بمنهاج الله والعلم بالواقع على أساس الإيمان ، وفي حدود الوسع والطاقة ، والمسئولية والأمانة . وعلى أساس التصور الذي عرضناه ، يصبح هذا العلم هو العلم الذي تسعى له الأمة ، وينشده الفرد ، عبادة وتقوى ، وطاعة وقوة . والعلم على هذا الأساس يصبح من أسباب القوة التي أُمِر المؤمنون بإعدادها :

﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم . . .** ﴾ [الأنفال: ٦٠]

وهذا العلم ضرورة لأهل الرأي في الإسلام . وبدونه لايستطيع المؤمن أن يقدم رأياً ، أو يمارس نصيحة ، أو يخوض في شورى ، إذا كانت في باب هو جاهل فيه ، بعيد عنه .

٣ - الموهبة والوسع :

لقد جعل الله للناس مواهب ، وأعطى لكل إنسان قدرة وطاعة ، ووسعاً وكفاءة فكان الناس درجات في ذلك . وقد جعل الله هذه السنة الربانية في خلقه لحكمة يعلمها . وهي أمر واقع لانستطيع إنكاره ولانستطيع إزالته . وتنحصر مهمة الإنسان ، والمجتمع المؤمن خاصة ، أن يجلو هذه المواهب حتى تتمايز ، وأن ينميها حتى تثمر في عطائها ، وأن يرعاها حتى تمتد في جودها .

والمواهب شتى . فنبوغ في سياسة ، وعبقرية في اقتصاد ، وإبداع في الأدب ،

إلى غير ذلك من المواهب المتعددة حتى لايكاد يسهل حصرها .

وهذه المواهب تتحول إلى شر وإجرام ، وعمى وظلام ، في أجواء الجاهلية العمياء . ولكنها في جو الإيمان تصبح خيراً عميماً ، وبركة واسعة ، وأفياء وأنداء .

ما أعظم الموهبة حين يرعاها القرآن ، ويحميها الإيمان ، وينميها منهاج الرحمن . ما أعظمها وأجلّها . إن الإنسان حيثما كان بحاجة إلى هذه المواهب . إن المجتمعات البشرية بحاجة إليها . فهي نعمة من الله . ولكنها في أجواء الكفر تتحول إلى شقوة وفساد .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]

وأهل الرأي في الإسلام لابد أن يكونوا من أهل الموهبة الظاهرة والقدرة البارعة . موهبة نامية في ظلال الإيمان ، وقدرة منطلقة في عبادة الرحمن .

إن أهل الرأي في الإسلام لابد أن يكونوا ممن عرفت موهبتهم ، وظهرت براعتهم في هذا الميدان أو ذاك .

إنها مسئولية كل مؤمن ، ومسئولية المجتمع المؤمن أن يدفع مواهبه إلى منازلها الأمينة ، ومواقعها الحصينة ، دون أن يقتلها التباغض والتناجش والتحاسد . ولكل موهبة مكان ، ولكل نبوغ ميدان . والشورى تعم الأمكنة كلها .

ولذلك كانت معرفة المؤمن لنفسه ، وقدره ، ومنزلته ، وحدّه ، أمراً يدفع عنه الحسد والبغضاء . وتكون معرفته للناس ومنازلهم أمراً يدفع عنه الفتنة والإغواء . ومعرفة الناس بعضهم لبعض تقوي الروابط والوشائج ، وتنمي المعارف .

هذه هي الأسس الثلاثة التي نتصور أن تكون قاعدة أهل الرأي وسمة أصحاب المشورة . وعندما نعود إلى الأبواب والفصول السابقة من دراستنا هذه ، نجد أننا لم نعرض هنا هذا التصور من عند أنفسنا . ولكن البينة سبقت والدليل عرض . ولانجد هنا حاجة للتكرار .

إننا حين نستعرض وجوه صحابة رسول الله ﷺ، نرى أن هذه الصفات الرئيسة الثلاث هي التي قدمتهم، وهي التي أنزلتهم تلك المنازل المباركة . فلم يتقدم علي رضي الله عنه لمجرد الرحم والقرابة . فقد كان هنالك أقربون تأخروا وما تقدموا . ولكن علياً رضي الله عنه كان فذاً في الإيمان، فارساً مغواراً في الجهاد، حجة في الرأي والقضاء . وكذلك كان سائر الصحابة رضوان الله عليهم يجمعون مختلف المواهب، وشتى العبقريات . ولقد أخذوا منازلهم، وكان كل منهم من أهل الرأي في ميدانه واختصاصه .

وما أضاع المسلمون اليوم شيئاً كما أضاعوا مواهبهم . دفنوا طاقاتهم، وذبحوا مواهبهم . ومافعلوا ذلك إلا بعد أن غلب الجهل واضطرب الإيمان وتحرك الهوى . وقامت الدعوات القومية والإقليمية وأمثالهما تمزق كل طاقة، وتبيد كل موهبة . خطة ماكرة نجحت أعظم نجاح، في لحظة من لحظات التاريخ وقعنا فيها صرعى الفتنة والجهل وسوء التفكير . بل كان الأمر أشد خطورة وأبعد إيذاء . فقد تحولت مواهب كثيرة من فلذات أكبادنا إلى خدمة الأعداء، وسلطان الكفر والشقاء . أشقوا أنفسهم وهم يحسبون أنهم في نعيم، وأشقوا أمتهم وقد تركوها في جحيم .

هذه الأسس الثلاثة تدور حولها خصائص أهل الرأي . وهي أسس مترابطة إذا وهن منها واحد، وهنت سائر الأسس واضطرب الميزان . فهي تؤخذ معاً، وتعمل معاً .

وهذه الأسس الثلاثة متوازنة فيما بينها، متناسقة كل التناسق، يربطها منهاج الله فتتناسق معه .

هذه القواعد الثلاث يجب أن تكون من أهداف الدعوة والحركة، والتربية والنشأة، والتخطيط والنهج . ولقد كانت كذلك في رعاية النبوة والوحي، وتجري لينة هينة، في مجتمع طهّر نفوسَهُ القرآن، وغسل قلوبه الإيمان، ففتحت السبل الميسرة، لكل طاقة ومقدرة . لا يأخذها غرور ولاكبر، ولاخيلاء وزهو، ولكن

تتواضع لله فيرفعها الله. مضت لينة سهلة ، لايميتها حقد وحسد وتباغض وغيرة ، وفتنة ونميمة ، في واقع بشري أنارته وضاءة الإيمان ، وأعزته خشية الرحمن .

وعلى هذه الخصائص الثلاث الأساسية ، والميزات الرئيسية لأهل الرأي والمشورة ، تقوم خصائص أخرى متعددة ، وميزات كثيرة ، كلما حمل المؤمن منها خصلة متصلة بالإيمان والعلم والموهبة ، زادته إيماناً وعلماً ونمته موهبة وقدرة ، ورفعته منزلة وقدراً . وكل ميزة أو خصلة منها يرعاها الإيمان ، ويرعاها منهاج الله ، رعاية كريمة ، ويدفعها دفعاً رحيماً ، رحيماً على قدر ما أودع الله منها في هذه الفطرة أو تلك .

فالحلم والأناة ، والروية والتدبر ، والصبر والجلد ، والعفو والتسامح ، والبر والرحمة ، والقوة والثبات ، والكياسة والأدب ، وحسن الخلق عامة ، كل هذه الصفات تزيد أهل الرأي في الإسلام فضلاً وترفعهم منزلة ، إذا كانت متصلة بالأسس الثلاث ، مرتبطة بها ، نامية معها . وبغير ذلك ينقطع خيرها وتنضب بركتها ، فلا ينفع الحلم ولايجدي الكرم ، ولاتفيد قوة ، فهي ليست الأساس الذي ننظر إليه وحده ونقيس به وحده . وهي صفات قد تجدها في خصم منافق ، أو عدو كافر . وإننا نقصد العلم والموهبة التي تحدثنا عنهما ، وليس أي علم ولا أي موهبة . والتربية الإيمانية ، والإعداد المنهجي ، يهذب كذلك كثيراً من الخصال وينمي كثيراً من المواهب .

وهذه الخصائص التي ذكرناها بنوعيها : «الأساسية» و «التابعة» ، إذا صحت التسمية ، تتحول في المجتمع الإيماني إلى ممارسة وجهد ، تدفعهما «المبادرة الذاتية» وترعاهما التربية الإيمانية ، رعاية ودفعاً منهجيين ، خاضعين للتخطيط والمراقبة ، وماضيين مع النصح والتوجيه .

ومن خلال هذه الممارسة ، تنشأ الخبرة ، وتنمو التجربة ، ويذكو العطاء . وتصبح الخبرة والتجربة عنصراً آخر في ميزان الانتقاء والاختيار . عنصراً يزكيه الإيمان والعلم ، وتحميه الموهبة والقدرة . ولاتقاس الخبرة بعدد السنين فحسب ، ولا بالأعمار فحسب ، ولكنها تقاس بالسنين العاملة المجاهدة ، والأعمار الباذلة

الغنية . فحياة المؤمن العامل ليس عدداً يسجل ، أو رقماً يحتفى به ، أو يوم ميلاد تضاء له الشموع . ولكنه معاناة حقيقية ، وممارسة لإيمان وعلم ، وجهد متواصل مترابط ، وعطاء لاينضب . وعندئذ يصبح العمر له ميزانه المعتبر في مجال اختيار كفاءة ، أو تقدير درجة ، دون أن تتعطل قاعدة الإسلام من توقير الكبير ، ورحمة الصغير ، كما جاء في الحديث الشريف .

هذه الممارسة الإيمانية في حياة المؤمن منذ أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وتأخذ صورتها الجدية ، والعزيمة الماضية ، بقدر ماصحبها من إيمان في القلب ، لايعلم حقيقته إلا الله وتعطي هذه الممارسة ثمارها ونتاجها على أساس ذلك . ونحن ننظر إلى الثمرة الطاهرة والجهد البين ، ونكل النية إلى رب العباد ، على أساس من منهاج الله ، دون أن تأخذنا غفلة فيخدع منافق ، أو تردينا سهوة فيطغى عدو .

والممارسة الإيمانية على هذا النهج ، تزود المؤمن ، كما قلنا ، بالخبرة والمران ، والزاد والعتاد ، لمن شاء الله له أن يزداد هدى وتقوى بعلم صالح وجهد فالح .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد: ١٧]

وتتحول هذه الخبرة ، من خلال الإيمان والعلم والموهبة ، إلى قدرة على الموازنة التي أفردنا لها فصلاً خاصاً .

والقدرة على الموازنة أمر هام في حياة كل مؤمن وهو يسعى في الحياة الدنيا ، ولكنها أكثر أهمية في رجال الشورى وأهل الرأي . ذلك أن هذا النوع من الرجال يردون عادة عظائم الأمور إلى منهاج الله ، ومعضلات القضايا إلى دين الله . وكل مؤمن يرد قضاياه كلها هذا الرد إلى المنهاج الرباني . ولكن أهل الرأي يردون قضايا الأمة ، ومصير الجماعة ، بالإضافة إلى سائر شئون حياتهم العامة كسائر المؤمنين ، إلى منهاج الله.

وتنبع القدرة على الموازنة من قوة الإيمان ، ونمو العلم ، وصدق الموهبة وسلامة

الممارسة والتجربة . ويبرز أهلها بين المؤمنين في مسيرة العمل ، وسنة الابتلاء .

وهكذا نجد صنفاً ثالثاً من الخصائص ، ولكنه صنف مرتبط بالخصائص كلها نابعة من مشكاة واحدة ، موصولة برباط واحد ، قائمة على ميزان واحد ، إنه الإيمان ، والقرآن والسنة ، والوسع والطاقة ، في ممارسة وجهد ، ومعاناة وابتلاء .

ونلخص الخصائص السابقة في ثلاث مجموعات تكون فيها المجموعة الأولى هي الأساس ، وهي الميزان ، وهي المحك والاختبار فإن صدقت هذه الخصائص ، وصفَتْ تلك الميزات ، نتجت عنها سائر الصفات على قدر الصدق والصفاء ، والفطرة وما أودع الله فيها فكأنها برهان لها بينة عليها :

١ - الخصائص الأساسية :

الإيمان .

العلم .

الموهبة والسعة والقدرة .

٢ - الخصائص التابعة :

الصفات الفطرية .

الصفات الخَلْقيّة .

الصفات الخُلُقيّة .

٣ - خصائص الممارسة :

المبادرة الذاتية .

الخبرة والتجربة .

الموازنة العادلة .

وإننا نعرض هذه الخصائص ، وقد مرت معنا كلها في الأبواب والفصول السابقة ، مع أدلتها من القرآن والسنة بما يغني عن الاعادة هنا .

إننا نعرضها بهذا التصور ، لتسهل ممارستها في واقع الحياة الإيمانية ، نعرضها

حتى نتعلم ونعتاد ممارسة الموازنة الأمينة ، ومعرفة الرجال بميزان قرآني عادل . نعرضها حتى تعتاد الأجيال المؤمنة أن تزن الرجال بميزان واحد ثابت ، عادل أمين ، لايضطرب إلا بمقدار مايضطرب الهوى في النفوس .

نعرضها حتى لاتصبح القرابة وحدها في ميدان الاختيار ادعاء إيمان وعلم ، والصداقات ادعاء موهبة وعبقرية ، والمصالح جهداً وجهاداً .

والميزان القرآني لايتحقق في حياة المؤمنين بمجرد الوعظ والإرشاد ، أو التأليف والكتابة . ولكنه يتحقق حين تتناوله التربية المنهجية ، والتنشئة المدروسة المبرمجة ، والجهد المبذول ، والمراقبة الواعية والرعاية الرحيمة ، في مدرسة ممتدة ، حية عاملة نابضة ماضية . تصنع جيلاً بعد جيل ، لاتعطلها النكبات والبلاء ، ولايصدها العسر والابتلاء .

إن الإعداد والتدريب ، والبناء والتكوين ، منذ الطفولة البريئة ، والفطرة السوية ، هي التي تتعهد ذلك . وهذا هو أسلوب الإسلام ، ودرب الإيمان ونهج القرآن . يتعهد الفطرة السليمة التي فطرها الله فلا تتشوه ولا تنحرف ، ولاتضل ولا تنحرف . وتمضي التربية الإيمانية مع كل عمر ، خطاً إيمانياً ، وأسلوباً ربانياً ، مدى العمر كله لاتتوقف ، ومدى الأجيال كلها لاتتعطل ، وعلى مر العصور تبني وترفع ، وتصوغ وتدفع .

ومع وجود هذا الميزان ،. فإن الممارسة في واقع الحياة ليست عملاً آلياً . إنها تظل معتمدة على الطبيعة البشرية بكل أشكالها وألوانها ، وتظل هذه الطبيعة البشرية تضع بعض العقبات والصعاب ، ويظل الواقع البشري يحمل فيه أبواب الفتنة والابتلاء ، حتى تصبح الممارسة معاناة حقيقية . ولكن المجتمع الإيماني يخفف من ذلك كثيراً ، ويهيء للمؤمن وللجماعة سبلاً ميسرة ، وأبواباً مفتحة ، لا تتيسر في أي مجتمع آخر . ولكن المعاناة تبقى ، والابتلاء يمضي ، فهي سنة الله في الحياة الدنيا .

وفي عهد النبوة والوحي ، وفي عهد الخلفاء الراشدين ، لم تنتف المعاناة ،

ولم يذهب الابتلاء ، أثناء الممارسة الشورية ، كما رأيناها في الأبواب السابقة .

ولكن الجماعة المؤمنة صاغت تلك الممارسة الشورية على أسس المنهاج الرباني صياغة لبّت حاجة الواقع ، واستجابت لمتطلباته . إن تلك الصياغة وذلك الجهد ، يحتاج إلى مثله المؤمنون مع كل عصر . ونحتاج إليه اليوم ، وسنحتاج إليه غداً .

إن هذه الصياغة التطبيقية هي جهد بشري مطلوب ، إنها الممارسة الإيمانية . وقد تختلف من عصر إلى عصر ، وتنمو مع التجربة والممارسة . إنه ليس اختلافاً بالمعنى الحقيقي للاختلاف ، بقدر ماهو نمو طبيعي لممارسة مستمرة ماضية . إن شأنها في ذلك شأن أي جهد بشري في أي مجال آخر . فالجهد البشري الذي يرعاه المنهاج الرباني بكل ظلاله وآفاقه ، لابد أن ينمو نموّه الطبيعي . كذلك نما الجهد البشري في مختلف شئون الحياة المادية في الأرض نمواً مطرداً لايتوقف فقد تطورت المساكن والمواصلات والاتصالات وسبل الغذاء والشراب ، إلى غير ذلك من مظاهر الحياة البشرية . وهذا التطور والنمو سنة ماضية في الحياة ، لاتتوقف . ولكن الذي يتوقف هو جهد هذه الأمة أو تلك ، عند زوالها ، أو حلول أجلها . فللأمم آجال ، كما للناس ، كما نص القرآن على ذلك . فإذا زالت أمة نهضت أمة أخرى ، تتناول القيادة وتدفع الجهود ويمضي التطور والنمو.

ولكن هذا النمو والتطور ، يتحول إلى شر وفساد في حياة الإنسان على الأرض حين يصوغه الكفر والإلحاد . ويتحول إلى بركة وخير ، حين تصوغه التقوى والإيمان . وفي تلك الحالة الأولى يكون بعيداً عن مهمة الإنسان في الأرض موصولاً بمهمة الشيطان . وفي حالة الإيمان يحفها النور ، في طهر ووضاءة ، وترتبط بمهمة الإنسان على الأرض ، مهمة الأمانة والاستخلاف والعبادة ، لتدفع الحضارة بمعناها الحقيقي .

إننا نحتاج اليوم إلى صياغة نامية لممارسة الشورى الإيمانية إلى صياغة نابعة من منهاج الله ، متصلة بالصياغة الأولى ، نامية معها ، لتلبي الواقع الجديد بكل امتداده واتساعه ، ونموه وتطوره .

إن هذه الصياغة الشورية المؤمنة لاتضعها قاعدة إلزام ولي الأمر برأي الأغلبية ، أو عدم إلزامه . وقد رأينا في الأبواب السابقة الدليل والبينة . ولكن الذي يصوغها هو جميع قواعد المنهاج الرباني متناسقة مترابطة ، لاقاعدة واحدة نضعها من فهم مختلف عليه ، أو تصور بشري جزئي لحالة جزئية . ولقد سبق أن بينا أن القاعدة المطلقة والحق اليقين ، الذي يصلح لكل جيل ولكل عصر ، ولكل قوم ولكل موطن ، لايمكن أن يصدر عن بشر ، ولكنه من عند رب العالمين . وما يصنعه البشر هو جهد بشري معرض للخطأ والصواب . وحين ينال بعض الصواب فإنه يمثل صواباً مرحلياً ، ينمو ويتطور ، ويصيبه من خلال نموه وتطوره اختلاف كبير .

هذه الصياغة الإيمانية للشورى ، التي نحتاجها اليوم ، نستطيع أن نصنع إطارها الواسع في نقاط ثلاث :

- المنهاج الرباني .
- الواقع البشري ، نفهمه من خلال المنهاج الرباني .
- الطاقة البشرية .

ونود أن نوضح كلمة ولفظة . لقد ترددت معنا كلمة **منازل** ، **ودرجات** ، **ومواهب** ، **وطاقات** ، وكررنا ضرورة رعاية الموهبة ، وإنزال الناس منازلهم . ولكننا لانعني أن المنزلة تعني حقوقاً يتفلت بها الناس من المسئولية ، أو جمعاً يعتدى به على حقوق الآخرين . فالناس سواسية في الإسلام تتحدد حقوقهم في منهاج الله ، وتحدد مسؤولياتهم وأماناتهم . إنهم سواسية أمام القانون ، أخوة في الله ، رحماء بينهم . ولكن الإيمان الأقوى ، والعلم الأوسع ، والموهبة المتميزة ، تزيد من المسئولية والأمانة ، ومن الحساب بين يدي الله يوم القيامة . نحب أن نشير إلى هذا الأمر هذه الإشارة السريعة ، حتى لايحسب أحد أن المنازل كبر وخيلاء ، ولكنها جهد وابتلاء .

إن الصياغة التطبيقية للشورى تبدأ في حياة الأمة ، في حياة الدعوة ، مع

اللحظة الأولى للممارسة الإيمانية ، بالصورة والقدر الذي يحتاج إليه الواقع ، والمرحلة القائمة . ثم تأخذ الصياغة تنمو مع نمو الممارسة ، كما تنمو سائر الجهود البشرية المؤمنة في ميدان الممارسة والتطبيق . إنها تنمو نمواً يرعاه الايمان ، ويغذيه منهاج الله ، وتمده التجربة والخبرة والمران . إنها تنمو كما تنمو الدعوة ذاتها ، والحركة ذاتها ، نمواً مباركاً خيراً .

فإذا تعطل النمو ، فإن تعطله دلالة على مرض أو عجز في الطاقة البشرية ، أو وهن في قدراتها . إنه وهن في الإيمان أو العلم أو القدرة والسعة . ذلك لأن منهاج الله يرعى كل نمو مؤمن صادق ، وكل جهد مؤمن واع . ذلك لأن منهاج الله يتسع لكل نمو طاهر وانطلاق قادر . إن أي عجز ، أي وهن ، أي تقصير ، إن أي شيء من ذلك هو في الطاقة البشرية ذاتها ، لا في منهاج الله . فمنهاج الله حق كامل .

لسنا هنا في هذا البحث ، نهدف إلى وضع الصياغة ذاتها ، ليهرع الكسالى والحالمون إلى محاولة تطبيقها محاولة مشوهة عاجزة . إننا لو فعلنا ذلك لناقضنا أنفسنا . إن الصياغة تخرج من القلوب المجتمعة في الميدان ، مع الممارسة والجهد والمعاناة ، مع احتمال الخطأ والصواب ، مع أساليب المعالجة والإصلاح ، مع تحمل المسئولية ورعاية الأمانة ، مع التلاقي والاختلاف ، مع الصف المؤمن المتراص . هناك في ميدان البذل والعطاء تبدأ الصياغة لتنمو ولتمضي في نموها زاداً يغني البشرية كلها ونوراً يشق حجب الظلام .

إننا هنا نبرز القواعد والأسس اللازمة لهذه الصياغة ، وننفي مصطلحات الجدل القاتل ، والخلاف الممزق ، ونعرض من منهاج الله تناسق مواضيع ، وترابط أحكام وأهمية واقع ، ودور الجهد البشري . نبرز هذا ونعرض ذاك ، حتى تستيقظ القدرات وتصحو المواهب ، وينهض الاختصاص ، في نهج مرسوم ، وتخطيط واع ، ليقوم بالمهمة ويؤدي الأمانة .

إننا حين نخشى أن تحمل الصياغة فرجة لاستبداد فرد أو طغيان مسئول ، أو ضلال مستوى ، إننا حين نخشى هذا في صياغتنا للشورى ، يجب أن نخشى كذلك هوان المرائين ، وذلة المنافقين ، وثغاء القطيع ، وضعف الإنسان .

ومن هنا تبرز لنا أهمية «الموازنة» التي تحدثنا عنها سابقاً، في الصياغة والتنفيذ إن الموازنة العادلة ضرورية للوصول إلى صياغة أمينة وتنفيذ مؤمن. إنها مهمة صعبة لايسهلها إلا صدق الإيمان والعلم، ورحمة الله وعونه، رحمة تتنزل على العاملين الصادقين، والباذلين المجاهدين.

وكذلك يبرز لنا هنا أن المهمة ليست مهمة فرد واحد، أو كاتب أو باحث. إنها مهمة قدرات متنوعة، واختصاص موهوب. إنها مهمة أمة عاملة مجاهدة، إنها مهمة دعوة نقية صافية، إنها مهمة قلوب متلاقية على خفقات الإيمان ومعاناة الجهاد.

بدون ذلك فإن الصياغة تكون جهداً ميتاً لاروح فيها، ومحاولة ضائعة بين شتى المحاولات، محاولات قامت في ديمقراطية الغرب ففشلت، ودكتاتورية أو استبداد المادية الإلحادية فطغت.

ولابد أن نكرر أن الشورى وصياغتها تبدأ من اللحظة الأولى لحياة الجماعة المؤمنة مهما قل عددها، أو اضطربت أحوالها، أو غلبتها نكبة. إنها تبدأ بما يناسب تلك اللحظة وظروف المرحلة، على قدر ذلك. ثم تنمو نمواً طبيعياً إذا صحت العزيمة وصدقت الدعوة.

الفصل الثاني
أسس الصياغة الشورية

لانستطيع في هذا البحث أن نخلص إلى صياغة للشورى، لتكون جاهزة للتنفيذ والممارسة. ذلك لأن الصياغة التنفيذية تعتمد على الواقع. وحتى تكون الصياغة إيمانية فلا بد أن يكون الواقع إيمانياً بكل امتداداته وآفاقه. ومن ناحية أخرى، فإن الواقع متبدل سريع التبدل. وما نقرره على الورق الآن قد لايصدق في الواقع لحظة الممارسة، حين يفصل بينهما زمن لاندريه. ومن ناحية ثالثة فإن الصياغة التنفيذية تحتاج إلى عدة مواهب وكفاءات تتناسق وتتكامل على جميع الأسس السابقة، وتستوعب القواعد الربانية كلها. إن الصياغة التنفيذية للشورى المؤمنة لاتصدر عن كتاب واحد أو رجل واحد أو لحظة واحدة إنها ممارسة إيمانية تبتدىء في الأمة المؤمنة ثم تنمو الممارسة الإيمانية مع نمو الأمة، ونمو واقعها، في ظلال الآيات والقرآن. وإذا خالفنا ذلك فنكون قد ناقضنا أنفسنا، وعارضنا سنن الله في الحياة الدنيا.

ونحن لانتحدث هنا عن الشورى في الحكم، ولكننا نتحدث عن الشورى المؤمنة كما عرضناها، ممتدة في حياة الفرد، والجماعة والأمة. فإذا ابتدأت الشورى المؤمنة في هذه الأجواء، كما يبدأ غيرها من قواعد الإيمان، ونهج السنة والقرآن، فإنها تمتد في حياة الأمة امتداد غيرها من القواعد، حتى تجتمع كلها في ميدان الدولة المؤمنة، وقد استكملت العناصر، ونضجت الممارسة، وصحت القلوب والصدور، وصدقت العزائم، فجاء وعد الله:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾
[النور: ٥٥]

لذلك نستطيع أن نقول: إنها الشورى المؤمنة في ميدان الدعوة إلى الله. إن الدعوة إلى الله أمر قائم ماض لايتوقف أبداً حتى تقوم الساعة. إنها مدرسة الإسلام، مدرسة الإنسان، إنها مدرسة النبوة!

فلا يتوقع القارىء إذن أن تقدم الكتب صياغة ، أي صياغة ، جاهزة للتنفيذ من أرائك الراحة ، ومجالس الاسترخاء . إنها جهد ومعاناة ، إنها إيمان عامل ، وعلم مجاهد . إنها ممارسة الإيمان في الواقع البشري ، ممارسة متكاملة متناسقة ، تكون الشورى عنصراً من عناصرها ، وقاعدة من قواعدها . تنمو كلها مع نمو الإيمان والممارسة ، وتمضي مع سنن الله وأقداره ، وينال العاملون أجرهم وثوابهم .

ولكن العاملين يستطيعون أن يقدموا الصياغة التنفيذية لكل مرحلة من مراحل النمو بل يجب أن يقدموها ويصوغوها ويمارسوها ، في هذه المرحلة وتلك ، حتى يظل الجهد البشري المؤمن يعمل على صراط مستقيم ، وعلى هدى من الله ، وعلى نهج الإسلام . فإذا لم تقم الممارسة والصياغة لمرحلة معينة ، فكيف تتم الممارسة للمراحل التالية ، إلا أن يعتريها ضعف في التجربة!

ونؤكد إذن ، ونكرر أيضاً ، أن القضية ليست إلزام وليّ الأمر بنتيجة الشورى أو رأي الأكثرية أو عدم إلزامه . إن وليّ الأمر ، أو الإمام ، أو الأمير ، أو كل ذي مسئولية وأمانة ، جعل الإسلام له حدوداً ، وجعل له مسئولية وسلطاناً ، وجعل له حقوقاً ، وعليه واجبات . ولم يجعله الإسلام طاغية مستبداً ، يمضي رأيه دون حدود وقواعد وأسس . ولم يجعله إمعة ، كل شأنه أن يعد «الأصوات» أو «الأيادي» . إنه ليس مجرد رئيس جلسة إداري ، معطل المسئولية مشلول الأمانة. إنه مسئول له حقوق وعليه واجبات وكذلك كل مؤمن . وتأتي العدالة والأمانة ، وتستقيم الشورى وتعتدل ، حين يؤدي كل مؤمن مسئوليته وأمانته كما أرادها الله سبحانه وتعالى منه .فتتناسق الجهود وتتكامل ، على صورة إيمانية تحمل كل قواعد الإيمان ، في موازنة تدفعها الكفاءات والمواهب ويحميها الإيمان والعلم . وفي هذا الجو تدور الشورى المؤمنة . إنه لأمر بديهي أن تتوازن المسئوليات والحقوق في نطاق كل مستوى ، وأن تتوازن هذه كلها في مستوى الأمة كلها . ولا تستقيم الأمور ولا تعتدل حين يحمل مستوى من المستويات كل المسئولية في الدنيا والآخرة ، أو يحمل معظمها ، ولكنَّه في الوقت ذاته يُجرَّد من سلطانه وصلاحيته ، فيحمل مسئولية دون حقوق ، وأمانة دون سلطان .

ولا يستقيم ، في أي مستوى من المستويات ، حين يهبط مستوى الإيمان والعلم والخبرة والكفاءة ، عن مستوى الأمانة المطلوبة ، والواجبات القائمة ، فيكون أهل ذاك المستوى رموزاً ، وشعارات فحسب ، دون أن تتمثل الطاقة المتحركة ، والقدرة المناسبة . ولكن الأمر يستقيم حين تأخذ الطاقة المناسبة مكانها المناسب ومستواها الحق . وهذا هو جوهر حديث رسول الله ﷺ الذي سبق أن أوردناه عن عائشة رضي الله عنها من أن رسول الله ﷺ كان يأمرهم أن ينزلوا الناس منازلهم . وكذلك الحديث الشريف : (**الناس معادن ...**) وسائر الآيات والأحاديث التي أوردناها سابقاً في هذا الصدد .

في جو الجهالة الغالبة والضياع التائه ، والوهن المميت ، تظهر أساليب الجهالة والضياع والوهن . ولكن الإيمان وأجواءه ، والإسلام وأحكامه ، تقوم على قواعد متماسكة مترابطة . فالشورى المؤمنة لاتقوم في أجواء غير مؤمنة أو أجواء متفلتة من منهاج الله .

وبذلك تظل الشورى المؤمنة لها هدفها الواضح المحدد : وهو البحث عن الحق من خلال جهد بشريّ مؤمن ملتزم بمنهاج الله . إنه تحري الحق واتباعه والخضوع إليه . وحين ينجلي الرأي الحق ، والموقف الحق ، يمضيه الإمام أو وليّ الأمر . ومن خلال تحري الحق بالجهد البشريّ المؤمن الملتزم ، قد تبرز صور متعددة ، ولكنها لن تكون صوراً مؤمنة إلا إذا حملت معها بينة الإيمان ودليل القرآن وحكمة السنة . فإذا تعددت الصور المؤمنة للموقف الواحد ، فإن على الجماعة المؤمنة أن تصوغ أسلوب اتخاذ القرار ، وفقاً للواقع الذي تعيشه ، صياغة لاتصطدم مع قاعدة إيمانية ، ولاتعطل حقاً ، ولا حداً ولاطاقة ، ولا أمانة .

إن هذه الصياغة ستختلف في تفاصيلها من عصر إلى عصر . ولكن جميع الأنماط ستحافظ على شكل الإيمان وقواعده ، ونماذج الإسلام وأسسه . وأوجه التنوع والاختلاف هي نتيجة طبيعية للجهد البشري المؤمن الملتزم وهو يمارس إيمانه مع الواقع المتجدد .

والجهد البشري وهو يمارس إيمانه في ميادين الشورى ، يتحرى الحق ويبحث عن الصواب ، بنية صادقة ، وعزيمة صادقة . فليس من الضروري أن يهتدي إلى الحق دائماً في رأيه أو يجد الصواب . ولكنه يكون في رأيه وموقفه أقرب إلى الحق ، أقرب إلى الصواب . وقد يخطىء ويجانب الصواب ، لأن كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون . ولكن الميزة الرئيسية أن له ميزاناً ثابتاً حقاً ، ميزاناً ربانياً ، ميزاناً عادلاً أميناً ، يرد الأمور كلها إليه صغيرها وكبيرها . وقد يخطىء خلال عملية رد الأمور إلى هذا الميزان ، ويكون الخطأ كما ذكرنا مدرسة عظيمة تزيد الخبرة وتقوّم المسيرة . ولا ضير من خطأ في هذا الأمر مادامت النية صادقة ، والقدرة والكفاءة قائمة ، والمؤمن يعرف حدوده ولايتجاوزها ، وهو أواب تواب يعود عن خطئه فيتعلم .

ولكن الخطأ الذي لايقبل أبداً هو أن لاترد الأمور إلى منهاج الله ، ولاتوزن بميزان المنهاج الربّاني ، أو أن ترد وتوزن بميزان آخر . وفي هذه الحالة يتحول الخطأ إلى ضلال وفساد ، والرأي إلى فتنة واختلاف ، والجهد إلى فرقة وشقاق .

لقد رأينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستشير الصحابة في شأن بساط كسرى . فرأى جميعهم رأياً واحداً أشاروا به على أمير المؤمنين ، إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه رأى رأياً آخر قدمه بالحجة . فاخذ به عمر ، وقد اطمأن قلبه إلى هذا الرأي . لقد اطمأن قلب عمر الذي صنعه الإسلام ورباه القرآن ونما فيه الإيمان . فنعم الاطمئنان . إنه اطمئنان قام على إيمان وعلم وموهبة .

وقد يأخذ برأي «الأكثرية» إذا توافرت في الرأي شروطه التي سبق أن عرضناها ، فجعلته أقرب للتقوى ، أو أقرب إلى الصواب .

فالرأي الذي يتقدم ، له دوره الأساسي في الشورى ، إذا حمل معه الجهد المبذول ، والنية الصادقة ، والإيمان المشرق والعلم الموهوب .

إن القضية إذن من حيث الأساس ليست قضية أكثرية أو أقلية . ولكنها شروط يجب أن تتوافر ، وقواعد يجب أن تقوم ، وأسس يجب أن تمارس . إنها

قضية إيمانية وتقوى وخشية من الله ، إنها قضية نية واتجاه وقصد ، إنها قضية علم بمنهاج الله وعلم بالواقع ، إنها قضية قدرة وكفاءة على ممارسة الإيمان ورد الأمور إلى منهاج الله ، إنها رأي يكون عصارة ذلك كله ، وعطاء رجال أهل لهذا كله . فإذا توافرت هذه الشروط كلها تحوطها النصيحة الصادقة ، ويحميها أدب السمع والطاعة ، وتوثقها أمانة البيعة ، ووشائج الأخوة في الله ، إذا توافر هذا كله فإن رحمة الله تحف مجالس الشورى ، وبركاته تتنزل ، لتدفع الجهد البشريّ إلى هدى وصراط مستقيم ، وتعينه في صياغة تنفيذية إيمانية تربط الواقع بمنهاج الله .

فإذا لم تتوافر هذه الشروط والأسس والقواعد ، وإذا دخلت الشحناء والبغضاء ، والغيرة والهوى ، وفسدت النية ، وتعطل العلم ، وصارت النصيحة غشاً ، والسمع والطاعة ذلاً ، فأيّ شورى مؤمنة تقوم ، وأيّ أكثرية ، وأيّ أقلية .

نستطيع من هذا كله أن نخلص إلى أسس يمكن أن تقوم عليها صياغة الشورى المؤمنة :

١ - المجتمع الإيماني .

٢ - الممارسة الإيمانية .

٣ - المؤسسات المتخصصة المؤمنة .

٤ - الادارة الإيمانية .

١ - المجتمع الإيماني :

لانريد أن نستعرض جميع خصائص المجتمع الإيماني هنا . ولكننا نكتفي بإبراز نقاط نعتقد بأهميتها في مرحلة اليوم ، وواقعنا الحاليّ . وسنبرز هذه النقاط بإيجاز للتذكير . فكلها سبق عرضها ، وكلها مفصلة في منهاج الله .

(أ) إن أول صفات المجتمع الإيماني أنه يخضع لمنهاج الله في كل شئون

حياته النامية المتطورة . وإن الخضوع إلى منهاج الله لايعني تعطيل الحياة ، ولا وأد المواهب المؤمنة . ولكنّه يعني أن جميع مستوياته وأفراده وطاقاته يحكمها منهاج الله . إنه يحكم العامل والتاجر والموظف ورجل الدولة. وكذلك فإن منهاج الله يحكم الميادين كلها : يحكم المنزل ، والمدرسة ، والسوق ، والشارع ، والدوائر ، والمجالس ، والهيئات وسائر ذلك ، حتى تكون الأمة المؤمنة الواحدة في الأرض.

(ب) والصفة الثانية التي تنتج عن الأولى أن المجتمع الإيماني يكون أمة واحدة ترتبط برابطة الأخوة في الله ، والأخوة النابعة من عبودية كل فرد لله ، وولائه لله ، فالله ولي المؤمنين ، والكافرون لا مولى لهم . والمؤمنون إخوة . وتمتد الأخوة ليست شعاراً ، ولكنها مسئوليات وواجبات ، تحفظ الأعراض وتمنع الإيذاء وتحمي الدماء ، وتصون الأموال ، وتقطع الظن ، وتمنع الغيبة والنميمة ، وتغذي التعاون على البر والتقوى . وتوثق الأرحام ، وتحفظ الجوار ، وترعى الذمم وسائر وشائج الإيمان ، رعاية جهد ومسئولية وأمانة ، لارعاية شعار وهتاف.

(ج) الأمن في النفوس ، والصدور ، والقلوب . الأمن النابع من منهاج الله ومن روابط الإيمان . الأمن الذي يدفع حرية الرأي على قواعد المنهاج الربّاني .

(د) متابعة «مدرسة النبوة» التي تظل تقدم أجيال الإيمان وجنود الرحمن مزودين بالتقوى ، أقوياء بالعلم ، أغنياء بالتدريب والخبرة والمران .

(هـ) يعرف كل مؤمن نفسه وقدره ، ووسعه وطاقته . يعرف ذلك معرفة إيمان وتقوى نشأ عليها في مدرسة النبوة ومجتمع الإيمان . فلا يدفعه الغرور ليتجاوز حده ووسعه ، ولايهبط به الذل ليهين نفسه . وهو يعرف منازل الناس كذلك ، ويعرف أقدارهم .

(و) للمجتمع الإيماني ميزان ثابت . يزن به كل فرد أمره كله . وهو ميزان لجميع الأفراد والمستويات . إنه مجتمع غير متفلت أو مضطرب . إنه مستقر نام متطور . يدفع ميزانه الأمين نموه وتطوره ، ويحفظ استقراره وأمنه . والميزان الثابت

ميزان ربّاني ، حق ، كامل ، متكامل ، متناسق . إنه ليس من صنع البشر . إنه من عند الله . أما غيره من المجتمعات فميزانها بشريٌ ، مضطرب اضطراب البشر . فإذا نما وتطور فإنما يندفع في مسالك الشر والعدوان ، والفتنة والفساد في الأرض .

(ز) والمجتمع الإيماني بهذه الخصائص يتعارف فيه الناس على إيمان وبر وإحسان . وتبرز فيه الكفاءة والموهبة على أسسها الإيمانية لايقتلها تحاسد وتناجش . ولكنها تندفع من خير إلى خير مصونة أمينة .

ومن هذه الخصائص كلها ، ومن هذه الكفاءات والمواهب ، يبرز أهل الرأي . يعرفون الناس ويعرفهم الناس . يعرفهم الناس جهداً ومعاناة ، وبذلاً وعطاء على أسس التقوى .

فأهل الرأي سمة من سمات المجتمع المؤمن: إنهم لايبرزون بمالهم وجاههم وثرواتهم . ولكنهم يبرزون بقلوب تخشع وعيون تدمع ، وسواعد تدفع ، وعلم ظاهر ، وموهبة متميزة .

(ح) والمجتمع المؤمن يتميز كذلك بأن له رأياً عاماً متميزاً . إنه الرأي العام المؤمن ترتد عنه كل وسائل النفاق . ولقد سبق أن تحدثنا عن الرأي العام في فصل سابق والرأي العام يؤثر في مجال الشورى والشورى تؤثر فيه . والرأي العام المؤمن رأي عام متميز يظل الإيمان هو العنصر الأول الموجه له ، والموجه لسائر العناصر الأخرى المؤثرة .

٢ - الممارسة الإيمانية وخصائصها :

إن المجتمع المؤمن لايستطيع أن يكون مجتمعاً مشلولا ، مجتمعاً لاهياً أو مجتمعاً مستكيناً . إنه مجتمع له أهدافه الواضحة المشرقة في الحياة ، وله نهجه المحدد البيّن ، وله وسائله وأساليبه الإيمانية المتميزة . هذه كلها تحدد طبيعة الممارسة الإيمانية حتى تكون سمة للمجتمع المؤمن . ولكننا أفردنا لها عنواناً خاصاً لأهميتها وخطورتها . وهذه كلها ، الأهداف والنهج والوسائل والأساليب ، وهي تحدد طبيعة الممارسة الإيمانية ، فإنها تضع لها كذلك

خصائصها وعناصرها . وتبرز أهميتها بإيجاز فيما يلي :

(أ) **الشمول والامتداد** : فالممارسة المؤمنة تتناول في حياة الأمة كل الميادين والتخصصات . بل إنها تظل مع نموها تشق ميادين جديدة وآفاقاً جديدة . ومعنى آخر من معاني الشمول هو أن المسلم يتعلم من منهاج الله كيف يعامل الناس جميعا : المؤمن والكافر والمنافق ، وكل نموذج وكل لون . ويتعلم كذلك كيف يتعامل مع هذه الميادين وهذه النماذج في جميع الظروف والأحوال . فإن كان هناك عجزٌ أو تقصير ، أو خطأ وهبوط ، فإنه في همة الإنسان نفسه لا في منهاج الله .

فالشمول في الممارسة الإيمانية يتناول : الميادين ، نماذج البشر ، والظروف والأحوال .

(ب) **المبادرة الذاتية** : ذلك أن المؤمن يحمل حوافزه من عقيدته ، أو يحمل حوافزه الرئيسية كلها من عقيدته . فإن عرضت له الدنيا بحافز فإنما هو حافز تابع لا أساس، تهضمه حوافز الإيمان والعقيدة وتحوله إلى عنصر إيماني ، ودافع عقائدي .

(ج) **المداومة والاستمرار والإتقان** : صفات وسمات حددها كلها منهاج الله قرآنا وسنة . وقد سبق الحديث عنها بما يغني عن التكرار هنا .

(د) **النمو التطور** : فالممارسة هي جهد بشريّ ، يظل يزداد خبرة ومراناً وعلماً، ومع مداومة الممارسة يزداد العمل قوة وإتقاناً . فينمو العمل كمّاً ونوعاً على سنن ربانية ومشيئة إلهية . فجهد المؤمنين ينمو في رعاية الله ، ورحمة منه وعون ، ويظل نموه خيراً وبركة ، لافتنة وفساداً .

(هـ) **المراقبة والتوجيه ، والإعداد والتدريب** : وتبدأ المراقبة بالمؤمن نفسه وهو في خشية من الله ومراقبة له . ثم تمتد في ظلال الأخوة والتعاون والنصيحة والرأي والسمع والطاعة وسائر قواعد الإيمان ، تمتد في حياة الجماعة مراقبة بناءة موجهة ، ومراقبة تعد وتدرب .

وهي حاجة ملحة في حياة الجماعة المؤمنة . تنبع من طبيعة الإنسان الذي

كتب عليه الخطأ . فتقوم المراقبة الحانية لتوجه وتصحح ، وتجعل الخطأ مدرسة لا ركاماً يحجب الرؤية ويشيع الظلام .

وقد سبق عرض ذلك أيضاً في فصول سابقة .

(و) **الموازنة في حالاتها المتعددة** : الموازنة بين الظروف والحالات والنماذج والميادين ، موازنة أمينة تقوم على منهاج ربانيّ . وقد سبق أن أفردنا لها باباً خاصاً .

(ز) **استيعاب الوسع والطاقة** : ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لايكلف نفساً إلا وسعها . وهي مسئولية المؤمن أن يستوعب قدرته وطاقته في ميادين الطاعة على نهج وصراط مستقيم .

(ح) **التخطيط** : إنها طبيعة الإيمان ، طبيعة الإسلام ، طبيعة العبودية لله رب العالمين ، أن ينفي المؤمن عن نفسه الغفلة والحيرة والاضطراب ، وأن يسير على نور وإشراق ولقد سبق أن تحدثنا بإيجاز عن التخطيط .

(ط) **إن الممارسة الإيمانية الصادقة** : تبدأ من لحظة التلفظ بالشهادتين لينطلق المؤمن فيجعل من حياته كلها تطبيقاً وتصديقاً لما تحركت به شفتاه وانشرح به قلبه وصدره .

هذه هي خصائص الممارسة الإيمانية التي يحتاج المؤمن إلى أن يتدرب عليها في مدرسة الإسلام ، مدرسة النبوة ، لتدفع الأجيال دفعاً عبر العصور ، تنشد الجنة وتطلب الدار الآخرة ، على هدى وبصيرة .

٣ - المؤسسات الإيمانية :

(أ) ونعني بها أي مؤسسة في المجتمع المؤمن تقوم بالممارسة الإيمانية في أيّ ميدان من الميادين . وتتميز هذه المؤسسات الإيمانية ليس بالتخصص «العلمي الدنيوي » وحده ، وهو مطلوب وواجب ، ولكنها تتميز بهذا التخصص «العلمي الدنيوي » الذي يقوم على أساس من الإيمان والعلم بمنهاج الله.

كيف نتصور رجلاً مؤمناً بذل كل جهده حتى استوعب تخصصاً علمياً نال

به أعلى الدرجات ، ولكن صلته بمنهاج الله مبتورة أو فاترة .؟ كيف اتسعت طاقته لذلك التخصص العلميّ بكل صعوباته ، وضاقت سعته عن منهاج الله الذي جعله الله ميسراً للذكر ، والذي خلق الله له وسعه أساساً ليستوعب هذا المنهاج الربانيّ قبل غيره .؟

(ب) ثم تمتد هذه المؤسسات الإيمانية لتفي بحاجة الأمة وتتابع الممارسة الإيمانية بكل خصائصها .

(ج) وتحدد مع هذه المؤسسات الإيمانية الحدود والقدرات والأمانة والمسئوليات ، والحقوق والواجبات على صورة نسميها اليوم «**التنظيم الاداري**» . ولكن التنظيم الإداري في المجتمع المؤمن له سماته الخاصة ، وطبيعته المتميزة ، حتى يتحقق من خلال هذا التنظيم أخوة وتناصح وتعاون وحرية رأي وسمع وطاعة ، بصورة متناسقة ، لاتعطل أي سمة من سمات الإيمان وميزات المجتمع الإيماني .

عرضنا هذا كله بإيجاز ، ومنه مايحتاج إلى دراسات مستقلة . ولكن هذه العناصر كلها : **المجتمع المؤمن ، الممارسة الإيمانية ، والمؤسسات الإيمانية** ، ستجعل صياغة الشورى التنفيذية أيسر على المؤمنين ، وأقرب للتقوى ، وأقرب لحاجات الواقع البشري المتجدد .

فإذا لم تتوافر هذه الخصائص فأي شورى مؤمنة يمكن أن تقوم عندئذ ؟ إن الجهد البشريّ سيكون جهداً حائراً ، مضطرباً ، متفلتاً ، سواء أكان ذلك في صياغة الشورى التنفيذية ، أم في الممارسة العملية لها . إنه بغير هذه الخصائص لايستطيع أن ينضبط في مجرى واحد ، تتجمع فيه كل الطاقات تجمع خير وتناسق . ولكن الخلاف يأخذ شكله الشيطاني ، والفتنة تحمل دورها الفتاك ، والشقاق يمزق ويفرق .

١ - الإدارة الإيمانية :

لقد أصبحت الإدارة اليوم علماً خاصاً من العلوم البشرية ، علماً جمع كثيراً من التجارب ونتائجها ، وكثيراً من الجهد البشريّ وثماره . ولاننكر هذه

التجارب البشرية ، ولانرفض كل نتائجها . ولكننا نعترف ، قبل أن ننقد ، أن التجربة الإيمانية لم تشغل حيزاً واسعاً من التجربة البشرية في «علم الإدارة » . وقد يضع علماء الإدارة اليوم تعاريف متعددة تلتقي أو تفترق لمفهوم الإدارة . ولن نستعرض هنا ذلك كله . وإنما نود أن نبرز أهمية «الإدارة» في ميدان الشورى . ويبرز هذا الدور وتبرز أهميته عندما نستعرض أهم الخصائص الإيمانية في «الإدارة » إذ ليس المهم في نظرنا أن نضع جملة محددة لتعريف الإدارة ، بقدر ماهو مهم أن نبرز خصائصها الإيمانية ليخرج التحديد والتعريف بعد ذلك بهذه الصياغة أو تلك ، مستوفياً للصورة مستكملاً للشروط وتتعلق هذه الخصائص الإيمانية بنقاط نوجزها بما يلي ، دون أن نغفل جميع القواعد والأسس السابقة في بحثنا هذا . فالإدارة الإيمانية تحتاج إلى الشورى وتقوم عليها ، والشورى بكل سماتها تحتاج إلى الإدارة .

(أ) الطاقة البشرية : إن الطاقة الإدارية جزء من الطاقة البشرية تقود مجموعة أخرى على أسس وقواعد ونهج لتحقيق أهداف وبلوغ نتائج . ومن هنا يكون أول دور للإدارة مرتبط بهذه المجموعة التي تقودها ، هو أن توفر أموراً أساسية :

١ - توفير التدريب في جو من المراقبة والتوجيه والتعاون ، بما يكفل نمو المواهب والكفاءات ، وتزويدها بالخبرة والمران وقد سبق الحديث عن هذا الأمر في أكثر من فصل سابق .

٢ - دراسة هذه الكفاءات وفهمها من حيث اختصاصها ، ومهارتها ، وسعتها ، وأمانتها ، وجدِّها ، فهماً عادلاً أميناً لايقوم على مجرد الظن والتخمين ، أو الهوى والمصلحة .

٣ - وضع الكفاءة المناسبة في مكانها وجوها المناسب بصورة عادلة أمينة .

٤ - توفير الحوافز الذاتية الإيمانية على أساس من الموازنة . وكذلك توفير الحوافز الخارجية بعد أن تصاغ بصورة إيمانية .

٥ - التنسيق بين مختلف هذه الكفاءات تنسيقاً يحفظ الحقوق والموازنة ، ويدفع الأمانة وصدق الإنتاج والجهد .

(ب) الاستفادة من هذه الطاقة البشرية : إن الاستفادة يجب أن تكون استفادة نقية طاهرة من كل شوائب المصلحة والهوى وبذلك لاتنحصر الاستفادة في ميدان التنفيذ وحسب ، وإنما تنمو الاستفادة مع نمو التدريب والخبرة وصقل الموهبة ، لتعين وتساهم بأسلوب إيمانيّ تدربت عليه في إعداد قرار ، أو توجيهه ، أو صياغته ، أو بلوغه .

فإن تحقق هذا ، فإن العناصر السابق ذكرها قد نجحت في ميدان التطبيق .

(ج) أن يكون للإدارة مهمة واضحة ، وأهداف جلية ، ويتوافر لديها نهج وتخطيط مدروس ، قابل للنمو أو التعديل أثناء الممارسة والتنفيذ . وتبقى المهمة والأهداف والنهج والتخطيط يحمل كل خصائص الإيمان وقواعد المنهاج الرباني .

(د) أن تقدم الإدارة القدوة والمثل في الجهد والكفاءة ، والقدرة والسعة ، والعمل والخُلُق ، لتغذي هذه القدوة كل الحوافز الذاتية والخارجية وتغذي العطاء والبذل ، وتغذي الأهداف والنهج . من خلال الشورى الإيمانية .

(هـ) بناء الثقة والاحترام بين مختلف الكفاءات من ناحية ، وبينها وبين الإدارة من ناحية أخرى . وتقوم هذه الثقة وينشأ الاحترام على أساس من الصدق في القواعد السابق ذكرها ، وعلى أساس من السلطة الإدارية التي تحمي الحقوق ، وتحفظ العدل والأمانة ، وتنهج الخُلُق الإيماني نهجاً عملياً واضحاً .

(و) دفع النمو والتطور في ميدان الإدارة في مختلف أوجه نشاطها وأنماط عملها وكفاءات عناصرها ، بحيث يحمل هذا النمو والتطور ، التجربة النامية ، والممارسة العملية في إطار منهاج الله يغذيه الإيمان ، ويغذي الإيمان ، يقوي العزيمة وتقويه العزيمة .

(ز) اتخاذ القرار الإداري على أساس ذلك كله ، في إطار حدود واختصاصات ، ومسئولية وأمانة .

(ح) بناء هذه الخصائص ورعايتها فيما بين هذه الإدارة وسائر الإدارات في المؤسسة أو المؤسسات الإيمانية ، أو في الأمة المؤمنة كلها ، أو بين المستويات

المتنوعة على ترابط وتناسق يقوي عُرا الأمة الإسلامية الواحدة ويغذي وشائجها ، ويساهم في جعلها أمة متراصة قوية ، لايهزها النفاق ، ولا ينخر فيها الوهن .

إنّ هذه الإدارة الإيمانية ، ليست مقصورة على ميدان المال والشركات وأسواق التجارة ، ولا هي محصورة في ميدان وظائف الدولة ، ولا تنحصر في جو الأسرة والعائلة ، ولاتقف عند حدود الدعوة . إن هذه الإدارة الإيمانية تمتد امتداد الإيمان في الأمة إلى كل ساحة ، وكل نشاط ، وكل أرض ، حتى تتراص أمة الإسلام بنياناً مرصوصاً تحميه القلوب المؤمنة والسواعد الممدودة والألباب الواعية .

إن هذه «**الإدارة الإيمانية** » تحمل معها منهاج الله إيماناً ، وعلماً ، وتدبراً وممارسة ، وزاداً ، وخبرة نامية طاهرة .

وبذلك تصبح «الإدارة الإيمانية » في واقعنا اليوم جزءاً من الصياغة الشورية ، وضرورة ، وحاجة ، بعد أن اتسعت ميادين النشاط ، ووسائل العمل ، والكفاءات البشرية ، وارتبطت الشعوب بمصالح وحاجات ووسائل اتصال سريعة . هذا كله يفرض على الأمة المؤمنة أن تقدم منهاج الله إلى البشرية كلها من خلال هذا الاتساع ، وهذه الوسائل ، دعوة وإدارة ، ومؤسسات ، وشورى ، وتخطيطاً ، ونهجاً ، يبرز تميز منهاج الله في ميدان الواقع والممارسة ، لا في ميدان النظرية فحسب .

هذا كله يفرض على الأمة المؤمنة مسئولية حمل هذا الخير العظيم إلى البشرية كلها ، والبشرية كلها بأمس الحاجة إلى هذا الخير .

إن الأمة الإسلامية ، وهي تحمل هذا الخير العظيم إلى شعوب الأرض ، إنما تعيد الشعوب إلى حقيقة إنسانيتها ، وإلى جذورها ووجودها . ويصبح تعارف الشعوب يعطي معناه القرآني ، ولقاؤها يحقق الأهداف الربانية .

ولكن الأمة الإسلامية لاتستطيع نقل هذا الخير العظيم إذا لم تتمثله هي أولاً نظرية وممارسة ، قانوناً وتطبيقاً ، يحمل عظمة التميز ، بصورة مقنعة ، وحجة دامغة ، وحتى يتحقق قول الله سبحانه وتعالى :

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى: ١٥]

الفصــل الثالث

القــــرار

إن اتخاذ القرار في قضية من القضايا أمر هام وخطير . إن اتخاذ القرار هو أمر خطير سواء بالنسبة للفرد أو بالنسبة للأمة . وإن اتخاذ القرار أمانة عظيمة لايعقل أن يترك دون ضوابط وحدود !

إن اتخاذ القرار هو الخطوة الأخيرة في مسار الشورى . إنه الختام ، إنه النهاية لمرحلة ، والبداية لمرحلة جديدة ، مرحلة العمل والتنفيذ!

١ - مراحل اتخاذ القرار :

إن اتخاذ القرار يمر بمراحل عدة . إذا استوفت كل مرحلة شروطها وخصائصها ، فإن القرار يكون أقرب للتقوى . ولكنه سيظل يمثل جهداً بشرياً فيه خصائص الجهد البشري ، من تفاوت في الوسع ، وقلة في العلم ، واحتمال الخطأ !

وأهم هذه المراحل :

(أ) دراسة الموضوع دراسة مستوفية لكل عناصره ، دراسة تحمل الجهد الحقيقي تدفعه النية الصادقة ، وتمضيه العزيمة ، وصدق التوكل على الله .

(ب) رد الأمر أو القضية إلى منهاج الله ، رداً يستوعب العلم الأمين بمنهاج الله ، والعلم بالقضية ، رداً يستوعب الطاقات البشرية المتخصصة ، يستوعب قواعد الشورى وأسسها ، ووسائلها وأساليبها ، أهدافها وغاياتها ... رداً يغلق كل أبواب الفتنة ويدرأ كل أسباب الفساد ، رداً يعرف فيه كل مؤمن حده ومنزلته ، وحدود غيره ومنزلتهم !

(ج) بروز الآراء المختلفة من خلال الشورى المؤمنة . يحمل كل رأي جهد صاحبه ومعاناته في الدراسة والتدبر ، ورد الأمر إلى منهاج الله . يحمل معه الحجة والبينة والدليل ، من منهاج الله ، قرآناً وسنة . ولايعني الدليل وجود نص

بعينه يطابق هذه بعينها ، فهذا قد يتعذر أحياناً ، أو محال ، لأنه مخالف لسنن الله في هذه الحياة الدنيا ، سنن الله التي اقتضت أن تكون الأحداث والقضايا متجددة تجدداً ماضياً مع الحياة : «**ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله ...** » فكلمات الله لاتنفد ولكن منهاج الله يتسع لها كلها، ولذلك أنزله الله رب العالمين ليتسع لقضايا الإنسان كلها . فإن كان وهن أو تقصير فهو في الجهد المبذول ، أو السعة المتحركة ، أو الطاقة العاملة ، أو الكفاءة الماضية ، هو في أيّ شيء من هذا أو فيه كله ، ولكنه ليس في منهاج الله أبداً !

وليس من الضروري أن تبرز آراء مختلفة فقد يمن الله على الجماعة المؤمنة ، حين ترد قضية إلى منهاج الله ، أن تصل كلها إلى رأي واحد ، أو أن تصل الجماعة المتخصصة المتشاورة إلى رأي واحد . ولكنها احتمالات شتى ، كل منها قابل للحدوث ، ابتلاء من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين . فهو يبتليهم حين يجتمعون على رأي واحد ، ويبتليهم حين ينشأ رأيان متعارضان ، ويبتليهم حين تنشأ آراء متعدده .

والرأي الذي يدخل ساحة الشورى ، هو الرأي الذي يحمل معه البينة والدليل ، والجهد والدراسة ، على حسب ماعرضناه آنفاً . إن آراء الارتجال والظنون ، وآراء الجهلاء الغافلين ، وآراء المرائين المفسدين، إن كل هذه الآراء لاتدخل ضمن بحثنا هنا، وإن كان الواقع البشري أظهر لها دوراً كبيراً في فترات عديدة من تاريخنا ، وتاريخ غيرنا، ولكننا نبحث هنا الصورة الإيمانية التي يتحمل فيها المؤمنون مسئولية التنقية والحماية ، والصون والرعاية. إن آراء الارتجال والظنون وما شابهها لاحساب لها في ميدان الشورى المؤمنة ولذلك كان من بين الصور التي عرضناها هي المؤسسات الإيمانية المتخصصة . حتى يخرج الرأي في عصرنا الحالي يحمل حقيقة لاشعاراً ، جميع الخصائص الإيمانية .

إن ظهور عدة آراء مختلفة ، تحمل كلها أو بعضها الجهد والدراسة ، والبينة والدليل حسب ماعرضناه ، هو أمر طبيعي ، وظاهرة صحية ، مادامت تظهر من قلوب طاهرة ، ونية متجردة .

(د) فلا بد إذن من اتخاذ قرار واصطفاء رأي من هذه الآراء . ولابد أن نحدد إذن الأسس التي يقوم عليها اصطفاء رأي ، ولابد من تحديد الجهة التي تتحمل مسئولية القرار في الدنيا والآخرة ، تتحمله أمام الجهة المسئولة في الدنيا ، وتتحمل مسئوليته بين يدي الله سبحانه وتعالى يوم يقوم الأشهاد .

ونحن لانتحدث هنا عن ميدان محدد ، أو مستوى معين . فما أسرع ماتتلفت القلوب والعيون والأذهان والأعصاب ، إلى الحكم والدولة وتحصر الرؤية فيها . ما أسرع مايحدث هذا حتى حين يكون بيننا وبين الدولة مسافة ، حتى حين تكون الدولة لاتزال أملاً أو رغبة . إننا ننسى أن الشورى تشمل حياة الفرد المؤمن والجماعة المؤمنة ، والأمة المؤمنة ، تشمل الدعوة والجهاد والحكم ، تشمل كل نشاط وكل ساحة ، في كل عصر وفي كل ظرف .

لذلك ، حتى نستطيع أن نتابع العرض والبحث ، لابد أن تأخذ القضية شمولها في أذهاننا وأعصابنا وقلوبنا وفكرنا . وبذلك ندرك معنى كلمة **«المسئولية»** و **«الأمانة»** في منهاج الله . حين لانحصرها في رجل الدولة ، حين يصبح كل مؤمن مكلف شرعاً مسئولاً ، يحمل قسطاً من الأمانة ومستوى من المسئولية . إنها مسئولية كل فرد ، وكل مستوى . فلا يوجد مكلفون في الإسلام دون مسئولية ، ودون محاسبة في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

٢ – أسس اتخاذ القرار :

وبذلك يصبح أمامنا قضيتان :

١ – كيف يختار الرأي الأصلح والأتقى .

٢ – الجهة التي تمارس مسئولية الاختيار وأمانة القرار .

إن أسس اختيار الرأي الأصلح والأقرب للتقوى ، هي في الحقيقة جميع ماعرضناه في هذا البحث كله ، أو أن هذا البحث كله يمثل جزءاً من أسس اختيار الرأي . ولكن جميع الأسس يمكن أن تضمنها قاعدتان : هما منهاج الله والواقع البشري الذي نفهمه من خلال منهاج الله .

إن الرأي يجب أن يكون ثمرة جهد مؤمن ، ومعاناة مؤمنة وعلم مؤمن .

إن جميع الآراء التي تتوافر فيها هذه الصفات كلها ، يجب أن ترد إلى منهاج الله رداً يحتاج إلى إيمان صادق وعلم واسع وموهبة ظاهرة .

إن جميع هذه الآراء بعد ردها إلى منهاج الله «تصفى» ، أي تفرز الآراء التي ابتعدت في أمر من الأمور عن منهاج الله .

والآراء المتبقية، يختار منها رأي واحد يلتزم به الجميع .

إن هذه الخطوات لاتتم بصورة آلية ولكنها تتم متناسقة من خلال الجهد البشريّ تنمو معه وتنمو مع الحياة الإيمانية كلها ، وتنمو مع نمو وسائلها وأساليبها مهما تنوعت ، ونبغت هذه الأساليب والوسائل فإنها ستظل في خدمة الرأي المؤمن ، والكلمة المؤمنة في المجتمع المؤمن والأمة المؤمنة .

إن أجهزة الاتصال الحديثة ، وأجهزة التصوير ، وأجهزة الكمبيوتر وأيّ أجهزة أخرى تأتي بها الأيام ، سيكون لها دورها في دفع الجهد البشري في إعداد الرأي ، وفي رده إلى منهاج الله ، وفي تنقية الآراء واصطفائها ، وربما في اتخاذ القرار كذلك . لأنه بواسطة هذه الأجهزة يمكن أن تتجمّع المعلومات الضرورية لبناء القرار.

ولكن الجهد البشريّ سيظل مدى الحياة هو محور أي نشاط آلي ، مهما عظمت الآلة ، أو نبغت الوسيلة سيظل الإنسان ، كما خلقه الله سبحانه وتعالى ، هو نفسه يحمل :

- **الأمانة التي عرضت على السموات والأرض .**

- **الاستخلاف في الأرض بكل آفاقه التي حددها منهاج الله .**

- **العبودية لله رب العالمين .**

- **الابتلاء الذي كتبه الله عليه ليمحصه ويميزه ، لتُختبر الأمانة ، والاستخلاف والعبودية.**

إن الآلة والأجهزة والوسائل كلها لاتحمل من الأمانة والاستخلاف والابتلاء شيئاً . إنها كلها مسخرة للإنسان أينما كانت ، وحيثما كانت .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) ﴾
[لقمان: ٢٠]

إن عملية البحث عن الرأي «الأصلح أو الأتقى» بين عدة آراء مؤمنة ، هي عملية مهمة قبل اتخاذ القرار . إن هذا البحث والتحرّي لهذه الآراء المؤمنة ، هو أمر مختلف عن اتخاذ القرار ، وهو مرحلة سابقة .

وخلال هذه المرحلة وخلال هذا البحث ، تشترك جهود وطاقات بشرية مؤمنة، قادرة ، تتمثل في أي شكل إداريّ أو مؤسسة إيمانية على ضوء مايفرضه الواقع البشري المؤمن . وهذا البحث يمثل آخر مراحل الشورى . إنه جزء منها ولكنه يأتي في ختامها .

وهذا البحث ، يجب أن لانتصوره جلسة تضم عدداً من اللاهين ، يقتلون أوقاتهم المرنحة بجدل ومراء ، دون نهج أو تخطيط . وبصورة عامة فهو ليس جلسة أو جلسات ، وهو ليس حديثاً وجدلاً ، وهو ليس أقوالاً وخطابات . إنه دراسة ، وتدبر ، وتناصح ، وجهد ، ومراجع ، وعبادة ، وقيام ليل ، ودعاء وابتهال ، واستخارة . إنه ذهاب وإياب ، وسفر وترحال ، قد لايكون فيه راحة أو قعود، إنه عمل، إنه عبادة، إنه طاعة، إنه مسئولية، إنه أمانة .

وهذا البحث ، أو هذه المرحلة قد تنتهي بتزكية رأي واحد أو أكثر من رأي . وبذلك يكون الانسان قد بذل جهده الحقيقي في محاولة شورية يقترب فيها من التقوى .

وهذه الآراء المصطفاة تكون مستوفية لكامل شروطها الإيمانية ، أو هي أكثر استيفاء . وربما تحتاج إلى مراجعة واستكمال ، فتراجع وتستكمل كلها أو بعضها . حتى تطمئن النفوس إلى أنّ الرأي قد استوفي ، وأن الكلمة قد طابت .

ويقوم بهذا البحث رجال أو هيئات أو مؤسسات إيمانية . إنهم يمثلون جزءاً من أهل الرأي .

٣ - الجهة التي تتخذ القرار :

أما الجهة التي تتخذ القرار فهي الجهة المسئولة في هذا المستوى أو ذاك . إن الجهة المسئولة التي سيحاسبها الله عن القرار المتخذ ، والتي سيحاسبها المستوى الأعلى منها ، والتي ستحاسبها الأمة المؤمنة، إن هذه الجهة المسئولة هي التي تتخذ القرار ويصبح بعد ذلك ملزماً . دون أن يتعارض هذا مع استكمال أي إجراءات تنفيذية يتطلبها الواقع النامي. إن الجهة المسئولة ليست عدداً ، وليست فرقاء يتبارون في أكثرية أو أقلية .

لقد أصبح أمام الجهة المسئولة رأي واحد أو أكثر كلها مطابقة لمنهاج الله ، وكلها مستوفية لشروط الرأي المؤمن ، كلها اشترك في دراستها وإعدادها متخصصون أو هيئات متخصصة أو مؤسسات متخصصة . كلها اشترك في تمحيصها وتنقيتها واصطفائها رجال أو هيئات أو مؤسسات متخصصة إيمانية . والجهة المسئولة تشارك في كل مرحلة ، وفي كل خطوة ، وتقدم رأياً ودراسة وجهداً إن الجهة المسئولة هي التي تتخذ القرار الملزم .

والجهة المسئولة في أي مستوى تحدد على أساس أمرين :

- منهاج الله قرآنا وسنة .

- التنظيم الإداري النابع من خطة الأمة ونهجها المستقاة من منهاج الله قرآناً وسنة .

فإذا تحددت الجهة المسئولة والمحاسبة «شرعاً» و «إدارياً» فقد أصبح من واجبها الشرعي أن تعكف على مابين يديها من آراء مع دراساتها ودلائلها ، حتى تتخذ قراراً تسأل عنه بين يدي الله ، دون أن تكون معزولة عن الجهود السابقة .

إذا غاب هذا التصور عن الأفئدة فلن تنفع أكثرية ولاأقلية . إن الأكثرية لاتمثل بصورة مطلقة الحق المطلق . إن الجهة ، عندما تتخذ قراراً على هذه الأسس، وتتوافر فيه هذه الشروط ، إن هذه الجهة لن تكون مستبدة أو دكتاتورية. إن المسئول ، بهذه الشروط ، يكون قد استفاد من جميع الطاقات والمواهب حوله، يكون قد صان حرية الرأي لكل ذي رأي ، ودفع عن الأمة هوى كل ذي

هوى . إنه يكون قد حقق التناصح والسمع والطاعة في مستواه الذي هو مسئول عنه .

نحتاج هنا إلى وقفة قصيرة ، إن هذه المراحل لاتتم بصورة آلية ، تستقل فيها كل مرحلة عن المرحلة السابقة ، لا ، إنها عملية يتحرك فيها الجهد البشري بكل مايملك من إيمان وعلم وموهبة ، من خلال تنظيم إداريّ ومؤسسات إيمانية ، حيث تتداخل المراحل وتتناسق على قدر مستوى الجهد البشري ، على قدر مستوى الكفاءة والموهبة ، على قدر مستوى العلم ، على قدر مستوى الإيمان والعزيمة والتصميم .

إنها تمضي على قدر مستوى الطاقة البشرية العاملة ، على قدر الوسع ، والجهد ، والعبقرية التي تجعل الإدارة الإيمانية والمؤسسات الإيمانية نموذجاً فذاً في تحقيق الإيمان وتصديق العبودية ، وأداء الأمانة والاستخلاف ، والمضيّ على سنة الابتلاء في جهود وعزائم مؤمنة نامية ، متطورة ، صادقة ، تتقن عملها وتسعى إلى الإتقان تحقيقاً لإيمانها وعبوديتها . ومن هنا ، من هنا تنبثق قدرة النمو والتطور في الجهد البشري المؤمن . إنه نمو وتطور يتميز بأن له منطلقاً واضحاً وهدفاً واضحاً . إنه النمو الذي يباركه الإيمان ويغذيه الإيمان، إنه النمو والتطور الذي يسعى إلى الإتقان الذي أمر الله به ، وإلى التقوى التي أمر الله بها . عندما تعجز الطاقات المؤمنة ، أو تهبط في مهاوي الخدر السحيقة ، أو تشلها الرغبات والأهواء المجنونة ، عندما يحدث هذا ، تتلفت حولها لترى الشعوب الأخرى ، بكل ضلالها وفسقها ، صاعدة مع الصواريخ والأقمار الصناعية والتطور المادي الرهيب . لترى مارداً جباراً ، وعملاقاً يسد عليها الأفق ، ويغلق المنافذ ، ويخنق الأنفاس . فتحسب أن هذا هو النمو والتطور ، وأن ماهي فيه تخلف وهبوط .

نعم إن ماهي فيه يحمل من التخلف والهبوط الشيء الكثير ، ولكنه يحمل جذوة لو أطلقتها لأضاءت بها الدنيا. وكذلك فإن ماحسبته نمواً وتطوراً لم يكن يحمل هذه الجذوة ، بعد أن بترها أهلها من حياتهم ، وقطعوها من نظامهم ،

وفصلوها عن فكرهم ، إلا بمقدار ماتحمل لهم من مصالح فاسدة ، وشر عارم يلقون به على الدنيا .

٤ - الأكثرية والمسئولية :

ولقد حملت هذه الحضارة التائهة نظام الأكثرية قانوناً مطلقاً . فحسبناه ، ونحن في تخلفنا ، أنه كذلك . إن نظام الأكثرية ، أو أي نظام آخر يستحدثه الإنسان أي إنسان ، لايمكن أن يمثل في هذه الحياة الدنيا حقاً مطلقاً ، حقاً يصلح لكل العصور والأجيال والشعوب والظروف والأحوال . إن الحق المطلق الذي يصلح لذلك كله لايمكن أن يصدر إلا عن رب ذلك كله : رب العصور والأزمان ، رب الشعوب والأجيال ، رب الظروف والأحوال ، إنه رب العالمين ، رب العرش العظيم .

فالحق المطلق هو منهاج الله أما الجهة التي تتخذ القرار فهي الجهة المسئولة في هذا المستوى أو ذاك . إنه الحق الذي أنزله الله من السماء على عبده محمد ﷺ إنه الحق الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . إنه الحق الكامل المتكامل .

و «الأكثرية» وقرارها ليست قاعدة ربانية من قرآن أو سنة . إنها قاعدة بشرية وضعتها عقول بشرية ، ولم ينزل بها وحي من السماء كسائر القواعد الربانية .

إن هذه القاعدة البشرية «قاعدة الأكثرية» ، إن صلحت ، فإنها تصلح لحالة خاصة وظرف خاص . لأنها ليست قانوناً مطلقاً من عند الله .

ولقد رأينا في الأمثلة التي سقناها عن الشورى نماذج ومواقف لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ولأبي بكر رضي الله عنه ، ومن قبلهما لرسول الله ﷺ ، لم يبحث أحد منهم عن الأكثرية فيها ، لسبب أو لآخر . ولا داعي أن تتحول قضايا المسلمين إلى جدل ، لنحاول أن نثبت أن الأكثرية عادت واقتنعت بالرأي الجديد المطروح ، ولذلك نفذ . إن هذا أسلوب جدلي لايساعد على الوصول إلى الحقيقة . إنه أسلوب يتعارض مع نص كلام أبي بكر رضي الله عنه بخصوص حروب الردة عندما عارضه الجميع ، وليس الأكثرية قال لهم :

(والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف بيدي)

إنه يعلن مضيّه للقتال وعزمه على ذلك رغما من معارضة الإجماع أو الأكثرية .

وظل عمر بن الخطاب يرى رأياً مغايراً له دليله وبينته . ولكنه ، لما رأى إصرار أبي بكر ، عرف أنه الحق . لا لأن الدليل أقنعه ، ولا لأن النقاش أقنع. عرف أنه الحق لأن أبا بكر أصر على ذلك .

(فوالله ماهو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق ..)

وأبو بكر رضي الله عنه يقول لعمر رضي الله عنه عندما راجعه في ذلك :

(رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك ، جباراً في الجاهلية خواراً في الإسلام ..) .

ومضى أبو بكر على عزيمته ومضى معه الصحابة . وأصبح القرار قرار الأمة ، تتحمل كلها مسئولية نجاحه ، سواء منهم من عارض أو آزر . فالأمة صف واحد وحزب واحد ، وقد أصبحت بعد قرار أبي بكر وعزيمته رأياً واحداً . ومضى الصحابة على رأي أبي بكر لأن أبا بكر كانت معه بينة ، وكذلك كان عمر بن الخطاب . لكن إصرار أبي بكر على رأي مستوف حقوق الإيمان والعلم والواقع والمسئولية ، مستوف للشورى ، جعل الصحابة رضي الله عنهم يسمعون ويطيعون . فكانت ممارسة إيمانية رائعة ، اجتمعت فيها كل عناصر الإيمان مترابطة ، متناسقة ، صادقة : تناصح صادر عن منهاج الله ، تناصح يحمل البينة والحجة ، تناصح يحمل المسئولية والأمانة ، نية خالصة ، وتجرد مشرق وضيء ، إيمان صنعته الميادين والبذل والعطاء ، علم بكتاب الله وسنة نبيه ، معرفة الحدود والمنازل ، حرية أمينة في الرأي المؤمن ، موازنة فيها جهد ومعاناة ، سمع وطاعة على بيعة ووفاء. إنها ممارسة تظل مشعلاً للبشرية كلها ، لتجثو أمامها تتأدب وتتعلم . فلا نضيع عظمة هذه الخصائص الإيمانية بمحاولة جدلية ، تثور في حمى الأكثرية والأقلية .

وموقف آخر : أخذ أبو بكر رضي الله عنه برأي إجماع الصحابة رضي الله عنهم ، الذين كانوا في مجلسه ، حين أشاروا بإقطاع عيينة بن حصن والأقرع بن

حابس أرضاً . وجاء عمر مغضباً ، كما مر معنا سابقاً ، فقال ثم أضاف : أو كل المسلمين أوسعت مشورة ورضى ؟

لم ينكر عمر على أبي بكر رضي الله عنهما حقه في اتخاذ قرار وإنما أنكر عليه اتساع الشورى أو ضيقها .

إن المسلمين اليوم بحاجة إلى تثبيت الخصائص الإيمانية للشورى كما أمر الله بها في منهاجه الرباني أولاً قبل أن نصوغ أي قاعدة بشرية ، تتآكل في أجواء تموت فيها النصيحة ، وينحسر فيها الرأي ، ويضطرب السمع والطاعة ، وتختل الموازنة . في هذه الأجواء المحمومة المضطربة ، لن تفيد أي قاعدة بشرية ، ولا أيّ صياغة بشرية ، وقد غابت قواعد الإيمان واضطرب الميزان وهاج الهوى ، وغلب الجهل ، وهبت المصالح .

ومع هذا كله ، فلا نسقط وزن الأكثرية المؤمنة ، والأكثرية التي صنعها القرآن ورباها الإيمان وصقلها الميدان . ستظل هذه الأكثرية ردءاً يدفع أيّ انحراف عن منهاج الله ، وعوناً يدفع مسيرة الإيمان ، وجنداً يحفظ الصف المؤمن متراصاً لايتمزق في خلاف ، ولايتهاوى في فتنة .

إن «الأكثرية» المؤمنة المتميزة بكل الخصائص الإيمانية التي سبق ذكرها ، في أي مستوى من المستويات ، أو أي ساحة من الساحات ، ستظل هذه الأكثرية تحمي إيمانها وعقيدتها ، فلا يتسرب إلى مسئوليتها جاهل ، ولامنافق ، ولا صاحب هوى . سيظل على مسئوليتها من هو أهل لمستواها هي . فإن تدنت هي تدنى ، وإن علت علا ، وإن هانت هان .

وفي هذا الجو الإيماني المترابط المتراص ، جنوداً وقادة ، ستظل «الأكثرية» تؤدي دورها الإيماني الحق ، وتبذل بذلها الصادق ، دون أن تكون فئة مستقلة أو حزباً معزولاً عن الأمة . ولكنها «أكثرية» مترابطة مع الأمة كلها ، وقد تتبدل عناصرها في هذه القضية أو تلك . ذلك أن الحق أو ماهو أقرب إليه ، هو هدف كل فرد ، وهدف الأمة كلها ، تلتقي عليه ، وتسعى إليه وتبحث عنه ، وتتحراه . تميل مع الحق ولايميل الحق معها .

إن الهدف هو الحق فحيثما وجده اتبعه ونصره . إنه لاينصر عائلة ولا قبيلة ، ولا قومية ، ولا جماعة ، ولا رجلاً إلا نصرة الحق ، ونصرة دين الله ، ونصرة أمر الله . عندما تنير هذه النظرة قلب المؤمن ، وتجلو ضلوعه وجوارحه ، وتغسل دمه وأعصابه عندما يرتبط المؤمن ببيعة مع الله ورسوله ، مع دينه وأحكامه ، عندما تتعلق القلوب كلها خاشعة لله ، صادقة مع الله ، مرتبطة مع الله في عبودية عزيزة، واستخلاف كريم ، عندما يحدث هذا ، تجتمع القلوب كلها على أمر واحد لاتتفرق ، وتنتظم على نهج واحد لاتتمزق ، وتسعى في مجرى واحد لاتتشتت، عندئذ تقوم الأمة المؤمنة أمة واحدة لها ربّ واحد ، ودين واحد ، ونهج واحد ، وهدف واحد، عندئذ تقوم الشورى المؤمنة ، فيدلي كل بجهده في إطار مسئوليته وأمانته ، ووسعه وطاقته ، وقد عرف منزلته وحدوده ، ومنازل غيره وحدودهم . عندئذ تصبح «الأكثرية» لها معنى آخر ، ووجود آخر غير ماعرفناه في اصطلاحات عصرنا الحالي ، عندئذ تكون الأكثرية أو الأقلية لاتمثل تكتلاً متحجراً ، ولا عصبيّة جاهلية ، ولا عناصر محدودة ثابتة ، عندئذ سيعرف كل مؤمن دوره وأمانته ، وستصوغ الأمة المؤمنة الشورى صياغة إيمانية صادقة ، نقية من كل خلافات عصرنا الحالي ، وجدل أيامنا الحالية . وحيرة الشباب الممزقين بين عشرات الآراء ، عندئذ ستخضع «الأكثرية والأقلية » لقاعدة السمع والطاعة ، كما تخضع لغيرها من قواعد الإيمان ، عن وعي وإدراك ، ومسئولية وأمانة ، وستمضي الممارسة الإيمانية بكل شمولها وصدقها ووعيها ، لتجعل الأمة صفاً واحداً ، عاملاً قوياً ، لا قطيعاً يساق . وعندما يصدر القرار عن الجهة المسئولة في هذا المستوى أو ذاك ، بعد أن تمت الشورى الإيمانية ، يصبح القرار ،. قرار الأكثرية والأقلية ، قرار المؤيد سابقاً والمعارض ، قرار الإدارة ، قرار الجماعة، قرار الأمة ، ليكون المؤمنون صفاً واحداً ، يمضون على سمع وطاعة ، وخشوع وإنابة ، وثقة وتوكل على الله . فليس بين المؤمنين حزب معارض متحجر على المعارضة ، وحزب مؤيد متحجر على التأييد . ولكن المؤمنين حزب واحد وأمة واحدة ، بعد صدور القرار ، وقبل صدور القرار أيضاً . ولكن حرية الرأي كانت تمضي في ممارسة إيمانية طاهرة واعية . وبعد صدور القرار يمضي التنفيذ من

الجميع في ممارسة إيمانية طاهرة واعية .

من هذا كله نرى أن اتخاذ القرار وصياغته وإعلانه ، يمثل الخطوة الأخيرة في مسيرة الشورى ، في المسيرة الطويلة لرد الأمر إلى منهاج الله رداً أميناً ، رداً تلتقي عليه جهود أهل الرأي ، والمؤسسات الإيمانية وتنسق الجهود كلها الإدارة الإيمانية ، على تعاون صادق يحقق أمر الله سبحانه وتعالى :

﴿ .... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ... ﴾
[المائدة: ٢]

المراحل السابقة كلها ، والخطوات السابقة كلها ، كات تعمل لتمهد لهذه المرحلة الهامة الخطيرة ، ولتصب عصارة الجهد البشريّ المتعاون ، والجهد المؤمن المنسّق ، والإدارة المؤمنة الجامعة ، لتصب عصارة العقول والقلوب ، والنوايا والإيمان ، والعلم والمواهب ، لتصب عصارة ذلك كله في هذه المرحلة الأخيرة ، مرحلة اتخاذ القرار وصياغته وإعلانه ، ثم تنفيذه .

إن هذا التصور ينطبق على كل مستوى من مستويات المسئولية ، المستويات التي حددتها الإدارة المؤمنة ، والتنسيق المؤمن . وفي كل مستوى يجب أن تتوازن المسئوليات والصلاحيات في أمانة الرجل المسئول ، حتى تظل الموازنة الأمينة قائمة ، تسمح للإدارة بالتنسيق والتعاون ، وجمع الجهود وتوجيهها .

بذلك ، يصبح الامتحان أمام الرجل المسئول ليؤدي أمانته ، ويوفي بعهده ، ويصدق بممارسته . هذا ، إذا كان قد وصل إلى هذه المسئولية على أسس سليمة إيمانية ، على أسس من الإيمان ، والعلم ، والموهبة والخبرة . هنا ينفتح المجال للرجل المسئول كي يمارس إيمانه وعلمه وموهبته وخبرته ، وقد وضعت بين يديه جهود العقول والألباب ، والإيمان والمواهب . هنا يكون ابتلاؤه وامتحانه ، ليتخذ القرار ويصوغه ويعلنه . إنها مسئوليته هو وقد بذلت جهود كبيرة في الأمة ، وعملت طاقات متعددة ، حتى حددت هذا المسئول وذاك المسئول . فما وصل رجل إلى المسئولية إلا وقد عملت طاقات الأمة كلها ، على أحدث وأصدق

الوسـائل التي يبـرزها الواقع البشـريّ المؤمن ، هنا وهناك ، كل في مجـال اختصاصه ووسعه ، وقدرته وأمانته . وهنا تتضح الصورة المشرقة لمعنى المسئولية وشمولها في حديث رسول الله الذي سبق عرضه : «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ...**» .

٥ - أسس تحديد المسئولية :

وحتى نستكمل الصورة ، ونستوعب أهمية المسئولية والصلاحيات ، في ميدان الممارسة والواقع ، نشعر بأهمية تحديد الأسس والعناصر التي تستطيع الأمة أن تحدد بواسطتها المسئولية والصلاحية ، هنا وهناك ، على صورة متوازنة أمينة ، تحقق سلامة ممارسة الشورى ، وسلامة اتخاذ القرار .

نرى أن هنالك عناصر خمسة رئيسية :

(أ) عقيدة الأمة ومنهاجها العام إنه المنهاج الرباني قرآناً وسنة . إنها أعظم عقيدة عرفها الانسان ، وأصدق منهاج عرفته البشرية . ومن أهم خصائصه أنه يظل هو المعين الذي تعود إليه البشرية ، والظل الذي تفيء إليه ، والركن الذي تأوي إليه ، على مر العصور وكرّ الدهور ، حقاً مطلقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهو الذي تردّ إليه القضايا كلها ، وهو مناط الشورى ، ومصدر الممارسة .

(ب) المنهج المرحلي للأمة وخطتها العامة ، التي تضعها على أساس من منهاجِ الله والواقع البشري الذي نفهمه من خلال منهاج الله . ونضرب على ذلك مثلاً بنماذج ثلاثة :

(ب.١) الكتاب الذي وضعه الرسول ﷺ أول دخوله المدينة المنورة ، وحدد فيه حدود كل فئة ، ونظم العلاقات ، وأقر أسس التعاون ، وبين الحقوق والواجبات لكل من كان يشملهم الواقع البشري آنذاك .

(ب.٢) خطبة أبي بكر رضي الله عنه حين تسلم الخلافة .

(ب.٣) خطبة عمر رضي الله عنه ، حين تسلم الخلافة .

(ج) النهج المرحليّ لكل ميدان من الميادين ونضرب مثلاً على ذلك بما أعلنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه من سياسة عسكرية ، ومالية وقضائية ، وإدارية . ويقوم هذا النهج المرحليّ كذلك على القاعدتين السابقتين : منهاج الله ، والواقع البشريّ المؤمن ، من خلال جهود بشرية ، قادرة ، متخصصة .

(د) الخطة الإدارية العامة ، التي تنسّق الجهود ، وتوجه القدرات ، وتحمي المواهب ، وتدفع السواعد كلها في مجرى الخير والنور ، والبركة والعطاء . وهي الخطة التي تحدد المسئوليات والصلاحيات وتوزعها على مستويات الأمة كلها .

(هـ) القوانين التي تغطي حاجة الأمة ، وتجيب على قضاياها المتجددة ، والخطة العامة ، والنهج المرحلي لكل ميدان ، والخطة الإدارية ، والقوانين ، هذه كلها يجب أن تنبع من عقيدة الأمة ومنهاجها العام وواقعها الذي تعيشه ، وهذه العناصر الأربعة تظل تنمو وتتطور بالجهد البشري المؤمن ، ومع الممارسة الإيمانية والعمل الصالح ، محوطة دائماً بالعقيدة الثابتة والحق المطلق ، منهاج الله قرآناً وسنّة .

إذا تابعنا سيرة الرسول ﷺ ، وحياة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، رأينا بشكل واضح هذه العناصر الخمسة تقود الشورى وتصدر القرار ، وتحدد الصلاحيات والمسئوليات .

وإننا اليوم ، في واقعنا الحالي، نشكو من تفلت كثير من الناس من هذه العناصر كلها أو بعضها.

إن القضية الأولى التي نثيرها، والقضية الخطيرة التي نعرضها، هي الضعف البارز في فهم الناس لمنهاج الله، وفهم الناس للواقع من خلال منهاج الله . إن هذا الضعف أثر تأثيراً هاماً في مسيرة الأمة لقرون طويلة. لقد كان أحد الأسباب الهامة وراء كثير من النكبات، وكان السبب الرئيس لغياب النهج المرحلي العام، لكل ميدان، والخطة الإدارية، والقانون النامي المتطور.

ولا عجب أن كان من أثر ذلك أن ركض الكثير من المسلمين، ومن بعض

الكتّاب، يجرون لاهثين وراء بريق الديمقراطية، أو الاشتراكية، أو القومية، أو مترددين بين ذلك، وبين غير ذلك من رايات وشعارات، تحمل البريق الكاذب، والطلاء الخادع.

إن عدم توافر المنهاج المرحلي العام للأمة، يدل على عجز الأمة عن دفع خطواتها في ممارسة إيمانية واعية، مهما علت الرايات، وخفقت الشعارات، وبحّت الحناجر، ودوّت الساحات. إنه يدل كذلك على تدني المواهب أو تشتتها، أو تفلتها وضياعها. إن النهج المرحلي العام يحتاج إلى مواهب حقيقية، لتصوغه من خلال العقيدة والواقع، صياغة ترسم تفاصيل الدرب، ومرامي الأهداف. إن غياب هذا النهج العام، يعني كذلك غياب سائر العناصر التالية التي حددناها سابقاً. بذلك تتوقف مسيرة الأمة أو تضطرب خطاها، أو تجمد على قوالب حديدية لا تسمح بالحركة ولا بالعمل. إنها صورة تتعارض مع حقيقة الإيمان، ومتطلبات العلم، وانطلاقة المواهب، وتوجيه الخبرة. وبدون ذلك كيف يمكن للشورى أن تقوم، وكيف يمكن للقرار أن يتخذ؟

وعندما تتوافر هذه العناصر الخمسة في حياة الأمة، فإن الشورى تستطيع أن تمضي في مراحلها المختلفة، حتى تصب الجهود والمواهب، والخبرات، في مكان المسئولية لتتخذ هي القرار، على مشورة صادقة ونصيحة أمينة، وسمع وطاعة، ووفاء بعهد، وإخبات لله وخشوع، ونيّة صادقة لله رب العالمين. على هذا النحو تعمل المؤسسات الإيمانية، ومراكز المسئولية المختلفة، وتنهض الدراسات والأبحاث، لتجمعها الشورى، والخطة الإدارية، والنهج المرحلي والنهج العام، ليجمعها كلها منهاج الله، في مراكز المسئولية ، لتتم الخطوة الأخيرة من التعاون والتناصح ، ليتخذ المسئول المحاسب الرأي الأقرب للحق ، والأقرب للتقوى ، على موازنة أمينة ، من آراء متعددة ، حمل كل رأي جهد صاحبه أو أصحابه ، وصدقهم ، ونصحهم ووفاءهم بعهدهم لله . هنا يكون الابتلاء والتمحيص للمسئول المحاسب ليمارس ، إيمانه وصدقه ، وعلمه ووسعه ، وموهبته وخبرته . والمسئول مشارك في المراحل كلها ، متابع لها ، ورأيه واحد من الآراء التي بين

يديه ، والتي يتحمل مسئوليّة الموازنة بينها ، ليختار ، ليقرر ، لينصح لله ولكتابه ولرسوله وللأمة . وبذلك يصبح القرار قرار الأمة ، سواء أكانت معه الأكثرية أم لم تكن ، لأن الأمة وضعت فيه خلاصة خبراتها ومؤسساتها ، ومراكز المسئولية ، والمعاهد ، والعلماء وأهل الاختصاص ، حيث يوسّد كلّ أمر إلى أهله ، لايعجب كل ذي رأي برأيه ، ويظل منهاج الله يحكم حقيقة لا شعاراً .

فإذا لم تتوافر هذه العناصر ، فسيقوم الاستبداد ، أو تطغى الفوضى ، ويسود الهرج . وهذه الحالة ليست هي التي وضع الإسلام لها نظام الشورى . فليبحث الناس ، إذا لم يفيئوا إلى الإسلام ، عن أكثرية أو أقلية ، فلن تنجيهم هذه أو تلك ، وقد فسدت النيّة واضطرب الإيمان ، وهبط العلم ، ووسّد الأمر إلى غير أهله . فالواجب الأول في هذه الحالة هو أن تنهض الأكثرية لتدعو الناس إلى الإسلام ، ليفيئوا إليه فهذا هو دورهم ، وهذه هي مهمتهم أولاً وقبل كل شيء .

فإذا توافرت هذه العناصر في الأمة ، أمكنها أن تنطلق بالشورى في مراحلها كلها ، وتختمها بالقرار الذي يتخذه المسئول المحاسب ، في هذا المستوى أو ذاك على نهج وخطة وإدارة ، تبين حدود كل مستوى ، وصلاحية كل مسئول ، على موازنة أمينة .

والذي يجب أن نلتفت إليه ، ونحن ندرس هذه العناصر الخمسة اللازمة لكل واقع ، هو الواقع نفسه ، والإنسان الذي يمارس منهاج الله في هذا الواقع .

لقد كان رسول الله ﷺ نبياً ورسولاً ، وقائداً ومعلماً ولقد كان قائد الأمة في الحرب والسياسة ، والاقتصاد ، والتربية والإجتماع ، وسائر ميادين الحياة ، والوحي يتنزل عليه . فكان رسول الله يصدر القرار هو نفسه في هذه الميادين كلها. ومع ذلك فقد كان ولاته وأمراؤه ، يتخذون القرار ويصدرونه ، مادام في نطاق مسئوليتهم وأمانتهم ، وقد علّمهم نبيهم ، ودرّبهم ، ووضع كل موهبة في مكانها الحق ، وتعلمت أسس الشورى التي تعينها على اتخاذ القرار .

وجاء الخلفاء الراشدون وكان كل رجل مهم رجل حرب ، وقائد سياسة ، ورجل اقتصاد ، على تفاوت في قوة الموهبة هنا أو هناك . ولكنها كانت موهبة فذّة .

ولكن واقعنا اليوم ، لم يعد يسمح للرجل الواحد ، في أي مستوى من مستويات المسئولية ، أن يكون خبير اقتصاد ، وخبير حرب ، وداهية سياسة ، ورجل تربية ، ومخطط عمران ، وعالم نفس ، وعبقري أدب .. الخ . لم يعد اليوم من المتيسر أن نطلب من وليّ الأمر مثلاً أن يكون هو نفسه الخبير في كل هذه الشئون . لقد أصبح كل ميدان يحتاج إلى سنين طويلة من التعليم والتدريب والإعداد . ولقد نمت العلوم واتسعت آفاقها ، حتى لم يعد يستطيع الرجل الواحد أن يلم بكل ذلك ، أو حتى ببعضه . والحكم باب من هذه الأبواب ، له رجاله ومواهبه .

ومن هنا أصبحت الإدارة أساساً في حياة الأمة اليوم ، لأنه من خلال الإدارة ، تتحدد المسئوليات والصلاحيات ، وترسم وسائل التنسيق ، وأساليب التوجيه . ويصبح لكل مستوى من المستويات رجل مسئول ، تحوطه المؤسسات ، والخبرة ، والموهبة ، في ميدان مسؤوليته وأمانته ويصبح لكل مستوى من المستويات صلاحيات ومسئوليات متوازنة ، تسمح للرجل المسئول في هذا المستوى أو ذاك، أن يصدر قراره . ولفظة الإدارة التي نعنيها ، هي التي تنسق ذلك كله لكل مستوى ، وتجمع الجهود حتى لا تتبعثر ، تجمعها في طريقها للبحث عن الحق أو ماهو أقرب ، في مسيرتها التي تنتهي باتّخاذ القرار .

إلا أن الرجل المسئول يجب أن يكون رجل ذلك المستوى ، موهبة وقدرة ، ووسعاً ، يحوطها الإيمان والتقوى ، والعلم والخبرة . فرجل الدولة يجب أن يكون رجل دولة ، والقاضي يجب أن يكون رجل القضاء ، وهكذا . وكل موهبة من هذه المواهب ، تجد نفسها خاضعة لمنهاج الله خاضعة للنهج المرحلي للأمة ، خاضعة للنهج المرحلي لميدانها ، مقيدة بصلاحياتها ، مطالبة بمسئولياتها ، أمامها قوانين أقرتها الأمة ، مبنية على جميع ماسلف ، وأهمها منهاج الله . فتعمل المواهب المتخصصة في داخل هذه الحدود ، وتتعاون بالشورى جميع الجهود ، تبحث عن الحق أو ماهو أقرب إليه ، وتكون الخلاصة آراء مباركة ، نابعة كلها من خير ونور ، نابعة من علم واختصاص ، قائمة على هَدْي ودين . وكل رأي من

هذه الآراء فإنه لايحمل إثماً ، ولا معصية ، ولا ضلالاً ولافتنة . وهذه الآراء - وقد صدرت عن كامل حرية أصحابها ، لايرهبهم بطش ، ولايغيرهم هوى ، ولايضلهم جهل ، ولاتنحرف بهم فتنة ، هذه الآراء المباركة ، ورأي المسئول رأي من بينها - يتحمل المسئول أمانة اختيار أقربها للتقوى ، فكلها تقيّة ، وأدناها للحق ، وكلها تتحرى الحق . وهو المسئول عن اختياره وقراره في الدنيا والآخرة . فإذا توافرت هذه الشروط كلها ، وصدر أمر المسئول ، فهنا يكون السمع والطاعة ، وهنا يصبح القرار قرار الإدارة كلها ، أو الجماعة كلها ، أو الأمة كلها ، فإذا لم تكن الطاعة والسمع هنا واجبة ، فمتى تكون إذن ؟ ولايعصي هنا إلا صاحب فتنة أو جاهل .

أما إذا أصدر المسئول قراره ، دون أن تكون هنالك آراء حملتها له الشورى ، أو دون أن تدور الشورى ، أو إذا كان الرأي خارجاً عن منهاج الله ، أو عن المنهاج المرحلي للأمة ، أو عن النهج لذلك الميدان ، أو متجاوزاً لصلاحياته التي نظمتها الإدارة أو جاء مخالفاً للقوانين التي أقرتها الأمة ، فإن هذا الرأي لاحساب له في الإسلام ، وهو بعيد عن هدي القرآن ، فلا يرضى به إلا قطيع غافل .

وكذلك إذا كان المنهاج الربانّي شعاراً أو غائباً ، وإذا عجزت الأمة عن وضع خطة مرحلية ، أو نهج ميدان ، أو إدارة تنظيم وتنسيق ، أو وضع قوانين تحفظ الحقوق ، وتصون الواجبات ، فلن يستطيع رأي الأكثرية أن ينقذ هذا الضياع ، وهي راضية به . أكثر ماتصارع من أجله هو نجاح في انتخابات ، وسيطرة في برلمان ، وحمى صراع حزب مؤيد ، وحزب معارض . ومن خلال هذا الصراع تضيع الحقوق ، ويداس الضعفاء ويخنق «الهتّافون» ، وتقطع الحناجر .

وستكون الشورى الملزمة قاتلة ، والشورى غير الملزمة قاتلة ، والضياع شديداً ، والتيه ممدوداً . وأي قرار يتخذ لايرجع أرضاً سليبة ، ولا عرضاً منتهكاً ولا ثروة منهوبة .

إن على أمتنا اليوم ، أن تضع لَبِنَات الشورى ، لبنة لبنة ، لَبِنَات ربّانية ، نصّ عليها القرآن والسنّة ، حتى إذا استوَى البِناء ، اتضحت الصورَة وعَرفنا أن كثيراً

مما كنا نتصارع عليه ، كان أقرب للّهو والضياع ، منه إلى الجد والحياة .

لايعقل أن تثور حمى نقاش الإلزام وغير الإلزام ، والمنهاج الرباني لمّا يدخل القلوب ، ويثبت في المجتمع ، ويحكم الأمة ، بكل جزئياته . إن كثيراً من هذه الحمّى يفوّت على الأمة الخير الكثير .

٦ - دور الأكثرية ومهمتها :

إن الصحوة الإسلامية الحقيقية ، ليست في كثير من المظاهر التي نصارع من أجلها . إن الصحوة الإسلامية إيمان عميق في القلب ، يجعل ولاء العبد لله رب العالمين . وكذلك علم بمنهاج الله والواقع ، يعين على وضع المنهج المرحليّ ، والميدانيّ ، والإدارة والقانون ، على درب شاق طويل ، فيه قليل من الهتاف ، وكثير من المعاناة ، قليل من الضجيج ، وكثير من البذل والعطاء .

أما الأكثرية المؤمنة العاملة فلها دورها في حياة الأمة المسلمة . ولكن دورها لاتحدده «ديمقراطية» ، ولا ديكتاتورية ، ولا اشتراكية ولاشيوعية ، ولا أي تبعية تتخبط في الظلام . إن دور الأكثرية المؤمنة ، يحدده الإسلام ، يحدده منهاج الله قرآناً وسنّة ، على ضوء الواقع البشري المؤمن الملتزم بمنهاج الله .

ونستطيع هنا أن نشير إلى هذا الدور بخطوطه العريضة . وأما سائر التفاصيل ، فإنها تتحدد مع الواقع الذي أشرنا إليه لتظل هذه التفاصيل نامية متطورة من خلال الجهد البشري المؤمن ، وفي إطار الحدود التي يرسمها منهاج الله .

إن أهم حدود الدور يمكن إيجازه بالنقاط التالية :

(أ) اختيار «ولي الأمر » أو «الإمام» أو «الخليفة» على أي تسمية إيمانية يرضاها المؤمنون . إن هذا الاختيار يجب أن تقوم به الأمة المؤمنة ، وما تتفق عليه الأكثرية المؤمنة الملتزمة المسئولة يجب أن ترضى به الأمة كلها . ولكن القضية الهامة التي يجب أن نشير إليها هي أن اختيار ولي الأمر يجب أن يتم بأسلوب محدد ، ونهج مرسوم ، لا أن تدفعنا فكرة الأكثرية المطلقة إلى أساليب الديمقراطية وزخارفها وضلالها . ولنا مثل في عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فعندما عهد إلى الستة ليختاروا للأمة خليفتها ، وضع خطة مفصلة محكمة . ولم يتركهم إلى قواعد متفلتة فاتفق الستة على أساس ذلك وعلى أساس من إيمانهم وعلمهم ، على خطة ونهج رضي به الجميع . فمبدأ الأكثرية ، في هذه القضية ، أو غيرها ، يجب أن يضبطه نهج تفصيلي إيماني .

(ب) محاسبة ولي الأمر . وكذلك يجب أن يتم هذا على نهج مرسوم ، وخطة مفصلة ، لاتجعل من المحاسبة باباً للهوى ، وغرضاً للفتنة .

(ج) عزل ولي الأمر على أسس شرعية دقيقة ، وعلى نهج تفصيلي واضح ، لايفتح مجالاً للعبث ، ولا باباً للإساءة ولاسبيلاً للظلم ، ولا وسيلة لاستغلال «الجماهير» بإطلاق الإشاعات والهرج ، والافتراء !

يجب أن تظل مكانة «ولي الأمر» ، وكذلك كل مسئول ، تنال ماتستحقه من احترام وتقدير ، حتى في مراحل المحاسبة ، أو العزل . وتظل الموازنة الأمينة توجه الجهد البشريّ النظيف في خط نظيف . ولنا من تاريخنا أمثلة كثيرة جداً لا مجال لعرضها هنا ، توضح أهمية وخطورة مانذهب إليه . ولكننا نشير إشارة سريعة إلى أمرين ، للمْوعظة والاعتبار .

إن قيام أحد الصحابة ليحاسب أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، على ثوبيه ، علانية أمام سائر المسلمين في المسجد ، وإن دفاع عمر رضي الله عنه عن نفسه وهو على المنبر ، يجب أن لايوحي لنا أبداً بالاستخفاف بمكانة أمير المؤمنين ، أو السماح بتوجيه التهم وإطلاق الإشاعات دون تمحيص وروية . ذلك لأن الصحابيّ الذي اعترض هو من كبار الصحابة ، وعلى درجته العظيمة من العلم والموهبة ، وهو من أهل الرأي وأهل الجهاد والفقه ، إنه سلمان الفارسي رضي الله عنه . وكذلك فإن سلمان قام مستفسراً مستوضحاً ، لامتهماً مقرراً . وكذلك فقد كان المسجد هو مجمع الأمة ، وكان هذا الأسلوب هو ما يرتضيه الواقع البشري آنذاك . إنه أسلوب بعيد عن إشاعات الظلمة ، ونجوى الكواليس . إنه الأدب والنور والوضوح . إنه الدين والتقوى . إنها ليست ديمقراطية ولا

اشتراكية . إنها أسلوب يختلف عن موجة الإشاعات أيام عثمان رضي الله عنه . الإشاعات التي يروجها الظالمون ، أو الجاهلون ، على أسلوب مازال المسلمون حتى اليوم يختلفون حول كثير من قضاياه ، لما أحاط بها من ظلمة مازالت ممتدة في التاريخ فإذا كنّا نستفيد من قصة الصحابّي سلمان الفارسي مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، في تحديد قواعد وأسس إيمانية للمحاسبة المشرقة ، فإننا نتعلم من أحداث الفتنة أيام الخليفة عثمان رضي الله عنه ، قواعد وأسساً إيمانية ، تساعدنا على درء الفتنة ، وإغلاق أبواب الفرية والظلم ، وإلغاء وسائل العبث والجهل والارتجال ، وحفظ الأمة صفاً واحداً .

(د) أي موقف لايكون فيه مسئول محدد ، على أساس العناصر الخمسة التي سبق عرضها . وذلك حين لايكون هنالك مسئول محاسب يتحمل المسئولية ، ويقوم بالأمانة ، ويوفي بالعهد ، في القضية التي هي من اختصاصه ، وصلاحياته وأمانته . فإذا لم يتوافر هذا المسئول لأي سبب طارىء ، فإن رأي الأكثرية المؤمنة القادرة ، التي يحددها النهج المرحلي ، والنظام الإداري ، والقانون ، هذه الأكثرية ، يمكن أن تقوم على أسلوب محدد ، بمهمة المسئول ، ويكون قرارها هو القرار الملزم ، في المجتمع الإيماني الملتزم .

ويتبع هذه القاعدة عجز المسئول ، أو ضعفه ، أو أي سبب حال بينه وبين اتخاذ القرار ، فإن الأكثرية المؤمنة ، تنهض لواجبها في حماية الأمة ، وتطبيق المنهاج الرباني . وهنا تنهض الأمة بأكثريتها المؤمنة إلى هذا الواجب ، على خطة مدروسة ، ونهج محدد ، بعيد عن التفلّت ، والفوضى ، والهرج .

ففي معركة مؤتة ، استعمل الرسول ﷺ زيد بن حارثة وقال : **إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة على الناس . فإن قتل فليتربّص المسلمون برجل من بينهم يجعلونه عليهم** [1]. ولما قتل عبدالله بن رواحة ، أخذ الراية ثابت بن أرقم ، أخو بني العجلان ، فقال : يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم . قالوا : أنت . قال : ماأنا بفاعل .

---

(١) الفتح الرباني : ج١١ ص١٣٦ .

فاصطلح الناس على خالد بن الوليد . وفي رواية الطبراني عن أبي اليسر قال : أنا دفعت الراية إلى ثابت بن أرقم ، لما أصيب ابن رواحة . فدفعها إلى خالد وقال : أنت أعلم بالقتال مني .

ومهما تختلف الروايات ، فإن الكثرة تتحرك بأسلوب أو بآخر ، بأسلوب إيماني ، عندما يفتقد المسلمون رجل القرار المسئول ، والقائد المحاسب . وأمثلة كثيرة في التاريخ عن ذلك ، ولكننا نشير هنا إلى ملامح وقبسات .

ففي مثل هذه المواقف الأربعة التي عرضناها ، يمكن للكثرة المؤمنة الملتزمة بمنهاج الله أن تصدر القرار ، في عمل إيماني واع ، وخطوات ثابتة ، تحفظ على الأمة صفها ، وتجمع جهودها .

والأكثرية التي يمكن لها أن تصدر القرار في مثل هذه المواقف ، هي ليست أكثرية الهتاف ، ولا أكثرية التصفيق ، ولاهدير المظاهرات . إن القرار ، وهو المرحلة الأخيرة في الشورى ، يصدر عن الأكثرية المؤمنة الملتزمة بمنهاج الله ، القادرة على مجابهة الأحداث ، وتحمل المسئولية ، وخوض غمار الخطر الداهم ، أو الموقف الصعب . إنها الأكثرية التي قدمها إيمانها وعلمها وجهادها ، فقدمتها الأمة المؤمنة ، تقديماً بعيداً عن المزايدات ، والتهريج ، في موقف لم يعد فيه مسئول محاسب . وتعمل الأكثرية على نهج وخطة وضوابط .

إنها أكثرية ، تختلف عن أكثرية الديمقراطية ، أو الاشتراكية ، إنها أكثرية الإيمان من جنود الحق ، الذين ارتبطت قلوبهم بالله وصدق جهادهم لله .



الباب الثاني عشر

خلاصة وخاتمة

الفصـل الأول

الخـلاصــة

في ختام هذا البحث نحب أن نورد موجزاً وملخصاً يجمع أهم القضايا في نقاط محددة ، تهدف للتثبيت والتذكرة .

١ - إن فهمنا للشورى وتصورنا لها ، وصياغتها وممارستها يجب أن تنبع كلها من منهاج الله قرآناً وسنة ، ومن فهم الواقع الذي نعيشه فهماً نابعاً عن منهاج الله ، يعيننا في ذلك سيرة الرسول ﷺ وممارسة الخلفاء الراشدين والصحابة رضي الله عنهم أجمعين . على أن تكون العودة إلى منهاج الله عودة متكاملة متناسقة ، لاتتجزأ إلى آيات من هنا وهناك ، أو أجزاء من آية أو حديث أو صورة مجزوءة لممارسة وتطبيق .

٢ - إن الشورى المؤمنة أساس في طبيعة هذا الدين ، في طبيعة الإيمان ، وطبيعة الممارسة الإيمانية في شتى الميادين والظروف والمستويات . إنها حاجة الفرد المؤمن ، والأسرة المؤمنة ، والجماعة المؤمنة والأمة المؤمنة . إنها لاتقتصر على ميدان الحكم والدولة ، وإن كان هذا ميداناً من أوسع ميادينها ، ولكنها تمتد امتداد الحياة والممارسة والتطبيق .

٣ - إن الشوى المؤمنة ، كما يفصّلها منهاج الله ، لها خصائصها الإيمانية والمميزة لها ، والتي تحدد أهدافها ، ونهجها وأسلوبها ، ووسائلها في تفصيل رباني معجز ، صالح لكل زمان ولكل جيل ، ولكل واقع .

٤ - إن هدف الشورى المؤمنة هو تحري الحق والخير والتقوى في الممارسة الإيمانية أو تحري ماهو أقرب إلى ذلك وأدنى ، من خلال جهد بشريّ ، له خصائصه الإيمانية والعلمية والتطبيقية في هذا المجال أو ذاك . إن اتباع الحق أو ماهو أقرب إليه واجب المؤمن لامجال للتفلت منه . وكذلك فإن من أهدافها سائر الأهداف التي حددناها في «التمهيد» . والأهداف كلها مرتبطة مع الهدف الأكبر من الشورى ، وذلك حين تكون ممارستها عبادة لله وطاعة .

وتحريّ الحق أو ماهو أقرب للتقوى والأمانة والعدالة ، يحتاج إلى رد الأمور كلهـا إلى منهـاج الله رداً أمـيناً ، رداً يقـوم على الإيمان والعلم والقـدرة والاختصاص . وهذا الرد يحتاج إلى علم بمنهاج الله وعلم بالواقع والقضية وخبرة في الممارسة والتطبيق . ومن خلال هذا الرد إلى منهاج الله ينشأ الدليل الذي يدعم رأياً أو عدة آراء . فكل موقف أو رأي لايتفق مع منهاج الله فهو رأي مستبعد مرفوض ، مهما حمل من زخارف الرايات والشعارات . والقول بالبينة والدليل لا يعني بالضرورة وجود النص المطابق لهذه الحادثة أو تلك . ولكنه يعني وجود النص الذي يرتبط بهذه الحادثة أو تلك ارتباطاً يعين على سلامة الممارسة ، وأمانة الاستنتاج ، وصدق الرؤية . وقصة معاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن ، فسأله رسول الله ﷺ ، فأجاب معاذ رضي الله عنه بأن يحكم بالكتاب ، فإن لم يجد فبالسنة ، فإن لم يجد فإنه يجتهد رأيه ولا يألو . فهذا الاجتهاد واضح أنه يقوم على القرآن والسنة وفهم الواقع والقضية . فتحري الحق أو ماهو أقرب إليه يدور كله حول وجود هذا الميزان الثابت العادل الذي يتسع لكل قضايا الانسان والعصور والأجيال . إنه هذا الجهد البشري في هذه الممارسة يمثل صورة من صور الابتلاء الذي يمتحن الإيمان ويمحص القلوب ، ويختبر العلم والقدرات .

٥ – من خلال هذه الممارسة في الشورى ، وهذا الابتلاء والتمحيص ، قد تنشأ عدة آراء مؤمنة صادقة لا رأي واحد . وذلك نتيجة للتفاوت في المواهب والقدرات ، والاختلاف في الفهم والتقدير .. إنها طبيعة الاختلاف القائمة في سنة الحياة ، وممارسة الإنسان . إنه أمر طبيعي .

فإذا اتضح الدليل الأقوى ، والحجة الأبين ، في رؤية الحقيقة والعدالة ، فإنه واجب الاتباع ، يمضيه المسئول سواء أكانت معه الأكثرية أم الأقلية ، وما دام هذا الأمر في نطاق مسئوليته وأمانته . ونطاق المسئولية والأمانة محددة في إطارها العام في منهاج الله . ولكن الصياغة التنفيذية تحدد تفاصيل هذه المسئولية والأمانة لكل مستوى من المستويات . وتظل هذه الصياغة جهداً بشرياً قابلاً

للنمو والنضج مع مداومة الممارسة واستمرار الجهد . ولايمضي المسئول رأياً دارت حوله الشورى إذا لم يحمل معه الحجة والبينة ، وإذا لم يتم رده إلى منهاج الله رداً يستوعب الشروط الإيمانية كلها .

ولكم كان الخلفاء الراشدون يلجأون إلى الله سبحانه وتعالى دعاء وابتهالاً ، وصلاة واستخارة ، وكم كانوا يجهدون فكراً وتدبراً ، ودراسة وتمحيصاً ، حتى يتلمسوا وجه الحق هنا أو هناك . والله سبحانه وتعالى يهدي عباده المؤمنين وهم يجهدون ويجاهدون ، ويدرسون ويتدبرون ، ويدعون ويبتهلون ، ويعبدون ويستخيرون .

٦ - إن الشورى المؤمنة ، وهي تمتد في حياة الأمة المؤمنة تصبح مدرسة تصقل المواهب ، وتنمي الزاد ، موهبة الإيمان وزاد التقوى . إن الشورى في ممارستها الحقيقية مدرسة عظيمة في حياة الفرد وحياة الأمة .

٧ - ومن ناحية أخرى فإن الشورى المؤمنة تحتاج إلى رعاية وتدريب ، ومراقبة وتوجيه ، أثناء الممارسة الإيمانية وبذلك تكون هي مصدر تدريب وإعادة من ناحية ، وتحتاج إلى تدريب وإعداد من ناحية أخرى .

إن كثيراً من قواعد الإيمان تحتاج إلى هذه الرعاية من مدرسة الإسلام حتى تصدق النفوس عليها .

٨ - عند ممارسة الشورى في أي مستوى أو أي مجال ، فإننا لانمارس قاعدة إيمانية واحدة ، ولكننا نمارس الإيمان بقواعده المترابطة المتناسقة . إننا نمارس صدق الأخوة ، وخالص النصح ، وطيب الكلمة ، والابتعاد عن الغرور والكبر والغلو والتفريط ، ونمارس السمع والطاعة ، ونمارس قواعد كثيرة أخرى ، يستدعيها الموقف المعين : من كظم للغيظ أحياناً ، ومن سماحة ولين ، أو قوة وشدة أو رحمة ورأفة ، أو أمر بمعروف ونهي عن منكر . وهكذا فإن ممارسة الشورى هي ممارسة واسعة للإيمان . ولذلك تحتاج إلى إعداد وتدريب ، ومراقبة وتوجيه ، حتى تجمع ممارسة الشورى هذه القواعد الإيمانية الممتدة في موازنة أمينة ، ونهج نظيف ، ووضوح مشرق .

إنها تكون بذلك قاعدة من قواعد مدرسة الإسلام، وجامعة القرآن وساحة الإيمان .

٩ - تمتد ساحة الشورى حتى تشمل الأمة المؤمنة أو معظمها، وتضيق أحياناً حتى تشمل أفراداً . ويحدد ذلك عدة أمور أهمها : الواقع البشريّ، القضية المطروحة، ظروف الأمة المؤمنة وحالاتها الطارئة، الطاقة البشرية المتخصصة والمؤسسات الإيمانية والمتخصصة، والتنظيم الإداري، ومستويات المسئولية والأمانة، كل ذلك من خلال منهاج الله وعلى أساس هديه ونوره، والطاقة الإيمانية العاملة في الأمة . ولكن الشورى لاتسقط عن الأمة المؤمنة أبداً مهما ضاقت بها الظروف أو اشتدت المحن . ومن هنا تكون مسئولية الجهد البشريّ المؤمن أن يتجاوب مع كل ظروفه، ليلبي داعي الشورى المؤمنة، وفقاً لقواعد منهاج الله فلا تتعطل أبداً، ولاتعطل المواهب .

١٠ - الشورى جهد ودراسة ومعاناة . إنها أمانة . إنها من أخطر صور الأمانة . إنها لاتخرج نتيجة استرخاء وراحة وإمعة ولا مبالاة . إنها مسئولية في الدنيا والآخرة . إنها توجب أن لايخرج الرأي إلا مستكملاً لعناصره الإيمانية، حتى لاتتحول إلى فتنة وفساد، وفرقة وشقاق .

١١ - للشورى أهلها ورجالها يتميزون بخصائص إيمانية توفي الجهد والمسئولية والأمانة . وهذا يستدعي في المجتمع أن يعرف المؤمن حدوده، فلا هو يتجاوزها بطغيانه وكبره، ولا هو يقصر عنها بلهوه واسترخائه .

١٢ - إن ممارسة الشورى في أيّ مرحلة أو عصر أو مستوى، تحتاج إلى صياغة تنفيذية تحقق من خلال ممارستها أهداف الشورى ووسائلها، وأساليبها، ومنطلقها . وتظل هذه الصياغة التنفيذية نامية قوية، في أمة نامية قوية، تنمو وتنبغ كما تنمو الأمة وتنبغ، وتقوى وتسود كما تقوى الأمة وتسود . وتمضي في نموها، ونبوغها وقوتها، وسيادتها، تحافظ على جميع خصائص الإيمان، وأسس الشورى الإيمانية، وقواعد الممارسة الإيمانية، سواء في الصياغة أو الممارسة .

١٣ - حين نقول : إن الشورى الإيمانية تقوم أولاً وقبل كل شيء على قواعد المنهاج الربّاني ، فإن المنهاج الربّاني يمثل النهج العام والتخطيط الكامل ، لكل عصر أو قوم ، أو جيل . ومع هذا النهج العام والتخطيط الكامل ، يجب أن يكون للدعوة والأمة نهج مرحلي وتخطيط واقعي ، ينبع من النهج العام والتخطيط العام ، ينبع من منهاج الله ويناسب الواقع الذي تعيشه الدعوة أو الأمة .

١٤- إن الاختصاص العلميّ ضروريّ وواجب في حياة الأمة الإسلامية أو الدعوة الإسلامية . ويجب أن يمتد التخصص العلميّ إلى جميع آفاق النشاط البشري من اقتصاد ، واجتماع ، وسياسة ، وشئون عسكرية ، وطب ، وهندسة ، وجيولوجيا ، إلى كل فرع ، وكل اتجاه . إن هذا التخصص العلميّ الممتد ، القائم على أساس العلم بمنهاج الله ، والعلم بالواقع ، يجب أن ينتظم في حياة الأمة ، في مؤسسات تقوم على ممارسة الشورى وممارسة النهج والتخطيط ، وممارسة نمو الجهد البشريّ ، الذي يرعاه الإيمان ويغذيه منهاج الله .

١٥ - وبذلك لاتصبح الآراء في ميدان الشورى ، آراء ارتجال ، أو جهل أو ظن ، أو هوى . إنها آراء تنطلق من جهد ومعاناة ، وبحث ودراسة ، وعلم وخبرة، يقوم كله على الإيمان ويحوطه منهاج الله .

١٦- وكذلك تصبح الشورى تضم صلاحيات ومسئوليات ، حقوقاً وواجبات ، حدوداً وميادين . تضم هذا كله بصورة متوازنة لأنها كلها مرتبطة بميزان ثابت ، غير متفلتة من منهاج الله ، محتفظة بكل خصائص الممارسة الإيمانية . يعرف كل فرد في الأمة أو الدعوة وسعه ، وطاقته ، وحدوده واختصاصه ، ومنزلته ومكانه . وهو يعرف كذلك منازل الآخرين ومكانهم ، وحدودهم واختصاصهم ، ووسعهم وطاقتهم . وبذلك تتم الممارسة الإيمانية على موازنة عادلة أمينة ، بقدر ماتحمل معها من عدالة الإيمان ، وأمانة العلم ، وصدق التجربة . والأمة التي لايعرف أفرادها حدودهم ولاحدود غيرهم ، والأمة التي لايتدرب أبناؤها على معرفة منازلهم ومنازل غيرهم ، الأمة التي

تفقد هذه الخصائص ، أولى بها أن تضيع مواهبها وتموت كفاءتها ، وتتمزق قدراتها ، في أجواء الكبر والغرور ، التحاسد والتناجش ، التباغض والعداء ، الظن والافتراء ، والكذب والاعتداء ، التناحر والتطاحن ، الفتنة بعد الفتنة ، والظلام بعد الظلام ، يصنعونه بأنفسهم ، ويغذيه الشيطان ، حتى تهدر الطاقات في حمى صراع مجنون أو تيه وضياع وفتون .

١٧ - إن للشورى أهلها ورجالها الذين يتميزون بخصائص إيمانية حقيقية لا تقوم على أي أساس جاهلي ، إقليمي ، عائلي ، قومي ، ولا على أساس هوى ومصالح ، ولا على أساس ظنون وتخمين .

إن خصائص أهل الشورى الإيمانية يجب أن تكون قوية بارزة ، ظاهرة معلومة ، حتى تستطيع بخصائصها الذاتية أولاً أن تطرد كل أساس جاهليّ ، أو هوى ومصالح ، أو ظن وتخمين .

والخصائص الإيمانية لأهل الرأي والمشورة تدور كلها حول ثلاث قضايا أساسية :

- الإيمان على ظواهره البينة المعلومة للناس ، إيماناً يمثل ممارسة وجهداً وبذلاً .
- العلم بمنهاج الله ، والوعي بالواقع الذي يجري ، علماً يبرز من خلال الممارسة والتطبيق .
- الموهبة الذاتية والوسع والطاقة ، موهبة صقلتها التجربة حتى برزت ، ووسعاً تزود بالممارسة والتقوى والعلم حتى اتضح وبان .

١٨ - ومع ذلك فإن أهل الرأي قد يمتدون حتى يشملوا الأمة كلها في أمر جامع ، وقد يضيق أهل الرأي حتى يكونوا رجلاً أو رجلين ، أو عدة رجال . ولقد رأينا كيف كان الرسول ﷺ يستشير أبا بكر ، أو عمر أو كليهما ، وحيناً يستشير السعدين ، وحيناً يحصر الشورى بالمهاجرين ، وحيناً بالأنصار ، وحيناً آخر بالأمة كلها في أمر جامع .

واليوم تحدد هذه الصورة على ضوء الصياغة الإيمانية النابعة من منهاج الله ،

والملبية لحاجات الواقع البشريّ المتجدد . وأهم مايبرز في عصرنا الحالي مما يناسب هذا الموضوع ، هو قيام المؤسسات الإيمانية المتخصصة ، التي تستطيع أن توفر الجهد والبذل والمعاناة ، لتقدم الرأي الناصح المدروس ، مستكملاً لشروطه الإيمانية .

١٩ - وكذلك فإن «الرأي العام» عنصر من عناصر التأثير في أجواء القرن الحالي بما يحمل من طاقات الدعاية والإعلام . وهو عنصر يؤثر في أجواء الشورى ، وأجواء الشورى تؤثر فيه . فلابد للأمة المؤمنة أن يكون لها رأي عام مؤمن ، يتمتع بخصائص الإيمان ، حتى تنهار كل جهود المنافقين ، والمرائين ، والأعداء والمفترين والمفسدين ، تنهار كل جهودهم أمام حصون الرأي العام المؤمن الذي له عقيدته وإيمانه ، وله ميزانه ، وله حدوده وله روابطه ووشائجه ، وله شيوخه ووجوهه ، كل ذلك على أساس إيماني رباني ، قرآني . إنه «رأي عام» لا يُبنى بلحظة ، ولكن تبنيه الممارسة الإيمانية الشاملة ، الممارسة الإيمانية الجامعة ، زمناً غير يسير ، يحمل التجربة الصادقة التي تتجمع بعد تمحيصها وردها إلى منهاج الله لتصبح زاداً للعاملين ، وسلاحاً للمجاهدين . فلا تضيع تجربة ، ولاتطوى خبرة ، لاتضيع ولاتطوى في أجواء الضياع والحيرة والظنون والشكوك ، والقيل والقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال .

٢٠ - إن أي صياغة إيمانية للشورى يجب أن تواكب الدعوة مع بدايتها ، وأن تستوفي منذ اللحظة الأولى جميع الخصائص الإيمانية ، بقدر ماتحتاجه تلك المرحلة أو اللحظة . ثم تمضي الممارسة الإيمانية لتنمو وتمتد من خلال الجهد البشري النامي في ظلال الإيمان ، وعلى أسس المنهاج الربانّي . تنمو الممارسة الإيمانية وتنمو في كل ميادينها ، وتنمو الصياغة الإيمانية للشورى أيضاً ، نمواً يلبي كل حاجات الواقع المؤمن ، وأجواء الإيمان .

٢١ - إن الصياغة الإيمانية للشورى ، يجب أن توفر خصائص الشورى الإيمانية من جميع جوانبها ، وأن تستكمل قواعد الشورى الإيمانية ، على نسق إيماني ، ونهج إيماني ، وأهداف إيمانية . إن الصياغة يجب أن توضح المنطلق ،

والنهج والسبيل، والهدف والغاية، توضيحاً يحمل الاطمئنان إلى صدق ذلك كله، وإلى التزامه الإيماني البين، وإلى صدوره عن منهاج الله قرآناً وسنة. إن الصياغة يجب أن لاتدع مجالاً لريب، أو فرجة لشك، أو احتمالاً لزيغ، بالنسبة إلى الالتزام الإيماني.

٢٢- لقد عرضت سورة الشورى معظم الخصائص الإيمانية للشورى، عرضاً مستوفياً للمرحلة التي كانت تمر بها الدعوة في مكة المكرمة، حين لم تكن هنالك دولة الإسلام، ولم يكن قد نهض له سلطان. وهذا العرض في تلك المرحلة يوحي لنا بأهمية الشورى، وعظمة منزلتها، في الدعوة الإسلامية، في الإيمان نفسه، في السلوك والنهج، في التربية والإعداد، في حياة الفرد أو الجماعة والأمة.

الفصـل الثانـي
الخاتمـــة

يتلفت الشباب المؤمنون تغشاهم الحيرة ، ويعصرهم الأسى وهم يرون في كل كتاب رأياً ، ومع كل صحيفة نهجاً ، ولكل فرقة راية . ويرون دياراً تتهاوى، وأمة تتمزق ، وتاريخاً يكاد يطوى .

يتلفتون أسى ، وهم يرون أن هذه المصائب كلها لم ترفع غشاوة ، ولم تنزع أسى ، ولم توقظ نُوَّماً ولا كسالى . والسكين التي غرزت من عشرات السنين ، إن لم يكن من مئات السنين ، مازالت تخترق ، وتفتح الجراح ، وتنساب في أغوار النفس ، تُفجّر الدماء ، والقيح ، وتتعالى الأنات ، لتغيب في كابوس أحلام النائمين .

والمؤمنون ، شباباً وكهولاً ، لن يجتمعوا أبداً على نزعة بشرية ، ولا راية جاهلية ، ولانهج كافر . إنهم يجتمعون على كلمة الإيمان ، ونهج القرآن ، وراية الاسلام ، لا على أي شيء سواه . إنهم يجتمعون على ذلك ، عندما يصبح هذا كله حقيقة حية ، وخفقة نابضة ، ومثلاً عاملاً . عندما يصبح الإيمان هو الذي يصوغ الأعصاب ويدفع الدماء ويحرك القلب ، وعندما يصبح منهاج الله قرآناً وسنة هو الذي يصوغ الفكر ، ويرسم السلوك ، ويحدد النهج . عندئذ ، نجد أنَّ معظم الطوائف اختفت ، والفرق طويت .

إن قضية الاسلام قضية واحدة لاثاني لها . إنها قضية العبودية الصادقة لله رب العالمين ، لله الواحد الأحد ، الذي لا إله غيره ، الذي له الأسماء الحسنى . إنها قضية التوحيد كما أمر الله به ، وكما خلق فطرتنا عليه .

إن هذه القضية هي القضية الرئيسة ، وهي التي تحل قضايا المسلمين كلها عندما تصبح هذه القضية حية كل الحياة ، واقعاً يعمل ، يتحرك ، يبني ، يصوغ ، ينشيء ، يرفع. إنها قضية الحياة ، إنها القضية التي تنزل الوحي من أجلها لتدوي في حياة البشرية كلها ، ومحمد ﷺ يتلقى ويبلغ :

﴿ ... كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ... ﴾ [الشورى: ١٣]

لذلك ، قبل أن نصوغ الشورى صياغة إيمانية ، وقبل أن نرسم نهجاً ونضع خطة ، ونرفع راية ، قبل أن تكثر الأسماء والرايات ، والألقاب والشعارات ، قبل هذا كله يجب أن نصوغ أنفسنا ، أن نصوغ قلوبنا ، أفكارنا ، أن ندفع دماءنا مضمخة بعبير الإيمان ، وأن نستنشق الهواء مع كل خفقة على أنداء الصدق والإحسان . يجب أن نصوغ أنفسنا ، أن نصوغ قلوبنا ، صدورنا ، نياتنا ، يجب أن نصوغ هذا كله أولاً صياغة إيمانية قبل أن يملأها العفن ، ويقتلها الخدر ، وتسحقها الأحلام ، وقبل أن نصوغ الشورى ... وقبل أن نصوغ سواها .

إن هذه الطاقات البشرية ، التي تصوغ ، وتحرر وتنشيء ، وتكتب ، إنها لن تستطيع أبداً أن تأتي بأكثر من طاقتها ، ولن تستطيع أن تشع بأكثر من جوهرها .

إننا بحاجة إلى الطاقة البشرية المؤمنة التي تصنعها مدرسة الإسلام ، مدرسة النبوة ، ممتدة حتى قيام الساعة ، دافعة أفواجاً وأجيالاً وأجيالاً .

ومهما بذلنا من جهود فإن كثيراً منها قد يضيع ويتبعثر ، إذا لم تكن منصبة على مصاحبة منهاج الله مصاحبة عمر وحياة ، وعبودية وطاعة وتدبر وعمل . شريطة أن تكون هذه المصاحبة منهجية مبرمجة ، لها منطلقها ونهجها وأهدافها . فلا تمضي السنون مع مصاحبة تائهة تهز الرؤوس المخدرة ، أو تعدها لتُحصَدَ حصداً على أنصال الهلاك وشقاء الهوان .

إن هذه المصاحبة ليست نداء قائد أو زعيم ، وليست تصوراً بشرياً صنعته الأهواء ، إنه نداء الرحمن ، ودعوة الإيمان وآيات القرآن ، وسنة رسول الله محمد ﷺ .

إنها كذلك مسئولية كل فرد ، وأمانة كل مؤمن لايملك أن يتفلت منها ، إلا إذا تفلت من إيمانه ، ولا أن يلتمس لهوانه عذراً إلا إذا قبل الله ربه منه عذره . إنه أمر منوط به ، بينه وبين ربه ، له الأجر وعليه الوزر ، فلا يلومَنَّ أحد إلا نفسه .

إن هذه المسئولية هي مسئولية كل مؤمن في جميع الظروف والأحوال سواء وَجَدَ الدعوة أم لم يجدها ، ابتسمت له الدنيا أم عبست ، أحاطه العسر أم باركه اليسر في المنشط والمكره .

ومع هذه المسئولية الفردية الخطيرة ، تنهض سائر المسئوليات، مسئولية الجماعة والدعوة ، مسئولية العلماء والدعاة ، ومسئولية المعاهد والمؤسسات ، مسئولية الدولة ورجالها . مسئوليات لاتعطل واحدة منها الأخرى . ولكنها تمضي كلها أو بعضها ، حسب ماينشأ منها ويقوم ، متناسقة مترابطة ، ومتعاونة متماسكة ، في أمة واحدة .

وكل مسئولية تنهض على قدر الوسع والطاقة التي وهبها الله لعبده هذا أو ذاك ، لهذا المستوى أو ذاك ، وأيضاً على قدر الأمانة والمنزلة ، في موازنة أمينة ، وتناسق عادل .

فهرس أحاديث
الشورى وممارستها الإيمانية

حرف الألف

حـرف الخاء

حـرف الـدال

حـرف الـذال

حـرف الســين

حـرف الصــاد

حـرف العــين

حـرف الفـاء

حـرف القـاف

حـرف الكـاف

حـرف اللام

حرف الميم

المـراجـع

١ - القرآن الكريم وتفسيره .

٢ - الحديث الشريف .

٣ - المعاجـم

٤ - السيرة النبوية .

٥ - تاريخ الصحابة والتاريخ الإسلامي .

٦ - النظام السياسي والإداري في الإسلام .

٧ - الدعـوة .

٨ - التربيـة الإسلاميـة

٩ - الفقـة والتشريـع

١٠- دراسة الواقع .

أ - واقع العالم الاسلامي والحرب الدائرة عليه .

ب - الواقع والسياسة الدولية .

القرآن الكريم

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : محمد الأمين بن محمد المختار الجنكي الشنقيطي
ط : ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م
المطابع الأهلية للأوفست - الرياض
تفسير البحر المحيط : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي
ط ٢ : ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
تفسير القرآن العظيم : أبو الفداء إسماعيل بن كثير
ص : ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م
دار المعرفة - بيروت
تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن): أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي
دار الريان للتراث - القاهرة
تفسير سورة الشورى : سيد قطب
ط : ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م
دار الشروق - بيروت
التفسير الواضح : د. محمد محمود حجازي
ص٦ : ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م
دار الغريب للطباعة - القاهرة
تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : عبدالرحمن بن ناصر السعدي
ط ١٤٠٤هـ تحقيق محمد زهري النجار
الرئاسة العامة للإفتاء والدعوة والإرشاد
جامع البيان لمعاني القرآن : محمد بن جرير الطبري
ط ٣ : ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م
مصطفى البابي الحلبي وأولاده - القاهرة .
صفوة البيان لمعاني القرآن : حسنين محمد مخلوف
ط : ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

دار الشروق - الإمارات العربية المتحدة
صفوة التفاسير : محمد علي الصابوني
ط ١ : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م
دار القرآن الكريم - بيروت
الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل :
أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي
الطبعة الأخيرة : ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م
مصطفى البابي الحلبي وأولاده - القاهرة
في ظلال القرآن : سيد قطب
ط٣ : دار إحياء التراث العربي - بيروت
المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : (تفسير ابن عطية)
أبو محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي
تحقيق عبدالله بن إبراهيم الأنصاري والسيد عبدالعال السيد إبراهيم وإخوانهما
ط ١ : ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٧م
مؤسسة دار العلوم - الدوحة - قطر

الحديث الشريف

الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة :
نور الدين علي بن محمد بن سلطان المشهور بالملا القاري
تحقيق د. محمد بن لطفي الصباغ
ط ١٣٩١هـ - ١٩٧١م
دار الأمانة ومؤسسة الرسالة - بيروت
التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول : منصور علي ناصف
ط ٣ : ١٣٨١هـ - ١٩٧١م
دار احياء التراث العربي - بيروت
جامع الأصول من أحاديث الرسول :
أبو السعادات مبارك بن محمد بن الامير الجزري ابن الأثير
ط٢ : ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

دار إحياء التراث العربي - بيروت

الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة
دار إحياء التراث العربي - بيروت تحقيق أحمد محمود شاكر

سلسلة الأحاديث الصحيحة : محمد ناصر الدين الألباني
ط ٣ : ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
المكتب الإسلامي - بيروت

سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة : محمد ناصر الدين الألباني
ط ١ : ١٣٩٩هـ
المكتب الإسلامي - بيروت

سنن أبي داود : أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي
ط ١ : ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد
دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت

سنن ابن ماجة : أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني
ط٢ : ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي
شركة الطباعة العربية السعودية

سنن النسائي : أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان بن دينار النسائي
ط١ : ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م تحقيق عبدالفتاح ابو غدة
دار البشائر الإسلامية - بيروت

صحيح ابن خزيمة : أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة
ط ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م تحقيق محمد مصطفى الأعظمي
المكتب الإسلامي - بيروت

صحيح البخاري : أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري
ط ١٩٧٩م المكتب الإسلامي
استنابول - تركيا

صحيح الجامع الصغير وزيادته : محمد ناصر الدين الألباني
ص٢ : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م
المكتب الإسلامي - بيروت

صحيح مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري
ط٢ : ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي
رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء
والدعوة والإرشاد - الرياض

صحيح مسلم لشرح النووي الإمام النووي
ط٣ : المطبعة المصرية
عدد الأجزاء ١٨ (تسع مجلدات) .
دار إحياء التراث العربي - بيروت .

ضعيف الجامع الصغير وزيادته : محمد ناصر الدين الألباني
ط٢ : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م
المكتب الإسلامي - بيروت

فتح الباري شرح صحيح البخاري : الإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني
ط : ١٣٧٩هـ
عدد الأجزاء (١٣) .
الناشر : دار المعرفة - بيروت.

الفتح الرباني : ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل أحمد عبدالرحمن البنا
مع شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني
دار الشهاب - القاهرة

المختار من شرح الأربعين النووية : عبدالخالق مسعود
ط١٩٧٣م دار الثقافة - قطر

مختصر المقاصد الحسنة في بيان كثير محمد بن عبدالباقي الزرقاني
من الأحاديث المشتهرة : تحقيق د. محمد بن لطفي الصباغ
ط١ : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م

منشورات مكتب التربية العربي لدول الخليج

المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي : أ. ي . ونسنك ، ي . ب منسنح، اتبع نشرة بروخمان
ط : ١٩٦٩م مطبعة بريل في مدينة ليدن

مفتاح كنوز السنة • أ. ي. ونستك : نقله إلى العربية محمد فؤاد عبدالباقي
ط : ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م
إدارة ترجمان السنّة - لاهور

موطأ الإمام مالك : أبو عبدالله مالك بن أنس ابن مالك بن أنس بن الحارث رواية يحيى بن يحيى الليثي تحقيق أحمد عرموش
ط ١ : ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠م
دار النفائس - بيروت

نزهة المتقين شرح رياض الصالحين : د. مصطفى سعيد الخن ، د. مصطفى البغا محي الدين مستو ، علي الشربجي ، محمد أمين لطفي
ط ١ : ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م
مؤسسة الرسالة - بيروت

المعاجم

تاج العروس من جواهر القاموس : محمد مرتضى الزبيدي
ط١ : ١٤٠٦هـ
دار مكتبة الحياة - بيروت عن
(المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر)

معجم مقاييس اللغة : أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا تحقيق عبدالسلام محمد هارون
ط٢ : ١٣٨٩ هـ :
دار الكتب العلمية
نجفي - إيران - قم خيابان أرم

الصحاح : إسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق أحمد عبدالغفور عطار
ط ٢ : ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

القاموس المحيط : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي
ط ١ : ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م
مؤسسة الرسالة

لسان المحيط : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري
إصدار دار صادر - بيروت

السيرة النبوية

إمتاع الأسماع : تقي الدين أحمد بن علي المقريزي تحقيق محمود شاكر محمود شاكر
ط٢ : الشئون الدينية بدولة قطر
التاريخ الإسلامي : السيرة - ج٢
ط١ : ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م
المكتب الإسلامي - بيروت

خاتم النبيين : محمد أبو زهرة ، عناية عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
ط ١٤٠٠هـ مؤسسة دار العلوم

دراسة في السيرة : د. عماد الدين خليل
ط : ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م
مؤسسة الرسالة - دار النفائس .

زاد المعاد في هدي خير العباد : شمس الدين أبو عبد الله بن أبي بكر الزرعي الدمشقي ، المعروف بابن قيم الجوزية حققه شعيب الأرناؤط ، عبدالقادر الأرناؤط
ط ١ : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ م
مؤسسة الرسالة - بيروت
مكتبة المنارة الإسلامية - الكويت

سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد : محمد بن يوسف الصالحي تحقيق د. مصطفى عبدالواحد
ط ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م
طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة

سيرة الرسول : محمد عزة دروزه
تحقيق عبدالله بن إبراهيم الأنصاري
١٤٠٠هـ - طبعة دولة قطر

السيرة النبوية : أبو محمد عبدالله بن هشام بن أيوب الحميدي
تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبدالحفيظ شلبي
ط ٣ : ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م
شركة مصطفى الحلبي - القاهرة

السيرة النبوية : محمد بن عبدالوهاب

الطبقات الكبرى - السيرة - المجلد الأول . لابن سعد
والمجلد الثاني :
دار صادر - بيروت

فقه السيرة : محمد سعيد رمضان البوطي
ط٥ : ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م
دار الفكر

فقه السيرة : محمد الغزالي
ط ٢ : ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م
دار الكتب الحديثة القاهرة

في ظلال السيرة النبوية (غزوة أحد) : د. محمد عبدالقادر أبو فارس
ط١ : ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
دار الفرقان - عمان

مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة : د. محمد حميد الله (جمعها)
ط ٣ : ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩
دار الارشاد - بيروت

مغازي رسول الله ﷺ : عروة بن الزبير برواية أبي الأسود عنه
تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي
ط١ : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م
دار عكاظ للطباعة والنشر
منشورات مكتب التربية لدول الخليج العربي

نور اليقين : محمد الخضري بك
ط ١٩٧٨م
مؤسسة علوم القرآن - دمشق - بيروت

تاريخ الصحابة والتاريخ الإسلامي

أبو بكر الصديق : محمد رضا
ط ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م
دار الكتب العلمية - بيروت

أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر : علي الطنطاوي - ناجي الطنطاوي
ط٢ : ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م
دار الفكر - بيروت

أسد الغابة في معرفة الصحابة : ابن الأثير
دار إحياء التراث العربي - بيروت

الإصابة في تمييز الصحابة : ابن حجر العسقلاني
(ومعه الاستيعاب في أسماء الأصحاب
للقرطبي المالكي)
دار الكتاب العربي - بيروت

البداية والنهاية : أبو الفداء إسماعيل بن كثير
ط٦ : ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م
مكتبة المعارف - بيروت

التاريخ الإسلامي . الجزء الثالث : محمود شاكر
(الخلفاء الراشدون)
ط١ : ١٣٩٩هـ
المكتب الإسلامي بيروت

تاريخ الخلفاء : جلال الدين السيوطي
ط ١ : ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م
المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة

التاريخ الإسلامي : د. حسن إبراهيم
ط ٧ : ١٩٦٤م
مكتبة النهضة المصرية – القاهرة
تاريخ الأمم الإسلامية : محمد الخضري بك
ط٩ : ١٩٥٩م
المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة
حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول : د. شكري فيصل
دار العلم للملايين – بيروت
حياة الصحابة : محمد يوسف الكندهلوي
نشر دار القلم – دمشق
الطبقات الكبرى : ابن سعد
دار صادر – بيروت

النظام السياسي والإداري في الإسلام

الأحكام السلطانية والولايات الدينية : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي
ط٢ : ١٣٨٦هـ – ١٩٦٦م
القاهرة – مصطفى البابي الحلبي وأولاده
اتخاذ القرارات الإدارية (بين النظرية والتطبيق) : د. نواف كنعان
ط١ : ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م
مطابع الفرزدق – الرياض
السياسة الشرعية : محمد عبدالوهاب خلاف
ط : ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م
دار الأنصار – القاهرة
السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية : تقي الدين بن تيمية
ط٤ : ١٩٦٩م
دار المعرفة – بيروت

الشورى : محمد سلامة جبر
ط ١ : ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م
دار البحوث الأهلية - الكويت

الشورى : د. محمود الخالدي
ط ١ : ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
دار الجيل - بيروت .
مكتبة المحتسب - عمان

الشورى بين التأثير والتأثُّر : د. عبدالحميد إسماعيل الأنصاري
ط١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
مطابع الشروق - القاهرة

الشورى سلوك والتزام : د. محمود محمد بابلي
ط : ١٤٠٦ - ١٩٨٦م .
عدد الأجزاء : واحد .
مطبعة الرابطة - مكة المكرمة .
رابطة العالم الاسلامي

الشورى في الإسلام : د. حسن هويدي
ط ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .
مكتبة المنارة الإسلامية - الكويت

الشورى في الإسلام : د. محمود بابلي

الشورى والديمقراطية : علي محمد لاغا
ط ١ : ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع

الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي : عبدالرحمن عبدالخالق
ط ١٩٧٥م دار القلم بالكويت
الدار السلفية

الشورى بين الأصالة والمعاصرة : عز الدين التميمي
ط١ : ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م
دار البشير - عمان
الشورى وأثرها في الديمقراطية : د. عبدالحميد الأنصاري
منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت
الشورى والتشريع في الاسلام : محمد متولي الشعراوي
ط ١ : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م
دار ثابت - القاهرة
الشورى لا الديمقراطية : د. عدنان علي رضا النحوي
ط ١ : ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م
مطابع الفرزدق - الرياض
غياث الأمم في التياث الظلم : أبو المعالي عبدالملك الجوني
تحقيق د. عبدالعظيم الديب ، عبدالله إبراهيم الأنصاري
ط ١ : ١٤٠٠هـ
نشر الشئون الدينية بدولة قطر
الفرد والدولة في الشريعة الإسلامية : د. عبدالكريم زيدان
مكتبة المنار - الكويت
مطابع المكتب الإسلامي - بيروت
رقم ٣ من سلسلة نحو قانون إسلامي عادل
في النظام السياسي للدولة الاسلامية : د. محمد سليم العوا
ط ٦ : ١٩٨٣م
المكتب المصري الحديث - القاهرة
في أصول النظام الجنائي في الإسلام : د. محمد سليم العوا
النظام السياسي في الإسلام . د. محمد عبدالقادر أبوفارس
ط١ : ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
دار القرآن الكريم - بيروت

مبدأ الشورى في الشريعة الإسلامية : د. إسماعيل البدوي
ط ١ : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م
دار الفكر العربي - القاهرة

الدعوة

أصول الدعوة : د. عبدالكريم زيدان
ط ٢ : ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م
مطبعة سلمان الأعظمي - بغداد

تذكرة الدعاة : أبو الأعلى المودودي
ط ١ : ١٣٨٥هـ ١٩٦٦
دار العربية للطباعة والنشر - بيروت

دعاة لا قضاة : حسن الهضيبي

دعوة إلى الإسلام : فاضل الجمالي
ط١ : ١٩٦٣م
دار الكتاب اللبناني - بيروت

الدعوة الإسلامية فريضة شرعية : د. صادق أمين
ط ١٩٧٨ جمعية عمال المطابع
الأردنية - عمان

دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية : د. عدنان علي رضا النحوي
ط ٥ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م
مطابع الفرزدق - الرياض

كيف ندعو الناس : عبدالبديع صقر
ط ٥ : ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م
المكتب الإسلامي - بيروت

لقاء المؤمنين - الجزء الأول : د. عدنان علي رضا النحوي
ط ٣ : ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م
مطابع الفرزدق - الرياض
لقاء المؤمنين الجزء الثاني : د. عدنان علي رضا النحوي
ط ١ : ١٤٠٥هـ
مطابع الفرزدق - الرياض
مذكرات الدعوة والداعية : حسن البنا
ط ٤ : ١٩٧٩م
المكتب الإسلامي - بيروت ، دمشق
مشكلات الدعوة والداعية : فتحي يكن
ط٢ : ١٩٧٠م
من صفات الداعية : د. محمد بن لطفي الصباغ
ط٢ : ١٣٩١هـ ١٩٧١م
المكتب الإسلامي - بيروت
نحو حركة إسلامية عالمية واحدة : فتحي يكن
ط ٣ : ١٩٧٧م
مؤسسة الرسالة - بيروت

التربية الإسلامية

التربية الإسلامية الحرة : أبو الحسن علي الندوي
ط ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م
مؤسسة الرسالة - بيروت
الأخوة والحب في الله : حسني أدهم جرار
ط ١ : ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
دار الضياء - عمان

الدعوة إلى الإسلام : حسني أدهم جرار
ط ١ : ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
دار الضياء عمان

الدعوة إلى الإسلام : مناع القطان
ص ٢ : ١٣٩٢هـ
المكتب الإسلامي - بيروت

مشكلات الشباب في ضوء الإسلام : د. اسحاق فرحان

نحو صياغة إسلامية لمناهج التربية والتعليم : د. اسحاق فرحان ، د. عبداللطيف عربيات ، د. عزة جرادات ، د. عزة العزيزي
ط٢ : ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م
مطابع وزارة الأوقاف

الفقه والتشريع

أعلام الموقعين عن رب العالمين : ابن قيم الجوزية : شمس الدين أبو عبدالله محمد بن بكر
حققه محمد محيى الدين عبد الحميد
ط١ : ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م
دار الفكر - بيروت

بداية المجتهد ونهاية المقتصد : محمد بن أحمد بن رشد القرطبي
ط ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م
مكتبة الكليات الأزهرية

خلاصة تاريخ التشريع الإسلامي : عبدالوهاب خلاف
ط٨ : ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م
الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع

المغني : أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة
مكتبة الرياض الحديثة بالرياض

مصادر التشريع الإسلامي فيما لانصّ فيه : عبدالوهاب خلاف
ط٢ : ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م
دار القلم - الكويت

دراسة الواقع

أ – دراسة واقع العالم الإسلامي والحرب الدائرة عليه :

الإسلام في وجه التغريب : أنس الجندي

الإسلام والحضارة الغربية د. محمد محمد حسين

ط٧ : ١٤٠٥ – ١٩٨٥م

مؤسسة الرسالة – بيروت

الإشاعة : د. أحمد نوفل

ط ٢ : ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م

دار الفرقان – عمان

أعمدة الحكمة السبعة : ت.أ. لورانس

ط ٤ : ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م

منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت

التبشير والاستعمار في البلاد العربية : د. مصطفى الخالدي ، د. عمر فروخ

ط٥ : ١٩٧٣م

المكتبة العلمية – بيروت

جاهلية القرن العشرين : محمد قطب

ط ٤ : ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م

دار الشروق – بيروت القاهرة

الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا : د. يوسف القرضاوي

ط ٤ : ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م

مؤسسة الرسالة – بيروت

حصوننا مهددة من داخلها : د. محمد محمد حسين

ط١ : ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م

مكتبة المنارة الإسلامية – الكويت

ومكتبة الثقافة – قطر

سكان العالم الإسلامي : محمود شاكر
ط١ : ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م
المكتب الإسلامي - بيروت
الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف : د. يوسف القرضاوي
الغارة على العالم الإسلامي : محب الدين الخطيب
فصل الدين عن الدولة : إسماعيل كيلاني
ط١ : ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م
المكتب الإسلامي - بيروت
قادة الغرب يقولون : جلال العالم
دمروا الإسلام أبيدوا أهله :
ط:١ : ١٤٠٣هـ
دار السلام - القاهرة
قسمات العالم الإسلامي المعاصر : مصطفى مؤمن
ط١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م
دار الفتح - بيروت
ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : أبو الحسن علي الحسني الندوي
ط٣ : ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م
مكتبة دار العروبة - القاهرة
مذكرات السلطان عبدالحميد : السلطان عبدالحميد الثاني
ط ١٩٧٨م ترجمة وتحقيق محمد حرب عبدالحميد
دار الأنصار القاهرة

ب - دراسة الواقع والسياسة الدولية :

الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية : د. محمد عزيز شكري
ط ١٩٧٨م
عالم المعرفة - بيروت

تحولات الفكر والسياسة في الشرق الغربي : د. محمد جابر الأنصاري
ط : ١٩٧٠م
عالم المعرفة - الكويت

الحكومة المثالية : جيمي كارتر . ترجمة نظمي لوقا
ط ١٩٧٩م

حكومة العالم الخفية : شيريب سبيريب وفتش ترجمة مأمون سعيد
ط٣ : ١٩٨٠م
دار النفائس - بيروت

الدبلوماسية والميكافيلية في العلاقات العربية - الأمريكية : د. محمد صادق
ط١ : ١٣٩١هـ - ١٩٧١م
منشورات العصر الحديث - بيروت

كيسنجر وصراع الشرق الأوسط : د. سعد الدين إبراهيم
ط١٩٧٥م
دار الطليعة - بيروت

لعبة الأمم : مايلز كوبلاند
ط١ : ١٩٧٠م
إنترناشيونال سنتر - بيروت

مجموعة الضغوط الدولية (القوى الخفية التي تحكم العالم) : جان مينو - ترجمة ومراجعة محمد كامل حسن محمد فوزي محمود - د. جمال عطية
ط١ : ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م

فهرس الكتاب

الشورى وممارستها الإيمانية

كتب للمؤلف

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
أولاً : كتب توجز النهج العام والنظرية العامة للدعوة الإسلامية :		
١	موجز النهج العام للدعوة الإسلامية وأساس لقاء المؤمنين	ط ١
٢	موجز النظرية العامة للدعوه الإسلامية والنهج العام وأساس لقاء المؤمنين	ط ٢
٣	أضواء على طريق النجاة	ط ١
٤	النهج والممارسة الإيمانيّة في الدعوة الإسلامية	ط ٤
٥	كيف تلتقي الجماعات الإسلامية	ط ٢
ثانياً : كتب تفصل النهج العام والنظرية العامة في الدعوة الإسلامية :		
٦	دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية	ط ٦
٧	منهج المؤمن بين العلم والتطبيق	ط ٥
٨	النظرية العامة للدعوة الإسلامية - نهج الدعوة وخطة التربية والبناء	ط ٣
٩	منهج لقاء المؤمنين	ط ٢
١٠	لقاء المؤمنين - أسسه وقواعده - الجزء الأول	ط ٤
١١	لقاء المؤمنين - الأهداف - الجزء الثاني	ط ٤
١٢	العهد والبيعة وواقعنا المعاصر	ط٣
١٣	قبسات من الكتاب والسنة تدبر وظلال - الجزء الأول	ط ٢
١٤	قبسات من الكتاب والسنة تدبر وظلال - الجزء الثاني	ط ١
١٥	الفقه امتداده وشموله في الإسلام بين المنهاج الرباني والواقع	ط١
١٦	الإسلام أركان وبناء - تذكير ونصح	ط٢
١٧	فقه الإدارة الإيمانية في الدعوة الإسلامية	ط ١
١٨	المسؤولية الفردية في الإسلام : أسسها وتكاليفها وتميزها	ط ١
١٩	التربية في الإسلام - النظريّة والمنهج .	ط١
٢٠	النهج الإيماني للتفكير	ط١
٢١	عهد الله والعهد مع الله بين التفلت والالتزام	ط١

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
٢٢	حتى نتدبّر منهاج الله	ط١
٢٣	حتى نغيّر ما بأنفسنا	ط١
٢٤	لؤلؤة الإيمان فريضة طلب العلم	ط١
٢٥	النهج موضوعات ومصطلحات	ط١
ثالثاً : كتب تعرض أهم قضايا التوحيد في واقعنا المعاصر والنهج للدعوة والبلاغ والبيان :		
٢٦	التوحيد وواقعنا المعاصر	ط ٣
٢٧	الحقيقة الكبرى في الكون والحياة	ط ١
٢٨	النية في الإسلام وبعدها الإنساني	ط ١
٢٩	النية إشراقَة في النفس وجمال	ط ١
٣٠	الولاء بين منهاج الله والواقع	ط ٤
٣١	الحوافز الإيمانيّة بين المبادرة والالتزام	ط ٤
٣٢	الخشـــــــوع	ط ١
رابعاً : كتب تدرس بعد القضايا الفكرية في الواقع الإسلامي وأهم أحداثه وتعتبر الملاحم جزءاً من دراسة الواقع :		
٣٣	الشورى وممارستها الإيمانية	ط٤
٣٤	الشورى لا الديمقراطية	ط ٥
٣٥	الصحوة الإسلامية إلى أين ؟	ط ٣
٣٦	التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام	ط ١
٣٧	واقع المسلمين أمراض وعلاج	ط ١
٣٨	بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية	ط ١
٣٩	المسلمون بين العَلمانية وحقوق الإنسان الوضعيةَ	ط ١
٤٠	المرأة بين نهجين الإسلام أو العلمانية	ط١
٤١	على أبواب القدس	ط٣
٤٢	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع	ط ٤
٤٣	عبدالله عزام أحداث ومواقف	ط ١
٤٤	حوار الأديان - دعوة أم تقارب أم تنازل	ط ١

الرقم	اســـــم الكتـــــاب	الطبعـة
٤٥	الانحراف	ط ١
٤٦	كيف ضيِّعت الأمانة التي خلقنا للوفاء بها ؟!	ط ١
٤٧	حرّية الرأي في الميدان	ط ١
٤٨	هذا هو الصراط المستقيم فاتَّبعوهَ !	ط ١
٤٩	المسلمون بين الواقع والأمل	ط ١
خامساً : كتب تدرس الأدب الملتزم بالإسلام والنقد (النصح) الأدبي ، وترد على المذاهب الأخرى :		
٥٠	الأدب الإسلامي - إنسانيته وعالميته	ط ٤
٥١	الأدب الإسلامي في موضوعاته ومصطلحاته	ط ١
٥٢	النقد الأدبي المعاصر بين الهدم والبناء	ط ١
٥٣	أدب الوصايا والمواعظ في الإسلام منزلته ونهجه وخصائصه الإيمانية والفنية	ط ١
٥٤	لماذا اللغة العربية	ط١
٥٥	الحداثة في منظور إيماني	ط٤
٥٦	تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها	ط٣
٥٧	الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام	ط١
٥٨	الموجز في دراسة الأسلوب والأسلوبية	ط١
٥٩	الشعر المتفلّت بين النثر والتفعيلة وخطره	ط ٢
سادساً : الدواوين الشعرية :		
٦٠	ديـوان الأرض المباركـة	ط ٦
٦١	ديوان موكب النور	ط٤
٦٢	ديوان جراح على الدرب	ط ٣
٦٣	ديوان مهرجان القصيد	ط١
٦٤	ديوان عبر وعبرات	ط١
سابعاً : الملاحم الشعرية وتعتبر جزءاً من دراسة الواقع وأحداثه :		
٦٥	ملحمة فلسطين	ط ٥

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
٦٦	ملحمة الأقصى	ط ٢
٦٧	ملحمة الجهاد الأفغاني	ط ٣
٦٨	ملحمة البوسنة والهرسك	ط ٢
٦٩	ملحمة الإسلام في الهند	ط ٢
٧٠	ملحمة القسطنطينية	ط ٢
٧١	ملحمة الغرباء	ط٣
٧٢	ملحمة أرض الرسالات	ط ١
٧٣	ملحمة الإسلام من فلسطين إلى لقاء المؤمنين	ط١
٧٤	لهفي على بغداد	ط ١
٧٥	الجريمة الكبرى في أفغانستان	ط ١
٧٦	أكثروا ذكر هاذم اللذات - أب يرثي ابنه	ط١
٧٧	درّة الأقصى	ط١
ثامناً : كتب في الدعوة الإسلامية باللغة الإنجليزية :		
٧٨	خطة الداعية (The Caller's Plan)	ط ٢
تاسعاً : كتب ترجمت إلى لغات أخرى :		
٧٩	لقاء المؤمنين - الجزء الأول «ترجم إلى اللغة التركية»	ط ١
٨٠	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع «ترجم إلى اللغة التركية»	ط ١
٨١	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع «ترجم إلى اللغة الإنجليزية»	ط ١
٨٢	لماذا اللغة العربية «ترجم إلى اللغة الأوردية»	ط١
عاشراً : كتب في علوم أخري :		
٨٣	دراسة الموجات الالكترومغناطيسية المتوسطة «بالإنجليزية»	ط١



دار النحوي للنشر والتوزيع

هاتف : ٤٩٢٤٣٣٩ - فاكس : ٤٩٣٤٨٤٢

موقع الانترنت : www.alnahwi.com

البريد الإلكتروني : info@alnahwi.com

ص . ب : ١٨٩١ الرياض : ١١٤٤١

المملكة العربية السعودية

الجمع التصويري - جمع الكمبيوتر - والتصميم والإخراج الفني بالتعاون مع :

وكالة وادي العمران للدعاية والاعلان - الرياض - هاتف ٢٨٣١٦٧٥ ـ ٠٥٣٢٠٧٣٥٠

مع هذا الكتاب

الشورى

وممارستها الإيمانية

النهج الإيمانيّ : نهج القرآن والسنة .. هو نهج فريد في حياة البشريّة ، في الفكر والتصوّر، والدراسة والتدبر ، والسعي والممارسة، نهج فريد يحتاجه كافة الناس في جميع العصور، وعلى الأرض كلها . إننا نحاول أن نبرز أهم ملامح هذا النهج الفريد في سلسلة كتبنا : دور المنهاج الربّانيّ، لقاء المؤمنين بجزأيه، منهج المؤمن بين العلم والتطبيق، وكتب الأدب والشعر ، لِنَرْسم نهجاً ونحدد دَرْباً.

يتلفّت المؤمنون اليوم تغشاهم الحيرة، ويعصرهم الأسى، وهم يرون في كل كتاب رأياً، ومع كل صحيفة نهجاً، ولكل فرقة راية .. ويرون دياراً تتهاوى، وأمة تتمزق، وتاريخاً يكاد يُطوى،يتلفتون أسى وهم يرون أن المصائب كلها لم ترفع غشاوة، ولم تنزع أسى، ولم توقظ نوّماً وكسالى . والسكين التي غرزت من عشرات السنين ، إن لم يكن من مئات السنين، مازالت تخترق الضلوع ، وتفتّح الجراح ، وتنساب في أغوار النفس، والدماء تتفجّر، والأنّات تتعالى، ليغيب ذلك كله في كابوس أحلام النائمين..

والمؤمنون لن يجتمعوا أبداً على نزعة بشرية ، ولا راية جاهلية ، ولا نهج كافر، إنهم يجتمعون على كلمة الإيمان ، ونهج القرآن وراية الإسلام ، حين يصبح هذا كله حقيقة حيّة ، وخفقة نابضة ، ومثلاً عاملاً.

لذلك ، قبل أن نصوغ الشورى صياغة إيمانية، وقبل أن نرسم نهجاً ، ونضع خطة ، ونرفع راية قبل أن تكثر الأسماء ، وتتعدّد الرايات، ونخوض في جدل حول الأكثرية والأقلية، وندافع عن الديمقراطية ، قبل هذا كله يجب أن نصوغ أنفسنا، قلوبنا، أفكارنا، أن ندفع دماءنا مُضمَّخة بعبير الإيمان، وأن نستنشق الهواء على أنداء الصدق والإحسان .. قبل أن يملأها العفن ، ويقتلها الخدر، وتسحقها الأحلام..

إن الشورى التي تقوم على هذا النهج الإيماني، تدفع أمّة التوحيد على طريق ممدود، إلى عزّة الإيمان ، وإشراقة الجهاد، ويُمن العمل الصالح، وفرحة النصر، لتكون كلمة الله هي العليا.

ردمك: ٠ - ٧٤ - ٦٨٧ - ٦٠

